الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٨-٢٥-٦٢٥٤-٩٧٧-٩٧٨

ISBN 978-977-6254-25-8

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الرابع والعشرون

الدار العلمية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦).

{قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَم السِّرّ} الْغَيْب {فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا} لِلْمُؤْمِنِينَ {رَحِيمًا} بهم[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الفرقان: ٦]، أي:"قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكفار: إن الذي أنزل القرآن هو الله الذي أحاط علمه بما في السموات والأرض".

قال ابن كثير:"أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج، ماضيا ومستقبلا {أَنزلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ} أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك: ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين، وأن محمد ﷺ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، بل هو الحق، أنزله الرب الذي يعلم سر من في السماوات ومن في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، ومحصي ذلك على خلقه، ومجازيهم بما عزمت عليه قلوبهم، وأضمروه في نفوسهم".

قال الزمخشري:"أى: يعلم كل سر خفى في السموات والأرض. ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أن ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ وبراءته مما تبهتونه به، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه".

عن ابن جريج، " {قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض}، قال: ما يسر أهل الأرض وأهل السماء".

عن زيد بن أسلم قوله: "{يعلم السر}، قال: يعلم سرار العبد".

=

=

قال الضحاك بن مزاحم:"السر ما حدثت به نفسك".

قال ابن عباس:"السر: ما أسر ابن آدم في نفسه".

قال ابن عباس: "خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك يقول للنبي ﷺ: {يعلم ما في السماء والأرض}".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٦]، أي:"، إنه كان غفورًا لمن تاب من الذنوب والمعاصي، رحيمًا بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة".

قال الطبري:"يقول: إنه لم يزل يصفح عن خلقه ويرحمهم، فيتفضل عليهم بعفوه، يقول: فلأن ذلك من عادته في خلقه، يمهلكم أيها القائلون ما قلتم من الإفك، والفاعلون ما فعلتم من الكفر".

عن سعيد بن جبير، قوله:"{غفورا}، يعنى: لما كان منهم في الشرك، {رحيما}، بهم في الإسلام".

قال ابن كثير:"قوله: {إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٧٣ - ٧٤]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه

=

=

وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة سبحانه وتعالى".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف طابق قوله: {إنه كان غفورا رحيما}، هذا المعنى؟

قلت: لما كان ما تقدمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم: يمهل ولا يعاجل".

قال العثيمين: رد الله عليهم بقوله: {قل أنزله الذي يعلم السر}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [الغيب {في السماوات والأرض إنه كان غفورا} للمؤمنين {رحيما} بهم].

قوله: {قل أنزله} أي القرآن، أمر للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم في رد قولهم: {أنزله الذي يعلم السر} ونحن ذكرنا فيما سبق أن القرآن كله قد أمر النبي ﷺ بتبليغه، ولكن إذا جاء حكم من الأحكام أو خبر من الأخبار وأمر النبي ﷺ أن يقوله فهذا يدل على الاهتمام به والعناية به، كأنه وصية خاصة بهذا الأمر، وفي هذا المقام الذي معنا فيه أيضا زيادة على ذلك أنه دعم للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه إذا كان الله هو الذي يلقنه الحجة كان ذلك أبلغ في دعمه وتقويته، يعني كأن الله يلقنه الحجة ليحاج عنه، لكن على لسانه.

قوله: {الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما} قد يبدو للإنسان لأول وهلة أن هذا الجواب غير مقنع، كيف ذلك؟ لأن الرسول ما زال يقول: إن الذي أنزله الله، فكيف يكون هذا الجواب مفحما لهم ومبطلا لقولهم؟

الوجه الأول: أن في القرآن أسرارا وإخبارا بالغيب لا يمكن أن يأتي بها بشر. ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قل أنزله الذي يعلم السر}، ففي أخبار هذا القرآن ما هو من الأسرار التي لا يطلع عليها محمد ﷺ ولا غيره، ولهذا عدل الله سبحانه وتعالى عن قوله:

=

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ

=

قل أنزله الله إلى قوله: {الذي يعلم السر}، يعني ورد في القرآن من الأخبار ما لم يكن معلوما حينها، فيخبر بالخبر فيقع، فالرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكنه أن يعلم ذلك، وإنما الذي يعلمه الله، وهو الذي أنزله، فنأخذ من قوله: {الذي يعلم السر في السماوات والأرض} البرهان القاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام وليس أساطير الأولين؛ لأن فيه إخبارا عن أمور مستقبلة تقع كما أخبر، ولا أظن أن بشرا يتمكن من ذلك، هذا وجه بين جدا.

وجه آخر يمكن أن يؤخذ، وهو أنه إذا كان هذا القرآن من عند محمد ﷺ وينسبه إلى الله، ويجاهد به وعليه أيضا، فإن الله لا يمكن أن يقره على هذا الأمر؛ لأن الله تعالى يعلم السر، وهذا الذي فعله محمد ﷺ على فرض أنه ليس بصحيح هل هو سر أو جهر؟ هو جهر، فإذا كان الله يعلم السر فإنه يعلم الجهر من باب أولى، وإذا كان يعلم الجهر، ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول: إن هذا كلام الله، فإن الله تعالى لا يمكن أن يهمله، ولكان الله سبحانه وتعالى يعاجله بالعقوبة؛ لأن الله ﷻ يقول: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل} بعض الأقاويل ليس كلها {لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين} [الحاقة: ٤٥ - ٤٦]، وهذا هو السر في العدول عن قوله: (قل: أنزله الله) إلى قوله: {قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض}.

وقوله: {إنه كان غفورا رحيما} المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تصرف في إطلاق هذه الآية، فالآية {إنه كان غفورا رحيما} وهو يقول هنا: [{إنه كان غفورا} للمؤمنين {رحيما} بهم]، وهذا التصرف من المصنف في الحقيقة تخصيص لا وجه له، فالله تعالى موصوف بهذا الوصف {إنه كان غفورا} لكل من يستحق المغفرة من مؤمن معه أصل الإيمان لكنه يعمل المعاصي.

فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧).

{وَقَالُوا مَال هَذَا الرَّسُول يَأْكُل الطَّعَام وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاق لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَك فَيَكُون مَعَهُ نَذِيرًا} يُصَدِّقهُ.

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨).

{أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْز} مِنْ السَّمَاء يُنْفِقهُ وَلَا يَحْتَاج إِلَى الْمَشْي فِي الْأَسْوَاق لِطَلَبِ الْمَعَاش {أَوْ تَكُون لَهُ جَنَّة} بُسْتَان {يَأْكُل مِنْهَا} أَيْ مِنْ ثِمَارهَا فَيَكْتَفِي بِهَا وَفِي قِرَاءَة نَأْكُل بِالنُّونِ أَيْ نَحْنُ فَيَكُون لَهُ مَزِيَّة عَلَيْنَا بِهَا {وَقَالَ الظَّالِمُونَ} أَيْ الْكَافِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ {إِنْ} مَا {تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} مخدوعا مغلوبا على عقله[1]، قال تعالى

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٧]، أي:"وقال المشركون: ما لهذا الذي يزعم أنه رسول الله (يعنون محمدًا ﷺ) يأكل الطعام مثلنا، ويمشي في الأسواق لطلب الرزق؟".

قال الطبري: يقول:"وقال المشركون ما لهذا الرسول يعنون محمدا ﷺ، الذي يزعم أن الله بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما نمشي".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ}، يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، {وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ}، أي: يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة".

قال قتادة:"عجب الكفار من ذلك أن يكون رسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق".

=

=

عن السدي قوله: "{يأكل الطعام ويمشي في الأسواق}، قال: هي الطريق".

قال الزمخشري:"وفي هذا القول استهانة وتصغير لشأنه وتسميته بالرسول سخرية منهم وطنز، كأنهم قالوا: ما لهذا الزاعم أنه رسول. ونحوه قول فرعون: {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون}، أى: إن صح أنه رسول الله فما باله حاله مثل حالنا يأكل الطعام كما نأكل، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش".

قوله تعالى: {لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان: ٧]، أي:"فهلا أرسل الله معه مَلَكًا يشهد على صدقه".

قال الطبري:"يقول: هلا أنزل إليه ملَك إن كان صادقا من السماء، فيكون معه منذرا للناس، مصدّقا له على ما يقول".

قال مقاتل:"يعني: رسولا يصدق محمدا ﷺ بما جاء".

قال ابن كثير:"هلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهدا على صِدْق ما يدَّعيه! وهذا كما قال فرعون: {فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم".

قال الزمخشري:"ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى. اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف".

وقرئ: «فيكون»، بالرفع.

قوله تعالى: {أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ} [الفرقان: ٨]، أي:"أو يهبط عليه من السماء كنز من مال".

قال الطبري: يقول: "أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرّف في طلب المعاش".

=

=

قال مقاتل:"يعني: أو ينزل إليه مال من السماء فيقسمه بيننا".

قال ابن كثير:"أي: علم كنز يكون ينفق منه".

قال الزمخشري:"ثم نزلوا أيضا فقالوا: وإن لم يكن مرفودا بملك، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش".

قوله تعالى: {أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا} [الفرقان: ٨]، أي:"أو تكون له حديقة عظيمة يأكل من ثمرها".

قال مقاتل:"يعنى: بستانا يأكل منها، هذا قول النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل ابن خويلد، كلهم من قريش".

قال الطبري: "يقول: أو يكون له بستان {يَأْكُلُ مِنْهَا}".

قال ابن كثير:"أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة".

قال الزمخشري:"ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق كما الدهاقين والمياسير. أو يأكلون هم من ذلك البستان فينتفعون به في دنياهم ومعاشهم".

وقرئ: «أو يكون له جنة»، بالياء، و «نَأْكُلُ مِنْهَا»، بالنون، بمعنى: نأكل من الجنة.

قوله تعالى: {وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} [الفرقان: ٨]، أي:"وقال هؤلاء الظالمون المكذبون: ما تتبعون أيها المؤمنون إلا رجلا به سحر غلب على عقله".

قال الطبري:"يقول: وقال المشركون للمؤمنين بالله ورسوله: {إِنْ تَتَّبِعُونَ} أيها القوم باتباعكم محمدا {إلا رَجُلا} به سحر".

قال مقاتل:"يعني: أنه مغلوب على عقله، فأنزل الله- تبارك وتعالى- في قولهم للنبي ﷺ: أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

=

=
إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاق} [الفرقان: ٢٠]، يقول هكذا كان المرسلون «٤» من قبل محمد ﷺ".

عن البراء قوله: "{الظالمون}، قال: اليهود".

قال ابن جريج:"قاله الوليد بن المغيرة وأصحابه يوم دار الندوة".

قال الزمخشري:"{مسحورا}: سحر فغلب على عقله. أو ذا سحر، وهو الرئة: عنوا أنه بشر لا ملك، وأراد بالظالمين: إياهم بأعيانهم: وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم بالظلم فيما قالوا".

قال العثيمين: قوله: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام}.

(ما) استفهامية، و (لهذا) جار ومجرور خبر المبتدأ، و {يأكل الطعام} الجملة ما محلها من الإعراب؟ نأتي بآية تشبهها حتى يتضح لنا: {فما لهم عن التذكرة معرضين} [المدثر: ٤٩]، كيف نعرب {معرضين}؟ حال. إذن قوله: {يأكل الطعام} الجملة حالية، يعني ما باله آكلا للطعام، كأنهم يقولون: لو كان رسولا لم يأكل الطعام. هذه واحدة.

ثانيا: {ويمشي في الأسواق} يمشي في الأسواق مع الناس لا يترفع ولا يختبئ في بيته، ولا يمشي ومعه جنوده يمينا وشمالا وأماما وخلفا.

ثالثا: لماذا يمشي في الأسواق؟ {لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا}، يعني كأنهم يقولون: ولماذا لم يكن معه ملك؛ لأن {لولا} بمعنى (هلا)، وهي للتحضيض.

وقوله: {ملك} أحد الملائكة، وهو مشتق من الألوكة، وهي لغة الرسالة، وقد قال الله تعالى: {جاعل الملائكة رسلا} [فاطر: ١].

قوله: {فيكون معه} مع الرسول ﷺ {نذيرا} يعني منذرا؛ ليعلم بذلك أنه صادق.

الوجه الرابع: {أو يلقى إليه كنز} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [من السماء ينفقه، ولا
=

=

يحتاج إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش].

قوله: {يلقى إليه كنز} يعني ينزل كنز من السماء، وإنما قلنا: من السماء لأن قوله: {إليه} يدل على الانتهاء والغاية، وإلا من الجائز أن يكون معنى قوله: {أو يلقى إليه كنز} يعني يجد كنزا في الأرض، ولكن (إلى) تفيد الانتهاء والغاية، فيكون معنى هذا: يلقى إليه من السماء، أي ينزل إليه من السماء كنز ليكون ذا مال كثير؛ فلا يحتاج إلى المشي في الأسواق، ولا يصيبه الفقر كما هي حال النبي ﷺ الآن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قالوا: {لولا أنزل إليه ملك} {أو يلقى إليه كنز}.

قال الوزير ابن هبيرة كما في الذيل على طبقات الحنابلة(١/ ٢٦٧): العجب لجهلهم حين أرادوا أن يلقى إليه كنز أو تكون له جنة،ولو فهموا علموا أن كل الكنوز له،وجميع الدنيا ملكه،أو ليس قد قهر أرباب الكنوز وحكم في جميع الملوك؟ وكان من تمام معجزاته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه؛لئلا يقول قائل:قد جرت العادة بأن إقامة الدول،وقهر الأعداء بكثرة الأموال. فتمت المعجزة بالغلبة والقهر من غير مال،ولا كثرة أعوان،ثم فتحت الدنيا على أصحابه،ففرقوا ما جمعه الملوك بالشره،فأخرجوه فيما خلق له،ولم يمسكوه إمساك الكافرين؛ليعلموا الناس بإخراج ذلك المال أن لنا دارا سوى هذه،ومقرا غير هذا،وكان من تمام المعجزات للنبي - ﷺ - أنه لما جاءهم بالهدى فلم يقبل سل السيف على الجاحد؛ليعلمه أن الذي ابتعثني قاهر بالسيف بعد القهر بالحجج،ومما يقوي صدقه أن قيصر(١)وكبار الملوك لم يوفقوا للإيمان به،لئلا يقول قائل:إنما ظهر لأن فلانا الملك تعصب له فتقوى به،فبان أن أمره من السماء لا بنصرة أهل الأرض ا.هـ

قوله تعالى: {أو تكون له جنة} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بستان {يأكل منها} أي من

=

=

ثمارها فيكتفي بها، وفي قراءة: "نأكل" بالنون، أي نحن، فيكون له مزية علينا بها]، قوله [وفي قراءة]، أي سبعية؛ لأن قاعدة المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: "وفي قراءة" فهي سبعية، وإذا. قال: (وقرئ) فهي شاذة. إذن فيها قراءتان {يأكل منها} و"نأكل منها". فهذه خمسة أشياء اعترضوا بها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقال الظالمون إن تتبعون} أي الكافرون للمؤمنين {إن} ما {تتبعون إلا رجلا مسحورا} مخدوعا مغلوبا على عقله].

قوله: {وقال الظالمون} أولا في هذا إظهار في مقام الإضمار؛ لأنه قال قبل: {وقالوا مال هذا الرسول}، وهنا {وقال الظالمون} والإظهار في مقام الإضمار له فوائد:

الفائدة الأولى: أنه يسجل على هؤلاء وصفهم بهذا الظاهر، إن كان كفرا فهو كفر، أو كان ظلما فهو ظلم، أو فسقا فهو فسق، أو إيمانا فهو إيمان، إلى آخره.

الفائدة الثانية: أن هذا الحكم أو هذا القول أو هذا الفعل ظلم من أي إنسان وقع؛ لأنه للتعليل، فهذا القول يعتبر من الظلم، فيكون الأمر شاملا، يعني أن كل من قال فهو ظالم.

الفائدة الثالثة: التنبيه: تنبيه المخاطب، لأن اختلاف الكلام أو اختلاف النسق في الكلام يوجب الانتباه، فالكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم، وربما يسرح، فإذا جاءه شيء على خلاف النمط الأول حصل بذلك الانتباه، وهذه الفائدة لفظية، والفائدتان الأوليان معنويتان.

قوله: {إن تتبعون} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن} ما]، (ما) هذه تفسير لـ {إن}، يعني أن {إن} نافية، وإذا كانت نافية فالمسألة فيها حصر، يعني ما تتبعون إلا رجلا، وهذا أبلغ من قولهم: إنكم تتبعون رجلا مسحورا، يعني كأنهم قالوا: إن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس له حال من الأحوال إلا أنه مسحور، أي:

=

=

مخدوع مغلوب على عقله ومختل العقل بالسحر. ومن العجائب أنهم أحيانا يقولون: إنه ساحر، وأحيانا يقولون: إنه مسحور، وبينهما فرق، لكن مع هذا المبطل كل ما يمكنه من الدعاوي الباطلة يأتي بها، ولو تناقضت.

فننظر الآن إلى هذه الأشياء الست التي قدحوا في النبي ﷺ بها:

أولا: قولهم: {مال هذا الرسول يأكل الطعام} نجيبهم بأنه بشر، فهو محتاج إلى الطعام، وهذا ليس بقادح ما دامت القرائن أو البينات شهدت بصدقه، فإن كونه يأكل الطعام لا يمنع من صدقه؛ لأنه بشر.

ثانيا: قولهم: {ويمشي في الأسواق} نرد عليهم بأن هذا مما يؤيد كونه رسولا، لا مما يناقض كونه رسولا؛ لأن هذا يدل على تواضعه وعلى محبته لأن يكون بين أمته يفيدهم ويستفيدون منه، إذن فهذه كونها دليلا على الرسالة أوضح من كونها مانعا من الرسالة.

ثالثا: قولهم: {لولا أنزل إليه ملك} كأنهم يقولون: ولماذا لم ينزل عليه ملك؟ فيقال: أولا: إنه أنزل إليه ملك لكنه ليس كما طلبوا يمشي معه وينذر، فإن جبريل قد أنزل إلى النبي ﷺ ومعه الوحي، وهذا هو ما يقوله النبي عليه الصلاة والسلام، وأما كونه معه مصاحبا له فهذا لا يقدح في الرسالة إذا لم يكن مصاحبا؛ لأنه لو كان مصاحبا وجاء على غير صفة الملائكة عاد الأمر كما كان، وصارت الحجة التي يحتجون بها أو الشبهة التي يحتجون بها موجودة، ولو جعل في صورة الملك لكان يقضى عليهم إذا لم يؤمنوا؛ لأن الآيات المعينة إذا طلبت ولم يؤمن من طلبها فإنه يهلك، وأما آية انشقاق القمر فليست معينة، ولهذا قيدناها بالآيات المعينة إذا طلبت، أما إذا قالوا: أرنا آية ولم يعينونها فهذا قد لا يهلكون به.

رابعا: قولهم: {أو يلقى إليه كنز} يقولون: لماذا لم يكن هذا غنيا، فكونه قليل ذات اليد يدل على أنه غير رسول، يقولون: أنت رسول فلماذا لم ينزل عليك كنز

=

=

تستغني به عن طلب الرزق؟ بماذا نجيبهم؟ دفع قولهم أن النبي ﷺ خير بين أن تسير معه الجبال ذهبا أو خير بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا، فاختار هذا.

لكن هذه ليست مقنعة لهم، فنقول: الرسالة لا تتوقف على المال، وليس المال دليلا للرسالة؛ لأن هناك أناسا كثيرين أغنياء وليسوا برسل. ثم نقول: إن عدم المال معه قد يكون أكثر لتأييد كونه رسولا؛ لأنه لو نزل إليه مال وكان عنده كنز واتبعه الناس من أجله لصارت المسألة أنهم ما اتبعوه من أجل رسالته، ولقيل: اتبعه الناس من أجل كنزه وغناه. إذن نقول: كونه لم ينزل عليه كنز ليس مانعا من الرسالة؛ لأن ثبوت الرسالة لا يتوقف على الكنز، بل تثبت بدونه، فهذا إبطال لقولهم.

خامسا: قولهم: {أو تكون له جنة يأكل منها} نقول فيها مثل ما قلنا في مسألة الكنز؛ أن هذا ليس بلازم للرسالة، وأنه لو كان له جنة يأكل منها أو (نأكل) على القراءة الثانية، وهي أولى، لقيل: إنهم اتبعوه لأجل الأكل من هذه الجنة.

سادسا: قولهم: {وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} بماذا نرد عليهم؟ نرد عليهم بأن المسحور لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الكلام الذي يعجز عنه العقلاء، فيقال: فهل يمكن لإنسان مسحور مخبول العقل بالسحر أن يأتي بكلام يعجز عنه العقلاء ويتحدى العقلاء أن يأتوا بمثله ولا يستطيعون؟ لا يمكن، هذا واضح جدا، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا}، فالمسحور لا يمكن أن يأتي بمثل هذا الكلام، فنحن لا نقول: إنه يأتي بكلام يمكن نقضه أو لا يمكن، بل لا يمكن إلا أن يأتي بكلام غير متوازن، فكيف بكلام معجز؟.

مسألة: في قوله تعالى: {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق...} ما كان عليه النبي ﷺ وسائر الأنبياء من مخالطة الناس وفعل ما

=

=

يفعلون، وعدم الترفع عما هم عليه من ملبس ومأكل ومشرب ومكسب، وأنه لا يجوز لمن سلك طريق الأنبياء أن يتخذ من الدين سلما إلى دنياه، فيتخذ جاها ومالا وسلطانا لنفسه، ولما كان كفار قريش أصحاب دنيا وحب للسؤدد والعلو والجاه، لم يسلموا للنبي ﷺ؛ لكونه يدعوهم إلى اتباعه وهو مثل الناس في مأكله ومشربه وممشاه، وإنما لم بجعله الله عاليا في ماله وسلطانه عليهم؛ لأنهم سيؤمنون طمعا لا صدقا، وخوفا ورهبة لا رغبة ويقينا، ثم إن دلك سيتخذ سنة من بعده لأتباعه؛ أن يطلبوا الدنيا والعلو والسلطان بالدين، فيصبح الدين سلما لمبتغي الدنيا لا لمبتغي الآخرة، ويدخله كل صاحب طمع، ويحرف الدين لتحقق الغايات، وكل سلطان وصاحب جاه يتخذ النبي ﷺ له أسوة في قصد المال والشرف.

والأصل: أن النفس إن امتلأت من الدنيا، لم يبق للدين شيء، وقد جعل الله فيها لكل واحد نصيبا، ونصيب الدين هو الأكبر.

ويستحب للعلماء ألا يخرجوا عن عادات الناس ما لم تخالف أمر الله، فيكونون مثلهم في ملبسهم ومشربهم ومأكلهم ومسكنهم وممشاهم وقضاء حوائجهم، وألا يتكلفوا حالا تميزهم عنهم، فلا يوجد في الإسلام زي يسمى زي العلماء، ولا لباس يسمى لباس الصالحين؛ وإنما الذي فيه زي المسلمين ولباسهم، فهم فيه سواء، ومن خرج عن هذا اللباس هو الذي امتاز عن المسلمين بالمخالفة؛ كمن يلبس الحرير والذهب من الرجال، ولباس الشهرة والمسبل من الثياب، وقد كان النبي ﷺ يلبس كما يلبس قومه: عمامة وإزارا ورداء، وربما ثوبا وقميصا وجبة، ويتخذ لونا كألوانهم، وحذاء كأحذيتهم، ومركبا كمراكبهم، ومسكنا مثلهم، ويقضي حاجته وحاجة أهله كما يقضي الناس حاجتهم، وهذا هدي جميع الأنبياء من قبله؛ كما قال تعالى: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام

=

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩).

{انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَك الْأَمْثَال} بِالْمَسْحُورِ وَالْمُحْتَاج إلَى مَا يُنْفِقهُ وَإِلَى مَلَك يَقُوم مَعَهُ بِالْأَمْرِ {فَضَلُّوا} بِذَلِكَ عَنْ الْهُدَى {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} طَرِيقًا إلَيْهِ[1].

=

ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا} [الفرقان: ٢٠].

وقد جعل الله هذا التفاضل بين الخلق: رفيع ووضيع، وقوي وضعيف، وغني وفقير، وملك ومملوك، وسيد وعبد - فتنة، ليست بذاتها حقا ولا باطلا، وإنما الذي يميز الحق من الباطل تمييزهما بنفسيهما؛ فالحق حق بنفسه؛ فقد يكون مع عبد وقد يكون مع سيد، وقد يكون مع رفيع وقد يكون مع وضيع؛ قال عكرمة في قوله تعالى: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا} [الفرقان: ٢٠]: هو التفاضل في الدنيا والقدرة وقهر بعضكم لبعض؛ فهي الفتنة التي قال الله: {وكان ربك بصيرا} فهي فتنة وابتلاء للتمايز، وتحقيق سنة التدافع، وتركيب منظومة الكون ليستقيم أمره؛ فإنه لا يصح كون الخلق فيه من جنس ونوع واحد.

(١) قوله تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا} [الفرقان: ٩]، أي:"انظر - أيها الرسول - كيف قال المكذبون في حقك تلك الأقوال العجيبة التي تشبه - لغرابتها- الأمثال؛ ليتوصلوا إلى تكذيبك؟ فبَعُدوا بذلك عن الحق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين الذين شبهوا لك الأشباه بقولهم لك: هو مسحور، فضلوا بذلك عن قصد السبيل، وأخطؤوا طريق الهدى والرشاد".

قال ابن كثير:"أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم "ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر" وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم

=

=

وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: {فضلوا} أي: عن طريق الهدى".

قال ابن عباس:"أي: التمسوا الهدى في غير ما بعثتك به إليهم فضلوا". وروي عن محمد بن إسحاق مثل ذلك.

قال الزمخشري:"أى: قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال النادرة، من نبوة مشتركة بين إنسان وملك. وإلقاء كنز عليك من السماء وغير ذلك، فبقوا متحيرين ضلالا، أو فضلوا عن الحق".

قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} [الفرقان: ٩]، أي:"فلا يجدون سبيلا إليه؛ ليصححوا ما قالوه فيك من الكذب والافتراء".

قال الزمخشري: أي:"لا يجدون قولا يستقرون عليه. أو فلا يجدون طريقا إلى الحق".

قال الطبري:"فلا يستطيعون يقول: فلا يجدون سبيلا إلى الحقّ، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجه الذي ضلوا عنه".

قال ابن عباس:"فلن يستطيعوا أن يصيبوا الهدى في غيره". وروي عن محمد بن إسحاق مثل ذلك.

وعن مجاهد:"{فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلا}، قال: مخرجا يخرجهم من الأمثال التي ضربوا لك".

قال مقاتل:"يقول: لا يجدون مخرجا مما قالوا لك بأنك ساحر".

قال ابن كثير:"وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد، يُصَدّق بعضه بعضا".

قال العثيمين: الاستفهام في قوله: {كيف ضربوا لك الأمثال} للتعجب والإنكار.

وقوله: {الأمثال} يعني الأشباه أو الأوصاف، فالمثل يأتي بمعنى الشبه ويأتي

=

=

بمعنى الصفة، قال الله سبحانه وتعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار} [محمد: ١٥] معنى {مثل} صفة الجنة، قال ﷻ: {مثلهم كمثل الذي استوقد} [البقرة: ١٧]، شبههم كشبه، فالأمثال إما بمعنى الأشباه أو بمعنى الأوصاف. يعني كيف جعلوا هذه الأوصاف التي يقدحون برسالتك بها، انظر إليها متعجبا، والتعجب يقتضي في الغالب الإنكار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كيف ضربوا لك الأمثال} بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه، وإلى ملك يقوم معه بالأمر {فضلوا} بذلك عن الهدى {فلا يستطيعون سبيلا} طريقا إليه].

قوله سبحانه وتعالى: {كيف ضربوا لك} الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، وكونه يخاطب الرسول ﷺ بهذا الإنكار عليهم لا يخفى ما فيه من التأييد والتقوية للرسول ﷺ، وعناية الله تعالى به ﷺ، وهذا أمر معلوم.

وقوله: {فضلوا} الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية، أي فبسبب ما ضربوه لك من الأمثال ضلوا. وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا أورد الشبهات على نفسه أو على من أتى بالحق فإنه يكون سببا لضلاله إذا لم يقبل الإنسان الحق ويدع ما يرد على خاطره من الشبهات حول ذلك الحق، فإنه يكون سببا لضلاله، ولهذا قال: {فضلوا} الفاء عاطفة وتفيد السببية.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في (مفتاح دار السعادة) أنه تكلم مع شيخه ابن تيمية في مسائل فجعل يورد عليه بالنقض، فقال له: "لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة، تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته" وهذا صحيح؛ لأن الإنسان إذا فتح على نفسه باب الشبهات والتساؤلات فإنه يضل، وانظر إلى إرشاد النبي ﷺ الرجل حينما يتساءل الناس: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ من

=

=

خلق كذا؟ حتى يقولوا: من خلق الله؟ فأمر النبي عليه الصلاة والسلام الإنسان إذا وصل إلى هذا الحد أن يستعيذ بالله ولينته، وأرشده إلى أن يقرأ {الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفوا أحد} وفي حديث آخر: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن} فهذه الأشياء التي ترد على القلب إذا استرسل الإنسان معها فسوف تكون سببا لضلاله كما تفيده هذه الآية وآيات أخرى كثيرة، مثل قوله سبحانه وتعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون} [الأنعام: ١١٠]، فالإنسان يجب عليه أن يكون قابلا للحق متشوفا له، ولا يورد على نفسه شبهات؛ لأن الشبهات ما لها حد، والشيطان يحب من ابن آدم أن يرد على قلبه هذه الشبهات ليضل.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه]، المسحور واضح، وقوله: {يأكل الطعام ويمشي في الأسواق}، {أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة} كلها مندرجة في قوله: [والمحتاج إلى ما ينفقه وإلى ملك يقوم معه].

الخلاصة: أن هؤلاء الكفار جعلوا مع الله آلهة، وهذا قدح في التوحيد، ثم زعموا أن القرآن أساطير الأولين، وهذا قدح في القرآن مباشرة، ويتضمن القدح في الله أيضا، والقدح في الرسول ﷺ، ثم بعد ذلك ذكر الله قدحهم في الرسول ﷺ؛ القدح المباشر بهذه الأوجه الستة، وتبين -ولله الحمد- أن هذه الأوجه التي أوردوها قدحا في النبي ﷺ كلها ليست بقدح، بل منها ما يؤيد أنه رسول.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن النبي ﷺ لم يسحر، وكذبوا بذلك الأحاديث المشهورة -بل المتواترة- أن النبي ﷺ سحر، وأن الله أنزل عليه المعوذتين لنقض هذا السحر، وهذا أمر لا شك فيه؛ لأن الأحاديث في ذلك متواترة، لكن هم يقولون: هذه الأحاديث كلها كذب ليست صحيحة؛ لأن القول بأنه مسحور هو قول الكفار، فهل لاستدلالهم بهذه الآية وجه أو لا؟

=

تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠).

=

الرد عليهم بأن نقول: إن هؤلاء الظالمين الذين قالوا: {إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} أرادوا بذلك أن السحر وصف لازم له، وأن كل هذا الكلام الذي يقوله كلام مسحور مخبول، أما السحر الذي طرأ على النبي ﷺ فهو سحر طارئ، ثم مع ذلك ما أثر في الرسالة أبدا، عائشة رضي الله عنها تقول: الذي حصل أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، هذا الذي حصل، وهي مدة وجيزة أيضا، ولم يؤثر هذا في الرسالة، فما قال شيئا في الرسالة مما يمكن أن تتغير به الرسالة في هذه المدة.

فالحاصل: أن الاستدلال بهذه الآية على إبطال أحاديث صحيحة متواترة لا شك أنه جرأة عظيمة، فلو كانت الأحاديث ضعيفة أو كانت الأحاديث مثلا من الأحاديث التي في أدنى مراتب الصحة لكنا نقول: إن هذا له وجه، وأما أحاديث صحيحة مشهورة متواترة ونبطلها بمثل هذا الأمر فلا يمكن، ولذلك الصواب، بل اليقين المتيقن المتعين أن ذلك وقع للرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن الله تعالى أنزل عليه سورتين ثم هدي إلى محل السحر، وسحره كان في بئر أريس، وكان في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر يعني كافورا، كافور الفحل يكون كبيرا ويسع، هذا السحر وضع للرسول عليه الصلاة والسلام في مشط: الذي يكد به الرأس، والمشاطة: الشعر الذي يتناثر مع الكد، وجعل هذا الكافور في البئر الذي كان الرسول ﷺ يأتي إليه، وذهب النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بأن يخرج هذا السحر فأخرج السحر فنقض، فعافاه الله سبحانه وتعالى.

قوله: {فضلوا فلا يستطيعون سبيلا}: {سبيلا} بمعنى طريقا، وهو طريق إلى الهدى، والعياذ بالله، وفي هذا تحذير -كما أشرنا إليه أولا- من أن يتابع الإنسان الشبه التي ترد عليه، وأنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن هذا كله.

{تَبَارَكَ} تَكَاثَرَ خَيْر {الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَك خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ} الَّذِي قَالُوهُ مِنْ الْكَنْز وَالْبُسْتَان {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار} أَيْ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا فِي الْآخِرَة {وَيَجْعَل} بِالْجَزْمِ {لَك قُصُورًا} أَيْضًا وَفِي قِرَاءَة بِالرَّفْعِ اسْتِئْنَافًا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة؛ قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟! حزن رسول الله ﷺ؛ فنزل جبريل عليه السلام من عند ربِّه معزيًا له؛ فقال: "السلام عليك يا رسول الله! ربُّ العزَّة يُقرئك السلام، ويقول لك: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}؛ أي: "يبتغون المعاش في الدنيا"، قال: فبينا جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان؛ إذ ذاب جبريل عليه السلام حتى صار مثل الهدرة، قيل: يا رسول الله ﷺ وما الهدرة؟ قال: "العدسة"، فقال رسول الله ﷺ: "ما لك ذبت حتى صرت مثل الهدرة؟ قال: يا محمد! فتح باب من أبواب السماء ولم يكن فتح قبل ذلك اليوم، وإني أخاف أن يعذب قومك عند تعييرهم إياك بالفاقة"، وأقبل النبي وجبريل عليه السلام يبكيان!!، إذ عاد جبريل عليه السلام إلى حاله، فقال: "أبشر يا محمد! هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك"، فأقبل رضوان حتى سلم، ثم قال: "يا محمد! ربُّ العزَّة يقرئك السلام، ومعه سقط من نور يتلألأ، ويقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده في الآخرة مثل جناح بعوضة"، فنظر النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير به، فضرب جبريل بيده إلى الأرض فقال: "تواضع لله، فقال: يا رضوان! لا حاجة لي فيها؛ الفقر أحبّ إليَّ، وأن أكون عبدًا صابرًا شكورًا"، فقال رضوان عليه السلام: "أصبت أصاب الله بك"، وجاء نداء من السماء فرفع جبريل عليه السلام رأسه، فإذا =

=

السماوات قد فتحت أبوابها إلى العرش، وأوحى الله تعالى إلى جنةِ عدن أن تدلي غصنًا من أغصانها عليه عذق عليه غرفة من زبرجدة خضراء، لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء، فقال جبريل عليه السلام: "يا محمد! ارفع بصرك"، فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم، فإذا منازله فوق منازل الأنبياء فضلًا له خاصة، ومناد ينادي: "أرضيت يا محمد؟! فقال النبي ﷺ: رضيت، فاجعل ما أردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة عندك في الشفاعة يوم القيامة". ويرون أن هذه الآية أنزلها رضوان: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٢٤، ٢٢٥) من طريق إسحاق بن بشر؛ قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: جويبر؛ ضعيف جدًا؛ كما في "التقريب".

الثانية: الضحاك لم يلق ابن عباس.

الثالثة: إسحاق بن بشر الكاهلي، متروك.

وعن خيثمة؛ قال: قيل للنبي ﷺ: "إن شئت أعطيناك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا يعطاه أحد بعدك، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئًا، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة؟ قال: اجمعها لي في الآخرة"؛ فأنزل الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١١/ ٥٠٩، ٥١٠ رقم ١١٨٤٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٦٦ رقم ١٤٩٩١)، والطبري في "جامع البيان" (١٨/ ١٤٠) من طريقين عن الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة به.

=

=

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: حبيب؛ مدلس وقد عنعن.

وعن عبد الله بن عباس ﷺ؛ قال: بينما جبريل عند النبي ﷺ؛ إذ قال: "هذا ملك تدلى من السماء إلى الأرض، ما نزل إلى الأرض قط قبلها، استأذن ربه في زيارتك فأذن له"، فلم يلبث أن جاء، فقال: "السلام عليك يا رسول الله! قال: وعليك السلام، قال: إن الله يخيرك إن شئت أن يعطيك من خزائن كل شيء ومفاتيح كل شيء لم يعط أحدًا قبلك، ولا يعطيه أحدًا بعدك، ولا ينقصك مما دخر لك عنده شيئًا، فقال: لا، بل يجمعها لي في الآخرة جميعًا"؛ فنزلت: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٣٨) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ} [الفرقان: ١٠]، أي:"عَظُمَتْ بركات الله، وكَثُرَتْ خيراته، الذي إن شاء جعل لك - أيها الرسول - خيرًا مما تمنَّوه لك".

قال الزمخشري:"تكاثر خير الذي إن شاء وهب لك في الدنيا خيرا مما قالوا، وهو أن يعجل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور".

عن مجاهد، قوله: "{إن شاء جعل لك خيرا من ذلك}، مما قالوا".

قال قتادة:"أي: مما قال الكفار من الكنز والجنة، جنات تجري من تحتها الأنهار".

قال محمد بن إسحاق:"ثم قال: {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك}، أن تمشي في الأسواق وتلتمس المعاش كما يلتمسه الناس، {جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا}".

=

=

عن خيثمة قال: "قيل: للنبي ﷺ نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها لم نعطها أحدا قبلك لا ينقصك ذلك عند الله شيء قال: اجمعها لي في الآخرة فقال الله ﷻ: {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات}، الآية".

وقرئ: «ويجعل»، بالرفع عطفا على: «جعل».

قوله تعالى: {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الفرقان: ١٠]، أي:"فجعل لك في الدنيا حدائق كثيرة تتخللها الأنهار".

عن مجاهد، قوله:"{جنات تجري من تحتها الأنهار}، قال: حوائط".

قوله تعالى: {وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا} [الفرقان: ١٠]، أي:"وجعل لك فيها قصورًا عظيمة".

قال مجاهد:"بيوتا مبنية مشيدة، كانت قريش ترى البيت من حجارة قصرا كائنا ما كان".

قال السدي:"جعل الله له في الآخرة الجنات والقصور".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تبارك} تكاثر خير {الذي إن شاء جعل لك}]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في أول السورة فسر تبارك بـ (تعالى)، وهنا فسرها بـ (تكاثر خيره)، فهل معنى ذلك أن هذه الكلمة خاضعة للسياق، وأنها تفسر في سياق بمعنى (تعالى) وفي سياق بمعنى (تكاثر خيره)؟ ظاهر صنيع المصنف أنها كذلك وأن هذه الكلمة (تبارك) إن جاءت في سياق فسرت بمقتضاه وإن جاءت في سياق آخر فسرت بمقتضاه، ولكننا أشرنا فيما سبق إلى أنها وإن دلت على التعالي فهي دالة أيضا على كثرة الخير؛ لأنها من البركة، والبركة هي كثرة الخير مع دوامه، مأخوذة من البركة التي هي مجمع الماء، ففيها ماء ثابت وكثير.

قوله: {تبارك} أي تعالى مع كثرة الخيرات {الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك} إلى آخره، جملة صلة الموصول هنا شرطية، أي الجملة التي وصل بها

=

=

الموصول شرطية؛ وهي {إن شاء جعل}، فنستفيد من ذلك أن صلة الموصول تأتي شرطية، وإذا أتت شرطية فلا بد من وجود فعل الشرط وجواب الشرط، ثم نقول: الجملة من فعل الشرط وجوابه صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

قوله: {تبارك الذي} والمراد به الله سبحانه وتعالى: {إن شاء جعل لك خيرا من ذلك} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [الذي قالوه من الكنز والبستان]، ما هو الخير؟ أبدل منه قوله: {جنات تجري من تحتها الأنهار}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي في الدنيا؛ لأنه شاء أن يعطيه إياها في الآخرة {ويجعل} بالجزم {لك قصورا} أيضا، وفي قراءة بالرفع استئنافا].

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي في الدنيا؛ لأنه شاء أن يعطيه إياها في الآخرة]، ليس له داع؛ لأن السياق يغني عن هذا القيد؛ إذ إن هؤلاء يقترحون أن تكون هذه الأمور السابقة لهم في الدنيا، فيقول الله سبحانه وتعالى: {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا}، فالقيد الذي ذكره المصنف كأنه يقول جوابا عن الإيراد الذي يرد علينا؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يعطي رسوله جنة الآخرة، فقيد الآية بالدنيا.

نقول: لا حاجة لهذا القيد؛ لأنهم هم لا يريدون أن الله يجعل له كنزا وجنة في الآخرة، يريدون أن تكون له في الدنيا، فيقول الله: لو شاء أن يجعل لك ذلك لجعل لك خيرا منه، وهي هذه البساتين، وهم يقولون: {أو تكون له جنة يأكل منها} والتي يجعل الله بدلا عنها لو شاء جنات ليست جنة واحدة.

قوله: {يأكل منها} الجنة ربما يؤكل منها، وهي ليس فيها أنهار، يعني يمكن أن يشرب النخيل والأشجار بعروقه، لكن قوله: {جنات تجري من تحتها الأنهار} أبلغ وأتم؛ لأن لجريان الماء في أنهاره شهوة بصرية يتلذذ بها الإنسان عند رؤيته إياها زيادة على كثرة الماء على البستان الذي يكون سببا لكثرة نمائه وقوته.

وقوله: {ويجعل لك قصورا} فيها قراءتان (يجعل) بالسكون و"يجعل" بالرفع،

=

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١).

{بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ} الْقِيَامَة {وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} نَارًا مُسَعَّرَة أَيْ مُشْتَدَّة(١).

=

فعلى قراءة السكون تكون معطوفة على جواب الشرط {إن شاء جعل} {ويجعل}، وعلى قراءة الرفع قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [استئنافا]، ولكنه ليس متعينا على قراءة الرفع، يعني كأنه يقول: وهو يجعل لك قصورا، وليس كذلك، يعني لا يفهم منه هذا الأمر، فهو استئناف من حيث الإعراب، لا من حيث المعنى؛ لكنه من حيث الإعراب يجوز فيه الجزم اتباعا للفظ، ويجوز الرفع استئنافا، ويكون عطف جملة على جملة، يقول ابن مالك في ألفيته:

وبعد ماض رفعك الجزا حسن .....

يعني إذا كان فعل الشرط ماضيا فرفع الجزاء إذا كان مضارعا حسن.

... ... ورفعه بعد مضارع وهن

يعني: ضعف، فهو جائز لكنه ضعيف.

فائدة: عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ في الدفاع عنه، وعناية الله بالرسول في الدفاع عنه ليست عناية به وحده، بل حتى بالأمة؛ لأن ذلك يزيل الشبه التي يحتج بها المبطلون، وإزالة الشبه عن الأمة هذا من رحمة الله تعالى بهم.

(١) قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ} [الفرقان: ١١]، أي:"وما كذبوك؛ لأنك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، بل كذَّبوا بيوم القيامة وما فيه من جزاء".

قال يحيى:"بالقيامة".

قال ابن كثير:"أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال".

=

=

قال الطبري: يقول:"ما كذب هؤلاء المشركون بالله، وأنكروا ما جئتهم به يا محمد من الحق من أجل أنك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد، ولا يصدقون بالثواب والعقاب تكذيبا منهم بالقيامة، وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة".

قال الزمخشري:"{بل كذبوا} عطف على ما حكى عنهم. يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة. ويجوز أن يتصل بما يليه، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بالآخرة".

قوله تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} [الفرقان: ١١]، أي:"وأعتدنا لمن كذب بالساعة نارًا حارة تُسَعَّر بهم".

قال الطبري: "يقول: وأعددنا لمن كذب ببعث الله الأموات أحياء بعد فنائهم لقيام الساعة، نارا تسعر عليهم وتتقد".

قال ابن كثير:"أي: وأرصدنا {لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}، أي: عذابا أليمًا حارًا لا يطاق في نار جهنم".

قال مقاتل:"يعني: وقودا".

عن سعيد بن جبير: "«السَّعِير»: واد من قيح جهنم".

قال يحيى:"اسم من أسماء جهنم".

قال الزمخشري:"«السَّعِير»: النار الشديدة الاستعار".

قال العثيمين: لما ذكر الله ﷻ ما جنى به هؤلاء عليه وعلى وحيه وعلى رسوله والجواب عن ذلك؛ ذكر أمرا آخر، وهو تكذيبهم بالساعة، وأتى بـ(بل) الدالة على الانتقال، وهذا الانتقال ليس إبطالا لما سبق، بل إضافة شيء آخر إليه، وهو قوله: {بل كذبوا بالساعة}، والمراد بالساعة يوم القيامة، وكلمة الساعة تطلق في

=

=

اللغة على كل أمر هام، كأنه لا يوجد إلا هذه الساعة التي يشار إليها بهذا الزمن، وإلا فهي في الأصل لكل مدة من الزمان؛ قليلة كانت أم كثيرة، لكنها تطلق كثيرا على ما يحدث فيه أمر هام، وذلك كما في هذه الآية.

والتكذيب بالساعة يشمل التكذيب بوقوعها رأسا، بأن يقول: لا بعث، أو التكذيب بما يقع فيها من الأمور؛ كالحساب والكتب والصراط والحوض والشفاعة وما أشبه ذلك؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بوقوعه وبما يقع فيه، فإذا كذب به الإنسان رأسا فقد كذب به، وإذا صدق به ولكن كذب بما يقع فيه فهو أيضا مكذب له.

قال المصنف: [{وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا} نارا مسعرة، أي مشتدة]، {وأعتدنا} بمعنى هيئنا {لمن كذب} بالساعة منهم ومن غيرهم، ولهذا أتى بـ (من) الدالة على العموم، ولم يقل: وأعتدنا لهم، وهذا إظهار في موضع الإضمار، وقد سبق أن من فوائد الإظهار في موضع الإضمار العموم والتصريح بالعلة؛ علة الحكم، فقوله: {لمن كذب بالساعة سعيرا} كأن هذا تعليل للحكم الذي هو قوله: {وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا}؛ لأنهم كذبوا بالساعة.

وقوله: {وأعتدنا لمن كذب} يستفاد منه أن النار مخلوقة الآن، وهو كذلك، وقد دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة؛ قال الله تعالى عن آل فرعون: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا} [غافر: ٤٦]، وهذا نص صريح في أنها مخلوقة. وفي الأحاديث الصحيحة ما يدل على ذلك؛ مثل: "اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين؛ نفس في الشتاء، ونفس في الصيف".

وقوله: {سعيرا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [نارا مسعرة]، فجعل فعيلا بمعنى مفعول، أي مسعرة، ويحتمل أن تكون بمعنى فاعل؛ أي حارقة تحرق من دخل فيها، والمعنى لا يتنافى؛ لأنها إذا كانت مسعرة يعني مشتدة الحرارة، أو كانت هي بنفسها

=

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢).

{إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَان بَعِيد سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا} غَلَيَانًا كَالْغَضْبَانِ إِذَا غَلَى صَدْره مِنْ الْغَضَب {وَزَفِيرًا} صَوْتًا شَدِيدًا أَوْ سَمَاع التَّغَيُّظ رؤيته وعلمه[1].

=

تسعر بالناس وتأكلهم، فهذا وهذا متلازمان.

(١) قوله تعالى: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [الفرقان: ١٢]، أي:"إذا رأت النار هؤلاء المكذبين يوم القيامة من مكان بعيد".

قال الطبري: "يقول: إذا رأت هذه النار التي اعتدناها لهؤلاء المكذبين أشخاصهم من مكان بعيد".

قال الزمخشري:"المعنى: إذا كانت منهم بمرأى الناظر في البعد سمعوا صوت غليانها. وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر. ويجوز أن يراد: إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار وشهوة للانتقام منهم".

عن السدي قوله: "{من مكان بعيد}، قال: من مسيرة مائة عام".

قوله تعالى: {سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان: ١٢]، أي:"سمعوا صوت غليانها وزفيرها، من شدة تغيظها منهم".

قال الطبري: "تغيظت عليهم، وذلك أن تغلي وتفور، يقال: فلان تغيظ على فلان، وذلك إذ غضب عليه، فغلى صدره من الغضب عليه، وتبين في كلامه، {وَزَفِيرًا}، وهو صوتها".

قال السدي:"الزفير: الصوت، تغيظا عليهم".

عن فديك، عن رجل من أصحاب محمد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "من يقول علي ما لم أقل فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا" قالوا: يا رسول الله، وهل لها من عين؟ قال: "ألم تسمعوا إلى قول الله {إذا رأتهم من مكان بعيد}... الآية".

قال عبيد بن عمير: "إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خر ترعد

=

=

فرائضه حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه، فيقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي!".

قال ابن عباس:"إن الرجل ليجر إلي النار، فتنزوي، وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ فتقول: إنه ليستجير مني! فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار، فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، قال: فيقول أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف".

قال أبو وائل: "خرجنا مع عبد الله ومعنا ربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا}، الآية صعق فحملوه إلى أهله ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا} غليانا كالغضبان إذا غلى صدره من الغضب {وزفيرا} صوتا شديدا أو سماع التغيظ رؤيته وعلمه].

قوله: {إذا رأتهم من مكان بعيد}، الفاعل هي السعير، وفيه دليل على أنها ترى، وهذه الرؤية يجب أن نحملها على المعنى الحقيقي، ولا يمكن أن نقول: إن هذا من باب الاستعارة، وإنه معنى مجازي؛ لأنه من الجائز أن يخلق الله تعالى فيها إدراك الرؤية، وإن كانت هي ليست من ذوات الرؤية في العادة، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير، كما أن الأرض تسمع وتحدث: {يومئذ تحدث أخبارها} [الزلزلة: ٤]، والمؤذن لا يسمع صوته شجر ولا مدر إلا شهد له يوم القيامة، فنحن نقول: ليس في هذه الآية استعارة، بل هي على المعنى الحقيقي، وأن النار

=

=

ترى؛ لأن الله أخبر أنها ترى {إذا رأتهم} [الفرقان: ١٢]، وما المانع من أن الله يخلق بها هذه الحاسة، بدليل قوله أيضا: {سمعوا لها تغيظا} [الفرقان: ١١٢] التغيظ من المعروف أنه لا يكون إلا من ذوات الشعور، ولكن مع هذا يجب أن نقول: إنه في هذه الآية على ظاهره، وإنها تتغيظ ويسمع لتغيظها صوت مثل تغيظ الإنسان الغضبان، إذا امتلأ صدره غضبا فإنك تسمع له صوتا من الغضب، وهذا دليل على شدة حنقها -والعياذ بالله- على أهلها، وأنها كما قال الله ﷻ في سورة تبارك: {إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور (٧) تكاد تميز من الغيظ} [الملك: ٧ - ٨]، فما ظنك بشيء يلقى الإنسان في جوفه وهو ممتلئ عليه غيظا وحنقا، ماذا يصنع به؟ هذا دليل على شدة عذابها والعياذ بالله، وأنها لا ترحمهم ولا تألو فيهم أي شيء إلا ولا ذمة.

قوله: {سمعوا لها تغيظا} [غليانا كالغضبان إذا غلى صدره غليانا من الغضب]، {وزفيرا}، وهو من مكان بعيد، مما يدل على أن هذا التغيظ والزفير شديد، ما دام يسمع من محل بعيد فإنه شديد.

المصنف رحمه الله يقول: [أو سماع التغيظ: رؤيته وعلمه]، هذا ليس بصحيح، وإن كان محتملا، لكن المعنى الأول أن تحمل الرؤية على الحقيقة، هذا هو الواجب، وقد مر من قواعد التفسير، بل من قواعد كل كلام، أنه يجب أن يحمل على ظاهره وعلى حقيقته ما لم يوجد دليل يصرف عن الحقيقة أو الظاهر، وليس أي دليل، بل لا بد أن يوجد دليل صحيح، وأما ما يظنه الإنسان دليلا وليس بدليل فهذا غير مقبول.

لو قال قائل: بعضهم يقول إن المراد بقوله: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا} أي: إذا رآهم زبانيتها؟

هذا من التحريف في الواقع؛ لأننا قلنا: جائز أن الله تعالى يخلق فيها حاسة الرؤية.

=

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣).

{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف بِأَنْ يُضَيَّق عَلَيْهِمْ وَمِنْهَا حَال مِنْ مَكَانًا لِأَنَّهُ فِي الْأَصْل صِفَة لَهُ {مُقَرَّنِينَ} مُصَفَّدِينَ قَدْ قُرِنَتْ أَيْ جُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقهمْ فِي الْأَغْلَال وَالتَّشْدِيد لِلتَّكْثِيرِ {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} هَلَاكًا فَيُقَال لَهُمْ.

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤).

{لَا تَدْعُوا الْيَوْم ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كثيرا} كعذابكم[1].

=

فإن قال قائل: وردت أحاديث ضعيفة في أن النار لها عينان، وهذه الأحاديث تؤيدنا؟

فالجواب: هذه الأحاديث الضعيفة نحن لا نحتاج إلى تأييدها ما دام عندنا اللفظ صريح {والله على كل شيء قدير} [البقرة: ٢٨٤]، فالذي خلق العين في الإنسان لا يمتنع عليه أن يخلقها في النار، لكن بعض الناس إذا لم يدرك عقله الشيء ذهب يحرفه إلى ما يدركه، ثم إنه يجب أيضا أن نعرف أن أحوال الآخرة لا يمكن أن تقاس بأحوال الدنيا، نحن نعلم أن الناس يحشرون منهم من يسعى نوره بين يديه، ومنهم من هو في ظلمة، وهم في مكان واحد مستو يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، ونعلم أن من الناس من يعرق فيصل العرق إلى كعبيه وركبتيه وحقويه، ومنهم من يلجمه إلجاما، ومع ذلك فهم في مكان واحد، ولا يمكن أن تقاس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا أبدا.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ} [الفرقان: ١٣]، أي:"وإذا أُلقوا في مكان شديد الضيق من جهنم -وقد قُرِنت أيديهم بالسلاسل إلى أعناقهم-".

=

=

قال الطبري: يقول: "وإذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكانا ضيقا، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال".

عن أبي صالح قوله: "{مقرنين}، قال: مكتفين".

عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أنه سئل، عن قول الله ﷻ: {وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين}، قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط».

قال قتادة:"ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو كان يقول: إن جهنم لتضيق على الكفار كتضيق الزج على الرمح".

عن عبد الله بن عمرو: "{إذا ألقوا منها مكانا ضيقا}، قال: مثل الزج في الرمح- وروى عن يحيى بن الجزار"". وروي عن مجاهد نحو ذلك.

قال الزمخشري:"الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وجاء في الأحاديث: أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا، ولقد جمع الله على أهل النار أنواع التضييق والإرهاق، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا".

قوله تعالى: {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان: ١٣]، أي:"دَعَوْا على أنفسهم بالهلاك للخلاص منها".

وفي قوله تعالى: {دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان: ١٣]، أربعة وجوه:

أحدها: ويلًا، قاله ابن عباس.

الثاني: هلاكًا، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"دعوا بالهلاك فقالوا: وا هلاكا. وا هلكتاه".

قال الزمخشري:"الثبور: الهلاك. ودعاؤه أن يقال: وا ثبوراه، أى: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك".

=

=

الثالث: ويلا وهلاكا. قاله قتادة.

الرابع: معناه: وانصرافاه عن طاعة الله، حكاه ابن عيسى.

قال الطبري:"«الثبور» في كلام العرب: أصله انصراف الرجل عن الشيء، يقال منه: ما ثبرك عن هذا الأمر: أي ما صرفك عنه، وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة منه، كما يقول القائل: وا ندامتاه، وا حسرتاه على ما فرطت في جنب الله".

قوله تعالى: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [الفرقان: ١٤]

قال الطبري: {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا}،" أي: مرة واحدة، ولكن ادعوا ذلك كثيرا".

قال الزمخشري:"أى: يقال لهم ذلك: أو هم أحقاء بأن يقال لهم، وإن لم يكن ثمة قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته. أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، فلا غاية لهلاكهم".

عن ابن عباس، قوله:"{لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا}، يقول: لا تدعوا اليوم ويلا واحدا".

قال الضحاك:"فقيل لهم: لا تدعوا بهلاك واحد، ولكن ادعوا بهلاك كثير".

عن قتادة، قوله:"{وادعوا ثبورا كثيرا}، أي: ويلا كثيرا".

قال يحيى {وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا}، أي:"ويلا كثيرا وهلاكا طويلا".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا} بالتشديد والتخفيف]، يعني قراءتين سبعيتين، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن يضيق عليهم و {منها} حال من {مكانا}؛ لأنه في الأصل صفة له {مقرنين}]، إلى آخره.

=

=

قوله: {وإذا ألقوا} في هذا دليل على أنهم -والعياذ بالله- لا يعاملون معاملة رحمة، بل يلقون إلقاء ويطرحون طرحا. وقوله: {مكانا} ظرف عامله قوله: {ألقوا}، وقوله: {منها} في الأصل صفة، ولكن القاعدة عند أهل النحو أن الجار والمجرور إذا تقدم على موصوفه صار حالا منه؛ لأن الصفة لا تتقدم على الموصوف، تقول مثلا: (جاء رجل على بعير راكبا)، فتعرب (راكبا) حالا، لكن لو قدمتها على رجل (جاء راكب) لوجب أن تكون صفة بالمعنى، كذلك الجار والمجرور إذا قلت (جاء رجل على بعير) (على بعير) صفة لرجل، فإذا قدمت (على بعير): (جاء على بعير رجل) وجب أن تكون الصفة هذه حالا؛ لأن الصفة لا تتقدم على الموصوف، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [و {منها} حال من {مكانا} لأنه في الأصل صفة له].

وفي قوله: {وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا} أيضا دليل على أن هذا المكان الذي يلقون منه لا يكون واسعا، بل يضيق عليهم، وهذا قبل دخولها، فكيف إذا دخلوها، ويحتمل أن نفس الأمكنة التي هم فيها في نفس النار تكون ضيقة إذا ألقوا مكانا منها ضيقا، فتكون (من) هذه قريبة من معنى (فيها)، فالمكان نفسه في النار يكون ضيقا، يعني تضيق عليهم؛ لأن كل واحد منهم -والعياذ بالله- يكون في تابوت كما جاء في الحديث؛ في تابوت مغلق عليه.

لو قال قائل: ألا يشكل على هذا أن بعض أجسادهم تفخم في النار؟

نقول: هو نفسه يفخم، ولكن لا يمنع أن يفخم وهو في مكان ضيق، ويمكن أن يكون تفخيمه هذا من أسباب التضييق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مقرنين} مصفدين قد قرنت أي جمعت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، والتشديد للتكثير]، التشديد في قوله: {مقرنين} لأن (مقرن) مأخوذ من (قرن) أو من (قرن)، قرن فهو مقرن، وأصلها من (قرن) بالتخفيف:

=

=

قرنت هذا الرجل أقرنه فهو مقرون، لكنها أتت بالتشديد للتكثير، أو للمبالغة في هذا القرن، وأنهم يقرنون بشدة، فهم إذا {وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هلاكا فيقال لهم {لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا}]، هذا في الحقيقة تصوير بين لحال النار وأهلها يوم القيامة، أنهم قبل أن يدخلوها يسمعون لها تغيظا وزفيرا، وهذا بلا شك يخلع قلوبهم ويرعبهم، ثم إذا ألقوا فيها لا يلقون على سبيل الكرامة، بل يلقون إلقاء، ثم إنهم لا يلقون هكذا مطلقين، ولكن مقرنين، يعني مجموعة أيديهم إلى أعناقهم، ثم إذا ألقوا على هذا الوصف يدعون بالثبور والعياذ بالله {دعوا هنالك ثبورا} يعني: يقولون واهلاكنا واثبورنا، وما أشبه ذلك، فيقال لهم: {لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا}، هذا على سبيل التوبيخ؛ لأن العادة أن الرجل إذا دعا بالثبور في الدنيا رحم، ولكنهم هناك لا يرحمون، يقال لهم: إن دعواكم بالثبور لا تفيدكم شيئا {وادعوا ثبورا كثيرا} فالعذاب سيستمر، وكل هذا يوجب لأهل النار -نسأل الله السلامة منها- أنهم يعذبون عذابا قلبيا وعذابا جسميا، والعذاب القلبي قد يكون في بعض الأحيان أشد من العذاب الجسمي، والعياذ بالله، فهم لا يكرمون لا بالفعل ولا بالاستقبال ولا بالقول.

لو قال قائل: ما ذكر عن هؤلاء الكفار فيما سبق من الآيات يدل على أنهم لا يؤمنون بالبعث، فلماذا نص على تكذيبهم بالبعث؟

صحيح أن ما ذكر عنهم مما سبق يدل على أنهم لا يؤمنون بالبعث؛ لأن من آمن بالبعث لزم أن يعمل له، ولكن هذا في الحقيقة من جملة ما قالوه؛ أنهم كذبوا بالبعث، فهو إضافة إلى ما سبق، لكن ينبغي أن نقول: لماذا ذكر بـ (بل) دون (الواو)، مع أن المعائب أو المساوئ التي سبقت كلها ذكرت بالواو، وهذه ذكرت بـ (بل)؟ قد يوحي هذا بأن من أسباب أقوالهم السابقة أنهم كذبوا بالساعة، يعني

=

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥).

{قُلْ أَذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ الْوَعِيد وَصِفَة النَّار {خير أم جنة الخلد التي وعدها {الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ} فِي عِلْمه تَعَالَى {جَزَاء} ثَوَابًا {وَمَصِيرًا} مَرْجِعًا.

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦).

{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ} حَال لَازِمَة {كَانَ} وَعْدهمْ مَا ذُكِرَ {عَلَى رَبّك وَعْدًا مَسْئُولًا} يَسْأَلهُ مَنْ وُعِدَ بِهِ {رَبّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتنَا عَلَى رُسُلك} أَوْ تَسْأَلهُ لَهُمْ الْمَلَائِكَة {رَبّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّات عَدْن الَّتِي وَعَدْتهمْ}[1].

=

أنهم ليس عندهم إيمان بالساعة، ولو آمنوا بها ما قالوا ما سبق.

لو قال قائل: هل كل كفار العرب ينكرون الساعة؟

الجواب: الظاهر ليسوا كلهم ينكرون هذا، فبعضهم يقر بهذا، لكنه يشرك بالله، ولكن يذكر الله ﷻ الأفعال منسوبة إلى الأمة جميعا، حتى إنه أحيانا يخاطب آخر الأمة بما فعل أولها؛ لأنها ترضى به وتقره، انظر مثلا يخاطب الله بني إسرائيل في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بما فعل أولهم: {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها} [البقرة: ٧٢]، وقوله: {فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم} [البقرة: ٥٤]، مع أن هذا الخطاب لا يتأتى لهؤلاء؛ لأنهم ليسوا هم الذين فعلوا، لكن الأمة الواحدة يكون فعل بعضها فعلا للجميع؛ لأنها ترضى به.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [الفرقان: ١٥]، أي:"قل لهم - أيها الرسول -: أهذه النار التي وُصِفتْ لكم خيرٌ أم جنة النعيم الدائم التي وُعِد بها الخائفون من عذاب ربهم".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالساعة: أهذه النار التي

=

=

وصف لكم ربكم صفتها وصفة أهلها خير؟ أم بستان الخلد الذي يدوم نعيمه ولا يبيد، الذي وعد من اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره ونهاه؟".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه من حال أولئك الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويُلقَون في أماكنها الضيقة مقرَّنين، لا يستطيعون حراكا، ولا انتصارًا ولا فكاكا مما هم فيه -: أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم".

عن عطية السعدي- وكان من أصحاب النبي ﷺ- قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس".

قال النحاس:"حكى سيبويه عن العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة؟ وقد علم أن السعادة أحب إليه، وقيل: هذا للتنبيه، وقيل: المعنى: أذلك خير على غير تأويل من، كما يقال: عنده خير. وهذا قول حسن، كما قال: فشركما لخيركما الفداء

وفي الآية قول ثالث وهو أن الكوفيين يجيزون: العسل أحلى من الخل، وهذا قول مردود لأن معنى: فلان خير من فلان، أنه أكثر خيرا منه، ولا حلاوة في الخل ولا يجوز أن تقول: النصراني خير من اليهودي لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير من الآخر، ولكن يقال: اليهودي شر من النصراني، فعلى هذا كلام العرب".

قوله تعالى: {كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا} [الفرقان: ١٥]، أي:"كانت لهم ثوابًا على عملهم، ومآلا يرجعون إليه في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: كانت جنة الخلد للمتقين جزاء أعمالهم لله في الدنيا بطاعته، وثواب تقواهم إياه، ومصيرا لهم، يقول: ومصيرا للمتقين يصيرون إليها في

=

=

الآخرة".

قال السمعاني:"أي: مجازاة ومرجعا".

قال ابن كثير:"جعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها".

عن قتادة قوله: "{كانت لهم جزاء}، أي: جزاء من الله بأعمالهم. {ومصيرا}، أي: منزلا".

قال الزمخشري:"إنما قيل: {كانت}، لأن ما وعده الله وحده فهو في تحققه كأنه قد كان. أو كان مكتوبا في اللوح قبل أن برأهم بأزمنة متطاولة: أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم".

قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} [الفرقان: ١٦]

أي: لهؤلاء المطيعين في الجنة ما يشتهون من ملاذِّ النعيم، متاعهم فيه دائم، كان دخولهم إياها على ربك - أيها الرسول - وعدًا مسؤولا يسأله عباد الله المتقون، والله لا يخلف وعده.

قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ} [الفرقان: ١٦]، أي:"لهؤلاء المطيعين في الجنة ما يشتهون من ملاذِّ النعيم".

قال الطبري: "يقول: لهؤلاء المتقين في جنة الخلد التي وعدهموها الله ما يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين".

قال ابن كثير: أي:"من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب أحد".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ} [الفرقان: ١٦]، أي:"ماكثين فيها أبدًا سرمدًا بلا زوال ولا انقضاء".

=

=

قال الطبري: "يقول: لابثين فيها ماكثين أبدا، لا يزولون عنها ولا يزول عنهم نعيمها".

قال ابن كثير: "وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوا، ولا انقضاء، لا يبغون عنها حوَلا. وهذا من وَعْد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم".

قوله تعالى: {كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} [الفرقان: ١٦]، أي: "كان دخولهم إياها على ربك - أيها الرسول - وعدًا مسؤولا يسأله عباد الله المتقون، والله لا يخلف وعده".

قال ابن كثير: "أي: لا بد أن يقع وأن يكون".

قال الفراء: "يقول: وعدهم الله الجنة فسألوها إياه في الدنيا إذ قالوا: {ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك}، يريد على ألسنة رسلك، وهو يوم القيامة غير مسئول. وقد يكون في الكلام أن تقول: لأعطينك ألفا وعدا مسئولا أي هو واجب لك فتسأله لأن المسئول واجب، وإن لم يسأل كالدين".

قال الطبري: "وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم ذلك في الدنيا حين قالوا: {وآتنا ما وعدتنا على رسلك}، يقول الله تبارك وتعالى: وكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي وصف صفتها في الآخرة وعدا وعدهم الله على طاعتهم إياه في الدنيا، ومسألتهم إياه ذلك".

قال ابن عباس: "فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه".

قال ابن زيد: "سألوه إياها في الدنيا، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم إذ سألوه أن يعطيهم، فأعطاهم، فكان ذلك وعدا مسئولا كما وقت أرزاق العباد في الأرض قبل أن يخلقهم فجعلها أقواتا للسائلين، وقت ذلك على مسألتهم، وقرأ: {وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين}".

=

=

قال يحيى:"سأل المؤمنون الله الجنة فأعطاهم إياها. وقال بعضهم: سألت الملائكة الله للمؤمنين الجنة، وهي في سورة حم المؤمن: {ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم} [غافر: ٨] إلى آخر الآية".

قال محمد بن كعب: "أي: يسأله، وهو قول الملائكة -صلى الله عليه-:"ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم".

قال السعدي:"يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟

لقد وضح الحق واستنار السبيل فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قل أذلك} المذكور من الوعيد وصفة النار {خير أم جنة الخلد التي وعد} ها {المتقون كانت لهم} في علمه تعالى {جزاء} ثوابا {ومصيرا} مرجعا].

الخطاب في {قل} للرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك لغير، ولهذا يمكن أن نقول: إن الخطاب لكل من يتأتى خطابه، يعني الرسول ﷺ وغيره، ولكن الأقرب أنه للنبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ولأمته ما لم يدل الدليل على تخصيص، فنحن كل واحد يمكن أن يقول مثل هذا، فيقول للمكذبين الذين وعدوا بالنار: أذلك المذكور من الوعيد الذي لا بد أن يقع {خير أم جنة الخلد}؟ فالجواب: بل جنة الخلد بلا شك.

وهنا إشكال، وهو أنه قال: {خير أم جنة الخلد}، مع أن ذلك لا خير فيه إطلاقا، فكيف يمكن أن يقارن بما فيه الخير المطلق؟

=

=

الجواب: أن هذا من باب التنزل مع الخصم، ولا بأس أن تأتي مثل هذه المقارنة، وقد قارن الله عليه الصلاة والسلام بين شيئين بينهما من التباين أعظم من التباين في وعيد أهل النار ووعد أهل الجنة؛ فقال سبحانه وتعالى: {الله خير أما يشركون} [النمل: ٥٩]، ومعلوم أن الله خير وأنه لا يمكن لأي عاقل أن يقارن بين هذا وهذا، لكن لما كان المخاطبون يساوون غير الله بالله صار من باب التنزل معهم أن نخاطبهم بهذا ونقول: {الله خير أما يشركون}.

وقوله: {أذلك خير أم جنة الخلد} أضافها إلى الخلد من باب إضافة الموصوف إلى صفته، يعني الجنة التي هي مكان الخلد، والخلد معناه المكث، وقد صرح الله تعالى كثيرا بالتأبيد في خلود أهل الجنة، وأما أهل النار فالتأبيد ورد في ثلاث آيات من القرآن؛ في سورة النساء وفي سورة الأحزاب وفي سورة الجن؛ ففي سورة النساء: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا} [النساء: ١٦٨ - ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا (٦٤) خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا} [الأحزاب: ٦٤ - ٦٥]، وفي سورة الجن: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣].

وفي هذا رد واضح على من قال: إن عذاب النار غير مؤبد، وممن مال إلى هذا القول -وهو من أغرب ما يكون- ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث كان يميل إلى أن عذاب النار لا يؤبد، وأنه لا بد أن ينتهي، ولكن لا يقول: إنه ينتهي ثم ينتقل أهل النار إلى الجنة، لا، لكن ينتهي بمعنى أنها تفنى ومن فيها، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكره في شفاء العليل، وجزم به في أول الكلام، ثم ساق الآثار في هذا.

والصواب الذي لا شك فيه ما عليه جمهور أهل السنة، وحكي إجماعا أن النار مؤبدة هي وأهلها، وهذا لا ينافي رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى قد أعذر إلى هؤلاء

=

=

وأقام عليهم الحجة، فهم الذين جنوا على أنفسهم.

وأما الاستثناء في هود فقد استثنى من قوله: {ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك} [هود: ١٠٧]، فإنه لو قيدت بدوام السموات والأرض لكان لها أمد، فلما قال: {إلا ما شاء ربك} فهذا ما خرج عن دوام السموات والأرض، فهذا معنى الاستثناء.

وأما قوله سبحانه وتعالى: {خالدين فيها إلا ما شاء الله} [الأنعام: ١٢٨]، نقول: هذا الاستثناء: {إلا ما شاء الله} دلت النصوص على أنه لا يشاء أن لا يخلدوا، فكأن هذا الاستثناء يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمنع العذاب عنهم، وأنه ليس أمرا محتما عليه، بل هو في مشيئته، فالاستثناء إذن مفسر بالآيات الصريحة الواضحة أنه تعالى لا يشاء أن يرفع العذاب عنهم؛ لأنه أخبر، ولا يخلف الله الخبر بأن عذابهم مؤبد.

لو قال قائل: ما مناسبة قوله: {فعال لما يريد} [هود: ١٠٧]، بعد قوله: {إلا ما شاء ربك} [هود: ١٠٧]؟

الجواب: كأنه يشعر أن أحدا لو قال: كيف يفعل الله سبحانه وتعالى هذا مع أنه عذاب دائم، ورحمته وسعت كل شيء؟ فقال: إنه فعال لما يريد، مثلما قال: {عطاء غير مجذوذ} [هود: ١٠٨]، وفي الحقيقة هذه الاحتمالات، وإن كانت قد يكون لها وجه، لكن ما دام عندنا نصوص صريحة محكمة، فالواجب على المؤمن أن يحمل المتشابه على المحكم، ما دام أن المسائل في الآيات الثلاث هذه احتمال فإن عندنا شيئا لا يحتمل وهو التصريح بالتأبيد، وكما هو معروف أن هذا خبر، والخبر لا يدخله النسخ ولا التعيين.

لو قال قائل: العرب تتمدح بإخلاف الوعيد دون إخلاف الوعد؟

الجواب: الله جل وعلا يتمدح بأنه لا يخلف، وأن خبره صدق، والوعيد الذي

=

=

يتمدح الله به هو ما يدخل تحت المشيئة، ما سوى الشرك، مثلا يوجد وعيد على المعاصي التي دون الشرك، فإذا عفا الله عنها فهذا طيب ويمدح عليه سبحانه وتعالى.

لو قال قائل: ما تقولون في قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لو لبث أهل النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه"؟

الجواب: لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغير عمر، يخاطب بقوله سبحانه وتعالى: {خالدين فيها أبدا}.

لو قيل: كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس صريحا.

نقول: حتى لو كان كلامه صريحا وقال: سيخرجون، نقول: لا يخرجون، ما دام توجد آيات صريحة، وأيضا قوله تعالى: {لابثين فيها أحقابا (٢٣) لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا} [النبأ: ٢٣]، هذه لا تدل على التقييد؛ لأن أحقابا يعني طويلة لا منتهى لها، هذا هو المعنى، والإنسان إذا تصور أنه يبقى في النار ليس أحقابا بل ثانية من الزمن، وهو عاقل، فسوف يتجنب عمل أهل النار، فكيف بمن يلبثون فيها أحقابا؟ ! فهي لا تدل على التقييد، ومن زعم أنها تدل على التقييد وقال: إن الأحقاب هذه مقيدة بما بعدها، يعني أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا وأحقابا أخرى يذوقون، فهذا ليس بصحيح، بل إن المعنى المبالغة في ذلك، وأنهم لابثون فيها دهورا عظيمة طويلة لا منتهى لها.

قوله: [{جنة الخلد التي وعد} ها {المتقون}]، أتى المصنف بـ (ها) وهي مفعول ثان لـ {وعد} لأن (وعد) مما ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فالمفعول الأول محذوف، والمفعول الثاني نائب الفاعل {المتقون}، وقد سبق كثيرا أن المتقي هو من اتخذ وقاية من عذاب الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن هذا أجمع ما قيل في التقوى وأنسب ما يكون للفظها؛ لأنها

=

=

من (اتقى) من الوقاية.

وقوله: {وعد المتقون} الذي وعدهم الله ﷻ، وحذف الفاعل هنا للعلم به؛ كقوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، والخالق هو الله ﷻ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كانت لهم} في علمه]، تقييد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الكينونة في علمه لأن (كان) فعل ماض، والجنة ستكون مصيرا، فلهذا قيد الكينونة التي عبر عنها بالفعل الماضي، قيدها في علم الله، يعني لا بحسب الواقع؛ لأن الواقع لم تكن، وإنما ستكون، ولكن هذا بناء على أن (كان) يراد بها الزمن، مع أن (كان) إذا تأمل الإنسان مواضعها في القرآن وفي السنة وجدها أنها أحيانا تدل على مجرد الحدث، لا على الزمن؛ لأن الفعل كما هو معروف يدل على زمن ومعنى، فـ(كان) دائما تأتي للدلالة على مجرد المعنى فقط، يعني التي وعد المتقون وهي لهم جزاء ومصير، وعلى هذا فلا حاجة إلى التقدير الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا هو الأوضح، ولا حاجة إلى أن نقدر أنها كانت في علم الله، بل هي كانت، أي: هي جزاء، فنجرد (كان) من الدلالة على الزمن، وإذا جردناها كما ترد كثيرا في اللغة العربية سلمنا من هذا التقدير الذي جاء به المصنف. ومثلها قوله: {إن الله كان غفورا رحيما} [النساء: ٢٣]، مجردة عن الزمن؛ لأن الله ما زال ولا يزال غفورا رحيما، عندما نأتي بـ(كان) ونقول: المراد بها الزمن والحدث تكون معفرة الله ورحمته فيما سبق، أما الآن فليس غفورا رحيما! لكن هذه يراد بها مجرد الحدث، يعني أنه متصف بالمغفرة والرحمة، ومثلها هذه الآية. و(كان) دائما تدل على مجرد الحدث، لا على الزمن.

لو قال قائل: إن قوله سبحانه وتعالى: {إن الله كان غفورا رحيما} يؤتى بها لكي تتناسب مع رؤوس الآي؟

فالجواب: ليس بلازم، أحيانا تأتي متناسبة وأحيانا تأتي غير متناسبة. المهم أن

=

=

(كان) تأتي دائما في اللغة العربية لا يراد بها الزمن، وإنما يراد بها مطلق الحدث، يعني أن هذا الأمر هو الواقع، فهنا قوله: {كانت لهم جزاء ومصيرا} من المعلوم أن المتقين الآن ما دخلوا الجنة ولا صاروا إليها، ولكنهم سيصيرون لذلك، فاحتاج المصنف أن يقدر (في علمه) إذ كانت في علم الله، ولكننا نقول: لا حاجة لهذا التقدير؛ لأن (كان) مسلوبة الدلالة على الزمن.

وقوله: {جزاء ومصيرا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثوابا]، والذي جعل هذا الثواب لهم هو الله ﷻ. ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ومصيرا} مرجعا]، متى تكون مصيرا؟ تكون مصيرا من حين يموتون، قال ﷻ: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة} [النحل: ٣٢]، وليس المراد أنهم يدخلون الجنة التي في السماء فور موتهم، ولهذا يفتح له باب إلى الجنة ويفرش له فراش من الجنة، ويلبس بلباس من الجنة، فالمتقون من حين يموتون يدخلون الجنة، كما أن أهل الجحيم من حين يموتون يذوقون عذاب الجحيم.

وأنا قد سمعت البارحة واحدا يقرأ في كتب المواعظ، وفي كتب المواعظ يأتون بالموت والدود مثل أكله الدود والصديد وهذه الأشياء، في الحقيقة إنما تكون على الجسم فقط، والناس إذا شعروا بهذا الشيء لا يفرحون بالموت، بل ينفرون منه كثيرا، فالذي ينبغي أن يوعظ الإنسان بما يكون على روحه، فيقال مثلا: إنه إذا مات وهو ليس من أهل التقوى يكون له من العذاب كذا وكذا إلى آخره، وإذا كان من أهل التقوى يكون في نعيم، ومن أهل الجنة، لأجل أن المؤمن يفرح، أما أننا نذهب ونوجه الناس إلى التخويف من الأمر الحسي المادي فقط فهذا في الحقيقة مما يسيء إلى الناس، فعندما يسمع الإنسان هذا الشيء هل يكون مطمئنا للموت؟ لا، أبدا، ينفر منه، لكن عندما يسمع أنه إذا كان مؤمنا دخل الجنة من حين ما يموت، تجده لا أقول: يفرح بالموت، لكنه يستبشر بهذا الوعد الذي يكون

=

=

له، فهذا هو الذي ينبغي أن ينشأ الناس عليه، ما ينبغي أنهم يذكر لهم من الأمور المادية فقط، ولذلك لو تأملت القرآن كله لوجدت أن هذه الأمور المادية ليس لها ذكر في القرآن، إنما يذكر في القرآن ما يكون على الروح من النعيم أو العذاب، حتى يستبشر الإنسان ويفرح ويعمل لهذا النعيم ويخاف ويرهب ويهرب من هذا الجحيم.

هذه المسألة أحببنا أن ننبه عليها لأنها توجد كثيرا في كتب الوعظ، فمثلما يوجد في كتب الوعظ أشياء كثيرة ترغب فيما نهى عنه الشرع، فإنها ترغب في الأمور التي نهى عنها الشرع، مثلما يذكرون عن بعض العباد الذين يعذرون بجهلهم أنهم كانوا يقومون الليل كله في جميع أعمارهم، وقالوا: إن فلانا بقي أربعين سنة يصلي الفجر بوضوء العشاء، قصدهم بهذا الترغيب، هذا ضد ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام، فيكون هذا من المحادة لله ورسوله، فهم يأتون بأمور منكرة لا يعرفونها، وأنا أبين ذلك لأن طلاب العلم يسمعون مثل ما أسمع، فإذا حصل أن قارئا مثلا من الأئمة يقرأ في مثل هذه الكتب فإنه يجب علينا أن نتكلم معه، ليس أمام الناس، لا؛ لأن العوام كما هو معروف يكونون مع إمامهم، فيمكن أن تقوم بحق وهم يقومون عليك، لكن من الممكن إذا انتهى تقول: يا أخي، فتأتي به بطمأنينة وتقول: أنت إمام يقتدى بك والعوام يقولون: (ما قيل في المحراب فهو صواب)، فيجب أن تعرف أن هذا خلاف الشرع. وتبين له ما استطعت من البيان حتى يكون الأئمة الذين يقتدى بهم الآن على صواب.

لو قال قائل: هل حديث ضغطة القبر صحيح؟

الجواب: ضغطة القبر لا أعرف في صحتها دليلا، ورد في قصة سعد بن معاذ، ولكن لا يحضرني الآن هل هو صحيح أم لا؟ هو قطعا ليس في الصحيحين، لكن لا أدري هل يصل إلى درجة الصحة أم لا، لكن مهما كان ضغطة القبر ليست

=

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧).

{ويوم نحشرهم} بِالنُّونِ وَالتَّحْتَانِيَّة {وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره مِنْ

=

بشيء بالنسبة لما يقولون وما يصفون من حال الميت، وهم يركزون على مسألة الجسم، حتى إن الناس مهما كانت أعمالهم الصالحة يقعون في القنوط.

لو قال قائل: هل فناء الجسم أو بقاؤه دليل على الصلاح؟

فالظاهر: أن بقاءه يدل على الصلاح؛ لأنه ما يبقى إلا كرامة؛ لأن الأصل أن الأجسام تأكلها الأرض إلا الأنبياء؛ فإنهم لا تأكلهم الأرض، وفناؤه لا يدل على أن الإنسان ليس من أهل الخير، لكن بقاء الجسم قد يقع كرامة لبعض أهل الخير.

لو قال قائل: وهل الأرض لا تأكل أجساد الشهداء؟

قلنا: الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء فقط، وهو من باب الكرامة، وكذلك قصة عمر لما حفروا القبور، لكن في شهداء أحد من وجد أن الأرض قد أكلت بعض جسمه، ليس كل جسمه.

وقوله: {لهم فيها ما يشاءون} هذه الآية تدل على أن كل ما يشاءون فهو لهم، وفي سورة (ق) أن الله قال: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} [ق: ٣٥]، يعني عند الله مزيد على ما يشاؤه الإنسان؛ لأن الإنسان مهما بلغ فإن تصوره وإرادته قاصرة، فقد يشاء أشياء ويخفى عليه من النعيم أشياء فيكملها الله سبحانه وتعالى له، ولهذا قال: {لهم فيها ما يشاءون}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لهم فيها ما يشاءون خالدين} حال لازمة]، الحال اللازمة (خالدين)، ما معنى حال لازمة؟ هل هناك حال لازمة وحال عارضة؟

فالجواب: نعم، إذا كانت الحال ليست لازمة لصاحبها فهي حال عارضة، تقول: أقبل الرجل راكبا، هذه حال عارضة؛ لأنه قد يقبل غير راكب، ماشيا.

الْمَلَائِكَة وَعِيسَى وَعُزَيْر وَالْجِنّ {فَيَقُول} تَعَالَى بِالتَّحْتَانِيَّة وَالنُّون لِلْمَعْبُودِينَ إثْبَاتًا لِلْحُجَّةِ عَلَى الْعَابِدِينَ {أَأَنْتُمْ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْن الْمُسَهَّلَة وَالْأُخْرَى وَتَرْكه {أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ} أَوْقَعْتُمُوهُمْ فِي الضَّلَال بِأَمْرِكُمْ إيَّاهُمْ بِعِبَادَتِكُمْ {أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيل} طَرِيق الْحَقّ بِأَنْفُسِهِمْ.

قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨).

{قَالُوا سُبْحَانك} تَنْزِيهًا لَك عَمَّا لَا يَلِيق بِك {مَا كَانَ يَنْبَغِي} يَسْتَقِيم {لَنَا أَنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونك} أَيْ غَيْرك {مِنْ أَوْلِيَاء} مَفْعُول أَوَّل وَمِنْ زَائِدَة لِتَأْكِيدِ النَّفْي وَمَا قَبْله الثَّانِي فَكَيْفَ نَأْمُر بِعِبَادَتِنَا {وَلَكِنْ مَتَّعْتهمْ وَآبَاءَهُمْ} مِنْ قَبْلهمْ بِإِطَالَةِ الْعُمُر وَسَعَة الرِّزْق {حَتَّى نَسُوا الذِّكْر} تَرَكُوا الْمَوْعِظَة وَالْإِيمَان بِالْقُرْآنِ {وكانوا قوما بورا} هلكي قال تعالى.

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩).

{فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ} أَيْ كَذَّبَ الْمَعْبُودُونَ الْعَابِدِينَ {بِمَا تَقُولُونَ} بِالْفَوْقَانِيَّةِ أَنَّهُمْ آلِهَة {فَمَا يَسْتَطِيعُونَ} بِالتَّحْتَانِيَّة وَالْفَوْقَانِيَّة أَيْ لَا هُمْ وَلَا أَنْتُمْ {صَرْفًا} دَفْعًا لِلْعَذَابِ عَنْكُمْ {وَلَا نَصْرًا} مَنْعًا لَكُمْ مِنْهُ {وَمَنْ يَظْلِم} يُشْرِك {مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} شَدِيدًا فِي الْآخِرَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الفرقان: ١٧]، أي:"ويوم القيامة يحشر الله المشركين وما كانوا يعبدونه من دونه".
=

=

قال الطبري: يقول:"ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة، العابدين الأوثان، وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم".

وقرئ: «نحشرهم» بالنون.

عن قتادة، قوله: "{يوم}، قال: يوم القيامة".

قال ابن عباس:"يحشر كل شيء حتى إن الذباب ليحشر".

عن مجاهد::"{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ}، قال: حشر الموت، قوله: {وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ}: هؤلاء عيسى وعزير والملائكة".

قوله تعالى: {فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـؤُلَاءِ أَمْ هُـمْ ضَـلُّوا السَّبِيلَ} [الفرقان: ١٧]، أي:"فيقول تعالى للمعبودين تقريعًا لعبدتهم: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم؟ أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم؟".

قال الطبري: "يقول: فيقول الله للذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء: يقول: أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى، ودعوتموهم إلى الغي والضلالة حتى تاهوا وهلكوا، أم هم ضلوا السبيل، يقول: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق وسلكوا العطب".

قال ابن كثير:"أي: فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُم} إلى آخر الآية؛ [المائدة: ١١٦ - ١١٧]".

=

=

عن مجاهد: "{أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء}، قال: عيسى وعزير والملائكة".

عن مقاتل بن حبان، "يعنى قوله: {أم هم ضلوا السبيل}، يقول: قد أخطأ قصد السبيل".

يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم.

وقوله- تعالى-: وَيَوْمَ منصوب على المفعولية بفعل مقدر، والمقصود من ذكر اليوم: تذكيرهم بما سيحدث فيه من أهوال حتى يعتبروا ويتعظوا، والضمير في «يحشرهم» للكافرين الذين عبدوا غير الله- تعالى-.

وقوله: وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ معطوف على مفعول «يحشرهم» والمراد بهؤلاء الذين عبدوهم من دون الله: الملائكة وعزير وعيسى وغيرهم من كل معبود سوى الله- تعالى-.

والمعنى: واذكر لهم- أيها الرسول الكريم- حالهم لعلهم أن يعتبروا يوم نحشرهم جميعا للحساب والجزاء يوم القيامة، ونحشر ونجمع معهم جميع الذين كانوا يعبدونهم غيرى.

ثم نوجه كلامنا لهؤلاء المعبودين من دوني فأقول لهم: أأنتم- أيها المعبودون- كنتم السبب في ضلال عبادي عن إخلاص العبادة لي، بسبب إغرائكم لهم بذلك أم هم الذين من تلقاء أنفسهم قد ضلوا السبيل، بسبب إيثارهم الغي على الرشد، والكفر على الإيمان؟.

والسؤال للمعبودين إنما هو من باب التقريع للعابدين، وإلزامهم الحجة وزيادة حسرتهم، وتبرئة ساحة المعبودين.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: وَإِذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ، قالَ سُبْحانَكَ.

=

=

وقوله- ﷻ: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ: أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ قالُوا: سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ...

قال الرازي ما ملخصه: فإن قيل: إنه- سبحانه- عالم في الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة السؤال؟.

والجواب: هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين، كما قال- سبحانه- لعيسى: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ولأن أولئك المعبودين لما برءوا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم، صار تبرّؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم.

وقال- سبحانه- أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ولم يقل. ضلوا عن السبيل، للإشعار بأنهم قد بلغوا في الضلال أقصاه ومنتهاه.

ثم بين- سبحانه- بعد ذلك ما أجاب به المعبودون فقال: قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْمًا بُورًا.

قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ} [الفرقان: ١٨]، أي:"قال المعبودون من دون الله: تنزيهًا لك -يا ربنا- عَمَّا فعل هؤلاء، فما يصحُّ أن نَتَّخِذ سواك أولياء نواليهم".

قال قتادة:"هذا قول الآلهة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى: تنزيها لك يا ربنا، وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم، أنت ولينا من دونهم".

قال ابن كثير:"أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك، لا نحن ولا هم،

=

=

فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: ٤٠ - ٤١]".

عن السدي قوله: "{من أولياء}، قال: أما الولي، فالذي يتولاه الله ويقر له بالربوبية".

وقرأ الحسن ويزيد بن القعقاع: «أن نتخذ»، بضم النون، أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنا عبيد لك، فقراء إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} [الفرقان: ١٨]، أي:"ولكن متعتَ هؤلاء المشركين وآباءهم بالمال والعافية في الدنيا، حتى نسوا ذكرك فأشركوا بك".

قال الطبري: "ولكن متعتهم بالمال يا ربنا في الدنيا والصحة، حتى نسوا الذكر".

قال ابن كثير:"أي: طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك".

قال ابن عباس:"يقول: قوم قد ذهبت أعمالهم في الدنيا ولم يكن لهم أعمال صالحة".

قال ابن وهب: "سألت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن قول الله: {الذكر}، قال: القرآن".

قوله تعالى: {وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} [الفرقان: ١٨]، أي:"وكانوا قومًا هلكى غلب عليهم الشقاء والخِذْلان".

قال الطبري: "وكانوا قوما هلكى، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان".

قال ابن عباس:"يقول: قوم قد ذهبت أعمالهم وهم في الدنيا، ولم تكن لهم أعمال

=

=

صالحة".

عن شهر بن حوشب، قوله:"{وكانوا قوما بورا} ـ قال: معناه: فسدتم".

قال قتادة: "هو الفساد، «البور» بكلام عمان".

قال قتادة:"وإنه والله ما نسي قوم قط ذكر الله إلا باروا وفسدوا".

عن مجاهد، قوله: "{وكانوا قوما بورا}، يقول: هلكى".

قال الحسن:"هم الذين لا خير فيهم".

قال ابن زيد:"يقول: ليس من الخير في شيء. «البور»: الذي ليس فيه من الخير شيء".

قال الفراء:"«البور»: مصدر واحد وجمع، و «البائر»: الذي لا شيء فيه. تقول: أصبحت منازلهم بورا أي لا شيء فيها. فكذلك أعمال الكفار باطل. ويقال: رجل بور وقوم بور".

قال أبو عبيدة: "أ أي هالك ومنه قولهم: نعوذ بالله من بوار الأيّم، وبار الطعام وبارت السّوق أي هلكت وقال عبد الله ابن الزّبعرى:

يا رسول المليك إنّ لسانى... راتق ما فتقت إذ أنا بور

قال القاسم بن سلام:"{قوما بورا}، يعني: هلكا بلغة عمان".

أى قال المعبودون لخالقهم- ﷻ: «سبحانك» أى: ننزهك تنزيها تاما عن الشركاء وعن كل ما لا يليق بجلالك وعظمتك، وليس للخلائق جميعا أن يعبدوا أحدا سواك. ولا يليق بنا نحن أو هم أن نعبد غيرك، وأنت يا مولانا الذي أسبغت عليهم وعلى آبائهم الكثير من نعمك. «حتى نسوا الذكر» أى: حتى تركوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك «وكانوا» بسبب ذلك «قوما بورا» أى: هلكى، جمع بائر من البوار وهو الهلاك.

قال القرطبي: وقوله بُورًا أى: هلكى قاله ابن عباس.. وقال الحسن «بورا» أى: لا

=

=

خير فيهم، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها عن الزرع فلا يكون فيها خير.

وقال شهر بن حوشب: البوار: الفساد والكساد، من قولهم: بارت السلعة إذا كسدت كساد الفساد.. وهو اسم مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ا.هـ.

قال الشنقيطي: قرأ هذا الحرب عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم: نحشرهم، بالنون الدالة على العظمة. وقرأ ابن كثير، وحفص، عن عاصم: يحشرهم بالياء المثناة التحتية. وقرأ عامة السبعة غير ابن عامر: فيقول بالياء المثناة التحتية. وقرأ ابن عامر: فنقول بنون العظمة.

فتحصل أن ابن كثير وحفصًا يقرآن بالياء التحتية فيهما، وأن ابن عامر يقرأ بالنون فيهما، وأن باقي السبعة يقرؤون: نحشرهم بالنون، فيقول بالياء.

وقد ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يحشر الكفار يوم القيامة، وما كانوا يعبدون من دونه؛ أي: يجمعهم جميعًا فيقول للمعبودين: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء فزينتم لهم أن يعبدوكم من دوني، أم هم ضلوا السبيل؛ أي: كفروا وأشركوا بعبادتهم إياكم من دوني من تلقاء أنفسهم من غير أن تأمروهم بذلك، ولا أن تزينوه لهم، وأن المعبودين يقولون: سبحانك، أي: تنزيهًا لك عن الشركاء، وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء، أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا، ونحن براء منهم، ومن عبادتهم، ثم قال: {وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ} أي: طال عليهم العمر، حتى نسوا الذكر أي: نسوا ما أنزله عليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك، لا شريك لك، وكانوا قومًا بورًا. قال ابن عباس: أي: هلكى، وقال الحسن ومالك عن الزهري: أي: لا خير فيهم. اهـ. الغرض من كلام ابن كثير.

=

=

وقال أبو حيان في البحر: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، أي: ما كان يصح لنا ولا يستقيم. إلى آخر كلامه.

وإذا عرفت ما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له، فاعلم أن العلماء اختلفوا في المعبودين. فقال بعضهم: المراد بهم الملائكة وعيسى وعزير. قالوا: هذا القول يشهد له القرآن، لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن عبادة من عبدهم، كما قال في الملائكة: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)} وقال في عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)} وجواب الملائكة وجواب عيسى كلاهما شبيه بجواب المعبودين في آية الفرقان هذه؛ ولذلك اختار غير واحد من العلماء أن المعبودين الذين يسألهم الله في سورة الفرقان هذه هم خصوص العقلاء، دون الأصنام.

وقال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الأظهر عندي شمول المعبودين المذكورين للأصنام، مع الملائكة وعيسى، وعزير، لأن ذلك تدل عليه قرينتان قرآنيتان.

الأولى: أنه عبر عن المعبودين المذكورين بما التي هي لغير العاقل في قوله: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} الآية. فلفظة ما تدل على شمول غير العقلاء، وأنه غلب غير العاقل لكثرته.

القرينة الثانية: هي دلالة آيات من كتاب الله على أن المعبودين غافلون عن عبادة من عبدهم، أي: لا يعلمون بها، لكونهم غير عقلاء، كقوله تعالى في سورة يونس: {وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا

=

=
عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)}، وإنما كانوا غافلين عنها لأنهم جماد لا يعقلون. وإطلاق اللفظ المختص بالعقلاء عليهم نظرًا إلى أن المشركين نزلوهم منزلة العقلاء كما أوضحناه في غير هذا الموضع، وكقوله تعالى في الأحقاف: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)} فقد دل قوله تعالى {وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} على أنهم لا يعقلون، ومع ذلك قال: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)} وكقوله تعالى في العنكبوت: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} الآية. فصرح بأنهم أوثان، ثم ذكر أنهم هم وعبدتهم يلعن بعضهم بعضًا، وكقوله تعالى: {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ} الظاهر أن معنى نسوا تركوا. والأظهر أن الذكر هو ما جاءت به الرسل من التوحيد، وقيل: ذكر الله بشكر نعمه. والأصح أن قوله: (بورًا) معناه هلكى، وأصله اسم مصدر يقع على الواحد وعلى الجماعة. فمن إطلاقه على الجماعة. قوله هنا: {وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨)} وقوله في سورة الفتح: {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)} ومن إطلاقه على المفرد قول عبد الله بن الزبعري السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور

ويطلق البور على الهلاك. وعن ابن عباس أنها لغة أهل عمان، وهم من أهل اليمن، ومنه قول الشاعر:

فلا تكفروا ما قد صنعنا إليكم ... وكافوا به فالكفر بور لصانعه

واعلم أن ما ذكره الزمخشري في هذه الآية، وأطنب فيه من أن الله لا يضل أحدًا
=

=

مذهب المعتزلة، وهو مذهب باطل وبطلانه في غاية الوضوح من كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ، فإياك أن تغتر به. وما ذكر عن الحسن البصري، ومالك عن الزهري، من أن معنى بورًا لا خير فيهم له وجه في اللغة العربية، ولكن التحقيق أنه ليس معنى الآية، وأن معنى بورًا هلكى كما تقدم. والعلم عند الله تعالى ا.هـ

وهكذا، يتبرأ المعبودون من ضلال عابديهم، ويوبخونهم على جحودهم لنعم الله- تعالى- وعلى عبادتهم لغيره. ويعترفون لخالقهم- ﷻ بأنه لا معبود بحق سواه.

وهنا يوجه- سبحانه- خطابه إلى هؤلاء العابدين الجهلاء الكاذبين فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا ...

قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} [الفرقان: ١٩]، أي:"فيقال للمشركين: لقد كذَّبكم هؤلاء الذين عبدتموهم في ادِّعائكم عليهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عما هو قائل للمشركين عند تبري من كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله منهم: قد كذبوكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم، ودعوكم إلى عبادتهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقول: كذبوكم بكذبكم".

قال ابن كثير:"أي: فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قربانا يقربونكم إليه زلفى، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥ - ٦]".

وفي قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} [الفرقان: ١٩]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن الملائكة والرسل قد كذبوا الكفار فيما يقولون أنهم اتخذوهم أولياء من دونه، قاله مجاهد.

=

=

قال مجاهد:"يقول الله للذين كانوا يعبدون عيسى وعزيرا والملائكة، يكذبون المشركين"..

الثاني: أن المشركين كذبوا المؤمنين فيما يقولونه من نبوة محمد (ﷺ)، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"كذبوكم بما تقولون بما جاء من عند الله جاءت به الأنبياء والمؤمنون آمنوا به، وكذب هؤلاء".

قال الطبري:"وجه ابن زيد تأويل قوله: {فقد كذبوكم} إلى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون المكذبون بما جاءهم به محمد من عند الله، بما تقولون من الحق، وهو أن يكون خبرا عن الذين كذبوا الكافرين في زعمهم أنهم دعوهم إلى الضلالة، وأمروهم بها على ما قاله مجاهد من القول الذي ذكرناه عنه أشبه وأولى؛ لأنه في سياق الخبر عنهم".

قوله تعالى: {فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا} [الفرقان: ١٩]، أي:"فها أنتم أولاء لا تستطيعون دَفْعًا للعذاب عن أنفسكم، ولا نصرًا لها".

قال الطبري:"يقول: فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف عذاب الله حين نزل بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من الله حين عذبها وعاقبها".

قال ابن كثير:"أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم".

عن مجاهد: "{فما يستطيعون صرفا ولا نصرا}، قال: المشركون لا يستطيعون صرف العذاب ولا نصر أنفسهم".

قال ابن جريج: "لا يستطيعون صرف العذاب عنهم، ولا نصر أنفسهم".

عن ابن وهب، قال ابن زيد:"لا يستطيعون يصرفون عنهم العذاب الذي نزل بهم حين كذبوا، ولا أن ينتصروا قال: وينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ما لكم لا تناصرون، قال: من عبد من دون الله لا ينصر اليوم من عبده، وقال

=

=

العابدون من دون الله: لا ينصره اليوم إلهه الذي يعبد من دون الله، فقال الله تبارك وتعالى: {بل هم اليوم مستسلمون}، وقرأ قول الله جل ثناؤه {فإن كان لكم كيد فكيدون}".

في حرف عبد الله بن مسعود: «فما يستطيعون لك صرفا».

قوله تعالى: {وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} [الفرقان: ١٩]، أي:"ومَن يشرك بالله فيظلم نفسه ويعبد غير الله، ويمت على ذلك، يعذبه الله عذابًا شديدًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: {ومن يظلم منكم} أيها المؤمنون- يعني بقوله: {ومن يظلم} ومن يشرك بالله فيظلم نفسه، فذلك نذقه عذابا كبيرا كالذي ذكرنا أنا نذيقه الذين كذبوا بالساعة".

قال ابن كثير:"أي: يشرك بالله، {نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا}".

عن الحسن، قوله: "{ومن يظلم منكم}، قال: هو الشرك".

عن ابن جريج، قوله: "{ومن يظلم منكم}، قال: يشرك، {نذقه عذابا كبيرا}".

قال ابن عباس:"كل شيء نسبه إلى غير الإسلام من اسم مثل: مسرف وظالم ومجرم وفاسق وخاسر، فإنما يعنى به: الكفر، وما نسبه إلى الإسلام فإنما يعنى به الذنب قال: {ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا}، يقول: ومن يكفر منكم، قال: {وأعتدنا للظالمين}، يقول: للكافرين".

قال وهب بن منبه:"قرأت اثنين وسبعين كتابا نزلت من السماء ما سمعت: كتابا أكثر تكريرا فيه الظلم ومعاتبة عليه من القرآن، وذلك لأن الله علم أن فتنة هذه الأمة تكون في الظلم وما الآخرين من الأمم فإنه أكثر معاتبة إياهم في الشرك وعبادة الأوثان وإنه ذكر معاتبة هذه الأمة بالظلم فقال: {ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا}: و {أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}، ونزع بأشباه هذا من القرآن".

أى: قال الله- تعالى- لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيت: والآن لقد

=

=

رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم، وقد حق عليكم العذاب بسبب كفركم وكذبكم، وصرتم لا تملكون له «صرفا» أى: دفعا بأية صورة من الصور. وأصل الصرف: رد الشيء من حالة إلى حالة أخرى، ولا تملكون له- أيضا- «نصرا» أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم، ولا من جهة غيركم، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لا فكاك لكم منه بأى وسيلة من الوسائل.

«ومن يظلم منكم» أى: ومن يكفر بالله- تعالى- منكم أيها المكلفون بالإيمان «نذقه عذابا كبيرا» لا يقادر قدره في الخزي والهوان.

قال الزمخشري: هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام- في قوله: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ حسنة رائعة، خاصة إذا انضم إليها الالتفات، وحذف القول، ونحوها قوله- تعالى-: يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ... وقول القائل:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم، وتجعلهم أهلا لكل ما يقع عليهم من عذاب أليم.

وقال ابن عاشور: فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا.

الفاء فصيحة، أي إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله: كذبوكم.

وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام. والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان. وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار

=

=

لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم.

ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى: يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر [القمر: ٤٨]. فجملة فقد كذبوكم إلخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى: واستغفري لذنبك بعد قوله: يوسف أعرض عن هذا [يوسف: ٢٩].

والباء في قوله: بما تقولون يجوز أن تكون بمعنى (في) للظرفية المجازية، أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، ويجوز أن تكون للسببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.

و (ما) موصولة. والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.

وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، أي صرف ضر عنهم، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم. ووجه التفريع ما دل عليه قولهم سبحانك [الفرقان: ١٨] الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع.

وقرأ الجمهور: يستطيعون بياء الغائب، وقرأه حفص بتاء الخطاب على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله.

ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا.

تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب منكم لجميع المكلفين.

ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذابا كبيرا: والعذاب الكبير هو عذاب جهنم.

=

=

(منبهة): قال الرازي: أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في القطع بوعيد أهل الكبائر.

قلت هذه المسألة من أصول المعتزلة الخمسة، وهي الأصل الرابع، وهي المنزلة بين المنزلتين.

إن هذا الأصل هو نقطة البدء في نشأة المعتزلة، أن هذا الأصل هو سبب الاختلاف بين واصل والحسن حيث أتى واصل برأي خاص في مرتكب الكبيرة، وعلى إثره طرده الحسن البصري، فاعتزل في سارية من سواري مسجد البصرة يقرر هذا الرأي على من انضم إليه واستحسن رأيه، فسماهم الناس من ذلك الحين المعتزلة، وبدأ مذهبهم يظهر إلى الوجود بصفة مستقلة. يقول الشهرستاني: "دخل رجل على الحسن البصري، فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان... وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا اعتقادًا؟ ففكر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل في ناحية من المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزلنا واصل. فسموا من ذلك الحين المعتزلة...".

وقد كان من العوامل التي دعت إلى إثارة هذا النقاش حول مرتكب الكبيرة أن الحروب السياسية من مقتل عثمان ووقعة الجمل وصفين جعلت الناس يتساءلون من المحق، ومن المخطئ؟ ثم انتقلوا من ذلك إلى القول: بأن المخطئ كافر أو مؤمن، فكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبي الذنوب، والمرجئة تقول: إنهم مؤمنون كاملو الإيمان، وأهل السنة يقولون: إنهم مؤمنون ناقصوا الإيمان، قد نقص إيمانهم بقدر ما ارتكبوا من الكبائر، فقال واصل: إنهم فاسقون في منزلة بين

=

=

منزلتي الكفر والإيمان.

بعد هذا التقديم ننتقل إلى معرفة ما هو المقصود بالمنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة، ثم عرض ما تيسر من شبهاتهم، ومناقشتهم، ثم بيان مذهب أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة، فنقول وبالله التوفيق.

أولًا: ما المقصود بالمنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة؟.

لمعرفة مراد المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين؛ لابد أن نسوق شيئًا من أقوالهم في ذلك، فنقول: يقول القاضي عبدالجبار: "والأصل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه، هذا في أصل اللغة. وأما في اصطلاح المتكلمين، فهو العلم بأن لصاحب الكبيرة اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين...".ويشرح القاضي هذا التعريف، فيقول: "إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، فلا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقًا. وكذلك صاحب الكبيرة له حكم بين الحكمين، فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن؛ بل له منزلة بينهما".ويقول ابن المرتضي - وهو يسوق ما أجمعت عليه المعتزلة -: "وأما ما أجمعت عليه المعتزلة، فقد أجمعت... على المنزلة بين المنزلتين، وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا...".ويقول الإسفراييني:"... ومما اتفقت عليه المعتزلة من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين، لا هو مؤمن، ولا كافر، وإن هو خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدًا في النار، ولا يجوز لله تعالى أن يغفر له أو يرحمه، أي أن مرتكب الكبيرة بكونه يشبه المؤمن في عقده، ولا يشبهه في عمله. ويشبه الكافر في عمله، ولا

=

=

يشبهه في عقده أصبح وسطًا بين الاثنين، وتبعًا لهذا يكون عذابه أقل من عذاب الكافر".

من هذه الأقوال: يظهر مقصود المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين؛ وهو أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا، ولا كافرًا، لا في الاسم ولا في الحكم؛ بل في منزلة بين المنزلتين، فلا يسمى مؤمنًا، ولا كافرًا، وإنما يسمى فاسقًا.

وحكمه كذلك بين الحكمين، فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، وإنما له حكم بينهما. هذا في الدنيا. وأما في الآخرة؛ فإنه يخلد في النار، لكن يكون عذابه أخف من عذاب الكافر.

وقد حملهم على قولهم هذا: شبهات منها، ما يلي:

ثانيًا: عرض ما تيسر من شبهات المعتزلة في القول بالمنزلة بين المنزلتين، مع المناقشة:

لقد تمسك المعتزلة في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين بشبهات، منها ما يلي:

الشبهة الأولى:

يقول واصل بن عطاء: "وجدت أحكام الكفار المجمع عليها المنصوصة في القرآن كلها زائلة عن صاحب الكبيرة، فوجب زوال اسم الكفر عنه بزوال حكمه، لأن الحكم يتبع الاسم، كما أن الاسم يتبع الفعل، وأحكام الكفر المجموع عليها... على ضربين...

الأول: حكم أهل الكتاب: قال تعالى: قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التوبة: ٢٩]. فهذا حكم الله في أهل الكتاب، وهو زائل عن صاحب الكبيرة.

الثاني: حكم الله في مشركي العرب: قال تعالى: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ

=

=
الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا.... الآية [محمد: ٤]. فهذا حكم الله في مشركي العرب وفي كل كافر سوى أهل الكتاب، وهو زائل عن صاحب الكبيرة؛ ثم قد جاء في السنة المجمع عليها أن أهل الكفر لا يتوارثون، ولا يدفنون في مقابر أهل القبلة، وليس يفعل ذلك بصاحب الكبيرة. وحكم الله في المنافق: أنه إن ستر نفاقه وكان ظاهره الإسلام، فهو مسلم له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. وإن ظهر كفره استتيب، فإن تاب وإلا قتل، وهذا الحكم زائل عن صاحب الكبيرة. وحكم الله في المؤمن الولاية والمحبة والوعد بالجنة. قال تعالى: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ... الآية [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا [الأحزاب: ٤٧]. وقال تعالى: وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ... الآية [التوبة: ٧٢]. وحكم الله في صاحب الكبيرة أن لعنه وأعد له عذابًا أليمًا. قال تعالى:... أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [هود: ١٨]. وقال تعالى: وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: ١٤]. وما أشبه ذلك من القرآن، فوجب أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن لزوال أحكام المؤمن عنه في كتاب الله، ووجب أنه ليس بكافر، لزوال أحكام الكفار عنه، ووجب أنه ليس بمنافق لزوال أحكام المنافقين عنه في سنة رسول الله ﷺ، ووجب أنه فاسق فاجر لتسمية الله له بذلك. لذا فهو فاسق مخلد في النار لتوعد الله له بذلك، ولكنه في عذاب أخف من عذاب الكافر. انتهى كلام واصل بن عطاء بتصرف.ويقول في موضع آخر: "إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنًا وهو اسم مدح، والفاسق لم يستكمل خصال الخير، ولا استحق اسم المدح، فلا يسمى مؤمنًا، وليس هو بكافر أيضًا؛ لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها، لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة؛ فهو من أهل النار خالدًا فيها؛ إذ ليس في الآخرة إلا
=

=

فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ ولكنه تخفف عنه النار...".

المناقشة: نقول لهم: أما قولكم أنه ليس بكافر، فهذا نوافقكم عليه؛ وأما قولكم أنه ليس بمنافق فكذلك هو ليس بمنافق؛ لأن كبيرته لا توجب استتابته، فإن تاب وإلا قتل كما يعمل مع المنافق إذا ظهر نفاقة، أما إذا لم يظهر لم يعلم هل هو منافق أم لا، لذا يعامل معاملة المسلمين.

وأما قولكم: إنه ليس بمؤمن، فهذا على إطلاقه لا نوافقكم عليه؛ بل نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يكون له الاسم مطلقًا، ولا يسلب منه مطلق الإيمان.

ومما يدل على أن الفاسق لم تخرجه كبيرته من الإيمان ما يلي:

١ - الآيات والأحاديث الناطقة بإطلاق لفظ الإيمان على العاصي كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ... الآية [البقرة: ١٧٨]. فقد سمى الله القاتل أخًا للمقتول وهي الأخوة الإيمانية، مما يدل على أن كبيرة القتل لم تخرجه من الإيمان، وقبل ذلك فقد خاطبهم جميعًا بلفظ الإيمان؛ مع أن فيهم قتلة؛ مما يدل على أن الكبيرة لا تخرج من الإيمان. وكقوله تعالى: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: ٩]. فقد أطلق اسم الإيمان على الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين؛ مما يدل على أن كبيرة القتل لم تخرجهما من الإيمان، وكذلك كبيرة البغي....ومن الأحاديث الدالة على أن الفاسق معه إيمان قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم من رواية أبي ذر أنه ﷺ قال: ((ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة،

=

=

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال ﷺ: وإن زنى وإن سرق... على رغم أنف أبي ذر...).

ففي هذا الحديث دلالة على أن من قال: لا إله إلا الله، وإن ارتكب شيئًا من الكبائر، فإنه يدخل الجنة؛ مما يدل على أن كبيرته لم تخرجه من الإيمان. ثانيا: إجماع الأمة من عصر الرسول - ﷺ - إلى يومنا هذا على الصلاة على من مات من أهل القبلة من غير توبة، والدعاء والاستغفار لهم مع العلم بارتكابهم للكبائر بعد الاتفاق على أن ذلك لا يجوز لغير المؤمن؛ مما يدل على أنهم لم يخرجوا من الإيمان.

ثالثًا: قولكم: إن الفاسق قد أخرجه فسقه من الإيمان ينبني على أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله؛ لأنهم يقولون: إن من عمل كبيرة لم يبق معه من الإيمان شيء وهو باطل. يقول ابن تيمية - في معرض الرد على من قال بهذا القول -: "وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه، ذهب كله، فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان. فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله ولم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وهو الإيمان المطلق، كما قاله أهل الحديث، قالوا: فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء، فيخلد في النار. وقالت المرجئة - على اختلاف فرقهم -: لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئًا من الإيمان؛ إذ لو ذهب شيء منه، لم يبق منه شيء، فيكون شيئًا واحدًا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول ﷺ وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله ﷺ: (... أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان). ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص... وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة، ولم يعرف فيهم مخالف... فمن ذلك ما

=

=

روي من وجوه كثيرة عن حماد بن سلمة عن أبي جعفر عن جدة عمير بن حبيب الخطمي، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ قال: (الإيمان يزيد وينقص. قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته؛ وإذا غفلنا ونسينا؛ فذلك نقصانه. وروى إسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال: "الإيمان يزيد وينقص" وروى إسماعيل بن عياش عن أبي هريرة مثل ذلك.. وروي عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول لأصحابه: هلموا نزداد إيمانًا فيذكرون الله ﷻ...

وأيضًا: فإن الزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات، كقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال: ٢].يقول ابن تيمية: وهذه الزيادة وقت تلاوة الآية، وليس هو تصديقهم بها عند النزول... وكقوله تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: ١٧٣]. فهذه الزيادة عند تخويفهم العدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينًا وتوكلا على الله، وثباتًا على الجهاد.

ومثل هذه الآيات كثير، فإذا ثبت أن الإيمان يذهب بعضه ويبقى بعضه وأنه يزيد وينقص بطل قولهم: إن الفسق يخرج من الإيمان؛ وعلى ذلك فالفاسق مؤمن ناقص الإيمان وليس في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان كما تدعون. ونقول أيضًا: ما دام مرتكب الكبيرة معه من الإيمان شيء، ولو إيمانًا ناقصًا، فإنه لا يخلد في النار؛ بل يعذب على قدر ذنبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة لقوله تعالى: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء... الآية [النساء: ٤٨]. ولقوله تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [الزلزلة: ٧]. ولقوله ﷺ: (... يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في

=

=

قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان... الحديث).

فإذا قولهم بتخليد صاحب الكبيرة في النار باطل، وعليه فتبطل هذه الشبهة. والله أعلم.

الشبهة الثانية: يقول الخياط: "إن واصل بن عطاء لم يحدث قولًا لم تكن الأمة تقول به؛ إذ أنه وجد الأمة مجمعة على تسمية أهل الكبائر بالفسق والفجور مختلفة فيما سوى ذلك من أسمائهم، فأخذ بما أجمعوا عليه... وتفسير ذلك: أن الخوارج وأصحاب الحسن كلهم مجمعون والمرجئة على أن صاحب الكبيرة فاسق فاجر،، ثم تفردت الخوارج فقالت: هو مع فسقه وفجوره كافر، وقالت المرجئة... هو مع فسقه وفجوره مؤمن، وقال الحسن ومن تابعه: هو مع فسقه وفجوره منافق. فقال لهم واصل بن عطاء: قد أجمعتم على أن سيتم صاحب الكبيرة بالفسق والفجور، فهو اسم له صحيح بإجماعكم وقد نطق القرآن به في آية القاذف وغيرها من القرآن، فوجب تسميته بذلك وما تفرد به كل فريق منكم من الأسماء، فدعوى لا تقبل منه إلا بينة من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ".

المناقشة: والجواب على هذه الشبهة كما يلي:

١ - أن مرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته كما بيناه عند الرد على الشبهة الأولى. ثم إن إيمانه متفق عليه بين السلف، فإذا قولهم أن إيمانه مختلف فيه باطل.

٢ - أن في قولهم بالمنزلة بين المنزلتين ترك للمتفق عليه بين السلف - ومنهم الحسن -؛ لأن النفاق كفر إن أظهره صاحبه، وإن لم يظهره، فيعامل معاملة المسلمين، إضافة إلى ذلك: أنه نقل عنه الرجوع عن هذا القول إلى المذهب الحق والمتفق عليه: وهو أن المكلف إما مؤمن أو كافر، ولا واسطة بينهما وأخذ بما لم يقل به أحد فضلًا عن الاتفاق؛ فإذًا قولهم بالمنزلة بين المنزلتين إحداث

=

=

للقول المخالف لما أجمع عليه السلف؛ فيكون باطلًا، وبذلك تبطل هذه الشبهة والله أعلم.

ثالثا: مذهب أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة:

لمعرفة مذهب أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة؛ لابد أن نسوق شيئًا من أقوال أئمة السلف في ذلك، فنقول وبالله التوفيق. يقول ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "ومذهب أهل السنة والجماعة أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين في النار، كما قالت الخوارج والمعتزلة، وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات، ويستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب...".

ويقول شارح الطحاوية: "إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج؛ إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة؛ لكان مرتدًا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى... [البقرة: ١٧٨] إلى أن قال: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ... الآية [البقرة: ١٧٨]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا [الحجرات: ٩] إلى أن قال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ... الآية [الحجرات: ١٠].ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد. وقد ثبت في الصحيح عن

=

=

النبي ﷺ أنه قال: ((من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه، ثم ألقي في النار)). فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه... "؛ مما يدل على أن الكبيرة لا تخرج من الإيمان. يقول النووي - وهو يروي مذهب أهل السنة في الموحدين -: "واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال...".

من هذه الأقوال يتبين أن مرتكب الكبيرة عند أهل السنة ليس بكافر كما تقول الخوارج، وليس بكامل الإيمان كما تقول المرجئة، وليس في منزلة بين المنزلتين كما تزعمه المعتزلة، بل إن مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية. وفي الآخرة لا يخلد في النار، بل هو تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه على قدر ذنبه، ثم أخرجه من النار، قال تعالى: إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا [النساء: ٤٨].

وعلى ذلك، فقول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين باطل لا يقره أهل السنة والجماعة. والله أعلم.

(تنبيه): المعتزلة كغيرهم من الطوائف الإسلامية، يرون أن المعاصي تنقسم إلى ما هو صغيرة، وإلى ما هو كبيرة، نظرا لما ورد في بيان ذلك من نصوص شرعية، فقد وردت آيات كريمات مشتملة على ذكر الصغيرة والكبيرة، كقوله تعالى: مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا [الكهف: ٤٩] وقوله سبحانه: وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر: ٥٣] وقال: وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

=

=
وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُـمُ الرَّاشِـدُونَ [الحجرات: ٧]، فرتب المعاصي هذا الترتيب حيث بدأ بالكفر الذي هو أعظم الذنوب، وثناه بالفسق، وختم بالعصيان، فلا بد من أن يكون قد أراد به الصغائر، وقد صرح بذكر الكفر والفسق قبله، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى، وهذا قدر متفق عليه بين الفرق كما ذكرت عند بيان مذهب السلف، ما عدا الخوارج.

أما تحديد معنى كل من الصغيرة والكبيرة عند المعتزلة فقد وقع بينهم خلاف في ذلك. فقد ذهب القاضي عبد الجبار إلى أن الكبيرة في عرف الشرع هو ما يكون فاعله أكثر من ثوابه إما محققا وإما مقدرا. وأما الصغيرة فهو ما يكون ثواب فاعله أكثر من عقابه إما محققا وإما مقدرا. ثم قال: واحترزنا في الموضعين بقولنا إما محققا وإما مقدرا عن الكفار ومن لم يطع البتة، فإنه قد وقع في أفعال الصغيرة والكبيرة، على معنى أنه لو كان له ثواب لكان يكون محبطا بما ارتكبه من المعصية، أو يكون عقاب ما أتى به من الصغيرة مكفرا في جنب ما يستحقه من الثواب. ومن تعريفات الصغيرة والكبيرة عند المعتزلة ما ذكره الأشعري عن جعفر بن حرب وذكره القاضي عبد الجبار على سبيل النقد فقد ذكر عنه قوله: إن كل عمد كبيرة. وقال بعد ذلك: وأظن أن ذلك مذهب لبعض السلف من أصحابنا.

فجعفر بن حرب هذا يرى أن الكبيرة هي القبيح الذي يقترن بعمد الإنسان وإصراره أي أنه يميل إلى وصف الجريمة بحال الفاعل لا بموضوع القبيح. وأنكر القاضي ذلك من وجهين:

الأول: إن العمد لا تأثير له في كون الفعل كبيرا أو صغيرا، لأن للقبيح موضوعا أو بمعنى آخر: أن للجريمة صفة موضوعية إذا ما وقعت من أي إنسان كانت كبيرة أو صغيرة. الثاني: إن الطريق إلى تحديد الكبائر وتعيينها هو الدلالة الشرعية وقد
=

=

حدد الشرع أن القتل والزنا والقذف وغيرهما كبائر، وهذا لا يتفق مع القول بالعمد.

ولا خلاف بين المعتزلة في وجود الصغيرة والكبيرة بين القبائح إلا أن الخلاف - بينهم كان حول طريق الدلالة على ذلك فذهب البعض وهم الأكثر - إلى أن الشرع هو الذي يعرفنا باشتمال المعاصي على صغير وكبير، ولو ترك للعقل لحكم بأن جميع المعاصي كبائر، لأن من المعلوم أن أقل القليل منها يستحق جزءا من العقاب كما أن أقل القليل من الطاعات يستحق جزءا من الثواب. ومن هؤلاء أبو علي والقاضي عبد الجبار وغيرهم، وقد استدلوا بما تقدم من أدلة شرعية.

أما الآخرون فذهبوا إلى أن العقل بمفرده يستطيع أن يميز بين الصغيرة والكبيرة فسرقة درهم ليست كسرقة عشرة دراهم وإلى هذا الرأي كان يذهب أبو هاشم ومال إليه جعفر بن حرب كما هو واضح من رأيه المتقدم في تحديد الفرق بين الصغيرة والكبيرة.

وقد تختلف آراء المعتزلة في تحديد معنى الصغيرة والكبيرة، وتتسع مسافة الخلاف بينهم، لكن ما تبنوه من آراء هو موضع نظرنا، إذ أنها لا تحدد لنا تحديدا واضحا الفرق بين الأمرين، لا سيما ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار - وإن كان هو الأكثر انسجاما مع مذهب القوم - لأن الثواب والعقاب مما لا يعلم مقداره إلا الله سبحانه وتعالى، فاختلافه قلة وكثرة من شخص لآخر أمر خفي، لا يمكننا إدراكه، على أن الضابط الذي ذكره القاضي عبد الجبار على أنه تحقيق للمذهب، مناقض لما هو مشهور من مذهب المعتزلة الذي سيأتي بعد من أن ثواب الطاعات محبط لا وزن له مع ارتكاب الإنسان للكبيرة، لأن صاحبها مخلد في النار، فأين الثواب الذي يمكن أن يقاس مع العقاب ويحدد بموجبه كل من الصغيرة

=

=

والكبيرة؟

غير أن الأهم من ذلك كله أن المعتزلة مهما اختلفوا في تحديد الضابط مقرون بانقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، فما حكم كل منهما عندهم؟

أما الصغائر فقد ذكر أبو الحسن الأشعري أنهم لم يتفقوا أيضا على قول واحد بشأنها بل دار بينهم الخلاف في ذلك على أقوال ثلاثة:

١ - أن الله سبحانه يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر تفضلا.

٢ - يغفر الصغائر إذا اجتنبت الكبائر باستحقاق.

٣ - أن الله لا يغفر الصغائر إلا بالتوبة.

فهذه أقوال ثلاثة عند المعتزلة، اثنان منها قالت بالغفران، والخلاف بينهما في الاستحقاق والتفضل، والاستحقاق كما هو واضح فيه تحكم على الله سبحانه - وذلك غير لائق بحال. ولكن من مبادئ المعتزلة المشهورة عنهم قولهم بوجوب الصلاح والأصلح، ولا يخفى ما في هذا المبدأ من جسارة وعدم تأدب مع الله سبحانه وتعالى. أما القول الثالث فإنه يجعل الصغيرة بمنزلة الكبيرة في عدم الغفران إلا بالتوبة وهذا لم يقل به أحد، ومخالف أيضا لما عليه المعتزلة أنفسهم من الفرق بين الصغيرة والكبيرة من حيث المعنى والاعتبار.

وعلى كل حال فالأهم من ذلك كله هو مرتكب الذنب الكبير، فماذا يقول القوم في حكمه؟

هذه المسألة تسمى عند مؤرخي الفرق والمعتزلة بالأسماء والأحكام، لأنها تبحث في صفة مرتكب الكبيرة وحكمه. يقول الدكتور عبد الكريم عثمان في الكلام على هذه المسألة: وقد أثار تحديد مكان مرتكب الكبيرة وحكمه خلافا شديدا بين المسلمين، وجعله بعض مؤرخي الفرق سببا مباشرا لظهور مذهب الاعتزال. فقد قالت الخوارج إن صاحب الكبيرة كافر، وذهب المرجئة إلى أنه

=

=

مؤمن، وقرر الحسن البصري أنه منافق، أما واصل فقد أعلن أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا، ولا منافقا، بل هو فاسق، أو في منزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر، ومن هنا أطلق على هذا الأصل عند المعتزلة اسم المنزلة بين المنزلتين، أو الأسماء والأحكام.فالمعتزلة يرون أن مرتكب الكبيرة، لا مؤمن ولا كافر، بل له اسم بين الاسمين وحكم بين الحكمين، فلا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقا وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث وهذا الحكم هو ما يسمى بالمنزلة بين المنزلتين. فإن صاحب الكبيرة عندهم له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر، ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما.

والمراد من هذا بيان الحكم الدنيوي لمرتكب الكبيرة، ففيه أن مرتكبها يسلب منه اسم الإيمان بالكلية، لأنه بارتكابها يزول ما معه من إيمان، فلم يعد مؤمنا غير أنهم في هذا الحكم الدنيوي لم يبلغوا به درجة الكافر فلم يجوزوا تسميته كافرا، كما لم يجوزوا تسميته مؤمنا، بل جعلوا له منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان وهي الفسق.

وقد برزت هذه المقالة أول ما برزت على يد واصل بن عطاء الغزال أحد زعماء المعتزلة، بل زعيمهم الأول والذي كان تلميذا للحسن البصري، المشتهر بقوله بأن مرتكب الكبيرة منافق. وقد بينها الشهرستاني في (الملل والنحل) بقوله: ووجه تقريره لهذه المسألة أنه – الإيمان واصل بن عطاء – قال: إن الإيمان عبارة عن خصال خير، إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا، وهو اسم مدح، والفاسق لم يستمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح، فلا يسمى مؤمنا، وليس هو بكافر مطلقا أيضا، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها.

وكل هذا ليس إلا بحثا في التسمية والمعاملة الدنيوية إذ أنهم ذهبوا هذا المذهب ليؤدي لهم غرضين في آن واحد.

=

=

الغرض الأول: هو القول بأن مرتكب الكبيرة يعامل في الدنيا كما يعامل بقية المسلمين فتجوز مناكحته، وموارثته، ودفنه في مقابر المسلمين، وغير ذلك من الأحكام الجارية عليه في الدنيا.

الغرض الثاني: هو القول بالتأبيد في النار - على ما سيأتي بعد - فإنهم لم يوصلوه في الوصف الدنيوي إلى درجة الكفر، حتى تجري عليه تلك الأحكام الدنيوية، وعز عليهم أن يعطوه اسم الإيمان، لأنه في نظرهم لا بد وأن يدخل النار ليجازى بما عمل من السيئات، وداخل النار عندهم لا يخرج منها، والمؤمن لا يمكن أن يدخل النار في نظرهم. ويزيد المسألة وضوحا ما ذكره القاضي عبد الجبار من استدلال على هذا المعتقد حيث قال ما معناه: والذي يدل على الفصل الأول، وهو الكلام في أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنا، هو ما قد ثبت من أنه يستحق بارتكاب الكبيرة الذم واللعن والاستخفاف والإهانة، وثبت أن اسم المؤمن صار بالشرع اسما لمن يستحق المدح والتعظيم والموالاة، فإذ قد ثبت هذان الأصلان، فلا إشكال في أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى مؤمنا. ثم ذكر بعد ذلك الأدلة على أن اسم المؤمن صار بالشرع اسما لمن يستحق المدح والتعظيم كقوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ [المؤمنون: ١] وقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات. أما الدليل على أن مرتكب الكبيرة لا يسمى كافرا فهو أنه جعل الكافر في الشرع اسما لمن يستحق العقاب العظيم، ويختص بأحكام مخصوصة نحو المنع من المناكحة والموارثة، والدفن في مقابر المسلمين، إذا ثبت هذا ومعلوم أن صاحب الكبيرة ممن لا يستحق العقاب العظيم ولا تجري عليه هذه الأحكام، فلم يجز أن يسمى كافرا. ومن أدلة المعتزلة أيضا على قولهم بالمنزلة بين المنزلتين ما ذكره عضد الدين الأيجي في المواقف حيث ذكر احتجاجهم على ذلك بوجهين:

=

=

أحدهما: ما تقدم من أن الإيمان عبارة عن الطاعات، وأن الفاسق يعامل في الدنيا معاملة سائر المسلمين. أما الوجه الثاني: فهو ما قاله واصل بن عطاء لعمرو بن عبيد، فرجع عمرو إلى مذهبه وهو أن فسقه معلوم وفاقا، وإيمانه مختلف فيه، لأن الأمة مجمعة على أن صاحب الكبيرة فاسق واختلفوا في كونه مؤمنا أو كافرا فنترك المختلف فيه ونأخذ بالمتفق عليه.وهذا هو الدليل الأساسي الذي يستدل به القوم، ويوضحه القاسم الرسي بقوله:.. والأمة مجمعة على أن من أتى كبيرة، أو ترك طاعة فريضة كالصلاة والزكاة والصيام من أهل الملة فهو فاسق، وهي مختلفة في غير ذلك من أسمائه. قال بعضهم: هو مشرك فاسق منافق، فكلهم قد أقر بأنه فاسق كافر، وقال بعضهم: فاسق منافق فكلهم قد أقر بأنه فاسق، واختلفوا في غير ذلك من أسمائه. فالحق ما أجمعوا عليه من تسميتهم إياه بالفسق، والباطل ما اختلفوا فيه، ففي إجماعهم الحجة والبرهان.وهذا كله - كما سبق وأن قلت - لا يعدو كونه كلاما في حكم دنيوي وهو القدر الذي يختلفون فيه مع الخوارج، حيث قالوا بكفره ابتداء، وخروجه من ملة الإسلام - أما الحكم الأخروي لمرتكب الكبيرة عند المعتزلة: فعندهم أن من استوعب عمرا في طاعة الله سبحانه وتعالى، ثم قارف كبيرة واحدة، ولم يوفق للتوبة عنها، وما على هذه الحال، فهو مخلد في النار مع المشركين الذين لم يؤمنوا ولم يأتوا بحسنة قط. وهذا هو بعينه رأي الزيدية الذين تبنوا أصول الاعتزال، وعنهم يقول الشهرستاني: أما في الأصول فيرون رأي المعتزلة حذو القذة بالقذة، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت.

فعند هؤلاء جميعا أن الإنسان مهما عمل من الخيرات، ومهما جاهد في سبيل إرضاء ربه، من فعل للواجبات، واجتناب للمحرمات، وكبح لجماح النفس وصد لشهواتها، فإن جميع طاعاته هذه تذهب هباء عندما يزل في يوم من الأيام فيرتكب

=

=

كبيرة، لأن هذه المعصية تحبط جميع تلك الأعمال الخيرة، فلا يبقى لها وزن، ولا يعود لها اعتبار، لأن مرتكب الكبيرة إذا لم يقلع عنها بتوبة جازمة نصوح لا عودة بعدها، فلا بد وأن يدخل النار خالدا مخلدا فيها، لأن داخل النار عندهم لا يخرج منها أبد الآبدين. وهذا المذهب في مرتكب الكبيرة تذكره كتب الفرق على أنه أصل من أصول المعتزلة التي يجمعون عليها، إلا أن إمام الحرمين الجويني ذكر أن معتزلة البصرة، وبعض البغداديين واقفية في وعيد مرتكب الكبيرة، إذ قالوا بأن من مات من المؤمنين على إصراره على المعاصي، لا يقطع عليه بعقاب، بل أمره مفوض إلى ربه تعالى، فإن عاقبه فذلك بعدله، وإن تجاوز عنه فذلك بفضله ورحمته، فلا يستنكر ذلك عقلا وشرعا.

وعلى كل حال، فهذا أصل من أصول المعتزلة سواء أجمعوا عليه أم لم يجمعوا فهو المذهب المشهور عنهم، وأي خلاف فيه من قبلهم فإنه لا ينقض المذهب، لا سيما وأنهم قد اشتهروا بتبنيه والاستدلال له. ومن رجع منهم عن القول به فإنما كان ذلك منه لأنه في نظري ناشد للحقيقة غير متبع ولا مقلد، فلا يستغرب ذلك، إلا أنه كما قلت هو المذهب المقترن باسم المعتزلة عند ذكرهم دائما.

أما أدلتهم على قولهم بخلود مرتكب الكبيرة في النار، فقد استدلوا بأدلة عقلية ونقلية:

فأما الأدلة العقلية:

فمنها ما ذكره القاسم الرسي من أن أحدا لا يقدر أن يؤدي كل ما استحق الله تبارك وتعالى من عباده، من شكر نعمته وإحسانه، بالكمال والتمام، حتى لا يبقى مما يحق لله جل ثناؤه شيئا إلا أداه، هيهات فكيف وهو يقول تبارك وتعالى: وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [النحل: ١٨] فكيف يؤدي شكر ما لا يحصى؟! ولم يفترض على خلقه ذلك، ولا سأل كل ما له عليهم مما يستحق

=

=

لديهم، لعلمه بضعفهم وأن في بعض ذلك استفراغ جهدهم، وما تعجز عنه أنفسهم وأنهم لا يقدرون على ذلك ويقصرون عن بلوغ ذلك.. وغفر لهم صغير ذنوبهم كله إذا اجتنبوا كبيرة رحمة بهم، ونظرا لهم، فأما من رجا الرحمة وهو مقيم على الكبيرة فقد وضع الرجاء في غير موضعه، واغتر بربه واستهزأ بنفسه، وخدعه وغره من لا دين له، إلا أن يتوب فيغفر له بالتوبة، فأما الإقامة على الكبائر فلا.. وذلك أن للجنة والنار طريقان فطريق الجنة طاعته المجردة عن الكبائر من معاصي الله، وطريق النار معصية الله، وإن لم تكن مجردة من بعض طاعات الله، لأننا قد نجد العبد يؤمن بكتاب الله كله، ويكفر ببعضه فلا يكون مؤمنا، ولا بما آمن به من النار ناجيا. يصدق ذلك قول الله ﷻ: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة: ٨٥] فلم يسموا بما آمنوا به مؤمنين، بل سموا بما كفروا به منه- لا كله- كافرين. وعلى هذه الطريق فيمن لم يكفر من الفاسقين أهل الكبائر العاصين، فمن كان على المعصية الكبيرة مقيما فهو على طريق النار، فكيف يرجو البلوغ إلى الجنة وهو يسلك ذلك الطريق، كرجل توجه إلى طريق خراسان فسلكه وهو يقول: أنا أرجو أن أبلغ الشام، فهذا من وضع الرجاء في غير موضعه.

وملخص الدليل العقلي السابق أن الله تبارك وتعالى له نعم على عباده لا تحصى ومهما عمل الإنسان لا يستطيع الوفاء بشكرها، إذ أن ذلك يتطلب منه استيفاء كل حق لله عليه. وقد علم الله من عباده عجزهم وضعفهم عن الوفاء بجميع ذلك، لذلك اكتفي منهم بالقليل بعد أن أعطاهم الكثير، بل وعفا عن صغائر ذنوبهم، وهذه منة عظيمة أخرى منه - تبارك وتعالى - فعلى الإنسان إذا الإتيان بهذا القليل الذي كلف به دون تفريط، وإذا قصر فيه بارتكاب الكبائر فعلا لمحرم، أو تركا

=

=

لواجب فهو من أهل النار لا محالة، لأن الله تجاوز له عن الكثير لم يكلفه به، فإذا قصر في ذلك القليل المطلوب منه فهو ممن سلك طريق النار، والطريق إلى الشيء المعين توصل إليه لا إلى ما يوجد في جهة معاكسة، وطريق النار المعصية وهذه لا يمكن أن يصل عن طريقها إلى الجنة، كما أن طريق الجنة الطاعة، وهذه أيضا لا يمكن أن توصل بصاحبها إلى النار، وضرب مثلا بسالك طريق خراسان، وهو يقصد الوصول إلى الشام. فهذا دليل عقلي على أن الفاسق مصيره إلى النار، وأنه يفعل به ما يستحقه. وهناك دليل عقلي آخر ذكره القاضي عبد الجبار وهذا الدليل هو أن الله أمر ونهى، أي كلف الإنسان، ووعده وتوعده، وكل خلف بالوعد أو الوعيد نوع من الكذب لا يجوز على الله. ولو ثبت أنه يخلف وعيده ولا يعاقب الفاسقين لكان في ذلك إغراء له على فعل القبيح، إذ أن للمكلف أن يعصي ويتجاوز حدود الله، وهو مطمئن إلى أنه سيغفر له.

أما الأدلة السمعية: فقد استدلوا بعموم الآيات الواردة في الوعيد، ومن هذه الآيات التي هي مناط استدلالهم قوله تعالى: وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ [النساء: ١٤]. ووجه الاستدلال: أن الله تبارك وتعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعا، فيجب حمله عليهما، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه. ومن ذلك قوله تعالى: وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا [النساء: ٩٣]. ووجه الاستدلال: هو أنه تعالى يبين أن من يقتل مؤمنا عمدا جازاه وعاقبه وغضب عليه ولعنه، وفي ذلك ما قلناه، أي أن ذلك يكون على سبيل الدوام كما هو مصرح بذكر الخلود في الآية. ومما استدل به المعتزلة أيضا قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [الزخرف: ٧٤]. ووجه

=

=

الاستدلال: أن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعا فيجب أن يكونا مرادين بالآية، معنيين بالنار، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على أنه أرادهما جميعا.هذه بعض أدلة المعتزلة من القرآن الكريم على قولهم بتخليد مرتكب الكبيرة في النار. يقول القاضي عبد الجبار بعد ذكره لهذه الآية: فإنها كما تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة، تدل على أنه يخلد، إذ ما من آية من هذه الآيات التي مرت إلا وفيها ذكر الخلود والتأبيد، أو ما يجري مجراهما.ثم ذكر بعد ذلك طريقة أخرى للاستدلال على هذا المعتقد حيث قال: وهنا طريقة أخرى مركبة من السمع، وتحريرها: هو أن العاصي لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يعفى عنه، أو لا يعفى عنه، فإن لم يعف عنه فقد بقي في النار خالدا، وهو الذي نقوله. وإن عفي عنه فلا يخلو، إما أن يدخل الجنة أو لا، فإن لم يدخل الجنة لم يصح، لأنه لا دار بين الجنة والنار، فإذا لم يكن في النار وجب أن يكون في الجنة لا محالة، وإذا دخل الجنة فلا يخلو إما أن يدخلها مثابا أو متفضلا عليه ولا يجوز أن يدخل الجنة متفضلا عليه، لأن الأمة اتفقت على أن المكلف إذا دخل الجنة فلا بد أن يكون حاله متميزا عن حال الولدين المخلدين وعن حال الأطفال والمجانين، ولا يجوز أن يدخل الجنة مثابا، لأنه غير مستحق، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح.

وغرضه من هذا الكلام هو القول بأن الفاسق لا يجوز على الله تعالى أن يعفو عنه ويدخله الجنة، لأن دخوله الجنة لا يكون إلا عن ثواب لا عن تفضل من الله سبحانه، فالجنة عوض لازم للإنسان عن أعمال الخير إذا لم يشبها كبائر، والفاسق لا ثواب له، وإثابة من لا يستحق الثواب قبيح على الله تعالى، والحسن والقبح كما هو معروف أحد أصول المعتزلة التي يسيرون عليها في معتقداتهم، وإذا ثبت هذا فلا بد من دخول الفاسق النار خالدا، ولا يجوز على الله تعالى أن

=

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠).

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلك مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَام وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاق} فَأَنْتَ مِثْلهمْ فِي ذَلِكَ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِثْل مَا قِيلَ لَك {وَجَعَلْنَا بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَة} بَلِيَّة أُبْتُلِيَ الْغَنِيّ بِالْفَقِيرِ وَالصَّحِيح بِالْمَرِيضِ وَالشَّرِيف بِالْوَضِيعِ يَقُول الثَّانِي فِي كُلّ مَا لِي لَا أَكُون كَالْأَوَّلِ فِي كُلّ {أَتَصْبِرُونَ} عَلَى مَا تَسْمَعُونَ

=

يعفو عنه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وأرى لزاما علي قبل أن أختم الكلام عن مذهب المعتزلة بشأن مرتكب الكبيرة أن أنبه هنا إلى أن الدكتور عبد الكريم عثمان قد ذكر في كتابه نظرية التكليف أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد وافق المعتزلة على رأيهم في وجوب إنفاذ الوعد والوعيد وتخليد مرتكب الكبيرة في النار. وهذا الكلام فيه مكابرة للواقع ومخالفة للحقيقة الظاهرة الواضحة التي قد يكون الاستدلال عليها من العبث بمكان فموقف ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ - واضح جلي لا غموض فيه ولا شبهة وهو من هو بالنسبة لمذهب السلف الصحيح فقد قرره ودافع عنه وانتصر له وهو المذهب الغني عن الإعادة والبيان ولم يقل أحد سوى الدكتور عبد الكريم عثمان أن ابن تيمية، قال بأنه يجب على الله إثابة المطيع، بل ابن تيمية يقول عن الله يثيب المطيع تفضلا منه ونحن لم نوجب ذلك عليه بل أوجبه سبحانه على نفسه. أما عقاب العصاة فإن الله أوعدهم بالعقاب ورحمته وسعت كل شيء فقد يتخلف الوعيد بعفوه سبحانه أما إذا عاقب فإنه لا يخلد لأنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. هذا هو بعينه مذهب السلف، والقدح في ابن تيمية الذي نذر نفسه للدفاع عن الحق الذي يسنده الدليل، يعتبر قدحا في أهل الحق من السنة والجماعة وقد تقدم إيضاح مذهبهم في هذه المسألة.

مِمَّنْ أُبْتُلِيتُمْ بِهِمْ اسْتِفْهَام بِمَعْنَى الْأَمْر أَيْ اصْبِرُوا {وَكَانَ رَبّك بَصِيرًا} بِمَنْ يَصْبِر وبمن يجزع[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه بن الحجاج اجتمعوا؛ فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، قال: فجاءهم رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا محمد! إنا بعثنا إليك لنعذر منك؛ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا؛ جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تطلب الشرف؛ فنحن نسوّدك، وإن كنت تريد ملكًا؛ ملكناك؛ فقال رسول الله ﷺ: "مالي مما تقولون؟! ما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ؛ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"، قالوا: يا محمد! فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضنا عليك؛ فسل لنفسك وسل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جنانًا وقصورًا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: "ما أنا بفاعل؛ ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا؛ ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا"؛ فأنزل الله في قولهم ذلك: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ} إلى =

=

قوله: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}؛ أي: جعلت بعضكم لبعض بلاءً لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلا تخالفوه؛ لفعلت.

أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٨/ ١٤٥) -وسقط متنه-: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف؛ لجهالة محمد بن أبي محمد -شيخ ابن إسحاق-.

* قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠]، أي:"وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول - أحدًا مِن رسلنا إلا كانوا بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق".

قال قتادة:"أي: إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن جميع مَنْ بعثه من الرسل المتقدمين: إنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به {وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ}، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله ﷻ. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩] {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} [الأنبياء: ٨]".

قال الطبري:"هذا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: {مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق}، وجواب لهم عنه يقول لهم

=

=

جل ثناؤه: وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، وأنت لله رسول، فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، كالذي تأكل أنت وتمشي، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} [الفرقان: ٢٠]، أي:"وجعلنا بعضكم -أيها الناس- لبعض ابتلاء واختبارًا بالهدى والضلال، والغنى والفقر، والصحة والمرض ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكا وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه الدنيا لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغني، والملك

بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره. يقول فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ربكم وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه، بغير عرض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها".

قال ابن كثير:"أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصي".

قال السمعاني:"قوله: {أتصبرون}، أي: فاصبروا، ويقال: أو لا تصبرون".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} [الفرقان: ٢٠]، وجوه من التفسير:

=

=

أحدها: فتنة بالعدوان في الدين، حكاه ابن عيسى.

الثاني: أن الفتنة صبر الأنبياء على ما يقول لهم قومهم، قاله يحيى بن سلام.

قال ابن عباس:"أي: جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيهم عليه الدنيا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بكم وأبتليكم بهم". وروي عن ابن إسحاق مثله.

عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ: "يقول الله: إني مُبْتَلِيك، ومُبْتَلٍ بك".

الثالث: أنه ابتلاء الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، فاذا أراد الشريفً أن يسلم فرأى الوضيع قد سبقه بالإسلام أنف فأقام على كفره، قاله ابن السائب.

الرابع: أن المستهزئين من قريش كانوا إذا رأوا فقراء المؤمنين، قالوا: انظروا إلى أتباع محمد من موالينا ورذالتنا، قاله مقاتل.

الخامس: أنه افتتان الفقير بالغني أن يقول: لو شاء الله لجعلني مثله غنيًا، والأعمى بالبصير أن يقول: لو شاء لجعلني مثله بصيرًا، والسقيم بالصحيح أن يقول: لو شاء لجعلني مثله صحيحًا، قاله الحسن.

قال الحسن:"لما عرض على آدم ذريته فرأى فضل بعضهم على بعض قال: يا رب ألا سويت بينهم؟: قال: يا آدم إني أحب أن أشكر ليرى ذو الفضل فضله فيحمدني ويشكرني".

قال عكرمة:"هو التفاضل في الدنيا والقدرة وقهر بعضكم لبعض فهي الفتنة التي قال الله: {وكان ربك بصيرا}".

عن عمرو بن قيس في قوله: "{وجعلنا بعضكم لبعض فتنة}، أن يحسن المليك إلى مملوكه".

عن ابن جريج، قوله: "{وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون}، قال: يمسك عن

=

=

هذا، ويوسع على هذا، فيقول: لم يعطني مثل ما أعطى فلانا، ويبتلى بالوجع كذلك، فيقول: لم يجعلني ربي صحيحا مثل فلان في أشباه ذلك من البلاء، ليعلم من يصبر ممن يجزع".

عن أبي رافع الزرقي قال: "قال رجل: يا رسول الله كيف ترى رقيقنا؟ قوم مسلمون يصلون صلاتنا ويصومون صيامنا نضربهم. فقال رسول الله ﷺ: توزن ذنوبهم وعقوبتكم إياهم فإن كان عقوبتكم أكثر من ذنوبهم أخذوا منكم. قالوا: أفرأيت سبنا إياهم؟ قال: توزن ذنوبهم وأذاكم إياهم فإن كان أذاكم إياهم أكثر أعطوا منكم قال الرجل: ما أسمع عدوا أعرب إلي منهم. فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا}، قال الرجل: أرأيت يا رسول الله ولدي أضربهم؟ قال: إنك لا تتهم في ولدك. ولا تطيب نفسك تشبع ويجوعوا، ولا تكتس ويعروا".

قال السمعاني:"عن بعضهم أنه رأى بعض الأغنياء وقد مر عليه في موكبه، فوقف وقرأ قوله تعالى: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون} ثم قال: بلى نصبر ربنا، بلى نصبر ربنا، بلى نصبر ربنا، ثلاث مرات. وأورد بعضهم هذه الحكاية للمزني مع الربيع بن سليمان المرادي، وعن داود الطائي أنه مر عليه حميد الطوسي في موكبه، وداود في أطمار له، فقال لنفسه: أتطلبين دنيا سبقك بها حميد؟".

وروى: "أن رجلا مر على الحسن البصري، وهو في هيئة حسنة، وسيادة عظيمة من الدنيا، فسأل من هذا؟ فقيل: هذا صراط الحجاج، فقال: هذا الذي أخذ الدنيا بحقها".

قوله تعالى: {وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان: ٢٠]، أي:"وكان ربك - أيها الرسول - بصيرًا بمن يجزع أو يصبر، وبمن يكفر أو يشكر".

قال الطبري:"يقول: وربك يا محمد بصير بمن يجزع ومن يصبر على ما امتحن

=

=

به من المحن".

قال السمعاني:"أي: بصيرا بأعمالكم".

قال ابن كثير:"أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك".

قال ابن جريج:"إن ربك لبصير بمن يجزع، ومن يصبر".

قال عبد الله بن عبيد بن عكير:"يعنى: الناس عامة".

أى: وما أرسلنا قبلك- أيها الرسول الكريم- أحدا من رسلنا، إلا وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذي يأكله غيرهم من البشر. ويمشون في الأسواق كما يمشى غيرهم من الناس، طلبا للرزق.

وإذا فقول المشركين في شأنك «مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق» قول يدل على جهالاتهم وسوء نياتهم فلا تتأثر به، ولا تلتفت إليه، فأنت على الحق وهم على الباطل.

وقوله- تعالى-: وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً بيان لسنة من سنن الله- تعالى- في خلقه، اقتضتها حكمته ومشيئته.

أى: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه، إذ أن قوى الإيمان لتصديقه بقضاء الله وقدره يثبت على الحق ويلتزم بما أمره الله- تعالى- به، أما ضعيف الإيمان فإنه يحسد غيره على ما آتاه الله- تعالى- من فضله. كما حسد المشركون رسول الله ﷺ على منصب النبوة الذي أعطاه الله- تعالى- إياه وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.

قال القرطبي: قوله- تعالى-: وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ أى: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد- سبحانه- أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم

=

=

في جميع الناس، فالصحيح: فتنة للمريض. والغنى: فتنة للفقير.. ومعنى هذا، أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير، فعليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغنى، فعليه أن لا يحسده. ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق.. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره ...

فالفتنة: أن يحسد المبتلى المعافى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر وذاك عن الضجر.. ا.هـ.

والاستفهام في قوله- تعالى-: أَتَصْبِرُونَ للتقرير. أى: أتصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتنالوا من الله- تعالى- الأجر، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم؟

ويصح أن يكون الاستفهام بمعنى الأمر. أى: اصبروا على هذا الابتلاء كما في قوله- تعالى-: ... وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ.. «٣» أى: أسلموا.. وكما في قوله- سبحانه-: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ أى: انتهوا عن الخمر والميسر.

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بقوله وَكانَ رَبُّكَ بَصِيرًا أى: وكان ربك أيها الرسول الكريم- بصيرا بأحوال النفوس الطاهرة والخفية، وبتقلبات القلوب وخلجاتها.

فاصبر على أذى قومك، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين.

فهذا التذييل فيه ما فيه من التسلية والتثبيت لفؤاد النبي ﷺ.

ثم حكت السورة للمرة الرابعة تطاول المشركين وجهالاتهم، وردت عليهم بما يخزيهم، وبينت ما أعد لهم من عذاب في يوم لا ينفعهم فيه الندم.

قال ابن عاشور: هذا رد على قولهم: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق [الفرقان:

=

=

٧] بعد أن رد عليهم قولهم أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها [الفرقان: ٨] بقوله:

تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك [الفرقان: ١٠]، ولكن لما كان قولهم: أو يلقى إليه كنز حالة لم تعط للرسل في الحياة الدنيا كان رد قولهم فيها بأن الله أعطاه خيرا من ذلك في الآخرة.

وأما قولهم: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فقد توسلوا به إلى إبطال رسالته بثبوت صفات البشر له، فكان الرد عليهم بأن جميع الرسل كانوا متصفين بصفات البشر، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد ﷺ، فقد قالوا:

فليأتنا بآية كما أرسل الأولون [الأنبياء: ٥]، وإذ كانوا موجودين فبالضرورة كانوا يأكلون الطعام إذ هم من البشر ويمشون في أسواق المدن والبادية لأن الدعوة تكون في مجامع الناس. وقد قال موسى موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى [طه: ٥٩]. وكان النبيء ﷺ يدعو قريشا في مجامعهم ونواديهم ويدعو سائر العرب في عكاظ وفي أيام الموسم.

وجملة: ليأكلون الطعام في موضع الحال لأن المستثنى منه عموم الأحوال.

والتقدير: وما أرسلنا قبلك من المرسلين في حال إلا في حال إنهم ليأكلون الطعام.

والتوكيد ب (إن) واللام لتحقيق وقوع الحال تنزيلا للمشركين في تناسيهم أحوال الرسل منزلة من ينكر أن يكون الرسل السابقون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولم تقترن جملة الحال بالواو لأن وجود أداة الاستثناء كاف في الربط ولا سيما وقد تأكد الربط بحرف التوكيد فلا يزاد حرف آخر فيتوالى أربعة حروف وهي: إلا، وإن، واللام، ويزاد الواو بخلاف قوله تعالى: وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم [الحجر: ٤]، وقوله: وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون

=

=

[الشعراء: ٢٠٨].

وإنما أبقى الله الرسل على الحالة المعتادة للبشر فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك وإنما يغير الله حياتهم النفسية لأن في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية.

ولله تعالى حفاظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم لأنه ما خلقها عبثا فهو لا يغيرها إلا بمقدار ما تتعلق به إرادته من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك.

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا.

تذييل، فضمير الخطاب في قوله: بعضكم يعم جميع الناس بقرينة السياق. وكلا البعضين مبهم يبينه المقام. وحال الفتنة في كلا البعضين مختلف، فبعضها فتنة في العقيدة، وبعضها فتنة في الأمن، وبعضها فتنة في الأبدان.

والإخبار عنه ب فتنة مجازي لأنه سبب الفتنة، وشمل أحد البعضين النبيء ﷺ والمؤمنين معه، والبعض الآخر المشركين فكان حال الرسول فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان الذي يسويهم بهم، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وأضرابهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار بن ياسر وصهيب وبلال ترفعوا علينا إدلالا بالسابقة. وهذا كقول صناديد قوم نوح لا نؤمن حتى تطرد الذين آمنوا بك فقال:

وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون [هود: ٢٩، ٣٠].

وقال تعالى للنبيء ﷺ: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من

=

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١).

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} لَا يَخَافُونَ الْبَعْث {لَوْلَا} هَلَّا {أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَة} فَكَانُوا رُسُلًا إلَيْنَا {أَوْ نَرَى رَبّنَا} فَنُخْبَر بِأَنَّ محمدا رسوله قال تعالى {لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا} تَكَبَّرُوا {فِي} شَأْن {أَنْفُسهمْ وَعَتَوْا} طَغَوْا {عُتُوًّا كَبِيرًا} بِطَلَبِهِمْ رُؤْيَة الله تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَعَتَوْا بِالْوَاوِ عَلَى أَصْلِهِ بِخِلَافِ عِتِيّ بِالْإِبْدَالِ فِي مَرْيَم.

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢).

{يَوْم يَرَوْنَ الْمَلَائِكَة} فِي جُمْلَة الْخَلَائِق هُوَ يَوْم الْقِيَامَة وَنَصْبه بِاذْكُرْ مُقَدَّرًا

=

بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

والكلام تسلية للنبيء ﷺ عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عقب بقوله:

أتصبرون، وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله: فهل أنتم منتهون [المائدة:

٩١]. وموقع وكان ربك بصيرا موقع الحث على الصبر المأمور به، أي هو عليم بالصابرين، وإيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم. وفي الإسناد إلى وصف الرب مضافا إلى ضمير النبيء إلماع إلى هذا الوعد فإن الرب لا يضيع أولياءه كقوله: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [الحجر: ٩٧- ٩٩] أي النصر المحقق.

{لَا بُشْرَى يَوْمئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ} أَيْ الْكَافِرِينَ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ الْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} عَلَى عَادَتهمْ فِي الدُّنْيَا إذَا نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّة أَيْ عوذا معاذا يستعيذون من الملائكة قال تعالى.

وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣).

{وَقَدِمْنَا} عَمَدْنَا {إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَل} مِنْ الْخَيْر كَصَدَقَةٍ وَصِلَة رَحِم وَقِرَى ضَيْف وَإِغَاثَة مَلْهُوف فِي الدُّنْيَا {فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَنْثُورًا} هُوَ مَا يُرَى فِي الْكُوَى الَّتِي عَلَيْهَا الشَّمْس كَالْغُبَارِ الْمُفَرَّق أَيْ مِثْله فِي عَدَم النَّفْع بِهِ إذْ لَا ثَوَاب فِيهِ لِعَدَمِ شَرْطه وَيُجَازَوْنَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤).

{أَصْحَاب الْجَنَّة يَوْمئِذٍ} يَوْم الْقِيَامَة {خَيْر مُسْتَقَرًّا} مِنْ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا {وَأَحْسَن مَقِيلًا} مِنْهُمْ أَيْ مَوْضِع قَائِلَة فِيهَا وَهِيَ الِاسْتِرَاحَة نِصْف النَّهَار فِي الْحَرّ وَأُخِذَ مِنْ ذَلِكَ انْقِضَاء الْحِسَاب فِي نِصْف نَهَار كَمَا وَرَدَ فِي حديث[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [الفرقان: ٢١]، أي:"وقال الذين لا يؤمِّلون لقاء ربهم بعد موتهم لإنكارهم له".

قال مقاتل:"يعني: لا يخشون البعث".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال المشركون الذين لا يخافون لقاءنا، ولا يخشون عقابنا".

عن عبد الله بن عبيد بن عمير في قوله: "{وقال الذين لا يرجون لقاءنا}، قال: لا يبالون".

قوله تعالى: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ} [الفرقان: ٢١]، أي:"هلا أُنزل علينا الملائكة، فتُخْبِرنا بأن محمدًا صادق".

=

=

قال يحيى:"فيشهدوا أنك رسول الله يا محمد".

قال الطبري: يقول:"أنزل الله علينا ملائكة، فتخبرنا أن محمدا محق فيما يقول، وأن ما جاءنا به صدق".

عن قتادة قوله: "{لولا أنزل علينا الملائكة}، أي: {فنراهم عيانا}".

عن ابن جريج، قال: "قال كفار قريش: {لولا أنزل علينا الملائكة}، فيخبرونا أن محمدا رسول الله".

قوله تعالى: {أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [الفرقان: ٢١]، أي:"أو نرى ربنا عِيانًا، فيخبرنا بصدقه في رسالته".

قال يحيى:"معاينة فيخبرنا أنك رسوله".

قال الطبري: يقول:"أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك".

قوله تعالى: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} [الفرقان: ٢١]، أي:"لقد أُعجِبوا بأنفسهم واستعلَوْا حيث اجترؤوا على هذا القول".

قال الطبري: يقول:"يقول الله: لقد استكبر قائلو هذه المقالة في أنفسهم، ونعظموا".

قوله تعالى: {وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان: ٢١]، أي:"وتجاوزوا الحدَّ في طغيانهم وكفرهم".

قال مقاتل:"يقول: علوا فى القول علوا شديدا حين قالوا أو نرى ربنا فهكذا العلو فى القول".

قال الطبري:"يقول: وتجاوزوا في الاستكبار بقيلهم ذلك حده".

قال يحيى:"وعصوا عصيانا كبيرا".

قال عكرمة:"العتو في كتاب الله: التجبر".

قال الزجاج:"فأعلم الله ﷻ أن الذين لا يوقنون بالبعث، ولا يرجون الثواب على

=

=

الأعمال عند لقاء الله طلبوا من الآيات ما لم يأت أمة من الأمم، فأعلم الله ﷻ أنهم قد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا، ويجوز: «عتوا كثيرا»، بالثاء، و «العتو» في اللغة: المجاوزة في القدر في الظلم".

قال الفخر الرازي: اعلم أن قوله- تعالى-: وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا هو الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد ﷺ وحاصلها: لماذا لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق في دعواه، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا...

والرجاء: الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع. وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء، وفسره بعضهم هنا بأن المراد به: الخوف.

والمراد بلقائه- سبحانه-: الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء.

أى: وقال الكافرون الذين لا أمل عندهم في لقائنا يوم القيامة للحساب والجزاء لأنهم ينكرون ذلك، ولا يبالون به، ولا يخافون أهواله. قالوا- على سبيل التعنت والعناد-: هلا أنزل علينا الملائكة لكي يخبرونا بصدق محمد ﷺ أو هلا نرى ربنا جهرة ومعاينة ليقول لنا إن محمدا ﷺ رسول من عندي! وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: ... أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا. أى:

ليشهدوا بصدقك، وقد رد الله- تعالى- عليهم بقوله: لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا.

والعتو: تجاوز الحد في الظلم والعدوان. يقال عتا فلان يعتو عتوا، إذا تجاوز حده في الطغيان.

أى: والله لقد أضمر هؤلاء الكافرون الاستكبار عن الحق في أنفسهم المغرورة، وتجاوزوا كل حد في الطغيان تجاوزا كبيرا، حيث طلبوا مطالب هي أبعد من أن ينالوها بعد الأرض عن السماء. وصدق الله إذ يقول: ... إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ...

=

=

ووصف- سبحانه- عتوهم بالكبر للدلالة على إفراطهم فيه، وأنهم قد وصلوا في عتوهم إلى الغاية القصوى منه.

قال الشنقيطي: ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الذين لا يرجون لقاء الله قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة، أو نرى ربنا. ولولا في هذه الآية للتحضيض.

والمعنى أنهم طلبوا بحث وشدة أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم. وهذا التعنت الذي ذكره الله عنهم هنا من طلبهم إنزال الملائكة عليهم، أو رؤيتهم ربهم ذكره في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)} وقولهم: {لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ} قيل: فتوحي إلينا كما أوحت إليك. وهذا القول يدل له قوله تعالى: {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ} الآية، وقيل: لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عيانًا. وهذا يدل له قوله تعالى: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)} أي: معاينة، على القول بذلك. وقد قدمنا الأقوال في ذلك في سورة بني إسرائيل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: لا يرجون. قال بعض العلماء: لا يرجون، أي: لا يخافون لقاءنا؛ لعدم إيمانهم بالبعث. والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع. قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣)} قال: أي: لا تخافون لله عظمة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نوب عواسل

فقوله: لم يرج لسعها: أي: لم يخف لسعها.

وقال بعض أهل العلم: إطلاق الرجاء على الخوف لغة تهامة، وقال بعض العلماء: لا يرجون لقاءنا لا يأملون، وعزاه القرطبي لابن شجرة، وقال: ومنه قول الشاعر:

أترجو أمة قتلت حسينا ... شفاعة جده يوم الحساب

أي: أتأمل أمة إلخ.

=

=

والذي لا يؤمن بالبعث لا يخاف لقاء الله؛ لأنه لا يصدق بالعذاب، ولا يأمل الخير من تلقائه؛ لأنه لا يؤمن بالثواب.

وقوله جلَّ وعلا: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} أي: أضمروا التكبر عن الحق في قلوبهم، واعتقدوه عنادًا وكفرًا. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} وقوله تعالى: {وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)} أي: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان، يقال: عتا علينا فلان، أي: تجاوز الحد في ظلمنا، ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر يدل على أنه بالغ في إفراطه، وأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو. وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات، ووضوح الحق وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة، أو رؤية الله، استكبارٌ عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال، والتقريع، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنت واستكبر عن قبول الحق، كما في قوله تعالى: {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ} وقوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} الآية، وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥)}.

واستدلال المعتزلة بهذه الآية، وأمثالها على أن رؤية الله مستحيلة استدلال باطل ومذهبهم والعياذ بالله من أكبر الضلال، وأعظم الباطل. وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية: إن الله لا يرى، قول باطل، وكلام فاسد.

والحق الذي لا شك فيه: أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث، عن الصادق المصدوق ﷺ، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقًا ومفهومًا. كما أوضحناه في غير هذا الموضع ا.هـ

=

=

ثم بين- سبحانه- الحالة التي يرون فيها الملائكة فقال: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ} [الفرقان: ٢٢]، أي:"يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن يكون للمجرمين يومئذٍ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران".

قال مجاهد: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ}، قال: "يوم القيامة".

قال يحيى:"هذا عند الموت، {لا بشرى يومئذ للمجرمين} للمشركين، لا بشرى لهم يومئذ بالجنة، وذلك أن المؤمنين تبشرهم الملائكة عند الموت بالجنة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يوم يرى هؤلاء الذين قالوا: {لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا} بتصديق محمد الملائكة، فلا بشرى لهم يومئذ بخير".

قال الزجاج:"{يوم يرون الملائكة}، هو يوم القيام، والمجرمون: الذين اجترموا الذنوب، وهم في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله ﷻ".

عن عطية، قوله: "{لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ}، قال: إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى فإذا رأى ذلك الكفار قالوا للملائكة بشرونا، قالوا: {حجرا محجورا}، قال: حراما محرما أن نتلقاكم بالبشرى".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٢٢]، أي:"وتقول الملائكة لهم: جعل الله الجنة مكانًا محرمًا عليكم".

قال الطبري:"يعني: أن الملائكة يقولون للمجرمين حجرا محجورا، حراما محرما عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله.

وفي قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٢٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: معناه: معاذ الله أن تكون لكم البشرى يومئذ، قاله مجاهد.

الثاني: معناه: منعنا أن نصل إلى شيء من الخير، قاله عكرمة.

=

=

الثالث: حرامًا محرمًا أن تكون لكم البشرى يومئذ، قاله أبو سعيد الخدري، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطية، وعطاء الخراساني، وخصيف، وبه قال الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والطبري، ومنه قول الملتمس:

حَنَّتْ إلى نَخْلَةَ القُصْوَى فَقُلْتُ لَهَا... حِجْرٌ حَرَامٌ ألا تِلْكَ الدَّهاريسُ

وقول الآخر:

فَهَمَمْتُ أنْ أَلْقَى إلَيْها مَحْجَرًا... وَلَمِثْلُهَا يُلْقَى إلَيْهِ المَحْجَرُ

ومنه قولهم: حجر القاضي على فلان، وحجر فلان على أهله؛ ومنه حجر الكعبة، لأنه لا يدخل إليه في الطواف، وإنما يطاف من ورائه.

قال أبو سعيد الخدري:"حراما محرما أن نبشركم بما نبشر به المتقين".

وفي القائلين حجرًا محجورًا قولان:

أحدهما: أنهم الملائكة قالوه للكفار، قاله أبو سعيد الخدري، ومجاهد، والضحاك.

قال مقاتل:"وذلك أن كفار مكة إذا خرجوا من قبورهم قالت لهم الحفظة من الملائكة- عليهم السلام- حرام محرم عليكم- أيها المجرمون- أن يكون لكم من البشرى شيء حين رأيتمونا، كما بشر المؤمنون في حم السجدة، فذلك قوله: {يقولون}، يعني: الحفظة من الملائكة للكفار: {حجرا محجورا}، يعني: حراما محرما عليكم- أيها المجرمون- البشارة كما بشر المؤمنون".

الثاني: أنهم الكفار قالوه لأنفسهم، قاله قتادة، ومجاهد في رواية.

قال مجاهد:"يستعيذون من الملائكة".

قال قتادة:"هي كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزل به شدة قال: حجرا، يقول: حراما محرما".

قال قتادة:"لما جاءت زلازل الساعة، فكان من زلازلها أن السماء انشقت {فهي

=

=

يومئذ واهية والملك على أرجائها} على شفة كل شيء تشقق من السماء، فذلك قوله: {يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون}: يعني الملائكة تقول للمجرمين حراما محرما أيها المجرمون أن تكون لكم البشرى اليوم حين رأيتمونا".

قال الطبري:"الحجر: هو الحرام، فمعلوم أن الملائكة هي التي تخبر أهل الكفر أن البشرى عليهم حرام. وأما الاستعاذة فإنها الاستجارة، وليست بتحريم، ومعلوم أن الكفار لا يقولون للملائكة حرام عليكم، فيوجه الكلام إلى أن ذلك خبر عن قيل المجرمين للملائكة".

أى: لقد طلب هؤلاء الظالمون نزول الملائكة عليهم، ورؤيتهم لهم. ونحن سنجيبهم إلى ما طلبوه ولكن بصورة أخرى تختلف اختلافا كليا عما يتوقعونه، إننا سنريهم الملائكة عند قبض أرواحهم وعند الحساب بصورة تجعل هؤلاء الكافرين يفزعون ويهلعون. بصورة لا تبشرهم بخير ولا تسرهم رؤيتهم معها، بل تسوؤهم وتحزنهم، كما قال- تعالى-: وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ... وكما قال- سبحانه-: فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ.

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف. لبيان حالهم الشنيعة عند ما تنزل عليهم الملائكة. بعد بيان تجاوزهم الحد في الطغيان وفي طلب ما ليس من حقهم.

والمراد بالملائكة هنا: ملائكة العذاب الذين يقبضون أرواحهم، والذين يقودونهم إلى النار يوم القيامة.

وقال- سبحانه-: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ... ولم يقل: يوم تنزل الملائكة، للإيذان من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على الطريقة التي طلبوها، بل على وجه آخر فيه ما فيه من العذاب المهين لهؤلاء الكافرين.

=

=

وجاء نفى البشرى لهم بلا النافية للجنس للمبالغة في نفى أى بارقة تجعلهم يأملون في أن ما نزل بهم من سوء، قد يتزحزح عنهم في الحال أو الاستقبال.

قال الجمل في حاشيته: وقوله لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ هذه الجملة معمولة لقول مضمر. أى: يرون الملائكة يقولون لا بشرى. فالقول حال من الملائكة وهو نظير التقدير في قوله- تعالى-: ... وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ.. وكل من الظرف والجار والمجرور خبر عن لا النافية للجنس.

وقوله- تعالى-: وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا تأكيد لما قبله من أنه لا خير لهؤلاء الكافرين من وراء رؤيتهم للملائكة.

والحجر- بكسر الحاء وفتحها- الحرام، وأصله المنع. ومحجورا صفة مؤكدة للمعنى، كما في قولهم: موت مائت. وليل أليل، وحرام محرم.

قال الآلوسى: وهي- أى: حجرا محجورا- كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور، وهجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله- تعالى- أن يمنع المكروه فلا يلحقهم، فكأن المعنى، نسأل الله- تعالى- أن يمنع ذلك منعا، ويحجره حجرا.

وقال الخليل: كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول: حجرا محجورا. أى: حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدأ بشر.

والقائلون لهذا القول يرى بعضهم أنهم الملائكة، فيكون المعنى: تقول الملائكة للكفار حجرا محجورا. أى: حراما محرما أن تكون لكم اليوم بشرى. أو أن يغفر الله لكم، أو أن يدخلكم جنته.

وقد رجح ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه: وإنما اخترنا أن القائلين هم الملائكة من أجل أن الحجر هو الحرام. فمعلوم أن الملائكة هي التي تخبر أهل الكفر، أن

=

=

البشرى عليهم حرام.. ا.هـ.

الذين طلبوا نزول الملائكة عليهم ليشهدوا لهم بصدق الرسول ﷺ عند ما يرونهم عند الموت أو عند الحساب يقولون لهم بفزع وهلع: «حجرا محجورا» أى: حراما محرما عليكم أن تنزلوا بنا العذاب، فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه هذا العذاب المهين، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قوله- تعالى-: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ، بَلى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

وعلى كلا الرأيين فالجملة الكريمة تؤكد سوء عاقبة الكافرين.

قال الشنقيطي: ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم، أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم، أي: لا تسرهم رؤيتهم، ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم، وتكون يوم القيامة، ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين.

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها؛ لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت، كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} الآية، وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)} وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)}.

وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضًا، ويدل لذلك قوله تعالى: {وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)}.

=

=

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ} يدل بدليل خطابه، أي: مفهوم مخالفته أن غير المجرمين يوم يرون الملائكة تكون لهم البشرى، وهذا المفهوم من هذه الآية جاء مصرحًا به في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)} أظهر القولين فيه عندي أنه من كلام الكفار يوم يرون الملائكة، لا من كلام الملائكة. وإيضاحه: أن الكفار الذين اقترحوا إنزال الملائكة إذا رأوا الملائكة توقعوا العذاب من قبلهم، فيقولون حينئذ للملائكة. حجرًا محجورًا، أي: حرامًا محرمًا عليكم أن تمسونا بسوء، أي لأننا لم نرتكب ذنبًا نستوجب به العذاب، كما أوضحه تعالى بقوله عنهم: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)} فقولهم: ما كنا نعمل من سوء، أي: لم نستوجب عذابًا فتعذيبنا حرام محرم. وقد كذبهم الله في دعواهم هذه بقوله: {بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)} وعادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أنهم يقولون هذا الكلام: أي: حجرًا محجورًا عند لقاء عدو موتور، أو هجوم نازلة أو نحو ذلك.

وقد ذكر سيبويه هذه الكلمة أعني: حجرًا محجورًا في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو: معاذ الله، وعمرك الله، ونحو ذلك.

وقوله: {حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢)} أصله من حجره بمعنى منعه، والحجر الحرام، لأنه ممنوع، ومنه قوله: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ} أي حرام {لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ} ومنه قول المتلمس:

=

=

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها ... حجر حرام ألا تلك الدهاريس

فقوله: حرام تأكيد لقوله: حجر؛ لأن معناه حرام، وقول الآخر:

ألا أصبحت أسماء حجرًا محرمًا ... وأصبحت من أدنى حموتها حما

وقول الآخر:

قالت وفيها حيرة وذعر ... عوذ بربي منكم وحجر

وقوله: محجورًا توكيد لمعنى الحجر.

قال الزمخشري: كقول العرب: ذيل ذائل. والذيل الهوان. وموت مائت. وأما على القول بأن حجرًا محجورًا من قول الملائكة فمعناه: أنهم يقولون للكفار: حجرًا محجورًا؛ أي: حرامًا محرمًا أن تكون للكفار اليوم بشرى، أو أن يغفر لهم، أو يدخلون الجنة. وهذا القول اختاره ابن جرير، وابن كثير وغير واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ} قال الزمخشري: يوم منصوب بأحد شيئين: إما بما دل عليه لا بشرى، أي: يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى، أو يعدمونها، ويومئذ للتكرير، وإما بإضمار اذكر، أي: اذكر يوم يرون الملائكة، ثم قال: لا بشرى يومئذ للمجرمين ا.هـ

ثم ساق- سبحانه- بعد ذلك وعيدا آخر لهؤلاء الكافرين فقال: وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُورًا.

قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)} [الفرقان: ٢٣]

التفسير:

وقَدِمْنا إلى ما عملوه مِن مظاهر الخير والبر، فجعلناه باطلا مضمحلا لا ينفعهم كالهباء المنثور، وهو ما يُرى في ضوء الشمس من خفيف الغبار؛ وذلك أن العمل لا ينفع في الآخرة إلا إذا توفر في صاحبه: الإيمان بالله، والإخلاص له، والمتابعة

=

=

لرسوله محمد، ﷺ.

قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ} [الفرقان: ٢٣]، أي:"وقَدِمْنا إلى ما عملوه الكفار مِن مظاهر الخير والبر".

عن مجاهد، قوله: "{وقدمنا}: عمدنا". وروى، عن السدي، وسفيان الثوري، مثل ذلك.

قال السدي:"عمدنا وبعضهم يقول: أتينا عليه".

قال مجاهد:"قدمنا إلى ما عملوا من خير لا يتقبل منهم".

قال ابن المبارك:"كل عمل صالح لا يراد به وجه الله".

قال الفراء: أي:"عمدنا، بفتح العين".

قال أبو عبيدة: معناه:"وعمدنا إلى ما عملوا، قال:

فقدم الخوارج الضّلّال... إلى عباد ربّهم فقالوا".

قال الزجاج:"معنى {قدمنا}: عمدنا وقصدنا، كما تقول: قام فلان يشتم فلانا، تريد قصد إلى شتم فلان، ولا تريد قام من القيام على الرجلين".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]، أي:"فجعلناه باطلا مضمحلا لا ينفعهم كالهباء المنثور".

قال الفراء:"أي: باطلا".

قال الزجاج:"«الهباء»: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار، وتأويله: أن الله ﷻ أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور".

وفي قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: ٢٣]، خمسة أقوال:

أحدها: أنه رهج الدواب، قاله علي بن أبي طالب-في رواية-، وابن عباس -في بعض الروايات-، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والضحاك.

الثاني: أنه كالغبار يكون في شعاع الشمس إذا طلعت في الكوة، قاله علي بن أبي

=

=

طالب، وابن عباس -في بعض الروايات-، والحسن، ومجاهد، وأبو مالك، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك -في أحد الروايات-.

قال الحسن:"الشعاع في كوة أحدكم لو ذهب يقبض عليه لم يستطع".

الثالث: أنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر، قاله قتادة.

قال قتادة:"أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح فهو ذلك يعني الورق".

الرابع: أنها الماء المراق، قاله ابن عباس أيضا.

الخامس: أن «الهباء»: الرماد، قاله عبيد بن يعلى.

والهباء: الشيء الدقيق الذي يخرج من النافذة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار.

والمنثور: المتفرق في الجو بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره.

أى: وقدمنا وقصدنا وعمدنا- بإرادتنا وحكمتنا إلى ما عمله هؤلاء الكافرون من عمل صالح في الدنيا- كالإحسان إلى الفقراء، والإنفاق في وجوه الخير- فجعلناه باطلا ضائعا، ممزقا كل ممزق، لأنهم فقدوا شرط قبوله عندنا، وهو إخلاص العبادة لنا.

فقد شبه- سبحانه- أعمالهم الصالحة في الدنيا في عدم انتفاعهم بها يوم القيامة- بالهباء المنثور، الذي تفرق وتبدد وصار لا يرجى خير من ورائه لحقارته وتفاهته.

ثم بين- سبحانه- ما سيكون عليه أصحاب الجنة من نعيم مقيم يوم القيامة فقال: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا.

قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا} [الفرقان: ٢٤]، أي:"أصحابُ الجنة يوم القيامة خيرٌ من الكفار مستقرًا ومنزلًا ومأوى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أهل الجنة يوم القيامة خير مستقرا، وهو الموضع الذي يستقرون فيه من منازلهم في الجنة من مستقر هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم، وما أوتوا من عرض هذه الدنيا في الدنيا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فَنَبَّه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية".

عن سعيد بن جبير قوله: "{يومئذ}، يعنى: يوم القيامة".

قال أبو سنان:"المستقر: الجنة".

عن أبي سعيد الخدري قال: "قال رسول الله ﷺ: إن أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة وجوههم على مثل صورة القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دري في السماء".

قوله تعالى: {وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: ٢٤]، أي:"وأحسنُ منهم مكانًا للتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار".

قال قتادة:"أي: مأوى ومنزلا".

قال الطبري: يقول:"وأحسن منهم فيها مقيلا، فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ فيقال: {وأحسن مقيلا} فيها؟

قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قرارا في أوقات قائلتهم في الدنيا، وذلك أنه ذكر أن أهل الجنة لا يمر فيهم في الآخرة إلا قدر ميقات النهار من أوله إلى وقت القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: {وأحسن مقيلا}".

قال صفوان بن محرز:"يجئ يوم القيامة برجلين كان أحدهما ملكا في الدنيا إلى الحمرة والبياض فيحاسب، فإذا عبد لم يعمل خيرا، فيؤمر به إلى النار، والآخر صاحب كساء في الدنيا فيحاسب، فيقول: يا رب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به، فيقول صدق عبدي فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة، ثم يتركان ما شاء الله ثم يدعى صاحب النار، فإذا هو مثل الحممة السوداء، فيقال له كيف وجدت؟ فيقول: شر

=

=

مقيل، فيقال له: عد. ثم يدعى بصاحب الجنة فإذا هو مثل القمر ليلة البدر، فيقال له: كيف وجدت؟ فيقول رب: خير مقيل، فيقال له: عد".

وفي قوله تعالى: {وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: ٢٤]، وجوه:

أحدها: أنه المستقر في الجنة والمقيل دونها، قاله أبو سنان.

الثاني: أنه عنى موضع القائلة للدعة وإن لم يقيلوا، ذكره ابن عيسى.

الثالث: أنه يقيل أولياء الله بعد الحساب على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين المقرنين، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"إنما هي ضحوة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين المقرنين".

الرابع: أنه إذا فرغ من عرض الكفار، أخرج لهم عنق من النار يحيط بهم، فذلك قوله: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩]، ثم خرج من النار دخان ظل أسود فيتفرق عليهم من فوقهم ثلاث فرق وهم في السرادق فينطلقون يستظلون تحتها مما أصابهم من حر السرادق فيأخذهم الغثيان والشدة من حره، وهو أخف العذاب، فيقبلون فيها لا مقبل راحة، فذلك مقيل أهل النار، ثم يدخلون النار أفواجا أفواجا. وهذا قول مقاتل.

الخامس: لأنه يفرغ من حسابهم وقت القائلة وهو نصف النهار، فذلك أحسن مقيلًا، من مقيل الكفار في النار، وهذا قول سعيد بن جبير، وعكرمة، وإبراهيم، وابن جريج، وسعيد الصراف، وبه قال الفراء.

قال سعيد بن جبير:"يفرغ الله من حساب الناس نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فيقول الله يومئذ: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا}".

قال إبراهيم:"كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة في نصف النهار،

=

=

فيقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار".

قال ابن جريج:"لم ينتصف النهار حتى يقضي الله بينهم، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار".

وقال ابن عباس:"كان الحساب من ذلك في أوله، وقال القوم حين قالوا في منازلهم من الجنة، وقرأ: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا}".

عن عمرو بن الحارث:"أن سعيدا الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقضي على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وأنهم يقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس، فذلك قول الله: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا}".

قال عكرمة:"إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار الساعة التي تكون في الدنيا ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت فأشبعهم ذلك كلهم. فذلك قوله: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا}".

وقال عبد الله بن مسعود:"لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة وأهل النار، ثم قرأ: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا}، ثم قرأ: {إن مرجعهم لإلى الجحيم}".

قال الزجاج:"«المقيل»: المقام وقت القائلة، وقيل: هو النوم نصف النهار، وجاء في التفسير أن أهل الجنة يصيرون إلى أهليهم في الجنة وقت نصف النهار".

والمستقر: المكان الذي يستقر فيه الإنسان في أغلب وقته. والمقيل: المكان الذي يؤوى إليه في وقت القيلولة للاستراحة من عناء الحر.

أي: «أصحاب الجنة يومئذ» أي: يوم القيامة «خير مستقرا» أي: خير مكانا ومنزلا

=

=

في الجنة، مما كان عليه الكافرون في الدنيا من متاع زائل، ونعيم حائل «وأحسن مقيلا» أي: وأحسن راحة وهناء ومأوى، مما فيه الكافرون من عذاب مقيم.

وقد استنبط بعض العلماء. من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهى في وقت قصير، لا يتجاوز نصف النهار. قالوا: لأن قوله- تعالى- وَأَحْسَنُ مَقِيلًا يدل على أنهم في وقت القيلولة، يكونون في راحة ونعيم، ويشير إلى ذلك قوله- تعالى-: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا.

وأما أهل النار- والعياذ بالله- فهم ليسوا كذلك لأن حسابهم غير يسير.

وقد ساق ابن كثير في هذا المعنى آثارا منها أن سعيد الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم ليقيلون في رياض الجنة.

وقال الشنقيطي: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة: أن حساب أهل الجنة يسير، وأنه ينتهي في نصف نهار. ووجه ذلك أن قوله: مقيلًا، أي: مكان قيلولة، وهي الاستراحة في نصف النهار، قالوا: وهذا الذي فهم من هذه الآية الكريمة جاء بيانه في قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)}.

ويفهم من قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا} الآية. أن أصحاب النار ليسوا كذلك، وأن حسابهم غير يسير.

وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى قريبًا من هذه الآية: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)}، فقوله: (على الكافرين) يدل على أنه على المؤمنين غير عسير، كما قال تعالى: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ} الآية. وقوله تعالى: {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ

=

=

(٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)} وقوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)} وإذا علمت مما ذكرنا ما جاء من الآيات فيه بيان لقوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} فهذه أقوال بعض المصنفين في المعنى الذي ذكرنا في الآية.

قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: {خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} قال: في الغرف من الجنة، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وذلك مثل قوله: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)} وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} وقرأ: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)} وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما هي ضحوة، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وأخرج ابن المبارك، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو نعيم في الحلية، عن إبراهيم النخعي: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة، نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فذلك قوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)}.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة، حتى يفرغ الناس من الحساب، وذلك قوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} إلى أن قال: وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال:

=

=

إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد الحوت فأشبعهم كلهم فذلك قوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} انتهى منه.

وذكر نحوه القرطبي مرفوعًا وقال: ذكره المهدوي. والظاهر أنه لا يصح مرفوعًا.

وقال القرطبي أيضًا: وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال ﷺ: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة. وهو ضعيف أيضًا.

وما ذكره ابن مسعود من أنه قرأ ثم: (إن مقيلهم لإلى الجحيم) معلوم أن ذلك شاذ لا تجوز القراءة به، وأن القراءة الحق {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)}.

واعلم أن قول قتادة في هذه الآية معروف مشهور، وعليه فلا دليل في الآية لما ذكرنا، وقول قتادة هو أن معنى قوله: {وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)} أي: منزلًا ومأوى، وهذا التفسير لا دليل فيه على القيلولة في نصف النهار كما ترى.

وقد بينا في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: وجه الجمع بين ما دل عليه قوله هنا: {وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)}، من انقضاء الحساب في نصف نهار، وبين ما دل عليه قوله تعالى: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)} وذكرنا الآيات المشيرة إلى الجمع، وبعض الشواهد العربية.

واعلم أن المشهور في كلام العرب أن المقيل القيلولة أو مكانها وهي الاستراحة نصف النهار زمن الحر مثلًا وإن لم يكن معها نوم، ومنه قوله:

جزى الله خير الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد

=

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥).

{وَيَوْم تَشَقَّق السَّمَاء} أَيْ كُلّ سَمَاء {بِالْغَمَامِ} أَيْ مَعَهُ وَهُوَ غَيْم أَبْيَض {وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَة} مِنْ كُلّ سَمَاء {تَنْزِيلًا} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة وَنَصْبه بِاذْكُرْ مُقَدَّرًا وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ شِين تَشَقَّق بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِيهَا وَفِي أُخْرَى نُنْزِل بِنُونَيْنِ الثَّانِيَة سَاكِنَة وَضَمّ اللَّام وَنَصْب الْمَلَائِكَة[1].

=

أي: نزلا فيها وقت القائلة، كما قاله صاحب اللسان. وما فسر به قتادة الآية من أن المقيل المنزل والمأوى معروف أيضًا في كلام العرب، ومنه قول ابن رواحة:

اليوم نضربكم على تنزيله ... ضربًا يزيل الهام عن مقيله.

فقوله: يزيل الهام عن مقيله. يعني: يزيل الرؤوس عن مواضعها من الأعناق. ومعلوم أن المقيل فيه المحل الذي تسكن فيه الرؤوس. والظاهر أن من هذا القبيل قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري:

وما تدري وإن أجمعت أمرًا ... بأي الأرض يدركك المقيل

وعليه فالمعنى: بأي الأرض يدركك الثواء والإقامة بسبب الموت أو غيره من الأسباب.

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ} [الفرقان: ٢٥]، أي:"واذكر - أيها الرسول - ذلك اليوم الذي تتشقق فيه السماء، ويظهر من فتحاتها السحاب الأبيض الرقيق".

قال مقاتل:"عني السموات السبع، يقول عن الغمام وهو أبيض كهيئة الضبابة لنزول الرب- ﷻ- وملائكته".

عن مجاهد قوله: "{يوم}، قال: يوم القيامة، {السماء بالغمام}، قال: هو الذي في ظلل من الغمام يأتي الله فيه يوم القيامة ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل".

=

=

قال الضحاك:"هو قطع السماء إذا تشققت".

قال يحيى:"يجيء الغمام هذا بعد البعث، تشقق فتراها واهية، متشققة كقوله: {وفتحت السماء فكانت أبوابا} [النبأ: ١٩] ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض".

عن ابن جريج، عن مجاهد، قوله: "{ويوم تشقق السماء بالغمام}، قال: هو الذي قال: {في ظلل من الغمام}، الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، ولم يكن في تلك قط إلا لبني إسرائيل. قال ابن جريج: الغمام الذي يأتي الله فيه غمام زعموا في الجنة".

قال عبد الله بن عمرو: "يهبط الله حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون حجابا، منها النور والظلمة والماء، فيصوت الماء صوتا تنخلع له القلوب".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار".

ويقرأ: «تشّقق»، بالتشديد.

قوله تعالى: {وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: ٢٥]، أي:"ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر".

قال الطبري:"يقول: ونزل الملائكة إلى الأرض تنزيلا".

قال يحيى: أي:"مع الرحمن. هو مثل قوله: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة} [البقرة: ٢١٠]، ومثل قوله: {وجاء ربك والملك صفا صفا} [الفجر: ٢٢]".

قال ابن عباس:"يعني: يوم القيامة حين تشقق السماء بالغمام، وتنزل الملائكة تنزيلا".

قال ابن كثير:"فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالى

=

=

لفصل القضاء".

قال ابن عباس:"إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس، وهو يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض، فيقول أهل الأرض: جاء ربنا، فيقولون: لم يجيء وهو آت، ثم تتشقق السماء الثانية، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة، فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السماوات ومن الجن والإنس. قال: فتنزل الملائكة الكروبيون، ثم يأتي ربنا تبارك وتعالى في حملة العرش الثمانية، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة، قال: وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول: سبحان الملك القدوس، وعلى رءوسهم شيء مبسوط كأنه القباء، والعرش فوق ذلك، ثم وقف".

قال العثيمين: قوله: {ويوم تشقق السماء بالغمام} أمر الله ﷻ أن يذكر هذا اليوم العظيم، وهو يوم تشقق السماء بالغمام لنزول الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ونزل الملائكة} من كل سماء {تنزيلا} هو يوم القيامة، ونصبه بـ (اذكر) مقدر، وفي قراءة بتشديد شين تشقق بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها، وفي أخرى: (ننزل) بنونين، الثانية ساكنة وضم اللام ونصب (الملائكة)].

القراءات:

في {تشقق} قراءتان: أولا: القراءة المشهورة {ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا}، القراءة الثانية: "تشقق"، وأصلها تتشقق، فأدغمت التاء في الشين فصارت تشقق، وأيهما أبلغ: {تشقق} أم "تشقق"؟ "تشقق" أبلغ.

وأما {ونزل} ففيها قراءتان سبعيتان: {ونزل الملائكة} على أنها فعل ماض، و {الملائكة} نائب فاعل، والثانية "ننزل الملائكة" على أنها فعل مضارع

=

=

والملائكة مفعول به، والفاعل هو الله.

ومن بلاغة القرآن أن القراءات يستفاد منها إما التفسير وإما زيادة المعنى، فقراءة "تشقق" فيها زيادة المعنى، وعلى قراءة: "ننزل الملائكة" فيها تفسير؛ لأن قوله: {ونزل الملائكة} مبني للمجهول، فالفاعل غير معلوم، وأما قوله: "ننزل الملائكة" فمبنية للفاعل، فالفاعل فيها معلوم، وعلى هذا إذا سئلت: من الذي ينزل الملائكة؟ تقول: هو الله، والدليل أمر مفهوم بالأذهان، ودليل آخر من لفظ الآية، القراءة الثانية: {الملائكة}.

قوله: {ونزل الملائكة} كل سماء أكثر ملائكة من السماء التي تحتها، كذلك أيضا هؤلاء الملائكة الذين يحيطون بالعالم، كل دائرة أكثر عددا من الدائرة التي قبلها، وإنما ينزلون بيانا لعظمة الله ﷻ وإحاطة بالخلق، وحينئذ يصدق قول الله تعالى: {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان} [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم لا يستطيعون مع إحاطة الملائكة بهم أن يهربوا من أهوال هذا اليوم.

وقوله: {تنزيلا} مصدر نزل، وهو كما أسلفنا يدل على أنهم ينزلون شيئا فشيئا، لا ينزلون جملة، فتنزل ملائكة السماء الدنيا أولا، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وأشرنا إلى الآية التي في سورة الرحمن دفعا لقول بعض الناس الذين يفسرونها بهذه الأقمار الصناعية أو المراكب الفضائية التي صعد الناس بها إلى الفضاء، ويزعمون أن قول الله سبحانه وتعالى: {لا تنفذون إلا بسلطان} إلا بعلم، وأن هذا العلم أوصلهم إلى النفوذ، وهذا لا شك تحريف للقرآن، ولا حاجة إلى أن نتكلف فنقول: كل ما يحدث فإن في القرآن له شاهد، لا حاجة إلى هذا التكلف؛ لأن هذه الحوادث شواهدها حصولها، متى حصلت فإننا نؤمن بها، سواء دل عليها القرآن أو سكت عنها القرآن، إلا إذا دل القرآن على نفيها؛ فإنه لا يجوز لنا أن نصدقها،

=

=

وكل ما يحدث من هذه الاختراعات وهذه الصناعات فإنه داخل في قوله تعالى: {ويخلق ما لا تعلمون} بعد أن قال: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة} قال: {ويخلق ما لا تعلمون} [النحل: ٨]، هذه الآية يدخل فيها كل ما حدث وكل ما يحدث من مثل هذه الأمور، وأما أن نحرف القرآن إلى ما يوافق هذا الواقع فهذا حرام علينا، ولا يجوز، وأما قوله: {إلا بسلطان} فليس المراد به العلم، المراد به السلطة التي تتمكنون بها من النفوذ، لأن السلطان في كل موضع بحسبه، وأصله السلطة التي يتمكن بها الإنسان من الوصول إلى ما يريد، فمثلا إذا كانت في دعوى مدع نقول: لا سلطان لك بهذا، يعني لا حجة لك، كما قال الله تعالى: {إن عندكم من سلطان بهذا} [يونس: ٦٨]، يعني ما عندكم من حجة؛ لأن الحجة السلطة يتمكن بها المدعي من إثبات دعواه، ثم إن الآية {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض}، وهؤلاء لم ينفذوا من أقطار السموات، حتى لو قلنا: إنهم نفذوا من أقطار الأرض وخرجوا عن محيط الأرض، فإنهم لا يستطيعون أن ينفذوا من أقطار السموات، ثم إن الآية ظاهرة في التحدي {إن استطعتم}، والتحدي بما يمكن غير صحيح، لأنه يبطل التحدي، ثم إن قوله: {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس} [الرحمن: ٣٥]، يكذبه الواقع، يعني يكذب دعوى هؤلاء الواقع؛ لأنهم صعدوا إلى الفضاء ووصلوا إلى ما وصلوا إليه ولم يرسل عليهم شواظ من نار ولا نحاس.

فالمهم أنا قصدي بذلك أن بعض الناس من أهل العلم بالطبيعة يحاولون أن يوجدوا لكل حادث دليلا خاصا من القرآن، وهذا لا يجوز؛ لأنه يصرف القرآن عما أراد الله به، ويقتضي أن يتلاعب الناس بالقرآن، ثم إنهم قد يستدلون بالآيات الكريمة على ما رأوا من النظريات، وتأتي بعد ذلك نظريات أخرى تبطلها، فيكون القرآن حينئذ باطلا حسب ما استدل به الأولون، ونحن -ولله الحمد- في غنى عن

=

=

هذا الأمر، فهذه الأمور والحوادث التي تحدث من صنائع الإنسان أمر لا حاجة إلى إقامة الدليل عليه من القرآن، لأن واقعها يثبتها.

لو قال قائل: هم يريدون إثبات إعجاز القرآن؟

فالجواب: إعجاز القرآن يكفي أن نقول فيه: {ويخلق ما لا تعلمون} [النحل: ٨]، وأما الحقائق إذا دل عليها القرآن فلا بأس، لكن كوننا نحرف القرآن من أجل أن نخضعه للدلالة على هذا الأمر فلا، فمثلا لو استدل أحد على تطور الجنين وخلقته بالآية الكريمة وبالحديث الصحيح فهذا لا بأس، فالشيء الذي يدل عليه القرآن لا بأس به، لكن شيء يحرف القرآن من أجله فلا.

المهم أن الله سبحانه وتعالى يخلق الشيء ولا نعلمه في وقتنا نحن، وهذا يجري على كل هذه الحوادث، فقبل أن تقع لا يعلمها الإنسان، وبعد وقوعها يعلمها؛ لأنه قال: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة} وهذا شيء معلوم {ويخلق ما لا تعلمون} [النحل: ٨]، يعني أشياء لا تعلمونها، وفعلا خلق الله سبحانه وتعالى أشياء ما كانوا يعلمونها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وسيخلق أشياء لا نعلمها نحن في وقتنا، ويخلق الله سبحانه وتعالى إلى آخر الدهر شيئا لا يعلمه من سبق، لكن يعلمه من أدركه؛ لأن كونه يخلق معناه يوجد، والموجود لا بد أن يعلم؛ فالله يتحدث عن أمر سيكون لنا {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة} فإذا كان يتحدث عن أمر سيكون لنا فمعنى ذلك سنعلمه إذا خلقه الله جل وعلا.

لو قال قائل: استدل بعضهم بأن الأعصاب الخاصة بالإحساس موجودة في القشرة الرقيقة التي على العظم، يقول تعالى: {إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما} [النساء: ٥٦]، هل يقال: هذا من بيان إعجاز القرآن؟

=

=

هذا أيضا غير صحيح؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، والإنسان مثلا لو احترق الآن جلده وانكشط وأحرقنا اللحم يتعذب الإنسان بلا شك، ولا يقال: نجربه، بل يتعذب الإنسان به يقينا.

لو قال قائل: إذا دخلت إبرة في جسم الإنسان فإنه عند دخولها يحس، ثم بعد ذلك لا يحس؟

نقول: صحيح، هذا معقول، وكل الداخلي في الغالب ليس فيه إشكال، ولهذا لا يحس الإنسان بنزول الطعام في بطنه.

لو قال قائل: يقول الله سبحانه وتعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} [الأنعام: ٣٨]، فهذه الأحداث لا بد أن تكون في القرآن؟

فالجواب: لا إشكال، لكن قوله سبحانه وتعالى: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} ما المراد بالكتاب؟ المقصود اللوح المحفوظ، قال ﷻ: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون}، لكن قوله ﷻ: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} [النحل: ٨٩]، أوضح إن أرادوا أن يستدلوا، قال سبحانه وتعالى: {تبيانا لكل شيء} لكننا نعلم أن التبيان إما مجمل وإما مفصل، والقضية المشهورة عن الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الرجل النصراني حينما سأله عن كيفية صنع الطعام الذي قدم لهم في المطعم، قال النصراني: القرآن تبيان لكل شيء، أين يوجد في القرآن كيف يصنع هذا الطعام؟ فقال: هذا موجود في القرآن. فدعا الطباخ وقال: كيف تصنع هذا الطعام؟ قال: أصنعه بكذا وكذا، فقال: هكذا الطريق في القرآن، فإن الله ﷻ يقول: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣]، وكل قوم ذكرهم خاص بهم، فأنا سألت هذا الرجل لأني لا أعلم، فالقرآن قد يدلنا على الشيء مباشرة أو بالوسيلة والطريقة، فكل شيء لا تعلمه فالطريق إلى الوصول إليه أن تسأل أهل

=

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦).

{الْمُلْك يَوْمئِذٍ الْحَقّ لِلرَّحْمَنِ} لَا يَشْرَكهُ فِيهِ أَحَد {وَكَانَ} الْيَوْم {يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} بخلاف المؤمنين(١).

=

ذكره، فالمراد أهل العلم، لكن هل المراد أهل العلم الشرعي أو كل علم بحسبه؟ لنفرض أننا خصصناه بالعلم الشرعي أفلا يقاس غيره عليه؟ فهي إما أن تدل على العموم وتكون شاملة لمثل هذه القضية بدلالة التضمن، وإما بدلالة الشمول المعنوي، لا اللفظي، وهو القياس، يقول الله سبحانه وتعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٤٣) بالبينات والزبر} [النحل: ٤٣ - ٤٤]، فهذا يدل على أن المراد العلم الشرعي، والآية الثانية: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [الأنبياء: ٧]، وهو عام، لم يقل: بالبينات والزبر. ومثلما قلت: إن كانت شاملة لكل شيء وأن أهل كل ذكر بحسبه فهي شاملة، وإلا فهي شاملة شمولا معنويا، وهو القياس، فنقول: إذا كان الله أحالنا على أهل الذكر الشرعي لمعرفة الحكم الشرعي، فكذلك نحن نتحول إلى أهل العلم غير الشرعي لمعرفة هذا العلم.

لو قال قائل: قوله تعالى: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: ٩]، هذه الآية ذكرت على العموم، وأولها يبين أن المراد العلم الشرعي؟

لكن مثلما ذكرنا الآن أن العموم قد يكون شمولا لفظيا وقد يكون شمولا، معنويا، فهم لا يستوون، لكن الذي يثنى عليه أهل العلم الشرعي، والشمول اللفظي معناه أن هذا اللفظ يدل على هذا بخصوصه، يعني من جملة الأفراد الدالة، والعموم المعنوي معناه أن هذا اللفظ لا يدخل فيه ما ذكر، لكنه يقاس على ما ذكر فيه، فيكون هذا عموما معنويا؛ لأن العلة في الجميع واحدة.

(١) قوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان: ٢٦]، أي:"المُلْك الحق في هذا اليوم للرحمن وحده دون مَن سواه".

=

=

قال الطبري:"يقول: الملك الحق يومئذ خالص للرحمن دون كل من سواه، وبطلت الممالك يومئذ سوى ملكه. وقد كان في الدنيا ملوك، فبطل الملك يومئذ سوى ملك الجبار".

قال الزجاج:"«الحق»: صفة للملك، ومعناه: أن الملك الذي هو الملك حقا هو ملك الرحمن يوم القيامة كما قال ﷻ: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦]، لأن الملك الزائل كأنه ليس بملك".

قال يحيى:"يخضع الملوك يومئذ لملك الله والجبابرة لجبروت الله".

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يطوي الأرضين ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون».

عن ابن عباس: "«الرحمن»: الفعلان، من الرحمة، وهو من كلام العرب: الرحمن".

قال الضحاك:"الرحمن بجميع خلقه".

قوله تعالى: {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [الفرقان: ٢٦]، أي:"وكان هذا اليوم صعبًا شديدًا على الكافرين، لما ينالهم من العقاب والعذاب الأليم".

قال الطبري:"يقول: وكان يوم تشقق السماء بالغمام يوما على أهل الكفر بالله صعبا شديدا".

قال يحيى: {عسيرا}، أي:"شديدا".

قال السمعاني:"ومن شدته أن الله يطول عليهم ذلك اليوم كما يقصره على المؤمنين على ما بينا، وفي بعض الأخبار: أن جهنم تفور يوم القيامة، فيتبدد الناس ويتفرقون، فكلما وصلوا إلى قطر من الأقطار، وجدوا سبعة من صفوف الملائكة أدخلوا أجنحتهم بعضهم في بعض، ثم قرأ: {وكان يوما على الكافرين عسيرا}".

قال ابن كثير:"أي: شديدا صعبا؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى:

=

{[فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}، {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [المدثر: ٨ - ١٠]، فهذا حال الكافرين في هذا اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: {لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [الأنبياء: ١٠٣]".

قال القشيري:"يريد يوم القيامة إذا بدت أهوالها، وظهرت للمبعوثين أحوالها عملوا وتحققوا- ذلك اليوم- أن الملك للرحمن، ولم يتخصص ملكه بذلك اليوم، وإنما علمهم ويقينهم حصل لهم ذلك الوقت".

قال قتادة:"فبيّن الله على من يقع فقال: {على الكافرين}".

قال مقاتل:"ويهون على المؤمن كأدنى صلاته".

عن أبي سعيد الخدري قال:"قيل: يا رسول الله: {يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»".

قال العثيمين: قال المصنف رحمه الله: [{الملك يومئذ الحق للرحمن} لا يشركه فيه أحد].

قوله: {الملك يومئذ الحق للرحمن} الحق صفة للملك، يعني الملك الثابت المؤكد المحقق في ذلك اليوم لله سبحانه وتعالى.

قوله: {للرحمن} والملك للرحمن سبحانه وتعالى في ذلك اليوم وفي غيره، لكن ملكيته تبارك وتعالى في ذلك اليوم أظهر وأبين؛ لأن الدنيا فيها ملوك، وفيها من يملك التصرف، وفيها من يقال له: ملك، لكن في الآخرة لا يوجد ملك، الناس على حد سواء، يقول الله سبحانه وتعالى: {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار} [غافر: ١٦]، فالملك في ذلك اليوم لا يكون لأحد سوى الله تبارك وتعالى.

وفي قوله: {للرحمن} ولم يقل: (لله) إشارة إلى كثرة رحمة الله في ذلك اليوم، كما

=

جاء في الحديث الصحيح: "إن لله مئة رحمة، انزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة"، فيظهر من رحمة الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم ما لا يظهر في غيره؛ ولهذا عبر بقوله: {الملك يومئذ الحق للرحمن}، وقد سبق أن الرحمن صفة متضمنة للرحمة، ولكنها تدل على عظمة هذه الرحمة، وعلى سعتها؛ لأن كلمة فعلان تدل على الوصف المالئ الذي يملأ موصوفه، كما يقال: غضبان، لأنه ممتلئ غضبا، ومن ثم فسر بعض العلماء الرحمن بأنه ذو الرحمة الواسعة، والرحيم بأنه ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ولكن الصواب أن الرحمن باعتبار وصفه، فلهذا جاءت فعلان صفة مشبهة، والرحيم باعتبار فعله، يعني إيصال الرحمة إلى من شاء.

قال المصنف: [{وكان} اليوم {يوما على الكافرين عسيرا} بخلاف المؤمنين]، هنا قيد الله ﷻ العسر على الكافرين، فقال: {يوما على الكافرين عسيرا} يعني دون المؤمنين، وفي آية أخرى: {فذلك يومئذ يوم عسير} [المدثر: ٩]، ولم يقيده، يقال: إن اليوم نفسه عسير جدا بالنظر إلى ذات اليوم، لكن هذا العسر لا يتناول المؤمن، بدليل قوله: {على الكافرين غير يسير} [المدثر: ١٠]، فمفهومه أنه على المؤمنين يسير، فبالنظر إلى ذات اليوم وأهواله نصفه بالعسر في حد ذاته على الكافرين، ثم إن هذا العسر لا يسري إلى المؤمنين، بل ييسره الله تبارك وتعالى عليهم، بدليل قوله: {وكان يوما على الكافرين عسيرا}، وبدليل قوله: {على الكافرين غير يسير}.

فالحاصل: أنه بالنظر إلى ذات اليوم فاليوم عسير وشديد، ويجعل الولدان شيبا، وبالنظر إلى من يتأثر به أو بعسره يكون هذا للكافرين فقط؛ لقوله: {على الكافرين غير يسير}، أما على المؤمن فإنه يسير.

=

=

وفي هذا دليل، أي: في كونه عسيرا، ولكن عسره يكون على الكافرين فقط، ففيه دليل على اختلاف الناس في ذلك الموقف، وأن يسر ذلك اليوم وعسره بحسب حال الإنسان، فكلما كان الإنسان أشد إيمانا وأشد تقوى لله ﷻ كان ذلك اليوم أيسر له، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"، وأن "كل امرئ في ظل صدقته" في يوم القيامة.

وعلى هذا نقول: كلما كان الإنسان أقوى إيمانا بالله، وأشد تقوى لله، كان يسر ذلك اليوم عليه بحسبه، وكلما كان الإنسان أعتى وأكفر يكون أشد وأعظم. وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه رأى في النار عمرو بن لحي يجر قصبه وأمعاءه مما يدل على أنه كلما زاد عتو الإنسان وكفره زاد عسر ذلك اليوم عليه.

ثم إن هناك أيضا قاعدة في الأصول أنه إذا علق الحكم على وصف كان أثر ذلك الحكم بحسب ذلك الوصف، يعني أن تأثير الوصف في الحكم بحسب الوصف، فإذا كان العسر معلقا بالكفر فكلما كان الكفر أشد كان العسر أشد، وإذا علق اليسر بالإيمان صار كلما كان الإيمان أقوى كان اليسر أقوى.

فالحاصل: أن كل حكيم علق على وصف فإنه يختلف أثر ذلك الحكم بحسب ذلك الوصف، يعني أن تأثير الوصف في الحكم بحسب الوصف.

لو قال قائل: في حديث الشفاعة الأنبياء كل واحد منهم يقول: نفسي نفسي، فهذا دليل على أن في هذا اليوم عندهم شدة وخوف؟

والجواب: لا شك أن في هذا اليوم يوجد شدة وخوف: {يوما يجعل الولدان شيبا} [الزمل: ١٧]، لكن هذه الشدة والخوف يتحملهما الإنسان بحسب ما معه من الإيمان، يعني أنه لا يكون شديدا عليه بحسب ما معه من الإيمان، فهم يخافون لكنه ليس شديدا عليهم، يعني أنهم يتوقعون أنهم يقعون في شيء ولكنهم لا يقعون.

=

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧).

{وَيَوْم يَعَضّ الظَّالِم} الْمُشْرِك عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْطٍ كَانَ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ثُمَّ رَجَعَ إرْضَاء لِأُبَيِّ بْن خَلَف {عَلَى يَدَيْهِ} نَدَمًا وَتَحَسُّرًا فِي يَوْم الْقِيَامَة {يَقُول يَا} لِلتَّنْبِيهِ {لَيْتَنِي اتَّخَذْت مَعَ الرَّسُول} مُحَمَّد {سَبِيلًا} طَرِيقًا إلَى الهدى[1].

=

الحاصل: أن وصف الله تعالى يوم القيامة بأنه عسير وصف مقيد بالكافرين، وفي آية أخرى وصفه وصفا مطلقا بأنه عسير، وذكرنا فيما سبق أنه وإن كان عسيرا لكنه بالنسبة للمؤمنين يكون يسيرا، فالوصف المطلق لذلك اليوم أنه عسير، ولكن الذي يتأثر به ويكون عسيرا عليه هم الكافرون، أما المؤمنون فلا.

وتأمل قول الله ﷻ: {الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا}، قد يقول قائل: أين الرحمة مع عسره على الكافرين، فيقال: إن عذاب الكافرين وشدته عليهم هو رحمة بالمؤمنين؛ لأن المؤمن يرى عدوه الذي كان يسخر منه في الدنيا وعدل الله سبحانه وتعالى يمضي فيه، فلا شك أن ذلك سرور له ورحمة؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: {فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون (٣٤) على الأرائك ينظرون} [المطففين: ٣٤ - ٣٥]، فهم على أرائكهم ينظرون إلى هؤلاء يعذبون، فيسرون بهم ويضحكون بهم، مثلما أن أعداءهم في الدنيا كانوا يضحكون منهم ويسخرون بهم.

ثم إننا نقول أيضا: تنفيذ العدل يعتبر رحمة، أما في الدنيا فظاهر، فإننا إذا أقمنا الحد على السارق أو أقمناه على الزاني، أو ما أشبه ذلك، فهو رحمة بالناس عموما، وبه خصوصا، حتى بهذا الذي جلد أو قطعت يده هو رحمة به، كيف ذلك؟ لأننا نمنعه من ممارسة العمل مرة ثانية، كلما تذكر هذا الألم، ولأن الحد يكون كفارة له، فلا يعذب عليه في الآخرة؛ لأن الله تعالى لا يجمع له بين عقوبتين.

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعامًا؛ فدعا عليه الناس: جيرانه، وأهل مكة كلهم، وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ويعجبه حديثه ويغلب عليه الشقاء، فقدم ذات يوم من سفره فصنع طعامًا، ثم دعا رسول الله ﷺ إلى طعامه، فقال: "ما أنا بالذي آكل من طعامك؛ حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وإني رسول الله"، فقال: أطعم يا ابن أخي! قال: "ما أنا بالذي أفعل؛ حتى تقول"؛ فشهد بذلك، فطعم من طعامه، فبلغ ذلك أُبيّ بن خلف، فأتاه، فقال: صبوت يا عقبة! وكان خليله، فقال: لا، والله ما صبوت، ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يطعم من طعام إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم؛ فشهدت له، فطعم؛ فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه، قال: ففعل به ذلك وأخذ رحم دابة فألقاه بين كتفيه، فقال له رسول الله ﷺ: "لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف"، فأُسر عقبة يوم بدر؛ فقتل صبرًا، ولم يقتل من الأسارى غيره، قتله ثابت بن الأفلح.

أخرجه أبو نعيم في "دلائل النبوة" (ص ٤٠٤، ٤٠٥) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. ومن دون ابن عباس كلهم كذابون.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: إن ابن أبي مُعَيط وأُبيّ بن خلف الجمحي التقيا، فقال عقبة بن أبي مُعَيط لأُبَيّ بن خلف، وكانا خليلين في الجاهلية، وكان أُبَيّ بن خلف أتى النبي ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فلما سمع ذلك عقبة؛ قال: لا أرضى عنك حتى تأتي محمدًا فتفُلُ في وجهه، وتشتمه وتُكَذِّبه، قال: فلم يُسَلِّط الله على ذلك، فلما كان يوم بدر؛ أُسِرَ عقبة بن أبي معيط في الأُسارى، فأمر النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب أن يقتله، فقال عقبة: يا محمد! مِنْ بين هؤلاء أُقتل؟ قال: "نعم"، قال: لِمَ؟ قال: "بكفرك، وفجورك، وعُتُوّك على الله ورسوله"، قال معمر: وقال مقسم: فبلغنا -والله أعلم- أنه قال: فمَن للصبية؟ قال: النار، قال: فقام إليه

=

=

علي بن أبي طالب فضرب عنقه.

وأمَّا أُبَيّ بن خلف؛ فقال: والله لأقتلنَّ محمدًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "بل أنا أقتله إن شاء الله"، قال: فانطلق رجل ممن سمع ذلك مع النبي ﷺ إلى أُبَيّ بن خلف، فقيل: إنَّه لَمّا قيل لمحمد ﷺ ما قلتَ؛ قال: "بل أنا أقتله إن شاء الله"، فأفزعه ذلك، وقال: أَنْشُدُك بالله أسمعته يقول ذلك؟ قال: نعم، فوقعت في نفسه؛ لأنهم لم يسمعوا رسول الله ﷺ يقول قولًا إلا كان حقًا.

فلما كان يوم أُحد؛ خرج أُبَيّ بن خلف مع المشركين، فجعل يلتمس غفلة النبي ﷺ ليحمل عليه، فيحُول رجل من المسلمين بينه وبين النبي ﷺ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ؛ قال لأصحابه: "خَلُّوا عنه"، فأخذ الحربة فجزله بها -يقول: رماه بها- فيقع في ترقوته، تحت تسبغة البيضة، وفوق الدرع، فلم يخرج منه كبير دم، واحتقن الدم في جوفه، فجعل يخور كما يخور الثور، فأقبل أصحابه، حتى احتملوه وهو يخور، وقالوا: ما هذا؟ فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله؛ لو لم يصيبني إلا بريقه لقتلني، أليس قد قال: "أنا أقتله إن شاء الله"، والله؛ لو كان ما بي بأهل [ذي] المجاز لقتلهم، قال: فما لبث إلا يومًا أو نحو ذلك حتى مات إلى النار؛ فأنزل الله فيه: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ} إلى قوله: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا}.

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٣٥٥ - ٣٥٧ رقم ٩٧٣١)، و"التفسير" (٢/ ٦٨، ٦٩): نا معمر عن عثمان الجزري عن مقسم مولى ابن عباس [عن ابن عباس].

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ عثمان هو ابن عمرو بن ساج الجزري ضعيف؛ كما في "التقريب"، وما بين المعكوفتين زيادة من التفسير.

ثم أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٦٨) -ومن طريقه الطبري في "جامع

=

=

البيان" (١٩/ ٦) -: نا معمر عن قتادة وعثمان الجزري عن مقسم مولى ابن عباس؛ قال: اجتمع عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف وكانا خليلين، فقال أحدهما لصاحبه: بلغني أنك أتيت محمدًا فاستمعت منه، والله؛ لا أرضى عنك حتى تتفل في وجهه وتكذبه، فلم يسلطه الله على ذلك، فقتل عقبة يوم بدر صبرًا، وأما أُبيّ بن خلف؛ فقتله النبي ﷺ بيده يوم أُحد في القتال، وهما اللذان أنزل الله فيهما: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)}.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد، وهو أصح من الذي قبله.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٦ رقم ١٥١٠٦) من طريق هشيم: أنبأ علي بن زيد عن سعيد بن المسيب به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: علي بن زيد بن جدعان؛ ضعيف.

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن رجلًا من قريش (وفي رواية: عقبة بن أبي معيط) كان يغشى رسول الله ﷺ، فلقيه رجل آخر من قريش (وفي رواية: أمية بن خلف) -وكان له صديقًا- فلم يزل به حتى صرفه وصدّه عن غشيان رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله فيهما ما تسمعون.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٤ رقم ١٥٠٩٦) من طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

قلنا: وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: هو أُبيّ بن خلف كان يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٤ رقم ١٠٩٧) بالسند المسلسل بالعوفيين الضعفاء. وسنده ضعيف جدًا.

=

=

وعنه؛ قال: كان أُبيّ بن خلف يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط؛ فنزل: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ...}، قال: الظالم: عقبة، وفلانًا خليلًا: أُبيّ بن خلف.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٦) من طريق سنيد صاحب "التفسير": ثني حجاج عن ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى والثانية: عطاء هذا؛ صدوق يهم كثيرًا، وكان يرسل ويدلس؛ كما في "التقريب"، ولم يسمع من أحد من الصحابة.

الثالثة: ابن جريج مدلس وقد عنعن.

الرابعة: سنيد صاحب "التفسير"؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلًا حليمًا، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبا أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلًا، فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد مما كان أمرًا، فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقال: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح؛ أتاه أبو معيط فحياه، فلم يرد عليه التحية، فقال: ما لك لا ترد عليَّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟! قال: نعم، قال: فما يُبرئ صدورهم إن أنا معك؟ قال: نأتيه في مجلسه، وتبصق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم؛ ففعل؛ فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البصاق، ثم التفت إليه فقال: إن وجدتك خارجًا من جبال مكة أضرب عنقك صبرًا".

فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه؛ أبى أن يخرج، فقال له أصحابه: أخرج معنا، قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجًا في جبال مكة أن يضرب عنقي صبرًا،

=

=

فقالوا: لك جمل أحمر لا يدرك، فلو كانت الهزيمة طرف عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وحلَّ به جمله في جدد من الأرض؛ أخذه رسول الله ﷺ أسيرًا في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: "نعم؛ بما بصقت في وجهي"؛ فأنزل الله في أبي معيط: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ} إلى قوله: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٥٠) ونسبه إلى ابن مردويه وأبي نعيم الأصبهاني في "الدلائل"، وقال: "بسند صحيح".

وعن السدي: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)}؛ قال: نزلت في عقبة بن أبي معيط، كان قد غشي مجلس النبي ﷺ، وهَمّ أن يسلم، فلقيه أمية بن خلف؛ فقال: يا عقبة! بلغني أنك قد صبوت فتبعت محمدًا، فقال: فعلت، قال: فوجهي من وجهك حرام حتى تأتيه فتتفل في وجهه وتتبرأ منه؛ فيعلم قومك أنك عدو لمن عاداهم، وفرق عليهم جماعتهم، فأطاعه، فأتى النبي ﷺ؛ فتفل في وجهه، وتبرأ منه، فاشتد ذلك على النبي ﷺ؛ فأنزل الله ﷻ فيه، يخبر بما هو صائر إليه من الندامة وتبرؤه من خليله أمية بن خلف؛ فقال: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٥ رقم ١٥١٠٣) من طريق أسباط بن نصر عن السدي به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

وعن مجاهد؛ قوله: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}: عقبة بن أبي معيط دعا مجلسًا فيهم النبي ﷺ لطعام، فأبى النبي ﷺ أن يأكل، وقال: "لا آكل حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، فقال: ما أنت بآكل حتى أشهد؟ قال: "نعم" قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فلقيه أمية بن خلف، فقال: أقد صبوت؟ قال: إني أخالك على ما تعلم، ولكن صنعت طعامًا فأبى أن

=

=

يأكل حتى أقول ذلك؛ فقلته وليس من نفسي.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٣، ٢٦٨٤)، والطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٧) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ} [الفرقان: ٢٧]، أي:"واذكر - أيها الرسول - يوم يَعَضُّ الظالم لنفسه على يديه ندمًا وتحسرًا".

قال الطبري: يقول:"ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندما وأسفا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه".

قال يحيى:"أبي بن خلف: يأكلها ندامة يوم القيامة".

قوله تعالى: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٢٧]، أي:"يقول الظالم: يا ليتني صاحبت رسول الله محمدًا ﷺ واتبعته في اتخاذ الإسلام طريقًا إلى الجنة".

قال الطبري: "يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلا يعني طريقا إلى النجاة من عذاب الله".

قال يحيى:"مع محمد إلى الله، {سبيلا} باتباعه".

وفي قوله تعالى: {يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٢٧]، وجهان:

احدها: أنه قول أبيّ بن خلف في الآخرة. قاله مجاهد.

الثاني: أنه عقبة بن أبي معيط. قاله سعيد بن المسيب.

قال العثيمين: قوله: {ويوم يعض الظالم على يديه} معطوف على قوله: {ويوم تشقق السماء} يعني واذكر {ويوم يعض الظالم على يديه}، {يعض} من أي باب

=

=

من أبواب الصرف؟ عندنا في الصرف الأبواب ستة، فهنا {يعض} هل من باب (نصر، ينصر)، أو (سمع، يسمع) أو (فتح، يفتح)، فهو من باب (فتح)، وعند العامة يجعلونه من باب (نصر) يقولون: يعض (فلان يعض فلانا)، والصواب: (فلان يعض فلانا)، فهي من باب فتح، يعني يفتح فيها المضارع، كما أن الماضي كذلك مفتوح لكن الماضي مشدد.

قوله: {ويوم يعض الظالم} المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [المشرك]، والآية قد نقول: إنها أعم من المشرك؛ لأن الظلم يشمل الشرك فما دونه، ولكن ننظر السياق الآن: هل يعين أن يكون الظلم بمعنى الشرك أو لا؟ ثم إن المصنف خصصها تخصيصا آخر فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [عقبة بن أبي معيط؛ كان نطق بالشهادتين ثم رجع إرضاء لأبي بن خلف]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [عقبة] هذا تخصيص لعموم، فإن كان المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يجعله مثالا مما تنطبق عليه الآية فالأمر سهل، وإن كان يريد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يجعل الآية من باب العام الذي أريد به الخاص، فهذا غير مسلم؛ لأنه لا دليل على ذلك؛ فلا دليل على أن المراد به الخاص، بل الآية عامة، لكن تشمل عقبة وغيره، فالصواب أنها عامة لكل ظالم؛ وذلك لأن الأصل بقاء العموم على ما هو عليه حتى يقوم دليل على أن المراد به الخاص، وهنا قوله: {ويوم يعض الظالم} عام لعقبة وغيره.

قال المصنف: [{على يديه} ندما وتحسرا في يوم القيامة، {يقول ياليتني}] إلى آخره، {يعض الظالم على يديه} العض على اليد يدل على الندم والتحسر، ولهذا بعض الناس إذا فاته الأمر تراه يعض يده ثم يصفق بيده، يعني أنه فاته، فهو دليل على التحسر والندم، وما أعظم الحسرة والندم حين يرى المؤمنين في حال والظالمين في حال، وهذا أعظم ما يكون.

ففي هذه الآية أمر الله سبحانه وتعالى بأن تذكر حال المجرمين يومئذ من الندم

=

=

والتحسر العظيم والعض على الأيدي.

وقوله: {على يديه} زعم علماء البيان أن في الآيه مجازا؛ لأن الإنسان لا يعض على يده كلها، ولو أراد أن يعض على يده كلها ما استطاع، يقولون: المراد باليدين الأصابع، لأنه لا يمكن أن يعض على اليد كلها، ولكننا نقول: في الحقيقة لا مجاز في الآية؛ لأنه إذا دل السياق على معنى فهو المراد، كل يعرف أن المراد: يعض الظالم على يديه يعني على أصابعه، فهي لم تدل على اليد كلها من الأصل بحسب السياق حتى نقول: إنها نزلت عن معناها إلى المعنى الثاني، وهذا الذي قررناه هو الذي أوجب لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن ينكر وجود المجاز في اللغة العربية؛ لأن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لا يرى وجود المجاز في اللغة العربية إطلاقا؛ لا في القرآن ولا في غيره، لأنه يقول: إن دلالة اللفظ على المعنى ليست ذاتية، يعني ليس اللفظ نفسه يدل بذاته على المعنى، وإنما يدل بالسياق، وأبرز مثال يبين لك ذلك الألفاظ المشتركة التي تصلح لمعنيين فأكثر، يعين العنى السياق، وهكذا غيرها أيضا، فبناء على ذلك يقول: لا يوجد مجاز في اللغة العربية؛ لا في القرآن ولا في غيره، ولكن أكثر الناس يرون أنه يوجد المجاز في القرآن وفي غيره من كلام العرب، وبعض العلماء يرى أنه لا مجاز في القرآن، وفي اللغة العربية يوجد المجاز.

والذي أوجب لهؤلاء التوسط أنهم قالوا: إن ميزان المجاز الذي لا أحد يمانع فيه صحة نفيه، أي صحة نفي المجاز، وليس في القرآن ما يصح نفيه، يعني عندما تقول: رأيت أسدا يقرأ، المراد بالأسد الرجل الشجاع، كأنما قلت: رأيت شجاعا يقرأ، لكن عبرت بالأسد لأن الشجاعة فيه أظهر، هم يقولون: إنك إذا قلت: رأيت أسدا يقرأ فإنه يجوز للمخاطب أن يقول: هذا ليس بأسد، فينفيه، وهذا صحيح، ليس بأسد، فهم يقولون: إذا كان المجاز علامته الكبرى أنه يصح نفيه فليس في

=

=

القرآن ما يصح نفيه، أما غيره من كلام العرب فيمكنك أن تنفيه، ولا تبالي.

وأما الحديث النبوي فالظاهر أنه لا يقال فيه هذا؛ لأنهم يقولون هذا فقط في القرآن؛ لأن الحديث النبوي تجوز روايته بالمعنى، فيجوز أن الراوي غير الكلمة، ونفى هذه الكلمة، لا أصل المعنى.

ولكن إذا رجعنا إلى ما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أن الألفاظ ليست دلالتها على المعنى ذاتية حتى نقول: إنها إذا دلت على معنى آخر في مكان آخر فهي مجازية، بل دلالتها على الألفاظ بحسب السياق، فعلى هذا نقول في الآية التي معنا: {ويوم يعض الظالم على يديه} لا مجاز فيها؛ لأنه لا يمكن أن يفهم أحد أن المراد بذلك في الأصل أن يعض على اليد كلها، كل يعرف أن المراد بقولنا: يعض على يديه أي: ما يعض عليه عادة، وهي الأصابع.

لو قال قائل: إن قوله: {ويوم يعض الظالم على يديه}؛ {يديه} يعني على بعض يديه واستفدنا البعضية من كلمة {على}، ولم يقل: يعض يديه؟

فننظر: هل (عض) تتعدى بـ (على) أو بنفسها، ومثلها "ولو أن تعض على أصل شجرة"، عض تتعدى بنفسها وبـ (على)، قال ﷺ: "يعض أحدكم أخاه كما يعض الفحل؟ ! " في الرجل الذي عض يد إنسان فانتزعها فسقطت أسنانه. ويوجد احتمال أن نقول: إنها لا تدل على الكلية، حتى لفظ اليد لا يراد بها الكل هنا، حتى ولو كانت تدل على الجزئية فلا يراد بها الكل.

ولو قال قائل: هل العض على اليدين أو على يد واحدة؟

فالجواب: الظاهر كلما قوي الندم عض على اليدين كلتيهما.

لو قال قائل: قوله تعالى: {أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا} [الكهف: ١٠٥]، ما معنى: لا نقيم لهم وزنا؟

=

=

فالجواب: لا نقيم لهم وزنا يعني لا يعتبر لهم وزن، لكن لا توزن سيئاتهم مثلما توزن سيئات المؤمنين؛ لأن سيئات المؤمنين توزن لأجل الموازنة بينها وبين الحسنات، فما رجح اعتبر، وأما أولئك فلإقامة الحجة عليهم فقط، والله جل وعلا لو ناقشك في حسابه هلكت؛ لأنه سبحانه وتعالى لو ناقشك على نعمة واحدة من نعمه لكانت جميع أعمالك الصالحة لا تقابلها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ياليتني اتخذت مع الرسول} محمد {سبيلا} طريقا إلى الهدى]، يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الجملة حال من {الظالم} يعني أنه يعض، وهذا دليل على الندم بالفعل.

قوله: {ياليتني} من علامات الاسم النداء، فـ(يا) لا تدخل إلا على اسم، وإذا دخلت على حرف كما في هذه الآية أو على فعل فإنها تفيد التنبيه فقط، هذا أحد القولين في إعرابها.

القول الثاني: أنها للنداء، وأن المنادى محذوف، والتقدير في مثل هذه الآية: يقول: يا رب ليتني أو يا قوم ليتني، ولكن نقول: إن الأصل عدم التقدير، وإذا كان الأصل عدم التقدير فالأولى أن لا نقدر شيئا هنا وأن نجعل (يا) لمجرد التنبيه، وإنما كانت لمجرد التنبيه لأن أصل النداء للتنبيه، عندما تقول: يا فلان تنبهه لينتبه لك ويقبل إليك بوجهه، فهي للتنبيه، ولا حاجة إلى أن نقدر المنادى.

وقوله: {ياليتني اتخذت مع الرسول}: (ليت) للتمني، والتمني هو: طلب ما لا يمكن حصوله أو ما يعثر حصوله، فالشيء الذي يتعذر أو يتعثر حصوله يسمى طلبه تمنيا.

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب.

هذا متعذر.

ويقول الفقير: ليت لي مالا فأتصدق به. هذا عسير وليس متعذرا.

=

يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨).

{يَا وَيْلَتَى} أَلِفه عِوَض عَنْ يَاء الْإِضَافَة أَيْ وَيْلَتَى وَمَعْنَاهُ هَلَكَتِي {لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذ فلانا} أي أبيا {خليلا}(١).

=

قوله: {ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا} من أي القسمين؟ هذا من المستحيل؛ لأن الأمر فات.

قوله: {ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا} أي سلكت سبيلا، وهو الطريق الموصل إلى الله سبحانه وتعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مع الرسول} محمد]، بناء على أن الآية يقصد بها عقبة بن أبي معيط، فعلى هذا تكون (أل) للعهد الذهني، وإذا قلنا بالعموم -وهو الأرجح- فإن المراد بالرسول هنا من أرسل إلى قومه، فتكون (أل) للجنس، للعموم، لأن المراد بها جنس الرسول الشامل لمحمد ﷺ وغيره.

(١) قوله تعالى: {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} [الفرقان: ٢٨]، أي:"هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلانًا واجعله صديقًا لي".

وفي قوله تعالى: {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} [الفرقان: ٢٨]، اقوال:

أحدها: يعني: الشيطان، قاله مجاهد-في رواية-، وابو رجاء.

قال الزجاج:"وتصديق هذا القول: {وكان الشيطان للإنسان خذولا}، ولا يمتنع أن يكون قبوله من أمية من عمل الشيطان وأعوانه".

الثاني: أنه عقبة بن أبي معيط. وهذا قول أبو مالك الغفاري، ويحيى بن سلام.

الثالث: أنه أُبيّ بن خلف، قاله ابن عباس، وابن سابط، وعمرو بن ميمون، ومجاهد-في رواية أخرى-.

الرابع: أنه أمية بن خلف، قاله سعيد بن المسيب، والشعبي، والسدي، ومجاهد-في بعض الروايات-.

=

=

قال الشعبي:"كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأمية بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمدا فكفر؛ وهو الذي قال: {لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا}".

عن مجاهد: "{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}، قال: عقبة بن أبي معيط دعا مجلسا فيهم النبيّ ﷺ لطعام، فأبى النبيّ ﷺ أن يأكل، وقال: "ولا آكُل حتى تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسُولُ الله"، فقال: ما أنت بآكل حتى أشهد؟ قال: "نعم"، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسُولُ الله. فلقيه أمية بن خلف فقال: صبوت؟ فقال: إن أخاك على ما تعلم، ولكني صنعت طعاما فأبى أن يأكل حتى أقول ذلك، فقلته، وليس من نفسي".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفا، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويَعَض على يديه قائلا {يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا يَا وَيْلَتَى

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا} يعني: مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما".

قال القشيري:"يندم الكافر على صحبة الكفار. ودليل الخطاب يقتضى سرور

=

=

المؤمنين بمصاحبة أخدانهم وأحبائهم فى الله، وأما الكافر فيضل صاحبه فيقع معه فى الثبور، ولكن المؤمن يهدى صاحبه إلى الرشد فيصل به إلى السرور".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ياويلتى} ألفه عوض عن ياء الإضافة، أي: ويلتي، ومعناه: هلكتي {ليتني لم أتخذ فلانا} أي أبيا {خليلا}]، إلى آخره.

قوله: {ياويلتى} (يا) حرف نداء، و {ياويلتى} منادى، وأصله: ويلتي فقلبت الياء ألفا فصارت: يا ويلتى، وهذا جائز لغة، يعني يجوز لغة أن تقول: يا ويلتي ويجوز أن تقول: يا ويلتى. والويل: الهلاك، وكأنه يقول: يا هلاكي احضر، يا هلاكي احضر، ليتني لم أتخذ، إلى آخره. في التمني الأول لم يقل: يا ويلتى، لكن في التمني الثاني قال: يا ويلتى؛ لأنه زاد تحسره، في الأول يعبر لأول مرة عن تحسره، والثاني للمرة الثانية، فيكون ذلك أبلغ في التحسر، فلهذا قال: يا ويلتى.

وقوله: {لم أتخذ} لم أصير {فلانا} هذه اسم جنس يكنى به عن الواحد من بني آدم، وفلانة يكنى بها عن الواحدة من بني آدم، ولم يذكر هنا فلانا باسمه؛ لأنه كما أشرنا إليه للعموم، ففي عقبة بن أبي معيط يكون المراد بفلان: أبي بن خلف، وفي غيره يكون المراد به من أضله عن ذكر الله.

قوله سبحانه وتعالى: {لم أتخذ فلانا خليلا} الخليل هو الحبيب الذي بلغت محبته الغاية؛ لأن الخلة أعلى أنواع المحبة، وسميت بذلك لأن المحبة تخللت مسالك البدن.

كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

وعلى هذا فالخلة أعلى من المحبة، وبه نعرف خطأ من قال: محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله؛ لأن هؤلاء نزلوا مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام حيث وصفوه بأنه حبيب الله وإبراهيم خليل الله؛ فإن الخلة أعلى، والنبي

=

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩).

{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْر} أَيْ الْقُرْآن {بَعْد إِذْ جَاءَنِي} بِأَنْ رَدَّنِي عَنْ الْإِيمَان بِهِ قال تعالى {وَكَانَ الشَّيْطَان لِلْإِنْسَانِ} الْكَافِر {خَذُولًا} بِأَنْ يَتْرُكهُ وَيَتَبَرَّأ مِنْهُ عِنْد الْبَلَاء[1].

=

ﷺ خليل الله كما أن إبراهيم خليل الله، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا". وأما كون موسى كليم الله فنقول أيضا: محمد كليم الله، وإذا كان موسى كليم الله في الأرض فإن محمدا ﷺ كليم الله في السماء.

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي} [الفرقان: ٢٩]، أي:"لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت".

قال يحيى:"{لقد أضلني عن الذكر}، عن القرآن".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا، من معصية ربه في طاعة خليله: لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدّني عنه".

قال ابن كثير:"{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ} وهو القرآن، {بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي}، أي: بعد بلوغه إلي".

عن عمرو بن ميمون قوله: "{لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني}، يعني: الإسلام".

قوله تعالى: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: ٢٩]، أي:"وكان الشيطان الرجيم خذولا للإنسان دائمًا".

قال الطبري:"يقول: مسلما لما ينزل به من البلاء غير منقذه ولا منجيه".

قال ابن كثير:"يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه

=

=

إليه".

عن السدي: "{لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا}، فقتلا يوم بدر جميعا".

قال قتادة:"خذله يوم القيامة وتبرأ منه".

قال خصيف:"«الشيطان»: إبليس".

قال ابن عباس:"خلق الله آدم في آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، ثم عهد إليه فنسي، فسمي: الإنسان".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لقد أضلني عن الذكر} أي القرآن {بعد إذ جاءني}].

قوله: {لقد أضلني} اللام موطئة للقسم، و (قد) للتحقيق، فالجملة إذن مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم و (اللام) و (قد)، وهو يؤكد في هذا اليوم أن ذلك الخليل أضله تأكيدا يراد به لوم نفسه، ولكن ذلك لا ينفعه الآن، لو كان هذا التأكيد في الدنيا لنفعه، أما الآن فلا ينفعه، ولكنه يزيد في تحسره.

قوله: {لقد أضلني عن الذكر} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي القرآن]، وهو بناء منه على أن المراد بالظالم كما سبق هو عقبة بن أبي معيط، فيكون المراد بالذكر القرآن، وإذا قلنا بالعموم -وهو الراجح- يكون المراد بالذكر الكتاب المنزل على ذلك الرسول، ففي عهد موسى التوراة، وفي عهد عيسى الإنجيل، وكذلك في العهود الأخرى الكتب المنزلة على الرسل.

قوله: {بعد إذ جاءني} هذا الظرف له فائدته العظيمة، يعني بعد أن حصل لي الذكر وعلمته وفهمته؛ حصل الإضلال، وهذا أبلغ مما لو أضله عن أمر متوقعغير واقع، هذا أمر واقع أقر بأن الذكر جاءه وقامت عليه الحجة وأضله هذا الخليل بعد إذ جاءه.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن ردني عن الإيمان به، قال الله تعالى: {وكان الشيطان للإنسان} الكافر {خذولا} بأن يتركه ويتبرأ منه عند البلاء].

قوله: {وكان الشيطان للإنسان خذولا} كأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مشى على أن هذه الجملة ليست من قول الظالم، وأن قول الظالم انتهى عند قوله تعالى: {بعد إذ جاءني}، وعلى هذا فينبغي الوقف على قوله: {لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني} فتقف ثم تستأنف وتقول: {وكان الشيطان للإنسان خذولا}.

وقوله: {الشيطان} يراد به الجنس؛ لأن الشياطين كثيرون، قال الله تعالى: {وما تنزلت به الشياطين} [الشعراء: ٢١٠]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: {طلعها كأنه رءوس الشياطين} [الصافات: ٦٥]، فالمراد به هنا الجنس، وهم أنواع.

والظاهر -والله أعلم- أن لكل نوع من المعاصي شيطانا؛ كشيطان الشرك، وشيطان الجحود، وشيطان البخل، وغير ذلك، فلكل نوع شيطان هذا ما يظهر، والله أعلم.

وقوله: {للإنسان} المراد به على كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الكافر، وهو عقبة بن أبي معيط، أو عام؛ لأن هذا الكلام من كلام الله سبحانه وتعالى ليس من كلام الظالم، فيحتمل أن يكون عاما للكافر والمؤمن؛ فإن الشيطان أيضا يغوي المؤمن، ثم بعد ذلك يتخلى عنه، فالظاهر أن المراد بالإنسان هنا الجنس، يعني المؤمن أو الكافر، وإنما قلنا: إن ذلك هو الظاهر لأنه كما يغوي الكافرين بالكفر كذلك يغوي المؤمنين بالفسق.

وقوله: {خذولا} هذه إما أن تكون صفة مشبهة، وإما أن تكون صيغة مبالغة، وعلى الأمرين يكون وصف الشيطان بالنسبة للإنسان الخذلان، أو يكون خذلان الشيطان للإنسان دائما؛ لأن المبالغة تقتضي الكثرة، والخذلان معناه إذلال الإنسان في موطن يحتاج معه إلى النصر، فهذا الخذلان أنك تتخلى عن إنسان في

=

=

موطن يحتاج فيه إلى النصر، والشيطان عندما نتأمل ما ذكر الله عنه في القرآن نجد أنه يخذل الإنسان في مواطن النصر، فزين لقريش أن يخرجوا لقتال النبي ﷺ فخرجوا {فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون} [الأنفال: ٤٨]، زين للإنسان الكفر، {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك} [الحشر: ١٦]، هذا في الدنيا، وفي الآخرة: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم} بمغيثكم {وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل} [إبراهيم: ٢٢]، هذا أيضا خذلان عظيم، فالشيطان في مواطن النصر يخذل الإنسان ويتبرأ منه.

وهذا الوصف {وكان الشيطان} نقول: هل كان في علم الله، أو كان فيما مضى وانتهى؟ تقدم قريبا نظيرها (كان) مجردة عن الزمن، يعني أن (كان) تارة يراد بها الدلالة على الزمن، وتارة يراد بها مجرد الحدث، يعني مجردة عن الزمن، فتقول مثلا: (كان زيد قائما) يعني فيما مضى، ثم جلس، وأيضا مثل قوله ﷻ: {وكان الله غفورا رحيما} [النساء: ٩٦]، وقوله: {وكان الله على كل شيء قديرا} [الأحزاب: ٢٧]، ليس المعنى (كان) فيما مضى، بل المعنى أن هذا وصف لله مستمر.

وهو صفة المغفرة والرحمة والقدرة، وكذلك هنا {وكان الشيطان للإنسان خذولا} ليس المعنى أن الشيطان كان خذولا للإنسان فيما مضى وأصبح غير خذول، بل المعنى أن هذا وصف ملازم للشيطان بالنسبة للإنسان، فالشيطان وصفه الخذلان لبني آدم دائما، ليس معناه فيما مضى فقط، وإنما أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن الشيطان خذول للإنسان لأجل أن نتخذه عدوا، وألا نغتر به، فإنه

=

وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠).

{وَقَالَ الرَّسُول} مُحَمَّد {يَا رَبّ إِنَّ قَوْمِي} قريشا {اتخذوا هذا القرآن مهجورا} متروكا قال تعالى[1].

=

سوف يخذلنا في موطن نحتاج فيه إلى نصره فنحذر منه.

فإذا قال إنسان: ما علامة كون هذا الفعل من أوامر الشيطان، وما الذي يدرينا أن الشيطان أمرنا بهذا، وأن هذا من عمل الشيطان؟

الضابط قوله سبحانه وتعالى: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء} [البقرة: ٢٦٨]، فإذا رأينا أن النفس تريد منا أن نقع في هذا العمل إذا كان مخالفا للشرع؛ علمنا أن هذا من أمر الشيطان، فوجب علينا الحذر منه؛ لأننا نعلم أن هذا الشيطان سيخذلنا في موطن نحتاج فيه إلى النصر، هذه هي العلامة الفارقة بين ما يكون من أمر الشيطان وما يكون من أمر الله تبارك وتعالى.

وأيضا النفس الأمارة بالسوء تأتمر بأمر الشيطان؛ لأنك لا تحس بأن الشيطان نزل بك وجاء بك، لكن نفسك تأمرك بهذا، فهي تأتمر بأمر الشيطان، فيجعلها كالوسيط بينه وبين قلب المرء.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)} [الفرقان: ٣٠]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وقال الرسول يوم يعضّ الظالم على يديه: يا ربّ إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك اتخذوا هذا القرآن مهجورا".

قال السعدي: "{وَقَالَ الرَّسُولُ} مناديا لربه وشاكيا له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفا على ذلك منهم: {يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي} الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم، {اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه".

=

=

اختلف أهل العلم في معنى اتخاذهم القرآن مهجورا، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم هجروه بإعراضهم عنه فصار مهجورًا، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"لا يريدون أن يسمعوه، وإن دعوا إلى الله قالوا لا. وقرأ {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}، قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه".

قال مقاتل:"{إن قومي} قريشا {اتخذوا هذا القرآن مهجورا}، يقول: تركوا الإيمان بهذا القرآن، فهم مجانبون له".

قال الفراء: أي:"متروكا".

قال الطبري:"وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: {لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه}، وذلك هجرهم إياه".

قال الزجاج:"يجوز أن يكون مهجورا: متروكا، أي جعلوه مهجورا لا يستمعونه ولايتفهمونه".

الثاني: أنهم قالوا فيه هجرًا، أي قبيحًا، قاله مجاهد.

قال مجاهد: "يهجُرون فيه بالقول، يقولون: هو سحر".

الثالث: أنهم جعلوه هجرًا من الكلام، وهو ما لا نفع فيه من العبث والهذيان، وهذا معنى قول إبراهيم، واختيار ابن قتيبة، والزجاج.

قال ابن قتيبة:"أي: جعلوه كالهذيان. والهجر الاسم. يقال: فلان يهجر في منامه، أي: يهذي".

قال الزجاج:"جعلوه بمنزلة الهجر. و «الهجر»: ما لا ينتفع به من القول، وكانوا يقولون إن النبي - ﷺ - يهجر".

قال إبراهيم:"قالوا فيه غير الحقّ، ألم تر إلى المريض إذا هذي قال غير الحق".

قال الفراء: "يقال: إنهم جعلوه كالهذيان، والعرب تقول: هجر الرجل في منامه، إذا هذى أو ردد الكلمة".

=

=

قال ابن كثير:"وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦] وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضا من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقال الرسول} محمد {يارب إن قومي} قريشا {اتخذوا هذا القرآن مهجورا}]، هنا المصنف أيضا خصها بالنبي ﷺ، وهنا قد نوافق المصنف على أنها خاصة بالنبي ﷺ؛ بدليل قوله: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين} [الفرقان: ٣١]؛ لأن المراد بهذه الجملة التسلية، وهذا هو الذي يؤيد ما قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، أما مسألة القرآن فإن القرآن يطلق على المصدر فيشمل كل ما يقرأ من التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب، لكن الذي يجعله خاصا بهذا الذي نزل على محمد ﷺ ما بعده.

لو قال قائل: يقول الله تعالى: {هذا القرآن} والوحي ما زال ينزل؟

الجواب: لأن الرسول يقوله والقرآن بين يديه، فمثلا موسى إذا قال والتوراة بين يديه صح أن يشير إليها.

قوله: [{يارب إن قومي} قريشا]، وأضافهم إلى نفسه لأنه أبلغ في توبيخهم؛ لأن الأمر الواقع يقتضي أن قومه أسبق الناس إلى تصديقه، وإلى قبول ما جاء به،

=

=

ولكن الأمر كان بالعكس، وهذا نظير قوله تعالى: {والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى} [النجم: ١ - ٢]، حيث أضافهم إليه، كأنه يقول: ينبغي أن تكونوا أنتم أول من يصدق؛ لأنه صاحبكم، كذلك قوله: {وما صاحبكم بمجنون} [التكوير: ٢٢]، فالمهم أن الإضافة هنا الغرض منها زيادة التوبيخ، يعني بدل أن يقول: إن قريشا قال: إن قومي؛ للمبالغة في توبيخهم، حيث إن مقتضى كونهم قومه أن يصدقوا به ويقبلوا ما جاء به.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اتخذوا هذا القرآن مهجورا} (متروكا)، مأخوذ من الهجر، والهجر ترك الشيء رغبة عنه، فهم اتخذوه مهجورا، يعني جعلوه شيئا مهجورا، يعني لا يلتفتون إليه، وهذا أبلغ من قوله: إن قومي هجروا القرآن، ووجه ذلك أن (هجروا) فعل، والجملة الفعلية لا تدل على الثبوت والاستمرار، ولكن قوله: {اتخذوا هذا القرآن مهجورا} جملة اسمية؛ لأن (الهاء) و (مهجورا) أصلهما المبتدأ والخبر، فكأنهم جعلوا هذا القرآن الذي تجب العناية به والإقبال إليه جعلوه أمرا مهجورا مرغوبا عنه، كأنه ليس مستحقا للإقبال عليه إطلاقا، فصيروه من الأمور المهجورة المتروكة التي ليس من شأنها أن يقبل إليها، وهو أبلغ من كونهم هجروه؛ لأنهم قد يهجرونه وهو مستحق لأن يقبل، أما إذا اتخذوه مهجورا فإن اتخاذهم إياه مهجورا يكون معناه أنهم هجروه مع استحقاق أن يهجر.

وهجر القرآن ينقسم إلى قسمين: هجر لفظي، وذلك بترك تلاوته رغبة عنه، وهذا ما حذر منه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: "بئسما للرجل أن يقول: نسيت سورة كيت وكيت، أو نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي"؛ لأن نسيت تدل على الرغبة والهجر، ونسيت تدل على أنه ليس باختياره، لكنه قد قدر عليه هذا الهجر.

الهجر الثاني: هجر العمل به، يعني أن الإنسان يتلوه ولم يقصر في تلاوته، لكنه لا يعمل به.

=

=

ويمكن أن يتولد قسم ثالث.

القسم الثالث: هجر لفظي وعملي، يعني أنه لا يقرؤه ولا يعمل به.

فإذن الأقسام ثلاثة: هجر لفظي، وهو هجر تلاوته، وهجر عملي، وهو هجر العمل به، وهجر لفظي عملي، وأيهم أشد؟ اللفظي العملي، يليه الهجر العملي، والثالث اللفظي، وكل منها محرم، حتى الهجر اللفظي، فإذا ترك الإنسان تلاوته رغبة عنه وزهدا به فإنه لا يجوز، نعم لو ترك تلاوته تشاغلا بأمور لا بد منها فهذا لا بأس به، فالهجر اللفظي موجود في المؤمنين، ولكن لا يوجد الهجر المطلق بالنسبة للمؤمن، يعني لا يمكن للإنسان أن يترك تلاوته تركا مطلقا؛ لأن عنده الصلاة، وقد فرض عليه أن يقرأ فيها سورة الفاتحة، فالهجر المطلق لا يمكن للمؤمن أبدا؛ لأن أهم شيء قراءة الفاتحة في الصلاة.

لو قال قائل: ما حكم هجر المصحف، وذلك بأن يكون عنده عدة نسخ من القرآن في البيت، ويقرأ في واحدة فقط؟

ليس بحرام، ولا يوجد مانع، لكنه مع الحاجة لا يجوز للإنسان أن يحتكرها والناس محتاجون إليها، أما الآن فلا توجد حاجة، والتحذير الذي كان يوجد في كلام بعض أهل العلم لما كانت المصاحف قليلة، حيث يكون الإنسان ليس عنده إلا نسخة ويحجزها لنفسه ولا ينتفع بها ولا ينتفع بها غيره.

لو قال قائل: هل عدم تدبر القرآن يكون هجرا له؟

هجر التدبر قد يكون هجرا؛ لأن التلاوة بدون تدبر لا شك أنها تلاوة ناقصة؛ لأن الله تعالى أمر بتدبره، وأخبر أنه ما أنزل إلا للتدبر والتذكر {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} [ص: ٢٩]، والتدبر معناه أن الإنسان يتأمل معناه ويفكر فيه، ويسعى في الوصول إليه، وإذا كان قاصرا عن فهم المعنى يسأل، وإذا كان يمكن أن يراجع هو بنفسه كتب التفاسير فليراجع.

=

=

لو قال قائل: هل استماع القرآن يغني عن القراءة؟

فالجواب: ما أظن أن الاستماع يغني عن القراءة، لكن على كل حال الاستماع فيه خير، ولكن القراءة أفضل، وبالنسبة للاستماع إذا كان مشغولا فلا ينبغي أن يستخدمه.

مسألة: هجر القرآن وأنواعه:

وهجر القرآن هو تركه وعدم الاعتبار به قراءة وتدبرا وعملا، وأعظم من ذلك إذا تبع هجر القرآن عدوان عليه بوصفه بالسحر والخرافة، أو إهانته بتمزيفه ورميه، وهكذا كانت تفعل قريش؛ حيث هجروه وكفروا به، وقالوا فيه الباطل؛ ليصدوا الناس عنه، فهم قد زادوا على مجرد تركه في أنفسهم قول الباطل فيه؛ ليتركه غيرهم فيصدوا الناس عنه؛ كما قال تعالى عنهم: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون} [فصلت: ٢٦].

وفي قوله تعالى: {اتخذوا هذا القرآن مهجورا}؛ قال مجاهد: يقولون: هو سحر، وقال النخعي: قالوا فيه غير الحق، وقال ابن زيد: لا يريدون أن يسمعوه.

* هجر القرآن على مراتب وأنواع ثلاثة:

النوع الأول: هجر قراءته وتلاوته:

وتشرع قراءة القرآن لمن يحفظه ومن لا يحفظه، والقرآن شديد التفلت أكثر من غيره من الكلام، وقد جعل الله فيه خصلتين متقابلتين؛ أن من أقبل على القرآن أقبل عليه، ومن أدبر عنه أدبر عنه:

فالأولى: أن الله جعل حفظه أسهل من غيره لمن حسنت نيته وسلم قصده؛ وقد قال تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} [القمر: ١٧].

والثانية: أن نسيانه أسرع من غيره من الكلام المحفوظ.

فقد جعل الله إقباله سهلا يسيرا لقاصده، وإدباره سريعا عن المعرض عنه؛ فلا

=

=

يبقى فى قلب من زهد فيه ورغب عنه؛ كما قال ﷺ (بئسما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي، استذكروا القرآن؛ فلهو أشد تفصيا من صدور الرجال، من النعم بعقلها)؛ رواه الشيخان من حديث ابن مسعود.

وفي الصحيحين أيضا، عن أبي موسى الأشعري مرفوعا: "تعاهدوا هذا القرآن؛ فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها".

ولما كانت المعاصي من الإعراض عنه ولو إعراض عمل، فإن القرآن يعرض عن صاحبه بمقدار هجره للعمل به؛ كما روى ابن أبي شيبة، عن الضحاك؛ قال: ما تعلم رجل القرآن ثم نسبه إلا بذنب؛ ثم قرأ الضحاك: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} [الشورى: ٣٠]، ثم قال الضحاك: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن؟ !.

ومن قرأ القرآن لنفسه، فلا يجب عليه أن يسمعه من غيره، لكن يستحب له ذلك ويسن؛ لأن للأذن حقا كما أن للسان والقلب حقا، وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك، كما روى الشيخان، من حديث عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اقرأ علي)، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ ! قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري)، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} [النساء: ٤١]، قال لي: (كف -أو أمسك-)، فرأيت عينيه تذرفان.

أدنى الزمن الذي يشرع فيه ختم القرآن وأعلاه:

أدنى الزمن الذي يشرع فيه ختم القرآن ثلاثة أيام، ونقل ابن حزم اتفاقهم على جواز الختم في ثلاثة أيام؛ وإنما خلافهم في دون الثلاث على قولين:

والوارد: النهي عن قراءته في دون ثلاث؛ كما في السنن؛ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا: (لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث).

=

=

وصح عن ابن مسعود قوله: "اقرؤوا القرآن في سبع، ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث"؛ رواه سعيد.

وكره ذلك معاذ بن جبل؛ كما رواه أبو عبيد عنه.

وذلك أن من قرأه في أقل من ثلاث، لم يعقل غالبا ما قرأ فيفوته التدبر والتأمل، وحتى لا يغلب عليه حب التكثر بإقامة الحروف على إقامة المعاني، وحتى تأخذ النفس نصيبها من القرآن خشوعا وخضوعا؛ فإن النفس لا تخشع على الحقيقة إلا إذا فهمت المعاني -وأما خشوعها بلا فهم للمعنى، فغالبا يكون لأجل صوت القارئ؛ فإن قرأه بالتحزين، حزن من لم يفهم المعنى، وإن قرأ بالتغني، وجد في نفسه نشوة- ويجد السامع خشوعا ولو لم يفهم المعنى؛ لأثره في طرد الشياطين ووساوس النفس وكونه شفاء لما في الصدور، ولكن هذا الأثر يزول غالبا إن ترك القراءة، أما فهم معاينه، فتورث في القلب خضوعا وخشوعا وإيمانا يدوم في القلب ما دام فيه ذلك المعنى حاضرا.

وذهب بعض السلف: إلى جواز قراءته دون ثلاث، وبه عمل بعضهم؛ كعثمان وتميم الداري وسعيد بن جبير وأبي بكر بن عياش ومنصور بن زاذان ويحيى بن سعيد القطان، كانوا: يختمون كل يوم، وصح عن مجاهد والشافعي: تخصيص رمضان بالختم فيه كل يوم؛ فيختم مجاهد مرة، والشافعي مرتين؛ رواه عن مجاهد ابن أبي داود، وعن الشافعي رواه الربيع، وأسنده عنه البيهقي، وروي عن أبي حنيفة نحوه.

وكان ابن المسيب يختم في ليلتين، وكان الأسود بن يزيد يختمه في رمضان كل ليلتين.

والأفضل: عدم الختم دون ثلاث، والناس يتفاوتون في مقدار ذكائهم وقدرتهم على التدبر والتأمل؛ ولكن الغالب أن من قرأ دون ثلاث، فاته كثير من معاني

=

=

القرآن أو أكثرها، وإذا كان السلف، وهم من هم في الفصاحة والبيان، ونزل القرآن على لسانهم، يذهب أكثرهم إلى عدم القراءة دون ثلاث، فغيرهم في الزمن المتأخر مع شدة العجمة وضعف اللسان - أولى بالتزام ذلك.

ويسن ألا يتجاوز في قراءة القرآن الأربعين، فإن تجاوزها، كره له ذلك، وهو أقصى حد ثبت فيه الخبر؛ قال أحمد: "أكثر ما سمعت أن يختم القرآن في أربعين".

وقد ثبت في "الصحيحين"؛ أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: (اقرأ القرآن في شهر)، قال: إني أجد قوة، حتى قال: (فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك).

وقد روى أبو داود؛ أن عبد الله بن عمرو سأل النبي ﷺ: كم يقرأ القرآن؟ قال: (في أربعين يوما)، ثم قال: (في شهر)، ثم قال: (في عشرين)، ثم قال: (في خمس عشرة)، ثم قال: (في عشر)، ثم قال: (في سبع)، لم ينزل من سبع.

* نسيان القرآن: لا يختلف العلماء: أن نسيان القرآن إن كان عن إعراض وصد زهدا فيه ورغبة عن العمل به: أن ناسيه يأثم بذلك، وأن نسيانه إن كان من غير قصد، لا يأثم به صاحبه؛ كمن ينساه لكبر وهرم أو مصيبة ونازلة أفقدته حضور ذهنه، ونقل ابن رشد المالكي الإجماع على أن من نسي القرآن لاشتغاله بعلم واجب أو مندوب، فهو غير مأثوم.

وقد اختلف العلماء في نسيان القرآن تهاونا وكسلا: هل يأثم به صاحبه؟ على قولين:

القول الأول: قال قوم يأثم ناسيه؛ إلى هذا ذهب جماعة من أصحابنا، وبه قال ابن تيمية، وهو مذهب الشافعية، ومنهم من جعل ذلك كبيرة كالرافعي، ومثله ابن حجر الهيتمي في "الزواجر"، ونقل العلائي عن النووي ذلك، ولعله أراد سكوته عن كلام الرافعي، فجعله إقرارا، والنووي أعل الحديث الذي استدل به على كونه

=

=

كبيرة، ولم يجعل بعض الشافعية هذا قولا للنووي كالبلقيني والزركشي،
واحتج من جعله كبيرة بما رواه أبو داود والترمذي، عن أنس مرفوعا: (عرضت علي ذنوب أمتي، فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها).

وروى أيضا عن سعد بن عبادة مرفوعا: (ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه، إلا لقي الله ﷻ يوم القيامة أجذم).

وحديث أنس منكر؛ أنكره ابن المديني والبخاري، وحديث سعد ضعيف؛ لانقطاعه، وفيه يزيد بن أبي زياد، وفيه كلام معروف، وقد ضعف الحديث الدارقطني وابن عبد البر.

والأحاديث الواردة في تأثيم ناسي حفظ القرآن معلولة؛ وإنما عامة السلف على النهي عن ذلك والتشديد فيه، وصح عن أبي العالية -وهو من كبار التابعين-: "كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه".

وعن ابن سيرين في الذي ينسى القرآن: كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولا شديدا.

وقد قال أحمد: "ما أشد ما جاء فيمن حفظه ثم نسيه".

القول الثاني: قال قوم: إن ناسي حروف القرآن يكره له ذلك، ولكنه لا يأثم ما دام عاملا به ولم يترك حدوده، وحملوا النسيان الوارد في الأحاديث على هجر العمل به، وممن قال بهذا: ابن عيينة، وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة، وأبو شامة شيخ النووي، وقد سمى الله الإعراض عن القرآن وترك العمل به نسيانا؛ كما في قوله تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} [طه: ١٢٤ - ١٢٦]، وفيه قال الله: {فلما نسوا ما ذكروا به} [الأنعام: ٤٤، الأعراف: ١٦٥]، أي: تركوا، وقال {نسوا الله فنسيهم}

=

=

[التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: {اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا} [الجاثية: ٣٤]، وقال: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي} [طه: ١١٥]، قال ابن عيينة: "ليس من اشتهى حفظه وتفلت منه بناس له إذا كان يحلل حلاله ويحرم حرامه، قال: ولو كان كذلك، ما نسي النبي شيئا منه؛ قال الله: {سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله} [الأعلى: ٦ - ٧]، وقد نسي رسول الله منه أشياء، وقال: (ذكرني هذا آية أنسيتها)".

وحمل أبو يوسف معنى النسيان الوارد في وعيد ناسي القرآن: على نسيان قراءته من المصحف، فينسى علم القراءة وحروف العرب.

* النوع الثاني من الهجر: هجر تدبر معانيه وأحكامه: المقصود من إنزال القرآن: تدبره وتأمله للعمل بما فيه، ومن شغلته حروف القرآن عن حدوده فضيعها، كان ذلك أظهر القوادح في نيته وقصده، وأنه يطلبه لغير الله، ومن عمل بالقرآن ولم يعرف حروفه خير ممن يقيم الحروف وهو مضيع للحدود.

وقراءة القرآن مع عدم تدبر من صفات المنافقين؛ كما قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: ٨٢]، وتدبر القرآن يفتح القلب للحق ويرققه للاتباع، وعدم التدبر علامة على الأعراض، ولا يحرم عبد تدبر القرآن إلا بذنب، فيقسو قلبه به، ثم يعرض عنه، يكون ثقيلا عليه؛ قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} [محمد: ٢٤].

* النوع الثالث: هجر العمل بما فيه من أوامر وأحكام: وهو أعظمها وأشدها؛ لأن المقصود من التلاوة والقراءة العمل، فقد يقرأ القارئ القرآن ولا يعمل به، وقد يتدبر معانيه ويعرف أحكامه ويعرض عنها، وكلما كان الإنسان بالقرآن أعلم، كان التكليف عليه أشد، والإعراض منه أكبر؛ فإنما يؤاخذ العبد بترك ما علم، لا بترك ما لم يعلم.

=

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١).

{وَكَذَلِكَ} كَمَا جَعَلْنَا لَك عَدُوًّا مِنْ مُشْرِكِي قَوْمك {جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ} قَبْلك {عَدُوًّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ} الْمُشْرِكِينَ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا {وَكَفَى بِرَبِّك هاديا} لك {ونصيرا} ناصرا لَك عَلَى أَعْدَائِك[1].

=

وهجر العمل به على أنواع كثيرة: منها هجر الإيمان به، وهجر امتثال أوامره. واجتناب نواهيه، وهجر الحاكم والسلطان والقاضي لأحكامه وتعطيلها، والقضاء بالهوى والرأي، وسن القوانين المخالفة له.

(١) قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ} [الفرقان: ٣١]، أي:"وكما جعلنا لك - أيها الرسول - أعداء من مجرمي قومك، جعلنا لكل نبيٍّ من الأنبياء عدوًا من مجرمي قومه، فاصبر كما صبروا".

قال مقاتل:"يقول الله- ﷻ-: يعزي نبيه ﷺ {وكذلك}، يعني: وهكذا، {جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين}، فلا يكبرن عليك فإن الأنبياء قبلك قد لقيت هذا التكذيب من قومهم".

قال الفراء: "يقول: جعلنا بعض أمة كل نبي أشد عليه من بعض وكان الشديد العداوة للنبي ﷺ أبو جهل بن هشام".

قال الثعلبي:"أي: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء ومن مشركي قومك كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين أي من مشركي قومه، فاصبر لأمري كما صبروا".

قال السمعاني:"هذه الآية أنزلت تعزية للنبي وتسمية له، وقوله: {لكل نبي عدوا من المجرمين} أي: أعداء من المجرمين".

=

=

قال ابن كثير:"أي: كما حصل لك - يا محمد - في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٢ - ١١٣]".

قال السعدي:"قال الله مسليا لرسوله ومخبرا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ} أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل. من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحا عظيما لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحا وبيانا وكمال استدلال وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات".

عن قتادة:"قال الله ﷻ يعزي نبيه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}، الآية، أي: أن الرسل قد لقيت هذا من قومها قبلك فلا يكبرن عليك".

قال السدي:"لم يبعث نبي قط إلا كان بعض المجرمين له أعداء، ولم يبعث نبي قط إلا كان بعض المجرمين أشد عليه من بعض".

قال السدي:"فكان عدوا للنبي ﷺ من قريش بنو أمية وبنو المغيرة".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٣١]، أي:"وكفى بربك هاديًا ومرشدًا ومعينًا يعينك على أعدائك".

قال محمد بن إسحاق:"يعنى: {ونصيرا}، أي إن ينصرك الله فلا يضرك خذلان من خذلك".

=

=

قال مقاتل:"يعني، ومانعا، فلا أحد أهدى من الله- ﷻ- ولا أمنع منه".

قال الثعلبي: أي:"فإني هاد بك وناصرك على من ناواك".

قال القرطبي:"أي: يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك".

قال ابن كثير:"أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: {هَادِيًا وَنَصِيرًا} لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}".

قال السعدي:"{وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا} يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك. {وَنَصِيرًا} ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا فاكتف به وتوكل عليه".

قال العثيمين: لما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: {يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا} وهذا من الرسول عليه الصلاة والسلام شكاية لقومه؛ لأنه تضايق بهم، فأنزل الله عليه تسلية له وجوابا لشكايته {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين}، {وكذلك} (الكاف) اسم بمعنى (مثل)، وهي تأتي في القرآن كثيرا، فكلما جاءت فإننا نعربها هذا الإعراب، على أنها اسم بمعنى مثل، وأما إعرابها فهي مفعول مطلق، وعاملها الفعل الذي بعدها، أي: ومثل ذلك الذي جعلناه جعلناه لكل نبي، فهؤلاء المشركون الذين جعلوا القرآن مهجورا ونبذوه وراء ظهورهم ودعوا إلى هجره وسخروا به ليسوا بدعا من غيرهم، فقد سبق لكل نبي كذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكذلك} كما جعلنا لك عدوا من مشركي قومك {جعلنا لكل نبي} قبلك {عدوا من المجرمين} المشركين، فاصبر كما صبروا]، وفي هذا

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ

=

من تسلية النبي ﷺ ما هو ظاهر؛ لأن الإنسان يتسلى إذا كان غيره قد أصيب بمثل مصيبته، تقول الخنساء وهي ترثي أخاها صخرا:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

فإذا علم النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا دأب قوم الأنبياء من قبله فإنه يتسلى ويهون عليه الأمر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكفى بربك هاديا} لك {ونصيرا} ناصرا لك على أعدائك].

قوله: {وكفى بربك} (الباء) يقولون: إنها زائدة إعرابا فقط، ولها معنى، و (ربك) فاعل (كفى)، يعني: وكفى ربك، و (هاديا) تمييز محول عن الفاعل، يعني كفت هدايته ونصره، والتمييز قد يحول عن الفاعل، وقد يحول عن المفعول، فقوله سبحانه وتعالى: {وفجرنا الأرض عيونا} محول عن المفعول؛ لأن الأصل: وفجرنا عيون الأرض، هنا {وكفى بربك هاديا} الأصل: وكفت هداية ربك ونصره.

{وكفى بربك هاديا ونصيرا} أي: ناصرا لك على أعدائك. ووجه المناسبة بين قوله ﷻ: {وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا} وقوله: {وكفى بربك هاديا ونصيرا} أقول: المشركون الذين ينابذون الرسل يقصدون بذلك أمرين؛ إضلال الناس للحيلولة دون وصول الهداية إليهم، والعدوان على الرسل حتى بالحرب والقتال، فبين الله سبحانه وتعالى أن هذه المحاولة ليست بشيء؛ لأن الله تبارك وتعالى كفى به هاديا، فلا يستطيع هؤلاء الأعداء أن يضلوا أحدا، وكفى به نصيرا، فلا يستطيع هؤلاء الأعداء أن يقضوا على دعوة الرسل.

وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا} هَلَّا {نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن جُمْلَة وَاحِدَة} كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور قَالَ تَعَالَى نَزَّلْنَاهُ {كَذَلِكَ} مُتَفَرِّقًا {لِنُثَبِّت بِهِ فُؤَادك} نُقَوِّي قَلْبك {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} أَيْ أَتَيْنَا بِهِ شَيْئًا بَعْد شَيْء بِتَمَهُّلٍ وَتُؤَدَة لِتَيْسِيرِ فَهْمه وحفظه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال المشركون: إن كان محمد كما يزعم نبيًا فلم يعذبه ربه؛ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة؟ ينزل عليه الآية والآيتين والسورة؟!؛ فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} إلى {وَأَضَلُّ سَبِيلًا}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٨٩ رقم ١٥١٢٦)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الباب النقول" (ص ١٦٣)، و"الدر المنثور" (٦/ ٢٥٤) - ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١١٩، ١٢٠ رقم ١١٩) - من طريق أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة القمي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذا سند حسن.

* قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} [الفرقان: ٣٢]، أي:"وقال الذين كفروا: هلا أنزل القرآن على محمد جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور!".

قال ابن عباس:"يقولون: هلا أنزل عليه القرآن جملة واحدة".

قال السدي:"هلا جاء به كما جاء به موسى صلى الله عليهما".

قال قتادة:"كما أنزل على موسى وكما أنزل على عيسى عليهم السلام".

قال ابن كثير:"أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما =

=

نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية".

قال الزجاج:"معناه: هلا نزل عليه القرآن في وقت واحد، وكان بين أول نزول القرآن وآخره عشرون سنة، فقالوا: لم لم ينزل جملة واحدة كما أنزلت التوراة".

قال السعدي:"هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: {لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأي محذور من نزوله على هذا الوجه؟".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} [الفرقان: ٣٢]، أي:"قال الله سبحانه وتعالى: كذلك أنزلناه مفرقًا؛ لنقوِّي به قلبك وتزداد به طمأنينة، فتعيه وتحمله".

قال السعدي:"{كَذَلِكَ} أنزلناه متفرقا {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتا وخصوصا عند ورود أسباب القلق فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه".

قال ابن كثير:"فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجما في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنزلْنَاهُ تَنزيلا} [الإسراء: ١٠٦]".

قال الزجاج:"فأعلم الله ﷻ أن إنزاله متفرقا ليثبت في قلب النبي - ﷺ - فقال: {كذلك لنثبت به فؤادك}، أي: أنزلناه كذلك متفرقا، لأن معنى قولهم: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} يدل على معنى لم نزل عليه القرآن متفرقا فأعلموا لم ذلك، أي: للتثبيت".

عن ابن عباس: "{لنثبت به فؤادك}، يا محمد يقول: لنشدد به فؤادك ونربط على قلبك يعنى بوحيه الذي نزل به جبريل عليك من عند الله وكذلك يفعل بالمرسلين

=

=

من قبلك".

قوله تعالى: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: ٣٢]، أي:"وبيَّنَّاه في تثبت ومُهْلَة".

وفي قوله تعالى: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان: ٣٢]، وجوه:

أحدها: معناه: ورسلناه ترسيلًا، شيئًا بعد شيء، قاله ابن عباس.

الثاني: وفرقناه تفريقًا، قاله قتادة، وإبراهيم.

قال إبراهيم:"نزل مُتَفَرِّقًا".

قال قتادة:"فرَّقناه تفريقًا، آية بعد آية".

قال مجاهد:"بعضه على إثْر بعض".

قال الحسن:"كان ينزل آية وآيتين وآيات جوابا لهم إذا سألوا عن شيء أنزله الله جوابا لهم، وردّا عن النبيّ فيما يتكلمون به. وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة".

قال ابن جريج:"كان ينزل عليه القرآنُ جوابًا لقولهم؛ لِيُعْلَم أنّ الله هو يجيب القومَ عمّا يقولون".

قال ابن جريج:"كان بين ما أنزل القرآن إلى آخره أنزل عليه لأربعين، ومات النبيّ ﷺ لثنتين أو لثلاث وستين".

وقال ابن جُرَيْج: "قلتُ لعطاء [بن أبي رباح]: ما قوله تعالى: {ورتلناه ترتيلا}؟ قال: الطرح: هو النبذ؛ فإذًا هو لا يُوجِب الترتيل".

الثالث: وفصلناه تفصيلًا، قاله السدي.

الرابع: وفسرناه تفسيرا. وهذا قول ابن زيد.

الخامس: وبيَّنَّاه تبيينًا، قاله قتادة.

قال طاووس:"الترتيل: تبيينه حتى تفهمه.

قال الزجاج:"أي: نزلناه على الترتيل، وهو ضد العجلة، وهو التمكث".

=

=

قال السعدي:"أي: مهلناه ودرجناك فيه تدريجا. وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد ﷺ حيث جعل إنزال كتابه جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية".

وقال ابن عباس:"كان الله جل وعز ينزل الآية عليه فإذا علمها نبي الله ﷺ نزلت آية أخرى ليعلمه الكتاب، عن ظهر قلبه ويثبت به فؤاده".

قال العثيمين: قوله {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} هذه السورة فيها طابع التحدث عن القرآن والرد على المكذبين له، فأول ما ابتدأت هذه السورة {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}، فهذا الفرقان الذي تمدح الله نفسه بإنزاله إلى رسوله لا بد أن يعنى به ويجاب عن المعارضين له بالأساليب المختلفة التي مرت علينا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقال الذين كفروا لولا} هلا {نزل عليه القرآن جملة واحدة} كالتوراة والإنجيل والزبور]، {وقال الذين كفروا} هذا من جملة الشبه التي أوردها المكذبون للرسول ﷺ، قالوا: الكتب السابقة تنزل على الأنبياء جملة واحدة، مثل التوراة والإنجيل والزبور، لا مفرقة، فقال هؤلاء: لو كان محمد ﷺ صادقا وأنه نبي من الأنبياء لكان شأنه شأن الأنبياء السابقين؛ ينزل عليه القرآن جملة واحدة، وأتوا بـ(لولا) الدالة على التحضيض، يعني أنه كان ينبغي أو يجب أن ينزل عليه القرآن جملة واحدة على زعمهم كما نزل على الأنبياء السابقين، وهنا قوله: {وقال الذين كفروا} لا شك أنهم من قريش، لأنه يتحدث عن أمر وقع، ولا يمكن أن تكون عامة لجميع الكفار، يعني لا يمكن أن تكون عامة لكفار الأمم السابقين، لكن ربما يكون هذا القول موروثا عن قريش، ويقوله من يقوله بعدهم تمويها وتضليلا للناس.

قوله: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة}، كلمة {نزل} وكلمة {جملة} قد

=

=

يفهم منهما التعارض؛ لأن المعروف أنه إذا كانت بالتشديد (نزل) فهي لما ينزل شيئا فشيئا، وإذا كانت (أنزل) فهي لما نزل جملة واحدة، وهنا قالوا: {لولا نزل عليه القرآن جملة} وكان مقتضى ما أشرنا إليه أن يقولوا: لولا أنزل عليه القرآن؛ فقيل: إن (أنزل) و (نزل) يتناوبان؛ فالمضعف يكون بمعنى المهموز، ونظيره من الأفعال (أخبر) و (خبر)، فتقول: خبرني وأخبرني، ومعناهما واحد، وإن كون (نزل) لما ينزل شيئا فشيئا و (أنزل) لما ينزل جملة واحدة هذا ليس من مدلول اللفظ بذاته، ولكنه مما يعينه السياق والقرائن والحال، وعلى هذا فلا فرق بينهما، ويكون المراد بـ (نزل) هنا (أنزل)، ولكن نابت عنها.

ويحتمل أن يكون قوله: {نزل عليه القرآن جملة واحدة} أنهم قالوه على حكاية ما ينزل، ثم اقترحوا أن يكون جملة، بمعنى أنه نزل حسب الواقع؛ فالواقع أن القرآن ينزل على الرسول ﷺ متفرقا، فكأنهم قالوا: هلا كان تنزيله الذي ينزل الآن شيئا فشيئا جملة واحدة، فيكون التنزيل هنا باقيا على القاعدة، وهو أنه ينزل شيئا فشيئا، كأنهم يقولون: هذا التنزيل الذي كان صفة للوحي الذي ينزل على محمد ﷺ لولا كان هذا التنزيل جملة واحدة.

فأمامنا الآن جوابان:

الجواب الأول: أن (نزل) و (أنزل) يتناوبان، ويعين المعنى السياق والقرائن.

ثانيا: أنهما لا يتناوبان، ولكل واحدة منهما معنى، لكنهم قالوا: نزل باعتبار واقع الأمر؛ فإن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ شيئا فشيئا، فكأنهم قالوا: لولا كان هذا التنزيل جملة واحدة.

هذه الشبهة قد تكون شبهة في بادئ الأمر، يعني لماذا لم يكن الوحي النازل عليه كالوحي النازل على من قبله؟ هذا قد يكون شبهة في بادئ الأمر، ولكنه في الواقع ليس بشبهة، بل هو حجة، ولهذا أجاب الله عنه بقوله: {كذلك لنثبت به فؤادك}.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [نزلناه {كذلك} أي متفرقا {لنثبت به فؤادك} نقوي قلبك {ورتلناه ترتيلا} أي أتينا به شيئا بعد شيء بتمهل وتؤدة لتيسير فهمه وحفظه].

قوله: {كذلك} ينبغي أن تقف عند التلاوة على قوله: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة}؛ لأنه إلى هنا انتهى كلام الكفار، ثم تبتدئ فتقول: {كذلك لنثبت}؛ لأن هذا الأخير من كلام الله جل وعلا، فيجب الفصل بينه وبين كلام الكفار؛ لأنه جواب عن الشبهة.

وقوله: {كذلك} مفعول لفعل محذوف، مفعول مطلق، يعني أنزلناه مثل ذلك التنزيل، و (اللام) في قوله: {لنثبت} للتعليل، وهي متعلقة بالفعل المحذوف، يعني أنزلناه لأجل التثبيت، والتثبيت معناه التقوية والإقرار، يعني ليست مجرد تقوية؛ لأنك تقول: ثبت الشيء بمعنى أقررته لا يتزعزع ولا يتحرك، ومنه قوله سبحانه وتعالى: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن} تميل {إليهم شيئا قليلا} [الإسراء: ٧٤]، فالتثبيت بمعنى التقوية والإقرار؛ لأنه يقرره ويجعله مستقرا، فقلب الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا التنزيل يتقوى ويثبت ويستقر ولا يتزعزع.

وقوله: {لنثبت به فؤادك} كيفية التثبيت هنا من وجهين:

أولا: أنه إذا نزل عليه فترة بعد فترة استقر فؤاده، وعرف استمرار رسالته، وانظر إلى حال النبي عليه الصلاة والسلام عند فترة الوحي ماذا كان يصنع؟ كان يخرج إلى الجبال حتى يوشك أن يتردى من الجبال؛ لأنه فقد ما كان أحس به أولا، فهذا تثبيت يثبت قلب الرسول؛ لأنه رسول ولأن رسالته لم تنقطع، هذا وجه.

وجه آخر: أنه يثبت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام كلما أورد عليه شبهة، فينزل القرآن مجيبا عنها، وهذا بلا شك تثبيت، إذن يكون التثبيت هنا من ناحيتين؛ تثبيته على أنه رسول، وتثبيت آخر لدفع الشبهات التي تورد عليه، وهذا الأمر

=

=

الأول ضربنا له مثلا بفترة الوحي، والأمر الثاني نضرب له مثلا بهذه الآية: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة}، جاء الجواب: {كذلك لنثبت به فؤادك}، وأيضا قوله: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب} [الإسراء: ٩٠ - ٩١]، إلى آخره، وقوله: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين (٥٠) أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم} [العنكبوت: ٥٠ - ٥١]، فهذا وغيره كثير يكون من جملة تثبيت قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إذا كان الإنسان يمد بما يدافع به خصمه، فإن ذلك من أقوى ما يكون من التثبيت.

وهنا بين الله سبحانه وتعالى الحكمة بأنه تثبيت فؤاد الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي آية أخرى قال ﷻ: {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا} [الإسراء: ١٠٦]، فبين حكمة أخرى وهي أن يقرأه النبي ﷺ على الناس على مكث؛ ليكون أسهل لحفظه وأوعى لفهمه، فما هي الحكمة في أن الله ﷻ اختار في هذا الموضع أن يقول: {لنثبت به فؤادك}، وهناك قال: {لتقرأه على الناس على مكث}؟

الحكمة في هذا ظاهرة؛ لأنه هنا جواب لشبهة أوردت عليه، فناسب أن يبين الحكمة فيما يختص بالنبي ﷺ؛ لأنه كما هو معروف أن البشر بشر، يمكن أن يتأثر بما يورد عليه من الشبهات؛ كما قال: {ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن} [الإسراء: ٧٤].

وقوله: {ورتلناه ترتيلا} يقول المصنف رحمه الله: [أتينا به شيئا بعد شيء]، وعلى هذا يكون الترتيل بمعنى التنزيل، وعندي أن الترتيل أخص، يعني أن المعنى جعلناه مرتلا، يعني بعضه يعقب بعضا، وكل آية منه منفصلة عن الأخرى، فكأن هذه

=

=

الآيات مراحل للمسافر، والمسافر إذا كان له مراحل في سفره يهون عليه السفر، وتنقض هذه المراحل تعب سفره، لكن إذا كان دائما في مسير واحد يشق عليه، وكون النفس ترتاح للقرآن بسبب هذه الآيات والترتيل أمر معلوم، وتجزئة القرآن أيضا لهذا السبب؛ أي لأجل أن يقطع الإنسان القرآن مرحلة مرحلة، فيهون عليه ويقوى في قراءته، وكذلك أيضا جعله سورا، كل سورة مستقلة عن الأخرى، هذا أيضا من أسباب تنشيط القارئ واستمراره في قراءته، إذن ترتيل القرآن بالآيات والسور هذا مما يفيد القارئ ويكسبه نشاطا وقوة على القرآن حفظا وفهما.

وكذلك أيضا من فوائد الترتيل أيضا أن العمل يأتي للناس شيئا فشيئا، ما ظنك لو أن القرآن الكريم نزل جملة واحدة على الناس بجميع أحكامه، هل يستوعب الناس هذه الأحكام ويقومون بها أو لا؟ لا يمكن، هذا صعب جدا، وليس من طريق التربية أو التنشئة، ولكن بحكمة الله ﷻ كما هو شأن الله جل وعلا في كل شيء من الأمور القدرية والأمور الشرعية أنه ينشئها تنشئة، حتى الأمور الكونية تنشأ تنشئة، فالجنين في بطن أمه يبقى مدة، في بني آدم تسعة شهور، وفي غيره من الدواب بحسبها، المهم لا بد من تنشئة، الليل والنهار لا يأتي دفعة واحدة، بل شيئا فشيئا، وهكذا الشرائع أيضا تأتي إلى الناس شيئا فشيئا، لاسيما هذه الأمة، وإن كانت الأمم السابقة شرائعهم نزلت جملة واحدة، وهذا من الآصار والأغلال التي كانت عليهم أن شرعهم ينزل جملة واحدة، ويلزمون به دفعة واحدة، لكن هذه الأمة من رحمة الله بها أنه رتل القرآن ترتيلا، حتى ينشئهم على الإسلام وعلى شريعة الله تنشئة شيئا فشيئا.

لو قال قائل: ما العيب في كون القرآن لم ينزل جملة واحدة؟

العيب أنه ليس برسول لأنه لو كان رسولا لكان مثل غيره ينزل عليه القرآن جملة مثلما نزل على من سبقه جملة. وهي شبهة في الحقيقة وليست بحجة، هي شبهة

=

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣).

{وَلَا يَأْتُونَك بِمِثْلٍ} فِي إبْطَال أَمْرك {إلَّا جِئْنَاك بِالْحَقِّ} الدَّافِع لَهُ {وَأَحْسَن تَفْسِيرًا} بَيَانًا[1].

=

يريدون التمويه بها، وإلا فليس هذا -أنه يأتي بالوحي شيئا فشيئا- إطلاقا بشيء يمنع من صدق رسول الله ﷺ، لكن هم يقولون هذا بالإضافة إلى ما سبق في سورة النحل حيث قالوا: {إنما يعلمه بشر} [النحل: ١٠٣]، إذا أضفت هذا إلى ما سبق كأنهم يقولون: هو يلقن القرآن تلقينا، وإلا لنزل عليه جملة واحدة كغيره من الأنبياء.

لو قال قائل: ألا يكون قول المشركين: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} اعترافا منهم بأن القرآن منزل من عند الله؟

الجواب: لا، هم لم يعترفوا، يعني على حسب دعواه، حيث إنهم يقولون: إذا كان نازلا من عند الله، إذن لماذا لم ينزل عليك من الله جملة واحدة إن كنت صادقا، فهذا ليس إقرارا منهم بالإنزال، لكن يقولون: هذا الذي يقول: إنه نزل عليه القرآن من الله لماذا لم ينزل عليه جملة واحدة؟ وأيضا لا يوجد تناقض بين هذه الآية وبين قولهم: إن هذا كلام ساحر يسحر الناس.

(١) قوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)} [الفرقان: ٣٣]

أي: ولا يأتيك - أيها الرسول - المشركون بحجة أو شبهة إلا جئناك بالجواب الحق وبأحسن بيان له.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق، بما نبطل به ما جاءوا به، وأحسن مما جاءوا به من المثل بيانا وتفصيلا".

=

=

قال السعدي:"{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ} يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، {إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} أي: أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظا وأحسن تفسيرا مبين للمعاني بيانا كاملا".

قال ابن كثير:"أي: ولا يقولون قولا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم، وفي هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحا ومساء، ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث".

قال ابن عباس:"أي: ينزل به جبريل كلما أتي بمثل يلتمس عيبه نزل به كتاب الله ناطق".

قال ابن عباس:"يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب ولكنا نمسك عليك فإذا سألوك أجبت".

عن ابن جُرَيج: "{وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ}، قال: الكتاب بما تردّ به ما جاءوا به من الأمثال التي جاءوا بها وأحسن تفسيرا".

عن ابن عباس، قوله: "{وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، يقول: أحسن تفصيلا".

=

=
عن الضحاك، قوله: "{وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، يقول: تفصيلا".
عن مجاهد: "{وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، قال: بيانا".
عن ابن عباس قال: "أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: {وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، وقوله {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلا} [الإسراء: ١٠٦]".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا يأتونك بمثل} في إبطال أمرك {إلا جئناك بالحق} الدافع له {وأحسن تفسيرا} بيانا]، هذا من تثبيت قلب الرسول ﷺ، {ولا يأتونك بمثل} المراد بالمثل هنا الصفة؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن} [محمد: ١٥]، والمثل كما هو معروف يطلق على الشبه {مثلهم كمثل الذي استوقد نارا} [البقرة: ١٧]، ويطلق على الصفة، أو الوصف العظيم العجيب {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار} [محمد: ١٥]، ويطلق على المثل المعروف بين الأدباء وهو القول السائر الذي يراد به تشبيه الحال الواقع بما سبق، أو ما أشبه ذلك، فالمراد بالمثل هنا الصفة، يعني لا يأتونك بصفة من القول يريدون بها إبطال دعوتك إلا جئناك بالحق.

إذن فهم يأتون بباطل لأنه قابل قولهم بالحق، فهذا دليل أيضا على أن كل شبهة يحتج بها المكذبون للرسول ﷺ، فهي باطل، ولكن هذا الباطل باطل في ذاته، قد يظهر لبعض الناس بطلانه، وقد يخفى على بعض الناس بطلانه، وهذا من الفتن، أي فتنة الشبهة، يعني ليس كل ما كان باطلا معلوما لكل أحد، ولهذا أنت أحيانا وأنت شخص واحد ينجلي لك الأمر واضحا في بعض الحالات، ويلتبس عليك في بعض الحالات، حسب ما يكون قلبك صافيا مطمئنا، أو غير ذلك، ومن ثم نهي
=

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤).

هُمُ {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوههمْ} أَيْ يُسَاقُونَ {إِلَى جَهَنَّم أُولَئِكَ شَرّ

=

عن القضاء في حال الغضب، وعن الإفتاء في حال الغضب، وفي حال الحر المزعج، والبرد المؤلم، وما أشبه ذلك؛ لأن الإنسان تحول هذه الأمور بينه وبين العلم بالحق، أو إرادة الحق؛ لأنه عند الغضب يشتبه عليك الحق، أو ربما لا تريد الحق بل تريد أن تنفذ غضبك فيمن غضبت عليه مثلا.

فالحاصل الآن نقول: كل شبهة يوردها الكفار في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفيما بعده فهي باطل، وما جاء أحد بباطل في عهد الرسول ﷺ إلا جاء الله بالحق.

وقوله: {وأحسن تفسيرا} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي بيانا].

وهنا (أحسن) هل هي على بابها أو من باب مقابلة الخصم؟ على بابها؛ لأنهم عندهم بيان وإيضاح للأمور، وإيراد للشبه، وهم في غاية ما يكون من الفصاحة، ولهذا ما تحدى الله أحدا في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام بمثل ما تحداهم بالقرآن، إذن فـ (أحسن) هنا على بابها، يعني أنهم يأتون بكلام حسن جدا وبين وواضح، ولكننا نأتيك بما هو أحسن وأبين وأوضح، وفي هذا من مدافعة الله تعالى عن رسوله ﷺ ما فيه.

قوله: {وأحسن تفسيرا} لو قال قائل: كلامهم ما دام باطلا هل فيه بيان؟

فالجواب: نعم؛ لأنهم يأتون بكلام جيد في فصاحته، وقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إن من البيان لسحرا"، لكن بيانهم هذا وفصاحتهم وسحرهم اللفظي يأتي الله تعالى بما هو أحسن منه.

مَكَانًا} هُوَ جَهَنَّم {وَأَضَلّ سَبِيلًا} أَخْطَأ طَرِيقًا مِنْ غَيْرهمْ وَهُوَ كفرهم(١).

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٣٤]

أي: أولئك الكفار هم الذين يُسحبون على وجوههم إلى جهنم، وأولئك هم شر الناس منزلة، وأبعدهم طريقًا عن الحق.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ} [الفرقان: ٣٤]، أي:"أولئك الكفار هم الذين يُسحبون على وجوههم إلى جهنم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه: هؤلاء المشركون يا محمد، القائلون لك {لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} ومن كان على مثل الذي هم عليه من الكفر بالله، الذين يحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم".

قال مجاهد:"الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم".

عن أنس بن مالك، قال: "سئل رسول الله ﷺ: كيف يُحشر أهل النار على وجوههم؟ فقال: إنَّ الَّذِي أمْشاهُمْ عَلى أقْدامِهِمْ قَادِرٌ عَلى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلى وُجُوهِهِمْ".

عن أبي هريرة، قال: "يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدوابّ، وصنف على أقدامهم، وصنف على وجوههم، فقيل: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر أن يمشيهم على وجوههم".

قال الحسن: "لما سير عامر بن عبد قيس إلى الشام، قال: الحمد لله الذي حشرني راكبا، قال الحسن: قد والله علم عامر أن قوما يحشرون على وجوههم".

قال ابن رجب:"فجعل مسيره إِلَى الشام حشرًا".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٣٤]، أي:"وأولئك هم شر الناس منزلة، وأبعدهم طريقًا عن الحق".

=

=

قال الطبري:"فيساقون إلى جهنم شرّ مستقرّا في الدنيا والآخرة من أهل الجنة في الجنة، وأضل منهم في الدنيا طريقا".

عن مجاهد، " {أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا} من أهل الجنة. {وَأَضَلُّ سَبِيلا}، قال: طريقا".

عن ابن عباس قوله: "{وأضل سبيلا}، يقول: وأبعد حجة".

قال العثيمين: قوله: {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم} يقول المصنف: [هم {الذين يحشرون}]، فجعل (الذين) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هم {الذين يحشرون على وجوههم}، يعني هؤلاء الذين كذبوك وعارضوا ما جئت به هم الذين يحشرون على وجوههم، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يساقون {إلى جهنم}، ولو قال المصنف: يحشرون بمعنى يجمعون؛ لأن الحشر بمعنى الجمع، يعني يبعثون -والعياذ بالله- يوم القيامة على وجوههم، لكن كأنه لما عدي بقوله: {إلى جهنم} صار مضمنا لمعنى السوق؛ لمعنى يساقون، ولكنه لا مانع أن نقول: يحشرون ويساقون؛ لأن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر ليس معناه أنه يسلب دلالته التي يدل عليها لفظه، بل يضاف إليه معنى آخر، فمثلا {يشرب بها عباد الله} [الإنسان: ٦].

قلنا: إن يشرب مضمن معنى يروى، وليس معنى ذلك أنه سلب معنى الشرب؛ لأنه لا ري إلا بعد الشرب، وهذا واضح، كذلك أيضا لا سوق إلى جهنم إلا بعد الحشر الذي هو الجمع.

وقوله: {هم الذين} على رأي المصنف تكون: {الذين} خبرا لمبتدأ محذوف، ويكون قوله سبحانه وتعالى: {أولئك شر مكانا} حالا؛ جملة حالية، أو أنها مبتدأ وخبر مستأنف، ويحتمل أن تكون {الذين} مبتدأ، وجملة {أولئك شر مكانا} خبر المبتدأ، فتكون من باب المبتدأ المخبر عنه بجملة.

وقوله: {يحشرون على وجوههم} كيف يمشون على وجوههم؟ نقول: كما قال

=

=

النبي عليه الصلاة والسلام: "أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ "، ليس ببعيد، وإذا كان المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فالله على كل شيء قدير، فإنسان بشر قد يكون من أكبر الناس جثة في الدنيا، وهو متكبر، إذا كان يوم القيامة يحشر أمثال الذر، والله تعالى على كل شيء قدير، وهذا مثال مما سبق الإشارة إليه بأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا.

إذا قيل: ما وجه العقوبة بحشرهم على وجوههم؟

فالجواب: إهانة لهم؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء، فإذا جعل هو محل الوطء فهذا إهانة، لكن ما هي الحكمة من ذلك؟ لا شك أنه فيه إهانة وعذاب؛ لأنهم قلبوا الحقائق فقلبوا، وأيضا لما كانوا ينطقون بألسنتهم، وهي في وجوههم، صار العذاب عليها، كل هذه وجوه محتملة، وعندي زيادة احتمال أن الإنسان يقبل على الشيء بوجهه ويعرض عنه بوجهه، فلما كان الوجه محل الإعراض والإقبال، وهم قد أعرضوا، صار العذاب عليها.

كل هذه المعاني مناسبة، والله أعلم بما أراد، وقد تكون كل هذه المعاني مقصودة، ولا يقال: إن الوجه أشد مواطن الجسد إحساسا، نقول: ليس على كل حال؛ لأنه توجد مواطن أشد إحساسا من الوجه. على كل حال هذه المعاني التي ذكرت يمكن أن تكون كلها من أسباب أنهم يحشرون على وجوههم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أولئك شر مكانا} هو جهنم {وأضل سبيلا} أخطأ طريقا من غيرهم، وهو كفرهم].

قوله: {شر مكانا} يعني منزلة، وهي جهنم، فهي شر مكانا من كل أحد؛ لأنه لم يذكر المفضل عليه، وعدم ذكر المفضل عليه يفيد العموم، يعني {شر مكانا} من جميع الأمكنة ومن كل أحد.

=

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب} التَّوْرَاة {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أخاه هارون نذيرا} معينا(١).

=

قوله: {وأضل سبيلا} يعني طريقا عن الصواب، فهم أضل طريقا من كل أحد، فهؤلاء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم -والعياذ بالله- هم شر الناس منزلة، وهم أضل الناس طريقا.

وقوله: {إلى جهنم} جهنم هذه اسم من أسماء النار، وأصلها من الجهمة، والنون فيها زائدة، وعلى هذا فوزنها فعنل؛ لأن النون زائدة، وسميت بهذا الاسم لأنها سوداء اللون، بعيدة القعر، وهذه هي الجهمة والظلمة، نعوذ بالله منها.

ويستفاد من الآية إثبات البعث؛ لقوله: {الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم}.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [الفرقان: ٣٥]، أي:"ولقد آتينا موسى التوراة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يتوعد مشركي قومه على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله ويخوّفهم من حلول نقمته بهم، نظير الذي يحلّ بمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها {وَلَقَدْ آتَيْنَا} يا محمد {مُوسَى الْكِتَابَ}، يعني: التوراة كالذي آتيناك من الفرقان".

قال ابن كثير:"يقول تعالى متوعدًا من كذّب رسولَه محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه، من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى، عليه السلام".

عن زياد بن أبي مريم، قوله: {آتينا}، قال: أعطينا".

عن قتادة:"{الكتاب}، قال: التوراة".

=

=

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} [الفرقان: ٣٥]، أي:"وجعلنا معه أخاه هارون معينًا له".

قال الطبري:"يعني: معينا وظهيرا".

قال قتادة: "أي" عوينا وعضدا".

قال الحسن: شريكا في الرسالة".

قال ابن كثير:"وجعل معه أخاه هارون وزيرا، أي: نبيًا مُوَازرا ومؤيدًا وناصرًا".

قال يحيى:"وذلك قبل أن تنزل عليهما التوراة ثم نزلت عليهما بعد فقال: {ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان} [الأنبياء: ٤٨] التوراة، وفرقانها حلالها وحرامها".

قال الزجاج:"«الوزير» -في اللغة-: الذي يرجع إليه ويتحصن برأيه، و «الوزر»: ما يلتجأ إليه ويعتصم به، ومنه قوله: {كَلَّا لَا وَزَرَ} [القيامة: ١١]، أي: لا ملجأ يوم القيامة ولا منجا إلا لمن رحم الله ﷻ".

قال العثيمين: هذه الجملة {ولقد آتينا} فيها مؤكدات عددها ثلاثة: (اللام)، و (قد)، والقسم؛ لأن اللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لقد، والتأكيد في القرآن سببه أحد أمرين: إما أن يكون في مقابلة إنكار المنكر، وإما أن يكون لأهمية الموضوع، وإما للأمرين جميعا، فيكون أمرا مهما، ويكون هناك منكر له، فيؤكد الله سبحانه وتعالى ذلك الأمر، فهنا إيتاء موسى الكتاب هذا أمر واقع ولا ينكر، لكن لأهمية الموضوع أكده الله سبحانه وتعالى ليعرض للرسول عليه الصلاة والسلام صورا من تكذيب السابقين حتى يكون ذلك أبلغ في تسليته، ففيما سبق يقول الله ﷻ: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا} [الفرقان: ٣١]، وهذا قول مجمل، ثم شرع هنا في تفصيل ذلك وبيان ما وقع على سبيل التعيين.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولقد آتينا موسى الكتاب} التوراة]، وآتيناه بمعنى أعطيناه

=

فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦).

{فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أَيْ الْقِبْط فِرْعَوْن وَقَوْمه فَذَهَبَا إِلَيْهِمْ بِالرِّسَالَةِ فَكَذَّبُوهُمَا {فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا} أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكًا[1].

=

إياها، أنزلها الله تعالى عليه مكتوبة بألواح، فهي ألواح مكتوب فيها التوراة، جاء بها موسى من الله، وليس المراد أنها تنزل من السماء، أنزلها الله على موسى فجاء بها إلى قومه، وقصتها في الأعراف مبسوطة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا} معينا]، {أخاه} من أبيه وأمه، وأما قوله: {قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي} [طه: ٩٤]، فهذا من باب التلطف والتعطف؛ لأن الأم أشد حنانا من الأب، وإلا فهو أخوه من أبيه وأمه، ومسألة القرابة وأنه شقيقه ثابتة.

قوله: {هارون وزيرا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [معينا].

وقوله: {وزيرا} من الأزر؛ وهو العون، يعني أنه كان وزيرا، أي معينا له، وذلك بطلب من موسى؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: {هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري} [طه: ٣٠ - ٣٢]، ويقال: إنه لا يوجد أحد من الإخوة أشد منة وفضلا من موسى على هارون؛ لأنه طلب أن يكون رسولا، والرسالة أعلى المقامات التي يتوصل إليها البشر.

(١) قوله تعالى: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الفرقان: ٣٦]، أي:"فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذَّبوا بدلائل ربوبيتنا وألوهيتنا، فدَعَواهم إلى الإيمان بالله وطاعته وعدم الإشراك به".

قال الطبري:"يقول: فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بإعلامنا وأدلتنا".

قال يحيى:"يعني: فرعون وقومه".

=

=

قال الزجاج:"يعني: به فرعون وقومه، والذين مسخوا قردة وخنازير".

قوله تعالى: {فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا} [الفرقان: ٣٦]، أي:"فكذَّبوهما، فأهلكناهم إهلاكًا عظيمًا".

قال يحيى:"أي: فكذبوهما {فدمرناهم تدميرا}، يعني: الغرق الذي أهلكهم به كقوله: {فكذبوهما فكانوا من المهلكين} [المؤمنون: ٤٨]، من المعذبين بالغرق في الدنيا ولهم النار في الآخرة".

قال الطبري: أي:"فذهبا فكذبوهما فدمرناهم حينئذ".

قال ابن كثير:"فكذبهما فرعون وجنوده، فـ {دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} [محمد: ١٠]".

عن الربيع: {فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}، " يقول: تبرناهم تتبيرا، يقول: قطع الله أنواع العذاب".

عن ابن عباس:"يقول أهلكناهم بالعذاب". وروي عن السدي نحو ذلك.

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا} أي القبط فرعون وقومه، فذهبا إليهم بالرسالة فكذبوهما {فدمرناهم تدميرا} أهلكناهم إهلاكا].

قوله: {اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا} في كلمة {كذبوا} إشكال؛ وهو أنه يقتضي أن التكذيب سابق للرسالة، {اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا} فكيف يكونون مكذبين مع أنهم لم يأت إليهم رسول؟

والجواب: أن الفعل الماضي هنا بمعنى المستقبل، بمعنى: الذين يكذبون بآياتنا؛ لأن الآيات لم تصل إليهم بعد، فمعنى {الذين كذبوا بآياتنا} أي يكذبون بها في المستقبل.

أو يقال: {كذبوا بآياتنا} بحسب علم الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: قدرنا أنهم يكذبون.

=

=

ويحتمل وجها ثالثا، لكنه احتمال لا يوجد ما يؤيده، أنهم قد أرسل إليهم رسول فكذبوه، وهذا يؤيده قول المؤمن من آل فرعون: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا} [غافر: ٣٤].

فإذا قيل: إن يوسف سابق جدا على موسى، ولا ندري هل أدركه فرعون أم لم يدركه؟

فيقال: لعل آثار رسالته قد بقيت، ولهذا خاطبهم المؤمن: {ولقد جاءكم يوسف}، ولم ينكروا، ما قالوا: ما جاءنا، {فما زلتم في شك مما جاءكم به} يعني إلى الآن.

فصار عندنا الوجوه ثلاثة؛ إما أن الماضي هنا بمعنى المضارع، واستعماله بمعنى المضارع كثير في اللغة العربية، ولا يحضرني الآن أمثلة، وربما يأتي، وإما أن يكون كذبوا في علم الله أي حسب علم الله سبحانه وتعالى وتقديره، وإما أن يكون بحسب الرسالة السابقة التي هي رسالة يوسف.

وقوله: {بآياتنا} المراد بالآيات هنا الكونية أو الشرعية؟ الظاهر أنها تشمل الآيات الكونية والشرعية؛ لأن آيات الله ﷻ كما هو معروف آيات شرعية وآيات كونية، فما تعلق بالخلق والتقدير فهو آيات كونية؛ لأن في انتظامه ودقته وصنعه ما يدل على حكمة صانعه وقدرته، وما يتعلق بالوحي فهو آيات شرعية؛ لأن إصلاح هذا الوحي لمن نزل إليه على حسب ما شرع هذا من الآيات العظيمة الدالة على أنه من عند الله، قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: ٨٢].

قوله سبحانه وتعالى: {اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا} اذهبا إليهم فدمرناهم؛ من المعروف أن في الآية تقديرا، والتقدير: فذهبا إليهما

=

وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧).

=

فكذبوهما فدمرناهم تدميرا، وإنما يتعين هذا التقدير لأنه لا يمكن التدمير بمجرد ذهاب الرسول إليهم، لابد من تكذيب؛ لأن الله تعالى لن يهلك أحدا إلا بذنب.

وقوله: {تدميرا} مصدر يراد به التعظيم، يعني تدميرا عظيما، ولا شك أن التدمير الذي وقع لفرعون وقومه من أعظم التدمير؛ لأن الله يقول: {كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين} [الدخان: ٢٥ - ٢٧]، هذا النعيم العظيم الذي كان فيه قوم فرعون إذا جاء الهلاك من بعده يكون وقع الهلاك فيهم شديدا؛ لأن الهلاك إذا وقع للبائس فهو أهون مما إذا وقع للناعم، هو أهون بكثير، ولهذا وصف الله هذا التدمير بقوله: {تدميرا}؛ يعني عظيما بالغا، وهذا التدمير لا ينافي ما أشرنا إليه من أن الله تعالى أنجى فرعون ببدنه، يعني لا بروحه، فإن روحه هلكت مع من هلك، لكنه أنجاه ببدنه ليكون آية لبني إسرائيل وعلامة على أنه هلك؛ لأن الرجل قد أرعبهم وأرهبهم، فلا يطمئنون تمام الطمأنينة حتى يشاهدوا جثته ميتة، وبذلك يكون آية وعلامة على أنه ما بقي له بقية.

هل في هذا تعيين لما يتسلى به الرسول عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: نعم فيه؛ لأن فرعون من أعظم الناس عتوا وتكبرا، ومع ذلك أهلكه الله سبحانه وتعالى إهلاكا بالغا هو وقومه، فهكذا أيضا تكون العاقبة للرسول ﷺ مثلما كانت العاقبة لموسى وقومه.

لو قال قائل: هل قوم الرسول عليه الصلاة والسلام يعرفون حكاية فرعون؟

فنقول: نعم يعرفونها؛ إما من قبل نزول القرآن أو من بعده؛ لأنهم يعرفون في أنفسهم أن القرآن حق.

{وَ} اذْكُرْ {قَوْم نُوح لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل} بِتَكْذِيبِهِمْ نُوحًا لِطُولِ لُبْثه فِيهِمْ فَكَأَنَّهُ رُسُل أَوْ لِأَنَّ تَكْذِيبه تَكْذِيب لِبَاقِي الرُّسُل لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيء بِالتَّوْحِيدِ {أَغْرَقْنَاهُمْ} جَوَاب لَمَّا {وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ} بَعْدهمْ {آيَة} عِبْرَة {وَأَعْتَدْنَا} فِي الْآخِرَة {لِلظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {عَذَابًا أَلِيمًا} مُؤْلِمًا سِوَى مَا يَحِلّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ} [الفرقان: ٣٧]، أي:"وأغرقنا قوم نوح بالطوفان حين كذَّبوه- ومن كذب رسولا فقد كذب الرسل جميعًا-".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقوم نوح لما كذبوا رسلنا، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من الحقّ، أغرقناهم بالطوفان".

قال السمعاني:"نزل الماء من السماء أربعين يوما، ونبع من الأرض أربعين يوما، حتى صارت الدنيا كلها بحرا".

قال مقاتل:"يعني: حين {كذبوا الرسل}، يعني: نوحا وحده".

قال ابن كثير:"وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحًا، عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه؛ ولهذا قال: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ}، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله، ويحذرهم نقَمه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم الله جميعا، ولم يَبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط".

قال الزجاج:"يدل هذا اللفظ أن قوم نوح قد كذبوا غير نوح أيضا لقوله {الرسل}، ويجوز أن يكون {الرسل}، يعنى به: نوح وحده، لأن من كذب بنبى فقد كذب =

=
بجميع الأنبياء، لأنة مخالف للأنبياء، لأن الأنبياء يؤمنون بالله وبجميع رسله، ويجوز أن يكون يعنى به الواحد، ويذكر لفظ الجنس كما يقول الرجل للرجل ينفق الدرهم الواحد أنت ممن ينفق الدراهم، أي ممن نفقته من هذا الجنس، وفلان يركب الدواب، وإن لم يركب إلا واحدة".

عن أبي زهير، عن رجل من أصحابه، قال: "بلغني أن قوم نوح عاشوا في ذلك الغرق أربعين يوما".

عن مجاهد:"قال لما أصاب قوم نوح الغرق، قال: قام الماء على رأس كل جبل خمسة عشرة رأسا قال: أصاب الغرق امرأة فيمن أصاب لها صبي فوضعته على صدرها فلما بلغها الماء وضعته على منكبيها فلما بلغها الماء وضعته على يديها، قال: فقال تبارك وتعالى: لو رحمت أحدا من أهل الأرض لرحمتها".

قال محمد بن إسحاق: "فلقد غرقت الأرض وما فيها وانتهى الماء إلى ما انتهى إليه وما جاوز الماء ركبته ودأب الماء حين أرسله الله خمسين ومائة يوم كما يزعم أهل التوراة فكان بين أن أرسل الله الطوفان وبين أن غاض الماء ستة أشهر وعشر ليال ولما أراد الله أن يكف ذلك أرسل الله ريحا على وجه الماء فسكت الماء واشتدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء فجعل الماء ينقص ويفيض ويدبر فكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم

أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه في أول يوم من الشهر العاشر. زوى رؤس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع فأرسل الحمامة فرجعت إليه فلم تجد لرجليها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها فمكث سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت إليه حيث أمست وفي فمها ورقة زيتونة فعلم نوح أن الماء قد قل، عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع
=

=

إليه فعلم نوح أن الأرض قد برزت".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً} [الفرقان: ٣٧]، أي:"وجعلنا إغراقهم للناس عبرة".

عن الربيع بن أنس:"يعنى قوله: {للناس آية}، يقول: عبرة ومتفكر".

قال مقاتل:"يعنى: عبرة".

قال الطبري:"يقول: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكنا عظة وعبرة للناس يعتبرون بها".

قال ابن كثير:"أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١١ - ١٢]. أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره".

قوله تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفرقان: ٣٧]، أي:"وجعلنا لهم ولمن سلك سبيلهم في التكذيب يوم القيامة عذابًا موجعًا".

قال مقاتل:"يعنى: وجيعا".

قال الطبري:"يقول: وأعددنا لهم من الكافرين بالله في الآخرة عذابا أليما، سوى الذي حلّ بهم من عاجل العذاب في الدنيا".

عن ابن عباس: "{وأعتدنا للظالمين}، يقول: للكافرين: {عذابا أليما}، قال: العذاب النكال".

قال ابن عباس:"أليم كل شيء موجع".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قال العثيمين: بدأ بذكر موسى عليه السلام، مع أنه متأخر بالنسبة إلى قوم نوح، فما هي

=

الحكمة من ذلك؟ فالجواب: لأن فرعون أقرب عهدا، وأشد عتوا من قوم نوح.

قوله: {وقوم نوح} الناصب لها موجود، ليس مقدرا، وهو قوله: {أغرقناهم}، فهو من باب الاشتغال، ولكن لماذا نصب مع أن الراجح في ظاهر القول الرفع؟ نقول: لأنه عطف على جملة فعلية، وإذا كان معطوفا على جملة فعلية فتقدير الفعل أولى من المبتدأ؛ لأجل أن تتناسب الجملتان، يعطف فعل على فعل، يعني: فدمرناهم تدميرا، وأغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل، فدمرنا وأغرقنا قوم نوح.

وعلى رأي المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فإن {وقوم نوح} منصوب بتقدير: اذكر قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم، ولكننا نقول: لا نحتاج إلى تقدير، والمسألة من باب الاشتغال، والاشتغال معروف، والاشتغال مثل النكاح، فالنكاح تجري فيه الأحكام الخمسة، والاشتغال أيضا تجري فيه الأحكام الخمسة، أحيانا يجب الرفع، وأحيانا يجب النصب، وأحيانا يترجح النصب، وأحيانا يترجح الرفع، وأحيانا يتساوى الأمران، فتجري فيه الأحكام الخمسة، أحكام النحو، لا أحكام التكليف في الشرع، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأنه معطوف على جملة فعلية، وإذا عطف على جملة فعلية فالأرجح النصب؛ لأجل أن نقدر فعلا يكون مناسبا لما عطف عليه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقوم نوح لما كذبوا الرسل} بتكذيبهم نوحا لطول لبثه فيهم، فكأنه رسل، أو لأن تكذيبه تكذيب لباقي الرسل؛ لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حل الآية الكريمة على وجه جواب لإشكال في قوله: {لما كذبوا الرسل}، فمعلوم أن نوحا عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: ١٦٣]، وكذلك أيضا في حديث الشفاعة: "ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله"، فإذا كان أول الرسل فكيف الجواب عن قوله سبحانه وتعالى: {كذبوا الرسل} مع أنه ما سبقه رسول

=

=

ولا جاء معه رسول؟

أجاب المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بواحد من أمرين: إما أنه لطول مكثه في قومه صار كأنه رسل كثيرون؛ لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وهذه مدة تستوعب رسلا كثيرين، فكأنه لطول المكث صار متعددا، هذا واحد.

الجواب الثاني: أو لأن تكذيبه تكذيب لباقي الرسل؛ لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، فيكون هذا من باب الجنس؛ لأن من كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل؛ لأنه كما أسلفنا أعداء الرسل لا يعادونهم لشخصهم، وإنما يعادونهم لما يدعون إليه، وما جاءوا به، وهذا جنس، فيكون تكذيبهم لرسول تكذيبا لجميع الرسل، وهذا أقرب، ولذلك من كذب رسولا واحدا فهو مكذب لجميع الرسل، وبهذا نعرف أن اليهود الآن مكذبون لموسى، وأن النصارى الذين يزعمون أنهم متبعون لعيسى مكذبون لعيسى؛ لأنهم مكذبون للرسول ﷺ، فهم مكذبون حتى لأنبيائهم.

وبهذا نعرف أيضا أن ما اشتهر بين الناس الآن من تسمية النصارى بالمسيحيين أنه خطأ، وأنه لا ينبغي أن نسميهم بالمسيحيين؛ لأن المسيح منهم بريء، ولا يجوز أن ينسبوا إليه، ولا إلى دينه، وإنما يقال لهم ما قال الله فيهم؛ وهو النصارى، وما زال المسلمون في كتبهم يسمونهم بهذا الاسم بالنصارى إلى أن استعمروا البلاد الإسلامية وأدخلوا على المسلمين هذا التعديل تلطيفا وتمويها؛ لتصطبغ ملتهم بالوصف الشرعي وهو المسيحية، ونحن نقول: نشهد الله على أن المسيح ﷺ منهم بريء، وأنهم كافرون به كما هم كافرون بمحمد ﷺ، بل إنهم في الحقيقة كافرون به، لا من حيث العموم والجنس، بل من حيث التعيين؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول عن عيسى: {يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦]، يخاطب بني

=

=

إسرائيل فيبشرهم بهذا الرسول، وهل يمكن أن يبشر أحد بما لا يتصل به؟ لا يمكن، فإذا كان يبشرهم برسول يأتي إلى العرب ويحاربهم ويقاتلهم هل هذه بشارة؟ أبدا، البشارة برسول يأتي إليهم لينقذهم من الضلال، ومحمد ﷺ لما جاء إلى هذه الأمة صار يحارب النصارى، وأوجب الله عليه محاربتهم ومحاربة اليهود، ومحاربة جميع الكفار، هل يمكن أن يكون عيسى مبشرا للنصارى برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ليقاتلهم؟ !

لا يمكن، وبهذا نعرف أنهم كذبوا عيسى على التعيين، لا على جنس الرسالة، كما أسلفنا أولا.

وإذا قيل: إنهم لا يعلمون بهذه البشارة.

نقول: هذه البشارة موجودة في أصل الكتاب، ولا أظنها تحرفت، لا بد أن تكون باقية؛ لأنه مبشر لهم، ولا يبشر إلا من تصل إليه البشارة، فالظاهر أنه ما جرى عليها التحريف وأنها باقية، فقد يحرفون المعنى أو بعض الأمور كتموها، أو ما أشبه ذلك، ولهذا اليهود لما أرادوا ألا يطبقوا الحد في التوراة لم يزيلوها من التوراة، هي باقية، لكن يحاولون أن يكتموها عن الناس كما هو معروف، وأنا عندي أن ذلك لا بد أن يكون هذا موجودا لم يجر عليه تحريف؛ لأنه ﷻ قال: {ومبشرا برسول} [الصف: ٦]، ولأنه إنما يبشر بالرسول من كان في وقت الرسول، وهذا معناه أنه سيبقى، وأما قوله ﷻ: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} [الأنعام: ٢٠]، فإن هذا مما يؤيد ما قلنا، لكن نفس البشارة تدل عليه؛ لأن قوله: {الذين آتيناهم الكتاب} يؤيد، وليس نصا في الموضوع، فقد يكون المراد أوائلهم قبل التحريف، لكن الظاهر أن المراد الأوائل والأواخر، كذلك وفد نجران لما أتوا النبي ﷺ.

والخلاصة في الكلام على قوله: {لما كذبوا الرسل} أنه جمع، مع أنهم ما كذبوا

=

=

إلا نوحا، والجواب عن ذلك من أحد وجهين كما تقدم: إما أنه لطول مكثه كأنه رسل، وإما أنهم لما كذبوا هذا الرسول من أجل الرسالة صاروا مكذبين لجميع الرسل.

والذي حصل {أغرقناهم} فهو جواب {لما}، قال: {وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم} وقصتهم معروفة، حتى إن الله سبحانه وتعالى أغرق من قوم نوح ابنه {فقال رب إن ابني من أهلي} [هود: ٤٥]، فقال الله له: إنه ليس من أهلك؛ لأنه كافر وأنت مؤمن.

وقال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وجعلناهم للناس} بعدهم {آية} عبرة {وأعتدنا} في الآخرة {للظالمين} الكافرين {عذابا أليما}].

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أغرقناهم وجعلناهم للناس} بعدهم {آية} عبرة]، كيف كانوا عبرة؛ لأن الآية لا بد أن تكون معلومة، فكيف كان ذلك؟ عن طريق الخبر، سواء كان عن طريق الوحي أو عن طريق النقل بين الناس، وأيضا الفلك أول من صنعها نوح، فبقيت آية إلى يومنا هذا، ولكنها تطورت بحسب الزمن، كما في قوله تعالى: {وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر} [القمر: ١٣ - ١٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأعتدنا} في الآخرة {للظالمين} الكافرين {عذابا أليما}]، قوله: {للظالمين} هذا إظهار في موضع الإضمار؛ لأن مقتضى السياق أن يقول: وأعتدنا لهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا} [نوح: ٢٥]، ولكن الإظهار هنا له فائدة، بل فوائد، نعدها:

الأولى: إرادة الشمول والعموم؛ ليشملهم هم وغيرهم، حتى الظالمون من قريش يدخلون في هذا؛ لأنه إذا قال: (وأعتدنا لهم عذابا أليما) صار العذاب الأليم لهم فقط، لكن لما قال: {للظالمين} صار لهم ولغيرهم.

=

وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨).

{و} اذكر {عادا} قوم هود {وثمود} قَوْم صَالِح {وَأَصْحَاب الرَّسّ} اسْم بِئْر وَنَبِيّهمْ قِيلَ شُعَيْب وَقِيلَ غَيْره كَانُوا قُعُودًا حَوْلهَا فَانْهَارَتْ بِهِمْ وَبِمَنَازِلِهِمْ {وَقُرُونًا} أَقْوَامًا {بَيْن ذَلِكَ كَثِيرًا} أَيْ بَيْن عَاد وَأَصْحَاب الرَّسّ[1].

=

والثانية: تسجيل هذا الوصف عليهم، وهو الظلم؛ لأنه وصفهم بأنهم ظالمون.

والثالثة: إظهار الحكمة من هذه العقوبة وهي أنهم كانوا ظالمين، يعني أعد لهم عذابا أليما؛ لأنهم ظالمون.

والرابعة: التنبيه: تنبيه المخاطب؛ لأن تغير السياق يوجب انتباه المخاطب، مثل الالتفات، قال تعالى: {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم} [المائدة: ١٢]، ولم يقل: وبعث. وقال سبحانه وتعالى: {الحمد لله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيم (٣) مالك يوم الدين (٤) إياك نعبد} [الفاتحة: ٢ - ٥]، لم يقل: نعبد، بل قال: {إياك نعبد}، لكن المراد بالمخاطب هنا الذي يكون في قلبه حياة، أما الذي يقرأ القرآن بدون تدبر فإنه لا ينتبه للإظهار في موضع الإضمار، والالتفات، والتنبيه، فكله عنده واحد، لكن الكلام للذي يقرأ بتدبر؛ فإنه لا بد أن ينتبه كيف تغير السياق، وكيف عدل عن الضمير إلى الظاهر.

قوله: {وأعتدنا للظالمين عذابا أليما} فعيل بمعنى مفعل، يعني مؤلما، وعذاب جهنم -والعياذ بالله- أو عذاب الآخرة يشمل الألم البدني والألم القلبي، فالألم البدني يحصل بنوع العذاب، والألم القلبي يحصل بما يقارن عذابهم من التوبيخ؛ لأنهم يوبخون ويقرعون ويقررون بإتيان الرسل، وهذا من أشد ما يكون من العذاب القلبي.

(١) قوله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ} [الفرقان: ٣٨]، أي:"وأهلكنا عادًا قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر".

=

=

قال الطبري: يقول: "ودمرنا أيضا عادا وثمود وأصحاب الرسّ".

قال أبو عبيدة:"{أَصْحابَ الرَّسِّ}، أي: المعدن. قال النابغة الجعديّ:

سبقت إلى فرط ناهل... تنابلة يحفرون الرّساسا

و «الرّساس»: المعادن".

قال القرطبي:"«الرس»: هو كل حفر احتفر كالقبر والمعدن والبئر".

قال النحاس:"«الرس» عند أهل اللغة: كل بئر غير مطوية.. ويروى أنهم قتلوا نبيهم ورسوه في بئر، أي: دسوه فيها".

قال أبو احمد السامري:"{أَصحابَ الرَسّ}، يعني: أصحاب البنات، وأزد شنوءة يسمّون البنين: الرسّ".

واختلفوا في «أَصْحَاب الرَّسِّ»، على أقوال:

أحدها: أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة، فبعث الله إليهم نبيا من ولد يهوذا بن يعقوب، فحفروا له بئرا وألقوه فيها، فهلكوا، قاله علي بن أبي طالب.

الثاني: أنهم قوم كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوا نبيهم فأهلكهم الله، قاله سعيد بن جبير.

الثالث: أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها، وكانت لهم مواش، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم شعيبا، فتمادوا في طغيانهم، فانهارت البئر، فخسف بهم وبمنازلهم، قاله وهب بن منبه.

الرابع: أنهم الذين قتلوا حبيبا النجار، قتلوه في بئر لهم، وهو الذي قال: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٢٠]، قاله السدي.

وقال عكرمة:"كان الرسّ بئرا رسُّوا فيها نبيهم".

وقال ابن عباس:"هي بئر كانت تسمى الرّس".

وقال ابن عباس:"بئر بأذربيجان".

=

=

وقال مجاهد:"الرّسّ بئر كان عليها قوم".

قال قتادة:"أصحاب الرس كانوا أهل فلح وآبار كانوا عليها".

قال جعفر بن محمد:"كل نهر وبئر هو رس".

الخامس: أنهم أصحاب الأخدود، و «الرس» هو الأخدود الذي حفروه. حكاه الثعلبي.

السادس: أنهم قوم قتلوا نبيهم وأكلوه، وأول من عمل السحر نساؤهم، قاله ابن السائب.

السابع: أن الرسّ: قرية من ثمود. وهذا قول ابن عباس.

الثامن: أن الرسّ: قرية من اليمامة يقال لها: الفلج. وهذا قول قتادة، وعكرمة.

التاسع: أن «أصحاب الرس»: قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السحق، وكان نساؤهم كلهم سحاقات. رواه جعفر بن محمد عن أبيه.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشراط الساعة أن يستكفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق».

العاشر: أن {أصحاب الرس} كانتا أمتين فبعث الله إليهما نبيا واحدا شعيبا وعذبهما الله بعذابين. وهذا مروي عن قتادة.

قال يحيى: بلغني أن الذي أرسل إليهم شعيب، وأنه أرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الرس جميعا، ولم يبعث نبي إلى أمتين غيره فيما مضى، وبعث النبي إلى الجن والإنس كلهم".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك؛ ومنه قول الشاعر:

سَبَقْتَ إلى فَرطٍ باهِلٍ... تنابِلَةٍ يَحْفِرُونَ الرِّساسا

=

=

يريد أنهم يحفِرون المعادن، ولا أعلم قوما كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: {وَأَصْحَابَ الرَّسِّ} فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرا، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا نبيهم في حفرة، إلا ما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَدخُلُ الجَنَّةَ يَوْمَ القِيَامَةِ الْعَبْدُ الأَسْوَدُ». وذلك أن الله تبارك وتعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن مِنْ أهلها أحد إلا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية عدوا على النبيّ عليه السلام، فحفروا له بئرا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم، قال: وكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه فيبيعه، فيشتري به طعاما وشرابا، ثم يأتي به إلى ذلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، فيعينه الله عليها، فيدلي إليه طعامه وشرابه، ثم يعيدها كما كانت، قال: فكان كذلك ما شاء الله أن يكون. ثم إنه ذهب يوما يحتطب، كما كان يصنع، فجمع حطبه، وحزم حزمته وفرغ منها؛ فلما أراد أن يحتملها وجد سِنة، فاضطجع فنام، فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما. ثم إنه هبّ فتمطى، فتحوّل لشقة الآخر، فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى. ثم إنه هبّ فاحتمل حزمته، ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية فباع حزمته، ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان

يصنع ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها التي كانت فيه فالتمسه فلم يجده، وقد كان بدا لقومه فيه بداء، فاستخرجوه وآمنوا به وصدّقوه، قال: فكان النبي عليه السلام يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل؟ فيقولون: ما ندري، حتى قبض الله النبيّ، فأهبّ الله الأسود من نومته بعد ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ ذَلكَ الأَسْودَ لأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ»، غير أن هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب عن النبيّ ﷺ أنهم آمنوا

=

=

بنبيهم واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيين بقوله: {وَأَصْحَابَ الرَّسِّ} لأن الله أخبر عن أصحاب الرّسّ أنه دمرهم تدميرا، إلا أن يكونوا دمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجها".

قوله تعالى: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} [الفرقان: ٣٨]، أي:"وأممًا كثيرة بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرسِّ، لا يعلمهم إلا الله".

قال الطبري:"يقول: ودمرنا بين أضعاف هذه الأمم التي سمَّيناها لكم أمما كثيرة".

قال يحيى: أي: وأهلكنا قرونا، أمما، أمة بعد أمة {بين ذلك كثيرا}".

قال القرطبي:"أي: أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد. وثمود وأصحاب الرس".

عن أبي أمامة الباهلي أن رجلا قال: "يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: نعم مكلم، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون، قال كم كان بين نوح وإبراهيم؟ قال: عشرة قرون".

قال ابن عباس:"كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون كل أمة منهم على شريعة من الحق". وروى عن عكرمة نحوه.

قال قتادة:"كان بين موسى وعيسى صلى الله عليهما أربعمائة سنة وكان بين عيسى وبين محمد صلى الله عليهما ستمائة سنة وبين نوح وآدم صلى الله عليهما ألف دار وبين نوح إبراهيم صلى الله عليهما ألف دار وبين إبراهيم وبين موسى صلى الله عليهما وسلم ألف دار يعنى ألف دار، ألف سنة".

عن عثمان بن عطاء، عن أبيه قال: "بين النبي ﷺ وبين آدم تسعة وأربعون أبا".

قال الأعمش:"كان بين موسى وعيسى ألف نبي".

=

=

قال عروة بن الزبير:"ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معد بن عدنان".

عن محمد بن القاسم الطائي، "أن عبد الله بن بسر قال: قلت يا رسول الله كم القرن؟ قال: مائة سنة". وروي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن نحو ذلك.

عن زرارة بن أوفى قال: "القرن عشرون ومائة سنة، بعث النبي ﷺ في قرن كان آخرهم يزيد بن معاوية".

عن جعفر بن عليّ بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: "خلفت بالمدينة عمي ممن يفتي على أن القرن سبعون سنة". وكان عمه عبيد الله بن أبي رافع كاتب عليّ رضي الله عنه".

قال قتادة:"القرن: سبعون سنة".

وقال الحسن:"القرن: ستون سنة".

وقال إبراهيم:"القرن: أربعون سنة".

وقال مالك بن دينار: "سألت الحسن، عن القرن، فقال: عشرون سنة".

والجمهور على أن القرن مائة سنة، وأكثر المحققين على أنه غير مقدر بزمن معين لا يقع فيه زيادة ولا نقصان، بل المراد أهل كل عصر، فإذا انقضى أكثرهم قيل: قد انقضى القرن، قال تعالى: {ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن} [الأنعام: ٦].

قال ابن الأثير: "أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان من أعمارهم وأحوالهم، وسميت الروم ذات القرون لتوارثهم الملك قرنا بعد قرن".

روي عن الربيع بن خيثم، " اشتكى فقيل له: ألا تتداوى فإن رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا كانوا أكثر وأشد حرصا على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت، فأبى أن يتداوى فما مكث

=

=

إلا خمسة أيام حتى مات، رَحِمَهُ اللَّهُ".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{و} اذكر {عادا} قوم هود {وثمود} قوم صالح، {وأصحاب الرس} اسم بئر، ونبيهم قيل: شعيب، وقيل: غيره، كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم، {وقرونا} أقواما {بين ذلك كثيرا}، أي بين عاد وأصحاب الرس].

قوله وَجَلَّ: {وعادا وثمود} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها على تقدير (اذكر)؛ لأنه لم يذكر فعلا بحيث يحال العمل عليه، وعاد قوم هود، وكانوا في الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا ذوي قوة وشدة، حتى إنهم قالوا: {من أشد منا قوة} فقال الله سبحانه وتعالى مجيبا لهم: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم}، انظر {الذي خلقهم} لها فائدة؛ لأنهم مخلوقون ضعفاء {هو أشد منهم قوة} [فصلت: ١٥]، وبماذا أهلكوا؟ أهلكوا بألطف الأشياء، وهي الريح؛ ريح دمرتهم، قال تعالى: {تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم} [الأحقاف: ٢٥].

قوله: {وثمود} فيها قراءتان: (وثمودا) {وثمود} بدون تنوين، فعلى قراءة التنوين يكون غير ملاحظ فيها اسم القبيلة، يعني ليس فيها تأنيث، وعلى قراءة عدم التنوين {ثمود} منعت من الصرف للعلمية والتأنيث، فأسماء القبائل كلها يحذى بها هذا الحذو، يعني يجوز أن تمنعها من الصرف باعتبار اسم القبيلة، ويجوز ألا تمنعها إذا لم يكن فيها مسوغ غير التأنيث المعنوي؛ لأنها ليست فيها سبب.

وثمود هم قوم صالح، كذبوا صالحا وعقروا الناقة التي جعلها الله سبحانه وتعالى آية، وأخيرا أهلكوا بصيحة ورجفة، صيح بهم مع الرجفة، فماتوا والعياذ بالله {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} [القمر: ٣١]، وفي آية أخرى: {فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين} [الأعراف: ٧٨].

لو قال قائل: هل نبي الله صالح عربي؟

=

=

فالجواب: الظاهر أنه عربي، وهود أيضا، لكنهما ليسا من العرب المستعربة الذين هم بنو إسماعيل من العرب العاربة.

لو قال قائل: لكن ذكر ابن كثير حديثا عن أبي ذر قال: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ فذكر فيه: "وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر"؟

فالجواب: الأسماء تدل على أنها عربية، لكن لا أدري عن هذا الحديث، لكن المعروف أنه لا يوجد إلا هؤلاء الأربعة، حتى شعيب لا أدري عنه إلا من هذا الحديث، أما هود فمعروف عند المؤرخين أنهم عرب عاربة.

لو قال قائل: هل أحد تعرض لتعريب أسماء الأنبياء، أي معرفة معناها؟

فالجواب: من المعروف أن الأعلام قد تكون أسماء جامدة، ليس لها اشتقاق، لكن فيما يبدو لي -والله أعلم- أن أسماء الأنبياء في الغالب لها معان، لكن لا أعرف عنها شيئا.

قوله: {وأصحاب الرس} الرس اسم للبئر؛ إما للبئر مطلقا، أو لبئر غير مطوية، ولم يبين الله سبحانه وتعالى من أصحاب الرس، ولذلك اختلف المصنفون فيهم اختلافا كثيرا، فقيل: إنهم -كما يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قوم شعيب، ولكن هذا ليس بصحيح، وقيل: إنهم من قوم ثمود، وليسوا قوم ثمود، وعلى هذا فيكون عطفهم على ثمود من باب عطف البعض على الكل، وليسوا هم ثمود أصحاب البئر، يعني بئر الناقة؛ لأنه معروف أنهم ثمود مستقلون، وهلاكهم معروف، وجوابهم لرسولهم معروف، فالأصل في العطف التغاير.

وقيل: إن أصحاب الرس -ورجحه ابن جرير - هم أصحاب الأخدود الذين ذكر الله تعالى في سورة البروج، ولكن الأولى التوقف في تعيينهم؛ لأن الله ﷻ لم يعينهم، ولكننا نعلم أن هؤلاء القوم كانوا معلومين للعرب حين نزول القرآن؛ لأن الله تعالى لم يكن ليضرب لهم المثل بقوم لا يعرفون ما جرى عليهم، الآن نحن

=

=

نتكلم عن تعيينهم بأشخاصهم، أو بقبائلهم، نقول: الأولى التوقف.

لكن لماذا سموا أصحاب الرس؟

قيل: إنهم رسوا نبيهم، يعني دفنوه في هذه الرس، يعني في البئر، فسموا بأصحاب الرس من باب إضافة الشيء إلى العمل الشنيع المنكر.

وقيل: إنهم كانوا حول هذه البئر، وإن الله سبحانه وتعالى خسف بهم وببئرهم، فانهارت البئر بمن حولها، فذهبوا عن آخرهم. وكيفية العقوبة التي جرت عليهم أو كيفية العمل الذي عملوه فأهلكوا به على الأول تكون الإضافة إشارة إلى الفعلة القبيحة التي فعلوها، فكانت سببا في إهلاكهم، وعلى الثاني تكون إشارة إلى نوع العقوبة التي عوقبوا بها، فتكون من باب الإضافة إلى العقوبة.

نقرأ كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأصحاب الرس} اسم بئر، ونبيهم قيل: شعيب، وقيل: غيره، كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ اقتصر على ذكر كيفية إهلاكهم، فهم أضيفوا إلى البئر؛ لأن إهلاكهم كان بما حولها، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقرونا} أقواما {بين ذلك كثيرا} أي بين عاد وأصحاب الرس]، هذا ما ذهب إليه المصنف، ويحتمل أن الإشارة تعود إلى ما سبق من قوم نوح، يعني من قوم نوح إلى أصحاب الرس قرون كثيرة أهلكهم الله سبحانه وتعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقرونا} أقواما] كأنه يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المراد بالقرن الجيل، والقوم والأمة التي كانت في عصر واحد، وهذا أحد الأقوال في القرن؛ أن المراد به الأمة والطائفة الذين كانوا في عصر واحد، وعلى طريق واحدة، واستدلوا بقول النبي ﷺ: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

ويطلق القرن على الزمن، واختلفوا في مقداره؛ فمنهم من قال: إنه مئة، وهذا هو المشهور، ومنهم من قال: مئة وعشرون، ومنهم من قال: ثمانون سنة، وهذه

=

=

الأقوال التي تقدر بالزمن هي مقاربة للأقوال التي تقدر بالأمة؛ لأن الغالب أن مثل هذا الزمن يفنى به الأولون ويأتي بعدهم قوم آخرون، ولهذا قال النبي ﷺ في آخر حياته: "أرأيتم ليلتكم هذه، فإن رأس مئة سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد"، فهذا مما يشير إلى أن القرن مئة سنة، ولكن السياق هنا يدل على أن المراد بالقرون الأمم؛ لأن الإهلاك للقرون يكون لأهل الأزمان، فالآية هنا سياقها يدل على أن المراد بالقرون الكثيرة الأمم، وما أكثر القرون التي أهلكها الله سبحانه وتعالى بين نوح وأصحاب الرس، وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو ذر وهو حسن، وصححه الحاكم أن عدد الرسل ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا، وأما الأنبياء فكثيرون؛ مئة وأربعة وعشرون ألفا، هذا عدد كبير، فإذا كان غالب الرسل مكذبا، فمعنى ذلك أن القرون التي أهلكت كانت كثيرة، والنبي ﷺ رأى رؤيا: رأى الأنبياء، فرأى النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، مما يدل على أن غالب الأنبياء كذب فيما سبق ولم يتبعه إلا القليل، وهذا نوح كما هو معروف لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، قال الله تعالى: {وما آمن معه إلا قليل} [هود: ٤٠]، هذه المدة العظيمة وهو يكابدهم ويناظرهم ويجادلهم ويقولون: {يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا} [هود: ٣٢]، أي: لن نطيل، الذي عندك ائت به -والعياذ بالله- ونحن الآن إذا كابدنا واحدا في الدعوة إلى الله لمدة دقيقة واحدة تطاولناها، نقول: لماذا لم يستجب من أول مرة دعوناه فيها؟ ! والرسل - عليهم الصلاة والسلام- الذين وعدهم الله بالنصر {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: ٥١]، يكابدون أقوامهم ثم لا يؤمن إلا القليل منهم.

فالحاصل أننا نقول: هؤلاء القرون العظيمة الكثيرة كلها أهلكها الله ﷻ بتكذيبها لرسلهم، أفلا يكون قادرا على أن يهلك المكذبين للرسول؟ بلى، هو قادر عليه،

=

وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩).

{وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَال} فِي إقَامَة الْحُجَّة عليهم فلا نُهْلِكهُمْ إلَّا بَعْد الْإِنْذَار {وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} أَهْلَكْنَا إهْلَاكًا بِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ[1].

=

وهذا هو الذي حصل، لكن الله تعالى جعل إهلاك أعداء الرسول ﷺ على يد الرسول {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم} [التوبة: ١٤ - ١٥]. فهذه المصالح العظيمة لو أهلكت قريش بعذاب من عند الله لم تحصل، ولهذا إذا هلك عدوك على يدك كان أشفى لك وأشد سرورا وفرحا أن الله يهلكه على يدك، أما إذا هلك بعذاب من الله فهذا لا شك أن الله كفاك شره ولكن كونه على يدك أبلغ وأشد فرحا وسرورا.

(١) قوله تعالى: {وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ} [الفرقان: ٣٩]، أي:"وكلًا من هؤلاء بيّنا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة إعذارًا وإنذارا".

قال يحيى: "يعني: من ذكر ممن مضى، {ضربنا له الأمثال}، أي: خوفناهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناها لكم أو لم نسمها ضربنا له الأمثال يقول: مثلنا له الأمثال ونبهناها على حججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نهلك أمة إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة".

قال قتادة:"كلّ قد أعذر الله إليه، ثم انتقم منه".

قوله تعالى: {وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} [الفرقان: ٣٩]، أي:"فأهلكناهم بالعذاب إهلاكًا".

قال الطبري: يقول:"وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أمرهم استأصلناهم، فدمرناهم بالعذاب إبادة، وأهلكناهم جميعا".

قال يحيى: "أفسدنا فسادا، يعني إهلاكه الأمم السالفة بتكذيبها رسلها".

=

=

قال أبو عبيدة:"أي: أهلكنا واستأصلنا".

عن ابن جُرَيج، قوله: "{وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا}، قال: بالعذاب".

قال الحسن:"تبر الله كلا بعذاب تتبيرا".

وقال ابن زيد:"أضللنا الذين أضلهم، لم ينتفعوا من دينهم بشيء".

قال سعيد بن جبير:"تتبير بالنبطية".

قال العثيمين: تقدم أن الله جل وعلا جعل لكل نبي عدوا من المجرمين؛ تسلية للنبي ﷺ وإنذارا لقومه، وأنه بين أقواما على التعيين ليكون ذلك أبلغ؛ لأن التعيين كضرب المثل، وممن عين وأول من بدأ الله بهم قوم موسى، ثم بعد ذلك نوح، وبعد ذلك عاد وثمود، كل هذا ذكرناه وذكرنا أن الله ﷻ أهلك فرعون المكذب للرسول عليه الصلاة والسلام بالغرق في البحر الأحمر، وأن الحكمة من إغراقه بالماء أنه افتخر بالماء، حيث قال لقومه: {وهذه الأنهار تجري من تحتي} [الزخرف: ٥١]، فافتخر بالماء فأهلكه الله تعالى بما افتخر به. وقوم نوح أهلكوا بالغرق العام الذي هو من آيات الله، حيث فجر الله الأرض عيونا وفتح أبواب السماء بماء منهمر.

وأما عاد فأهلكوا بالريح، والحكمة من ذلك هو أنهم كانوا يفتخرون بالقوة، يقولون: من أشد منا قوة، فأهلكهم الله تعالى بالأشياء اللطيفة التي ليست بشيء ليتبين للناس أن الإنسان مهما كان من القوة فإنه ضعيف أمام قدرة الله ﷻ.

وثمود أهلكوا بالرجفة مع الصيحة، فإن الله ﷻ رجف بهم وصاح بهم جبريل حتى تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وكانوا كهشيم المحتظر، ثم الصيحة أيضا ليست كصفارات الإنذار تتكرر، ولعل أحدا يدخل في الملاجئ، بل هي صيحة واحدة فقط {إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} [القمر: ٣١]، يعني مثل هشيم الحظار، وهشيم الحظار معروف، يكون متفتتا باليا، والحكمة من

=

=

ذكر هؤلاء الرسل وما جرى لقومهم أمران: التسلية للرسول ﷺ، والإنذار لهولاء المكذبين له أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم، ولهذا قال شعيب لقومه: {ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد} [هود: ٨٩].

قوله: {وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا} لماذا نصبت {وكلا}، والاسم إذا ابتدئ به يكون مبتدأ؟ هذا يسمونه باب الاشتغال، وفي باب الاشتغال يكون الفعل منصوبا بالعامل بعده، أو بعامل مقدر مناسب، وهنا لا يصلح بالعامل بعده؛ لأن العامل بعده متعد بحرف الجر، فالضمير (له) يعود على {وكلا} فالعامل اشتغل بضمير، لكن بواسطة حرف الجر، إذن لا بد أن نقدر فعلا مناسبا، والتقدير: وأنذرنا كلا ضربنا له الأمثال، فهو مفعول لفعل محذوف، وهو من باب الاشتغال، وإنما ترجح النصب هنا لأنه معطوف على جملة فعلية، وباب الاشتغال من مرجحات النصب فيه أن يعطف على جملة فعلية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكلا ضربنا له الأمثال} في إقامة الحجة]، {وكلا ضربنا له الأمثال} يعني بينا له الأمثال، يعني الوقائع التي أوقعها الله تعالى بمن قبلهم، كل أمة تنذر بمن قبلها، ويضرب لها المثل، يقال: هذا مثل المكذبين حصل عليهم كيت وكيت، فكل أمة أنذرها الله تمام الإنذار، بحيث لا يبقى لها حجة: أمة محمد عليه الصلاة والسلام وغيرها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكلا ضربنا له الأمثال} في إقامة الحجة عليهم، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار]، وهذا من عدل الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله قادر على أن يهلك عباده بمجرد معصيتهم؛ إذ إنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق الفطري أو الحسي، على الخلاف في ذلك، بأنه ربهم وأنهم عابدون له، ولكن مع ذلك ما يهلك أحدا إلا بعد إرسال الرسل {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على

=

=

الله حجة بعد الرسل} [النساء: ١٦٥]، فلم يكل الله العباد إلى فطرهم، ولا إلى العهد الذي أخذه عليهم، وإنما بعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين، بعد هذا البعث هل يبقى لأحد حجة؟ لا يبقى، حتى المحتجون بالقدر لا يستطيعون أن يحتجوا به مع إقامة الحجة عليهم بالرسل، ولهذا لو كان القدر حجة لم تنتف بإرسال الرسل؛ إذ القدر قائم مع وجود الرسل، فلو كان القدر حجة للعاصين ما كان إرسال الرسل حجة على الخلق؛ لأنهم يقولون: يا ربنا القدر موجود حتى مع إرسال الرسل، فهو لنا حجة. ولكن الناس قد أنذروا وأتوا بالآيات "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر"، فكل رسول أيضا ما أتى فقط ليقول للناس: أنا رسول، افعل كذا، حتى لو جاء الإنسان وقال: أنا رسول، افعل كذا، ولم يأت بآيات فللناس الحجة في أن يردوا قوله، يقولون: هات بينة أنك رسول، وإلا لا نقبل، لكن مع ذلك ما من رسول إلا أتى بآية يؤمن على مثلها البشر، ثم مع ذلك أنذروا؛ فشعيب عليه السلام كما أشرنا سابقا قال لقومه: {لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح} [هود: ٨٩]، وهود عليه السلام قال لقومه: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح} [الأعراف: ٦٩]، وصالح قال لقومه: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد} [الأعراف: ٧٤]، وكل رسول يضرب المثل لقومه بمن سبقهم، إذن فالحجة قائمة.

قال المصنف: [{وكلا تبرنا تتبيرا} أهلكنا إهلاكا بتكذيبهم أنبياءهم]، {وكلا} مفعول مقدم لـ (تبرنا)، وليس من باب الاشتغال؛ لأن باب الاشتغال يكون فيه العامل مشتغلا بضمير ما سبقه، هذا باب الاشتغال، يعني إذا قلت: (زيدا ضربت) لا يكون من باب الاشتغال؛ لأن العامل ما اشتغل بضميره، يكون هذا من باب المفعول المقدم، لكن إذا قلت: (زيد ضربته) صار الآن من باب الاشتغال، إن شئت فارفعه على أنه مبتدأ، والجملة بعده خبر، وإن شئت فانصبه، لكن كما تقدم

=

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠).

{وَلَقَدْ أَتَوْا} أَيْ مَرَّ كُفَّار مَكَّة {عَلَى الْقَرْيَة الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَر السَّوْء} مَصْدَر سَاءَ أَيْ بِالْحِجَارَةِ وَهِيَ عُظْمَى قُرَى قَوْم لُوط فَأَهْلَكَ الله أَهْلهَا لِفِعْلِهِمْ الْفَاحِشَة {أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} فِي سَفَرهمْ إِلَى الشَّام فَيَعْتَبِرُونَ وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ {بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ} يَخَافُونَ {نُشُورًا} بَعْثًا فَلَا يُؤْمِنُونَ[1].

=

أن الاشتغال تجري فيه الأحكام الخمس؛ تارة يجب النصب، وتارة يجب الرفع، وتارة يترجح الرفع، وتارة يترجح النصب، وتارة يتساوى الأمران، والأصل فيه الرفع، لكن إذا كان الفعل لم يشتغل بالضمير صار السابق مفعولا، لا يكون من باب الاشتغال، فهنا {وكلا} لو قال الله ﷻ: وكلا تبرناه تتبيرا لصارت من باب الاشتغال؛ لأن العامل اشتغل بضميره، لكن قال: {وكلا تبرنا تتبيرا} فيكون من باب تقدم المفعول، لا من باب الاشتغال.

قوله: [{وكلا تبرنا تتبيرا} أهلكنا إهلاكا]، الإتيان بالمصدر هنا للتوكيد؛ كقوله ﷻ: {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: ١٦٤]، {تكليما} فضلة في هذا السياق، لو قال: وكلم الله فهمنا الموضوع، لكن {تكليما} من باب التوكيد، وأما التنكير فهو للتعظيم، يعني تتبيرا لا بقاء معه، أي هلاكا كاملا لا بقاء معه، وهو كذلك.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ} [الفرقان: ٤٠]، أي:"ولقد كان مشركو «مكة» يمرون في أسفارهم على قرية قوم لوط، وهي قرية «سدوم» التي أُهلِكت بالحجارة من السماء".

قال الطبري: يقول:"ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورا على القرية التي أمطرها الله مطر السوء وهي سدوم، قرية قوم لوط. ومطر السوء: هو الحجارة

=

=

التي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها".

قال يحيى: "{ولقد أتوا}، يعني: مشركي العرب، و «مطر السوء» الحجارة التي رموا بها من السماء".

قال ابن كثير:"يعني: قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكها الله بالقلب، وبالمطر الحجارة من سجيل، كما قال تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [الشعراء: ١٧٣]، وقال {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨] وقال تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} [الحجر: ٧٦] وقال {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ} [الحجر: ٧٩]".

قال عطاء:"وأما القرية التي أمطرت مطر السوء: فقرية لوط".

عن ابن جريج: "{ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء}، قال: "حجارة، وهي قرية قوم لوط، واسمها سدوم".

قال ابن عباس: "خمس قريات فأهلك الله أربعة، وبقيت الخامسة، واسمها صعوة، لم تهلك صعوة. كان أهلها لا يعملون ذلك العمل، وكانت سدوم أعظمها، وهي التي نزل بها لوط، ومنها بعث. وكان إبراهيم ﷺ ينادي نصيحة لهم: يا سدوم، يوم لكم من الله، أنهاكم أن تعرضوا لعقوبة الله، زعموا أن لوطا ابن أخي إبراهيم صلوات الله عليهما".

قال أبو رجاء: "سمعت الحسن قرأ: {ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء}، قال: هي والله بين الشام والمدينة".

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا} [الفرقان: ٤٠]، أي:"أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله؟".

قال يحيى: "فيتفكروا ويحذروا أن ينزل بهم ما نزل بهم، أي بلى قد أتوا عليها

=

=

ورأوها، مثل قوله: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين {١٣٧} وبالليل أفلا تعقلون {١٣٨}} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨]".

قال الطبري: يقول:"أو لم يكن هؤلاء المشركون الذين قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء يرون تلك القرية، وما نزل بها من عذاب الله بتكذيب أهلها رسلهم، فيعتبروا ويتذكروا، فيراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم محمدا ﷺ".

قال ابن كثير:"أي: فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله".

قال الصابوني:"وهذا توبيخٌ لهم على تركهم الاتعاظ والاعتبار".

قوله تعالى: {بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٠]، أي:"بل كانوا لا يرجون معادًا يوم القيامة يجازون فيه".

قال ابن كثير:"يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا، أي: معادًا يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:"ما كذّبوا محمدا فيما جاءهم به من عند الله، لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلّ بالقرية التي وصفت، ولكنهم كذّبوه من أجل أنهم قوم لا يخافون نشورًا بعد الممات، يعني أنهم لا يوقنون بالعقاب والثواب، ولا يؤمنون بقيام الساعة، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله".

عن قتادة قوله: "{لا يرجون}، أي: لا يخافون بعثا ولا حسابا".

قال العثيمين: قوله: {ولقد أتوا على القرية} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات؛ بـ (اللام) و (قد) والقسم المقدر، والمقصود بالتوكيد تقرير الأمر الواقع، فليس الخبر كالمعاينة، فهم الآن يعاينون ما حل بهذه القرية من عذاب الله سبحانه وتعالى لأنهم يمرون عليها، قال تعالى: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل أفلا تعقلون} [الصافات: ١٣٧].

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولقد أتوا} أي مر كفار مكة {على القرية التي أمطرت مطر السوء} مصدر ساء، أي: بالحجارة، وهي عظمى قرى قوم لوط، فأهلك الله أهلها لفعلهم الفاحشة]، يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مر كفار مكة] (مر) تفسير لـ (أتى)، (كفار مكة) تفسير (للضمير: للواو) يعني أن كفار مكة مروا على القرية التي أمطرت مطر السوء، وهي قرية قوم لوط، وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي عظمى قرى قوم لوط] عظمى قرى يستفاد منه أن القرى أكثر من واحدة.

وقد قيل: إنها سبع قرى، ولكن ظاهر القرآن أنها قرية واحدة؛ كما قال الله تعالى في الرسل: {قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين (٣١) قال إن فيها لوطا} [العنكبوت: ٣١ - ٣٢]، إلى آخره، فكون القرآن يأتي باسم قرية واحدة لا ينبغي لنا أن نقول: إنها أكثر من واحدة إلا بدليل ثابت عن الرسول ﷺ وما جاء عن بني إسرائيل في ذلك، أي في أنها سبع قرى، هذا مرفوض؛ لأن دلالة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ تدل على أن ظاهرها أنها قرية واحدة، فعلينا أن نتمسك بهذا الظاهر ما لم يوجد دليل ينفي هذا الظاهر، إن وجد دليل فنعم، أما مجرد أخبار بني إسرائيل فليست مقبولة في هذا الموضع. أقول: إن المصنف وكثيرا من المصنفين يقولون: إن قرى قوم لوط ليست قرية واحدة، بل قرى متعددة، فنحن نقول: لا، هي قرية واحدة ما لم يوجد دليل على تعددها؛ لأن ظاهر القرآن أنها قرية واحدة، فإذا قال قائل: إنها سبع قرى نقول له: هات الدليل، ولو فرض أن المسألة فيها دليل صريح صحيح فإنه يمكن أن يقال كما قال المصنف، يعني يذهب إلى ما ذهب إليه المصنف، فيقال: المراد بالقرية هنا عظمى القرى، ولكن نحن نقول: لا حاجة أن نقول: عظمى القرى، بل نقول: هي قرية واحدة، ولا مانع من أن الله يرسل رسولا إلى قرية واحدة، بل كان فيما سبق يوجد رسولان في أمة واحدة، فموسى وهارون كانا في أمة واحدة، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى، وهكذا كثير.

=

=

هذه القرية موجودة الآن، يقولون: إن البحر الميت هو مكان قرى قوم لوط، وصار بحيرة مالحة، وهذا مشهور.

قوله: {على القرية} القرية اسم للبلد، سواء كان كبيرا أو صغيرا، بل لو كان أما للقرى فهو قرية، قال سبحانه وتعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك} [محمد: ١٣]، نحن نغضب إذا قيل: عنيزة مثلا قرية، وبريدة قرية، والرياض قرية، لكن هذا الغضب في الحقيقة بناء على اللغة العرفية في أن القرية اسم للبلد الصغير، والمدينة اسم للبلد الكبير، ولذلك بعضهم يحترز يقول: بلدية مدينة عنيزة، بلدية مدينة بريدة، بلدية مدينة الرس، ولا حاجة أن تأتي بإضافات زائدة: بلدية الرس، بلدية عنيزة، بلدية بريدة، بلدية الرياض، لكن كل هذا خوف من أن يكون عيبا عليهم أن تسمى قرية، ولكن نحن نقول: أم القرى سماها الله سبحانه وتعالى قرية، وكفى بذلك أسوة، وإنما سمي البلد قرية لأنه من القري، يعني الجمع؛ إذ إنه يجمع أناسا، فالناس يجتمعون فيه، فلذلك سمي قرية.

قوله: {التي أمطرت مطر السوء} المطر نوعان؛ مطر سوء، يعني: عذاب، يسوء الممطرين، ومطر رحمة يسرهم، فالغيث الذي ينزل من السماء بالماء هذا مطر رحمة، وإذا كان يضر صار مطر سوء، وقرية قوم لوط أمطرت بمطر سوء، والمطر الذي أمطرت به حجارة من سجيل -والعياذ بالله- مسومة عند الله معلمة للمسرفين الذين جاوزوا حدهم، وهذا المطر -والعياذ بالله- جعل عاليها سافلها، فكيف هذا المطر جعل عاليها سافلها؟

لو قيل: إنها قلبت.

نقول: ليس في القرآن آية واحدة تدل على أنها قلبت.

وإن قيل: ورد حديث أن جبريل رفعها إلى السماء ثم قلبها.

نقول: هذا أنى له الصحة، لو صح لكان الأمر واضحا، لكن جعل عاليها سافلها

=

=

لأن الحجارة هذه لما ضربتها صارت المباني تتهدم، فصار أعلاها أسفلها، فهذه الحجارة -والعياذ بالله- التي دمرتها بهذا التدمير يقول الله فيها: {وما هي من الظالمين ببعيد} [هود: ٨٣]، يعني من الذين يفعلون هذا الفعل ليست ببعيد منهم.

ولهذا ذهب بعض الصحابة ﷺ أن فاعل الفاحشة هذه يفعل به هكذا، يلقى من شاهق ويرمى بالحجارة بناء على أنها رفعت ثم قلبت ثم أتبعت بالحجارة، وقال بعض العلماء: بل إنهم يرجمون رجما بالحجار بدون أن يلقوا من الشاهق، بناء على أنه لم يثبت أنها رفعت وقلبت.

وعلى كل حال فهذه الفاحشة المنكرة التي عبر الله عنها بالفاحشة، قال تعالى في الزنا: {ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة} [الإسراء: ٣٢]، انظر: كان فاحشة من الفواحش، وأما هذا فقال لهم نبيهم: {أتأتون الفاحشة} [الأعراف: ٨٠]، فدخول (أل) عليها يدل على أنها قد بلغت في الفحش غايته، وهو كذلك، وهذا لأن الفطر تنفر منه {أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم} [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]، انظر التقريع والتوبيخ -والعياذ بالله- تترك ما خلق لك إلى ما لم يخلق لك، فتأتي -والعياذ بالله- الذكر، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد أجمع الصحابة ﷺ على أن فاعل هذه الفاحشة يقتل فاعلا كان أو مفعولا إذا كان قد بلغ. والحقيقة الإجماع ليس إجماعا قطعيا، بل إجماع سكوتي، والإجماع السكوتي ليس إجماعا قطعيا، لكنهم اختلفوا في قتله؛ فمنهم من قال: يحرق، ومنهم من قال: يرجم بالحجارة. ومنهم من قال: يلقى من أعلى شاهق، وذلك لقول النبي ﷺ: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل، والمفعول به".

ولا يشترط الإحصان، فلا يشترط أن يكون محصنا، في الزنا لا يرجم ولا يعدم إلا

=

=

المحصن، أما هذا فإنه لا يشترط فيه الإحصان، متى كان بالغا عاقلا وجب إعدامه؛ وذلك لأن هذا الفعل المنكر لا يمكن التحرز منه في الحقيقة، فالزنا يمكن التحرز منه ويمكن مراقبة من حاول الزنا، فإنك لو رأيت رجلا مع امرأة تقول: من هذه المرأة؟ لكن لو رأيت رجلا مع ولد ليس بمستغرب، ولذلك من أجل أن فساده خفي لا يمكن التحرز منه؛ صار لا يمكن إصلاح الخلق إلا بإعدامه، وهو مصلحة له ومصلحة لغيره، أما كونه مصلحة له فإن الحد كفارة، ولأنه إذا بقي في الدنيا متماديا في هذه الفاحشة صار يزداد إثما، فنحن في الحقيقة قد قطعنا الطريق على الشيطان بالنسبة لهذا الرجل، ثم هو أيضا إصلاح لغيره.

وهذا القول الذي ذكره شيخ الإسلام وأجمعت عليه الصحابة رضي الله عنهم هو القول المتعين، لا سيما إذا كثر هذا الأمر؛ لأنه كلما كثرت الفاحشة وجب أن تقابل بعقوبة أشد، إلا ما حدده الشرع فيجب الوقوف عليه، وتجد أن عمر رضي الله عنه لما أكثر الناس من شرب الخمر ماذا صنع؟ زاد الضعف إلى ثمانين، ولما كثر الطلاق الثلاث في عهده عاقب المطلقين بتنفيذ قولهم، أمضاه عليهم.

فعلى هذا نقول: إنه إذا كثرت هذه الفاحشة وجب على ولاة الأمور أن يكونوا أشداء على فاعليها، وأن يقتلوهم إعداما بدون أي توقف؛ لأن ذلك هو الذي يصلح الخلق، وإلا فانتشارها مثلما قلنا: إنه لا يمكن التحرز منه، وانتشارها عظيم، كل واحد مثلا -والعياذ بالله- مبتلى بهذا الأمر، يمسك أي صبي ويعاشره ثم يفعل به الفاحشة، ليس مثل النساء، هذا هو القول الصحيح المتعين.

يوجد قول آخر وهو أن حكم اللواط حكم الزنا، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو ضعيف، فعلى هذا إن كان الفاعل محصنا، والمفعول به محصنا، وجب الرجم، وإلا فالجلد والتغريب.

وذهب بعض العلماء إلى أنه يعزر تعزيرا بدون حد؛ لأنه لم يثبت عنده حديث:

=

=

"فاقتلوا الفاعل والمفعول به"، وليس فيه حد ثابت، فيرجع فيه إلى التعزير، والتعزير إذا قلنا بأن ولي الأمر له أن يعزر بالقتل فما دونه صار قتل اللائط والملوط به عائدا إلى اجتهاد الإمام.

وذهب بعض العلماء إلى أنه ليس فيه حد ولا تعزير، لكنه حرام، حجته يقول: إنه يكتفى بالنفور الفطري عن العقوبة الرادعة، يعني أن هذا النفور منه أمر فطري، فلا يحتاج إلى عقوبة رادعة، ولهذا جعل الشرع في شرب الخمر عقوبة؛ لأن النفوس تميل إليها، ولم يجعل في شرب البول عقوبة؛ لأن النفوس تنفر منه بالطبيعة، فهذا مثله.

فيقال: هذا رجل سليم الفطرة ولا يعرف الواقع، فإذا كانت فطرته سليمة تنفر من هذا الأمر، فإن هناك فطرا مقلوبة تهوى هذا الأمر وتميل إليه، فماذا نصنع بهذه الفطر؟ ثم إن قوله: إن شرب البول لا تعزير فيه لأن النفوس تنفر منه؛ غير مسلم، فلو أن رجلا ابتلي بشرب البول هل نتركه يشرب بول الناس أو نعزره؟ نعزره ونمنعه من ذلك، وإن كانت الفطرة تأبى هذا الأمر.

فالحاصل: أن هذه الأقوال الأربعة أصحها القول الأول، لكن من أكره على فعل الفاحشة فلا شيء عليه في هذا، ولا في غيره؛ لأن من شروط إقامة الحد أن يكون غير مكره، حتى المرأة لو أكرهت على الزنا لا يقام الحد عليها، وهذا هو الذي أوجب لبعض أهل العلم أن المرأة إذا حملت لا تحد، قال: لأنه يحتمل أن تكون مكرهة، وهذا الاحتمال يدرأ الحد، ولكن الصحيح أن المرأة إذا حملت وليس لها زوج ولا سيد يقام عليها الحد؛ لخطبة أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقوله: "إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف" أمام الناس، ولا أحد أنكر عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهي يقام عليها الحد، يعني تؤخذ ويقال: هيا أقيموا الحد عليها، لكن إن ادعت شبهة ممكنة ارتفع عنها الحد؛ لأن الأمر محتمل، وكثير من النساء يغلب على

=

=

نفسه ويفعل به الفاحشة.

واعلم أن الزنا كما قسمه الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك اللواط أنواع: زنا الفرج، ولواط الفرج، وفيه أيضا زنا العين ولواط العين، وفيه أيضا زنا الأذن ولواط الأذن، وزنا اليد ولواط اليد، وزنا الرجل ولواط الرجل، يعني لا تظن أن اللواط خاص بفعل الفرج، بل حتى العين لو أن أحدا تلذذ بالنظر إلى أمرد قلنا: هذا الرجل تلوط به، لكن تلوط به فعلا أو نظرا؟ نظرا، ولذلك يجب الحذر من هذا الأمر، حتى إن النووي وجماعة من أهل العلم قالوا: إنه لا يجوز النظر مطلقا إلى الأمرد الحسن إلحاقا له بالمرأة، ولكن الصواب أنه يجوز إلا مع التلذذ بذلك، فهذا حرام.

قوله: [قوم لوط] عليه السلام، لو قال قائل: (قوم لوط) ألا يوجد إشكال في أن النسبة صارت إلى المضاف إليه وهو نبيهم؟ فيقال والله أعلم: إن السبب في ذلك أن هذه الفاحشة اختصت بها هذه الأمة، ولهذا قال لهم نبيهم: {أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين} [الأعراف: ٨٠]، ما أحد سبقهم، يعني أول من سن هذه الفاحشة والعياذ بالله هم قوم لوط، وعلى هذا فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، نسأل الله السلامة.

لو قال قائل: لا ينبغي أن ننسب اللواط لاسم النبي ﷺ ونقول ما ورد في الحديث: "عمل قوم لوط".

نقول: هذا طيب في الحقيقة، لكن أنا أرى العلماء الكبار يقولون هذا، مثل ابن القيم وشيخ الإسلام، رحمهما الله ومن قبلهما ومن بعدهما.

لو قال قائل: من أول من أنشأ اللغة العربية إذا قلنا: إن لغة آدم ليست عربية؟

فنقول: أول ما نشأت من العرب العاربة حينما جاءوا إلى مكة -القحطانيون- واتصلوا بإسماعيل، ونشأ بينهم، فصار عربيا، ولهذا بنو إسماعيل هم العرب

=

=

المستعربة، وطبعا اللغة العربية مثل غيرها يحصل عليها تطورات وتحسينات، فبعد الفتوح دخل عليها تغييرات، كذلك فيما سبق دخل عليها تطورات وتحسينات، حتى وصلت إلى الكمال في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

لو قال قائل: قول سليمان عليه السلام: {علمنا منطق الطير} [النمل: ١٦]، وقوله سبحانه وتعالى: {قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون} [النمل: ١٨]، ذكر بعض المصنفين أن الحيوانات تنطق؟

نقول: إلى الآن هي تنطق، ولهذا قال: {علمنا منطق الطير}.

قال المصنف: [{أفلم يكونوا يرونها} في سفرهم إلى الشام فيعتبرون، والاستفهام للتقرير].

قوله: {أفلم يكونوا يرونها} هذه تأتي في القرآن كثيرا: (أفلم) (أو لم) يعني يأتي حرف الاستفهام الهمزة وبعده حرف عطف، فاختلف النحويون في ذلك، فمنهم من يقول: إن حرف الاستفهام داخل على جملة مقدرة مفهومة من السياق تقدر حسب ما يليها.

ومنهم من قال: إن حرف الاستفهام داخل على الجملة المذكورة، لكن محله بعد حرف العطف، فقوله عز وجل: {أفلم يكونوا يرونها}، يقولون: أصله (فألم يكونوا يرونها)، فقدمت أداة الاستفهام؛ لأن لها الصدارة.

فالآن أمامنا رأيان فيما إذا وجد حرف استفهام بعده حرف عطف، هل يكون داخلا على الجملة المذكورة مقدما على حرف العطف، أو يكون داخلا على جملة مقدرة تستفاد من السياق، كيف نقدر: {أفلم يكونوا يرونها} على رأي الذين يقولون: إنه داخل على جملة مقدرة مفهومة من السياق؟ يكون التقدير: أعموا فلم يكونوا يرونها؛ لأن انتفاء الرؤية معناه العمى، وعلى الرأي الثاني لا

=

=

نحتاج إلى تقدير، نقول: التقدير (فألم يكونوا يرونها)، والأول رأي سيبويه، والثاني رأي الكسائي، والثاني أهون وأسلم؛ لأنه في الحقيقة في بعض الأحيان تأتيك أمثلة لا تستطيع أن تقدر هذا المحذوف ولا كيف تقدره، ثم إن الأصل عدم التقدير والحذف ونحن إذا ذهبنا إلى الرأي الثاني لم نرتكب إلا شيئا واحدا فقط وهو تقديم الهمزة عن مكانها، وهذا شيء بسيط، فالذي ينبغي سلوكه أن نقول: إن همزة الاستفهام هنا داخلة على الجملة الموجودة بدون تقدير، لكنها مقدرة بعد حرف العطف، إلا أنها قدمت لأجل الصدارة، وهنا {أفلم يكونوا يرونها} إذا دخلت همزة الاستفهام على (لم) فالمراد به التقرير، ومعنى التقرير حمل المخاطب على الإقرار، مثلا قوله: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١]، نقول: الهمزة للاستفهام، المراد به التقرير، المهم أن هذه ليست للاستفهام والاستخبار، فالله جل وعلا لا يسأل ولكنه يقرر أنه شرح له صدره، ومعنى التقرير حمل المخاطب على الإقرار، وكأن ذلك متقرر ولا يمكن إنكاره؛ لأنه معلوم، فيجب عليك أن تقر به.

في الآية الكريمة: {أفلم يكونوا يرونها} نقول: الاستفهام للتقرير، يعني أنهم قد رأوها، وإذا كان بمعنى التقرير فإنه يقدر بفعل ماض مقرون بـ (قد)، يعني مثلا قوله: لك {ألم نشرح لك} [الشرح: ١]، معناها قد شرحنا لك، لكن {ألم نشرح لك} أبلغ، فقوله: {أفلم يكونوا يرونها} معناه أنهم قد رأوها، وهم يقرون بذلك، ولا يمكن إنكاره، لكن الإتيان بالاستفهام أبلغ لأنه يحمل المخاطب على أن يقر، وهذا أبلغ من أن أصدره بأمر على سبيل التحقيق بـ (قد).

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف الرؤيا: [{أفلم يكونوا يرونها} في سفرهم إلى الشام فيعتبرون]، وهذا صحيح أن الإنسان إذا عاين آثار العذاب يكون أشد في يقينه وتصديقه، لأنه (ليس الخبر كالمعاينة)، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا

=

=

يشك أن الله سبحانه وتعالى قادر على إحياء الموتى، ومع ذلك قال عليه السلام: {رب أرني كيف تحي الموتى} [البقرة: ٢٦٠]، وقال النبي عليه السلام: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"، وجئت بهذا الحديث لأجل أن نفهم معناه حقيقة، ما معنى "نحن أحق بالشك من إبراهيم"؟ لو أخذنا بظاهره لقلنا: إن إبراهيم قد شك ونحن أولى بالشك منه، ولكن ليس المراد ذلك، المراد كما أننا نحن نتيقن أن الله يحيي الموتى وقادر عليه، فإبراهيم أولى باليقين، ولو كان ثمة شك لكنا أولى به.

قال المصنف رحمه الله: [{بل كانوا لا يرجون} لا يخافون نشورا]، {بل} للإضراب، وكأنه إضراب عن توبيخ إلى أشد منه {أفلم يكونوا يرونها}.

قلنا: الاستفهام للتقرير، والإنسان الذي يرى الشيء ثم لا يعتبر به مستحق للتوبيخ، انتقل إلى ما هو أعظم إلى حال أشد يستحقون التوبيخ عليها، فالإضراب هنا للانتقال من سيئ إلى أسوأ، ومن خفيف إلى أغلظ منه، معناه أن هؤلاء ليسوا تاركين للاعتبار بما شاهدوا، بل إنهم أبلغ من ذلك، لا يرجون نشورا، وفسر المصنف رحمه الله الرجاء بالخوف؛ لأن الرجاء يأتي بمعنى الخوف، مثل قول الله سبحانه وتعالى عن نوح: {ما لكم لا ترجون لله وقارا} [نوح: ١٣]، ولكن إتيان الرجاء في موضع الخوف لا يكون إلا حيث تعذر أن يفسر بمعناه الحقيقي، وهنا لا يتعذر، لأن معنى {لا يرجون نشورا} [الفرقان: ٤٠]، يعني لا يؤملونه ولا يقرون به؛ لأن من لا يؤمل شيئا لا يقر به، وكأن المصنف رحمه الله حمله على معنى الخوف؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، تقتضي أنهم لا يخافون؛ إذ لو خافوا لأقروا وآمنوا، ولكن يقال أيضا: الرجاء، لو كانوا يرجون هذا النشور ويؤملونه لعملوا له؛ لأنه قيل لهم: إن صدقتم الرسل فلكم كذا، وإن كذبتم الرسل فعليكم كذا، فهم موعدون ومتوعدون، فلا يتعين أن نحمل الرجاء على الخوف، بل لا ينبغي ما دام أن معنى الرجاء الحقيقي له محل، فإنه يجب أن يحمل على معناه الأصلي،

=

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا (٤١).

=

فنقول: {لا يرجون نشورا} أي لا يؤملون النشور الذي فيه ما وعدتهم به الرسل من كرامة الله سبحانه وتعالى وإدخال الجنة، وهذا أشد من عدم اعتبارهم بما رأوا من إهلاك المكذبين، حيث ينكرون البعث الذي دل عليه العقل، فالعقل يدل على أن للناس بعثا، ولهذا يقرر الله تبارك وتعالى هذا المعنى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} [القيامة: ٣٦]، يعني لا يأمر ولا ينهى ولا يجازى، هذا سفه، لو كانت هذه الخليقة التي خلقها الله وأرسل إليها الرسل وأباح دماء بعضها لبعض وأموالهم ونساءهم لأجل الدين الذي بعث به الرسل، وهذا القتال العظيم بينهم والعداوة والبغضاء، لو كانت لا لشيء إلا أن الإنسان يحيى ويموت، ماذا يكون هذا الفعل؟ يكون سفها ينزه الله عنه، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} [القصص: ٨٥]، ما أنزل الله هذا القرآن إلا لمعاد يكون الناس يوم القيامة يرجعون إليه، ثم يجازون بأعمالهم، فالعقل دل على أنه لا بد من بعث، ولا بد من جزاء، ومع ذلك هؤلاء ينكرونه ولا يرجون نشورا بحجج واهية باطلة، مثل قولهم: {من يحي العظام وهي رميم} [يس: ٧٨]، فهذه ليست بحجة، هي شبهة في الواقع، هي شبهة باطلة، فهذا الإنكار مبني على استبعاد عقله، لذلك أبطله الله تعالى كما يظهر من القصة من نحو عشرة أوجه؛ أولها: {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة} [يس: ٧٩]، هذا يكفي العاقل، أليست هذه العظام كانت ماء مهينا، بل قبل ذلك لم تكن شيئا مذكورا، ثم خلقها الله إلى عظام، فالذي أحياها أول مرة قادر على إعادتها، وهو عقلا أهون من الابتداء: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧].

على كل حال لسنا بصدد إثبات هذا الشيء، لكن نقول: إن هؤلاء الذين لا يرجون نشورا مع قيام الأدلة على وجوده، لا شك في سفههم وأنهم ليسوا على صواب.

{وإذا رأوك إن} ما {يتخذونك إلا هزؤا} مَهْزُوءًا بِهِ يَقُولُونَ {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا} فِي دَعْوَاهُ مُحْتَقِرِينَ لَهُ عَنْ الرِّسَالَة.

إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢).

{إنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ إنَّهُ {كَادَ لَيُضِلّنَا} يَصْرِفنَا {عَنْ آلِهَتنَا لَوْلَا أن صبرنا عليها} لصرفنا عنها قال تعالى {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِين يَرَوْنَ الْعَذَاب} عِيَانًا فِي الْآخِرَة {مَنْ أَضَلّ سَبِيلًا} أَخْطَأ طَرِيقًا أَهُمْ أم المؤمنون[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا} [الفرقان: ٤١]، أي:"وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم، ما يتخذونك إلا سخرية يسخرون منك".

قال الواحدي: أي:"ما يتَّخذونك إلاَّ مهزوءًا به".

قال محمد بن إسحاق:"قال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وبما جاء به من الحق يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة أفيعجزكم مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله ﷻ في ذلك من قوله: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا}، إلى آخر القصة".

قوله تعالى: {أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا} [الفرقان: ٤١]، أي:"قائلين: أهذا الذي يزعم أن الله بعثه رسولا إلينا؟".

قال الزجاج:"المعنى يقولون: أهذا الذي بعث الله إلينا رسولا".

قال السمعاني:"قالوا هذا على طريق الاستهزاء".

قال ابن كثير:"أي: على سبيل التنقص والازدراء - قبَّحهم الله - كما قال: {وَلَقَدِ
=

اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [الرعد: ٣٢]".

قال الزمخشري:"وهذا استصغار، وبعث الله رسولا وإخراجه في معرض التسليم والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء، ولو لم يستهزءوا لقالوا: أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا".

قوله تعالى: {إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا} [الفرقان: ٤٢]، أي:"إنه قارب أن يصرفنا عن عبادة أصنامنا بقوة حجته وبيانه، لولا أن ثَبَتْنا على عبادتها".

قال الطبري:"يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدّنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها".

قال ابن كثير:"يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها".

قال الزمخشري:"قولهم: {إن كاد ليضلنا}، دليل على فرط مجاهدة رسول الله ﷺ في دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن

يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم، ولولا في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى- لا من حيث الصنعة- مجرى التقييد للحكم المطلق".

عن ابن جُرَيج، " {إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا}، قال: ثبتنا عليها".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:"قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ فقال: حضرتهم وقد إجتمع

=

أشرافهم يوما في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مضى طائفا فلما مر بهم الثانية فغمزوه بمثلها فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم من رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع وحتى إن أشدهم فيه وضاءة قبل ذلك ليرفأه بأفضل ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا فو الله ما كنت جهولا قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم الرجل وما بلغ منكم وما بلغكم منه حتى إذا بدأكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم قال: فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلا أخذ بمجمع ردائه قال: وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكي: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، ثم انصرفوا عنه فطن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط".

قوله تعالى: {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٢]، أي:"وسوف يعلمون حين يرون ما يستحقون من العذاب: مَن أضل دينًا أهم أم محمد؟".

قال الطبري:"سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حلّ بهم على عبادتهم الآلهة من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أوهم".

=

=

عن الحسن: "{وسوف يعلمون}، قال: وعيد".

قال الزمخشري:"وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال، ولا بد للوعيد أن يلحقهم فلا يغرنهم التأخير، وقوله: {من أضل سبيلا}، كالجواب عن قولهم إن كاد ليضلنا لأنه نسبة لرسول الله ﷺ إلى الضلال من حيث لا يضل غيره إلا من هو ضال في نفسه. ويروى أنه من قول أبى جهل -لعنه الله-".

قال العثيمين: قوله: {وإذا رأوك} انتقل إلى حالات أخرى يقابل بها هؤلاء المشركون رسول الله ﷺ.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا} مهزوءا به].

قوله: {يتخذونك} يصيرونك ويجعلونك مهزوءا به، وتجد أن الآية فيها حصر طريقه النفي والإثبات، يعني لا يجعلون لك أي حال من الأحوال إلا الهزء، وهزؤا مصدر، لكن المصنف يقول: [مهزوءا به] يعني أنه بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول كثير: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} [الطلاق: ٤].

ووجه الاستدلال بهذه الآية أن قوله: {أن يضعن حملهن} (حمل) مصدر بمعنى محمول، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، وفي الحديث عن النبي ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، يعني مردودا. هنا هزؤا أو هزوا مصدر، لكنه بمعنى اسم المفعول على رأي المصنف، ويمكن أن يقال: إنه مصدر على بابه، ويكون من باب المبالغة، كأنهم ما جعلوا الرسول محلا للهزو، يعني مهزوءا به، بل جعلوه نفسه هو نفس الهزو، وهذا من باب المبالغة، كما تقول: فلان عدل، وفلان رضا، يعني من باب المبالغة، كأنه هو العدل، لا أنه محل العدل، وكأنه الرضا، لا محل الرضا، وكذلك فلان ثقة، فثقة مصدر بمعنى موثوق به، لكنه من باب المبالغة، المعنى أن هؤلاء لا يرون الرسول ﷺ إلا محل استهزاء، والعياذ

=

=

بالله، كأنه لعبة عندهم.

يقولون: {أهذا الذي بعث الله رسولا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في دعواه محتقرين له عن الرسالة]، والعياذ بالله، {أهذا} هو تفيد التحقير، فمحل الاستفهام للتحقير، وهو متضمن للنفي، يعني لا يمكن أن يبعث مثل هذا الرسول، وهذا كقوله: {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} [الزخرف: ٣١]. ولا شك أن هذا من جملة الشبه التي يحتجون بها، وهي لا تنطلي على أحد؛ لأننا نعلم أن محمدا ﷺ أعظم الخلق، وأحقهم بالرسالة، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الأنعام: ١٢٤]، فللرسالة محل، فهذا النبي ﷺ نؤمن بأنه أعظم الخلق وأحقهم بالرسالة، ولهذا جعلها الله فيه، جعل الله فيه أعظم الرسالات، فهو أعظم من كل ما يختلقونه، لكن من المعلوم أن المكابر والمكذب يأتي بكل شبهة، سواء كانت حقيقة أم غير حقيقة.

وقوله: {أهذا الذي} (هذا) اسم إشارة للقريب احتقارا أيضا؛ لأن اسم الإشارة يأتي للقريب أحيانا للاحتقار، وأحيانا للتعظيم والمودة، وكذلك اسم الإشارة للبعيد يأتي لما هو قريب من باب التعظيم، مثل قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه} [البقرة: ٢]، ذلك الكتاب يعني القرآن، لكنه أتى بـ(ذلك) اسم الإشارة للبعيد تنبيها لعلو مرتبته، فهم أتوا بهذا للتحقير، يعني: أهذا القريب الذي لدينا ونتصوره ونشاهده أهذا يبعث رسولا، هكذا يقولون، وأردفوا ذلك بقولهم: {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها} [الفرقان: ٤٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن} مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي إنه {كاد ليضلنا} يصرفنا {عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها}]، بئس الصبر هذا.

قوله: {إن كاد} بمعنى قرب، و {إن} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها مخففة من الثقيلة؛ لأن {إن} كما هو معروف لها معان كثيرة، والذي يعينها السياق، تأتي

=

=

نافية، وتأتي شرطية، وتأتي زائدة، ولا تأتي ناصبة، التي تأتي ناصبة (أن)، لكنها هنا مخففة من الثقيلة؛ لأن أصلها (إن) فخففت، وإذا خففت من الثقيلة لزم أن يكون اسمها محذوفا، ولا نقول: مستتر؛ لأن الاستتار يكون بالفعل، أو بما هو بمعناه، لكن نقول: محذوف، والتقدير: إنه كاد ليضلنا، و (كاد) بمعنى قرب، والصواب أن كاد تأتي بمعنى قرب، سواء كانت منفية أو مثبتة، وأما قول بعض النحويين: إن نفيها إثبات، وإثباتها نفي، فليس بصحيح، كما حققه ابن هشام في المغني، بل هي دائما بمعنى القرب، يعني: لقد قرب أن يضلنا عن آلهتنا، لكن منع من هذا مانع، وهو الصبر عليها، فهم في الحقيقة يقرون أن رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام خطيرة بالنسبة إليهم، لكنهم يتمدحون بأنهم ذوو صبر بالغ عظيم {لولا أن صبرنا عليها} -يعني على عبادتها- لكان الرسول عليه الصلاة والسلام يضلنا، والصواب أنهم لو تركوها لكان الرسول قد هداهم الله به، ليتهم لم يصبروا هذا الصبر؛ فإن هذا الصبر صبر على معصية الله، لا عن معصية الله، وهو مذموم، لا شك أنه مذموم، فأقول: هذه الجملة تدل على أنهم مقرون بخطر رسالة النبي ﷺ عليهم، ولكنهم يتمدحون بالصبر عليها، وأنه مع قوة تأثير الرسالة هم صبروا على آلهتهم، فلم يضلهم النبي عليه الصلاة والسلام، فهم مقرون بخطر الرسالة، ولإقرارهم بخطر الرسالة بذلوا مهجهم ورقابهم لقتال الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم لو كانوا يعرفون أنها ليست مؤثرة ما احتاجوا إلى أنهم يخرجون لقتال الرسول، ولقالوا: الأمر هين، هذا مثل المجنون الذي لا يؤثر ولا يتبعه أحد.

قوله ﷻ: {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا} أي معبوداتنا، والآلهة تطلق على المعبود، لكن تطلق إطلاقا مجازيا على المعبود بغير حق، وإطلاقا حقيقيا على المعبود بحق، ولهذا الرسل -صلى الله عليهم وسلم- يقولون لأقوامهم: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف: ٥٩]، ما معنى {ما لكم من إله غيره}؟ أي من

=

=

معبود حقيقة غير الله، أما معبوداتكم التي تعبدونها فهذه معبودات لكنها ليست حقا، وقولنا: لكن تطلق إطلاقا مجازيا هذا التعبير خطأ، ما دام أنا قلنا: إنه لا مجاز في القرآن، لكن تنزلا على حسب كلامهم هم يدعون أنها آلهة، ولكنها حقا ليست آلهة، فالتعبير الصحيح أن نقول: إن آلهتهم سموها آلهة باعتقادهم، وإلا فليست آلهة.

قوله: {لولا أن صبرنا عليها} يعني حبسنا أنفسنا عليها، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لصرفنا عنها]، استفدنا من قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لصرفنا] أن {لولا} شرطية، وأن جوابها محذوف، و {أن صبرنا} محلها من الإعراب مبتدأ محذوف الخبر وجوبا.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لصرفنا عنها]، الأصح أن نقول: لأضلنا عنها؛ لأنهم يقولون: {إن كاد ليضلنا}، والتقدير: لولا صبر موجود على هذه الآلهة لأضلنا عنها، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبعد لولا غالبا حذف الخبر ... حتم...

(لولا) هذه شرطية، وتأتي غير شرطية للتحضيض، ومرت قريبا في هذه السورة، وكون (لولا) وهي لفظ واحد يأتي أحيانا بمعنى التحضيض، وأحيانا بمعنى الشرط، وكذلك (إن) وغيرها من الحروف؛ فهذا مما يؤيد ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا مجاز في اللغة، وأن الذي يعين المعنى ويجعله حقيقة أو غير حقيقة السياق، فالكلمة في سياقها، أو الجملة في سياقها حقيقة، لا تحتمل غير ما يراد، وإن كانت قد تطلق إطلاقا آخر في معان أخرى، فـ(لولا) وجودها بجانب الفعل جعلها للتحضيض، ووجودها بجانب الجملة الاسمية جعلها للشرطية، فليست المعاني في الكلمات صفات ذاتية، وإنما هي صفات إضافية، ومعنى إضافية أي بحسب ما تضاف إليه، يعني حسب السياق، وبذلك نتخلص من

=

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣).

=

الإشكال الذي يرد علينا كثيرا في بعض كلمات في القرآن، حيث ننفي المجاز ثم تأتينا كلمات أو جمل تشكل علينا، فإذا قلنا بهذا القول وقلنا: إن المعاني للألفاظ ليست من الصفات الذاتية، وإنما هي من الصفات الإضافية التي يعينها السياق؛ نتخلص بهذا، ونقول مثلا: قوله ﷻ: {جناح الذل} [الإسراء: ٢٤]، الجناح إذا أضيف إلى الطائر صار له معنى، وإذا أضيف إلى الذل صار له معنى، وكذلك قوله: {يريد أن ينقض} [الكهف: ٧٧]، معناه: مائل للانقضاض، فالإرادة إذا أضيفت للإنسان صار لها معنى، وإذا أضيقت للحيوان صار لها معنى، وإذا أضيفت للجماد صار لها معنى، بحسب الإضافات، وحينئذ نتخلص، لا نقول: الإرادة الأصل أن تكون حقيقة لذوي الشعور، فإذا أضيفت إلى غيرهم صارت مجازا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وسوف يعلمون حين يرون العذاب} عيانا في الآخرة {من أضل سبيلا} أخطأ طريقا، أهم أم المؤمنون]، لو قال: أم الرسول لكان أولى؛ لأن الكلام بالرسول ﷺ.

قوله ﷻ: {وسوف يعلمون حين يرون العذاب} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [عيانا في الآخرة]، وهذا ليس بلازم أن يقيد بالآخرة، نقول: إنهم يرون العذاب في الآخرة وعند الموت، فعند الموت يشاهدون، وإذا قالوا: إنهم تابوا عند الموت فالتوبة لا تنفعهم: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: ١٨]، {وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا} [الفرقان: ٤٢]، هم أم الرسول ﷺ، وجملة {وسوف يعلمون} فيها من التهديد ما هو ظاهر، يعني سوف يعلمون في تلك الحال هل هم الأضل أم الرسول ﷺ، والواقع أنهم سيعلمون أنهم هم الأضل إذا رأوا العذاب.

{أَرَأَيْت} أَخْبِرْنِي {مَنْ اتَّخَذَ إلَهه هَوَاهُ} أَيْ مَهْوِيّه قُدِّمَ الْمَفْعُول الثَّانِي لِأَنَّهُ أَهَمّ وَجُمْلَة مَنْ اتَّخَذَ مَفْعُول أَوَّل لِرَأَيْتَ وَالثَّانِي {أَفَأَنْتَ تَكُون عَلَيْهِ وَكِيلًا} حَافِظًا تَحْفَظهُ عَنْ اتِّبَاع هواه لا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}؛ قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانًا من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجرًا أحسن منه؛ رمى به، وعبد الآخر؛ فأنزل الله الآية.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٦٩٩ رقم ١٥١٩٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٢٦٠) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١٢٠، ١٢١ رقم ١٢٠) من طريق أشعث القمي عن جعفر القمي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده حسن.

وعن أبي رجاء العطاردي؛ قال: كانوا في الجاهلية يأكلون الدم بالعلهز ويعبدون الحجر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه؛ رموا به وعبدوا الآخر، فإذا فقدوا الآخر؛ أمروا مناديًا فنادى: أيها الناس! إن إلهكم قد ضل فالتمسوه؛ فأنزل الله هذه الآية: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٦٠) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان: ٤٣]، أي:"انظر - أيها الرسول - متعجبًا إلى مَن أطاع هواه كطاعة الله".

قال ابن قتيبة:"يقول: يتبع هواه ويدع الحق، فهو له كالإله".

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره: {أَرَأَيْتَ} يا محمد {مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ} شهوته التي يهواها وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه".

=

=

قال الزمخشري:"من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتى ويذر لا يتبصر دليلا ولا يصغى إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله إلهه، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى".

عن الحسن: "{أرأيت من اتخذ إلهه هواه}، قال: لا يهوى شيئا إلا إتبعه".

قال الحسن:"ذلك المنافق نصب هواه فما هوى من شيء ركبه".

قال ابن عباس:"ذلك الكافر اتخذ إلهه بغير هدى من الله ولا برهان وأضله الله على علم يقول: أضله في سابق علمه".

قال قتادة:"والله لكلما هوي شيئا ركبه وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه، عن ذلك ورع ولا تقوى".

قال ابن عباس:"كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجرا أحسن منه يعبد الآخر ويترك الأول". وروى، عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

قال ابن زيد:"الأنصاب التي كان أهل الجاهلية يعبدونها ويأتونها ويعظمونها، كان أحدهم يحمله معه، فإذا رأى أحسن منه أخذه، وألقى هذا".

قال الزجاج:"وقيل أيضا: {من اتخذ إلهه هواه}، أي: أطاع هواه وركبه فلم يبال عاقبة ذلك".

قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: ٤٣]، أي:"أفأنت تكون عليه حفيظًا حتى تردَّه إلى الإيمان؟".

قال الزمخشري:"أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بد أن تسلم شئت أو أبيت- ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار} [ق: ٤٥]، {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية: ٢٢]".

عن قتادة قوله: "{وكيلا}، قال: ناصرا".

=

=

قال ابن قتيبة:"أي: كفيلا. وقيل: حافظا".

قال الزجاج:"أي: حفيظا".

قال الطبري: يقول:"أفأنت تكون يا محمد على هذا حفيظا في أفعاله مع عظيم جهله؟".

قال البغوي:"يقول: أفأنت عليه كفيل تحفظه من اتباع هواه وعبادة من يهوى من دون الله؟ أي: لست كذلك".

قال ابن كثير:"أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه، كان دينَه ومذهبَه، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]؛ ولهذا قال هاهنا: {أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا}".

في بعض الآثار: "ما من معبود في السماء والأرض أعظم من الهوى".

وعن بعضهم قال: "هو الطاغوت الأكبر".

قال الكلبي: "نسختها آية القتال".

قال العثيمين: بعد أن بين أمثلة لكفار قريش من الأمم الذين أهلكهم الله تبارك وتعالى بسب تكذيبهم للرسل، وبين أن من هذه الأمم من كانوا أتوا عليها، وهي قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء؛ انتقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى ما هو أقبح وأشد في التوبيخ، وهو كونهم لا يرجون نشورا، يعني لا يرجون بعثا، لا يؤملونه ولا يخافونه، ثم انتقل الله سبحانه وتعالى بعد هذا إلى حال هؤلاء مع الرسول عليه الصلاة والسلام الذي كان يجب علينا أن نجله ونعظمه ونوقره، وذكر أن هؤلاء المكذبين اتخذوه هزوا، وقوله: (اتخذوه هزوا) أشد وأبلغ من قوله: هزئوا به، يعني جعلوه كأنه صورة يهزأ بها، لكن لو قال استهزءوا به صار فعلا، والفعل المطلق يدل على المرة الواحدة، بخلاف الأول الذي جعلوه

=

=

كالصورة التي يهزأ بها.

ثم بين أنه مع اتخاذهم إياه هزوا أنهم يسخرون به في القول، يقولون: {أهذا الذي بعث الله رسولا} [الفرقان: ٤١]، احتقارا له، ثم يفتخرون مع احتقارهم له بأنهم صبروا على آلهتهم، وأن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام كان لها تأثير قوي، ولولا أنهم صبروا على آلهتهم لكانوا متأثرين بها: {إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها} [الفرقان: ٤٢]، ثم توعدهم الله ﷻ بأنهم حين يرون العذاب سيعلمون من هو أضل، هم أم النبي ﷺ؟

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى استفهاما مشربا بالتعجب فيمن اتخذ إلهه هواه، فقال: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا}.

قوله: {أرأيت} الخطاب للرسول ﷺ؛ لأن السياق يدل عليه، ولا أظنه هنا يصح أن نجعله لكل من يتأتى خطابه؛ لأن قوله: {أفأنت تكون عليه وكيلا} إنما يناسب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ كقوله: {لست عليهم بمصيطر} [الغاشية: ٢٢].

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أرأيت} بمعنى أخبرني]، كيف تكون بمعنى أخبرني، هل الرؤية هي الخبر؟ لا، لكن أريد لازمها، يعني هل رأيت فأخبرني، يعني هذا ليس هو المعنى الحقيقي له، لكنه معنى لازم للرؤية التي بمعنى العلم، فإن المستفهم لا يريد من المخاطب إذا قال: (أرأيت) لا يريد أن يستفهم عن كونه رأى، إنما يريد أن يستفهم عن لازم هذه الرؤية، وهو الإخبار، ولهذا يقولون: إنها بمعنى أخبرني، من باب إطلاق الملزوم من لازمه.

أما بالنسبة لإعرابها، فهذا التركيب {أرأيت} يأتي كثيرا في القرآن، ويكون ناصبا لمفعولين؛ الأول منهما اسم، والثاني منهما جملة استفهامية أو قسمية، ولينتبه لإعرابها؛ لأنها مشكلة، المفعول الأول قلنا: إنه يكون اسما؛ إما مذكورا وإما محذوفا، هذا واحد، المفعول الثاني جملة إما استفهامية أو قسمية. (التاء) في

=

=

{أرأيت} فاعل، وتكون مفردة دائما، أو مجموعة، مثل قوله تعالى: {أرأيتم إن أخذ الله} [الأنعام: ٤٦]، أو مثناة، مثل قولنا: أرأيتما إن كان كذا وكذا، وقد يلحقها ضمير، أي تلحقها الكاف لمجرد الدلالة على المخاطب، ولا محل له من الإعراب، يكون حرف خطاب لا محل له من الإعراب، وتبقى (التاء) مفردة، ولنضرب لهذا أمثلة: {قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا} [الإسراء: ٦٢].

فقوله: {هذا الذي كرمت} هذا المفعول الأول، والمفعول الثاني الجملة القسمية: {لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا}، والكاف في قوله: {أرأيتك} حرف خطاب لا محل لها من الإعراب، إذن المفعول الأول موجود، والمفعول الثاني جملة قسمية موجودة.

ومن الأمثلة قوله تعالى: {أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به} [الأنعام: ٤٦]، المفعول الأول محذوف؛ لأن المفعول الأول لا يمكن أن يكون جملة، فهو إذن محذوف، تقديره: أرأيتم حالكم، يعني أخبروني عن حالكم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم إلى آخره، وجملة {من إله غير الله يأتيكم به} هي المفعول الثاني.

وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون} [الأنعام: ٤٧]: {أرأيتكم} الكاف للخطاب، والتاء للمفرد، والمخاطب جماعة، والدلالة على أنه جماعة الكاف والميم، ومفعولها الأول محذوف، ومفعولها الثاني {هل يهلك إلا القوم الظالمون}.

ومن الأمثلة -أيضا- قوله سبحانه وتعالى: {أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت} [الكهف: ٦٣]، وقوله سبحانه وتعالى: {أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الأخرى} [النجم: ١٩ - ٢٠]، والآيات كثيرة، لكن أحيانا -

=

=

كما تقدم- يذكر المفعول الثاني، وكثيرا يحذف المفعول الثاني لدلالة السياق عليه؛ فقوله ﷻ: {أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الأخرى} لا يمكن أن يكون الجواب {ألكم الذكر}، لكن المعنى: هل تغنيكم شيئا، هل تنفعكم، هل تستحق أن تعبد؟ وما أشبه ذلك، وللبحث بقية تأتي إن شاء الله.

لو قال قائل: على رأي النحاة بأن التي تنصب المفعولين هي الرؤية القلبية، فهنا تصبح القضية ليست مجرد رؤية للإخبار، كأنها اعتقاد؟

نقول: نعم يقول: أعلمت هذا فأخبرني به.

إذن القرآن -سبحان الله العظيم- ليس مثل بقية الكلام، تجد فيه استفهامات، أمرا، تحديات في السياق، وهذا من إعجازه في الحقيقة؛ لأن كل هذه الاختلافات في الكلام توجب إثارة الإنسان وإقباله، ولكن -كما أسلفنا- لمن يقرؤه عن قلب، أما من يقرؤه عن بصر فقط بدون بصير فهذا لا يستفيد.

لو قال قائل: في قوله: {وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين} [الروم: ٤٩]، لماذا كررت (من قبل) مرتين؟

الجواب: قوله تعالى: {وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله} التكرار هذا يكون لفائدة وغرض، {من قبله} فيها خلاف هل هي الأولى أوله {من قبله} غير الأولى، وعلى هذا فيكون معنى قوله: {من قبله} من قبل أن ينزل عليهم، أي من قبل هذا التنزيل، فيكون من باب التكرار توكيدا، وإن كان معنى قوله: {من قبله} يعني من قبل هذا الأمر الذي حدث لهم، ليس من قبل أن ينزل، بل من قبل حالهم، فلا يكون فيها تكرار.

لو قال قائل: هل الإنسان المؤمن يمكن أن يضل عند الموت؟

الجواب: لا يضل ويفقد الإيمان عند الموت إلا إنسان سريرته باطلة، أما الإنسان الذي عمله صالح ومبني على عقيدة صحيحة، فلا يمكن، لكنه على خطر؛ لأنه

=

=

يخشى أن يكون عمله مبنيا على سريرة باطلة، نحن نقول: لا يمكن أن يضل؛ لأن الله {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} [إبراهيم: ٢٧]، إنما يكون الإضلال عند الموت، بناء على أن الإنسان في عبادته غير مستقيم، كما جاء في الحديث الصحيح: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار".

فلا بد أن تكون السريرة باطلة؛ لأننا نعلم أن الإنسان لو بنى عمله على عقيدة سليمة، سواء بإخلاص، أو بغير إخلاص، فلا يمكن أن يخذل الله ﷻ المؤمن أبدا، المؤمن حقيقة، وهذا هو ما كنا ندعو إليه دائما؛ أن نحرص على عمل القلب، أما الأعمال الظاهرة -عمل الجوارح- فهي بمنزلة السور للبستان تحميه وتحيطه، وأما العمل الأساسي فهو عمل القلب، فلا بد أن نحرص دائما على أن يكون الإنسان مطهرا لقلبه، ومصلحا لقلبه، هذا أهم شيء، والأعمال الظاهرة هي في الحقيقة رسوم مصلحة، ومنمية، مثل السقي للبستان، والرسول ﷺ شبه أعظم العبادات الظاهرة، وهي الصلاة، بالنهر الذي يطهر الإنسان من أوساخه، فهذه صقالات للقلب، ومادة ينتفع بها القلب، إنما الأصل هو القلب، ولهذا يجب علينا دائما أن ننظر إلى قلوبنا، أحيانا يكون في القلب سريرة الحسد مثلا، وسريرة الحسد هذه ليست بهينة؛ لأنها موروثة عن اليهود، فهل ترضى أن تكون شبيها باليهود؟ لا أحد يرضى، ومع ذلك تجدها في قلوب كثير من المؤمنين، والرياء في العبادة أو في المظهر موجود أيضا.

قوله: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي مهويه]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فسر هوى بمعنى مهوي يعني فسر المصدر بمعنى اسم المفعول، يعني اتخذ إلهه هذا الحجر مثلا، أو هذه الشجرة، يعني جعل الإله الشجرة، والشجرة أو الحجر هي المهوي، ولهذا فسر الهوى بـ(المهوي)؛ لأنه يريد أن يجعل الإله هنا

=

=

هو المعبود، ولكن الصواب أن الآية على ظاهرها، وأن الإله هو الهوى، ومعنى ذلك أنه جعل المتبوع الهوى، وكون الإنسان يتبع غيره، سواء هوى نفسه أو كونه يتبع غيره، هذا من اتخاذه إلها، ولهذا قال الله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} [التوبة: ٣١]، فقال عدي بن حاتم: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدهم. قال: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟". قال: بلى، قال: "فتلك عبادتهم".

فإذن نقول: الآية على ظاهرها، يعني أن الإله هو الهوى نفسه، والهوى يقوده إلى عبادة الشجر والحجر، ويقوده إلى استحلال الزنا، وإلى استحلال الربا، وإلى غير ذلك، فعليه الأولى جعل الآية على ظاهرها، وألا تصرف إلى المعبود، خلافا للمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [قدم المفعول الثاني لأنه أهم]، أين المفعول الثاني؟

أصله (من اتخذ هواه إلها) فالمتخذ إلها هو هوى، لا الإله متخذا هوى، الإله ما اتخذ هوى، ولكن الهوى متخذ إلها، فلهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [قدم المفعول الثاني لأنه أهم] يعني لأنه هو محل التعجب، فمحل التعجب أن يكون هذا الشيء إلها، لا محل التعجب مجرد الهوى، فمجرد الهوى ليس محل تعجب، إنما محط التعجب أن يتخذ إلها، فعلى هذا نقول: المفعول الأول (إلها) والثاني (هواه).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وجملة (من اتخذ) مفعول أول لـ (رأيت)]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [جملة {من اتخذ}] ننظر هل كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ صحيح أو غير صحيح؟ يعني قوله: {من اتخذ} هو على كل حال مفرد، إلا على طريقة ابن جني، لكن هل يعبر عن الموصول وصلته بالجملة؟ إذا قلت مثلا: (قدم الذي سافر)، هل تقول: (الذي سافر) جملة؟ لا؛ لأن الاسم الموصول مفرد، لكن صلته جملة، ويدل على ذلك أن الاسم الموصول يقع فاعلا، والفاعل لا يكون جملة، تقول: (جاء الذي سافر)

=

=

(الذي) فاعل، ولا يمكن أن يكون جملة، وعلى هذا فيكون قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [وجملة من اتخذ] فيه تسامح، والصواب أن يقال: و (من) في قوله: {من اتخذ} مفعول أول لـ (رأيت).

والثاني: {أفأنت تكون عليه وكيلا} الاستفهام هنا للنفي، يعني: فلن تكون عليه وكيلا، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي حافظا تحفظه من اتباع هواه؟ لا]، يعني لست وكيلا عليه، وإذا لم تكن وكيلا عليه فلست مسئولا عنه، وإذا كان هذا الكلام للنبي ﷺ فمن دونه أولى، فنحن لسنا وكلاء على من عصوا الله، ولا على من فسقوا عن أمره، إنما علينا البلاغ والدعوة، وعلى الله سبحانه وتعالى الحساب، قال سبحانه وتعالى: {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب}، وبهذا نعرف أنه لا ينبغي للإنسان أن يحزن على ضلال من ضل إذا كان قد قام بما أوجب الله عليه من البلاغ والدعوة، قال الله تبارك وتعالى: {ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون} [النحل: ١٢٧]، وقال ﷻ: {لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين} [الشعراء: ٣]، يعني مهلكا نفسك ألا يكونوا مؤمنين، وآيات كثيرة بهذا المعنى، وأن الإنسان لا يحزن؛ لأن ضلال من ضل بفعل الله سبحانه وتعالى، وفعله تعالى لحكمة، ولهذا قال أهل العلم: إننا ننظر إلى أهل المعاصي نظرين؛ نظرا شرعيا، ونظرا كونيا، فالنظر الشرعي نحاول إلزامهم بما أوجب الله ونعاقبهم على ذلك، ونعزرهم بما يليق بهم، ونقيم الحدود عليهم، ولا نرحمهم في ذلك؛ لقوله تعالى: {ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله} [النور: ٢]، هذا النظر الشرعي، نظر قوة وحزم، أما النظر الثاني فهو النظر القدري الكوني، فإننا نرق لهم ونرحمهم أن الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بهذا الأمر، ومن الناس من يتحمل هذا وهذا، ومن الناس من لا يتحمل إلا واحدا منهما، وأيهما أكمل؟ الذي يتحمل هذا وهذا أكمل، لكن من الناس من لا يتحمل الأمر القدري، وتجده يغضب ويصير عنده غيرة، ينفعل

=

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤).

{أَمْ تَحْسَب أَنَّ أَكْثَرهمْ يَسْمَعُونَ} سَمَاع تَفَهُّم {أَوْ يَعْقِلُونَ} مَا تَقُول لَهُمْ {إِنْ} مَا {هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ سَبِيلًا} أَخْطَأ طَرِيقًا مِنْهَا لِأَنَّهَا تَنْقَاد لِمَنْ يَتَعَهَّدهَا وَهُمْ لَا يُطِيعُونَ مَوْلَاهُمْ الْمُنْعِم عَلَيْهِمْ[1].

=

فيها انفعالا بالغا، ويندفع اندفاعا كثيرا، ومن الناس من ينظر إلى الأمر القدري فيقول: هذا بقضاء الله وقدره، ولا يكون عنده غيرة أبدا إطلاقا، وهذا أيضا خطأ، فالواجب على المرء أن ينظر إلى الأمور من النافذتين: نافذة القدر ونافذة الشرع؛ ليكون مستقيما، وهذا هو العدل.

إذن من ضل من الناس فلسنا وكلاء عليه، ولكن له علينا الدعوة إلى الله، ومحاولة إصلاحه بما نستطيع.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا] إشارة إلى أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، يعني فلن تكون عليه وكيلا.

لو قال قائل: يشكل على هذا أن الإنسان يجد في نفسه حزنا على القريب؟

نقول: هذا الحزن على القريب من باب الرقة والرحمة، ومع هذا يجب أن يكون عنده حزم في الدعوة إلى الله، وتبليغ شرعه، وإقامة ما يجب إقامته من الحدود على هذا المخالف؛ لأن بعض الناس يرق لقريبه وصاحبه وأخيه، وما أشبه ذلك، ولا يقوم بالواجب بالنسبة لتأديبه ومحاولة إصلاحه، وهذا خطأ.

(١) قوله تعالى: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} [الفرقان: ٤٤]، أي:"أم تظن أن أكثرهم يسمعون آيات الله سماع تدبر، أو يفهمون ما فيها؟".

قال الطبري: يقول:"{أَمْ تَحْسَبُ} يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين {يَسْمَعُونَ}

=

=

ما يتلى عليهم، فيعون {أَوْ يَعْقِلُونَ} ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون".

قال ابن عباس:"لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه".

قال الزمخشري:"«أم» هذه منقطعة، معناه: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول، لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقل".

قوله تعالى: {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ} [الفرقان: ٤٤]، أي:"ما هم إلا كالبهائم في عدم الانتفاع بما يسمعونه".

قال الزجاج:"معناه: ما هم إلا كالأنعام في قلة التمييز فيما جعل دليلا لهم من الآيات والبرهان".

قال الطبري:"يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه".

قال الزمخشري:"مشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال".

قال ابن عباس:"مثل الذين كفروا كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضهم: كلّ. لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته، عن شر ووعظته لم يعقل ما تقول، غير أنه يسمع صوتك".

قوله تعالى: {بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤]، أي:"بل هم أضل طريقًا من الأنعام".

قال الطبري:"بل هم من البهائم أضلّ سبيلا لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم".

قال ابن كثير:"أي: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم".

=

=

قال الزجاج:"لأن: الأنعام تسبح بحمد الله وتسجد له وهم كما قال الله ﷻ: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة: ٧٤]".

قال الزمخشري:"لأن الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهدها، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهنى والعذب الروى".

عن مقاتل بن حيان قوله: "{أضل سبيلا}، يقول: أخطأ السبيل".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أم تحسب أن أكثرهم يسمعون} سماع تفهم {أو يعقلون} ما تقول لهم، {إن} ما {هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا} أخطأ طريقا منها؛ لأنها تنقاد لمن يتعهدها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعم عليهم].

قوله: {أم تحسب} الخطاب إما للرسول عليه الصلاة والسلام وإما لكل من يتأتى خطابه ممن يصح خطابه، وقوله: {أم} بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام، لكن هل هي متصلة أو منقطعة؟ هي منقطعة؛ لأنها بمعنى (بل)، والمتصلة هي التي تكون بين أمرين متعادلين، مثل قوله سبحانه وتعالى: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم} [المنافقون: ٦]، هذه متصلة، فالتي تأتي بين شيئين متعادلين يسمونها متصلة؛ لأنها تصل الأول بالثاني، وإذا لم تكن كذلك فهي منقطعة، فقوله هنا: {أم} ليس فيها معادل، فتكون إذن منقطعة بمعنى (بل) وهمزة الاستفهام.

وقوله: {تحسب} بمعنى تظن {أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون} يعني أنهم لا يسمعون ولا يعقلون، وما المراد بالسمع؟ يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: [سماع تفهم] وإنما قيده بسماع التفهم لأنهم يسمعون سمع إدراك، لكنه لا ينفعهم؛ لأنهم لا

=

=

يتفهمون، ولو أن المصنف أبقى الآية على إطلاقها بدون تقييد لكان أولى، ويكون نفى السمع لانتفاء فائدته؛ لأن ما لا يستفاد منه كالمعدوم، فهم لا يسمعون وإن كانوا يدركون ما يقال إدراكا حسيا، لكنهم لعدم انتفاعهم بهذا السماع صاروا كالذين لا يسمعون.

وقوله: {أو يعقلون} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما تقول لهم] وفي هذا نظر ظاهر، بل المراد: يعقلون كل ما ينفعهم، يعني أنهم ليس عندهم عقل لما تقول ولا لغيره، فالعقل هنا ليس العقل الذي هو الذكاء، وهو إدراك الأمور، فإنهم يعقلون بهذا المعنى، لكن المراد العقل الذي يمنع صاحبه ويعقله من التصرف بما لا يليق، هذا العقل الحقيقي، وليس العقل أن يدرك الإنسان المعقول، فإن العقل الذي معناه أن يدرك المعقول هو مناط التكليف، وليس مناط المدح أو الذم. فالآن صار العقل عقلين:

أحدهما: مناط التكليف، الذي به يدرك الإنسان ويتميز عن الحيوان.

والثاني: العقل الذي هو مناط المدح، وهو الذي يمنع صاحبه مما لا يليق، والمنفي عن الكفار هو الثاني، الذي هو العقل بمعنى ما يمنع صاحبه عما لا يليق، أما الأول الذي هو إدراك المعقولات فهذا ثابت لهم، ولذلك كلفوا وخوطبوا بالشرع، ولولا ذلك لما كلفوا ولما وجب عليهم التزام الشرع.

هل العقل الذي نفاه الله عن الكفار يقتضي نفي الذكاء عنهم؟

لا، هم أذكياء يفهمون الذي ينفعهم، ويفهمون الذي يضرهم، لكنهم ما عقلوا، يعني ما منعهم هذا العقل عما لا يليق، فلذلك صح أن نقول: إنهم لا يعقلون، فأبو جهل مثلا عاقل أو غير عاقل؟ نقول: بالنسبة إلى العقل الذي هو مناط تكليف فهو عاقل بلا شك، ومن أذكى الناس، وبالنسبة للعقل الذي هو محط المدح الذي يمتنع الإنسان به عما لا يليق فليس عاقلا، ولذلك بقي على كفره، مع وضوح

=

=

الأدلة والبينات على صدق ما جاء به الرسول ﷺ. وهنا المراد بالعقل الذي نفاه الله العقل الذي يمنع صاحبه عما لا يليق.

قوله: {إن هم إلا كالأنعام} هذا حصر، يعني ما هم إلا كالأنعام، أي مثل الأنعام، والأنعام هي البهائم، ومن المعلوم أنك لو قلت لأي إنسان: أنت بهيمة يغضب بلا شك، فالله يقول: {إن هم إلا كالأنعام}، أيضا لم يقل: إن هم إلا أنعام، قال: {كالأنعام}، والتشبيه يقتضي أن المشبه أقل من المشبه به، ولهذا قال: {بل هم} هذا انتقال للصريح {بل هم أضل سبيلا} يعني: أخطأ طريقا من الأنعام؛ لأن الأنعام تهتدي لما ينفعها، وهؤلاء لم يهتدوا لما ينفعهم، فالأنعام إذا دعاها الراعي إلى المرعى تأتي، وإذا دعاها إلى المحلب أتت، وإذا دعاها إلى المأوى أتت، كذلك أيضا تنفر مما يضرها، لكن هؤلاء بالعكس؛ تدعوهم الرسل عليهم السلام إلى ما ينفعهم وتحذرهم مما يضرهم، ومع ذلك لا يهتدون سبيلا، ولا ينقادون، فصاروا إذن أضل سبيلا من الأنعام، ولهذا بين الله تعالى في آيات متعددة أن الكفار شر البرية؛ شر ما برأ الله: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية} [البينة: ٦]، وقال سبحانه وتعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا} [الأنفال: ٥٥]، يعني شرا من الكلاب والخنازير، وقل ما يمكن أن تقول من الخسة في مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي خلقها، فهم شر من ذلك، ومع هذا نجد من المسلمين الآن من يكرمهم، بل من يقدمهم على المؤمنين، وهذه محنة عظيمة، فبهذا السبب استطال أعداء الله على المسلمين، رأوا أنفسهم عند كثير من المسلمين محل التبجيل والتعظيم، ففخروا بأنفسهم، بل أنكى من ذلك وأدهى أنهم صاروا محل التقليد عند بعض الناس، يعني يقلدونهم، ومعروف أن الإنسان إذا قلد فسوف يفخر ويرى نفسه إماما، وهذا في الحقيقة من سوء التصرف، ومن ضعف الشخصية، وإلا فالواجب

=

=

أن ننزل هؤلاء الكفار منزلتهم التي أنزلهم الله تبارك وتعالى، وألا نجعل منهم قدوة، وأنهم إذا فتحوا لنا أبوابا من الاختراعات والصناعات وغيرها، نعم نستفيد من علمهم، لكن لا على أننا نظهرهم بمظهر البارز المتقدم المعظم، إنما نقول: هؤلاء مثلما تهتدي الشاة إلى العلف الجيد وتأكله هم اهتدوا إلى هذه الصنائع وعلمهم الله مهنة لهم ولغيرهم، لكن كوننا نقدمهم ونجعلهم محل إعجاب وإكرام هذا خطأ. وبين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [لأنها تنقاد لمن يتعهدها، وهم لا يطيعون مولاهم المنعم عليهم].

وقد تقدم قوله سبحانه وتعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: ٢٩]، فإذا قال هؤلاء الكتابيون: نحن ندين دين الحق لأننا نتبع رسولا، والله عَزَّوَجَلَّ قيد {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب} فهم يقولون: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر ونحرم ما حرم الله ورسوله، وندين دين الحق لأننا على دين رسل؟

نقول: الحمد لله، سياق هذه الآيات بين ما هو دين الحق؟

ففي آخر الآيات {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون (٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (٣١) يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (٣٢) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} [التوبة: ٣٠ - ٣٣]. فنقول: دين الحق ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذن اليهودي الكتابي إذا بقي على دينه، وإن

=

=

كان دينه حقا حينما كان هو الثابت، لكنه الآن ليس بدين حق؛ لأن دين الحق ما جاء به محمد ﷺ، فيكون في آخر الآيات ما يدل على أن هؤلاء وإن زعموا أنهم على شريعة وعلى دين، فإن دينهم ليس دين حق بعد أن جاء دين الرسول ﷺ، قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} [التوبة: ٣٣].

وهذا نظير ما يحتج به هؤلاء في قوله تعالى: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها} [البينة: ٦]، الله سبحانه وتعالى يقول: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب} وهم يقولون: نحن ما كفرنا، بل نحن مؤمنون، فيجعلون (من) للتبعيض، لا لبيان الجنس، ونحن نقول: إن (من) لبيان الجنس، فقوله: {الذين كفروا} من أي طائفة؟ {من أهل الكتاب والمشركين}، هذا بيان للاسم الموصول (الذين) في قوله: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب}.

فالحاصل: أنه توجد آيات في القرآن كما أسلفنا مشتبهات يتبعها الذين في قلوبهم زيغ، ولكن المؤمنين يردونها إلى المحكم، فتكون كلها محكمة.

لو قال قائل: قوله تعالى: {وقالت اليهود عزير ابن الله} [التوبة: ٣٠]، ألا يكون دليلا صريحا على كفرهم، لكن إذا قالوا: نحن لا نقول: عزير ابن الله، نقول: نرد عليهم بقوله: {ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك} [المائدة: ٦٨]، نقول: هم سيقولون: نحن أقمنا التوراة والإنجيل، وأما قوله: {وما أنزل إليكم من ربكم} سيقولون: وما أنزل إلينا من ربنا من غير التوراة والإنجيل؛ لأن الرسل جاءوا بأمر غير التوراة والإنجيل، وأما قوله: {وليزيدن كثيرا منهم} سيقولون: {كثيرا منهم} ونحن ليسوا من هذا الكثير، فالآية ليست صريحة، لكن توجد آيات صريحة -الحمد لله- واضحة جدا، وهذا في الحقيقة ما يهون على بعض الناس مسألة اليهود والنصارى.

=

=

وأنا قرأت مقالا تقول: لماذا تصنعون هذه الضجة العظيمة لتوريد المربيات، ما السبب؟ ! تقول: دين تقر به -هكذا تخاطب المسلم- كيف تنكر على من قام به وكيف تنكر على المرأة النصرانية التي تجيء عندك بيتك تقيم شعائر دينها؟ ! هذا ليس بمنكر؛ لأننا نحن عندهم هناك في بلادهم نقيم ديننا، حتى إنهم -هكذا تقول- يقدمون لنا وجبة الأفطار في الصوم، فهم يساعدوننا على ديننا، ونحن الآن ننكر دينهم ونقول: لماذا نأتي بمربيات ونفتعل هذه الضجة. مع أنه لم تحدث ضجة مع الأسف، يا ليتها حدثت ضجة ضدها.

وفي الحقيقة مما يهون عليهم مسألة النصارى واليهود أنه يوجد في بعض الآيات أشياء متشابهة، يتبعها مثل هؤلاء الذين أزاغ الله قلوبهم، والعياذ بالله، وإلا لو عقلوا لفهموا خطر النصارى في هذه البلاد بالذات؛ لأن هذه البلاد بالذات مغزوة من أعداء المسلمين، حيث إنه لم يبق فيما نعلم أحدا من بلاد الإسلام يطبق من الإسلام ما تطبقه هذه البلاد، فهي مغزوة من ناحيتين؛ من ناحية التزامها بالإسلام التزاما فائقا على غيرها، هذه واحدة، ومن ناحية أخرى أنها هي مهبط الوحي ومنبع الرسالة، وإذا قضي على الرسالة في مهدها ومنبعها فالأطراف من باب أولى، على أن الأطراف قد أكلت الآن، فما بقي إلا هذا الصلب، فركزوا جهودهم على هذه البلاد، ولكن مع الأسف أن كثيرا منا لا يعون خطر هذا الأمر، وهم في غفلة، وما همهم إلا الدنيا، ولذلك يريدون أن يحصلوا عليها بأي وسيلة.

والواجب علينا الحذر من هؤلاء الأعداء، وأن نعلم أنه مهما حصل منهم من نصح كما يقولون، وإخلاص في العمل، فما ذلك إلا شبكة يصطادون بها من لا يفهمون.

على أنهم في الحقيقة مهما بلغوا من النصح، إن صح ذلك، فإن الله يقول: {ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم} [البقرة: ٢٢١]، ويقول: {ولأمة مؤمنة خير

=

=

من مشركة ولو أعجبتكم} [البقرة: ٢٢١]، ولاحظ أن الآية تقول: {مؤمن} و {مؤمنة}، لا مسلم ومسلمة؛ لأن من المسلمين من لا خير فيه، لكن الكلام على المؤمن، ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص في مربيات أولاده وفي خدمه أن يكونوا مؤمنين، وأن يحذر من هؤلاء الأعداء.

لو قال قائل: هل يحرم استخدام الكافر؟

نقول: أما في الأصل فيجوز استخدام الكافر، لكن بالنظر إلى مفاسده، وأن هذه البلاد خالية منهم، فإننا نميل إلى أن منعهم أولى؛ لأنه من المعروف أن الثوب الوسخ لا يهم أن يتوسخ، لكن الثوب النظيف أي وسخ يدنسه، فبلادنا لما كانت خالية منهم فهي أطهر، كما هو معروف في حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن الرسول عليه الصلاة والسلام استيقظ ليلة فزعا محمرا وجهه يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه". قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم، إذا كثر الخبث" ومن هم الخبث؟ الكفار؛ قال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس} [التوبة: ٢٨].

فالكفار هم الخبث، وإن كان من الخبيث ما قد يراد به ما هو أعم من ذلك، لكن فتح اليوم من ردم يأجوج يدل على ما أشرنا إليه، وهو كثرة غير المسلمين في المسلمين، وقد يراد بالخبث كل المعاصي، فالمعاصي كلها خبث، والطاعات طهر، لكن لعل الحديث يشمل هذا وهذا، ويؤيد الأول فتح ردم يأجوج ومأجوج.

لو قال قائل: كل الآيات يمكن أن تقبل الإشكال، حتى هذه الآية {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [المائدة: ٦٩].

نقول: الله عز وجل يقول: {من آمن بالله واليوم الآخر} الذين يكذبون بالرسول ليسوا بمؤمنين؛ لأنه كلما جاء نبي وكذبوه صاروا كافرين بالجميع.

=

=

لو قال قائل: في قوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} نجد أن قوله: {والصابئون} مرفوع بين منصوبات، وقوله ﷻ: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر} [النساء: ١٦٢]، هذه عكس الآية السابقة؛ فهذا منصوب بين مرفوعات، وذاك مرفوع بين منصوبات، فما إعراب هاتين الكلمتين؟

نقول: الإعراب: {والمقيمين} هذه على تقدير: وأخص أو أمدح المقيمين للصلاة.

إذا قال قائل: ما الحكمة في قطع العطف إلى هذا التقدير؟

نقول: العناية بالصلاة، هذه فائدة معنوية، وتوجد أيضا فائدة لفظية، وهي التنبيه؛ لأن تغير الأسلوب يوجب الانتباه، لو قرأنا الآية كلها على نسق واحد مشينا، لكن حينما تقف يكون في هذا التنبيه.

وأما إعراب قوله تعالى: {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر} {والصابئون} هنا لماذا رفعت؟ نقول: {والصابئون والنصارى} يجوز أن النصارى مرفوعة أيضا، ويمكن أن تكون منصوبة، فهي محتملة، لكن لا يتعين أن تكون منصوبة، فتكون (الواو) هنا للاستئناف، (والصابئون والنصارى كذلك) هذا التقدير، وتكون هذه الجملة مستأنفة بين الكلمتين، أو نقول: {والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر} هو الخبر، وحذف الخبر من الجملة الأولى.

لو قال قائل: ما الفرق بين هذه الآية وقوله في سورة الحج: {والذين أشركوا} [الحج: ١٧]؟

=

=

الجواب: في هذه الآية قال: {من آمن بالله واليوم الآخر}، واليهود مؤمنون بالله واليوم الآخر، في سورة الحج {إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة} [الحج: ١٧]، فلم يذكر أن جزاءهم الجنة مثلا، ذكر أن الله يفصل بينهم، والفصل شامل للمؤمنين والمشركين والمجوس وغيرهم، ففرق بين الآيتين. ا.هـ

مسألة: حدود العقل في الإسلام.

ليس ثمة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنساني وتعتز به وتعتمد عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية، وليس ثمة كتاب أطلق سراح العقل وغالي بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم كتاب الإسلام بل إن القرآن ليكثر من استثارة العقل ليؤدي دوره الذي خلقه الله له.

ولذلك نجد عبارات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [البقرة: ٧٣] ولِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [يونس: ٢٤] ولِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ [الأنعام: ٩٨] ونحوها تتكرر عشرات المرات في السياق القرآني لتؤكد النهج القرآني الفريد في الدعوة إلى الإيمان وقيامه على احترام العقل.

ولقد أبرز الإسلام مظاهر تكريمه للعقل واهتمامه به في مواضع عدة نذكر منها.

أولا- قيام الدعوة إلى الإيمان على الإقناع العقلي:

فلم يطلب الإسلام من الإنسان أن يطفئ مصباح عقله ويعتقد بل دعاه إلى إعمال ذهنه وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمور مقنعة في شؤون حياتها وقد وجه الإسلام هذه الطاقة بتوجيهات عدة لتصل إلى ذلك:

١ - فوجهها إلى التفكر والتدبر.

أ- في كتابه.

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ [ص: ٢٩]

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا [النساء:

=

=

٨٢].

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: ٢٤]

ثم يستثير العقل الإنساني ويتحداه أن يأتي بمثل هذا القرآن حتى إذا ما أدرك عجزه عرف أنه من عند الله قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [هود: ١٣] فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ [الطور: ٣٤].

ب- وفي مخلوقاته:

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [آل عمران: ١٩١] أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ [الروم: ٨] أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

ثم يتحدى العقل بحواسه أن يجد خللًا في شيء منها ليزداد بعد عجزه إيمانًا وتسليمًا الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ [الملك: ٣ - ٤].

ج- وفي تشريعاته.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: ١٧٩] وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ١٨٤].فأمر بالتفكر في تلك التشريعات لتحري الحكمة فيها لأن الحياة لا تسير آلية بحيث تنطبق عليها القاعدة التشريعية إنطباقًا آليًا وإنما هناك مئات من الحالات للقاعدة الواحدة وما لم يكن الإنسان مدركًا للحكمة الكامنة وراء التشريع وفاهمًا لترابط التشريعات في مجموعها فلن

=

=

يتمكن من تطبيقها في تلك الحالات المختلفة التي تعرض للبشر في حياتهم الواقعية وقد عني الإسلام بإيقاظ العقل لتدبر هذه التشريعات ليستطيع تطبيقها على خير وجه.

د- وفي أحوال الأمم الماضية وما أدت بهم المعاصي إليه.

قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [الأنعام: ١١] أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ [الأنعام: ٦].

هـ- وفي الدنيا ونعيمها الزائل:

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا [الكهف: ٤٥].

وهذا التأمل والتدبر ليس هو المقصود لذاته وإنما ليؤدي ثمرة نافعة لا أعني بها فلسفة يتشدق بها الفلاسفة ويتبارون في إغماض الكلام فيها وإبهامه ثم لا ينتهون إلى شيء وإنما أعني بها الإصلاح... إصلاح القلب... إصلاح العقيدة... إصلاح الحياة في الأرض على منهج الدين الصحيح.

٢ - ووجه الإسلام الطاقة العقلية لمراقبة نظام الحياة الاجتماعية مراقبة توجيه وإصلاح لتسير الأمور على منهج صحيح وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [عمران: ١٠٤].

وحمل المسؤولية كحل فرد من أفراد المجتمع وهدده بالعقاب إذا علم ولم يصلح ولو كان صالحا في نفسه وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً [الأنفال: ٢٥] لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا

=

=
كَانُواْ يَفْعَلُونَ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]. وقال ﷺ ((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)).

ثانيًا: ولم يقسر الإسلام بعد هذا العقل على الإيمان كما قال تعالى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) [البقرة: ٢٥٦] فلم يكره الإسلام العقل على الإيمان.

ثالثًا: وحرص على قيام العلاقة بين العبد وربه على الوضوح العقلي في العقيدة والشريعة وعدم تقييده له بعد اقتناعه وإيمانه بالرهبانية فلا رهبانية في الإسلام لما فيها من تقييد للعقل فضلًا عن الغرائز والحواس ولما فيها من تعطيل للطاقة والقوى البشرية والمخالفة لنظام الحياة مخالفة تقضي بالفناء على البشرية فيما لو اعتنق الناس الترهب والانعزال دينا.

رابعًا: ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل نعيه على المقلدين الذين لا يعلمون أذهانهم وحذر من التقليد الأعمى والتعصب الأصم لنظريات واهية وآراء زائفة ناشئة عن الخرافات والأهواء وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ [البقرة: ١٧٠] أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا [هود: ٨٧] فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [هود: ١٠٩].

وأمر بالتثبت في كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا [الإسراء: ٣٦]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا [الحجرات: ٦].

خامسًا: ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل أمره بالتعلم والحث على ذلك فكما أن نمو الجسم بالطعام فإن نمو العقل بالعلم إذ بهذا يكون الإيمان عن إدراك أوسع وفهم أعمق واقتناع أتم بل قرن سبحانه ذكر أولى العلم بذكره ﷻ وذكر
=

=
ملائكته شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران: ١٨] إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء [فاطر: ٢٨] يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ [المجادلة: ١١].

وجعل العلم مشاعا لأنه غذاء العقل الذي به ينمو إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

لذا لم يعرف الإسلام "رجل الدين" الذي يحتكر علومه ويعطي صكوك الغفران ويملك التحليل والتحريم ولكنه يعرف فكرة "عالم الدين" الذي يرجع إليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على الناس من أمور دينهم مستندًا إلى دليل معتبر شرعًا من غير إلزام إلا بحجة قطعية من كتاب أو سنة أو إجماع مسلم به.

سادسًا: ومن ذلك إسناده استنباط الأحكام فيما لا يوجد فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع إلى العقل وما حديث معاذ عنا ببعيد حين بعثة الرسول ﷺ إلى اليمن قاضيًا قال: ((كيف تقضي يا معاذ؟ قال بكتاب الله قال: فإن لم تجد قال بسنة رسول الله قال فإن لم تجد قال اجتهد برأيي ولا آلو فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله)) فجعل من اجتهاد العقل أساسًا للحكم وقاعدة للقضاء عند فقدان النص.

سابعًا: ومنها الأمر بتكريمه والمحافظة عليه والنهي عن كل ما يؤثر في سيره أو يغطيه فضلًا عما يزيله. فحرم ذلك شرب الخمر إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ [المائدة: ٩٠] وحرم كل مسكر ((كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)). كل هذا حفاظًا على العقل وعلى بقائه. وجعل الدية كاملة على من تسبب في إزالته عن آخره قال ابن قدامة "لا نعلم في هذا
=

=

خلافًا وقد روي عن عمر وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإليه ذهب من بلغنا قوله من الفقهاء وفي كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم ((وفي العقل الدية)) ولأنه أكبر المعاني قدرًا وأعظم الحواس نفعًا فإن به يتميز من البهيمة ويعرف حقائق المعلومات ويهتدي إلى مصالحه ويتقي ما يضره ويدخل به في التكليف وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس".

* ولكن الإسلام بعد هذا التكريم كله وذلك الاهتمام قد حدد للعقل مجالاته التي يخوض فيها حتى لا يضل. وفي هذا تكريم له أيضًا لأنه محدود الطاقات والملكات فلا يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة وطاقة على الاستيعاب والإدراك لذا فإنه سيظل بعيدًا عن متناول كثير من الحقائق وإذا ما حاول الخوض فيها التبست عليه الأمور وتخبط في الظلمات وفي هذا مدعاة لوقوعه في كثير من الأخطاء وركوبه متن العديد من الأخطار.

فأمر الإسلام العقل بالاستسلام والإمتثال للأمر الشرعي الصريح حتى ولو لم يدرك الحكمة والسبب في ذلك وقد كانت أول معصية لله ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال فحينما أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ استكبر وعصى واستبد برأيه فقارن بين خلقه وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ [ص: ٧٦] فلم يمتثل للأمر طلبًا للسبب الذي يسجد لأجله الفاضل للمفضول حسب رأيه فلما لم يدرك عقله السبب رفض الامتثال فكانت المعصية وكانت العقوبة. لذا منع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول إدراكه كالذات الآلهية والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) وقال ﷺ (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله). وعن الروح قال تعالى وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

=

=

[الإسراء: ٨٥] فصرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون العقل السؤال عنها ولا من مداركه. وكذلك الجنة ونعيمها والنار وجحيمها وكيفية ذلك وغيرها من الغيبيات التي ليست في متناول العقل ومداركه. وعلى هذا مضى المسلمون في العصر الأول من الإسلام عرفوا ما للعقل فدرسوه وحفظوه وما ليس له فاجتنبوه بل اجتنبوا من عرف بالأهواء والسؤال عن المتشابه فهذا "صبيغ بن عسل جعل يسأل عن متشابه القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فلما أتاه الرسول بالكتاب فقرأه قال: أين الرجل؟ أبصر لا يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الوجيعة. فأتى به. فقال عمر: سبيل محدثه فضربه وأعاده إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين قال أبو عثمان النهدي فلو جاءنا ونحن مئة لتفرقنا عنه.ولا يعني هذا أن العصر الإسلامي كان خاليًا كل الخلو من الآراء الشاذة بل وجد في وقته عليه الصلاة والسلام ولكن كان لوجوده ﷺ ونزول الوحي حينئذ القضاء على تلك الآراء في مهدها فالمنافقون قالوا يوم أحد عن إخوانهم لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ [آل عمران: ١٥٦] فهل هذا إلا تصريح بإنكار القدر.وقالت طائفة من المشركين لَوْ شَاء اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ [النحل: ٣٥] فهل هذا إلا تصريح بالجبر.
بل إن منهم من جادل في ذات الله وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ [الرعد: ١٣].
ولكن هذه الآراء لم يتبنها أصحابها ويدعوا لها ويؤلفوا عنها وينشروها بين الناس بل كانت تنطفئ في مهدها كما ذكرنا.
* أما أهل البدع من المتكلمين فقد ضاهوا الشرع بعقولهم وجعلوه حاكمًا على النصوص لا محكومًا لها؟ (فلما أظلمت الأرض وبعد عهد أهلها بنور الوحي

=

=

وتفرقوا في الباطل فرقًا وأحزابًا لا يجمعهم جامع ولا يحصيهم إلا الذي خلقهم فإنهم فقدوا نور النبوة ورجعوا إلى مجرد العقول فكانوا كما قال ﷺ فيما يروي عن ربه أنه قال: (إني خلقت عبادي حنفاء وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب).

فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر أو الحيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم فأطلع الله شمس الرسالة في تلك الظلم سراجًا منيرًا وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون لها شكورًا فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه ورأوا في ضوء الرسالة ما لم يكونوا بآرائهم يرونه فكانوا كما قال الله تعالى: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ [البقرة: ٢٥٧] وقال: (آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) وقال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا [الأنعام: ١٢٢] فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النور لم تطفئه عواصف الأهواء ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقتهم). فكان من شأن الصحابة أنهم لم يقدموا عقولهم بين يدي الله ورسوله ﷺ بل كان دليل أحدهم إذا استدل إنما هو آية من كتاب الله أو سنة

=

=

رسوله ﷺ.

فهذا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه لما سمع بمقالة ابن عباس رضي الله عنهما الأولى في الربا - قبل أن يرجع عنها - وهي حديث (إنما الربا في النسيئة) قال أبو سعيد له (أرأيت هذا الذي تقول شيء سمعته من رسول الله ﷺ أو وجدته في كتاب الله عز وجل؟).

فهاتان هما الحجتان الملزمتان للناس عند الصحابة: كتاب من الله أو سنة من رسوله ﷺ مصداقًا لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ [النساء:٥٩] وكان أحدهم رضي الله عنهم يغضب إذا عورض حديث رسول الله ﷺ بقول غيره من البشر ولو كان من حكماء اليونان! فقد جاء في صحيح مسلم أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر لأصحابه حديث رسول الله ﷺ أنه قال: (الحياء لا يأتي إلا بخير، فقال أحدهم وهو بشير بن كعب أنه مكتوب في الحكمة أن منه وقارًا ومنه سكينة فقال عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحفك! وفي رواية: فغضب عمران حتى احمرتا عيناه وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه، قال فأعاد عمران الحديث. قال فأعاد بشير. فغضب عمران قال فمازلنا نقول فيه: إنه منا يا أبا نجيد إنه لا بأس به). قال النووي (وقولهم إنه منا لا بأس به معناه ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة أو غيرها مما يخالف به أهل الاستقامة).

إذن فالصحابة لم يعارضوا ولم يرضوا بمعارضة حديث رسول ﷺ بغيره من المعقولات، وإذا أشكل عليهم شيء من ذلك كانوا يوردون إشكالاتهم على النبي ﷺ فيجيبهم عنها وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض، ولم يكن أحد منهم يورد عليه معقولًا يعارض النص البتة، ولا عرف فيهم أحد -وهم أكمل الأمم عقولًا - عارض نصًا بعقله يومًا من الدهر، وإنما حكى الله سبحانه ذلك عن الكفار، كما تقدم، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه

=

=

قال: (من نوقش الحساب عذب، فقالت عائشة: يا رسول الله، أليس الله يقول: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق:٧ - ٨]. فقال: بلى ولكن ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب)، فأشكل عليها الجمع بين النصين حتى بين لها صلوات الله وسلامه عليه أنه لا تعارض بينهما وأن الحساب اليسير هو العرض الذي لابد أن يبين الله فيه لكل عامل عمله، كما قال تعالى: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ [الحاقة:١٨]. حتى إذا ظن أنه لن ينجو نجاه الله تعالى بعفوه ومغفرته ورحمته فإذا ناقشه الحساب عذبه ولابد. ولما قال: ﷺ (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة قالت له حفصة: أليس الله يقول: وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [مريم:٧١] قال: ألم تسمعي قوله تعالى ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [مريم:٧٢])، فأشكل عليها الجمع بين النصين وظنت الورود دخولها كما يقال ورد المدينة إذا دخلها فأجاب النبي ﷺ بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين فإن المتقين يردونها ورودًا ينجون به من عذابها والظالمين يردونها ورودًا يصيرون جثيًا فيها به. فليس الورود كالورود)، إلى غير ذلك من مراجعتهم لرسول الله ﷺ (فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة والخوارج، والقدرية والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأئمة، ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية، بل كانوا للنصوص معظمين، وبها مستدلين، ولها على العقول والآراء مقدمين، ولم يَدَّع أحد منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص، وإنما أتوا من سوء الفهم فيها، والاستبداد بما ظهر لهم منها، دون من قبلهم، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم، وتبرءوا منهم، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير، ولا يرون السلام عليهم ولا مجالستهم، وكلامهم فيهم معروف في كتب السنة، وهو أكثر من أن يذكر هاهنا، فلما كثرت الجهمية في أواخر

=

=

عصر التابعين كانوا هم أول من عارض الوحي بالرأي، ومع هذا كانوا قليلين أولًا مقموعين مذمومين عند الأئمة، وأولهم شيخهم الجعد بن درهم، وإنما نفق عند الناس بعض الشيء لأنه كان معلم مروان بن محمد وشيخه ولهذا كان مروان يسمى مروان الجعدي وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ومزقهم كل ممزق ببركة شيخ المعطلة النفاة، فلما اشتهر أمره في المسلمين، طلبه خالد بن عبد الله القسري، وكان أميرًا على العراق، حتى ظفر به، فخطب الناس في يوم الأضحى، وكان آخر ما قال في خطبته: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا ثم نزل فذبحه في أصل المنبر، ثم طفئت تلك البدعة فكانت كأنها حصاة رمي بها، والناس إذ ذاك عنق واحد أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال وأنه كلم عبده ورسوله موسى تكليمًا وتجلى للجبل فجعله دكًا هشيمًا إلى أن جاء أول المائة الثالثة، وولي على الناس عبد الله المأمون، وكان يحب أنواع العلوم، وكان مجلسه عامرًا بأنواع المتكلمين في العلوم، فغلب عليه حب المعقولات، فأمر بتعريب كتب اليونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فعربت له، واشتغل بها الناس، والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه، فغلب على مجلسه جماعة من الجهمية ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم وتتبعهم بالحبس والقتل فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه فقبلها، واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها). ومنذ ذلك الحين تميزت فرقة أهل الاعتزال بمغالاتها في العقل ومقاييسه وتقديمه على ما يظن مخالفًا له من النصوص الشرعية وعرفت بذلك بين فرق الإسلام المختلفة. والذي دعاهم إلى هذا الالتفاف حول العقل في ظني أمور كثيرة -والعلم عند الله تعالى- منها: أولًا:

=

=

أخذهم من تراث الأولين من فلاسفة اليونان ممّن لم ينعموا بمصاحبة وحي إلهي يقود مسيرتهم فصاروا يقضون في شؤونهم كلها بهذا العقل الذي زادوا من سلطانه وانفراده فكانت مصنفات أولئك الفلاسفة تضم المقاييس العقلية في شكل منطق يتحاكم إليه في القضايا العقلية. فتابعهم في ذلك المتكلمون والمعتزلة من أهل الإسلام وأعجبوا بصنيعهم ذلك. وكل هذا بفضل جهود الترجمة التي قام بها بعض الخلفاء فأوقعوا الأمة في هذه المصائب المتتالية من حيث ظنوا أنهم يحسنون صنعًا بها.

ويشهد لذلك: أن المعتزلة لم يعلُ صيتهم وتظهر عقلانيتهم واضحة إلا في عهد الخليفة المأمون الذي مهّد السبيل للاقتباس من كتب اليونان وأعانهم عليها. حتى أحدثت الفلسفة - كما يقول زهدي حسين - (في حياتهم انقلابًا خطيرًا وفي تفكيرهم ثورة عنيفة لأنهم بعد أن وقفوا على مواضيعها وتعمقوا فيها أحبوها لذاتها وتعلقوا بها فنتج عن ذلك أمران:

أنهم صاروا يعظمون الفلاسفة اليونان وينظرون إليهم نظرة أسمى وأقدس من نظرتنا إليهم اليوم ويضعونهم في مرتبة تقرب من عتبة النبوة. ثم آمنوا بأقوالهم واعتبروها كما يقول أوليري مكملة لتعاليم دينهم. وانهمكوا لذلك في إظهار الاتفاق الجوهري بينها فبدأ عمل المعتزلة الآخر المهم ألا وهو التوفيق بين الدين الإسلامي وبين الفلسفة اليونانية.. ذلك العمل الذي تركوه لمن خلفهم من الفلاسفة المسلمين كابن رشد والفارابي والكندي الذين قاموا بنصيبهم فيه وكانوا لا يقلون عنهم عناية به وتحمسًا له. أن المعتزلة أخذوا يبتعدون عن أهدافهم الدينية ويهملون تدريجيًا عقائدهم اللاهوتية ويزدادون انصرافًا إلى المسائل الفلسفية حتى جاء وقت كادت جهودهم فيه تقتصر على البحث في مواضيع الفلسفة البحتة كالحركة والسكون والجوهر والعرض والموجود والمعدوم

=

=

والجزء الذي لا يتجزأ إن اشتغال المعتزلة بالتوفيق بين الدين والفلسفة وشغفهم بالأبحاث الفلسفية وتعمقهم فيها جعلهم يتأثرون بالفلسفة كثيرًا ويصبغون بها معظم أقوالهم. ولهذا قال شتينز: إن الاعتزال في تطوراته الأخيرة كان أكثره متأثرًا بالفلسفة اليونانية). فإن قيل بأنهم قد سبقوا هذه الترجمة. فنقول إن ترجمة تراث الأقدمين ليست مقصورة على الخليفة المأمون ولكنه هو الذي تولى كِبْرها. فقد بدأت الترجمة كما يُذكر في عهد الخليفة المنصور الذي أوعز إلى ابن المقفع بترجمة بعض كتب المنطق ككتاب (المقولات) (وبعد مضي عصر المنصور أتى عصر المهدي وانتهى ومر عصر الهادي بعد عصر المهدي دون أن تُؤثر عنهما أو عن واحد من الأشخاص البارزة في وقتهما شيء يتعلق بالترجمة في عمومها فضلًا عن ترجمة الفلسفة بمعناها الخاص). أما الرشيد فقد أمر بإعادة ترجمة الكتب التي سبقت ترجمتها في العهود التي قبله أكثر من تشجيعه على ترجمة كتب جديدة. ثم جاء عصر المأمون وهو العصر الذهبي للترجمة كما يقال.

قال ابن صاعد في طبقات الأمم (لما أفضت الخلافة إلى المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم من مواطنه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة! وقوة نفسه الفاضلة! فداخل ملوك الروم وأتحفهم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وبقراط وغيرهم من الفلاسفة فاختار لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما يمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها).

قلت: والذي دعاه إلى هذه الهمة في الترجمة تشربه بمبدأ الاعتزال القائم على العقل ومقاييسه واستصغاره لنصوص الوحي - لا سيما الحديث - أن تفي بحاجات الأمة. إضافة إلى جلساء السوء من رموز الاعتزال وما يُذكر عنه من حبه للاطلاع والاستزادة من ثقافات الآخرين.

=

=

وأما اقتباس المعتزلة من تراث الديانة اليهودية والمسيحية فليس هذا مكانه لأن الحديث عن العقل والعقلانية التي تميزت بها الثقافة اليونانية دون غيرها فلهذا قصرت القول على كيفية استفادتهم منها. ثانيًا: ومما جعلهم ينحون هذا الاتجاه العقلاني هو ضعفهم في مجال الرواية وجهلهم لعلم الحديث النبوي واقتصارهم على آيات القرآن وبعض الأحاديث التي رأوا أنها تؤيد أقوالهم. فهذا الضعف في علم الحديث قد ألجأهم إلى المعقولات ليعوضوا بها ما عندهم من نقص ويسدوا به ثغرات مذهبهم. وهذا مصداق ما روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (إن أصحاب الرأي أعداء السنة أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم فلم يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا علم لنا فعارضوا السنة برأيهم إياك وإياهم).

ومما صد كثيرًا منهم عن طلب الحديث والسعي وراء حلقاته ما رأوه من كثرة الوضع وانتشار الأحاديث الضعيفة بين رواة الحديث واختلاطها بالصحيح منه وكان من تلك الأحاديث ما يعارض المعقول فظنوا لجهلهم أن لا ضابط يفرق بين الصحيح والسقيم منها. وإن زعم ذلك أهل الحديث. فرأوا أن الرأي الصائب أن يدعوا صحيحها وسقيمها وأن يقتصروا على ما يوافق بدعهم وآراءهم منها. ولا يخفى على دارس أن الأحاديث قد دُسَّ في جملتها -لأغراض شتى- الموضوعات والمكذوبات على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى راجت على بعض العلماء فاحتجوا بها لا في الفقه وحده بل في أمور العقيدة. خاصة مسائل الصفات ولذا أنكر بعض المحققين كابن قدامة تلك الأحاديث الضعيفة والموضوعة وروايتها ضمن عقائد السلف. قال ابن قدامة: (ينبغي أن يُعلم أن الأخبار الصحيحة التي ثبتت بها صفات الله تعالى هي الأخبار الصحيحة الثابتة بنقل العدول الثقات التي قبلها السلف ونقلوها ولم ينكروها ولا تكلموا فيها. وأما الأحاديث الموضوعة

=

=

التي وضعتها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام أو الأحاديث الضعيفة إما لضعف رواتها أو جهالتهم أو لعلةٍ فيها فلا يجوز أن يقال بها ولا اعتقاد ما فيها بل وجودها كعدمها. وما وضعته الزنادقة فهو كقولهم الذي أضافوه إلى أنفسهم فمن كان من أهل المعرفة بذلك وجب عليه اتباع الصحيح واطراح ما سواه ومن كان عاميًا ففرضه تقليد العلماء وسؤالهم لقول الله تعالى وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [الأنبياء:٧] وإن أشكل عليه علم ذلك ولم يجد من يسأله فليقف وليقل: آمنت بما قاله رسول الله ﷺ ولا يثبت بها شيئًا، فإن كان هذا مما قاله رسول الله ﷺ فقد آمن به وإن لم يكن منه فما آمن به).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية منكرًا على أبي يعلى روايته لبعض تلك الأحاديث الضعيفة في الصفات (والمقصود هنا أن ما لم يكن ثابتًا عن الرسول لا نحتاج أن ندخله في هذا الباب سواء احتيج إلى تأويل أو لم يحتج).

لكن لا يعني رواج تلك الأحاديث على قلة من العلماء -غير المحدّثين- اجتهدوا في إدخالها ضمن عقائد السلف أن ندع الحديث جملة ونفر منه إلى غيره. فهل هذا إلا تولية للأدبار عن الدين كله؟ بل كان الأولى بهؤلاء أن يجتهدوا في معرفة الأحاديث الصحيحة التي لا تعارض المعقول أبدًا ويميزوا بينها وبين ضعيف الحديث كما فعل جهابذة الحديث ونقاده الذي اصطفاهم الله لذلك.

واعلم أن هذا الاختلاط في الأحاديث كان لِحكَم لا يحصيها إلا الله سبحانه: منها أن يظل كلامه تعالى متميزًا عن غيره من كلام البشر ولو كان كلام رسول الله ﷺ، ومنها أن تكون فتنة للجهلة وأصحاب القلوب المريضة وامتحانًا يميز الله فيه الخبيث من الطيب، ومنها أن تظهر براعة علماء الحديث. ومنها أن يأجرهم الله تعالى على صبرهم واجتهادهم في تمييز الأحاديث، ومنها أن يتنافس العلماء في

=

=

الصالحات، ومنها أن تكثر العلوم الإسلامية وتتنوع وينتشر لأجل ذلك طلب العلم والسعي فيه، ومنها أن يظهر فضل هذه الأمة في حفظ دين نبيها وأقواله والحرص على جمعها وتهذيبها بخلاف غيرها من الأمم ممن حرف وبدل، ومنها أن يغتاظ الشيطان وحزبه إذا رأوا هذا الجد من الأمة في حفظ سنة نبيها ﷺ، وحكم أخرى غيرها.

ثم اعلم أنه برغم هذا الاختلاط الظاهر في الأحاديث فإن سنة النبي ﷺ تظل محفوظة من قبل الله لا يشك مسلم في ذلك لأنه تعالى تكفل بحفظها في قوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: ٩] وقوله: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل: ٤٤] وقوله: أَطِيعُوا الرَّسُولَ [التغابن: ١٢] فإذا اعتُقِد أن بعضًا من تلك الأحاديث قد فقدت أو اختلطت بغيرها حتى لم تعد تعرف فكيف يطاع الرسول ﷺ الذي أمر به تعالى؟ وكيف يُرَدُّ إلى حُكمه عند الاختلاف؟ فهل هذا إلا تكليف ما لا يطاق؟ وهل هذا إلا إيذانٌ بعدم كمال الدين واستمراره إلى يوم القيامة؟ وأيضًا فهذه الأحاديث (ما اختلطت إلا على الجاهلين بها فأما العلماء بها فإنهم ينتقدونها انتقاد الجهابذة الدراهم والدنانير فيميزون زيوفها ويأخذون جيادها ولئن دخل في غمار الرواة من وسم بالغلط في الأحاديث فلا يروج ذلك على جهابذة أصحاب الحديث ورتوت العلماء حتى إنهم عدو أغاليط من غلط في الأسانيد والمتون بل تراهم يعدون على كل رجل منهم في كم حديث غلط وفي كم حرف حرّف وماذا صحف؟ فإذا لم يرج عليهم أغاليط الرواة في الأسانيد والمتون والحروف فكيف يروج وضع الزنادقة وتوليدهم الأحاديث).

ثالثًا: مما صرفهم عن المأثورات إلى تلك المعقولات هو حب التمايز على الآخرين وشهوة الانفراد بشيء غير معروف عند عامة الناس ليذكروا به ولا

=

=

يكونوا كغيرهم من جملة أهل الحديث. وهذا السبب لم يزل في الناس قديمًا وحديثًا فلو تدبرت حال كثير من أهل البدع لوجدت النشأة الأولى لهم هذه الشهوة الخفية. قال الإمام أبو القاسم الأصبهاني واصفًا حال هؤلاء العقلانيين (إني تدبرت هذا الشأن فوجدت عظم السبب فيه أن الشيطان صار بلطيف حيلته يسوّل لكل من أحس من نفسه بفضل ذكاء وذهن، يوهمه أنه إن رضي في علمه ومذهبه بظاهر السنّة، واقتصر على واضح بيان منها كان أسوة العامة، وعدّ واحدًا من الجمهور والكافة، فحرّكهم بذلك على التنطع في النظر، والتبدع بمخالفة السنّة والأثر، ليبينوا بذلك عن طبقة الدهماء، ويتميزوا في الرتبة عمّن يرونه دونهم في الفهم والذكاء، واختدعهم بهذه المقدمة حتى استزلهم عن واضح المحجة، وأورطهم في شبهات تعلقوا بزخارفها، وتاهوا في حقائقها، ولم يخلصوا منها إلى شفاء نفس، ولا قبلوها بيقين علم، ولما رأوا كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه، ضربوا بعض آياته ببعض وتأولوها على ما سنح لهم في عقولهم، واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ ولسننه المأثورة عنه، وردّوها على وجوهها وأساءوا في نقلتها القالة، ووجهوا عليهم الظنون، ورموهم بالتزيد، ونسبوهم إلى ضعف المنّة، وسوء المعرفة بمعاني ما يروونه من الحديث، والجهل بتأويله، ولو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف، لوجدوا برد اليقين وروح القلوب، ولكثرت البركة وتضاعف النماء، وانشرحت الصدور، ولأضاءت فيها مصابيح النور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

هذه الأسباب الثلاثة: تأثرهم بالعلم الوافد وضعفهم في علم الحديث وشهوة التفاضل على الغير. هي في نظري أهم الأسباب التي أدارت وجوه القوم إلى العقل والعقلانية وألجأتهم إليها. إذن هذا هو حال العقلانيين الأوائل في هذه

=

=

الأمة. فرقة سادت قليلًا ثم بادت. قال الدكتور مصطفى الشكعة (أما المعتزلة فقد اندثر حزبهم كمذهب قائم بذاته فلم نعد في عصرنا الحديث نسمع عن الواصلية أو الهذيلية أو النظامية أو الجاحظية أو البشرية أو الجبائية إلى غير ذلك من المدارس الاعتزالية الفرعية. وإنما ذاب المذهب في تعاليم الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية بحيث أخذ المذهبان أطيب ما عند المعتزلة من أفكار! واطرحا ما قد توسط فيه علماء الاعتزال من تطرف واندفاع).

قلت: ولكن بقيت من أصولها الفكرية الأصل الذي يغالي في دور العقل في أمور الشريعة وأصبح منارًا يهدي العقلانيين إلى سبيل الرشاد! ويدفعهم عن طريق الفساد!. ثم جاء بعد المعتزلة آحاد الفلاسفة الإسلاميين المفترقين مكانًا وزمانًا فزادوا في الميل إلى تلك المعقولات فكانت هي رأس مالهم. ولقد كانوا كما قال أحمد أمين (فلاسفة أولًا ودينيين آخرًا. لا ينظرون إلى الدين إلا عند ما تتعارض نظرية فلسفية مع الدين فيجدوا للتوفيق بينهما). فلذا لم يؤثروا في حياة المسلمين كتأثير المعتزلة الذي خلطوا الدين بالكلام وموَّهوًا على المسلمين بنصرة دينهم. وإنما اندثرت أفكارهم النظرية بموتهم فلم تبن مجتمعًا ولم تُقم على سلطة ولكنهم تلازموا وإياهم في تعظيم (العقل) لأنه كما قلت بضاعتهم الوحيدة، فهذا الرازي يتحدث كثيرًا عن العقل في كتبه. ويأتي بعده ابن سينا فيغلو في العقل إلى أن أطلقه على الله تبارك وتعالى. وأقربهم مودة إلى العقلانيين فيلسوف المغرب ابن رشد. إذن بعد موت المعتزلة لم تقم فرقة واحدة تدعو إلى إعلاء العقل على حساب غيره وإنما لم تخل الأمة من أفراد يرفعون أصواتهم بين الحين والآخر مطالبين بتلك الفكرة لأسباب متنوعة. ويحضرني منهم فيلسوف المعرة - كما يُسَمّى- الشاعر أبا العلاء المعري. وهو من ملاحدة الشعراء في كثرة اعتراضه على الشرع بل على الديانات كلها. وتمجيده للعقل والإيمان الإلهي المجرد يقول عنه

=

=

طه حسين (لا يؤمن إلا للعقل وحده فخالف بهذا أهل السنة لأنهم يقدسون الشرع على العقل وإن آمنوا به وخالف مذهب المعتزلة لأنهم على تقديسهم للعقل يتخذون الشرع لنظرهم أصلًا ودليلًا يعتزون به ويلجئون إليه). ويقول الدكتور عمر فروخ (يعتقد المعري أن من اتسع عقله لم يضل هذا إذا كان له عقل! أما إذا لم يكن له عقل فهو يعمل أعماله بالتقاليد أو يساق إليها كالعجماوات.

ولم يكتف المعري بأن يحكم العقل في الأمور التي جرت العادة بتحكيمه فيها بل أراد أن يكون العقل والفكر في أكثر الأغراض التي تناولها المعري في لزومياته حتى في العبادات وهو في كل ذلك يزدري شيئين ازدراءً شديدًا التقليد والأخبار المروية. ولذلك تراه يتلقى كل خبر مروي أو كل عادة شائعة بميزان العقل).

قلت: وهذا مصدق لما نبهتك عليه سابقًا من أن انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة كان صارفًا لبعض الجهلة في الحديث - كالمعري مثلًا - إلى إعظام دور العقل. فهو يقول ناصحًا للأمة:

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه... ولا يرجون غير المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك فإنه... ممتع كل من حجا بسراج

ويقف متحيرًا أمام بعض الأحاديث الضعيفة التي تخالف العقل فيقول:

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها... شأنًا ولكن فيها ضعف إسناد

فشاور العقل واترك غيره هدرًا... فالعقل خير مشير ضمه النادي

أي لا تتعب نفسك بدراسة علم الحديث ومصطلحه وإنما انبذ ذلك كله وشاور عقلك!.

ويقول:

عليك العقل وافعل ما رآه... جميلًا فهو مشتار الشوار

وهو الإمام والقائد للإنسان

=

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى} فِعْل {رَبّك كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ} مِنْ وَقْت الْإِسْفَار إِلَى

=

كذب الظن لا إمام سوى... العقل مقيمًا في صبحه والمساء

ويبلغ الغلو في تمجيد العقل عند هذا الملحد إلى أن ينزله منازل الأنبياء! كما صنع المعتزلة بالنصوص فهو يقول:

أيها الغِر إن خُصصت بعقل... فاسألنه فكل عقل نبي!

لم يكن أبو العلاء معتزليًا كما ذكر طه حسين، فهو عندما أشاد بالعقل وقدسه قد ذم المعتزلة في شعره كثيرًا وأعلن البراءة من مقولاتهم. خاصة قولهم بالقدر فهو يقول:

جنوا كبائر آثام وقد زعموا... أن الصغائر تجني الخلد في النار

وينصح سامعه بأن لا يكون منهم:

لا تعش مجبرًا ولا قدريًا... واجتهد في توسطٍ بين بينا

ويخبر عن نفسه أنه بمعزل عنهم:

ارجوا واعتزلوا فإني... عن مقالتكم بمعزل

أي كونوا مرجئة أو معتزلة فلست معكم. يقول الدكتور عمر فروخ (قد يعجب أحدنا فيقول إن المعري يهاجم المعتزلة مع أنهم يفضلون العقل على النقل كما يفعل هو. أجل إنه ليس معتزليًا وإن كان يرى رأي المعتزلة في تفضيل العقل على ما روي في الدين من أخبار وإنما هو يهاجم من المعتزلة أولئك الذين يضيعون أوقاتهم وأوقات غيرهم بالجدل العقيم لا الذين يحلون العقل مرتبة سامية). فهو يلتقي معهم في العقلانية دون أصولهم الأخرى. ودعاه إلى ذلك ما دعاهم فإن النفوس والأهواء واحدة.

وَقْت طُلُوع الشَّمْس {وَلَوْ شَاءَ} رَبّك {لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} مُقِيمًا لَا يَزُول بِطُلُوعِ الشَّمْس {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْس عَلَيْهِ} أَيْ الظِّلّ {دَلِيلًا} فَلَوْلَا الشَّمْس مَا عُرِفَ الظِّلّ.

ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦).

{ثُمَّ قَبَضْنَاهُ} أَيْ الظِّلّ الْمَمْدُود {إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} خَفِيًّا بِطُلُوعِ الشَّمْس[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ} [الفرقان: ٤٥]، أي:"ألم تر كيف مدَّ الله الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؟".

قال ابن قتيبة:"امتداد الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. كذلك قال المفسرون، ويدلك عليه أيضا قوله في وصف الجنة: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠]، أي: لا شمس فيه، كأنه ما بين هذين الوقتين".

قال ابن عباس:"يقول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

قال ابن عباس:"مدّه ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس".

قال عكرمة:"مدّه من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

قال سعيد بن جبير:"الظلّ: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

قال مجاهد:"ظلّ الغداة قبل أن تطلع الشمس".

قال الزجاج:"معنى {ألم تر}:ألم تعلم، وهذا من رؤية القلب، ويجوز أن يكون ههنا من رؤية العين، ويكون المعنى: ألم تر كيف مد الظل ربك! والأجود أن يكون بمعنى: ألم تعلم".

قال الفخر الرازي:"المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى، لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع".

=

=

قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا} [الفرقان: ٤٥]، أي:"ولو شاء لجعله ثابتًا مستقرًا لا تزيله الشمس".

قال مقاتل:"يقول- تبارك وتعالى- لو شاء لجعل الظل دائما لا يزول إلى يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: ولو شاء لجعله دائما لا يزول، ممدودا لا تذهبه الشمس، ولا تنقصه".

قال ابن قتيبة:"أي: مستقرا دائما حتى يكون كظل الجنة الذي لا تنسخه الشمس".

عن ابن عباس، قوله: "{وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا}، يقول: دائما".

قال ابن زيد:"دائما لا يزول".

قال مجاهد:"لا تصيبه الشمس ولا يزول".

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا} [الفرقان: ٤٥]، أي:"ثم جعلنا الشمس علامة يُستَدَلُّ بأحوالها على أحواله".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناس بنسخ الشمس إياه عند طلوعها عليه، أنه خلْق من خلق ربكم، يوجده إذا شاء، ويفنيه إذا أراد".

قال ابن قتيبة:"يقول: لما طلعت الشمس دلت عليه وعلى معناه. وكلّ الأشياء تعرف بأضدادها، فلولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة، ولولا الحق ما عرف الباطل. وهكذا سائر الألوان والطّعوم، قال الله ﷻ: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]، يريد به ضدين: ذكرا وأنثى، وأسود وأبيض، وحلوا وحامضا، وأشباه ذلك".

قال ابن كثير:"أي: لولا أن الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده".

قال أبو مالك:"قبضه حين تطلع".

=

=

قال الحسن:"القبض للظل".

عن ابن عباس، قوله: "{ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا}، يقول: طلوع الشمس".

عن مجاهد:"{ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا}، قال: تحويه".

قال ابن زيد:"أخرجت ذلك الظل فذهبت به".

قوله تعالى: {ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} [الفرقان: ٤٦]، أي:"ثم تَقَلَّصَ الظل يسيرًا يسيرًا".

قال ابن كثير:"أي: الظل، وقيل: الشمس. {يسيرا} أي: سهلا".

قال الطبري: يقول:"ثم قبضنا ذلك الدليل من الشمس على الظلّ إلينا قبضا خفيا سريعا بالفيء الذي نأتي به بالعشيّ".

قال ابن قتيبة:"يعني: الظّل الممدود بعد غروب الشمس، وذلك أنّ الشمس إذا غربت عاد الظل الممدود، وذلك وقت قبضه".

قال الصابوني: أي:"أزلنا هذا الظلَّ شيئًا فشيئًا، وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لئلا تختل المصالح".

عن مجاهد، قوله: "{ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}، قال: حوى الشمس الظلّ".

وفي قوله تعالى: {قَبْضًا يَسِيرًا} [الفرقان: ٤٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: سريعًا، قاله ابن عباس.

الثاني: سهلًا، قاله أبو مالك.

الثالث: خفيًا، قاله مجاهد، والسدي، ومقاتل، وبه قال ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"لأن الظل بعد غروب الشمس لا يذهب كلّه دفعة واحدة، ولا يقبل الظلام كلّه جملة، وإنما يقبض الله جلّ وعز ذلك الظل قبضا خفيّا شيئا بعد شيء، ويعقب كلّ جزء منه يقبضه بجزء من سواد الليل حتى يذهب كلّه، فدلّ الله ﷻ بهذا الوصف على قدرته ولطفه في معاقبته بين الشمس والظل والليل، لمصالح

=

=

عباده وبلاده".

قال السدي:"يقول: قبضا خفيا حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت ما فوقه".

قال مجاهد:"إن ما بين الشمس والظلّ مثل الخيط".

الرابع: هينا خفيا. قاله الفراء.

الخامس: معناه: قليلا قليلا. قاله أيوب بن موسى.

قال الطبري:"اليسير: الفعيل، من: اليسر، وهو السهل الهين في كلام العرب. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك، يتوجه لما روي عن ابن عباس ومجاهد؛ لأن سهولة قبض ذلك قد تكون بسرعة وخفاء".

قال الربيع بن أنس:"الظل فيما بين طلوع الفجر إلى أن تطلع الشمس فيما ذلك كله ظل ثم جعلت الشمس عليه دليلا، ثم قبضه الرب تعالى قبضا يسيرا حتى إذا زالت الشمس على نصف النهار كان في انتقاص إلى أن تغرب الشمس قال: إن النهار اثنا عشر ساعة، فأول الساعة ما بين طلوع الفجر إلى أن ترى شعاع الشمس، ثم إن الساعة الثانية إذا رأيت شعاع الشمس إلى أن يضئ الإشراق، عند ذلك لم يبق من قرونها شيء وصفى لونها قال: فهو فيما سمعنا إذا كنت في أرض مستوية أو في مكان لا يحول بينك وبينها شيء فإذا كانت بقدر ما تريك عينك قيد رمحين فذلك أول الضحى وذلك أول ساعة من ساعات الضحى. ثم من بعد ذلك الضحى ساعتين ثم ساعة السادسة حين نصف النهار، فإذا زالت الشمس، عن نصف النهار فتلك ساعة صلاة الظهر وهي التي قال الله:

{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْس}، ثم من بعد ذلك العشي ساعتين ثم أن الساعة العاشرة هي ميقات صلاة العصر قال: وهي الآصال. قال الله ﷻ: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، ثم بعد ذلك ساعتين إلى الليل".

=

=

قال العثيمين: لما ذكر الله ﷻ الذين كذبوا الرسل السابقين، وما أحل الله بهم من العذاب والعقوبة، أراد ﷻ أن يبين شيئا من آياته يدل على قدرته ووحدانيته، فقال: {ألم تر}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [تنظر {إلى} فعل ربك {كيف مد الظل}]، إلى آخره.

أولا: كلمة {ألم تر} الاستفهام للتقرير؛ كقول الله سبحانه وتعالى: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١]، وقوله: {ألم نهلك الأولين} [المرسلات: ١٦]، وما أشبه ذلك من الأمثلة، ويقدر بعض العلماء مثل هذا التركيب بقوله: قد فعلنا ذلك، قد رأيت ذلك، فمثلا {ألم تر} يعني أنك رأيت ذلك، وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [تنظر] فسر الرؤية بالرؤية البصرية، مع أنه يحتمل أن تكون رؤية بصرية ورؤية بصيرة، يعني رؤية علمية، أي تعلم هذا الأمر الذي سيذكر.

والخطاب في قوله: {ألم تر} هل هو للنبي عليه الصلاة والسلام أو لكل ما من شأنه أن يخاطب؟

الجواب: أنه لكل من من شأنه أن يخاطب؛ النبي عليه الصلاة والسلام وغيره؛ لأنه كما أسلفنا في القاعدة التفسيرية أنه كلما كانت الآية أدل على العموم كان القول به أولى، وأنه لا ينبغي أن تجعل خطابات القرآن للخصوص إلا بدليل يمنع العموم، يعني {ألم تر} أيها الإنسان {كيف مد الظل}، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قدر مضافا فقال: [{إلى} فعل {ربك}] لأنه ليس المراد أن ينظر الإنسان إلى الله ﷻ بذاته، إنما المراد أن ينظر إليه من هذه الحيثية، فيكون مصب النظر هو الفعل.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كيف مد الظل} من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس]، هذا تفسير للظل، وليس تفسيرا للمد، فالظل من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس، وسمي ظلا لأنه ذو نور، ولكنه بدون شعاع شمس، فكان ظلا، وهذا هو الذي فسره به ابن عباس وغيره، وعليه جمهور المصنفين؛ أن الظل

=

=

ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ لأنه كما قلنا: نور بدون شعاع، ومده يعني تطويله، لأن الفرق بين هذا وهذا معروف، ولكن أي شيء يكون فيه من آيات الله؟ قوله: {ولو شاء لجعله ساكنا} يعني غير ممدود، بحيث تطلع الشمس مباغتة بدون مد، والواقع بخلاف ذلك، بل هو ممتد، وكونه لا يزول بطلوع الشمس هذا غير ممكن، ولذلك يقول في تفسير الجمل في تفسير قول المصنف: [مقيما لا يزول بطلوع الشمس]: (بألا تطلع الشمس)، ليس المعنى تطلع ولا يزول؛ وذلك لأن زواله بطلوع الشمس، فإذا طلعت فلا بد أن يزول، المعنى أن النفي مسلط على قوله: [بطلوع الشمس]، فمعنى قوله: {ولو شاء لجعله ساكنا} أي أن الشمس لا تطلع، ويبقى باستمرار، يعني يبقى الأمر لا ليل ولا نهار، إسفار بدون شمس.

فكلام صاحب الجلالين يصح بأن نجعل النفي مسلطا على قوله بطلوع الشمس، يعني فلا تطلع الشمس. على كل حال المعنى مفهوم الآن؛ لو شاء لجعله ساكنا فلا تطلع الشمس، أو إن صح أن يقال: لو شاء لجعله ساكنا فتطلع الشمس غير مضيئة، وهذا خلاف المعهود أن تطلع غير مضيئة، ولكن الله قادر على أن يخرجها غير مضيئة، كما يعلم ذلك في الكسوف.

فالحاصل: أن السكون الآن يفسر بحسب ما يفسر به الظل. هذا أحد الأقوال في تفسير الظل.

والقول الثاني في الظل: أن المراد به الليل كله، وأن المراد بمده تطويله، {ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا} بمعنى بعد أن كان طويلا كان ينقص شيئا فشيئا، فيكون في هذا إشارة إلى تغير الفصول؛ لأن الفصول تتغير بتغير الليل والنهار.

والقول الثالث: أن المراد بالظل ظل كل شاخص إذا طلعت الشمس، فإن الله تعالى يمده ثم يقبضه شيئا فشيئا، {ولو شاء لجعله ساكنا} فتكون الشمس مستقرة

=

=

ثابتة في مكان لا ترتفع ولا تنخفض.

فالآن صار المراد بالظل على الخلاف ثلاثة آراء؛ إما أنه ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [من وقت الإسفار] لأجل أن يتحقق الظل. أو أنه الليل كله، ويكون مده تطويله ثم ينقص، ففي هذا من قدرة الله تعالى: تغير الفصول بسبب طول الليل وقصره. أو أن المراد به ظل كل شاخص، فإنه أول ما تطلع الشمس يكون الظل طويلا ممدودا، ثم يقبض شيئا فشيئا، {ولو شاء} الله سبحانه وتعالى {لجعله ساكنا}، والسكون هنا يختلف معناه بحسب اختلاف معنى الظل، فإذا قلنا: المراد بالظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، كان المراد بالسكون أن الشمس تخرج دفعة واحدة بدون أن يكون ظلها شيئا فشيئا، وإذا قلنا: إن المراد به الليل كان المراد بسكونه أن يبقى الليل دائما، لا يزيد ولا ينقص، وإذا قلنا: إن المراد بالظل ظل الشاخص، صار المراد بسكونه أن الشمس لا تتحرك، وتبقى في مكان واحد، ويكون الظل ساكنا، لا يزيد ولا ينقص، ففي كون الله سبحانه وتعالى قادرا على هذا وهذا دليل على كمال قدرته ووحدانيته في التفرد؛ لأنه لو كان معه إله آخر لم يكن له المشيئة المطلقة في هذا وفي هذا.

ثم فيه أيضا من نعمة الله سبحانه وتعالى على العباد في اختلاف هذا الظل ما هو معلوم؛ لأننا لو قدر أن الشمس تخرج هكذا بغتة بعد ظلام دامس فقد يؤثر النور الساطع في المواشي في إبصارها، وفي بني آدم، وفي الأشجار والنبات، بخلاف ما إذا كان الشيء يأتيها تدريجيا، وكذلك أيضا لو كان الليل والنهار دائما لا يزيد أحدهما ولا ينقص، لم يكن في ذلك اختلاف في الفصول، ولم يكن في ذلك اختلاف في الأشجار؛ لأن كثيرا من الأشجار تختلف ثمارها وإيناعها بحسب اختلاف الفصول.

كذلك أيضا إذا قلنا بأن الظل ظل كل شاخص؛ فإن كون الشمس تدور وتختلف

=

=

الأفياء والأظلة بحسب سيرها هو أيضا من نعمة الله سبحانه وتعالى ومن تمام قدرته.

فالحاصل: أن هذا الأمر الذي قرر الله تعالى بأننا ننظر إليه في كل وقت دال على أمرين: تمام القدرة، وتمام الرحمة؛ لأنه متضمن لهما.

إذا قال قائل: ما الذي تختارون من هذه الأقوال؟

نقول: ما دام أن هذه المعاني لا تتنافى، فالواجب أن تحمل الآية على الجميع، وهذه قاعدة قررناها سابقا، وهي قد قررت أيضا من قبلنا، قررها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بأنه إذا كانت الآية تحتمل المعاني المذكورة فيها، فالواجب أن تحمل على كل هذه المعاني؛ لأن كلام الله سبحانه وتعالى لا يحيط به شيء.

لو قال قائل: ما الفرق بين الظل والفيء؟

هذه الفائدة قد سبقت، والفرق بينهما: أن الفيء ما نسخ الشمس، والظل ما نسخته الشمس، مثل قولنا: الظل ما قبل الزوال، والفيء ما بعد الزوال؛ لأن الظل الذي قبل الزوال الذي يزيله وينسخه الشمس، والفيء الذي بعد الزوال ينسخ الشمس؛ لأنه يمتد، وكلما امتد إلى شيء أزال ضوء الشمس عنه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم جعلنا الشمس عليه} أي على الظل {دليلا}]، قوله: {ثم جعلنا} الجملة الفعلية هذه هل هي معطوفة على قوله: {لجعله ساكنا}، أو على قوله {مد}: {كيف مد الظل} {ثم جعلنا الشمس}؟

فالجواب: معطوفة على قوله: {مد الظل}؛ لأن قوله {ثم جعلنا الشمس عليه دليلا} لو جعل معطوفا على {لجعله ساكنا} لكانت الشمس ليست دليلا عليه، والأمر بخلاف ذلك، فالمعنى يفسد، فهي إذن معطوفة على قوله: {مد الظل}، يعني: وكيف جعلنا الشمس عليه دليلا، ولكن فيه التفاتا من الغيبة إلى التكلم؛ لأنه قال: {ثم جعلنا}، ولم يقل (ثم جعل). وقوله: {الشمس عليه دليلا} يعني

=

=

على الظل، وكيف كانت دليلا على الظل؟ يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلولا الشمس ما عرف الظل]، المراد بالظل هنا الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى، ليس ظل الأنوار حيث يضع الإنسان له كشافا، ويكون له ظلال؛ لأن هذا الظل الذي يكون من مصباحي أنا ومصباحك أنت هذا ظل نسبي، حتى ظل الشاخص إذا جعلناه هو الأنوار؛ لأنه ليس المقصود معرفة الظل الذي يكون بمجرد تسلط ضوء على جسم، المراد الظل العام الذي يعم كل الناس، وهذا لا يمكن إلا بجعل الشمس وحدها هي الدليل عليه، لكن قد يقول قائل: القمر أيضا دليل عليه؟ فنقول: إن نور القمر مستفاد من نور الشمس، وليس مستقلا بالإضاءة، فالذي يدل على الظل أصلا هي الشمس.

قوله: {ثم جعلنا الشمس عليه دليلا} جعل الشمس دليلا على الظل فيه دليل ليس على مجرد وجود الظل، بل دليل على ما فيه من المصالح، وهي أيضا مدلول عليها به، فالشمس الآن يستدل بها على ما في الظل من المصالح، ويستدل بالظل على ما فيها من المصالح أيضا؛ لأن غيوب الشمس عن الأرض قد يؤثر، وبقاءها دائما على وجه الأرض قد يؤثر، مثل قول الله سبحانه وتعالى: {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون} [القصص: ٧١ - ٧٢]، فكون هذا دليلا على هذا، وهذا دليلا على هذا؛ هو أيضا من رحمة الله؛ لأنه لولا الشمس ما عرفنا فائدة الظل، ولولا الظل ما عرفنا فائدة الشمس، فكل منهما في الحقيقة دال ومدلول.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم قبضناه} أي الظل الممدود إلينا {قبضا يسيرا} خفيا بطلوع الشمس].

=

=

قوله: {قبضا يسيرا} هل المراد باليسير هنا صفة للفعل، يعني أن قبضنا إياه يسير علينا؛ كقوله سبحانه وتعالى: {ذلك حشر علينا يسير} [ق: ٤٤]، أو أن المراد بقوله: {يسيرا} يعني أن القبض كان شيئا فشيئا؟

الأخير أظهر، وهو المتبادر؛ أن الله تعالى قبض هذا الظل قبضا يسيرا، شيئا فشيئا، وهو منطبق على كل التفسيرات السابقة.

إذا قلنا: الظل ما بين طلوع الفجر أو ما بين وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس، فإنه يقبض هذا الظل شيئا فشيئا، لا يزال النور يسطع تدريجيا حتى تطلع الشمس. هذه واحدة.

إذا قلنا: المراد به الليل؛ فهو أيضا يقبض شيئا فشيئا، يعني لا يكون الليل في هذا اليوم اثني عشرة ساعة، ويكون تسع ساعات في اليوم الذي يليه، وإنما يقبض شيئا فشيئا.

كذلك إذا قلنا: إن المراد بالظل ظل الشاخص، فهو نفس الشيء، إنما يتناقص شيئا فشيئا، وليس في الآية إشكال سوى قوله: {ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا}، {إلينا} هذه الغاية فيها إشكال؛ لأنه كان من الممكن أن يقتصر على قوله: ثم قبضناه قبضا يسيرا، فما الحكمة من هذه الغاية في قوله سبحانه وتعالى: {قبضناه إلينا قبضا يسيرا}؟

بعضهم يرى أن الضمير في قوله: {قبضناه} أي الشمس، باعتبارها دليلا {ثم جعلنا الشمس عليه دليلا}، أي: قبضنا هذا الدليل {إلينا قبضا يسيرا}.

وعلى كل حال يوجد احتمال أن المراد من جعل الغاية إلى الله سبحانه وتعالى إشارة إلى أنه هو المتصرف به، وأنه لا أحد يستطيع أن يتصرف بخلاف ذلك.

ويوجد احتمال أنه يجعل المراد بقوله: {قبضناه إلينا} يعني الدليل، أي الشمس، ويكون المراد بالقبض إليه ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله في

=

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧).

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْل لِبَاسًا} سَاتِرًا كَاللِّبَاسِ {وَالنَّوْم سُبَاتًا} رَاحَة لِلْأَبْدَانِ بِقَطْعِ الْأَعْمَال {وَجَعَلَ النَّهَار نُشُورًا} مَنْشُورًا فِيهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْق وغيره(١).

=

حديث أبي ذر: "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش".

ويوجد احتمال ثالث ذهب إليه الزمخشري، وقال: إن المراد بالقبض هنا ما ذكره الله بقوله: {إذا الشمس كورت (١) وإذا النجوم انكدرت} [التكوير: ١ - ٢]، وإن المراد به قبض هذه النيرات؛ الشمس وغيرها يوم القيامة، وجعل اليسير ليس صفة للقبض، يعني أنه يكون شيئا فشيئا، بل هو صفة للفعل؛ لفعل الله، يعني أنه يسير عليه كقوله تعالى: {ذلك حشر علينا يسير} [ق: ٤٤]، لكن الأخير بعيد؛ لأن الله تعالى إنما يمتن بذلك على أمر يدرك الناس فائدته في الدنيا، وتمام قدرة الله تعالى فيه، فيكون على هذا إما أن يقال: إن الغاية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى إشارة إلى أن ذلك من تصرفه وحده، وأن الأمر إليه وحده، لا إلى غيره، فيكون دليلا على عظمة الله سبحانه وتعالى، أو أن المراد بالقبض إليه أن الشمس تقبض إلى الله، بمعنى أنها تذهب وتسجد تحت العرش؛ كما جاء به الحديث عن النبي ﷺ.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا} [الفرقان: ٤٧]، أي:"والله تعالى هو الذي جعل لكم الليل ساترًا لكم بظلامه كما يستركم اللباس".

قال السدي:"يعني: سكنا يسكن فيه الخلق".

قال القرطبي:"يعني: سترا للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن".

قال الطبري:"لأنه جعله لخلقه جنة يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يسترون به، كما يسترون بالثياب التي يُكسونها".

=

=

قال الزجاج:"أي: تسكنون فيه وهو مشتمل عليكم".

قال ابن كثير:"أي: يلبس الوجود ويُغَشيه، كما قال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، وقال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس: ٤]".

قال السعدي:"أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه وتهدؤوا بالنوم".

قوله تعالى: {وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} [الفرقان: ٤٧]، أي:"وجعل النوم راحة لأبدانكم".

قال الطبري:"يقول: وجعل لكم النوم راحة تستريح به أبدانكم، وتهدأ به جوارحكم".

قال القرطبي:"أي: راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال".

قال ابن كثير:"أي: قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعايش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا".

قال السعدي: "فلولا الليل لما سكن العباد ولا استمروا في تصرفهم فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم".

وفي قوله تعالى: {وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} [الفرقان: ٤٧]،، وجوه:

أحدها: أن أصل «السبات»: التمدد. يقال: سبتت المرأة شعرها، أي نقضته وأرسلته، ورجل مسبوت، أي: ممدود الخلقة. وقيل: للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. حكاه القرطبي.

الثاني: أن «السَّبت»: الإقامة في المكان، فكأن السبات السكون عن عن الاضطراب والحركة، فالإنسان مسبوت فيه لايعقل كأنه ميت، وهذا معنى قول يحيى بن سلام، ومقاتل.

وقال أبو عبيدة:"رجل مسبوت، فيه روح".

=

=

الثالث: أن «السَّبت»: القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال، ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. قاله ابن الأعرابي، وابن قتيبة، والزجاج.

وقال ابن الأعرابي: في قوله: {سباتًا}، أي:"قطعًا، والسَّبت: القطع، كأنه إذا نام فقد إنقطع عن الناس".

قال السمعاني:"النائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله مع بقاء الروح فيه".

قال الزجاج:"«السبات»: أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه، أي: جعلنا نومكم راحة لكم".

قال ابن قتيبة:"فليس «السّبات» -هاهنا-: النوم، فيكون معناه: وجعلنا نومكم نوما، ولكن السّبات: الراحة، أي: جعلنا النوم راحة لأبدانكم. ومنه قيل: يوم السبت، لأن الخلق اجتمع في يوم الجمعة، وكان الفراغ منه يوم السبت، فقيل لبني إسرائيل: استريحوا في هذا اليوم، ولا تعملوا شيئا، فسمّي يوم السبت، أي يوم الراحة. وأصل السبت: التّمدّد، ومن تمدّد استراح. ومنه قيل: رجل مسبوت، ويقال: سبتت المرأة شعرها: إذا نقضته من العقص وأرسلته. قال أبو وجزة السّعدي:

وإن سبّتته مال جثلا كأنّه... سدى وأثلاث من نواسج خثعما

ثم قد يسمى النوم سباتا، لأنه بالتمدّد يكون. ومثل هذا كثير".

وقال ابن الانباري:"لا يقال للراحة سبات، ولا يقال: سبت بمعنى استراح، ومعنى الآية: وجعلنا نومكم قطعًا لأعمالكم؛ لأن أصل السبت القطع".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٧]، أي:"وجعل لكم النهار؛ لتنتشروا في الأرض، وتطلبوا معايشكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وجعل النهار يقظة وحياة من قولهم: نَشر الميتُ، كما قال الأعشى:

=

=

حَتى يقُولَ النَّاسُ مِمَّا رأَوْا... يا عَجَبا للْمَيِّتِ النَّاشِر".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٧]، وجهان:

أحدهما: لانتشار الروح باليقظة فيه، مأخوذ من: النشر والبعث، هو بالنشر من الموت والنوم أشبه. ومنه قوله-ﷺ-: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». وهذا قول ابن جرير الطبري.

الثاني: لانتشار الناس في معايشهم، قاله مجاهد، وقتادة، وبه قال ابن كثير.

قال قتادة:"لمعايشهم ولحوائجهم ولتصرفهم".

وقال السدي:"يتفرقون فيه يبتغون الرزق".

قال ابن كثير:"أي: ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: ٧٣].

قال السعدي: "جعل النهار نشورا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هو الذي جعل لكم الليل لباسا} ساترا كاللباس {والنوم سباتا} راحة للأبدان بقطع الأعمال، {وجعل النهار نشورا} منشورا فيه لابتغاء الرزق وغيره]، هذا أيضا من النعم التي لا يستطيع أحد أن يأتي بها إلا الله.

قوله: {وهو الذي جعل لكم} (اللام) للتعليل، أي: من أجلكم، جعل من أجلكم الليل لباسا، ومعنى لباسا ساترا كاللباس، وذلك لظلامه، ولهذا الإنسان ربما يخرج في الليل بثياب لا يستطيع أن يخرج بها في النهار، فربما يخرج بثياب ليأتي بحوائج في الليل لا يستطيع أن يخرج بها في النهار؛ لأن الليل يستر، فهو لبأس، وهل هو لباس للأرض أو لبأس لنا؟ للجميع؛ لأنه يكسو الأرض ويكسو الإنسان

=

=

في الواقع، فهو كاس للأرض وكاس أيضا للإنسان.

وقوله: {والنوم سباتا} السبت بمعنى القطع، والمصنف فسره بالراحة، وهو من باب تفسير الشيء بلازمه، وإلا فهو قطع لتعب البدن، ولذلك يكسب البدن راحة، ففيه هذه الفائدة العظيمة؛ أنه يقطع التعب السابق، وليس كما قال المصنف: [بقطع الأعمال]، وقصده رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإنسان إذا نام لا يعمل، هذا وجه كونه سباتا، ولكننا نقول: ليس كذلك، ليس قطعا للأعمال؛ لأن الإنسان قد يقطع أعماله وهو يقظان، أي مع وجود الصحو واليقظة، ولكنه يقطع التعب كما هو مشاهد، فالإنسان يكون متعبا ثم ينام، فإذا نام انتقض تعبه، فهو في الحقيقة قطع للتعب الماضي وتجديد للنشاط المستقبل.

قوله: {وجعل النهار نشورا} يعني محلا للنشور، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [منشورا فيه] يعني أن النهار محل النشور وابتغاء الرزق، وغيره من الأعمال، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى، ولا يرد على هذا ما نحن فيه اليوم من كون الليل ليس لباسا؛ لأن هذا أمر طارئ بسبب الأنوار المحدثة التي صنعها الإنسان، هذه الأنوار لو فاتت لعاد الظلام على الأرض، ثم إن هذا النور والإضاءة الذي يمنع كون الليل لباسا ليس بعام في الواقع، بل هو أمر نسبي، ثم هو أيضا ضعيف لا يشمل الظل، فالظل الذي يحدث ضوء هذه الشمعة مثلا يكون أسود لباسا.

وكذلك أيضا قوله سبحانه وتعالى: {وجعل النهار نشورا} لا يرد عليه بعض الحالات الطارئة؛ كالحراس مثلا، فالحراس ينامون بالنهار وبالليل، فهم يعملون، لكن هذه الأمور نادرة، والنادر لا يقطع القواعد، فالقواعد لا يمكن أن تنخرم بالأمور النادرة، إنما الكلام على العام.

هذا أيضا من نعمة الله سبحانه وتعالى، فهل أحد يستطيع لو لم يجعل الله الليل أن يأتي بالليل؟ لا أحد يستطيع، يعني لو اجتمع الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم

=

=

بجميع صنائعهم ما استطاعوا أن يأتوا بن صف ليل ولا بساعة من ليل، كذلك أيضا النوم، هل يستطيع أحد أن ينوم أحدا؟ أبدا لا يستطيع، وحبوب النوم هذه لا ترد علينا؛ لأن الإنسان الذي يعطي حبوب النوم، ويقول: أنا استطيع أن أنوم الإنسان بإعطائه جرعات النوم، نقول: هذا مثل الذي قال لإبراهيم: {أنا أحيي وأميت} [البقرة: ٢٥٨]، فإن هذا الذي يعطي جرعات النوم ليس هو الذي ينوم، وإنما يفعل السبب الذي يكون به النوم، أرأيت لو أن الله تعالى جعل هذا الجسم غير قابل للنوم، هل تستطيع هذه الجرعات أن تنومه؟ لا، إذن فالنوم لا يستطيع أحد أبدا أن يأتي به إلى بدن الإنسان، وحتى لو أتى به مثلا فقد يأتي به ولا يكون قاطعا للتعب، ولهذا امتن الله سبحانه وتعالى به على العباد، وهو أمر لا يستطيع أحد فعله. كذلك جعل النهار نشورا، من يستطيع أن يخلع هذا اللباس؛ لباس الليل، حتى يكون الإسفار وينتشر الناس في مصالحهم؟

الجواب: لا أحد يستطيع سوى الله ﷻ، ولهذا امتن الله ﷻ على عباده بهذه الأمور الثلاثة؛ بالنوم والليل والنهار.

إذا قال قائل: إن الله سبحانه وتعالى جعل الليل لباسا، وجعل النهار نشورا، وجعل النوم سباتا، محل النوم هل هو في الليل أو في النهار؟

الأصل أنه في الليل، لكن قد يكون في النهار أيضا، فقد يتعب الإنسان في النهار وينام ثم يستريح؛ كوقت القائلة مثلا، ولذلك لا يقول قائل: إن الله ﷻ ذكر نعمتين في الليل ونعمة واحدة في النهار، بل نقول: إن الله ذكر في الليل نعمة، وهو كونه: {لباسا}، وفي النهار نعمة، وهو كونه: {نشورا}، وجعل في النوم مطلقا نعمة، وهو أنه سبات، يعني قاطعا للتعب.

لو قال قائل: هل النوم بكل أنواعه قاطع للتعب؟

نقول: نعم النوم الطبيعي الذي من خلقة الإنسان، فأما النوم الذي يحدث بسبب

=

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨).

{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاح} وَفِي قِرَاءَة الرِّيح {نشورا بَيْن يَدَيْ رَحْمَته} مُتَفَرِّقَة قُدَّام الْمَطَر وَفِي قِرَاءَة بِسُكُونِ الشِّين تَخْفِيفًا وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَنُون

=

المرض -لأن الإنسان قد يمرض فيكثر معه النوم- فالظاهر أنه لا يدخل في الآية.

لو قال قائل: بعض الناس لا يرتاح إذا نام بعد الفجر؟

الجواب: الظاهر أنه أمر نسبي، وبعض الناس يرتاح له كثيرا، وأنا إذا لم أنم قبل أن آتي ما استطعت أن أعمل، ولكنت أنام دائما، مثلما جربناه فيما سبق، والنوم يتعب أكثر ما يتعب إذا كان الإنسان ممتلئ البطن، فإذا نام ممتلئ البطن فيمكن أن يتعب، لكن الكلام على العموم من حيث هو.

لو قال قائل: هل النوم في بعض الأوقات مكروه؟

شرعا لا أدري إلا أن نقول: يكره النوم قبل صلاة العشاء؛ لسبب شرعي، لا سبب جسمي، وأما نوم العصر فهم يقولون قول الشاعر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى ... خبالا ونومات العصير جنون

وهذا ليس بصحيح، كثير من الناس ينامون بعد العصر باستمرار، ولم يصابوا بجنون، ولا قيل: إنهم مجانين، وإذا أشغل عن ذكر يمكن أن يقضيه الإنسان، لأن الإنسان أحيانا لا يستطيع أن ينام في نصف النهار، وأيضا لا يستطيع أن يبقى إلى الليل، فلا بد أن ينام بعد العصر.

لو قال قائل: حديث: "قيلوا فإن الشياطين لا تقيل" هل هو صحيح؟

ما أظنه حديثا، والظاهر أنه حديث عامة، والعوام أيضا يقولون: (أقل فإن الشياطين لا تقل) فيحذفون الياء.

مَفْتُوحَة مَصْدَر وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَضَمّ الْمُوَحَّدَة بَدَل النُّون أَيْ مُبَشِّرَات وَمُفْرَد الْأُولَى نَشُور كَرَسُولٍ وَالْأَخِيرَة بَشِير {وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاء مَاء طَهُورًا} مُطَهَّرًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الفرقان: ٤٨]، أي:"وهو الذي أرسل الرياح التي تحمل السحاب، تبشر الناس بالمطر رحمة منه".

قال الطبري: يقول:"والله الذي أرسل الرياح الملقحة {بشرا}: حياة أو من الحيا والغيث الذي هو منزله على عباده".

قال بحبى:"تلقح السحاب بين يدي المطر".

قال السعدي: "أي: هو وحده الذي رحم عباده وأدر عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهو المطر فثار بها السحاب وتألف وصار كسفا وألقحته وأدرته بإذن آمرها والمتصرف فيها ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة".

قال ابن كثير:"وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّرا، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر".

قال الزمخشري:"{بين يدي رحمته}، استعارة مليحة، أى: قدام المطر".

وقرئ: «الريح».

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} [الفرقان: ٤٨]، أي:"وأنزلنا من السماء ماء يُتَطَهَّر به".

=

=

قال الطبري: "يقول: وأنزلنا من السحاب الذي أنشأناه بالرياح من فوقكم أيها الناس ماء طهورا".

قال ابن كثير:"أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فعول بمعنى فاعل، أو: إنه مبني للمبالغة أو التعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم".

قال السعدي: "يطهر من الحدث والخبث ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتا فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام".

قال السدي:"للمؤمنين يتطهرون به من الأحداث والجنابة".

عن ثابت البناني قال: "دخلت مع أبي العالية في يوم مطير، وطرق البصرة قذرة، فصلى، فقلت له، فقال: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} قال: طهره ماء السماء".

عن سعيد بن المسيب في هذه الآية: "{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا}، قال: أنزله الله ماءً طاهرًا لا ينجسه شيء".

وعن أبي سعيد قال: "قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟ - وهي بئر يُلقَى فيها النَّتَن، ولحوم الكلاب - فقال: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»".

قال الزجاج:"كل ماء نزل من السماء أو خرج من بحر أو أذيب من ثلج أو برد فهو طهور، قال ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»".

قال الزمخشري:"لما كان سقى الأناسى من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراما لهم، وتتميما للمنة عليهم، وبيانا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم".

=

=

قال العثيمين: هذه الآية فيها عدة قراءات: أولا (الرياح) فيها قراءتان سبعيتان، والدليل أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال: وفي قراءة، فهي سبعية، وإذا قال: وقرئ فهي شاذة، ففيها قراءتان: (الرياح) و (الريح)، وبهذا نعرف أن ما اشتهر من قولهم: إن الريح لا تكون إلا في العذاب، والرياح تكون في الرحمة، ليس على إطلاقه، وأنه قد يؤتى بالريح مفردا في ريح الرحمة، لكنه له قرينة، فهنا لما قال: {بين يدي رحمته} عرفنا أنها ريح رحمة، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح} ماذا بعدها {طيبة} [يونس: ٢٢]، هذه ريح رحمة، لكنها وصفت، فأما عند الإطلاق فالغالب أن الريح للعذاب.

وقوله: {بشرا} فيه عدة قراءات: أولا (نشرا) بضم النون والشين، ومعنى نشرا يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [متفرقة]، يعني أنها تكون أحيانا جنوبا، وأحيانا شمالا، وأحيانا غربا، وأحيانا شرقا، وبهذا التفرق يتولد السحاب ثم المطر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءة بسكون الشين تخفيفا: نشرا]، وقوله (تخفيفا) يعني أنها لا يتغير بها المعنى، وإنما تسكن للتخفيف.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أخرى بسكونها وفتح النون مصدرا]، (نشرا) حينئذ يتغير المعنى. (نشرا) و (نشرا) معناهما واحد لا يختلف؛ لأن التسكين للتخفيف، لكن (نشرا) يعني ينشرها نشرا، هذه مختلفة، تكون مصدرا.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي أخرى: بسكونها وضم الموحدة بدل النون]، سكون الشين وضم الموحدة بدل النون، وهي (بشرا)، والموحدة هي (الباء)، وهذه هي القراءة المشهورة، ومعنى (بشرا) على هذا أي مبشرات، يعني هي تبشر وليست مصدرا وأن الله يبشر بها، وإنما هي نفسها بشرا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ومفرد الأولى نشور؛ كرسول]، الأولى "نشرا" كرسول ورسل، ورسول ورسل، هذا مفرد الأولى ما لم تكن مصدرا، وهي "نشرا"، فإن

=

=

كان مصدرا فهي مفرد وليست جمعا، والأخيرة "بشرا" يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [والأخيرة مفردها بشير]، صارت القراءات في هذه الكلمة أربعا: "نشرا" و"نشرا" و"نشرا" و"بشرا" وهذا من إعجاز القرآن.

وفائدة اختلاف القراءات أن يؤخذ من كل قراءة معنى، وعلى هذا فتكون الرياح الآن جامعة بين كونها بشارة وكونها منشورة متفرقة بين يدي المطر.

وقوله: {بين يدي رحمته} المراد بالرحمة هنا المطر، أو آثاره، وهذه رحمة مخلوقة، لأن الرحمة المضافة إلى الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين؛ رحمة هي صفته، فهي غير مخلوقة، ورحمة هي من آثار الصفة، فهي مخلوقة، فقوله سبحانه وتعالى للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء" هذه مخلوقة، وقوله: {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: ١٥٦]، هذه الصفة التي ليست مخلوقة. فإذن الرحمة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين؛ مخلوقة، وسميت رحمة لأنها من آثار الرحمة، وغير مخلوقة، وهي صفته، والتي معنا في قوله: {بشرا بين يدي رحمته} هل هي المخلوقة أو غير المخلوقة؟ يحتمل أن قوله: {بين يدي رحمته} معناه إذا أراد أن يرحم، فتكون من غير المخلوقة، ويحتمل {بين يدي رحمته} بين يدي المطر نفسه، فتكون الرحمة هنا مخلوقة؛ لأن إطلاقها على المطر يقتضي ذلك، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فسرها على أنها الرحمة المخلوقة؛ لأنه قال: [قدام المطر].

وقوله: {وأنزلنا} من المعروف أن الذي يكون به المطر بإذن الله هي الرياح الجنوبية، ولذلك يقولون لنا: إن الأولين من آبائنا وأجدادنا إذا هبت الريح الجنوبية أوضعوا السواني وقالوا: الآن يأتي المطر، ولا حاجة لأن نسقي الزرع، وكأنه شيء معتاد عندهم.

قوله: {وأنزلنا من السماء} أي من السحاب؛ لأن كل ما علاك فهو سماء، ولا

=

=

شك أن المطر إنما ينزل من السحاب، فيكون المراد بالسماء هنا العلو.

وقوله: {ماء طهورا} يعني به المطر، و (الطهور) بفتح الطاء هو ما يتطهر به، أو ما تحصل به الطهارة، وأما (الطهور) بضمها فهو التطهر.

هنا يقول: {وأنزلنا}، وقبلها: {وهو الذي أرسل الرياح}، ففيه من علم البديع ما يسمى بالالتفات، وفائدته -كما مر كثيرا- تنبيه المخاطب؛ لأن تغير الأسلوب يوجب التنبه، وفيه أيضا العناية بما حصل الالتفات إليه؛ لأنه احتاج إلى أن ينبه بهذا الالتفات إليه، ولا شك أن إنزال المطر هو المقصود من إرسال الرياح ولذلك جاء الالتفات إليه بصورة المتكلم {وأنزلنا من السماء}. وقوله تعالى: {وأنزلنا من السماء} كلمة (نا) للواحد أو للجماعة؟ تصلح للواحد المعظم نفسه، وهي هنا كذلك.

* مسألة: تلخيص فتاوى اللجنة الدائمة في أحكام المياه.

قرر علماء اللجنة الدائمة - رحمهم الله تعالى وغفر لهم - بأن الأصل في المياه الطهورية وأنه لا ينجس إلا إذا تغيرت أحد أوصافه بالنجاسة سواء كان قليلا أو كثيرا إلا أنهم قالوا: إذا كان قليلا جدا وخالطته النجاسة فينبغي عدم التطهر به من باب الاحتياط والخروج من الخلاف ولحديث أبي هريرة في ولوغ الكلب.

* وأفتوا بحرمة اغتسال الجنب في الماء الدائم لنص حديث أبي هريرة.

* وأفتوا بجواز استعماله بعد هذا الاغتسال ما لم يتغير بالنجاسة ولكنهم فضلوا ترك التطهر به إن تتابع الاغتسال فيه من باب الاحتياط وللخروج من الخلاف.

* وأفتوا بحرمة الاغتسال في برك البوادي وبرك المساجد المجاورة لها وأنه يجب مناصحة من يفعل ذلك وإرشاده للحكم الشرعي في ذلك فإن استجاب وإلا عزرهم ولي الأمر بما يردعهم من معاودة ذلك.

* وأفتوا بان ستر الإنسان لعورته في حال خلوته من آداب الإسلام وأنه مقتضى

=

=

الحياء والستر وأما في حال رؤية غيره له فواجب عليه سترها إلا عن زوجته وأمته.

* وأفتوا بأن تغير المال بطول مكثه لا يضر التطهر به حتى وإن خرج فيه الدود لأن ذلك مم يشق الاحتراز منه.

* وأفتوا بجواز الماء المتغير إلى اللون الأحمر بسبب طول مكثه في البراميل.

* وأفتوا بجواز استعمال الماء المشمس وقالوا: لا نعلم دليلا صحيحا يمنع استعماله.

* وأفتوا بجواز الطهارة من ماء البحر استقلالا أي حتى مع وجود الماء العذب لحديث: "هو الطهور ماؤه".

* وأفتوا بجواز الوضوء والعسل من مياه برك السباحة العامة الكبيرة والتي يزاد في ماءها ويتجدد بالفلاتر الحديثة.

* وأفتوا بأن الماء النجس إذا زال تغيره بنفسه أو بإضافة ماء طهور إليه أو زال تغيره بنفسه عاد حكمه كما كان لأن نجاسة الماء حكمية لا ذاتية.

* وأفتوا بناء على ذلك بأن مياه المجاري إذا نقيت التنقية الكاملة بحيث تعود إلى خلقها الأول فلا يرى فيها لون النجاسة ولا ريحها وطعمها فإنه يجوز استعمالها كما أنه يجوز شربها إلا إذا كانت هناك أضرار صحية تنشأ عن استعمالها فيمتنع ذلك محافظة على النفس وتفاديا للضرر لا لنجاستها.

** تلخيص باب المياه من الشرح الممتع.

قوله: (كتاب): أي: مكتوب، يعني: هذا مكتوب في الطهارة.

الطهارة لغة: النظافة، طهُر الثوب من القذر، يعني: تنظَّف، وفي الشرع: تطلع على معنيين:

الأول: الأول: أصْل، وهو طهارة القلب من الشِّرك في عبادة الله، والغِلِّ والبغضاء لعباد الله المؤمنين، وهي أهمُّ من طهارة البدن، والثاني: فَرْع، وهي الطَّهارة

=

=

الحسِّيَّةُ؛ [ص ٢٥].

قوله: (وهِيَ ارْتِفَاعُ الْحَدَثِ، ومَا فِي مَعْنَاهُ، وَزَوَالُ الخَبَثِ):

قوله: «وهي ارتفاعُ الحَدَث»، أي: زواله.

والحدث: وصف قائم بالبدن يمنع من الصلاة ونحوها مما تشترط له الطهارة.

قوله: «وما في معناه»، الضَّمير يعود على «ارتفاع»، لا على الحَدَث؛ أي: وما في معنى ارتفاع الحَدَث، فلا يكون فيها ارتفاع حَدَث، ولكن فيها معناه.

فصار معنى ارتفاع الحدث: هو كل طهارة لا يحصُل بها رفع الحَدَث، أو لا تكون عن حَدَث.

قوله: «وزوال الخَبَث»، لم يقل: وإزالة الخَبَث، فزوال الخَبَث طهارة، سواء زال بنفسه، أو زالَ بمزيل آخر، فيُسمَّى ذلك طهارة.

فيكون قوله: «وزوال الخَبَث» أعَمَّ من إزالة الخَبَث؛ لأن الخَبَث قد يزول بنفسه.

والخَبَثُ: هو النَّجاسة.

والنَّجاسة: كلُّ عَينٍ يَحْرُم تناولُها لا لحُرمتها ولا لاستقذارها، ولا لضررٍ ببدَنٍ أو عقل، وإنْ شئت فقل: كلُّ عينٍ يجب التطهُّرُ منها، هكذا حدُّوها.

وبدأ المؤلِّفُ بالطَّهارة لسببين:

الأول: أنَّ الطَّهارة تخليةٌ من الأذى.

الثاني: أنَّ الطَّهارة مفتاح الصَّلاة، والصَّلاة آكدُ أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، ولذلك بدأ الفقهاء رحمهم الله بكتاب الطَّهارة، والطَّهارة تحتاج إلى شيء يُتطهَّرُ به، يُزَال به النَّجسُ، ويُرفعُ به الحدثُ وهو الماء؛ ولذلك بدأ المؤلفُ به؛ [ص:٢٥_٢٧].

قوله: (المياهُ ثلاثةٌ: طهورٌ لا يَرْفَعُ الحَدَثَ، ولا يُزِيلُ النَّجَسَ الطَّارِئَ غَيْرُهُ):

قوله: «المياهُ ثلاثةٌ: طَهُورٌ»، المياه: جمع ماء، والمياه ثلاثة أقسام:

=

=

الأول: الطهور بالفتح: اسم ما يتطهر به والسحور بالفتح اسم للطعام الذي يتسحر به، وأما طهور، وسحور بالضم، فهو الفعل.

والطهور: الماء الباقي على خلقته حقيقةً؛ بحيث لم يتغير شيء من أوصافه، أو حكمًا؛ بحيث تغير بما لا يسلبه الطهورية.

قوله: «لا يرفع الحدث»؛ أي: لا يرفع الحدث إلا الماء الطهور.

والتُّراب في التيمُّم على المذهب لا يرفع الحَدَث، والصَّواب أنَّه يرفع الحَدَث؛ لقوله تعالى عَقِبَ التيمُّم: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ} [المائدة: ٦]، ومعنى التَّطهير أن الحَدَث ارتفع، وقوله ﷺ: «جُعلت لي الأرضُ مسجدًا وطَهُورًا» بالفتح، فيكون التُّراب مطهِّرًا.

قوله: «ولا يزيل النَّجس الطارئَ غيرُه»؛ أي: لا يزيل النجس إلا الماء.

والصواب: أنه إذا زالت النجاسة بأي مزيل كان طهر محلها؛ لأن النجاسة عين خبيثة، فإذا زالت زال حكمُها، فليست وصفًا كالحدث، لا يزال إلا بما جاء به الشرع.

وقوله: «النَّجس الطَّارئ»، أي: الذي وَرَدَ على محَلٍّ طاهر.

أما النجاسة العينية، فهذه لا تطهر أبدًا، لا يطهِّرها لا ماء ولا غيره؛ كالكلب فلو غسل سبع مرات إحداهن بالتراب، فإنه لا يطهر؛ لأن عينه نجسة، وذهب بعض العلماء إلى أن النجاسة إذا استحالت طهرت؛ [ص:٢٨ - ٣١].

قوله: (وَهُوَ الْبَاقِي على خِلْقَتِهِ، فَإِنْ تَغَيَّرَ بغير مُمَازِجٍ كَقِطَعِ كَافُور):

قوله: «وهو الباقي على خلقته»، هذا تعريفُ الماء الطَّهور.

قوله: «فإن تغيَّر بغير ممازجٍ كقطع كافور»، إن تغيَّر الماءُ بشيء لا يُمازجه كقطع الكافور؛ وهو نوع من الطِّيب يكون قِطعًا، ودقيقًا ناعمًا غير قطع، فهذه القطع إذا

=

=

وُضِعَت في الماء فإنَّها تُغيِّر طعمه ورائحته، ولكنها لا تمازجُه؛ أي: لا تُخالطه؛ أي: لا تذوب فيه، فإذا تغيَّر بهذا فإنه طَهُور مكروه.

فإن قيل: كيف يكون طهورًا وقد تغيَّر؟

فالجواب: إن هذا التغيُّر ليس عن ممازجة، ولكن عن مجاورة، فالماء هنا لم يتغير لأن هذه القطع مازجته، ولكن لأنها جاورته.

فإن قيل: لماذا يكون مكروهًا؟

فالجواب: لأن بعض العلماء يقول: إنه طاهر غير مطهِّر، فيرون أن هذا التغيُّر يسلبه الطهوريَّةَ فصار التَّعليل بالخلاف، فمن أجل هذا الخلاف كُرِهَ.

والصَّواب: أن التَّعليل بالخلاف لا يصحُّ؛ لأنَّنا لو قُلنا به، لكرِهنا مسائل كثيرة في أبواب العلم، لكثرة الخلاف في المسائل العلمية، وهذا لا يستقيم.

فالتعليل بالخلاف ليس علَّة شرعية، ولا يُقبل التَّعليل بقولك: خروجًا من الخلاف؛ لأنَّ التَّعليل بالخروج من الخلاف هو التَّعليل بالخلاف، بل نقول: إن كان لهذا الخلاف حظٌّ من النَّظر، والأدلَّة تحتمله، فنكرهه؛ لا لأنَّ فيه خلافًا، ولكن لأنَّ الأدلَّة تحتمله، فيكون من باب «دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَريبُك»؛ أما إذا كان الخلاف لا حَظَّ له من النَّظر، فلا يُمكن أن نعلِّلَ به المسائل؛ ونأخذ منه حكمًا؛ [ص ٣٠ - ٣٢].

قوله: (أو دُهْنٍ، أو بملْحٍ مَائِيٍّ، أوْ سُخِّن بنَجَسٍ كُره):

قوله: «أو دُهْنٍ»، معطوف على «غير ممازج»، أو على «قطع كافور»، فتغيُّره به تغيُّر مجاورة لا ممازجة، فإنه لا يسلبه الطَّهوريةَ، بل يبقى طَهورًا.

قوله: «أو بملح مائي»، وهو الذي يتكوَّن من الماء، فهذا الملح لو وضعتَ كِسْرةً منه في ماء، فإنه يُصبح مالحًا، ويبقى طَهورًا مع الكراهة خروجًا من الخلاف.

فإن قيل: لماذا لا تنسلب طَهوريته؟

=

=

فالجواب أن يقال: لأن هذا الملح أصله الماء.

والتَّعليل بالخلاف للكراهة قد تقدَّم الكلام عليه.

وعُلِم من قوله: «مائي» أنَّه لو تغيَّر بملح معدني يُستخرَجُ من الأرض، فإنه يسلبه الطَهوريَّةَ على المذهب، فيكون طاهرًا غير مطهِّر.

قوله: «أو سُخِّن بنَجَسٍ كُرِه»؛ أي: إذا سُخِّن الماءُ بنجَسٍ تَغيَّر أو لم يتغيَّر فإنه يُكره.

مثاله: لو جمع رجلٌ روث حمير، وسخَّن به الماء فإنهيُكره، فإن كان مكشوفًا فإنَّ وجه الكراهة فيه ظاهر؛ لأن الدُّخان يدخله ويؤثِّر فيه.

وإن كان مغطًّى، ومحكم الغطاء كُره أيضًا؛ لأنَّه لا يَسْلَمُ غالبًا من صعود أجزاء إليه، والصَّواب: أنَّه إذا كان محكم الغطاءِ لا يكره؛ [ص ٣٣ - ٣٤].

قوله: (وإن تغيَّرَ بمكثه، أو بما يَشقُّ صون الماء عنهُ من نابتٍ فيه وورَقِ شَجَرٍ):

قوله: «وإن تغيَّرَ بمكثه»؛ أي: بطول إقامته، فلا يضر؛ لأنه لم يتغير بشيء حادث فيه، بل تغير بنفسه، فلا يكره.

قوله: «أو بما يَشقُّ صون الماء عنه من نابتٍ فيه وورَقِ شَجَرٍ»؛ مثل: غدير نَبَتَ فيه عُشبٌ، أو طُحلب أو تساقط فيه ورقُ شجر، فتغيَّر بها، فإنَّه طَهُورٌ غير مكروه، ولو تغيَّر لونهُ وطعمه وريحُه، والعِلَّة في ذلك أنه يشقُّ التحرُّز منه.

وإن تغيَّر بطينٍ كما لو مشى رجل في الغدير برجليه، وأخذ يحرك رجليه بشدة حتى صار الماء متغيِّرًا جدًّا بطين؛ فإنَّ الماء طَهُورٌ غير مكروه؛ لأنه تغير بمُكْثِه؛ [ص:٣٤ - ٣٥].

قوله: (أو بمُجَاوَرَةِ مَيْتةٍ، أو سُخِّنَ بالشَّمس، أو بطَاهر؛ لم يُكْرَه، وإن استُعْمِلَ):

قوله: «أو بمجَاورة مَيْتَةٍ»، يقول المؤلِّفُ: إنه طَهُور غير مكروه؛ لأن التغيُّر عن مجاورة، لا عن ممازجة، والأَوْلَى التنزُّه عنه إن أمكن، فإذا وُجِدَ ماء لم يتغيَّر فهو

=

=

أفضل، وأبعد من أن يتلوَّث بماء رائحته خبيثة نجسة، وربما يكون فيه من النَّاحية الطبيَّة ضرر، فقد تحمل هذه الروائح مكروبات تَحُلُّ في هذا الماء.

قوله: «أو سُخِّن بالشَّمس»، أي وُضِعَ في الشَّمس ليسخنَ، واغتسل به، فلا حرج، ولا كراهة.

قوله: «أو بطاهر»، يعني: أو سُخِّن بطاهر؛ مثل: الحطب، أو الغاز، أو الكهرباء، فإنه لا يُكره.

قوله: «وإن استُعْمِلَ» الضَّمير يعود على الماء الطَّهور.

والاستعمال: أن يُمَرَّ الماء على العضو، ويتساقط منه، وليس الماء المستعمل هو الذي يُغْتَرفُ منه، بل هو الذي يتساقط بعد الغَسْل به، [ص:٣٥ - ٣٦].

قوله: (في طهارة مستحبَّة كتجديد وضوء، وغُسْل جُمُعَة، وغَسْلة ثانية، وثالثة كُرِهَ):

والصواب في هذه المسائل كلِّها: أنه لا يُكره؛ لأن الكراهة حكمٌ شرعيٌّ يفتقر إلى دليلٍ، وكيف نقول لعباد الله: إنه يكره لكم أن تستعملوا هذا الماء، وليس عندنا دليلٌ من الشَّرع.

يجب أن نعرف أن منع العباد مما لم يدلَّ الشرعُ على منعه، كالتَّرخيص لهم فيما دَلَّ الشَّرع على منعه؛ [ص:٣٦ - ٣٧].

قوله: (وإن بلغ قُلَّتين - وهو الكثيرُ - وهما خَمسمائة رَطْلٍ عراقيٍّ تقريبًا):

قوله: «وإن بلغ قُلتين»، القُلَّتان: تثنية قُلَّة، والقلة مشهورة عند العرب، قيل: إنها تَسَعُ قربتين ونصفًا تقريبًا.

قوله: «وهو الكثير» من الماء في عرف الفقهاء رحمهم الله ما بلغ القُلَّتين، واليسير: ما دون القُلَّتين.

قوله: «وهما خمسمائة رَطْلٍ عراقيٍّ تقريبًا»، مائة الرَّطل العراقي يزن قرابة ماء

=

=

تقريبًا، وعلى هذا تكون خمس قِرَب تقريبًا.

فائدة: القلتان بالكيلو = ١٩١.٢٥؛ [ص: ٣٧ - ٣٨].

قوله: (فَخالَطَتْهُ نجاسةٌ غَيرُ بولِ آدميٍّ، أو عَذِرته المائعةِ، فلم تغيِّرهُ):

قوله: «فخالطته نجاسة»؛ أي: امتزجت به، وتقَّدم تعريف النَّجاسة.

قوله: «غَيرُ بولِ آدميٍّ، أو عَذِرته المائعةِ، فلم تغيِّرهُ»: المراد لم تغيِّرْ طعمه، أو لونه، أو رائحته، وهذه المسألة - أعني مسألة ما إذا خالطت الماءَ نجاسةٌ - فيها أقوال:

أحدها: وهو اختيار شيخ الإسلام وجماعة من أهل العلم -: أنه لا ينجس إلا بالتَّغيُّر مطلقًا؛ سواء بلغ القُلَّتين أم لم يبلغ، لكن ما دون القلتين يجب على الإنسان أن يتحرَّز إذا وقعت فيه النَّجَاسة؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ ما دونهما يتغيَّر، وهذا هو الصحيح للأدلة الأثريَّة والنَّظرية.

فالأثر قوله ﷺ: «إن الماء طَهُور لا ينجِّسُهُ شيءٌ»، ولكن يُستثنى من ذلك ما تغيَّر بالنَّجَاسة، فإنه نجسٌ بالإجماع، وهناك إشارة من القرآن تدُلُّ على ذلك؛ قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} [المائدة: ٣]، وقال تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [الأنعام: ١٤٥]، فقوله: «فإنه رجس» معلِّلًا للحكم، دليلٌ على أنه متى وُجِدَت الرِّجْسيةُ ثبت الحكم، ومتى انتفت انتفى الحكم، فإذا كان هذا في المأكول، فكذلك في الماء.

ومن حيث النَّظَرُ، فإنَّ الشَّرع حكيم يُعلِّل الأحكام بعللٍ منها ما هو معلوم لنا؛ ومنها ما هو مجهول، وعِلَّةُ النَّجاسة الخَبَثُ، فمتى وُجِد الخَبَثُ في شيء فهو نَجِس، ومتى لم يوجد فهو ليس بنجس، فالحكم يدور مع عِلَّته وجودًا وعدمًا؛ [ص:٣٨ - ٤١].

=

=

قوله: (أو خَالَطَهُ البَولُ، أو العَذِرَةُ، ويَشُقُّ نَزْحُه كمصانِع طريق مكَّة فَطَهُورٌ):

مصانعُ جمعُ مصنع؛ وهي عبارةٌ عن مجابي المياه في طريق مكَّة من العرق، وكان هناك مجابٍ في أفواه الشِّعاب، وهذه المجابي يكون فيها مياهٌ كثيرة، فإذا سقط فيها بول آدمي أو عَذِرَتُه المائعةُ ولم تغيَّره فطَهُورٌ؛ حتى على كلام المؤلِّف؛ لأنه يَشُقُّ نزحُه.

وقوله: «كمصانع» هذا للتَّمثيل؛ يعني: وكذلك ما يشبهها من الغُدران الكبيرة؛ [ص:٤٣].

قوله: (ولا يرفع حَدَثَ رَجُلٍ طَهُورٌ يَسيرٌ خَلَتْ به امرأةٌ لطَهَارةٍ كَامِلةٍ عن حَدَثٍ):

«حَدَثَ» هذا قيد، «رجل» قيد آخر، «طَهُور يسيرٌ» قيد ثالث، «خلت به» قيد رابع، «امرأة» قيد خامس، «لطهارة كاملة» قيد سادس، «عن حدَثَ» قيد سابع.

إذا تمَّت هذه القيودُ السَّبعَةُ ثَبَتَ الحكم، فإذا تطهَّرَ به الرَّجُلُ عن حَدَثٍ لم يرتفع حدثُه، والماء طَهُور، هذا حكم المسألة على المذهب.

والصواب أن الرجل لو تطهر بما خلت به المرأة، فإن طهارته صحيحة ويرتفع حدثه، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ [ص ٤٣ - ٤٦].

قوله: (وإن تغيَّر لونه، أو طعمه، أو ريحُه):

هذا القسم الثاني من أقسام المياه على المذهب، وهو الطَّاهر؛ أي: تغيَّر تغيرًا كاملًا؛ بحيث لا يُذاقُ معه طعمُ الماء، أو تغيَّر أكثر أوصافه، وهي هذه الثَّلاثة: الطعم، والرِّيح، واللون؛ [ص ٤٦ - ٤٧].

قوله: (بطَبْخٍ، أو سَاقِطٍ فِيه):

قوله: «بطبخ»؛ أي: طُبخ فيه شيء طاهر كاللحم، فتغيَّر طعمه، أو لونه، أو ريحه تغيُّرًا كثيرًا بيِّنًا، فإنَّه يكون طاهرًا غير مطهِّر.

قوله: «أو ساقط فيه»؛ أي: سقط فيه شيء طاهر، فغيَّر أوصافه أو أكثرها، فإنه

=

=

يكون طاهرًا غير مطهِّر.

ويُستثنى من هذه المسألة ما يَشُقُّ صَوْنُ الماء عنه، وما لا يمازجه، كما لو وضعنا قطع كافور فيه وتغيَّر فإنه طَهُور، وكذا لو كان حول الماء أشجارٌ، فتساقطت أوراقها فيه فتغيَّر فطهور.

والتَّعليل لكون هذا طاهرًا غير مطهِّر: أنَّه ليس بماء مطلق، وإنما يُقال ماءُ كذا فيُضاف، كما يُقال: ماءُ ورد.

ولكن يُقال: إن هذا لا يكفي في نقله من الطَّهورية إلى الطَّهارة، إلا إذا انتقل اسمه انتقالًا كاملًا، فيُقال مثلًا: هذا مَرَقٌ، وهذه قهوة، فحينئذٍ لا يُسمَّى ماءً، وإنَّما يُسمَّى شرابًا؛ يُضاف إلى ما تغيَّر به، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومما يدلُّ على ضَعف ما قاله المؤلِّف: أنهم يقولون: إن ورق الشجر إذا كان يشقُّ صونُ الماء عنه؛ فوقع فيه وتغيَّر به الماء فهو طَهُور، ولو وضعه إنسان قصدًا، فإنه يصير طاهرًا غير مطهِّر.

ومعلوم أن ما انتقل حكمه بتغيُّره، فإنه لا فرق بين ما يشُقُّ صون الماء عنه وما لا يشقُّ، ولا بين ما وُضِعَ قصدًا أو بغير قصد؛ [ص ٤٧ - ٤٨].

قوله: (أو رُفِع بقليله حدثٌ):

أي: بقليل الماء "وهو ما دون القُلَّتين" حَدَثٌ، وهو أنَّ هذا الماء استُعمل في طهارة فلا يُستعمل فيها مرَّة أخرى.

والصواب: أن ما رُفع بقليله حدثٌ طَهورٌ؛ لأن الأصل بقاء الطَّهورية، ولا يمكن العُدُول عن هذا الأصل إلا بدليل شرعي يكون وجهيًا؛ [ص:٤٨ - ٤٩].

قوله: (أو غُمِسَ فيه يَدُ قائمٍ مِنْ نَوْمِ ليلٍ ناقضٍ لوضُوءٍ):

الضَّمير في قوله: «فيه» يعود إلى الماء القليل، واليد إذا أُطلقت، فالمراد بها إلى الرُّسغ مفصِل الكفِّ من الذِّراع، فلا يدخل فيها الذِّراع.

=

=

مثاله: رجل قام من النَّوم في الليل، وعنده قِدْرٌ فيه ماء قليل، فغمس يده إلى حَدِّ الذِّراع، فيكون طاهرًا غير مطهِّر بدليل ﷺ: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فلا يَغمِسْ يدَهُ في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا؛ فإنه لا يدري أين باتت يدُه».

ففيه النهي عن غمس اليد في الإناء، وعلى تقرير كلامهم رحمهم الله، أنه ولو غمس المكلَّف يده بالشروط التي ذكر المؤلِّفُ، كان طاهرًا غير مطهِّر.

ولكن إذا تأمَّلتَ المسألةَ وجدتها ضعيفة جدًّا؛ لأنَّ الحديث لا يدلُّ عليه، بل فيه النهي عن غمس اليد، ولم يتعرَّض النبيُّ ﷺ للماء.

وفي قوله: «فإن أحدكم لا يدري أين باتت يدُه»، دليل على أنَّ الماء لا يتغيَّر الحكم فيه؛ لأن هذا التَّعليلَ يدلُّ على أن المسألةَ من باب الاحتياط، وليست من باب اليقين الذي يُرفَعُ به الشكُّ.

وخلاصة كلامهم: أنه إذا تمت الشُّروط - وهي الإسلام، والتكليف، وأن يكون من نوم ليل، وغمس يده في الماء قبل غسلها ثلاثًا - فإنه يكون طاهرًا لا طَهُورًا.

والصواب: أنه طَهُور، لكن يأثم من أجل مخالفته النهي؛ حيث غمسها قبل غسلها ثلاثًا؛ [ص ٤٩ - ٥١].

فائدة: الصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وليس هذا حكمًا تكليفيًّا، بل وضعيًّا؛ [ص ٥٠].

قوله: (أوْ كان آخر غَسْلةٍ زالت بها النجاسة فَطَاهرٌ):

الضَّمير يعود إلى الماء القليل، وهو المنفصل في الغسلة السَّابعة، فيكون طاهرًا غير مطهِّر.

وقوله: «فطاهر»، هذا جواب قوله: «وإن تغيَّر طعمه»... إلخ.

والصَّحيح أن الماء قسمان فقط: طَهُور ونجس، فما تغيَّر بنجاسة فهو نجس، وما لم يتغيَّر بنجاسة فهو طَهُور، وأن الطَّاهر قسم لا وجود له في الشَّريعة، وهذا اختيار

=

=

شيخ الإسلام، والدَّليل على هذا عدم الدَّليل؛ [ص ٥٣ - ٥٤].

قوله: (والنَّجسُ ما تغيَّرَ بنجاسةٍ، أوْ لاَقَاهَا، وهو يسيرٌ، أوِ انفَصَلَ عَنْ محلِّ نَجَاسَةٍ قَبْلَ زوالها):

قوله: «والنَّجس ما تغيَّر بنجاسة»؛ أي: تغيَّر طعمه أو لونه، أو ريحه بالنَّجاسة، ويُستثنى من المتغيِّر بالرِّيح ما إِذا تغيَّر بمجاورة ميتة، وهذا الحكم مُجمَعٌ عليه.

قوله: «أو لاقاها وهو يسير»؛ أي: لاقى النَّجاسة وهو دون القُلَّتين، والدَّليل مفهوم قوله ﷺ: «إِذا بلغ الماء قُلَّتين لم ينجِّسْه شيء».

ومفهوم قوله: «وهو يسير» أنه إِن لاقاها وهو كثير فإِنَّه لا ينجس، لكن يُستثنى من هذا بول الآدمي وعَذِرَتُه كما سبق.

والصَّحيح: أنَّ هذا ليس من قسم النَّجس إِلا أن يتغيَّر.

ويُستثنى من ذلك على المذهب ما إِذا لاقاها في محلِّ التطهير، فإِنه لا ينجس.

قوله: «أو انفصل عن محلِّ نجاسة قبل زوالها»؛ أي: قبل زوال حكمها؛ [ص ٥٤ - ٥٥].

قوله: (فإِن أُضيف إِلى الماء النَّجِسِ طَهُورٌ كثيرٌ غيرُ ترابٍ، ونحوِه، أو زال تغيُّر النَّجس الكثير بنفسه، أو نُزِحَ منه فبقِيَ بعده كثيرٌ غَيْرُ مُتغيرٍ طَهُرَ):

وقوله: «فإِن أُضيف إِلى الماء النَّجِسِ طَهُورٌ كثيرٌ غيرُ ترابٍ، ونحوِه» في هذا الكلام بيان طُرق تطهير الماء النَّجس، وقد ذكر ثلاث طُرقٍ في تطهير الماء النَّجس:

إحداها: أن يضيف إليه طَهورًا كثيرًا غير تراب ونحوه، واشترط المؤلِّفُ أن يكون المضافُ كثيرًا؛ لأنَّنا لو أضفنا قليلًا تنجَّس بملاقاة الماء النَّجس.

وقول: «أو زال تغيُّر النَّجس الكثير بنفسه» الكثير: هو ما بلغ قُلَّتين، وهذه هي طريقة الثَّانية لتطهير الماء النَّجس، وهي أن يزول تغيُّره بنفسه إِذا كان كثيرًا.

=

=

وقوله: «أو نُزِحَ منه فبقِيَ بعده كثيرٌ غَيْرُ مُتغيرٍ طَهُرَ» هي الطريقة الثَّالثة لتطهير الماء النَّجس، وهي أن يُنزح منه حتى يبقى بعد النزح طهور كثير.

والخلاصة: أن ما زاد على القُلَّتين يمكن تطهيره بثلاث طُرق:

١ - الإضافة.

٢ - زوال تغيره بنفسه.

٣ - أن ينزح منه؛ فيبقى بعده كثير غير متغيِّر.

والقول الصحيح: أنه متى زال تغيُّر الماء النَّجس، طهر بأي وسيلة كانت.

وقوله: «غير تراب ونحوه»: استثنى المؤلِّفُ هذه من مسألة الإضافة، فلو أضفنا ترابًا، ومع الاختلاط بالتُّراب وترسُّبه زالت النَّجاسة، فلا يَطْهُر مع أنَّه أحد الطَّهورين، قالوا: لأن التطهر بالتُّراب ليس حسِّيًّا، بل معنويًّا، فالإنسان عند التيمُّم لا يتطهَّر طهارة حسِّيَّة، بل معنويَّة.

وقوله: «ونحوه» كالصابون وما أشبه؛ لأنه لا يُطهر إلا الماء، وما مشى عليه المؤلِّف هو المذهب.

والصحيح: أنه إذا زال تغيُّر الماء النَّجس بأي طريق كان، فإنه يكون طَهُورًا.

واعلم أن هذا الحكم - على المذهب - بالنِّسبة للماء فقط، دون سائر المائعات، فسائر المائعات تَنْجُس بمجرد الملاقاة، ولو كانت مِائة قُلَّة.

والصَّواب: أن غير الماء كالماء لا يَنْجُس إلا بالتغيُّر؛ [ص ٥٥ - ٥٨].

قوله: (وإن شكَّ في نجاسة ماء، أو غيرِه، أو طَهارته بَنَى على اليقين):

أي: في نجاسته إذا كان أصله طاهرًا، وفي طهارته إذا كان أصله نجسًا.

مثال الشَكِّ في النَّجاسة: لو كان عندك ماء طاهر لا تعلم أنه تنجس، ثم وجدت فيه روثة لا تدري أروثة بعير، أم روثة حمار، والماء متغيِّر من هذه الرَّوثة، فحصل الشكُّ هل هو نجس أم طاهر؟

=

=

فيقال: ابْنِ على اليقين، واليقين أنه طَهُور فتطهَّر به ولا حرج، وكذا إذا حصل شك في نجاسة غير الماء.

مثاله: رجل عنده ثوب فشكَّ في نجاسته، فالأصل الطَّهارة حتى يعلم النجاسة، وكذا لو كان عنده جلد شاة، وشكَّ هل هو جلدُ مُذَكَّاة، أم جلد ميتة، فالغالب أنه جلد مذكاة، فيكون طاهرًا، إذًا الأصل بقاء الشيء على ما كان حتى يتبين التغير.

قوله: «بَنَى على اليَقِينِ»، اليقين: هو ما لا شَك فيه؛ [ص ٥٨ - ٦٠].

وقوله: (وإن اشتبه طَهور بنجس حرم استعْمَالُهُمَا، ولم يتحرَّ):

يعني: إن اشتبه ماء طهور بماء نجس حرم استعْمَالُهُمَا؛ لأن اجتناب النَّجس واجب، ولا يتمُّ إلا باجتنابهما، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وهذا دليل نظري.

قوله: «ولم يتحرَّ»؛ أي: لا ينظر أيُّهما الطَّهور من النَّجس، وعلى هذا فيتجنَّبُهُما حتى ولو مع وجود قرائن، هذا المشهور من المذهب.

والصواب: أنه يتحرى، وهو القول الثَّاني في المذهب؛ لقوله ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه في مسألة الشكِّ في الصَّلاة: «وإذا شَكَّ أحدُكُم في صلاته، فليتحرَّ الصَّوابَ، ثم ليَبْنِ عليه»، فهذا دليل أثريٌّ في ثبوت التَّحرِّي في المشتبهات.

والدَّليل النَّظري أنَّ من القواعد المقرَّرة عند أهل العلم أنَّه إذا تعذَّر اليقين، رُجع إلى غلبة الظنِّ، وهنا تعذَّر اليقينُ، فنرجع إلى غلبة الظنِّ وهو التحرِّي، هذا إن كان هناك قرائن تدلُّ على أن هذا هو الطَّهور، وهذا هو النَّجس؛ لأن المحلَّ حينئذ قابل للتحرِّي بسبب القرائن، وأما إذا لم يكن هناك قرائن؛ مثل: أن يكون الإناءان سواءً في النَّوع واللون، فهل يمكن التَّحرِّي؟

قال بعض العلماء: إذا اطمأنتْ نفسُه إلى أحدهما أخذ به؛ [ص ٦١ - ٦٢].

قوله: (ولا يُشْتَرطُ للتيمم إراقتُهمَا، ولا خَلْطُهُمَا):

=

=

أفادنا المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه في حال اجتنابهما يتيمَّم.

وهل يُشترط للتيمُّم إراقتهما أو خلطهما؟ فيه قولان، ولهذا نفى المؤلِّف اشتراط إراقتهما أو خلطهما ردًّا للقول الثاني، وإلَّا لَمَا كان لنفيه داعٍ، فقال: ((ولا يُشتَرط... إلخ))، لردِّ قول من قال: إنه يُشتَرط إراقتهما، أو خلطهما، وهو قولٌ في المذهب.

قالوا: لا يمكن أن يتيَمَّم حتى يُريقَ الماءين؛ ليكون عادمًا للماء حقيقة، أو يخلطهما حتى يتحقَّق النَّجاسة.

وعُلم من ذلك أنه إذا أمكن تطهيرُ أحدهما بالآخر وجب التطهير، ولا يحتاج إلى التيمُّم، وذلك إذا كان كلُّ واحد من الإناءين قُلَّتين فأكثر؛ فيُضاف أحدُهما إلى الآخر، فإن الطَّهور منهما يطهِّر النَّجس إذا زالَ تغيُره؛ [ص:٦٢ - ٦٣].

قوله: (وإن اشتَبَه بطَاهِر تَوَضَّأ منهمَا وُضُوءًا واحدًا، مِنْ هذا غَرْفَةٌ، ومن هذا غَرفةٌ، وصَلَّى صلاةً واحدةً):

وهذه المسألة لا تَرِدُ على ما صحَّحناه؛ لعدم وجود الطَّاهر غير المطهِّر على القول الصَّحيح، لكن تَرِدُ على المذهب، وسبق بيان الطَّاهر؛ [ص:٦٣].

قوله: (وإن اشْتَبَهتْ ثيابٌ طاهرةٌ بنجسةٍ أو بمحرَّمةٍ صلَّى في كلِّ ثوبٍ صلاةً بعددِ النَّجس أو المحرَّم، وَزاد صلاةً):

هذه المسألة لها تعلُّق في باب اللباس، وفي باب ستر العورة في شروط الصَّلاة، ولها تعلُّق هنا، وتعلُّقها هنا من باب الاستطراد؛ لأن الثِّياب لا علاقة لها في الماء.

والصَّحيح: أنه يتحرَّى، وإذا غلب على ظَنِّه طهارة أحد الثِّياب صَلَّى فيه، والله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها، ولم يوجب الله على الإنسان أن يُصلِّيَ الصَّلاة مرتين.

فإن قلت: ألا يحتمل مع التحرِّي أن يُصلِّيَ بثوب نجس؟

فالجواب: بلى، ولكن هذه قدرته، ثم إنَّ الصَّلاة بالثَّوب النَّجس عند الضَّرورة،

=

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩).

{لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَة مَيْتًا} بِالتَّخْفِيفِ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّر وَالْمُؤَنَّث ذَكَرَهُ بِاعْتِبَارِ الْمَكَان {وَنُسْقِيَهُ} أَيْ الْمَاء {مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا} إبِلًا وَبَقَرًا وَغَنَمًا {وَأَنَاسِيّ كَثِيرًا} جَمْع إنْسَان وَأَصْله أَنَاسِينَ فَأُبْدِلَتْ النُّون يَاء وَأُدْغِمَتْ فِيهَا الْيَاء أَوْ جَمْع إنسي[1].

=

الصَّواب أنها تجوز، وأنَّه يُصلِّي ولا يعيد.

قوله: «أو بمحرَّمةٍ صلَّى في كلِّ ثوبٍ صلاةً بعددِ النَّجس أو المحرَّم، وزَاد صلاةً»؛ أي: إذا اشتبهت ثيابٌ محرَّمةٌ بمباحة، هذه المسألة لها صورتان:

الأولى: أن تكون محرَّمة لحقِّ الله كالحرير.

الثانية: أن تكون محرَّمةٌ لحقِّ الآدمي.

والصَّحيح: أنه يتحرَّى، ويُصلِّي بما يغلب على ظَنِّه أنَّه الثَّوب المباح ولا حرج عليه؛ لأن الله لا يكلِّف نفسًا إلا وسعها.

ولو فرضنا أنه لم يمكنه التحرِّي لعدم وجود القرينة، فإنه يصلِّي فيما شاء؛ لأنه في هذه الحال مضطر إلى الصَّلاة في الثَّوب المحرَّم، ولا إعادة عليه؛ [ص:٦٥ - ٦٧].

(١) قوله تعالى: {لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا} [الفرقان: ٤٩]، أي:"لنخرج به النبات في مكان لا نبات فيه، فيحيا البلد الجدب بعد موات".

قال السمعاني:"أي: بلدا ميتا، وإحياؤه بإنبات النبات، وإخراج الأشجار والثمار".

قال يحيى:"{لنحيي به} بالمطر، {بلدة ميتا}: اليابسة التي ليس فيها نبات".

قال الطبري: "يعني: أرضا قحطة عذية لا تنبت".

قال ابن كثير:"أي: أرضا قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا

=

=

شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: {فَإِذَا أَنزلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥]".

قال عكرمة:"ما أنزل الله ﷻ من السماء قطرة إلا كانت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة".

روي أن خالد بن يزيد، كان عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: "منه من السماء ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق، وأما ما كان من البحر فلا يكون له نبات، وأما النبات فمما كان من السماء".

قوله تعالى: {وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} [الفرقان: ٤٩]، أي:"ونُسْقي ذلك الماء مِن خَلْقِنا كثيرًا من الأنعام والناس".

قال السمعاني:"أي: نسقى بالماء أنعاما وأناسي كثيرا".

قال ابن كثير:"أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُنزلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [الشورى: ٢٨] وقال تعالى: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الروم: ٥٠]".

قال السعدي: "أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم، أليس الذي أرسل الرياح المبشرات وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورا مباركا فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟".

عن السدي قوله: "{أنعاما}، قال: الراعية".

قال الزجاج:"«أناسى»، جمع: إنسى مثل: كرسي وكراسي، ويجوز أن يكون جمع

=

=

إنسان، وتكون الياء بدلا من النون، الأصل: أناسين بالنون، مثل: سراحين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟

قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب، بخلاف الأنعام: ولأنها قنية الأناسى، وعامة منافعهم متعلقة بها، فكان الإنعام عليهم بسقى أنعامهم كالإنعام بسقيهم.

فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسى ووصفها بالكثرة؟

قلت: معنى ذلك أن عليه الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء، فبهم غنية عن سقى السماء، وأعقابهم- وهم كثير منهم- لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته وسقيا سمائه، وكذلك قوله لنحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء.

فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسى؟

قلت: لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم، لم يعدموا سقياهم".

قال ابن عباس:"ما عام بأكثر مطرا من عام، أو قال: ماء، ولكن الله يصرفه حيث يشاء. وقرأ هذه الآية: {ولقد صرفناه بينهم ليذكروا} [الفرقان: ٥٠]".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لنحيي به بلدة ميتا} بالتخفيف، يستوي فيه المذكر والمؤنث، ذكره باعتبار المكان، {ونسقيه} أي الماء {مما خلقنا أنعاما} إبلا وبقرا وغنما، {وأناسي كثيرا} جمع إنسان، وأصله أناسين، فأبدلت النون ياء وأدغمت فيها الياء، أو جمع إنسي].

ذكر الله سبحانه وتعالى من فوائد هذا المطر فائدتين: أولا: إحياء البلدة الميتة؛

=

=

لأنه قال: {بلدة ميتا}، ولم يقل: ميتة، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [بالتخفيف، يستوي فيه المذكر والمؤنث باعتبار المكان] كذا عندي، لكن الصواب أن يقال: (أو ذكره باعتبار المكان)؛ لأنه إذا استوى فيه المذكر والمؤنث لا يحتاج إلى أن نعلل أنه ذكر باعتبار المكان.

فنقول: الصواب أن يقال: "أو ذكره باعتبار المكان"، فكلمة (ميتا) إذا كان يستوي فيها المذكر والمؤنث صار قولك ميتا أو ميتة على حد سواء، وأما إذا قلنا: إنه للمذكر فحينئذ نحتاج إلى الجواب عن كونه وصف به مؤنث (بلدة) فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [إنه ذكره باعتبار المكان].

قوله: {لنحيي به} (الباء) هنا للسببية، والمحيي هو الله، ولكن المطر سبب.

وقوله: {ميتا} وصف البلدة هنا بالميت هل المراد نفس الأرض تكون ميتة أو ما عليها؟

الجواب: ما عليها؛ لأن الفائدة من الأرض هي ما عليها والذي ترعاه الإبل والبقر والغنم هو ما على الأرض، فإنها لا تأكل التراب والحصى، فإحياؤها باعتبار ما فيها أنه يحيا وينمو ويكبر، فنفس الأرض لا يدخلها الحياة والموت، نفس الأرض يعني الأحجار والطين لا يدخلها الحياة والموت، إنما تدخل الحياة والموت ما فيها، ولهذا قال في آية أخرى: {اهتزت وربت} [الحج: ٥]، والاهتزاز والربو إنما يكون فيما عليها، أما هي فلا تهتز.

قوله: {لنحيي به بلدة ميتا} ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزله ليحيي به البلدة، فيقتضي هذا التعليل أنه ما من قطرة تنزل من السماء إلا ويحصل بها حياة الأرض، وإلا لفسدت العلة، ولكن يقال: هذا سبب، والأسباب قد تتخلف لوجود الموانع، وقد لا تؤثر لوجود الموانع، فذنوب بني آدم من موانع إحياء الأرض لو نزل المطر، ويكون هذا أشد وأنكى وأبلغ في التذكر؛ إذا نزل المطر ولم تنبت الأرض،

=

=

ولهذا جاء في الحديث: "ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئا". وهذا هو الصحيح، أحيانا تأتي أمطار كثيرة ولا تجد حياة في الأرض، وأحيانا تأتي أمطار قليلة وتحيا بها الأرض حياة طيبة، مما يدل على أن هذا المطر سبب لحياة الأرض، ولكن الأسباب قد تتخلف مسبباتها لوجود الموانع.

قوله: {ونسقيه مما خلقنا أنعاما} هذه فائدة أخرى للمطر؛ أنه يسقى به الأنعام والناس، لكن كيف ذلك؟ هل هو بالغدران التي تبقى على وجه الأرض، أو أن هذا الماء يخزن في الأرض، أو بهما؟ بهما جميعا؛ لأن سقي المطر يكون على هذين الوجهين؛ إما غدران تكون في قيعان لا تشرب فينتفع الناس بها، وإما أن الأرض تشربه ويحزن فيها؛ كما قال الله تعالى: {فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين} [الحجر: ٢٢]، بل الذي يخزنه الله سبحانه وتعالى.

قوله: {أنعاما وأناسي} هنا قال: {أنعاما}، وما قال: أنعاما كثيرة، والأناسي قال: {وأناسي كثيرا} وفي هذا التعبير إشكالان:

الإشكال الأول: لماذا وصف الأناسي بالكثير ولم يصف الأنعام بالكثير؟

الإشكال الثاني: أننا نعلم أن الله تعالى يسقي بهذا الماء كل الأناسي، فكل الناس يشربون منه، فلماذا قال: {وأناسي كثيرا}، يعني كأنه يفهم أن من الأناسي من لا يسقى بماء المطر، فما هو الجواب عن الإشكال الأول: وصف الأناسي بالكثرة دون وصف الأنعام؟

إذا قلنا: إن {كثيرا} صفة للأناسي والأنعام زال الإشكال، وقد يقال -والله أعلم- : إن بعض الأنعام لا يحتاج إلى الماء حسب ما نسمع، وبعضها لا يحتاج إلا قليلا جدا، فهناك أشياء كثيرة يعدونها علينا يقولون: لا تحتاج إلى ماء، أو إذا شربت لا

=

=

تشرب إلا قليلا جدا، تقريبا مرة في السنة، فإذا صح هذا فهو من الحكمة، قد يكون هذا من الحكمة بعدم وصفها بالكثرة.

لكن يبقى عندنا الإشكال الثاني في قوله: {وأناسي كثيرا} مع أن جميع الأناسي يشربون؟ ممكن أن نقول: إن الله ﷻ يبين أن الأناسي كثيرون، ولا يلزم من هذا أن بعضهم لا يذكر وأن تكون هذه الكثرة كثرة شاملة، مثلما تقول: الجند كثيرون، أو عند الأمير جند كثير، كلمة (جند كثير) تشمل جميع الجنود وتصفهم بالكثرة، و (أناسي) أيضا تشمل جميع الناس وتصفهم بالكثرة.

إذن الإشكال الذي يتبادر في الأول نتخلص منه بأن نجعل (كثيرا) صفة للأمرين؛ أنعاما كثيرا وأناسي كثيرا، وليس كقول الله تعالى: {وبث منهما رجالا كثيرا ونساء} [النساء: ١]؛ فإن {كثيرا} لا تصح أن تكون صفة للأمرين لأنها مقدمة على النساء، أما هذه فيمكن أن يقال بأنها وصف للمعطوف والمعطوف عليه، وأما {كثيرا} فإنه لبيان الواقع وليس لإخراج البعض، ونظيره في التمثيل -كما تقدم- أن تقول مثلا: عند الأمير جند كثير، أو خرج إلى العدو جيش كثير، فهو وصف له بالكثرة، يعني أناسي ليسوا بالقليلين، فهذا هو المعنى: أنعاما ليست قليلة وأناسي ليسوا قليلين، بل كثيرون، ويكون هذا بيانا لشمول انتفاع الخلق ناطقهم وبهيمهم بهذا الماء؛ أنعاما كثيرا وأناسي كثيرا.

الآن توصلنا إلى أن الكثير صفة للأنعام، والأناسي بالنسبة لكثرة الأنعام هل نقول: كثرة الجنس والأنواع، أو كثرة الأفراد، أو الجميع؟ نقول: الجميع، وبالنسبة للأناسي كثرة الأفراد؛ لأن الأناسي جنس واحد.

لو قال قائل: لماذا ذكر الأنعام قبل الأناسي؟

الجواب: الظاهر -والله أعلم- للكثرة؛ لأنها أكثر أنواعا وأفرادا، والكلام على إفادتها من المطر، فتقديمها لأنها أكثر.

=

وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠).

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ} أَيْ الْمَاء {بَيْنهمْ لِيَذَّكَّرُوا} أَصْله يَتَذَكَّرُوا أُدْغِمَتْ التَّاء فِي الذَّال وَفِي قِرَاءَة لِيَذْكُرُوا بِسُكُونِ الذَّال وَضَمّ الْكَاف أَيْ نِعْمَة الله بِهِ {فَأَبَى أَكْثَر النَّاس إِلَّا كُفُورًا} جُحُودًا لِلنِّعْمَةِ حَيْثُ قَالُوا مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا[1].

=

وقد يقال: إن إحياء الأرض لمصلحة الإنسان، وسقي الأنعام لمصلحة الإنسان، وسقي الإنسان هذه لمصلحة نفسه، فقدم ما يكون انتفاعا غير مباشر للإنسان، ثم أخر الانتفاع المباشر من باب الأبعد في المصالح، فالأبعد لأن الأنعام من مصلحة الإنسان، والأرض إحياؤها من مصلحة الإنسان، وإحياء الأنعام أشد مباشرة والتصاقا بالإنسان من إحياء الأرض؛ لأنه كم من أراض تحيى بالمطر لا ينالها الإنسان ولا ينتفع بها، بخلاف الأنعام.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا} [الفرقان: ٥٠]، أي:"ولقد أنزلنا المطر على أرض دون أخرى؛ ليذكر الذين أنزلنا عليهم المطر نعمة الله عليهم، فيشكروا له، وليذكر الذين مُنعوا منه، فيسارعوا بالتوبة إلى الله -جل وعلا- ليرحمهم ويسقيهم".

قال الطبري: يقول: "ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهورا لنحيي به الميت من الأرض بين عبادي، ليتذكروا نعمي عليهم، ويشكروا أيادي عندهم وإحساني إليهم".

قال مقاتل:"يعني: المطر بين الناس يصرف المطر أحيانا مرة بهذا البلد ومرة ببلد آخر، فذلك التصرف، {ليذكروا} في صنعه فيعتبروا في توحيد الله- ﷻ- فيوحده".

قال الزجاج:"أي: صرفنا المطر بينهم ليتفكروا في نعم الله عليهم فيه، ويحمدوه على دلك".

=

=

قال ابن كثير:"أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة، أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات، والعظام الرفات، أو: ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه".

عن مجاهد، قوله: "{ولقد صرفناه بينهم}، قال: المطر ينزله في الأرض، ولا ينزله في الأرض الأخرى".

عن عكرمة، " {ولقد صرفناه بينهم}، قال: الغيث يسقي هذه ويمنع هذه".

قال ابن زيد:"المطر مرة هاهنا، ومرة هاهنا".

قال قتادة:"وإن الله ﷻ قسم هذا الرزق بين عباده وصرفه بينهم".

قال ابن عباس:"ما عام بأكثر مطرا من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه؛ قال: ثم قرأ: {ولقد صرفناه بينهم}". وفي رواية:"ولكنه يصرفه في الأرضين".

قال عبد الله بن مسعود:"ليس عام بأمطر من عام، ولكنه يصرفه، ثم قال عبد الله: {ولقد صرفناه بينهم}".

قال عمر مولى غفرة: "كان جبريل، عليه السلام، في موضع الجنائز، فقال له النبي ﷺ: «يا جبريل، إني أحب أن أعلم أمْرَ السحاب؟» قال: فقال جبريل: يا نبي الله، هذا ملك السحاب فسله. فقال: تأتينا صَكاكٌ مُخَتَّمة: اسق بلاد كذا وكذا، كذا وكذا قطرة".

وقال ابن جابر: "سألت عطاء الخراساني، عن قول الله: {ولقد صرفناه بينهم ليذكروا}، قال: القرآن ألا ترى إلى قوله فيها: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}".

=

=

قوله تعالى: {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} [الفرقان: ٥٠]، أي:"فأبى أكثر الناس إلا جحودًا لنعمنا عليهم".

قال مقاتل:"يعني: إلا كفرا بالله- تعالى- في نعمه".

قال الطبري:"يقول: إلا جحودا لنعمي عليهم، وأيادي عليهم".

قال الزجاج:"وهم الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا، أي: بسقوط كوكب كذا،، كما يقول المنجمون، فجعلهم الله بذلك كافرين".

عن عكرمة: "{فأبى أكثر الناس إلا كفورا}، قال: قولهم في الأنواء".

قيل لعكرمة: "ما كفرهم؟ قال: يقولون: مطرنا بالأنواء، فأنزل الله في الواقعة: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}".

عن زيد بن خالد، قال: «خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فقال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب».

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولقد صرفناه} أي الماء {بينهم ليذكروا} أصله (يتذكروا) وأدغمت التاء في الذال. وفي قراءة "ليذكروا" بسكون الذال وضم الكاف، أي: نعمة الله به، {فأبى أكثر الناس إلا كفورا} جحودا للنعمة حيث قالوا: مطرنا بنوء كذا].

قوله: {ولقد صرفناه بينهم} التصريف هنا معناه: صرفت الشيء يعني غيرته

=

=

وصرفته عن وجهه، يعني أن الله تعالى غير هذا المطر بالنسبة للناس ووزعه بينهم ما بين مقل ومستكثر، فمنهم من يكثر المطر عنده، ومنهم من يقل، هذا بالنسبة للبينية، كذلك أيضا صرفه الله سبحانه وتعالى بينهم بالنسبة لكل أحد، أحيانا يكون المطر كثيرا في عام وقليلا في عام.

وقوله: {ليذكروا} المصنف جعل التذكر هنا تذكر النعمة فقط، ولكن الأصح أنه أعم، {ليذكروا} أي نعمة الله فيما إذا نزل عليهم، و {ليذكروا} يتعظوا ويذكروا ما هم عليه من المعاصي والآثام فيما إذا لم ينزل، وكذلك أيضا "ليذكروا" بذلك قدرة الله، حيث صرف في محل دون محل، فالمهم أن تصريف هذا المطر في محل دون محل أو في سنة دون سنة هذا لا شك أنه سبب لتذكر الإنسان، إما تذكر النعمة إذا كان ناسيا، وإما تذكر النقمة ومعاصيه إذا كان ممتنعا، وإما تذكر القدرة حينما يعرف أنه في مكان يكون غزيرا وفي مكان يكون قليلا.

وقوله: {فأبى أكثر الناس إلا كفورا} يعني امتنع أكثر الناس عن التذكر ولم يزدهم إلا كفرا.

وقوله: {فأبى أكثر الناس} أي أكثر الناس أبى، والأقل شكر وتذكر واتعظ، ولكن أكثر الناس أبى إلا أن يكفر، والكفر ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ منه مثالا واحدا، وهو قوله: [مطرنا بنوء كذا]، ويستدل لما مثل به المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث زيد بن خالد الجهني حين صلى بهم على إثر سماء كانت من الليل في الحديبية فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب"، فهذا كفر، وكيف يكون كفرا؟ لأنه أضاف المطر إلى أمر ليس بسبب، وجعل هذا من فضل هذا النوء، وليس من فضل الله

=

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١).

{وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلّ قَرْيَة نَذِيرًا} يُخَوِّف أَهْلهَا وَلَكِنْ بَعَثْنَاك إِلَى أَهْل الْقُرَى كُلّهَا نَذِيرًا لِيَعْظُم أَجْرك.

فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢).

{فَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ} فِي هَوَاهُمْ {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ} أي القرآن {جهادا كبيرا}

=

سبحانه وتعالى، وهو حرام وكفر كما جاء به الحديث.

أما لو قال الإنسان: (مطرنا في نوء كذا)؛ فيجوز لأنها للظرفية، وأما (بنوء) فلا يجوز؛ لأنها للسببية، لكن عند العامة -عامتنا هنا في نجد- يجعلون (الباء) بمعنى (في)، يقولون: مطرنا بالشبط، مطرنا بالمربعانية، وما أشبه ذلك، فهذا ليس بكفر، نقول: إن (الباء) تأتي للظرفية كثيرا، وهم يريدون بها الظرفية، فلا بأس به، حسب النية.

ومن الكفر بهذا المطر مما لم يذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يجعل ذلك سببا للأشر والبطر، مثلما يحصل من بعض الناس إذا نزلت الأمطار وكثرت الأبيار؛ صارت سببا لأشره وبطره وفسوقه، فهذا من أسبابه، ومن أسباب الكفر أيضا أنه إذا امتنع المطر صار امتناعه سببا لقنوط الإنسان من رحمة الله سبحانه وتعالى، والقنوط من رحمة الله من كبائر الذنوب، وليس بالأمر الهين، فلا يجوز للإنسان أن يقنط من رحمة الله، ولا أن يأمن مكر الله، لا هذا ولا هذا.

وقوله ﷻ: {فأبى أكثر الناس} في هذا دليل على أن الناس ينقسمون إلى قسمين: كافر ومؤمن، وهو كذلك، لكن ليس في هذه النعمة فقط، بل بجميع النعم، فمن الناس من يؤمن بها، ومن الناس من يكفر بالله سبحانه وتعالى وبهذه النعم.

.[1]

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا} [الفرقان: ٥١]، أي:"ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا، يدعوهم إلى الله ﷻ، وينذرهم عذابه".

قال الطبري: يقول:"ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كل مصر ومدينة نذيرا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فيخف عنك كثير من أعباء ما حملناك منه، ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة، ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعد الله لك من الكرامة عنده، والمنازل الرفيعة قبله".

عن قتادة، قوله: "{في كل قرية نذيرا}، قال: لها رسل".

قوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ} [الفرقان: ٥٢]، أي:"فلا تطع الكافرين في ترك شيء مما أرسلتَ به".

قال يحيى:"فيما ينهونك عنه من طاعة الله".

قال الطبري:"فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم، فنذيقك ضعف الحياة وضعف الممات".

قوله تعالى: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} [الفرقان: ٥٢]، أي:"وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، لا يخالطه فتور".

قال الطبري:"ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويذعنوا للعمل بجميعه طوعا وكرها".

قال يحيى:": {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ}: بالقرآن، هذا الجهاد باللسان يومئذ بمكة قبل أن يؤمر بقتالهم".

وقال السدي: "بالقول".

عن ابن عباس، قوله " {فلا تطع الكافرين وجاهدهم به}، قال: بالقرآن".

عن ابن زيد، قوله: "{وجاهدهم به جهادا كبيرا}، قال: الإسلام. وقرأ: {واغلظ =

=

عليهم}، وقرأ: {وليجدوا فيكم غلظة}، وقال: هذا الجهاد الكبير".

المعنى: لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة، وبعثنا في كل قرية نذيرًا يتولى مشقة إنذارها عنك، أي: ولكننا اصطفيناك، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس؛ تعظيمًا لشأنك، ورفعًا من منزلتك، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام في إبلاغ الرسالة، ولا تطع الكافرين... الآية.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من اصطفائه ﷺ بالرسالة لجميع الناس، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} وقوله: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} وقوله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} الآية.

وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة في الكلام على قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)}.

وقوله: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ} ذكره أيضًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} الآية، وقوله: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)} وقوله: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} الآية. وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠)}.

وقوله في هذه الآية الكريمة: وجاهدهم به، أي: بالقرآن كما روي عن ابن عباس.

والجهاد الكبير المذكور في هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} الآية. وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}.

وقوله تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ} من المعلوم أنه ﷺ لا يطيع الكافرين، ولكنه يُؤمر، ويُنهى؛ ليشرع لأمته على لسانه، كما أوضحناه في سورة بني إسرائيل.

=

=

قال ابن عاشور: جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرد الله بالخلق وذكر منته على الخلق. ومناسبة موقع هذه الجملة وتفريعها بموقع الآية التي قبلها خفية. وقال ابن عطية في قوله ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا: اقتضاب يدل عليه ما ذكر. تقديره: ولكنا أفردناك بالنذارة وحملناك فلا تطع الكافرين اه.

فإن كان عنى بقوله: اقتضاب، معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب والبيان، وهو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتقل منه والكلام المنتقل إليه، كان عدولا عن التزام تطلب المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها، وليس الخلو عن المناسبة ببدع فقد قال صاحب «تلخيص المفتاح» «وقد ينقل منه (أي مما شبب به الكلام) إلى ما لا يلائمه (أي لا يناسب المنتقل منه) ويسمى الاقتضاب وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين» إلخ. وإذا كان ابن عطية عنى بالاقتضاب معنى القطع (أي الحذف من الكلام) أي إيجاز الحذف كما يشعر به قوله «يدل عليه ما ذكر تقديره إلخ»، كان لم يعرج على اتصال هذه الآية بالتي قبلها.

وفي «الكشاف»: «ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا في كل قرية نبيئا ينذرها، وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك على سائر الرسل (أي بعموم الدعوة) فقابل ذلك بالتصبر» اه. وقد قال الطيبي: «ومدار السورة على كونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس بقوله تعالى:

ليكون للعالمين نذيرا [الفرقان: ١].

وليس في كلام «الكشاف» والطيبي إلا بيان مناسبة الآية لمهم أغراض السورة دون بيان مناسبتها للتي قبلها.

والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه

=

=

القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] الآية، فبعد أن بين إبطال طعنهم فقال: كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام وكيف استأصل الله من كذبوه، ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبيء ﷺ وأشار إلى تحرج النبيء ﷺ من إعراض قومه عن دعوته بقوله:

أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا [الفرقان: ٤٣].

وتسلسل الكلام بضرب المثل بمد الظل وقبضه، وبحال الليل والنهار، وبإرسال الرياح، أمارة على رحمة غيثه الذي تحيا به الموات حتى انتهى إلى قوله: ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ويؤيد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله وجاهدهم به.

ومما يزيد هذه الآية اتصالا بقوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] أن في بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزأ فلو بعث الله في كل قرية نذيرا لقال الذين كفروا: لولا أرسل رسول واحد إلى الناس جميعا فإن مطاعنهم لا تقف عند حد كما قال تعالى: ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي في سورة حم فصلت وتفريع فلا تطع الكافرين على جملة ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا لأنها تتضمن أنه مرسل إلى المشركين من أهل مكة وهم يطلبون منه الكف عن دعوتهم وعن تنقص أصنامهم.

والنهي مستعمل في التحذير والتذكير، وفعل تطع في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة.

والطاعة: عمل المرء بما يطلب منه، أي فلا تهن في الدعوة رعيا لرغبتهم أن تلين لهم.

=

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَـذَا عَـذْبٌ فُـرَاتٌ وَهَـذَا مِلْـحٌ أُجَـاجٌ وَجَعَـلَ بَيْنَهُمَـا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣).

{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} أَرْسَلَهُمَا مُتَجَاوِرَيْنِ {هَـذَا عَـذْب فُـرَات} شَـدِيد الْعُذُوبَة {وَهَذَا مِلْح أُجَاج} شَـدِيد الْمُلُوحَة {وَجَعَـلَ بَيْنهمَـا بَرْزَخًـا} حَـاجِزًا لَا

=

وبعد أن حذره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها. وعبر عن ذلك بالجهاد وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة. وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف ولذلك وصف بالجهاد الكبير، أي الجامع لكل مجاهدة.

وضمير به عائد إلى غير مذكور: فإما أن يعود إلى القرآن لأنه مفهوم من مقام النذارة، وإما أن يعود إلى المفهوم من «لا تطع» وهو الثبات على دعوته بأن يعصيهم، فإن النهي عن الشيء أمر بضده كما دل عليه قول أبي حية النميري:

فقلن لها سرا فديناك لا يرح ... صحيحا وإن لم تقتليه فألمم

فقابل قوله: «لا يرح صحيحا» بقوله: «وإن لم تقتليه فألمم» كأنه قال: فديناك فاقتليه.

والمعنى: قاومهم بصبرك. وكبر الجهاد تكريره والعزم فيه وشدة ما يلقاه في ذلك من المشقة. وهذا

كقول النبيء ﷺ لأصحابه عند قفوله من بعض غزواته «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: «وما الجهاد الأكبر» ؟ - قال: مجاهدة العبد هواه»

. رواه البيهقي بسند ضعيف.

يَخْتَلِط أَحَدهمَا بِالْآخَرِ {وَحِجْرًا مَحْجُورًا} سِتْرًا مَمْنُوعًا به اختلاطهما[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ} [الفرقان: ٥٣]، أي:"والله هو الذي خلط البحرين".

قال المراغي:"أي: ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لا يمتزجان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر، وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط، ثم يقال للتخلية مرج؛ لأن الرجل إذا خلى الشيء حتى اختلط بغيره، فكأنه قد مرجه، ومنه الخبر عن النبي ﷺ، وقوله لعبد الله بن عمرو: «كيف بك يا عبد الله إذا كنت في حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا وشبك بين أصابعه». يعني بقوله: قد مرجت: اختلطت، ومنه قول الله: {في أمر مريج}، أي: مختلط. وإنما قيل للمرج مرج من ذلك، لأنه يكون فيه أخلاط من الدواب، ويقال: مرجت دابتك: أي خليتها تذهب حيث شاءت. ومنه قول الراجز: رعى بها مرج ربيع ممرج".

عن ابن عباس، قوله: "{وهو الذي مرج البحرين}، يعني: أنه خلع أحدهما على الآخر".

قال الضحك:"يقول: خلع أحدهما على الآخر".

قال مجاهد:"أفاض أحدهما على الآخر".

قوله تعالى: {هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [الفرقان: ٥٣]، أي:"العذب السائغ الشراب، والملح الشديد الملوحة".

قال الطبري:"الفرات: شديد العذوبة، يقال: هذا ماء فرات: أي شديد العذوبة وقوله {وهذا ملح أجاج}، يقول: وهذا ملح مر، يعني بالعذب الفرات: مياه الأنهار والأمطار، وبالملح الأجاج: مياه البحار، وإنما عنى بذلك أنه من نعمته =

=

على خلقه، وعظيم سلطانه، يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته، لئلا يضر إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء".

قال الزجاج:"فرات: صفة لعذب، والفرات أشد المياه عذوبة، والمعنى هذا عذب أشد الماء عذوبة، {وهذا ملح أجاج}، والأجاج صفة للملح، المعنى وهذا ملح أشد الملوحة".

قال عطاء:"وأما الفرات فالماء العذاب وفي قوله: وهذا ملح أجاج وأما الأجاج: فالماء المالح".

عن قتادة قوله: "{وهذا ملح}، أجاج، أي: مر".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٥٣]، أي:"وجعل بينهما حاجزًا يمنع كل واحدٍ منهما من إفساد الآخر".

قال ابن كثير:"أي: بين العذب والمالح حاجزًا، وهو اليَبَس من الأرض".

قال السعدي:"أي: حاجزا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر فتذهب المنفعة المقصودة منها".

قال السمعاني:"يقال: باليبس بين البحرين، وقيل: بالهواء بين بحر السماء وبحر الأرض، وقيل: بالقدرة بين الملح والعذب، فلا يختلط الملح بالعذب، ولا العذب بالملح، وهذا في موضع مخصوص بخليج مصر، والبرزخ هو الحاجز".

قال الزجاج:"البرزخ: الحاجز فهما في مرأى العين مختلطان، وفي قدرة الله ﷻ منفصلان لا يختلط أحدهما بالآخر".

عن الحسن: "{وجعل بينهما برزخا}، قال: هو اليبس".

عن مجاهد، قوله: "{برزخا}، قال: محبسا".

قال مجاهد: "البرزخ: عرض الدنيا".

=

=

عن مجاهد: "{برزخا}: حجازا لا يراه أحد لا يختلط العذب بالبحر ولا يختلط بحر الروم وفارس وبحر الروم ملح".

قال ابن جريج: "فلم أجد بحرا عذبا إلا الأنهار العذاب تمور فيه بينهما مثل الخيط الأبيض فإذا رجعت لم ترجع في طريقهما من البحر شيء والنيل زعموا ينصب في البحر فلم أجد في قول مجاهد العذب بالبحر فلم أجد العذاب إلا الأنهار".

عن الضحاك قوله: "{برزخا}، قال: بينهما البرزخ، وهو الأجل ما بين الدنيا والآخرة".

قال قتادة:"البرزخ: التخوم".

قال الطبري:"فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضا أو يبسا لم يكن هناك مرج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه،

فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبا، وفيه أعظم العبر والمواعظ والحجج البوالغ".

قوله تعالى: {وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٥٣]، أي:"وجعل بينهما مانعًا مِن أن يصل أحدهما إلى الآخر".

قال السعدي:"أي: حاجزا حصينا".

قال السمعاني:"أي: مانعا ممنوعا، قال الشاعر:

فرب ذي سرادق محجور... سرت إليه من أعالي السور".

=

=

قال مقاتل:"يعني: حجابا محجوبا فلا يختلطان ولا يفسد طعم الماء العذب".

قال يحيى:"محرما أن يغلب أحدهما على الآخر".

قال ابن كثير:"أي: مانعًا أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقال تعالى: {أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [النمل: ٦١]".

عن ابن عباس قوله: "{وحجرا محجورا}، يقول: حجز أحدهما، عن الآخر بأمره وقضائه وهو مثل قوله: وجعل بين البحرين حاجزا".

عن مجاهد، قوله: "{حجرا محجورا}، لا يختلط البحر بالعذب".

قال قتادة:"حجر العذب، عن المالح والمالح، عن العذب".

عن الضحاك قوله: "{حجرا محجورا}، قال: جعل بينهما حاجزا من أمره لا يسيل المالح على العذب ولا العذب على المالح".

عن خصيف، قوله:"{وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا}، قال: حجازا محجوزا".

عن ابن زيد، قوله:"{وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا}، قال: جعل بينهما سترا لا يلتقيان قال: والعرب إذا كلم أحدهما الآخر بما يكره قال: سترا دون الذي تقول".

قال العثيمين: قوله ﷻ: {وجعل بينهما برزخا} إن احتملت الآية أن يكون هناك شيء فاصل لا نعرفه نحن؛ لأن الفصل هنا بين الملح والحلو بذاتهما، يعني ليس أمرا يحجز هذا عن هذا، إنما الفاصل في نفس الحلاوة ونفس المر، فليس بينهما شيء، إنما طبيعة هذا وطبيعة هذا تقتضي أن ينفصل بعضهما عن بعض، فإذا كان

=

=

القرآن استنبط هذا فهذا لا شك أنه من أعظم الآيات أن يكون مثلا نهر يمشي مسافة طويلة في وسط الماء المالح ولا يختلط به.

أنا أقول: إن السبب كثرة هذا وكثرة هذا، أو ملوحة هذا وحلاوة هذا، لكن كلمة {بينهما برزخا} تدل على أن الفاصل في الحقيقة هي أن حقيقة هذا لا تتلاءم مع حقيقة هذا، ويكون البرزخ شيئا ثالثا بينهما، فالبينية تقتضي طرفين وشيئا بينهما.

على كل حال نقول: إذا كان القرآن يحتمل هذا المعنى -والله أعلم- لكن ليس لنا أن نتعدى اللفظ، في الحقيقة كلمة البينية تقتضي أنها ثلاثة أطراف؛ اثنان ووسط بينهما، فإذا كان القرآن يحتمل أن نجعل بينهما بمعنى: في حقيقتيهما وتكوينهما؛ لأننا فهمنا أن سبب عدم البغي ليس شيئا فاصلا بينهما، إنما حقيقة تكوين هذا وهذا، فقطعة الثلج لا تستطيع أن تقول: بينها وبين الماء برزخ، وحقيقة ليس بينهما شيء.

فلو قيل: هذا من آيات الله؟

نقول: نحن لا نقول: هذا ليس من آيات الله، لكن الكلام على دلالة القرآن على هذا، فهل لنا أن نتجاوز البينية: {بينهما برزخ لا يبغيان} [الرحمن: ٢٠]، {وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا}، هل لنا أن نتجاوز هذا ونقول: إن البينية هنا كناية عن أن حقيقة هذا لا تندمج بهذا؟

من العلماء من قال: دخول الأنهار في البحار، لكن يشكل عليه قوله ﷻ: {بينهما}، ولهذا ضعفنا هذا القول، وقلنا: هذا لا يمكن. وفي الحقيقة الذي ينظر إلى كلمة {بينهما برزخا} هي مانع، أما كونهما لا يختلطان فهذا واضح.

لو قال قائل: قوله: {برزخ} برزخ هل هو حاجز حسي أو مجرد قوله: حاجز يعني مانعا، فالمانع قد يكون من الشيء نفسه، وقد يكون من غيره؟

فأنت إذا قلت: بينك وبين صاحبك حجر، أي مكان، فالبحر أيضا ماء، فكيف

=

=

يكون بينهما حيز، وأما قولك: بينه وبين فلان من العلم، فصحيح؛ لأن العلم أصلا معنى، لكن الماء والماء جسم يشغلان حيزا.

على كل حال، أنا لا أستطيع أن أجزم الآن، نحن نفسر كلام الله، فإذا كان القرآن يحتمل هذا المعنى الذي تقدم فهذا لا شك أنه من إعجاز القرآن، إذا كان كلمة {بينهما برزخا} تمنع هذا الاحتمال، ونقول: إن البرزخية هنا في الحقيقة تقتضي شيئا ثالثا غير البحرين، نحن نقول: الحمد لله هذا الذي اطلعنا عليه بالعلم يكون من آيات الله سبحانه وتعالى وإن كان القرآن لا يدل عليه.

لو قال قائل: ألا يمكن أن نقول: إن البرزخ جزء ضئيل من هذا وهذا اندمجا فكان كالحاجز؟

نقول: إذا ثبت هذا فيمكن أن نقول: النسبة مثلا التي بينهما لا تكون حلوا خالصا ولا ملحا خالصا.

لو قال قائل: هل كلمة برزخ تقاس بالنسبة للبرزخ المعروف في الدنيا والآخرة؟

نقول: يمكن، والله أعلم.

لو قال قائل: أحيانا على ضوء مكتشف علمي لا بأس من إعطاء معنى معين؛ لأنه أحيانا في غياب هذا الواقع العلمي قد يشكل معنى آية، وأذكر أنا تفسير آية في سورة النور: {أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج} [النور: ٤٠]، فأكثر المصنفين قالوا: بما أنه لا يوجد موجان فوق بعضهما، فالفوق هنا يحمل على معنى {من فوقه موج}، وهذا تأويل لا تحتمله كثيرا اللغة العربية.

وقد قرأت بحثا من مدة حوالي خمس سنوات لعالم في أمريكا، أصله مصري وأخذ جنسية أمريكية، مشهور في أبحاث الفضاء، نزل في غواصة من أجل اكتشاف أعماق المحيطات، فقال: إن الرأي الغالب كان عند العلماء قبل هذه التجربة أن باطن المحيطات والبحار ساكن تماما، قال: وإذا بنا نفاجأ أن في قاع المحيطات

=

=

أمواجا، والأمواج التي على السطح لا تذكر أمام تلك الأمواج من شدتها وعظمتها، فالآن كلمة {فوقه} لم يعد هناك مبرر لتأويلها، وإنما (فوق) أي هناك موج في الأسفل يعلوه موج في الأعلى، فوجود الظاهرة الكونية العلمية يساعد على توجيه المعنى في اتجاه معين بدون تعسف في المعنى، فحتى الأمواج الظاهرية التي على سطح البحر يكون الموج قليل الارتفاع ثم يأتي موج أكبر منه.

على كل حال الآية تحتمل ثلاثة معان:

- المعنى الذي ذكره كثير من المصنفين.

- والمعنى الذي ذكرنا.

- والمعنى الثالث: أيضا رجل عراقي في كتاب اسمه: (حقائق جغرافية)، ذكر هذا المعنى الذي أشرنا إليه. والمعنى الثالث إذا كانت الآية تحتمله، وهي هذه الأنهار التي تكون في وسط المحيطات، وسمعنا النقاش الآن في كلمة: {بينهما} وما تحتمله، وإذا كانت هناك طبقة عند اختلاطهما تكون بين الحلو وبين المالح أمكن أن يقال: هذا برزخ، على ثقل؛ لأن ظاهره أن البرزخ هو المانع، فيمكن أن يقال: هو مانع من أن يختلطا لأجل المقاربة.

على كل حال هذه البينية في كلمة {بينهما} تقتضي أن هناك شيئا ثالثا، لا من هذا ولا من هذا.

لو قال قائل: البحارة يجدون عيونا في البحر حلوة، ما صحة هذا؟

نقول: سمعنا هذا، أن العين تخرج من قاع البحر، لكن تختلط بعد ذلك، وهم يأخذون من نفس العين، لكن هذا الذي ذكروه أن أنهارا في وسط الماء هذا غريب.

الآن -الحمد لله- صار في الآية ثلاثة معان، ويبقى المعنى الثالث محتملا من جهة البينية، وإذا صح نقول: إنه عند ملاقاتهما لابد أن يكون بينهما برزخ، ليس حلوا ولا مالحا، والله أعلم.

=

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤).

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاء بَشَرًا} مِنْ الْمَنِيّ إنْسَانًا {فَجَعَلَهُ نَسَبًا} ذَا نَسَب {وَصِهْرًا} ذَا صِهْر بِأَنْ يَتَزَوَّج ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى طَلَبًا لِلتَّنَاسُلِ {وَكَانَ رَبّك قَدِيرًا} قَادِرًا عَلَى مَا يَشَاء[1].

=

والحقيقة أن كونه لا يختلط عند المصب هذا ليس بواضح، أنا ليس عندي شك في المعنى الذي أشرت إليه سابقا أن هذا من آيات الله ﷻ وهذا الحاجز طبيعي، ولو قربا من بعضهما فلا يفسد المعنى، هذا ليس عندي فيه شك، لكن الذي عندنا فيه شك قد يوجد احتمال أن هذا الفاصل الذي ذكرناه يصح أن نجعله برزخا؛ لأنه في الحقيقة ليس من المالح وليس من العذب.

على كل حال الآية فيها احتمال، ويمكن أن نقول أيضا: إن الفاصل هذا الذي يكون ليس بحلو ولا مر، إنه: حجرا محجورا، والله أعلم.

لو قال قائل: قوله تعالى: {برزخا} ثم قال: {وحجرا محجورا} أليس معناهما واحدا؟

فالجواب: لا، الفائدة التقوية، حتى قوله: {وحجرا محجورا} فيه فائدة، والمعنى أنه محكم حجره.

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا} [الفرقان: ٥٤]، أي:"وهو الذي خلق مِن منيٍّ الرجل والمرأة ذرية ذكورًا وإناثًا".

قال مقاتل:"يعني: النطفة إنسانا".

قال الطبري:"والله الذي خلق من النطف بشرا إنسانا".

قال ابن كثير:"أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعَدّله، وجعله كامل الخلقة، ذكرًا أو أنثى، كما يشاء".

قال السعدي:"أي: وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق الآدمي من ماء مهين".

=

=

عن أنس بن مالك، قال: "سئل رسول الله ﷺ، عن العزل، فقال: لو أن الماء الذي يكون منه الولد صب على صخرة لأخرج الله منها ما قدر ليخلق الله نفسا هو خالقها".

قوله تعالى: {فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} [الفرقان: ٥٤]، أي:"فنشأ من هذا قرابة النسب وقرابة المصاهرة".

قال الطبري:"فجعله نسبا، وذلك سبعة، وصهرا، وهو خمسة".

قال مقاتل:"يعني: الإنسان نسبا وصهرا، أما النسب فالقرابة سبع: أمهاتكم وبناتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ والصهر من القرابة له خمس نسوة، أمهاتكم اللاتي أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم، فهذا من الصهر".

قال ابن كثير:"فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات. وكل ذلك من ماء مهين".

قال السمعاني:"النسب: نسبة من قرابة، والصهر خلطة من غير النسب، والله تعالى حرم سبعا بالنسب، وسبعا بالسبب، ويقال: النسب ما يوجب الحرمة، والصهر مالا يوجب الحرمة".

قال السعدي:"جعلهم أنسابا وأصهارا متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين".

قال الضحاك:"النسب: الرضاع". وفي رواية:"الصهر الختونة".

قال طاووس:"الرضاعة من الصهر".

عن الضحاك: قوله: "{فجعله نسبا وصهرا}، النسب: سبع، قوله: {حرمت عليكم أمهاتكم}... إلى قوله {وبنات الأخت}، والصهر خمس، قوله:

=

=

{وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم}... إلى قوله {وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم}".

قال قتادة:"ذكر الله الصهر مع النسب وحرم أربعة عشرة امرأة، سبعا من النسب وسبعا من الصهر، واستوى تحريم الله في النسب والصهر".

قوله تعالى: {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} [الفرقان: ٥٤]، أي:"وكان ربك قديرًا على خلق ما يشاء".

قال مقاتل:"على ما أراده".

قال الطبري:"يقول: وربك يا محمد ذو قدرة على خلق ما يشاء من الخلق، وتصريفهم فيما شاء وأراد".

قال السعدي:"يدل على كمال اقتداره".

عن ابن عباس قال: "أتاه رجل فقال: يا ابن عباس سمعت الله يقول: {وكان الله} كأنه شيء كان، قال: أما قوله: {وكان الله}، فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن".

قال العثيمين: من كمال قدرة الله سبحانه وتعالى أن خلق من الماء بشرا وقسمه إلى قسمين، هما: النسب، والصهر أي الزوجية، وقلنا: إن هذه أسباب الصلة بين الناس؛ إما صلة بالولادة؛ النسب، أو بالنكاح وهو المصاهرة.

وقوله: {وكان ربك قديرا} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [قادرا على ما يشاء]، نحن نناقش المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسر قدير بقادر، وفي تقييد المطلق بما يشاء:

أولا: أما تفسير قدير بقادر فهذا يعتبر نقصا في التفسير؛ وذلك لأن {قديرا} إما أن تكون صفة مشبهة، وإما أن تكون صيغة مبالغة، أما قادر فهي اسم فاعل مجرد، لا تدل على ما تدل عليه الصفة المشبهة، ولا على ما تدل عليه صيغة المبالغة، فهذا نوع من القصور في تفسير القرآن.

=

=

ثانيا: إن القرآن مطلق {وكان ربك قديرا}، وهنا قيده بقوله: [على ما يشاء] وكلمة (على ما يشاء) نحن نعرف أن من الناس من يكون هذا القيد عنده دالا على بدعة ارتكبها؛ لأن القدرية يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لا يقدر إلا على ما يشاء، وإنه لا يشاء أفعال العباد، وعلى هذا فلا يكون قادرا عليها، ولا شك أن هذا قول تبطله النصوص والعقل، فالله هو الذي يهدي ويضل، وما معنى الهداية والإضلال إلا أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء حتى فيما يتعلق بأفعال العبد، لهذا نرى أن تقييد القدرة بالمشيئة لا ينبغي ولا يليق للوجوه الآتية:

أولا: أن الله سبحانه وتعالى أطلق هذا الوصف لنفسه بدون قيد، ولا ينبغي لنا أن نقيد ما أطلقه الله؛ لأن صفات الله توقيفية يتوقف فيها على ما ورد.

ثانيا: أنه خلاف طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه، بل طريقة الرسل كلهم؛ لأنهم يقولون: {ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير} [التحريم: ٨]، لا يقولون: إنك على ما تشاء قدير، بل يقولون: إنك على كل شيء قدير.

ثالثا: أنه يوهم أن القدرة تتعلق بما يشاء فقط، وعلى هذا فيكون ما لا يشاؤه ليس بمقدور عليه، وهذا معنى باطل، فهو قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو قادر على الأمرين جميعا، ليس على ما يشاء فقط.

من أجل هذه الوجوه الثلاثة نرى أن التعبير بها لا ينبغي، وأنه مما يرشد إليه العبد ويقال له: لا تقل هكذا، لا تقيد ما أطلقه الله لنفسه، على أساس أن الذي يقوله لا يريد هذا المعنى، نقول: يرشد ويقال: هذا لا ينبغي.

وإذا قيل: ما الجمع، أو ما هو الجواب عن قول الله ﷻ: {ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير}

=

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥).

{وَيَعْبُدُونَ} أَيْ الْكُفَّار {مِنْ دُون الله مَا لَا يَنْفَعهُمْ} بِعِبَادَتِهِ {وَلَا يَضُرّهُمْ} بِتَرْكِهَا وَهُوَ الْأَصْنَام {وَكَانَ الْكَافِر عَلَى رَبّه ظَهِيرًا} مُعِينًا للشيطان بطاعته[1].

=

[الشورى: ٢٩]، فهنا قال: {على جمعهم إذا يشاء قدير}، ونحن نمنع تعليق القدرة بالمشيئة؟

فالجواب: أن تقييد المشيئة بالجمع؛ لأن الجمع فعل، وهذا الفعل ينكره الكفار المكذبون بالبعث، فيقول الله سبحانه وتعالى: إن المانع من ذلك ليس العجز ولكنه عدم المشيئة، فإذا شاء أن يجمعهم جمعهم، خلافا لمن ينكرون ذلك، لمن يقولون: إنه لا يمكن أن يجمعهم، فيكون التقييد هنا بالفعل، أي أن تقييد المشيئة عائد على الفعل، لا على القدرة، فهو قادر على جمعهم كل وقت، لكنه لما كان ﷻ لا يريد أن يجمعهم إلا في وقت معين {قل إن الأولين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} مؤقت {وما نؤخره إلا لأجل معدود (١٠٤)} [هود: ١٠٤]، كل الدنيا أجل معدود، ناهيك عن قصرها مهما طالت.

فنقول: إن هذا عائد على الجمع، وهو فعل، فكأن الله يقول: إنه إذا أراد هذا الفعل فهو قادر عليه، فعلى هذا لا يرد ما ذكر في سابقا ولا ما جاء في الآية الكريمة من تقييد بالمشيئة؛ لأن هذا التقييد عائد على الفعل، ولم يرد به الصفة المطلقة: صفة القدرة، وهو ظاهر جدا بالنسبة للحديث؛ لأنه قال: "على ما أشاء قادر".

إذن نرجع إلى كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فنقول: كلام المصنف فيه نظر من وجهين: الوجه الأول: تفسير القدير بالقادر، والثاني: تقييد ذلك بالمشيئة.

(١) قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ} [الفرقان: ٥٥]، أي:"ومع كل هذه الدلائل على قدرة الله وإنعامه على خلقه يَعبدُ الكفار مِن دون

=

=

الله ما لا ينفعهم إن عبدوه، ولا يضرهم إن تركوا عبادته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهة لا تنفعهم، فتجلب إليهم نفعا إذا هم عبدوها، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها، ويتركون عبادة من أنعم عليهم هذه النعم التي لا كفاء لأدناها، وهي ما عدد علينا جل جلاله في هذه الآيات من قوله: {ألم تر إلى ربك كيف مد الظل} إلى قوله: {قديرا}، ومن قدرته القدرة التي لا يمتنع عليه معها شيء أراده، ولا يتعذر عليه فعل شيء أراد فعله، ومن إذا أراد عقاب بعض من عصاه من عباده أحل به ما أحل بالذين وصف صفتهم من قوم فرعون وعاد وثمود وأصحاب الرس، وقرونا بين ذلك كثيرا، فلم يكن لمن غضب عليه منه ناصر، ولا له عنه دافع".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرا، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنون فيهم".

قال السعدي:"أي: يعبدون أصناما وأمواتا لا تضر ولا تنفع ويجعلونها أندادا لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية".

قوله تعالى: {وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} [الفرقان: ٥٥]، أي:"وكان الكافر عونًا للشيطان على ربه بالشرك في عبادة الله، مُظَاهِرًا له على معصيته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكان الكافر معينا للشيطان على ربه، مظاهرا له على معصيته".

قال مقاتل:"يعني: معينا للمشركين على ألا يوحدوا الله- ﷻ-".

قال ابن كثير:"أي: عونا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم

=

=

الغالبون، كما قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس: ٧٤ - ٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويَذبُّون عن حَوْزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة".

قال الزجاج:"معنى الظهير: المعين، لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان".

عن مجاهد، قوله: "{على ربه ظهيرا}، قال: معينا".

قال مجاهد: "يظاهر الشيطان على معصية الله بعينه".

قال الحسن:"عونا للشيطان على ربه على المعاصي".

قال سعيد بن جبير:"يقول: عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك".

قال ابن زيد:"على ربه عوينا. والظهير: العوين. وقرأ قول الله: {فلا تكونن ظهيرا للكافرين}، قال: لا تكونن لهم عوينا. وقرأ أيضا قول الله: {وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم}، قال: ظاهروهم: أعانوهم".

عن ابن زيد:"{وكان الكافر على ربه ظهيرا}، قال: مواليا".

قال ابن جريج: "أبو جهل معينا ظاهر الشيطان على ربه".

قال ابن عباس:"يعني: أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ: أبا جهل بن هشام".

وروى، عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطية، وعامر مثل ذلك.

قال السعدي:"فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء لله، فالكافر عاونها وظاهرها على ربها وصار عدوا لربه مبارزا له في العداوة والحرب، هذا وهو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته والله لم يقطع عنه إحسانه وبره وهو -بجهله- مستمر على هذه المعاداة

=

=

والمبارزة".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ويعبدون} أي الكفار {من دون الله ما لا ينفعهم} بعبادته {ولا يضرهم} بتركها، وهو الأصنام]، والمراد بالجملة هنا التوبيخ واللوم وإقامة الحجة على هؤلاء الذين يعبدون من دون الله من هذا وصفه؛ ما لا ينفعهم إذا عبدوه، ولا يضرهم إذا عصوه، وقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأحقاف: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة} [الأحقاف: ٥]، يعني لو ظل يدعو هذا الصنم إلى يوم القيامة ما استجاب له، هل أحد أضل من هذا؟ لا يوجد أحد أضل من هذا أبدا، إنسان يحاول أن ينفعه الصنم أو يضره، ويبقى يدعوه إلى يوم القيامة وما استجاب له، فهذا من أبلغ ما يكون في الضلال.

قوله: {وكان الكافر} فيها إظهار في مقام الإضمار، قال: {ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم} السياق يقتضي أن يقول: وكانوا على ربهم، لكن قال: {وكان الكافر} إشارة إلى أن هذه العبادة أوصلتهم إلى الكفر، وأيضا لفائدة التعميم، يعني أن كل كافر، حتى ولو كان بغير العبادة، يعني بغير الشرك، حتى الإنسان الدهري الذي لا يعبد شيئا أبدا، فهو ظهير على ربه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكان الكافر على ربه ظهيرا} معينا للشيطان بطاعته]، أي بطاعة الشيطان، فالكافر على ربه ظهير: معين على الله سبحانه وتعالى، لا لله، ومعين عليه لا له يعني حربا على الله، فالكافر كلما وجد عدوا لله أعانه على ربه، وهذا كما أنه مثلما قال المصنف: إنه يعين الشيطان على معصية الله، لأن الإنسان الذي يعصي الله معين للشيطان في تمرده على الله سبحانه وتعالى، هو أيضا يشمل من اتصف بهذا الوصف من غير الكفار، فكل من أعان على باطل فإنه معين على الله، كل إنسان يعين أحدا في باطل فإنه ظهير على ربه؛ لأن الله تعالى هو الحق،

=

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦).

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا} بِالْجَنَّةِ {وَنَذِيرًا} مُخَوِّفًا من النار[1].

=

وهو يريد الحق، فإذا أعنت صاحب باطل على صاحب الحق فإنك معين على الله، لأن معنى الظهير: المعين، كما قال الله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: ٨٨]، يعني معينا، فالكافر دائما يعين على الله، وكل من أعان في باطل على حق فإنه معين على الله، يعني معينا للباطل على الحق؛ لأن الله هو الحق، وهو يحب الحق.

لو قال قائل: كل عاص حال معصيته فهو معين على الله بمعصيته، فلماذا خصه في الآية بالكافر؟

صحيح، لكنه قال هنا: {وكان الكافر} لأنه يتحدث عمن يعبدون مع الله.

مناسبة الجملة هذه للتي قبلها {ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا} يعني كأنه جعل هذا الصنم ندا لله يعبده كما يعبد الله، ومعلوم أن الصنم ضد ما جاءت به الرسل، فيكون نصرة هذا الصنم عونا على الله.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦)} [الفرقان: ٥٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وما أرسلناك} يا محمد إلى من أرسلناك إليه {إلا مبشرا} بالثواب الجزيل، من آمن بك وصدقك، وآمن بالذي جئتهم به من عندي، وعملوا به {ونذيرا} من كذبك وكذب ما جئتهم به من عندي، فلم يصدقوا به، ولم يعملوا".

قال ابن كثير:"أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله".

قال السعدي:"يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمدا ﷺ مسيطرا على الخلق

=

=

ولا جعله ملكا ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله {مُبَشِّرًا} يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل، {وَنَذِيرًا} ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهي".

قال ابن عباس:"لما نزلت: {وما أرسلناك إلا مبشرا}، قد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا إنه قد نزلت عليّ: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا}".

عن ابن عباس قوله: "{مبشرا}، قال: يبشر بالجنة. {ونذيرا}، قال: ونذيرا من النار". وروي عن قتادة مثل ذلك.

قال العثيمين: لما عاب على هؤلاء ما يتعلق بتحقيق التوحيد، وهو عبادة غير الله، انتقل بعد ذلك إلى تحقيق الرسالة، لأن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فتحقيق العبادة أتى بلومهم على عبادة غير الله، ثم جاء تحقيق الرسالة؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما أرسلناك إلا مبشرا} بالجنة {ونذيرا} مخوفا من النار].

قوله: {وما أرسلناك إلا} (إلا) للاستثناء لأعم الأحوال، يعني ما حالك في الرسالة إلا هذين الأمرين، وهما البشارة والإنذار، والبشارة للمؤمنين بالجنة، والدليل على هذا قوله سبحانه وتعالى: {وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا} [الأحزاب: ٤٧]، وقال سبحانه وتعالى في سورة الكهف: {لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من علم} [الكهف: ٢ - ٥]، وقد سبق أن النذير بمعنى المخبر بما يخوف، إذن وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالنسبة لما يتعلق بالرسالة هذان الأمران فقط.

إذا قال قائل: أليس الرسول عليه الصلاة والسلام معلما يعلم الناس الأحكام، كيف يكون هذا الاستثناء من أعم الأحوال؛ لأننا قلنا: إن هذا مستثنى من أعم

=

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧).

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أَيْ عَلَى تَبْلِيغ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ {مِنْ أَجْر إِلَّا} لَكِنْ {مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذ إِلَى رَبّه سَبِيلًا} طَرِيقًا بِإِنْفَاقِ مَاله فِي مَرْضَاته تَعَالَى فَلَا أَمْنَعهُ مِنْ ذَلِكَ[1].

=

الأحوال، يعني ما حاله إلا هذا، هل نقول: إن هذا التعليم من وسائل الإنذار والبشارة، أو نقول: إن هذا الحصر إضافي؟

نقول: كلام الرسول عليه الصلاة والسلام أحيانا يخبر الناس ويعلمهم بدون أن يحثهم، أو يرغبهم أو يخوفهم كما هو معروف، وأحيانا يخوف وينذر على سبيل العموم، وأحيانا يخوف وينذر على المخالفة في هذا الأمر المعين، فنقول في الجواب عن هذا: إن تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام هو من وسائل أو من طرق ما يحصل به المبشر به، أو ما يحصل به المنذر به، فعندما يأمرنا بشيء معنى ذلك أننا إذا فعلناه وصلنا إلى ما بشر به، وعندما ينهانا عن شيء فمعناه أننا إذا وقعنا فيه وقعنا فيما أنذر به ﷺ. وهذا أحسن من أن يقال: إن الحصر إضافي؛ لأنك إذا قلت: إن الحصر إضافي أخرجت الكلام عن حقيقته، وإذا قلت: إن هذا من اللوازم بقي على حقيقته، ولكن يكون دالا على هذا الشيء بالملزوم.

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الفرقان: ٥٧]، أي:"قل لهم يا يمحمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً".

قال يحيى:"على القرآن".

قال الطبري:"يقول له: قل لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم، ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به من عند ربي أجرا، فتقولون: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه فيه، ولا نعطيه من أموالنا شيئا".

عن ابن عباس، قوله: "{من أجر}، يقول عرضا من عرض الدنيا".

=

=

قال ابن عباس:"قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر".

قال عطاء بن دينار:"يقول: لا أسألكم على ما جئتكم به أجرا".

قال ابن زيد:"يقول: لا أسألكم على القرآن أجرا".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا} [الفرقان: ٥٧]، أي:"لكن من شاء أن يتخذ طريقًا يقربه إِلى الله بالإِيمان والعمل الصالح فليفعل".

قال الطبري:"يقول: لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه سبيلا طريقا بإنفاقه من ماله في سبيله، وفيما يقربه إليه من الصدقة والنفقة في جهاد عدوه، وغير ذلك من سبل الخير".

قال يحيى:"إنما جئتكم بالقرآن ليتخذ به من آمن إلى ربه سبيلا يتقرب به إلى الله".

قال قتادة:"أي: بطاعة الله".

قال أبو عبيدة:"العرب قد تستثنى الشيء من الشيء وليس منه على الاختصار، وفيه ضمير تقديره قل ما أسألكم عليه من أجر إلّا أنه من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليتخذه. قال أبو خراش:

نجا سالم والنّفس منه بشدقه... ولم ينج الا جفن سيف ومئزرا

فاستثنى الجفن والمئزر وليسا من سالم إنما هو على الاختصار وقال:

وبلد ليس به أنيس... إلّا اليعافير والّا العيس

يعنى: الإبل فاستثنى اليعافير، والعيس من الناس كأنه قال: إلّا أن بها يعافير وعبسا، واليعافير الظباء واحدها يعفور، وفى آية أخرى: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ}.

وقال: فديت بنفسه نفسى ومالى... وما آلوك إلا ما أطيق

وقال: يا ابن رفيع هل لها من غبق... ما شربت بعد ركىّ العرق

=

=

من قطرة غير النجاء الدفق".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قل ما أسألكم عليه} أي على تبليغ ما أرسلت به من أجر {إلا}، لكن {من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا} طريقا بإنفاق ماله في مرضاته تعالى، فلا أمنعه من ذلك].

قوله: {قل ما أسألكم عليه من أجر} معروف أن (ما) نافية، وأن (من) في قوله: {من أجر} زائدة إعرابا، لا معنى، ولهذا يعبر عنها بعض العلماء بقوله: صلة؛ تحرزا من أن يقول: إنها زائدة، وفي الحقيقة إذا فهم المعنى زال الإشكال، ما دمنا نقول: إنها زائدة إعرابا فلا حرج علينا في ذلك، أما معنى فليست بزائدة، فائدتها التنصيص على العموم؛ لأن (أجر) نكرة في سياق النفي، وهذا من صيغ العموم، لكن عندما تدخل عليها (من) تكون أدل وأنص على العموم، فلو قال: (ما أسئلكم عليه أجرا) فإن هذا صحيح أنه لا يوجد أجر أبدا، لكن {من أجر} كأنك تشعر أنه لا يوجد أجر لا قليل ولا كثير، ففائدتها إذن التنصيص على العموم.

وقوله: {من أجر} إذا قلنا: إن (من) زائدة إعرابا فكيف نعرب (أجر)؟ نقول: (من) حرف جر زائد إعرابا، و (أجر) مفعول ثان لـ (أسأل)، منصوب بفتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، هذا إعرابها عندهم.

لو قال قائل: بعضهم يقول: منصوب محلا مجرور لفظا؟

هذا في الحقيقة فيه احتمال، يعني أن محلها منصوب، لكن هذا إنما يكون في المبنيات، فيوجد احتمال أن تقول: (أجر) مفعول به منصوب وحرك بالكسر لمناسبة حرف الجر، والمسألة كلها اعتبارية، المهم أن نعرف أن الفعل الآن مسلط على (أجر) مباشرة، ليس بواسطة حرف جر؛ لأن هذا الحرف من حيث الإعراب زائد، لكن من حيث المعنى له فائدة كبيرة، والله الموفق.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨).

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت وَسَبِّحْ} مُتَلَبِّسًا {بِحَمْدِهِ} أَيْ قُلْ سُبْحَان الله وَالْحَمْد لِلَّهِ {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَاده خَبِيرًا} عَالِمًا تَعَلَّقَ بِهِ بِذُنُوبٍ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]، أي:"وتوكل على الله الذي له جميع معاني الحياة الكاملة كما يليق بجلاله الذي لا يموت".

قال الطبري:"وتوكل يا محمد على الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها، فثق به في أمر ربك وفوض إليه، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه".

قال قتادة:"الحي: الذي لا يموت".

قال الإمام الشافعي:"نزه الله ﷻ نبيه - ﷺ - ورفع قدره، وعلمه وأدبه، وقال: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} الآية، وذلك أن الناس في أحوال شتى: متوكل على نفسه، أو على ماله، أو على زرعه، أو على سلطان، أو على عطية الناس، وكل مستند إلى حي يموت، أو على شيء يفنى، يوشك أن ينقطع به، فنزه الله نبيه - ﷺ - وأمره: أن يتوكل على الحي الذي لا يموت - سبحانه وتعالى - ".

قال سهل بن عبد الله:"سئل ابن سالم عن التوكل والكسب بأيهما تعبد الخلق؟ قال: التوكل حال الرسول ﷺ، والكسب سنته. وإنما استن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله، فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذي هو سنته، ولولا ذلك لهلكوا. قال سهل: من طعن في الكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان".

قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} [الفرقان: ٥٨]، أي:"ونزِّهه عن صفات النقصان".

قال الحسن: "بمعرفته".

=

=

قال قتادة:"أي: بمعرفته وطاعته".

قال الطبري:"يقول: واعبده شكرا منك له على ما أنعم به عليك".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: ٥٨]، أي:"وكفى بالله خبيرًا بذنوب خلقه، لا يخفى عليه شيء منها، وسيحاسبهم عليها ويجازيهم بها".

قال الطبري:"يقول: وحسبك بالحي الذي لا يموت خابرا بذنوب خلقه، فإنه لا يخفى عليه شيء منها، وهو محص جميعها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة".

قال مقاتل:"يعني: بذنوب كفار مكة، فلا أحد أخبر ولا أعلم بذنوب العباد من الله- ﷻ-".

عن قتادة: "{خبيرا}، قال: خبير بخلقه".

قال العثيمين: وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨)

عطف على جملة قل ما أسئلكم عليه من أجر [الفرقان: ٥٧] أي قل لهم ذلك وتوكل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم.

والتوكل: الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكل عليه وهو الوكيل، أي المتولي مهمات غيره، وقد تقدم في قوله تعالى: فإذا عزمت فتوكل على الله في آل عمران [١٥٩].

والحي الذي لا يموت هو الله تعالى. وعدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه، فالتعريف في الحي للكامل، أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية مستمرة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام. وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم

=

=

بالأصنام وهي أموات غير أحياء.

وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم.

وأما أمره بالتسبيح فهو تنزيه الله عما لا يليق به وأول ذلك الشركة في الإلهية، أي إذا أهمك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزه الله.

والباء في بحمده للمصاحبة، أي سبحه تسبيحا مصاحبا للثناء عليه بما هو أهله.

فقد جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدما التخلية لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص.

وأمر النبيء ﷺ يشمل الأمة ما لم يكن دليل على الخصوصية.

وجملة وكفى به بذنوب عباده خبيرا اعتراض في آخر الكلام، فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عموم علمه تعالى بذنوب الخلق، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام. ففي (ذنوب عباده) عمومان: عموم ذنوبهم كلها لإفادة الجمع المضاف عموم إفراد المضاف، وعموم الناس لإضافة (عباد) إلى ضمير الجلالة، أي جميع عباده، مع ما في صيغة (خبير) من شدة العلم وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث.

والكفاية: الإجزاء، وفي فعل كفى إفادة أنه لا يحتاج إلى غيره وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه.

والباء لتأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل. وقد كثر دخول باء التأكيد بعد فعل الكفاية على فاعله أو مفعوله، وتقدم في قوله تعالى: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا في سورة الإسراء [١٤]. وخبيرا حال من ضمير به أي كفى به من حيث الخبرة.

والعلم بالذنوب كناية عن لازمه وهو أنه يجازيهم على ذنوبهم، والشرك جامع الذنوب. وفي الكلام أيضا تعريض بتسلية الرسول ﷺ على ما يلاقيه من أذاهم.

الَّـذِي خَلَـقَ الـسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْـتَوَى عَلَـى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩).

هُوَ {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا فِي سِتَّة أَيَّام} مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا أَيْ فِي قَدْرهَا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْس وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَة وَالْعُدُول عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقه التَّثَبُّت {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش} هُوَ فِي اللُّغَة سَرِير الْمُلْك {الرَّحْمَن} بَدَل مِنْ ضَمِير اسْتَوَى أَيْ اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ {فَاسْأَلْ} أَيّهَا الْإِنْسَان {بِهِ} بِالرَّحْمَنِ {خَبِيرًا} يُخْبِرك بصفاته[1].

(١) قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [الفرقان: ٥٩]، أي:"الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام".

قال الطبري:"قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة".

قال محمد بن إسحاق:"ابتدع السموات والأرض ولم يكونا إلا بقدرته، لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه ولم يشركه في شيء من أمره بسلطانه القاهر وقوله النافذ الذي يقول به لما أراد أن يكون له كن فيكون، ففرغ من خلق السموات والأرض في ستة أيام".

قال ابن عباس:"يوم مقداره ألف سنة".

قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الفرقان: ٥٩]، أي:"ثم استوى على العرش من غير تشبيه ولا تعطيل".

قال الطبري:"يقول: ثم استوى على العرش الرحمن وعلا عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل".

عن أبي العالية، في قوله: "{ثم استوى}، يقول: ارتفع". وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثل ذلك.

عن قتادة: قوله: "{ثم استوى على العرش}، قال: اليوم السابع".

=

=

قال عكرمة:"إن الله بدأ خلق السموات والأرض وما بينهما يوم الأحد، ثم استوى على العرش يوم الجمعة في ثلاث ساعات فخلق في ساعة منها الشموس كي يرغب الناس إلى ربهم في الدعاء والمسألة، وخلق في ساعة النتن الذي يسقط على ابن آدم إذا مات لكي يقبر".

قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: ٥٩]، أي:"هو الرحمن، فاسأل - أيها النبي - به خبيرًا".

قال الطبري:"يقول: فاسأل يا محمد خبيرا بالرحمن، خبيرا بخلقه، فإنه خالق كل شيء، ولا يخفى عليه ما خلق".

قال ابن جريج:"يقول لمحمد ﷺ: إذا أخبرتك شيئا، فاعلم أنه كما أخبرتك، أنا الخبير".

قال مقاتل:"{الرحمن} - جل جلاله- {فسئل به خبيرا}، يعني: فاسأل بالله خبيرا يا من تسأل عنه محمدا".

عن مجاهد، قوله:"{فاسأل به خبيرا}، قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك".

عن شمر بن عطية: "{الرحمن فاسأل به خبيرا}، قال: هذا القرآن خبيرا".

قال الضحاك:"الرحمن بجميع خلقه".

قال العثيمين: قوله: {الذي خلق السماوات والأرض} وعندي مكتوب في نسختي قبل قوله: {الذي خلق} [هو]، ومكتوبة داخل القوس ومشكولة أيضا، وهذا ليس بصحيح، فـ(هو) ليست من القرآن.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو {الذي خلق}]، قدر المصنف هذا المبتدأ ليجعل الجملة مستأنفة منفصلة عما قبلها من حيث الإعراب، مع أنه يجوز فيها وجه آخر؛ أن تكون صفة لقوله: {الحي الذي لا يموت}، يعني: وتوكل على الحي

=

=

الذي لا يموت الذي خلق السموات والأرض، فيكون في قوله: {الحي الذي لا يموت} بيان لصفته الذاتية، وفي قوله: {الذي خلق} بيان لصفته الفعلية، وبهذا يتحقق أن يكون ﷻ أهلا للاعتماد والتوكل؛ لأن من هذا وصفه وهذا فعله جدير بأن يخص بالتوكل، أما على ما ذهب إليه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فهو يجعل الجملة مستأنفة، وهي أيضا وإن كانت مستأنفة من حيث الإعراب؛ فإنها من حيث المعنى متصلة بما قبلها، تدل على كمال قدرته، وأنه جدير بأن يخص بالتوكل، تبارك وتعالى.

قوله: {خلق السماوات والأرض} أوجدها، وإنما يسمى الإيجاد خلقا إذا كان مسبوقا بتقدير؛ لأن أصل الخلق التقدير، لكنه يطلق عليه وعلى الفعل، فإذا أطلق الخلق على الفعل صار معناه أنه فعل بتقدير، فيكون الإحكام سابقا، ثم الفعل على منهاج ذلك الإحكام، فخلقها محكمة، ومن تدبرها وتأملها وجد فيها غاية الإحكام.

قوله: {وما بينهما} ومما نراه مما بينهما الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك؛ لأن القول بأن هذه في نفس السموات ليس عليه دليل من الكتاب ولا من السنة، وإنما ظاهر القرآن يدل على أنها في فلك بين السماء والأرض، والواقع يشهد لذلك أيضا، فإنهم وصلوا إلى القمر، ولو كان في نفس السماء ما وصلوا إليه؛ لأن الله يقول: {وجعلنا السماء سقفا محفوظا} [الأنبياء: ٣٢]، فإذا كانت السماء محفوظة حتى عن أشرف الرسل وأشرف الملائكة إلا باستئذان، فمن دونهم من باب أولى.

لو قال قائل: قوله تعالى: {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا (١٥) وجعل القمر فيهن نورا} [نوح: ١٥ - ١٦]، ما معنى قوله: {وجعل القمر فيهن نورا}؟

=

=

الجواب: يعني في جهتهن، يعني ليست مظروفات له، والمظروف الجهة، كما سيأتينا إن شاء الله في قوله: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا} [الفرقان: ٦١]، نفس الشيء.

وقوله ﷻ: {في ستة أيام} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [من أيام الدنيا، أي في قدرها؛ لأنه لم يكن ثم شمس، ولو شاء لخلقهن في لمحة، والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت]، العدول: عدل يعدل عدلا وعدولا، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [في ستة أيام من أيام الدنيا] هذا هو القول المشهور، وهو الراجح، وأما من قال: في ستة أيام من أيام الآخرة، وإن اليوم كألف سنة، أو من قال: إن المراد بالأيام مطلق الزمن، أي في لحظات، فكذلك أيضا قول مرجوح؛ لأن القرآن إنما يخاطب الناس بما يعرفون، فالصحيح أن المراد ستة أيام من أيام الدنيا كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فإنه به تم خلق السموات والأرض وخلق آدم في آخره.

لو قال قائل: أخبرنا الله سبحانه وتعالى بنص القرآن بأن اليوم عنده كألف سنة {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون} [الحج: ٤٧]، ألا يرجح هذا قول من قال: إنها من أيام الآخرة؟

الخلق نفسه من صفات الله، لكن الأيام التي أضاف الله الخلق إليها وجعله في هذه الأيام معلومة لنا، وأما قوله: {وإن يوما عند ربك} قال: {يوما عند ربك} لا ندري عنه يوما واحدا أو أياما، حتى {يوما} قد يقول قائل: إنه يوم معين عند الله كألف سنة، لو قال: (وإن اليوم عند ربك) وأتى بـ (أل) الجنسية فيمكن أن يقال، فالأقرب هو هذا والله أعلم، حتى المسألة ليست هي بالأمر اليقين، لكن الذي يترجح حسب مقتضى اللفظ العربي، وأننا خوطبنا باللفظ العربي، وأن الأصل حمل اللفظ على ما دلت عليه اللغة إلا بدليل، فهذا الأصل، والواجب أن القرآن تكون دلالته بمقتضى اللغة العربية ما لم يوجد دليل يصرفه.

=

=

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي في قدرها؛ لأنه لم يكن ثم شمس] وتقدير الأيام بالشمس، والشمس غير موجودة حين الخلق؛ لأن الشمس إنما خلقت بعد ذلك؛ لقوله تعالى: {وأوحى في كل سماء أمرها} [فصلت: ١٢]، بعدما خلقها أوحى فيها أمرها، وهذا يشمل كل ما يتعلق بالسماء، فعلى هذا يكون المراد بقوله: {ستة أيام} أي في قدر هذه الأيام الستة.

فإن قيل: إذا أراد الله أمرا فإنه يقول له كن فيكون، فلماذا استغرق ستة أيام حتى يخلق السماوات والأرض ؟.

فالحواب: من المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئا كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بيانا واضحا لا لبس فيه ولا غموض.

وما من أمر يفعله الله إلا وله فيه حكمة بالغة وهذا من معاني اسم الله تعالى " الحكيم "، وهذه الحكمة قد يطلعنا الله تعالى عليها وقد لا يطلعنا، وقد يعلمها ويستنبطها الراسخون في العلم دون غيرهم.

غير أن جهلنا بهذه الحكمة لا يحملنا على نفيها أو الاعتراض على أحكام الله ومحاولة التكلف والتساؤل عن هذه الحكمة التي أخفاها الله عنا، قال الله تعالى: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) الأنبياء / ٢٣.

وقد حاول بعض العلماء استباط الحكمة من خلق السموات والأرض في ستة أيام:

١ - قال الإمام القرطبي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " لآية

=

=

الأعراف (٥٤) (٤/ ٧/ ١٤٠):

(... وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

- أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

- ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء....

- وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلا، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلا...) ا.هـ.

٢- وقال ابن الجوزي في تفسيره المسمى بـ" زاد المسير " (٣/ ١٦٢) في تفسير آية الأعراف:

(... فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر ؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمرا تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علم عباده التثبت، فإذا تثبت من لا يزل، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق.) ا.هـ.

٣- وقال القاضي أبو السعود في تفسيره عند آية الأعراف: (٣/ ٢٣٢): (... وفي خلق الأشياء مدرجا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا.هـ.

=

=

وقال عن تفسير الآية (٥٩) من سورة الفرقان (٦/ ٢٢٦): (...فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين و ترتيب رصين، في أوقات معينة، مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة، وغايات جميلة، لا تقف على تفصيلها العقول...) ا.هـ.

وقال العثيمين: ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جوابا عن سؤال يفرضه الذهن، وهو أن يقول قائل: لماذا لم يخلقهن الله عَزَّوَجَلَّ بكلمة، قال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون} [يس: ٨٢]، يكون على مراد الله سبحانه وتعالى؟

أجاب المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه فعل ذلك لتعليم خلقه التثبت، هذا ما جرى عليه أهل العلم؛ أن الله جل وعلا خلقها في ستة أيام ليبين للعباد أن المقصود الإحكام، لا الإسراع، فيتثبت الناس فيما يفعلون، حتى فيما قدروا عليه، فإنه ينبغي أن يلاحظوا فيه الإحكام دون الإسراع في تنفيذه.

ورأيت كلاما لبعضهم حسنا؛ قال: إن خلق السموات والأرض له أسباب، وهو عبارة عن تكوين، والتكوين هذا يحتاج إلى مدة، مثلما ينشأ الجنين في بطن أمه شيئا فشيئا في مدة، كذلك هذا الخلق له أسباب كونته، هذه الأسباب كانت في هذه المدة: في ستة أيام، لكن هؤلاء الذين يقولون بهذا القول يرجحون القول بأن المراد بالأيام أيام الآخرة الطويلة، حتى تكون التطورات التي أدت إلى الكمال مناسبة، وعندي أن هذا ليس بلازم؛ لأن الله قادر على أن يجعل هذه الأسباب التي من شأنها أن تمتد لعظم المخلوق أن يكون ذلك بهذه السرعة، والله أعلم.

وإنما التعليل الأخير يكون معناه سبب تأخرها، وأنها لم تنته إلا في ستة؛ لأنها تحتاج إلى تطورات، هذه التطورات شيئا فشيئا حتى تنتهي إلى الكمال، كما هو معروف فيما نشاهد مما يخلقه الله سبحانه وتعالى من غير السموات والأرض، نجد أن هذه المخلوقات لا تأتي دفعة، وإنما لها أسباب وأحوال تتطور إليها، حتى

=

=

تصل إلى درجة الكمال.

قوله: {ثم استوى على العرش}: {ثم} هذه هل هي للترتيب الذكري أو المعنوي؟ المعنوي؛ لأن هذا هو الأصل أنها للترتيب المعنوي، لا للترتيب الذكري، والفرق بينهما أنه في الترتيب الذكري لا يلزم أن يكون ما بعدها متأخرا عما قبلها، بل قد يكون قبله ولكنه ذكر بعده، هذا يسميه العلماء الترتيب الذكري، ولكنهم لا يلجئون إليه إلا عند الضرورة، إذا لم يمكن الترتيب المعنوي قالوا: هو ترتيب ذكري، وأنشدوا عليه البيت المشهور الذي لا أعلم قائله، وهو:

إن من ساد ثم ساد أبوه ... ثم قد ساد بعد ذلك جده

قالوا: إن هذا من باب الترتيب الذكري؛ لأن سيادة الجد متقدمة على سيادة الأب، وسيادة الأب متقدمة على سيادة الابن، هذا هو المعروف والمعهود، وإن كان قد يكون الأمر بالعكس؛ قد يسود الحفيد وبسيادته يسود أبوه ثم يسود جده، لكن المعروف بالعكس.

على كل حال هذا الترتيب في الآية ترتيب معنوي؛ لأنه الأصل، ولا يلجأ إلى الأول إلا عند الضرورة.

وقوله ﷻ: {استوى} يعني علا على العرش، وهذا العلو علو خاص، ليس كالعلو على سائر المخلوقات؛ لأن الله سبحانه وتعالى عال على جميع المخلوقات علوا مطلقا، لكن هذا العلو على العرش علو خاص، وأنه من الصفات الفعلية، وأن أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك على الوجه الذي يليق بالله ﷻ، لا يكيفون ولا يحاولون أن يكيفوا أيضا؛ لأن ذلك أمر مستحيل، وهو يدل على كمال العالي؛ لأن هذه المادة {استوى} تدل على الكمال من حيث هي، تقول: استوى الثمر بمعنى كمل نضجه، وتقول: استوى الرجل بمعنى كمل عقلا: {ولما بلغ أشده واستوى} [القصص: ١٤]، هنا إذا تعدت بـ (على) صارت دالة على العلو، لكن

=

=

متضمنة للكمال، فعلى هذا يكون (استوى) بمعنى علا علوا خاصا على وجه الكمال.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم استوى على العرش} هو في اللغة سرير الملك]، هذا العرش، يعني ليس كل كرسي يسمى عرشا، كرسي المعلم لا نسميه عرشا، لكن الكرسي الخاص بالملك يسمى عرشا، هذا هو الأصل في اللغة، قال الله تبارك وتعالى عن ملكة سبأ: {ولها عرش عظيم} [النمل: ٢٣]، وقال ﷻ: {ورفع أبويه على العرش} [يوسف: ١٠٠]، في قصة يوسف، لكن المراد بالعرش هنا ما هو أعظم من ذلك، هو عبارة عن هذا المخلوق العظيم الذي وسع السموات والأرض والكرسي؛ لأنه جاء في الحديث: "ما السماوات والأرض وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ألقاها ملق في أرض فلاة"، (حلقة) يعني حلقة المغفر، أو الدرع، وهي بالنسبة للفلاة لا شيء، "وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقاها ملق في أرض فلاة". إذن ما يعلم قدره إلا الله ﷻ.

وهنا من التعمق والتنطع أن نبحث ونسأل عن ماهية هذا العرش، يعني من أي شيء هو؛ من ذهب، من فضة، من زبرجد، من كذا، وهذا وردت فيه آثار لكنها ليست بصحيحة، وليست واردة عن معصوم، ولا ينبغي أيضا الخوض في ذلك؛ لأنه ما لنا وله من أين مادته، المهم أن نعرف عظم هذا العرش وأنه هو الذي استوى عليه الله ﷻ.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الرحمن} بدل من ضمير (استوى)، أي استواء يليق به]، قوله: {استوى على العرش الرحمن} يعني لا تقل: إن الرحمن فاعل (استوى)؛ لأنه سبقهما ما يدل على رجوعه إليه {الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن}، فكلام المصنف يقول: إنه لا يعرب على أنه فاعل (استوى)؛ لأنه سبق ما يرجع إليه الضمير في (استوى)، ولكن لا

=

=

مانع من أن نجعله فاعلا على أن يكون إظهارا في مقام الإضمار، وإلا صحيح أن ظاهر السياق يقتضى أن يكون (خلق السموات ثم استوى)، يعني (هو)؛ لأن الفاعل ضمير مستتر؛ ويكون (الرحمن) بدلا؛ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، هذا وجه، لكننا نقول: إنه ليس بمتعين؛ لجواز أن يكون (الرحمن) -كما تقدم- فاعلا، على أنه إظهار في مقام الإضمار.

وذكروا فيه أيضا وجها ثالثا، وهو أن يكون مبتدأ، وخبره {فاسأل به خبيرا}، وأن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو الرحمن، ولكن ما ذهبنا إليه أولى، ويكون فائدة الإضمار هنا بيان أن هذا الاستواء والعلو الخاص ليس كعلو المتجبرين المتكبرين، بل هو علو رحمن واسع الرحمة؛ لأن عادة البشر أو الملوك إذا استووا على عروشهم أن يكون لديهم في الغالب من الجبروت والعظمة ما يتخيلونه إذا استووا على عروشهم، ولكن الله سبحانه وتعالى مع علوه العظيم على عرشه العظيم هو رحمن واسع الرحمة تبارك وتعالى {ثم استوى على العرش الرحمن}.

وقول المصنف: [أي استواء يليق به] السؤال الأول على هذه الجملة: هل هذه الجملة تدل على أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يحرف؟

أنا راجعت عدة مواضع يقول: [استواء يليق به]، وفي رأيي أنها في الحقيقة لا تثبت ولا تنفي؛ لأنه ما ذكر إلا صفة الاستواء فقط، يعني لم يتعرض إلا لأن صفة الاستواء تليق به، لكن معنى الاستواء ما تكلم عنه، لكن في الحقيقة أنا أرى أن هذا يومئ إلى مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأنه لو كان يرى أن {استوى} بمعنى استولى ما قال: [استواء يليق به]؛ إذ لا يمكن أن يكون المعنى استولى استيلاء يليق به، وإنما يكون مثل هذا التعبير فيما إذا جعل الاستواء صفة، ليست صفة ملك، بل صفة فعل، فيقول: [استواء يليق به]، لكن مع هذا ليس هذا التفسير

=

=

بكامل، وكان عليه أن يقول: علا على وجه يليق به.

ولو قيل: إن المصنف يجمع بين الرأيين؟

نقول: لا، لو أراد استوى بمعنى استولى لصرح به، مثلما قال في قوله تعالى: {وجاء ربك} [الفجر: ٢٢]، فسرها بقوله: جاء أمر ربك.

لو قال قائل: المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يؤول آيات العلو، فكيف نوجه قوله: [استواء يليق به]؟

على كل حال كلامه هنا لا يدل لا على إثبات ولا على نفي، لكن فيما أعتقد أنه يدل على التفسير، بمعنى العلو؛ لأن الاستيلاء لا يقال: إنه استيلاء يليق به، لا يتصور هذا، لو أراد استولى لقال: استوى بمعنى استولى، مثل قوله سبحانه وتعالى: {وجاء ربك} [الفجر: ٢٢]، فقد فسره بقوله: جاء أمر ربك، لكن مع ذلك ما فسرها كما ينبغي، وكان الذي ينبغي أن يقول: {استوى على العرش} علا عليه علوا يليق به، وأنا تتبعت التي قبلها في مواضع وجدته يقول هذا، فأقول: إني استغربت هذا، مع أنه هو لا يقر بالعلو الذاتي، وهذا من الغرائب، يعني تعتبر طريقة متناقضة بالنسبة للمؤلف.

على كل حال قوله: [استواء يليق به] معناه صحيح، لكن يحتاج إلى تكميل، وهو أن يصرح ويوضح معنى الاستواء، {استوى على العرش} علا عليه على وجه يليق به.

فإذا قال قائل: أليس الله عاليا على جميع المخلوقات؟

فالجواب: بلى، لكن هذا العلو علو خاص بالنسبة للعرش، وقد مر في العقيدة، ولا حاجة إلى التكرار أن أهل التعطيل حرفوا معنى الاستواء إلى معنى الاستيلاء، وبينا هناك أن هذا التحريف باطل من عدة أوجه لغوية وشرعية وعقلية، وأنه يلزم على هذا التفسير لوازم باطلة، لا تليق بالله سبحانه وتعالى.

=

=

وقوله: {الرحمن} أي المتصف بالرحمة، وهي إذا أفردت عن الرحيم دلت على الصفة والفعل، والرحيم أيضا إذا أفردت عنها دل على الصفة والفعل، وإذا اقترنتا فسر الرحمن بما يتعلق بالصفة، والرحيم بما يتعلق بالفعل، فعلى هذا هنا انفردت {الرحمن} فتشمل الصفة والفعل؛ لأن (فعيل) تدل على إيقاع الفعل، سميع بمعنى سمع الصوت، رحيم بمعنى رحم الخلق، والرحمن يشبهها كلمة غضبان، يعني ممتلئا غضبا، كذلك الرحمن يعني واسع الرحمة، ولهذا فسره بعض السلف بقوله: الرحمن ذو الرحمة العامة، والرحيم بالمؤمنين.

لو قال قائل: كيف الجمع بين قوله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: {وسع كرسيه السماوات والأرض} [البقرة: ٢٥٥]، وبين قوله تعالى: {ثم استوى على العرش}؟

الجواب: لا يوجد خلاف بينهما، فالكرسي شامل للسماوات والأرض، يعني لعظمه وكبره يكون واسعا لهما جميعا، أي لكل السموات والأرض، والعرش فوقه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فاسأل} أيها الإنسان {به} بالرحمن {خبيرا} يخبرك بصفاته]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جعل الخطاب في قوله: {فاسأل} ليس للرسول ﷺ بل لجميع من يصح خطابه؛ لأن الأصل أن الخطاب الذي يفرد في القرآن لجميع الناس، إلا إذا دل الدليل على أنه خاص بالرسول؛ لأن القرآن نزل للجميع، فهو يخاطب الكل ما لم يدل دليل على أنه خاص بالرسول، مثل: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١]، هذا معروف أنه خاص بالرسول ﷺ، ومثل: {ياأيها الرسول} [المائدة: ٤١]، صرح أنه ينادي الرسول وحده، {ياأيها الرسول بلغ} [المائدة: ٦٧]، {ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا} [الأحزاب: ٤٥].

{فاسأل} أيها الإنسان {به} بالرحمن {خبيرا} يعني بذاته وأسمائه وصفاته

=

=

وأفعاله وأحكامه.

وقوله: {فاسأل به} قد يقول قائل: إن المتبادر أن يقول: اسأل عنه خبيرا؛ لأن السؤال بمعنى الاستفهام يعدى بـ (عن)، فهل تقول: سألت بفلان أو عن فلان؟ تقول: سألت عن فلان، فكيف نجيب عن التعدية بـ (الباء)، مع أن المتبادر أن يتعدى بـ (عن)؟

الوجه الأول: أن تكون (الباء) بمعنى (عن)، وهذا واضح: فاسأل عنه خبيرا.

الوجه الثاني: أن تكون (الباء) متعلقة بمحذوف تقديره: معتنيا أو مهتما به، حال من الضمير المستتر في قوله: {فاسأل به خبيرا}. وعندي أيضا أنه يوجد احتمال أن المعنى: فاسأل تجب به خبيرا، يعني كأنه ضمن السؤال ما يدل على الجواب، مثل ما قيل في: {سأل سائل بعذاب واقع} [المعارج: ١]، سأل سائل وأجيب بعذاب واقع، ويكون عدل عن (عن) بـ (الباء)؛ لأن (عن) إنما تدل على مجرد السؤال، و (الباء) تدل على الإجابة أيضا. وعلى كل حال فالمعنى أن الرحمن الذي خلق السموات والأرض واستوى على العرش اسأل عنه خبيرا يخبرك.

لو قال قائل: هل يصح أن يكون (به) متعلقا بـ (خبيرا)؟

نقول: صحيح، إذا قلنا: متعلقة بـ (خبيرا) فواضح ولا نحتاج إلى أي تقديرات، يعني فاسأل خبيرا به يخبرك عنه، ويكون هذا وجها رابعا، وهذا الوجه في الحقيقة عندي الآن أنه أحسن الأوجه، وليس فيه تكلف، ويكون تقديمه عليه لمراعاة الفواصل، والأصل: فاسأل خبيرا به.

لو قال قائل: هل يمكن أن نحمل معنى قوله تعالى: {فاسأل به خبيرا} على التعظيم؟

يمكن أن تتضمن هذا بمعنى {فاسأل به خبيرا}، يعني: اسأل من هو من أعلم الناس خبرة بما يخبرك به معناه، إنما أخبرناك بذلك ونحن أعلم من يخبرك به،

=

=

فكأنه من باب التعظيم والمبالغة، قال: {فاسأل به خبيرا} وليس المراد حقيقة السؤال، إنما المراد التعظيم، يعني: ما أعظم من أخبرك خبرة. وهذا وجه جيد، ولا تمانعه الآية.

لكن لو قال قائل: من المراد بهذا الخبير الذي أمر الله تعالى أن نسأله؟

الخبير هو الله، فكأنه ﷻ يقول: فاسأل به خبيرا، يعني خذ الخبرة والعلم مني؛ لأني خبير بنفسي، هذا المعنى، ومنه قول عائشة ﵂: "على الخبير سقطت" تعني نفسها حينما سئلت عن مسألة.

فالمعنى: اسأل عن الله سبحانه وتعالى خبيرا به وهو نفسه.

وقد اختلف العلماء في معنى [الباء] في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن [الباء] بمعنى [عن]، كما قال ابن عقيل وهو قول أكثر المفسرين، وغيرهم، وهو جائز ومستعمل عند العرب، بل قيل: إن هذا المعنى لـ[الباء] يختص بالسؤال، والمعنى: فاسأل عن الله عالما به، أي: بأسمائه وصفاته.

قال ابن قتيبة: ({فاسأل به خبيرا (٥٩)} [الفرقان:٥٩] أي: عنه، قال علقمة بن عبدة: فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب. أي: عن النساء).

قال النحاس: (قال أبو إسحاق أي: اسأل عنه، وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن [الباء] بمعنى [عن] كما قال جل وعز: {سأل سائل بعذاب واقع (١)} [المعارج:١] وقال الشاعر: هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمي).

القول الثاني: أن [الباء] على معناها الأصلي وهو الإلصاق، والمعنى: واسأل بسؤالك خبيرا وهو الله سبحانه.

قال النحاس: (قال علي بن سليمان: أهل النظر ينكرون أن تكون [الباء] بمعنى [عن]؛ لأن في هذا فساد المعاني، قال: ولكن هذا مثل قول العرب: لو لقيت فلانا

=

=

للقيك به الأسد، أي: للقيك بلقائك إياه الأسد، والمعنى: فاسأل بسؤالك).

والمراد: اسأل خبيرا بذلك الذي سبق في قوله تعالى: {الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا (٥٩)} [الفرقان:٥٩]؛ لأهميته وعظمته.

قال الطبري: ({فاسأل به خبيرا (٥٩)} [الفرقان:٥٩] يقول: فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرا بخلقه).

ومثله قال البغوي.

وقال ابن جزي: (والمعنى الثاني: أن المراد: اسأل بسؤاله خبيرا، أي: إن سألته تعالى تجده خبيرا بكل شيء فانتصب خبيرا على الحال، وهو كقولك: لو رأيت فلانا رأيت به أسدا، أي: رأيت برؤيته أسدا).

القول الثالث: أن [الباء] صلة، والمعنى: فسله خبيرا. وهو لا يبعد عن المعنى الذي قبله؛ فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وهو إفادة الاهتمام بالمسؤول عنه لما كان عظيما.

والقول المقدم والأولى هو البقاء على المعنى الأصلي لـ[الباء]، لا سيما والمعنى صحيح، مع عدم الحاجة إلى تقدير، فالخطاب من الله: بأن لا تطلب العلم بهذا إلا من خبير فيه.

قال الآلوسي: (والجار والمجرور: صلة اسأل، والسؤال كما يعدى بـ[عن] لتضمنه معنى التفتيش يعدى بـ[الباء] لتضمنه معنى الاعتناء) إلى أن قال: (والمعنى: فاسأل معتنيا به خبيرا عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها، وهو الله ﷻ يطلعك على جلية الأمر)، وعليه يحمل ما جاء عن العرب في الشواهد.

ولكن لا نرد المعاني الأخرى، لجواز استعمالها في اللغة، ولكون المعنى في سياق

=

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠).

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {اُسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرنَا} بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّة وَالْآمِر مُحَمَّد وَلَا نَعْرِفهُ لَا {وَزَادَهُمْ} هذا القول لهم {نفورا} عن الإيمان قال تعالى[1].

=

الآية صحيحا على جميع التقديرات. والله أعلم.

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ} [الفرقان: ٦٠]، أي:"وإذا قيل للكافرين: اسجدوا للرحمن واعبدوه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم: اجعلوا سجودكم لله خالصا دون الآلهة والأوثان".

قوله تعالى: {قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٦٠]، أي:"قالوا: ما نعرف الرحمن".

قال الزمخشري:"{وما الرحمن}، يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به، لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول ب «ما». ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى".

قال ابن عباس:"ليس أحد يسمى الرحمن غيره".

عن عطاء: "{وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله ﷻ: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} [البقرة: ١٦٣]".

عن هارون بن حاتم، قال: "سمعت حسينا الجعفي، يقول: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}، قال: جوابها: {الرحمن علم القرآن}

=

=

[الرحمن: ٢]".

قوله تعالى: {أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} [الفرقان: ٦٠]، أي:"أنسجد لما تأمرنا بالسجود له طاعة لأمرك؟".

قال السمعاني:"يعني: الرحمن الذي تأمرنا بالسجود له".

قال يحيى:"على الاستفهام، أي: لا نفعل".

ويقرأ «تَأْمُرُنَا»، بالتاء والياء، فمن قرأها بالتاء فهم يقولونه للنبي--ﷺ-، ومن قرأها بالياء فيقول: يقوله بعضهم لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد.

قوله تعالى: {وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: ٦٠]، أي:"وزادهم دعاؤهم إلى السجود للرحمن بُعْدًا عن الإيمان ونفورًا منه".

قال السمعاني: "أي: تباعدا".

قال مقاتل:"يقول: زادهم ذكر الرحمن تباعدا من الإيمان".

قال الطبري:"يقول: وزاد هؤلاء المشركين قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدا مما دعوا إليه من ذلك فرارا".

عن أبي جعفر الصادق محمَّد بن علي الكاظم أنه قال: "لم كتمتم {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فنعم الاسم والله كتموا، فإن رسول الله - ﷺ - كان إذا دخل منزله اجتمعت عليه قريش، فيجهر بـ {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ويرفع صوته بها، فتولي قريش فرارًا، فأنزل الله {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}".

وفي رواية:"سُئل الصادق عن الجهر بالتسمية، فقال: أحق ما جُهر به، وهي الآية التي ذكر الله تعالى: {وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}".

روى مِسْعَر، عن عبد الأعلى:"أنه كان يقول في سجوده: زادنا لك خشوعًا ما زاد

=

=

أعداءك عنك نفورًا، فلا تُكبَّ وجوهنا في النار بعد سجودها لك".

قال العثيمين: بعد أن ذكر الله جل وعلا عظمته وربوبيته في خلق السموات والأرض واستواءه على عرشه قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإذا قيل لهم} لكفار مكة {اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}]، هذا السجود يحتمل أن يراد به السجود الخاص الذي هو خرور الإنسان على أعضائه السبعة، ويحتمل أن المراد به السجود العام الذي هو الخضوع المطلق؛ لأن السجود يطلق بالمعنيين؛ السجود العام الذي هو الخضوع والذل مطلقا، أو السجود الخاص على هذه الأعضاء المعروفة، إذا قيل لهم ذلك: {قالوا وما الرحمن} فأنكروا المسجود له، ثم استكبروا عن السجود {أنسجد لما تأمرنا}، وهذا الاستفهام استفهام إنكار واستبعاد، {أنسجد لما تأمرنا}، والأول {وما الرحمن} استفهام إنكار، يعني أنهم ينكرون الرحمن، والمراد بإنكارهم الرحمن إنكار هذا الاسم، لا إنكار الله، يعني أنكروا الاسم دون الذات، فهم يؤمنون بالله {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} ولكنهم أنكروا الرحمن، أنكروا هذا الاسم لله عَزَّوَجَلَّ وقالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، لا نعرف أن هناك أحدا اسمه الرحمن إلا هذا الموصوف برحمن اليمامة، فأنكروا هذا الوصف العظيم لله سبحانه وتعالى الذي هو من أعظم أوصافه وأعظم أسمائه، وهي الرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، وهذا الإنكار لا وجه له؛ لأنه ما دام قد أثبت بطريق الرسالة فلا وجه له لكونهم لا يعرفونه؛ لأن الإنسان الذي لا يؤمن إلا بما يعرف هو تابع لهواه، وليس مؤمنا بالرسل، ومنه ما يفعله بعض العامة الآن إذا أحييت سنة من السنن التي أميتت، قالوا: ما هذا؟ ! هذا دين جديد، لا نقبله ولا نريده، نقول لهولاء: إنهم يشبهون هؤلاء الكفار من بعض الوجوه، حيث أنكروا ما لا يعرفونه وقالوا: لن نقبل، أين المشايخ من هذا الدين، وأين فلان وأين فلان؟ ! وهذا ليس بحجة؛ لأن الحق

=

=

يجب أن يقبل وأن يكون هوى الإنسان تابعا للحق، لا أن الحق تابع لهواه: {ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن} [المؤمنون: ٧١].

والواجب على المؤمن إذا رأى ما لا يعرفه أو سمع ما لا يعرفه التثبت، صحيح أن الإنسان يستنكر ما لا يعرف، ولكن الواجب عليه نحو ذلك أن لا ينكر، والواجب عليه التثبت، وأن يعرف مصدر هذا الشيء، أما أن يقول: أتيتم بدين جديد ولا نقبله، فليس كذلك، بل إن الذي يحيى سنة هو الذي أتى بالدين القديم، وما خالف السنة فهو الدين الجديد المحدث، أما السنة فهي الدين القديم الذي عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه.

والحاصل: أنك لا تكاد تجد معصية من المعاصي إلا وفيها مشابهة من جنسها من الكفر.

لو قال قائل: هل نأخذ من الآية فضيلة السجود من بين العبادات؟

هذا إذا قلنا: إن السجود خاص، لكن الآية محتملة أن المراد بالسجود ما هو أعم؛ أي الخضوع المطلق، لا الخضوع بالسجود المعروف، وما دام وجد احتمال لا يتم الاستدلال.

قوله: {أنسجد لما تأمرنا} هذا أيضا إنكار واستكبار، يعني كيف نسجد لما تأمرنا، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالفوقانية والتحتانية، والآمر محمد ﷺ].

قوله: {أنسجد لما تأمرنا} (ما) هذه هل هي بمعنى (من) أو (ما) مصدرية، يعني هل المعنى: لمن تأمرنا بالسجود له، فتكون موصولة، بمعنى (من)، أو أنها مصدرية؛ أي لأمرك؟ كلاهما ممكن، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [ولا نعرفه]، يشير إلى أن (ما) اسم موصول، يعني للذي تأمرنا أن نسجد له، ونحن لا نعرفه، فعلى مقتضى تفسيره تكون (ما) بمعنى (من)، وحينئذ التعبير بـ (ما) بدل (من) في غير الجماد أو في غير من لا يعقل -كما يقولون- خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن يعبر

=

=

عن ذي العلم بـ(من)، لا بـ(ما)، ولا يعبر بـ(ما) إلا لملاحظة شيء، مثل قوله تعالى: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء} [النساء: ٣]، لم يقل: (من طاب)، فما هو هذا الشيء؟ نقول: في قوله: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء} هو لا يريد امرأة بعينها حتى يعبر عنها بـ(من)، إنما يريد الجنس الذي يتزوج لطيبه، فيكون في ذلك مراعيا للصفة، لا للموصوف، ولهذا أتى بـ(ما) {فانكحوا ما طاب لكم}، كذلك أيضا قوله: {لما تأمرنا}؛ إذا جعلنا (ما) بمعنى (من) نقول: عدلوا عن الموصوف إلى الإشارة إلى الصفة؛ لأنهم ينكرون هذا الوصف الذي هو الرحمن، فكأنهم قالوا: أنسجد لأمر مجهول غير معلوم، وهو ما تأمرنا بالسجود له، أما على أن تكون (ما) مصدرية فالأمر واضح جدا، يعني كأنهم يقولون: أنسجد لأمرك وأنت لست بشيء عندنا؛ لأنهم قالوا: {أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١) إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها} [الفرقان: ٤١ - ٤٢]، فيكون هنا جمعوا بين الإنكار والاستكبار، الإنكار لصفة من صفات الله سبحانه وتعالى واسم من أسمائه، ثم الإنكار لما أمروا بالسجود له، ثم الاستكبار عن أمر النبي ﷺ.

قوله ﷻ: {أنسجد لما تأمرنا} فيها قراءة، يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالفوقانية والتحتانية] قراءتان سبعيتان، أما على قراءة التحتانية: "لما يأمرنا" فلا إشكال فيها؛ لأن التقدير: أنسجد لما يأمرنا القائل، لكن على قراءة {أنسجد لما تأمرنا} هنا خصص، ويقصدون بقولهم: {لما تأمرنا} النبي عليه الصلاة والسلام، قال: {أنسجد لما تأمرنا} فما الحكمة في أنه عبر في الأول بالعموم {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن} أبهم القائل لعمومه، وهنا قال: {أنسجد لما تأمرنا}؟ يعني كأن كل أحد يأمرهم بالسجود، يعني مهما قيل لهم يقولون للقائل: {أنسجد لما تأمرنا}، فيكون في الأول حكى ما يقال، وهنا حكاها على سبيل المخاطبة، هم يقولون لكل إنسان: {أنسجد لما تأمرنا}.

=

=

فعلى هذا التقدير الذي قلنا لا يكون المراد بقولهم {لما تأمرنا} الرسول، بل {لما تأمرنا} أيها القائل، فيكون هنا عدول عن الغيبة إلى الخطاب، يعني إذا قيل لهم: {اسجدوا للرحمن} قالوا لمن قال لهم: اسجدوا: {أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا}.

وعلى رأي المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ نقول: الآمر محمد عليه الصلاة والسلام، فيكون فيه عدول عن العموم إلى الخصوص، إذا كان المعنى: أنسجد لما تأمرنا يا محمد يكون عدولا عن العموم إلى الخصوص، فإذا أنكروا ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام فإنكارهم إياه من غيره من باب أولى.

لو قال قائل: قوله: {وإذا قيل لهم} عام في كفار مكة وغيرهم من الكفار الذين سيأتون وهذه صفتهم؟

فالجواب: نحن لا نعلم القضية إلا في كفار مكة؛ لأنه ورد سبب نزول الآية.

فلو قيل: هذا هو موقف الكفار.

نقول: هؤلاء الكفار أنكروا أمرين؛ أنكروا السجود، قالوا: {أنسجد لما تأمرنا}، كأنهم يقولون: ولو جاء الأمر من غيرك لكنا ننظر. والثاني: إنكار الرحمن {وما الرحمن}، فهل كل كافر ينكر الرحمن، لا ندري.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وزادهم} هذا القول لهم {نفورا} عن الإيمان] والعياذ بالله، يعني ما زادهم إقبالا ولا امتثالا، بل زادهم نفورا، وفي هذا دليل على أن واجب الداعية أن يدعو إلى الله، سواء امتثل المدعو أم نفر، وقد كان بعض الناس يسأل يقول: إذا كان هذا المدعو إذا دعوته يزداد نفورا وكراهية للشرع، ولما يؤمر به، هل يجوز أن أدعوه أو يحرم أن أدعوه؛ لأني أكون سببا لنفورر واستكباره، ونفوره واستكباره أعظم من معصيته المجردة، يقول: أنا إذا دعوت أخي أو عمي أو أبي ازداد نفورا واستكبارا، فأكون سببا لاستكباره ونفوره وكراهيته للحق،

=

=

وذلك أعظم من مجرد المعصية أو ترك الواجب، فهل أتركه أو أدعوه؟ وحينئذ أرى نفسي في حرج أني تسببت له فوقع في هذا الأمر العظيم؟

نقول: في الآية التي معنا يقول الله سبحانه وتعالى: {وزادهم نفورا} [الفرقان: ٦٠]، هل الرسول عليه الصلاة والسلام لما رأى هؤلاء يزدادون نفورا ترك الدعوة؟

الذي نرى أنه يجب أن تدعو على العموم، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء؛ لأنك إذا سكت عنه استمرأ المعصية ولم يرها معصية، ولم يستقم، ثم هو أيضا ربما يستكبر، ولكنه بعد ذلك يرجع ويحاسب نفسه، والكلمة التي تقال لله لا بد أن تؤثر تأثيرا بالغا، وما نحن ببعيد عن تكرار قضية موسى عليه الصلاة والسلام حينما تكلم للناس جميعا وللسحرة بالأخص، فقال لهم: {ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى} [طه: ٦١]، فهذا كلام قاس وتوعد ووعيد، ومع ذلك قال سبحانه وتعالى: {فتنازعوا أمرهم بينهم} [طه: ٦٢]، و (الفاء) تدل على التفريع والتعقيب، يعني صارت هذه الكلمة بمنزلة ما يسمونه بالقنبلة التي فرقتهم، فأنت لا تظن أن كلمتك التي تقولها لله تضيع سدى، لا بد لها من تأثير، وهذا التأثير وإن كان قد لا يكون في الوقت الحاضر، ولكنه لا بد أن يؤثر.

والنبي عليه الصلاة والسلام دعا قومه وأوذي إلى حد أنهم يضعون السلا عليه وهو ساجد، وإلى حد أنهم يلقون العذرات والأقذار عند عتبته.

وأنت إذا كنت مؤمنا بقول الله سبحانه وتعالى: {فاصبر إن العاقبة للمتقين} [هود: ٤٩]، ما يضرك هذا، فالعاقبة للمتقين، وأنا قلت قبل ذلك: إن المراد بنجاح الدعوة نجاح الجنس، لا الشخص، قد لا تنجح أنت بشخصك وتموت وأنت ما نلت المقصود، لكن الكلام عن الدعوة أنها نجحت وأثرت، وهذا لا بد أن يكون،

=

=

ونحن قلنا هذا من قبل، ثم اقرأ قول الله سبحانه وتعالى: {إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا} [الإنسان: ٢٣]، ماذا بعدها؟ لم يقل فاشكر نعمة ربك على هذا الإنزال قال: {فاصبر} [الإنسان: ٢٤]، معنى ذلك أن الذي يتحمل هذا القرآن، سواء نزل عليه أو حفظه، لا بد أن يناله ما يناله، سواء بالنسبة لنفسه التي تأمره بالسوء وبمخالفة هذا الوحي، أو بالنسبة لغير، أما هذه الأشياء فهي جبن في الحقيقة ومن الشيطان: {إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران: ١٧٥]، ونحن نقول هذا ونقرره، وإن كنا مقصرين، لكن لا بد من بيان الحق، والتقصير على أنفسنا في الحقيقة، لكننا نرى أن الداعية إلى الله، بل والعالم الذي أعطاه الله علما، لا بد أن ينشره وأن يدعو إليه، وإلا صار حجة عليه، وربما لا يكرهونه إلا في الظاهر، لأن في أنفسهم من الحسد أو ما في أنفسهم من كراهة مخالفة هواهم ما يؤدي إلى أنهم يعادونه ظاهرا وإن كانت قلوبهم تحبه، فربما يكون هذا أيضا.

على كل حال فالمسألة أنه إن أصابك ما أصابك من الأذى مع الاستقامة، فإن هذا لرفعة درجاتك، وإن أصابك ما أصابك من الأذى مع عدم الاستقامة، يعني إما خطأ في سبيل الدعوة فما استعملت ما أرشد الله إليه من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فإن هذا الأذى يكون تكفيرا لسيئاتك التي وقعت منك، فأنت على كل حال لا بد أن تنال بأذى، لكنه إما رفعة للدرجات أو تكفير للسيئات.

لو قال قائل: بعض الناس يقولون: كيف ندعو الناس ونحن عاجزون عن إصلاح أنفسنا؟

فنقول: إذا لم تدع الناس فأنت أفسدت نفسك باختيارك؛ لأن من إصلاح نفسك الدعوة إلى الله، فإذا لم تدع إلى الله أفسدت نفسك باختيارك، فاتق الله ما

=

تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١).

{تَبَارَكَ} تَعَاظَمَ {الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا} اثْنَيْ عَشَر الْحَمْل وَالثَّوْر وَالْجَوْزَاء وَالسَّرَطَان وَالْأَسَد وَالسُّنْبُلَة وَالْمِيزَان وَالْعَقْرَب وَالْقَوْس وَالْجَدْي وَالدَّلْو وَالْحُوت وَهِيَ مَنَازِل الْكَوَاكِب السَّبْعَة السَّيَّارَة الْمِرِّيخ وَلَهُ الْحَمْل وَالْعَقْرَب وَالزُّهْرَة وَلَهَا الثَّوْر وَالْمِيزَان وَعُطَارِد وَلَهُ الْجَوْزَاء وَالسُّنْبُلَة وَالْقَمَر وَلَهُ السَّرَطَان وَالشَّمْس وَلَهَا الْأَسَد وَالْمُشْتَرَى وَلَهُ الْقَوْس وَالْحُوت وَزُحَل وَلَهُ الْجَدْي وَالدَّلْو {وَجَعَلَ فِيهَا} أَيْضًا {سِرَاجًا} هُوَ الشَّمْس {وَقَمَرًا مُنِيرًا} وَفِي قِرَاءَة سُرُجًا بِالْجَمْعِ أَيْ نَيِّرَات وَخُصَّ الْقَمَر مِنْهَا بِالذِّكْرِ لنوع فضيلة[1].

=

استطعت، أما أن تترك واجبا لأنك تترك واجبا آخر فهذا ليس بصحيح. ولا شك أنه من سوء الأدب، ومن عدم الحكمة أن الإنسان يدعو إلى أمر وهو متلبس بضد ما يأمر به:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

لكن ليس معنى ذلك أنك تترك الواجب، فحاول أن تصلح أمرك، وأن تصلح أمر غيرك.

(١) قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الفرقان: ٦١]، أي:"عَظُمَتْ بركات الرحمن وكثر خيره، الذي جعل في السماء النجوم الكبار بمنازلها".

قال السمعاني:"هي النجوم العظام، وقيل: هي البروج الاثنا عشر".

قال الزمخشري:"البروج: منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت: سميت بالبروج التي هي القصور العالية، لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. واشتقاق البرج من التبرج، لظهوره".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: تقدس الرب الذي جعل في السماء بروجا، وهي قصور في السماء، لأن ذلك في كلام العرب {ولو كنتم في بروج مشيدة}، وقول الأخطل:

كأنها برج رومي يشيده... بان بجص وآجر وأحجار

يعني بالبرج: القصر".

قال قتادة:"البروج: النجوم".

قال يحيى بن رافع، وإبراهيم:"قصورا في السماء".

قال عطية بن سعد:"قصورا في السماء، فيها الحرس".

وقال أبو صالح:"النجوم الكبار". وفي رواية:"الكواكب العظام".

وقال مجاهد:"الكواكب".

قال علي: "إن الشمس إذا طلعت هتف معها ملكان موكلان بها فيجريان معها ما جرت، حتى إذا وقعت في قطها، قيل لعلي: وما قطها؟ قال: حذى بطنان العرش قال: فتخر ساجدة حتى يقال لها: امضي فتمضي بقدر الله، فإذا طلعت أضاء وجهها لسبع سموات وقفاها لأهل الأرض، يعني قوله: {جعل في السماء بروجا}، قال: وفي السماء ثلاثمائة وستون برجا كل برج منها أعظم من جزيرة العرب، للشمس في كل برج منها منزل تنزله".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} [الفرقان: ٦١]، أي:"وجعل فيها شمسًا تضيء وقمرًا ينير".

قال قتادة:"السراج: الشمس"، قوله: {وقمرا منيرا}، أي: مضيئا".

قال الطبري:"يعني بالمنير: المضيء".

قال علي:"إن الشمس إذا طلعت أضاء وجهها لسبع سموات، وقفاها لأهل الأرض".

=

=

قال العثيمين: قوله: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تبارك} تعاظم]، وتقدم أنه لا ينبغي الاقتصار فيها على تعاظم؛ فإنها تدل على كثرة الخيرات وسعتها؛ لأن هذه البروج التي ستأتي فيها من الخير للناس والمصلحة والمنفعة ما يناسب هذا الوصف.

وكلمة {تبارك} مبالغة من البركة لزيادة (التاء)، وهي تقال لله ﷻ، والعامة عندنا يقولونها لغير الله، يقولون: تباركت علينا، وما أشبه ذلك، فبعض الناس يقولون: إن هذا الوصف خاص بالله، ولا يجوز أن تقول للإنسان: تباركت، ولكن الذي نرى أنه لا بأس به؛ لأن الناس يريدون بـ(تباركت) أن الله وضع فيك بركة، لا أنها بركة ذاتية، فلا بأس بها، والعبرة بالمعاني، واللفظ إذا لم يكن فيه محذور شرعي فلا بأس به.

وقوله ﷻ: {الذي جعل في السماء بروجا} هل قوله: {جعل} بمعنى صير أو بمعنى وضع؟ بمعنى وضع، وعلى هذا يتعدى إلى مفعول واحد، وهو قوله: {بروجا}.

قوله ﷻ: {بروجا} جمع برج، والبرج في الأصل البناء العالي المرتفع، وهذه البروج الشاملة للنجوم لعلوها هي في الحقيقة مثل الأبنية الشامخة العالية، يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ [اثني عشر]، هذه بدل من {بروجا}، يقول: [اثني عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت] اثنا عشر برجا، بدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بالحمل لأنه وقت اعتدال الزمان الربيعي؛ لأنه إذا حلت الشمس أول يوم من برج الحمل تساوى الليل والنهار ربيعا عند ابتداء برج الحمل، يعني يكون الليل اثنتي عشرة ساعة، ويكون النهار اثنتي عشرة ساعة.

هناك ثلاثة بروج -الحمل والثور والجوزاء- إذا تمت الجوزاء وبدأ السرطان

=

=

انتهى الليل في القصر، والنهار في الطول، يعني أن الشمس تنتهي إلى البروج الشمالية بعد هذه الثلاثة: الحمل والثور والجوزاء، ثم بعد ذلك تنصرف الشمس إلى الجنوب: السرطان والأسد والسنبلة، هذه الثلاثة إذا مضت تساوى الليل والنهار خريفا بعد انتهاء طول النهار. والميزان والعقرب والقوس هذه الثلاثة إذا انتهت ينتهي طول الليل وقصر النهار، ثم تعود الشمس في الجدي والدلو والحوت، إذا انتهى الحوت تساوى الليل والنهار ربيعا.

وقد اختلف الناس هل يبدأ بالحمل لأنه أحسن أيام السنة، حيث إن فيه الاعتدال الربيعي، أو يبدأ بالميزان؛ لأنه هو وقت اعتدال الزمان الخريفي المعروف والمشهور. والأكثر الذي مشى عليه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يبتدئ بما فيه الاعتدال الربيعي، لكن بعض الناس يبتدئ بالطرف الثاني ويزعم أن هذه هي طريقة العرب، والله أعلم، لكن الذي أرى أن التقاويم أكثرها يبدأ بهذا، ويقولون: إن العرب يبتدئون من الاعتدال الخريفي، وإن العجم يبتدئون من الاعتدال الربيعي، وكون العجم يبتدئون من الاعتدال الربيعي هذا واضح، والعجم -إيران وتوابعها- تؤرخ ابتداء السنة بالحمل؛ لأن السنين عندهم شمسية ويبدأونها ببرج الحمل.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي منازل الكواكب السبعة السيارة؛ المريخ، وله الحمل والعقرب. والزهرة، ولها الثور والميزان. وعطارد، وله الجوزاء والسنبلة. والقمر، وله السرطان، والشمس، ولها الأسد. والمشتري، وله القوس والحوت. وزحل، وله الجدي والدلو].

على كل حال هذا التقسيم الأخير لا أعرف وجهه، ولا أدري عنه، لكن هذه البروج الشمس تقطعها في السنة كما سمعنا قريبا، والقمر يقطعها في الشهر، كل شهر يقطع القمر هذه البروج، وله منازل: ثمان وعشرون منزلة، تشتمل على هذه البروج الاثني عشر، أما الشمس فإنما تقطعها في السنة. وهذه البروج يدل على

=

=

عظمتها أن الله قال: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا} [الفرقان: ٦١].

وقوله: {في السماء} المراد به العلو، وليس المراد به السقف المحفوظ، بل هو العلو؛ لأن هذه البروج دونها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وجعل فيها} أيضا {سراجا} هو الشمس {وقمرا منيرا}، وفي قراءة: سرجا بالجمع، أي نيرات، وخص القمر منها بالذكر لنوع فضيلة]، على هذه القراءة خص القمر منها بالذكر لنوع فضيلة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: عطف القمر على سرج وهو منها لنوع فضيلة، ولكن على قراءة الإفراد المراد بالسراج الشمس، وسميت سراجا والقمر منيرا؛ لأن الشمس نورها ذاتي وحار، والقمر نوره مكتسب من الشمس، فليس بنفسه سراجا، وإنما هو منير أو نور، لكن نوره مكتسب.

وعلى قراءة (سرج) يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [يعني نيرات] ومنها القمر نير، لكن خصه لنوع فضيلة، لكن أقول: إن كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه نظر، فعطف القمر المنير على السرج من باب عطف المتغايرين، لا من باب عطف الخاص على العام، فالقمر ليس من السرج، {وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا} [نوح: ١٦]، فالشمس بلا شك سراج، ولكن القمر نور، فعليه لا يكون منها، ولا يحتاج إلى الجواب الذي ذكر المصنف: خص القمر لنوع فضيلة، بل نقول: إن هذا ليس من باب التخصيص، ولكن من باب عطف المتغايرين، لكن قراءة الجمع (وجعل فيها سرجا) تدل على أن غير الشمس من الكواكب فيه حرارة وفيه إضاءة أيضا، لكنها لا تصل إلى الأرض للبعد، ولكن هذه الآية تدل على أن فيها الحرارة والإضاءة. وإنما ذكر السرج والقمر المنير مع البروج لأن البروج منازل، وهذه الأشياء نازلة، فذكر المنازل والنازل جميعا، وكلاهما مما يدل على آيات الله سبحانه وتعالى العظيمة التي لا يمكن أن يقابلها أي أحد.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢).

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْل وَالنَّهَار خِلْفَة} أَيْ يَخْلُف كُلّ مِنْهُمَا الْآخَر {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّر} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف كَمَا تَقَدَّمَ مَا فَاتَهُ فِي أَحَدهمَا مِنْ خَيْر فَيَفْعَلهُ فِي الْآخَر {أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} أَيْ شُكْرًا لِنِعْمَةِ رَبّه عليه فيهما[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} [الفرقان: ٦٢]، أي:"وهو الذي جعل الليل والنهار متعاقبَيْن يَخْلُف أحدهما الآخر".

عن عكرمة، قال: سئل ابن عباس عن الليل، كان قبل أو النهار؟ قال: "أرأيتم السموات حيث كانتا رتقا هل كان بينهما إلا ظلمة؛ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار".

عن عكرمة، "أن اليهود، قالوا للنبي ﷺ: ما يوم الجمعة؟ قال: «خلق الله في ساعتين منه الليل والنهار»".

وفي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} [الفرقان: ٦٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه جعل ما فات من عمل أحدهما خلفة يقضي في الآخر، قاله عمر ابن الخطاب، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

قال شقيق: "جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال: أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله {جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر، أو أراد شكورا}".

عن الحسن، "أن عمر أطال صلاة الضحى فقيل له: صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال: "إنه بقي علي من وردي شيئا فأحببت أن أتمه أو أقضيه وتلا هذه الآية: {جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا}".

قال ابن عباس:"يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، أو من =

=

النهار أدركه بالليل".

قال الحسن:"جعل أحدهما خلفا للآخر، إن فات رجلا من النهار شيء أدركه من الليل، وإن فاته من الليل أدركه من النهار".

قال الحسن:"من عجز بالليل كان له في النهار مستعتب، ومن عجز بالنهار كان له في الليل مستعتب".

قال عكرمة:"خذ من ليلك فإن فاتك من نهارك فمن ليلك".

وقال قتادة:"مختلفان هذا أسود وهذا أبيض، وإن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار وينسى بالنهار ويذكر بالليل".

الثاني: أنه جعل كل واحد منهما مخالفًا لصاحبه، فجعل أحدهما أبيض والآخر أسود، قاله ابن عباس أيضا، ومجاهد.

الثالث: أن كل واحد منهما يخلف صاحبه إذا مضى هذا جاء هذا، قاله مجاهد أيضا، وابن زيد، ومنه قول زهير:

بها العين والآرام يمشين خلفة... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

قال ابن زيد:"لو لم يجعلهما خلفة لم يدر كيف يعمل، لو كان الدهر ليلا كله كيف يدري أحد كيف يصوم، أو كان الدهر نهارا كله كيف يدري أحد كيف يصلي. قال: والخلفة: مختلفان، يذهب هذا ويأتي هذا، جعلهما الله خلفة للعباد، وقرأ: {لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا}".

قوله تعالى: {لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ} [الفرقان: ٦٢]، أي:"لمن أراد أن يعتبر بما في ذلك إيمانًا بالمدبِّر الخالق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: جعل الليل والنهار، وخلوف كل واحد منهما الآخر حجة وآية لمن أراد أن يذكر أمر الله، فينيب إلى الحق".

قال الضحاك: "{أن يذكر}، قال: يتعظ".

=

=

عن مجاهد: "{أن يذكر}: آية له".

وقرأه عامة قراء الكوفيين: «يذكر»، مخففة.

قوله تعالى: {أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦٢]، أي:"أو أراد أن يشكر لله تعالى على نعمه وآلائه".

قال الطبري:"أو أراد شكر نعمة الله التي أنعمها عليه في اختلاف الليل والنهار".

قال مجاهد:"شكر نعمة ربه عليه فيهما".

عن الضحاك، قوله: "{أو أراد شكورا}، قال: طاعة".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة} أي يخلف كل منهما الآخر {لمن أراد أن يذكر} بالتشديد والتخفيف كما تقدم]، (يذكر) أو (يذكر) [ما فاته في أحدهما من خير فيفعله في الآخر {أو أراد شكورا} أي شكرا لنعمة ربه عليه فيهما].

قوله: {وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة} الضمير في قوله: {وهو الذي} يعود على {الذي جعل في السماء بروجا} يعني: ومن آياته ونعمه أنه جعل الليل والنهار خلفة، يعني يخلف بعضهما الآخر، هذه الخلفة فيها فائدة عظيمة جدا، بل فائدتان عظيمتان:

أولا: التذكر والاتعاظ.

ثانيا: شكر النعمة.

ففي التذكر يقول المصنف: [ما فاته في أحدهما من خير فيفعله في الآخر]، وهذا نوع من التذكر في الواقع، لكن من التذكر أن تتذكر بذلك قدرة الله عَزَّوَجَلَّ حيث أتى بالليل بدل النهار، وبالنهار بدل الليل، ولو اجتمع الخلق على أن يغيروا هذا النظام فيأتوا بالليل بدل النهار أو بالعكس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ثانيا: مما تتذكره في هذا الليل والنهار تذكر الموت والحياة {وهو الذي يتوفاكم

=

=

بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} [الأنعام: ٦٠]، وفي الحقيقة أن الإنسان إذا قام من الليل يشعر كأنه خلق من جديد، يعني لو يتصور الإنسان أن الوقت كله نهار أو كله ليل ما حصل هذا النشاط الذي يتجدد له كل يوم، ويشعر بأنه دخل في حياة جديدة، ولهذا سماه الله تعالى بعثا، قال تعالى: {ثم يبعثكم فيه} [الأنعام: ٦٠]، حيث تتذكر البعث بعد الموت.

كذلك أيضا مما يتذكر ويتعظ به أنه يتذكر مطلق البعث وأن الله قادر، يتذكر أنه لا بد من يقظة بعد الرقدة، وذلك في يوم القيامة، قال تعالى: {قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا} [يس: ٥٢] فلا بد من هذا؛ لأن هذه سنة الله، لكن يوم القيامة يوم واحد، لا ليل فيه، بل هو دائما على ما هو عليه.

كذلك أيضا ما قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من التذكر العملي أن الإنسان إذا نسي عبادة في ليل قضاها في النهار، أو في نهار قضاها في الليل، أو إذا لم يتب في النهار تاب في الليل "إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل" والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا غلبه نوم أو وجع فما يصليه في الليل قضاه في النهار فهذا أيضا من التذكر العملي.

لو قال قائل: هل الوتر يصلى على صفته إذا كان قضاء؟

الصحيح أنه لا يقضيه على صفته، وأنه يشفعه؛ لأن هذا حديث ثابت في مسلم، وهل يسمى وترا؟ نقول: يسمى قضاء، لكن أصل الوتر "اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا"، فصلاة الليل انتهت الآن، فلا فائدة من الوتر، لكن ما كان الإنسان يتعبد به لربه يحب ألا يفوته، وهذا ما تركه عمدا، بل تركه نسيانا، وترك قضاءه، وهو أهون من فعله، ولكن مع هذا نقول: لا ينبغي للإنسان إذا كان عادته أنه يوتر بثلاث يصلي أربعا، وليتذكر الإنسان عندما تقول له نفسه: لا تفعل هذه الطاعة أنه سيحتاج إليها حاجة عظيمة.

=

=

وأما قوله: {أو أراد شكورا} فـ(أو) هنا هل هي للتقسيم والتنويع، بمعنى أن يجعل هذا قسيما للأول، فتكون مانعة اجتماع أو هي مانعة خلو؟.

الجواب: مانعة خلو؛ لأن مانعة الاجتماع معناها أنه إذا وجد الأول امتنع الثاني، لكن مانعة الخلو معناها إما أن يوجد هذا أو هذا، أو هما {لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا} فهل يمكن أن يجتمعا؟ نعم إذن هي مانعة خلو.

قوله: {أو أراد شكورا} يعني أن من أراد أن يشكر نعمة ربه عليه في هذا النهار والليل فإنه له المجال، ولا شك أن من تذكر نعمة الله في هذا الليل والنهار لا بد أن يشكر الله، ففي الليل سكون وهدوء، وكل راقد، وكل ساكن، فيطيب النوم، ويلذ، وتحصل الراحة الكاملة، هذه نعمة عظيمة، وفي النهار الأمر بالعكس، ففي الإنسان نشاط وقوة ورغبة في الكسب والعمل، فيزداد بذلك شكرا لله ﷻ على هذه النعمة، وليس هذا المجال أو هذا المكان بمحيط لما يتصوره الإنسان من نعمة الله تعالى عليه بهذا الليل والنهار، فالإنسان أحيانا يفتح عليه عند التأمل والتفكر ما يتبين به نعمة الله سبحانه وتعالى أكثر مما نقول ومما نستطيع أن نقول، ولو أن الإنسان سهر ليلة من الليالي لتبين له نعمة الله سبحانه وتعالى على الناس بهذا الليل وهذا النهار.

لو قال قائل: قوله: {قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون (٨٨) سيقولون لله قل فأنى تسحرون} [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] السؤال بـ(من) الجواب: لله؟

هذه فيها قراءتان؛ هذه القراءة التي ذكرت في السؤال، وهي التي في المصحف، وقراءة ثانية سبعية: {فسيقولون الله}؛ {قل من بيده ملكوت كل شيء} {فسيقولون الله}، أما الأولى {قل لمن الأرض} [المؤمنون: ٨٤]، {سيقولون لله} [المؤمنون: ٨٥]، يعني الأولى {سيقولون لله}؛ لأن السؤال {قل لمن

=

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣).

{وَعِبَاد الرَّحْمَن} مُبْتَدَأ وَمَا بَعْده صِفَات لَهُ إِلَى أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ غَيْر الْمُعْتَرِض فِيهِ {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْض هَوْنًا} أَيْ بِسَكِينَةٍ وَتَوَاضُع {وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ} بِمَا يَكْرَهُونَهُ {قَالُوا سَلَامًا} أَيْ قَوْلًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنْ الْإِثْم[1].

=

الأرض ومن فيها}، الثانية {قل من رب السماوات} [المؤمنون: ٨٦] فيها قراءتان: الجواب {فسيقولون لله}، وقراءة ثانية سبعية {فسيقولون لله}، والثالثة أيضا {قل من بيده ملكوت كل شيء} الجواب: {فسيقولون لله} أو {فسيقولون الله}، أما {فسيقولون الله} فلا إشكال فيها، لكن على قراءة {لله} يكون المعنى: سيقولون: ذلك لله، أي الربوبية العظيمة التي هي ربوبية السموات وألأرض لله، أما على قراءة {الله} فالمعنى: سيقولون: هو الله.

(١) قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣]، أي:"وعباد الرحمن الصالحون يمشون على الأرض بسكينة متواضعين".

قال الطبري: أي:"بالحلم والسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله".

قال ابن كثير:"هذه صفات عباد الله المؤمنين {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كما قال: {وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا} [الإسراء: ٣٧]. فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعًا ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي

=

=

بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رُويدًا، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»".

عن مجاهد: "{الذين يمشون على الأرض هونا}، قال: بالوقار والسكينة". وفي رواية:"بالحلم والوقار".

وقال ابن عباس:"بالطاعة والعفاف والتواضع". وفي رواية:"يمشون على الأرض بالطاعة".

قال زيد بن أسلم:"التمست تفسير هذه الآية {الذين يمشون على الأرض هونا}، فلم أجدها عند أحد، فأتيت في النوم فقيل لي: هم الذين لا يريدون يفسدون في الأرض".

قال ابن زيد:"لا يتكبرون على الناس، ولا يتجبرون، ولا يفسدون. وقرأ قول الله: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين}".

قال الحسن:"حلماء، وإن جهل عليهم لم يجهلوا". وفي رواية:"علماء حلماء لا يجهلون".

قال الحسن:"«الهون» -في كلام العرب-: اللين والسكينة".

قوله تعالى: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣]، أي:"وإذا خاطبهم الجهلة السفهاء بالأذى أجابوهم بالمعروف من القول، وخاطبوهم خطابًا يَسْلَمون فيه من الإثم، ومن مقابلة الجاهل بجهله".

قال الطبري:"يقول: وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول، أجابوهم

=

=

بالمعروف من القول، والسداد من الخطاب".

عن مجاهد:"{وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}، قال: سدادا". وفي رواية:"سدادا من القول".

قال الحسن:"حلماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم حلموا ولم يسفهوا، هذا نهارهم فكيف ليلهم - خير ليل - صفوا أقدامهم، وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون إلى الله جل ثناؤه في فكاك رقابهم".

قال الحسن: إن المؤمنين قوم ذلل، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مرضى، وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن}، والله ما حزنهم حزن الدنيا، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم ومشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه".

قال العثيمين: مر فيما سبق أن الله تعالى أثنى على نفسه بمخلوقاته العظيمة؛ البروج التي جعلها في السماء لما تتضمنه من الدلالة على قدرته وعلى رحمته بعباده، وكذلك القمر والشمس، ففيهما من مصالح العباد الدينية والدنيوية ما هو معلوم، فالقمر جعله الله تعالى ميقاتا للحج وللصوم ولآجال الناس في بيعهم وشرائهم وديونهم، وغير ذلك، والشمس فيها منافع أيضا كثيرة، من إنضاج الثمار وتعاقب الليل والنهار والفصول وغيرها، ثم بين أنه ﷻ جعل الليل والنهار خلفة، يخلف أحدهما الآخر، ولكن هذه الآية لا ينتفع بها إلا من أراد أن يذكر أو أراد شكورا، {يذكر} يعني ما فيهما من آيات الله سبحانه وتعالى، والإشارة إلى ما هو أعظم من البعث والنشور يوم القيامة، فإن الليل والنوم فيه بمنزلة الموت والنهار،

=

=

والاستيقاظ فيه بمنزلة البعث، وأما الشكور، فإنه لما تضمن هذا التخالف بين الليل والنهار من مصالح العباد ما تضمنه صار مستوجبا على العبد أن يشكر نعمة الله ﷻ عليه بذلك.

ثم بين الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر ما سبق عن المشركين المجادلين للرسول عليه الصلاة والسلام والمكذبين له الذين لم ينتفعوا بآيات الله، ولم يؤمنوا به، ولا برسوله، ذكر أو ختم هذه السورة بذكر من كانوا على خلاف هؤلاء، وهكذا القرآن جعله الله سبحانه وتعالى مثاني تثنى فيه المعاني المتقابلة والمتماثلة أيضا، ولهذا دائما تجد أن الله إذا ذكر النار يذكر الجنة، وإذا ذكر الجنة ذكر النار، وإذا ذكر صفات أهل النار ذكر صفات أهل الجنة، وهكذا؛ لأنه مثان، وهذا من الحكمة؛ لأن الإنسان إذا رأى النار وصفات أهلها قد يؤدي ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فيأتي بعده ذكر الجنة وأهلها فينشط ويرجو رحمة الله سبحانه وتعالى، والعكس بالعكس.

ومن المعلوم للإنسان أنه إذا كان على وتيرة واحدة لحقه السأم والملل، فإذا تنوعت له الأحوال وتنوع الخطاب نشط فيبدأ بالجنة أحيانا وبالنار أحيانا حسب ما يقتضيه السياق، إنما في الغالب إذا ذكر الصفات لهذا ذكر الصفات لهذا؛ ليكون الإنسان غير مال وغير قانط من رحمة الله، وغير آمن من مكره.

قوله: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا}: (الرحمن) كررت في مواضع قريبة جدا ثلاث مرات.

- في قوله: {ثم استوى على العرش الرحمن}.
- وفي قوله: {وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}.
- والثالثة هنا في قوله: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا}، ثم السورة كلها مصدرة بالقرآن {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}؛ مما يدل على

=

=

أن نزول هذا القرآن من رحمة الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وعباد الرحمن} مبتدأ، وما بعده صفات له، إلى أولئك يجزون غير المعترض فيه].

قوله: {وعباد الرحمن} عباد جمع عبد، وأضافهم إلى الرحمن ولم يقل: عباد الله، أو عباد الرب، وما أشبه ذلك إشارة إلى أن هذه العبودية التي اتصفوا بها من آثار رحمة الله، وأن الله تعالى رحمهم حتى صاروا عبادا له. وفي الإضافة أيضا معنى آخر {وعباد الرحمن} أي أنهم عباد يتعبدون لله لرجاء رحمته، وبرحمته أيضا عبدوه، لا يتعبدون رياء ولا سمعة، فهذا وجه الإضافة من الناحيتين؛ من ناحية أن عبادتهم لله كانت من مقتضيات رحمته، ومن ناحية أخرى أنهم يرجون بهذه العبادة رحمة ربهم، لا يرجون بذلك دنيا ولا دفع مذمة عنهم، وإنما يرجون بهذا رحمة الله.

وهذه العبودية خاصة؛ لأن المراد بها عبودية الشرع، وعبودية الشرع خاصة بمن أتى بالشرع. أما العامة فهي عبودية القدر، وهي الخضوع لقدر الله سبحانه وتعالى، وهذه عامة، كل أحد خاضع لقدر الله عَزَّوَجَلَّ، لا يمكن أن يستعصي عليه، وأما قول المصنف: [مبتدأ وما بعده صفات له] يعني: والخبر {أولئك يجزون الغرفة} [الفرقان: ٧٥] ففيه نظر، بل الصواب أن (عباد) مبتدأ، وخبره {الذين يمشون على الأرض هونا}، وما بعده معطوف عليه، يعني عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض هونا إلى آخره، ويكون قوله عَزَّوَجَلَّ: {أولئك يجزون الغرفة} جملة مستأنفة لبيان جزائهم وثوابهم؛ وذلك لأننا إذا مشينا على ما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لزم من هذا الفصل بين المبتدأ والخبر بفواصل طويلة، لا داعي لها، ولزم أن يكون الكلام غير تام حتى نهاية {أولئك يجزون الغرفة بما صبروا}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الذين يمشون على الأرض هونا} أي بسكينة وتواضع]،

=

=

قوله: {الذين يمشون على الأرض هونا} أبلغ من (الماشون على الأرض هونا)؛ لأن الجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد، يعني الذين في حال مشيتهم يمشون على الأرض هونا، وفي تعريف المبتدأ والخبر دليل على الحصر كما هو معروف في القواعد؛ أنه إذا عرف المبتدأ والخبر كان ذلك دليلا على الحصر، يعني أن عباد الرحمن هم هؤلاء.

قوله: {الذين يمشون على الأرض هونا} قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في سكينة وتواضع، يعني ليست مشيتهم مشية الإنسان الذي ليس بمتزن، وإنما مشيتهم مشية اتزان، هونا بدون سرعة، ولا ينافي ذلك ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام من أنه كان يمشي بقوة وجلد كأنما ينحدر من صبب، فإنما ذلك لقوته، وليس هذا من باب العجلة التي تقبح، ففرق بين إنسان يمشي كمشية المجنون غير المهذب، وإنسان يمشي بقوة ولكنه يمشي مشيا متزنا، فالأول مذموم، والثاني محمود؛ لأنه يدل على النشاط وعلى القوة، وأريح للبدن وأسرع في بلوغ الغاية، كما كان الرسول ﷺ يفعل، وأيضا كان عمر إذا رأى الرجل يتوانى في مشيته ضربه.

ثم إن هذا المشي هل هو المشي الحسي أو يعم المشي الحسي والمعنوي؟

الجواب: يعمهما جميعا، حتى المشي المعنوي، بدليل قوله ﷻ: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}، وهذا من هون المشي المعنوي، أنهم إذا خاطبهم الجاهلون لا يتسرعون فيقابلونه بمثل جهله، ولكنهم يقولون: سلاما.

قوله: {وإذا خاطبهم الجاهلون} وليس المراد بالجاهل الذي ليس بعالم، بل المراد السفيه؛ لأن الجهالة تطلق على السفه، قال الله سبحانه وتعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة} [النساء: ١٧]، يعني السفه، ثم يرشدون.

يقول المصنف: [{وإذا خاطبهم الجاهلون} بما يكرهون {قالوا سلاما}، أي:

=

=

قولا يسلمون فيه من الإثم] وليس المراد (سلاما) يعني: السلام عليكم، كما يظن بعض العامة، ولذلك تسلط الفعل عليها فنصبها، ولو كان المراد بالسلام الجملة السلامية لقال: (قالوا: سلام)، ولكن المراد مثلما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [قولا يسلمون فيه من الإثم] ومن التطاول في الأذية؛ لأن الرجل إذا قابل الجاهل بمثل قوله فالجاهل لا حدود له، لا يحده شرع ولا عقل، إذا قال كلمة أتاه بكلمتين، أو بعشرة، لكنه إذا كان عاقلا مؤمنا متزنا فإنه يقول قولا يسلم فيه من الإثم ومن الأذية، وهذا القول يحفظ للإنسان كرامته؛ لأنه لم يقل: إنهم يسكتون، بل قال: قالوا قولا، فلا بد من قول لكنه قول يسلمون به من أذية هذا الجاهل ومن إثمه، ومن النزاع والخصومة، وينتصرون لأنفسهم، فلا يحسبهم الجاهل جبناء ولا يحسبهم متصفين بما يقول إذا سكتوا؛ لأنهم إذا سكتوا مع القدرة على الإنكار فإنه يدل على أنهم راضون بما وصفوا به، ولا بد من مقابلتهم، ولكن كما قال الله تعالى بقول يسلم فيه الإنسان من الإثم فيما بينه وبين الله، ومن اللجاج والخصومة فيما بينه وبين هؤلاء الجاهلين.

قوله: {قالوا سلاما} مثال ذلك لو قال له: أنت فاسق، أنت سروق، أنت كذوب، أنت كذا، ولا نستطيع أن نحدد؛ لأن هذا يرجع تحديده إلى الحال أو المقام الذي يكون فيها الإنسان.

لو قال قائل: إذا كان يعلم أنه إذا سكت عنه سينتهي؟

نقول: الآية ما تعرضت لهذا، لكن لو روعيت المصلحة فلا بأس، فهم هنا وصفهم أنهم يقولون قولا يسلمون فيه من الإثم، لكن القول أحسن في الغالب، وليس معنى القول أن يرد عليه، فمن القول أن ينصحه؛ يقول: يا أخي، اتق الله، مثلما قال الرسول ﷺ فيمن شتم وهو صائم، قال: "فليقل: إني صائم" فالمهم أن يسلك الطريق؛ لأن سكوته قد يؤدي إلى استطالة الآخر عليه ويعتقد أنه ضعيف

=

وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤).

{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا} جَمْع سَاجِد {وَقِيَامًا} بِمَعْنَى قَائِمِينَ يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ(١).

=

أمامه.

لو قال قائل: قوله تعالى: {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين} [القصص: ٥٥]، هل هذه الآية مثل قوله: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}؟

نقول: هذه الآية غير تلك، فقوله: {وإذا خاطبهم} الخطاب معهم، وقوله: {وإذا سمعوا اللغو} يعني أن الكلام ليس فيه فائدة فقاموا وتركوهم وقالوا: سلام عليكم.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)} [الفرقان: ٦٤]

قال الطبري: يقول:"والذين يبيتون لربهم يصلون لله، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام".

قال يحيى:"يصلون، أي: وأنتم أيها المشركون لا تصلون".

قال ابن كثير:"أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: {كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٧ - ١٨]، وقال {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [السجدة: ١٦] وقال {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} الآية [الزمر: ٩] ولهذا قال: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} أي: ملازما دائما، كما قال الشاعر:

إنْ يُعَذِّب يَكُنْ غَرَامًا، وإن يُعْـ... ـط جزيلا فإنه لا يُبَالي".

قال يحيى:"بلغني أنه من صلى من الليل ركعتين فهو من الذين يبيتون لربهم =

=

سجدا وقياما".

قال الزجاج:"كل من أدركه الليل فقد بات يبيت، نام أو لم ينم، بات فلان البارحة قلقا، إنما المبيت إدراك الليل".

قال العثيمين: قال المصنف: [{والذين يبيتون لربهم سجدا} جمع ساجد {وقياما} بمعنى قائمين، أي يصلون الليل]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [يصلون الليل] أخذه من قوله: {يبيتون لربهم سجدا وقياما}.

قوله: {يبيتون لربهم سجدا وقياما} هذا معطوف على ما سبق، وتقديم المعمول أو المتعلق يدل على الحصر، يعني: لا يسجدون رياة ولا سمعة، وإنما يسجدون لله وحده: لربهم، وفي قوله: {لربهم} دون قوله: (لله) إشارة إلى أن هذا السجود يريدون به ثواب الله ورضوانه؛ لأن الرب هو المالك المتصرف، ومن ملكه وتصرفه مجازاة هؤلاء على أعمالم.

وقوله: {سجدا} الساجد معروف، {وقياما} والقائم أيضا معروف، يعني قائمين، ولم يذكر الله الركوع، ولم يذكر القعود؛ لأن القيام أشرف ما في الصلاة من حيث ذكره؛ أي من حيث الذكر الذي هو القرآن، والسجود أشرف ما في الصلاة من حيث الحال والهيئة، قال ﷺ: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"، فذكر القيام لشرفه بذكره، أي: بما يقال فيه، وذكر السجود لشرفه بهيئته، فدل ذلك على أن هذا أفضل حالات الصلاة، وهو كذلك.

وقوله: {يبيتون لربهم} قد يقول قائل: إن ظاهر الآية الكريمة أنهم يسهرون الليل؛ لأنه ذكر أن وصفهم في حال البيات القيام والسجود، فهل معنى ذلك مشروعية قيام الليل كله؟

نقول: إذا أخذنا بظاهر الآية فهو كذلك، ولكن ما جاءت به السنة يدل على خلاف هذا، وأن أفضل ما يكون أن ينام الإنسان نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه كما

=

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥).

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَاب جَهَنَّم إِنَّ عَذَابهَا كَانَ غَرَامًا} أَيْ لَازِمًا(١).

=

كان ذلك صلاة داود عليه الصلاة والسلام، وصلاة النبي ﷺ، فإنه كان ينام سحرا ويقوم في جوف الليل ﷺ، فيكون على هذا معناه أنهم يبيتون غالب ليلهم، أو أن الله يكتب لهم أجر الصلاة والقيام، وإن كانوا بائتين، ما داموا على هذه النية، وعلى هذا الفعل، ما داموا يفعلون وينوون أنهم إذا ناموا إنما ينامون ليتقووا على القيام، فيكتب لهم أجره وإن كانوا نائمين.

لو قال قائل: قوله: {يبيتون} لا يلزم منه القيام بالليل، بل المراد مطلق القيام؟

الجواب: لكن قال الله تعالى: {يبيتون} والبيات لا يكون إلا بالليل.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ} [الفرقان: ٦٦]، أي:"والذين هم مع اجتهادهم في العبادة يخافون الله فيدعونه أن ينجيهم من عذاب جهنم".

قال الطبري: يقول:"والذين يدعون الله أن يصرف عنهم عقابه وعذابه حذرا منه ووجلا".

قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٦]، أي:"إن عذاب جهنم يلازم صاحبه".

قال مقاتل:"يعني: لازما لصاحبه لا يفارقه".

قال الفراء:"يقول ملحا دائما. والعرب تقول: إن فلانا لمغرم بالنساء إذا كان مولعا بهن".

قال الطبري: "يقول: إن عذاب جهنم كان غراما ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب به من الكفار، ومهلكا له، ومنه قولهم: رجل مغرم، من الغرم والدين. ومنه

=

=

قيل للغريم غريم لطلبه حقه، وإلحاحه على صاحبه فيه. ومنه قيل للرجل المولع للنساء: إنه لمغرم بالنساء، وفلان مغرم بفلان: إذا لم يصبر عنه؛ ومنه قول الأعشى:

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ... ـط جزيلا فإنه لا يبالي

يقول: إن يعاقب يكن عقابه عقابا لازما، لا يفارق صاحبه مهلكا له، وقول بشر بن أبي خازم:

ويوم النسار ويوم الجفا... ر كان عقابا وكان غراما".

قال ابن زيد:"الغرام: الشر".

عن ابن جريج، قوله: "{إن عذابها كان غراما}، قال: لا يفارقه".

قال يحيى: {غراما}: "لزاما.. وبعضهم يقول: انتقاما".

قال أبو عبيدة: {غَرامًا}،" أي: هلاكا".

قال ابن قتيبة:"أي: هلكة".

قال الزجاج:"«الغرام» -في اللغة-: أشد العذاب".

قال محمد بن كعب:"إن الله سأل الكفار عن نعمه، فلم يردوها إليه، فأغرمهم، فأدخلهم النار".

قال الحسن:"قد علموا أن كل غريم مفارق غريمه إلا غريم جهنم".

قال الحسن:"" الغرام: اللازم الذي لا يفارق صاحبه أبدا، وكل عذاب يفارق صاحبه فليس بغرام".

عن عبد الرزاق، ثنا جعفر بن سليمان التيمي، قال: "سمعته وسأله رجل فقال: يا أبا المعتمر أرأيت قول الله ﷻ: {إن عذابها كان غراما}، ما الغرام؟ قال: الله أعلم، ثلاثا. ثم قال: كل أسير لا بد أن يفك أساره يوما أو يموت إلا أسير جهنم فهو الغرام ولا يفك أبدا".

=

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦).

{إنها ساءت} بئست {مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} هِيَ أَيْ مَوْضِع اسْتِقْرَار وَإِقَامَة[1].

=

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما} أي لازما]، هذا مما يدعون الله به.

قوله: {والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم} في قولهم: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم دليل على أنهم لا يدلون على الله بأعمالهم، وأنهم مع قيامهم بهذا العمل خائفون من النار، ولذلك يسألون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم، وجهنم اسم من أسماء النار، وسميت به لأنها بعيدة القعر مظلمة.

وقوله: {إن عذابها كان غراما} أي لازما كملازمة الغريم لغريمه، وهذا بالنسبة للعذاب المطلق، لا لمطلق العذاب؛ لأن مطلق العذاب ليس بلازم، فالمؤمن يعذب بالنار على حسب ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة، لكن عذابها المطلق غرام ملازم لها، فهم يسألون الله سبحانه وتعالى أن يصرفه عنهم، ويبينون مقدار هذا العذاب الذي استعاذوا بالله منه أنه ملازم لمن أخذوا به.

قوله: {والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم} يخبر الله تعالى أن من صفاتهم أنهم يتوسلون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته ليصرف عنهم عذاب جهنم، والغالب أن الأدعية تصدر بالتوسل بالربوبية: (ربنا)؛ لأن فيها التصرف والتدبير. وفي قولهم: {إن عذابها كان غراما} توسل أيضا؛ لأن شدة هذا العذاب وملازمته يوجب للمرء الفرار منه والاستعاذة بالله منه.

(١) قوله تعالى: {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: ٦٦]، أي:"إن جهنم شر قرار وإقامة".

قال مقاتل:"يعني: بئس المستقر وبئس الخلود".

قال الطبري: "ساءت جهنم منزلا ومقاما".

=

وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧).

=

قال الزجاج:"المعنى: أنها ساءت في المستقر والمقام".

قال ابن كثير:"أي: بئس المنزل منظرا، وبئس المقيل مقامًا".

قال يحيى:"إن أهلها لا يستقرون فيها، وأما قوله: {ومقاما}: منزلا".

عن مالك بن الحارث، قال: "إذا طرح الرجل في النار هوى فيها فإذا إنتهى إلى بعض أبوابها قيل: مكانك حتى تتحف قال: فيسقى كأسا من سم الأساود والعقارب قال فتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة".

عن عبيد بن عمير، قال: إن في النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدلم، قال: فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفافهم وأبشارهم أو أشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنها ساءت} بئست {مستقرا ومقاما} هي أي موضع استقرار وإقامة].

قوله: {إنها ساءت} هذه الجملة يحتمل أنها من كلام الله ﷻ، ويحتمل أنها من كلامهم، يعني أنهم استجاروا من النار بالله ﷻ، وبينوا سبب ذلك بأن عذابها دائم، وأنها أيضا بئست المحل للاستقرار والمقام، فكأنهم بينوا سبب استعاذتهم بالله منها بهذين الأمرين؛ بدوام عذابها وبسوء مقامها، والعياذ بالله، مما يحفزهم لسؤال الله تبارك وتعالى أن يصرف عنهم هذا العذاب.

قوله: {إنها ساءت مستقرا ومقاما} عكس أهل الجنة {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} [الفرقان: ٢٤]، وقوله: {خير مستقرا} قد يدل أن في النار خيرية هو مقتضى اسم التفضيل، وليس كذلك.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا} عَلَى عِيَالهمْ {لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} بِفَتْحِ أَوَّله وَضَمّه أَيْ يُضَيِّقُوا {وَكَانَ} إنْفَاقهمْ {بَيْن ذَلِكَ} الْإِسْرَاف وَالْإِقْتَار {قَوَامًا} وسطا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا} [الفرقان: ٦٧]، أي:"والذين إذا أنفقوا من أموالهم لم يتجاوزوا الحد في العطاء".

قال الطبري: يقول:"والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يسرفوا في إنفاقها".

قال ابن كثير:"أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا} [الفرقان: ٦٧]، وجوه:

أحدها: أن الإسراف ما كان من نفقة في معصية الله وإن قلت، والإقتار: المنع من حق الله، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن جريج، وابن زيد.

قال ابن عباس:"هم المؤمنون لا يسرفون فينفقون في معصية الله، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله تعالى".

قال مجاهد:"لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهبا في طاعة الله ما كان سرفا، ولو أنفقت صاعا فى معصية الله كان سرفا".

وقال ابن شهاب:"لا ينفقه في باطل".

عن عمر مولى غفرة أنه سئل عن الإسراف ما هو؟ قال: "كل شيء أنفقته في غير طاعة الله فهو سرف".

وقال ميمون بن مهران: "في المال ثلاث خصال إن نجا من خصلة كان قمن أن لا ينجو من الثنتين وإن نجا من ثنتين كان قمن أن لا ينجو من الثالثة وينبغي أن يكون أصله من طيب فأيكم الذي يسلم كسبه ولم يدخله إلا طيبا فإن سلم فأيكم الذي أدى الحقوق كلها فإن سلم من هذه فإنه ينبغي له أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر".

الثاني: لم ينفقوا كثيرًا فيقول الناس قد أسرفوا، قاله إبراهيم.

=

=

قال إبراهيم:"لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف".

قال وهيب بن الورد أبا الورد مولى بني مخزوم: "لقي عالم عالما هو فوقه في العلم، فقال: يرحمك الله أخبرني عن هذا البناء الذي لا إسراف فيه ما هو؟ قال: هو ما سترك من الشمس، وأكنك من المطر، قال: يرحمك الله، فأخبرني عن هذا الطعام الذي نصيبه لا إسراف فيه ما هو؟ قال: ما سد الجوع ودون الشبع، قال: يرحمك الله، فأخبرني عن هذا اللباس الذي لا إسراف فيه ما هو؟ قال: ما ستر عورتك، وأدفأك من البرد".

قال مطرف بن عبد الله: "خير هذه الأمور أوساطها، والحسنة بين السيئتين. فقلت لقتادة: ما الحسنة بين السيئتين؟ فقال: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا}... الآية".

قال زيد بن مرة الجعفي: "العلم خير من العمل، والحسنة بين السيئتين، يعني: إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وخير الأعمال أوساطها".

الثالث: لا يلبسون ثوبا للجمال، ولا يأكلون طعاما للذة، ولكن كانوا يريدون من اللباس ما يسترون به عورتهم، ويكتنون به من الحر والقر، ويريدون من الطعام ما سد عنهم الجوع، وقواهم على عبادة ربهم. قاله يزيد بن أبي حبيب.

وقال يزيد بن ابي حبيب:"أولئك أصحاب رسول الله ﷺ كانوا لا يأكلون طعاما يريدون به نعيما ولا يلبسون ثوبا يريدون به جمالا كانت قلوبهم على قلب واحد".

وروي عن الحسن:"من الإسراف أن يأكل الرجل كلما اشتهى".

الرابع: أن الإسراف: النفقة في غير حقها، قاله ابن سيرين.

الخامس: الإسراف هو أن تأكل مال غيرك بغير حق. وهذا قول عون بن عبد الله بن عتبة.

=

=

قال عون:"ليس المسرف من يأكل ماله، إنما المسرف من يأكل مال غيره".

السادس: أن السرف مجاوزة أمر الله. وهذا قول إياس بن معاوية.

السابع: أن السرف: ما قصرت به عن أمر الله. وهذا قول سفيان بن حسين.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام: بين ذلك، وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن المسرف والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصا فيهما ما كانا مذمومين، ولا كان المسرف ولا المقتر مذموما، لأن ما أذن الله في فعله فغير مستحق فاعله الذم".

قال الزجاج:"وكل ما أنفق في معصية الله فإسراف، لأن الإسراف مجاوزة الحد والقصد.. والحق في هذا ما أدب الله ﷻ به نبيه - ﷺ - فقال: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا}".

وروي عن داود ابن أبي هند قال: "قلت للحسن الرجل يصنع الطعام ينفق فيها النفقة الكثيرة قال: ليس في الطعام إسراف".

وقال الحسن:"ليس في النفقة في سبيل الله سرف".

قوله تعالى: {وَلَمْ يَقْتُرُوا} [الفرقان: ٦٧]، أي:"ولم يضيِّقوا في النفقة".

قال ابن كثير: أي:"ولا بخلاء على أهْليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَمْ يَقْتُرُوا} [الفرقان: ٦٧]، أربعة وجوه:

أحدها: لم يمنعوا حقوق الله فإن منع حقوق الله إقتار، قاله ابن عباس.

الثاني: لا يمنعه من حق ولا ينفقه في باطل. قاله ابن شهاب.

الثالث: لا يعريهم ولا يجيعهم، قاله إبراهيم.

الثالث: لم يمسكوا عن طاعة الله، قاله ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد:"وما أمسك، عن طاعة الله وإن كثرت فهو إقتار".

الرابع: لم يقصروا في الحق، قاله الأعمش.

قوله تعالى: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، أي:"وكان إنفاقهم وسطًا بين التبذير والتضييق".

قال ابن كثير: أي:"عَدْلا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}، كَمَا قَالَ: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩]".

قال الفراء:"عدلا بين ذلك، أي: بين الإسراف والإقتار".

عن الأعمش قوله: "{وكان بين ذلك قواما}، قال: عدلا".

عن وهب بن منبه: "{وكان بين ذلك قواما}، قال: الشطر من أموالهم".

قال ابن زيد:"القوام بين ذلك أن تنفقوا في طاعة الله وتمسكوا، عن محارم الله".

قال إبراهيم بن نشيط: "سألت عمر مولى غفرة قلت له ما القوام؟ قال: القوام ألا تنفق في غير حق ولا تمسك من حق هو عليك".

قال قتادة:"إن الله ﷻ قد أقاتكم قيتة فانتهوا إلى قيتة الله ﷻ".

قال مطرف بن الشخير: "العلم خير من العمل وخير الأمور أوساطها والحسنة بين السيئتين ذلك بأن الله ﷻ يقول: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا}، يقول سيئة: {ولم يقتروا} يقول: سيئة: {وكان بين ذلك قواما}، يقول: حسنة".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين إذا أنفقوا} على عيالهم {لم يسرفوا ولم يقتروا} بفتح أوله وضمه، أي يضيقوا]، فتح أوله {يقتروا} وضمه أي ضم أوله، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يفصح في القراءة، يعني لم يذكر حكم التاء في المسألة الأخيرة؛ لأن {يقتروا} ليست بظاهرة من جهة التصريف، قال: بفتح أوله وضمه: "ولم يقتروا"، "ولم يقتروا"، هذا ظاهر كلامه، وليس كذلك، وإنما إذا قرئ بضم

=

=

الياء كسرت التاء: "ولم يقتروا" من أقتر الرباعي، لكن في الثلاثي: "ولم يقتروا" قراءة ثانية بكسر التاء: "ولم يقتروا"، فتكون القراءات على هذا ثلاثة: "ولم يقتروا" "ولم يقتروا" "ولم يقتروا"، والإقتار بمعنى الإقلال والتضييق.

قوله: {إذا أنفقوا} قول المصنف: [على عيالهم] تخصيصه بالإنفاق على العيال فيه نظر، اللهم إلا أن يريد بذلك المثل، يعني مثل الإنفاق على العيال، وإلا فهو شامل للإنفاق على العيال والإنفاق في سبيل الله، وفي الزكوات والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، وفي كل ما يكون إنفاقا؛ لأنه لم يتين المتعلق، لم يقل الله: (أنفقوا على عيالهم)، بل أطلق، فيشمل كل ما أنفقوه، على العيال وعلى غيرهم، فهؤلاء إذا أنفقوا لم يسرفوا، والإسراف مجاوزة الحد كمية أو كيفية، {ولم يقتروا} يضيقوا، فالإقتار هو الإقلال والتضييق، وفهم معناه مما قوبل به، وهو قوله ﷻ: {لم يسرفوا}، مثل قوله سبحانه وتعالى: {فانفروا ثبات أو انفروا جميعا} [النساء: ٧١]، {ثبات} لا يستطيع الإنسان أن يعرف ما معناها أبدا، لكن لما قال سبحانه وتعالى: {انفروا جميعا} عرفنا أن معنى (ثبات): متفرقين، وهذا مما يعرف به تفسير القرآن، فيعرف تفسير الكلمة بمقارنتها بما يقابلها.

قوله: {وكان بين ذلك قواما} قال المصنف: [{وكان} إنفاقهم بين ذلك الإسراف والإقتار {قواما} وسطا].

وقوله: {وكان بين ذلك} الإشارة تعود إلى الإسراف والإقتار، يعني كان الإنفاق بين ذلك المذكور؛ وهو الإسراف والإقتار.

وقوله سبحانه وتعالى: {قواما} أي مستقيما، وإنما قال: {قواما} يعني مستقيما لأنه قد يميل إلى الإسراف وقد يميل إلى الإقتار بحسب الحال، يعني ما بين الإسراف والإقتار منزلة، لكن قد يكون الأمر يقتضي أن يميل إلى الإسراف، وقد يكون الأمر يقتضي أن يميل إلى الإقتار، ولهذا قال: {قواما}، فلم يقل: {وكان

=

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨).

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا آخَر وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله} قَتْلهَا {إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ} أَيْ وَاحِدًا مِنْ الثَّلَاثَة {يَلْقَ أَثَامًا} أَيْ عقوبة.

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩).

{يُضَاعَف} وَفِي قِرَاءَة يُضَعَّف بِالتَّشْدِيدِ {لَهُ الْعَذَاب يَوْم الْقِيَامَة وَيُخَلَّد فِيهِ}

=

بين ذلك} وسكت، بل قال: {قواما}؛ يعني مستقيما، إن كان الأمر يتطلب أن يزيدوا قليلا على الوسط زادوا، وإن كان الأمر يتطلب أن ينقصوا نقصوا، مثال ذلك إذا قدرنا أن الإنفاق في هذه الجهة إنفاق ألف درهم يعتبر إسرافا، وإنفاق أربع مئة درهم يعتبر إقتارا، بينهما الآن ست مئة درهم، أحيانا تكون الحال تقتضي أن يجعلوها تسع مئة، ويكون الفرق مئة، وأحيانا تكون الحال تتطلب أن يجعلوها خمس مئة، فيكون الفرق مئة، وأحيان تكون الحال تقتضي أن يكون سبع مئة، المهم أنه بين ذلك قواما، يعني على وجه تقوم به الحال، سواء ارتفع وقرب من الإسراف، أو انخفض وقرب من الإقتار، فهذا معنى قوله: {وكان بين ذلك قواما}؛ يعني لا تسرف، لكن أحيانا تتطلب الحال أن تزيد، مثل لو أن أحدا دعا أناسا ذوي جاه ومكانة، هؤلاء يزاد لهم بعض الشيء، ومن كان دون ذلك فالحكمة تقتضي أن يعطوا بقدر حالهم.

والإنفاق بين الإسراف والإقتار هو داخل في قوله: {يمشون على الأرض هونا}، إذا جعلنا المشي مشيا معنويا؛ لأن هذا من المشي المعنوي الهين الذي لا يميل إلى السرعة ولا يميل إلى الانحطاط.

بِجَزْمِ الْفِعْلَيْنِ بَدَلًا وَبِرَفْعِهِمَا اسْتِئْنَافًا {مُهَانًا} حَال[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سألت -أو سئل- رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب عند الله أكبر؟ قال: "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك"، قلت: ثم أي؟ قال: "ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك"، قلت: ثم أي؟ قال: "أن تزاني بحليلة جارك"، قال: ونزلت هذه الآية تصديقًا لقول رسول الله ﷺ: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٨٦، ١٤١، ١٤٢) وغيرهما من حديث ابن مسعود به.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أنَّ لِمَا عملنا كفارة؛ فنزل: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)}، ونزل: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ} [الزمر: ٥٣].

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨١٠)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٢٢/ ١٩٣).

وفي رواية للبخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٦٥)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٣٠٢٣/ ١٩)؛ أنه قال: نزلت هذه الآية بمكة: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} إلى قوله: {مُهَانًا}، فقال المشركون: وما يغني عنا الإسلام؛ وقد عدلنا بالله، وقد قتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش؟ فأنزل الله ﷻ: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} إلى آخر الآية. قال: فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل؛ =

=

فلا توبة له.

وفي رواية للبخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٦٦)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٣٠٢٣/ ١٨) بلفظ: "نزلت في أهل الشرك".

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: "الصلوات لمواقيتهن"، قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين"، قلت: ثم أي؟ قال: "ثم الجهاد في سبيل الله"، ولو استزدته لزادني، وسألته: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "الشرك بالله"، قلت: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك".

فما لبثنا إلا يسيرًا حتى أنزل الله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧٧) ونسبه لابن مردويه.

وعن سعيد بن جبير؛ قال: نزلت {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} إلى آخر الآية في وحشي وأصحابه، قالوا: كيف لنا بالتوبة وقد عبدنا الأوثان، وقتلنا المؤمنين، ونكحنا المشركات؟ فأنزل الله فيهم: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}؛ فأبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتالهم مع المشركين قتالًا مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٢٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٧٣٤ رقم ١٥٤٣٤) من طريق يعقوب عن جعفر عن سعيد به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: جعفر بن أبي المغيرة ليس بالقوي في سعيد بن جبير؛ كما قال ابن منده.

الثانية: الإرسال.

=

=

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} إلى قوله: {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}، فقال المشركون: ولا والله ما كان هؤلاء الذين مع محمد إلا معنا، قال: فأنزل الله: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ}، قال: تاب من الشرك وآمن، قال: بعقاب الله ورسوله {وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا}، قال: صدق، {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} قال: يبدل الله أعمالهم السيئة التي كانت في الشرك بالأعمال الصالحة حين دخلوا في الإيمان.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٣٠): ثنا يونس ثنا ابن وهب عن عبد الرحمن به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: عبد الرحمن؛ متروك الحديث.

الثانية: الإعضال.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} الآية، ثم نزلت: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ}؛ فما رأيت رسول الله ﷺ خرج فرحًا قط أشد فرحًا منه بها، وبـ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح: ١].

أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٥/ ٣٦٨ رقم ٥٥٧٩) من طريق علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس به.

قلت: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: علي بن زيد بن جدعان؛ ضعيف.

الثانية: يوسف بن مهران؛ قال عنه الحافظ في "التقريب": "لم يرو عنه إلا ابن جدعان، وهو لين الحديث".

وقول الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ١٩٦): "بسند حسن"،! متعقب بما

=

=

تقدم.

وعن الضحاك يقول في قوله: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} وهذه الآية مكية نزلت بمكة، {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ}؛ يعني: الشرك والقتل والزنا جميعًا، لما أنزل الله الآية؛ قال المشركون من أهل مكة: يزعم محمد أن من أشرك وقتل وزنى؛ فله النار، وليس له عند الله خير؛ فأنزل: {إِلَّا مَنْ تَابَ} من المشركين من أهل مكة {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}، يقول: يبدل الله مكان الشرك والقتل والزنا؛ الإيمان بالله والدخول في الإسلام، وهو التبديل في الدنيا؛ وأنزل الله في ذلك: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الزمر: ٥٣]؛ يعنيهم بذلك: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}؛ يعني: ما كان في الشرك، يقول الله لهم: أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له، يدعوهم إلى الإسلام. فهاتان الآيتان مكيتان، والتي في [النساء: ٩٣]: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا} الآية، هذه مدنية نزلت بالمدينة، وبينها وبين التي نزلت في الفرقان ثمان سنين وهي مبهمة ليس منها مخرج.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ٣٠) بسند ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد! كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنا يلق آثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا، وأنا قد صنعت ذلك؟ فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله ﷻ: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)}، فقال وحشي: يا محمد! هذا شرط شديد {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا}، فلعلي لا أقدر على هذا؛ فأنزل الله ﷻ: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، فقال وحشي: يا محمد! أرى بعد مشيئة، فلا

=

=

أدري يغفر لي أم لا؟ فهل غير هذا؟ فأنزل الله ﷻ: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)}، قال وحشي: هذا، فجاء فأسلم، فقال الناس: يا رسول الله! إذا أصبنا ما أصاب وحشي؟ قال: "هي للمسلمين عامة".

أخرجه الطبراني في "الكبير" (١١/ ١٥٧، ١٥٨ رقم ١١٤٨٠).

فيه أبين بن سفيان؛ قال البخاري: "لا يكتب حديثه"، وقال الدارقطني: "ضعيف له مناكير"، واتهمه ابن حبان، وضعفه ابن عدي والذهبي وغيرهما.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٠١): رواه الطبراني في "الأوسط"؛ وفيه أبين بن سفيان، ضعفه الذهبي".

وأخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٢٧) من طريق آخر فيه مجاهيل.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما نزلت: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}؛ اشتد ذلك على المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلا أشرك وقتل وزنى؛ فأنزل الله: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا...} [الزمر: ٥٣]، يقول: لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت بعده: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}؛ فأبدلهم الله بالكفر الإسلام، وبالمعصية الطاعة، وبالإنكار المعرفة، وبالجهاله العلم.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧٨) ونسبه لابن مردويه.

وعن عامر الشعبي: أنه سئل عن هذه الآية: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}؛ قال: هؤلاء كانوا في الجاهلية فأشركوا، وقتلوا، وزنوا، فقالوا: لن يغفر الله لنا؛ فأنزل الله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ}، قال: كانت التوبة والإيمان والعمل الصالح، وكان الشرك والقتل والزنا، كانت ثلاث مكان ثلاث.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩) ونسبه لعبد بن حميد، وهو

=

=

مرسل.

وعن أبي مالك؛ قال: لما نزلت: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}؛ قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كنا أشركنا في الجاهلية، وقتلنا؛ فنزلت: {إِلَّا مَنْ تَابَ}.

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٨/ ٢٧٣٢ رقم ١٥٤٢٠) من طريق حصين عن أبي مالك به. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [الفرقان: ٦٨]، أي:"والذين يوحدون الله، ولا يدعون ولا يعبدون إلهًا غيره".

قوله تعالى: {وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الفرقان: ٦٨]، أي:"ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما يحق قتلها به".

عن سعيد بن جبير قوله: "{ولا يقتلون النفس التي حرم الله} قتلها {إلا بالحق}".

قال سعيد بن جبير:"يعني نفس المؤمن".

قال أبو جعفر:"هم أهل الذمة".

وروي عن رسول الله -ﷺ-، قال:"" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها".

وفي رواية:""أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها، قيل: وما حقها؟ قال: زنا بعد إحصان أو كفر بعد إسلام أو قتل نفس فتقتل بها".

وعن سعيد بن جبير في قول الله: {ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق}، قال النبي ﷺ: إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها حرمت دماؤهم إلا بحقها وحسابهم على الله قالوا: يا نبي الله وما حقها؟ قال: النفس بالنفس والثيب الزاني والمرتد، عن الإسلام والتارك لدينه فغير إيمانه

=

=

المفارق للجماعة".

قوله تعالى: {وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان: ٦٨]، أي:"ولا يزنون، بل يحفظون فروجهم، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم".

قال مسروق:"إني لأعجب ممن يقول: إن القذف أشد من الزنا وقد قرن الله الزنا بالقتل والإشراك. قال الله: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون}".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: ٦٨]، أي:"ومن يفعل شيئًا من هذه الكبائر يَلْقَ في الآخرة عقابًا".

عن عبد الله بن عمر: "{أثاما}، قال: واد في جهنم". وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير -في إحدى الروايات- وعكرمة مثل ذلك.

قال عكرمة: "أودية في جهنم فيها الزناة".

عن قتادة:"{أثاما}، أودية في جهنم".

قال قتادة:"أي: نكالا كنا نحدث أنه واد في جهنم، وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني إياك والزنا فإنه أوله مخافة وآخره ندامة".

عن سعيد بن جبير قوله: "{ومن يفعل ذلك} من هذه الآيات الثلاث، {يلق أثاما}، يعني: جزاؤه أثاما".

عن السدي: "{يلق أثاما}، قال: جزاء".

قال ابن كثير:"وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه، وهو قوله: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: يكرر عليه ويغلظ، {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} أي: حقيرا ذليلا".

قوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [الفرقان: ٦٩]، أي: يُضاعف عقابُه يوم القيامة ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي".

=

=

قال ابن كثير:"أي: يكرر عليه ويغلظ".

قال قتادة:"أي: عذاب الدنيا والآخرة".

قوله تعالى: {وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} [الفرقان: ٦٩]، أي:"يُخلد في ذلك العذاب حقيرًا ذليلًا أبد الآبدين".

قال ابن كثير:"أي: حقيرا ذليلا".

عن سعيد بن جبير قوله: "{ويخلد فيه}، يعنى: في العذاب، {مهانا}، يعني: يهان فيه".

قال عمر بن عبد العزيز: "كل شيء في القرآن «خلود»: فإنه لا توبة له".

قال العثيمين: قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر}: {إلها} بمعنى: معبودا، و {لا يدعون} هل المراد دعاء المسألة أو دعاء العبادة أو هما؟

المراد كلاهما، يعني لا يدعون دعاء مسألة ولا يدعون دعاء عبادة، قال الله سبحانه وتعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: ٦٠]، فدل ذلك على أن الدعاء عبادة، وقد جاء في الحديث: "الدعاء هو العبادة" وهو ضعيف، لكنه في الحقيقة واضح، فدعاء الطلب واضح أنه يسمى دعاء، يعني تقول: يا رب اغفر لي.

ودعاء العبادة كيف كان دعاء؟

نقول: لأن الإنسان الذي يعبد الله ﷻ هو داع بلسان الحال؛ لأنه إنما يرجو رحمة الله، ويخاف عذابه، فالإنسان إذا صلى وزكى وصام وحج وبر والديه ووصل رحمه ماذا يريد بذلك؟ يريد بذلك ثواب الله، فكأنه يقول: رب أثبني وأعطني الجنة وأنجني من النار، وما أشبه ذلك، لهذا سميت العبادة دعاء، فحقيقة الأمر أن التعبد لله دعاء بلسان الحال، فإن الإنسان العابد لو سألته: لماذا عبدت الله؟ قال: رجاء ثوابه وخوف عقابه، فهو في الحقيقة داع.

=

=

وأما دعاء المسألة فواضح، لكن كيف كان دعاء المسألة عبادة؟ نقول: لأنه يدل على الذل والخضوع، فهو راج خائف لمن دعاه، ولأنه مقر بأنه لا يقدر على الإجابة إلا الله، فكأنه ثناء على الله، والثناء على الله من العبادة، وهذه هي حقيقة العبادة، فهم لا يدعون مع الله إلها آخر، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة، ولا ينافي هذا أن يسألوا المخلوقين ما يقدرون عليه، فإن ذلك باعتقادهم أن هؤلاء المسؤولين سبب، وليسوا مستقلين، فعندما يسأل الإنسان غنيا أو سلطانا شيئا من الدراهم فهو يعتقد أن هذا المسؤول مجرد وسيلة فقط، وليس مستقلا بالعطاء والمنع، وإنما العطاء والمنع بيد الله، وهذا الذي أعطاك أو منعك إنما هو وسيلة.

لو قال قائل: ذكرتم أن عباد الرحمن يجوز لهم سؤال المخلوقين ما يقدرون عليه، فكيف نجمع بين هذا وقوله سبحانه وتعالى: {تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا} [البقرة: ٢٧٣]، وكذلك ما ورد في الأحاديث في النهي عن السؤال؟

الجواب: السؤال أحيانا يكون محمودا، وأحيانا يكون مذموما، وأحيانا يكون مكروها، إما كراهة أو تحريما؛ لأن الإنسان قد يسأل عند الضرورة، فمباح له أن يسأل عند الضرورة، يعني لو أن الإنسان جاع حتى وصل إلى حد إما أن يموت وإما أن يسأل فهنا يجوز له أن يسأل، يجوز في الأصل وقد يجب.

المهم أننا نتكلم على حالة لا يذم فاعلها.

قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر} كلمة فعال دائما تأتي بمعنى مفعول، مثل بناء بمعنى مبني، وغراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، فإنه بمعنى مألوه، والمألوه هو المعبود المتقرب إليه بالعبادة، وعلى هذا فأصنام المشركين تعتبر آلهة باعتبار فعلهم، أما باعتبار الحقيقة فإنها ليست آلهة في الحقيقة؛ لأن الألوهية حقا لله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا يقتلون النفس التي حرم الله} قتلها إلا بالحق]،

=

=

المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن المفعول محذوف تقديره (قتلها)، ويمكن أن نجعل المفعول المحذوف ضميرا فقط، فيكون صلة الموصول حذف منه العائد، أي: التي حرمها الله، والمراد بتحريمها تحريم قتلها وأذيتها، والنفس التي حرم الله أربعة أنفس؛ المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، هذه هي الأنفس التي حرم الله، فهذه الأربعة أنفس محرمة.

ثم إن المسلم أيضا قد يبيح الله قتله مع إسلامه؛ كالزاني المحصن، والقاتل عمدا، فإن قتله مباح، مع أنه مسلم، لكننا نقول: إن قتل المسلم بهذه الأسباب طارئ، وإلا فوصف الإسلام محرم لقتله.

والذمي هو من عقد معه عهد على بذل الجزية والحماية. والمعاهد من وقع بيننا وبينه عها بعدم القتال مدة معينة، أو غير معينة، بدون حماية وبدون جزية.

والمستأمن من دخل ديار المسلمين من الكفار بأمان منهم، هذا هو أضعفهم؛ لأنه عبارة عن تأمين بدون عقد، ولهذا يصح من كل إنسان، فكل إنسان يصح أن يؤمن الكافر، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ". وأما المعاهدة والذمة فلا تكون إلا من الإمام أو نائبه.

لو قال قائل: قوله ﷺ: "أجرنا من أجرت"، ألا يدل على أنه لا يدخل في الإجارة حتى يوافق الإمام؟

الجواب: لا، لا يدل على هذا؛ لأنه لو كان كذلك لمنع الرسول عليه الصلاة والسلام غيرها أن يجير بعد ذلك، فهذا ليس معناه إنشاء، بل معناه أنه حكم، فالإنشاء حصل بإجارتها الأولى، يعني كأنه يقول: قد ثبتت إجارتك إياه؛ لأننا لا نعلم أن الإجارة ثابتة إلا بهذا، فليس هذا إنشاء، وإنما هو عبارة عن بيان حكم أنه أنفذ إجارتها.

قوله: {إلا بالحق} مستثنى من الأنفس المحرمة؛ لأن هذه الأنفس المحرمة قد

=

=

تستباح بالحق، فمن الحق ما أشرنا إليه من كون المسلم يزني وهو محصن، وكذلك الذمي فإنه يقام عليه الحد كما فعل النبي ﷺ برجم الزانيين المحصنين، وكذلك من الحق أن يكون ذلك قصاصا، ومن الحق إذا كان قاطع طريق، فهذه في الأصل أنفس محرمة، لكن وجد حق يبيح قتلها.

وأما إذا ارتد فلا يدخل في الاستثناء، بل يدخل في المفهوم {التي حرم الله}؛ فإن المرتد مباح الدم، وليس هو ممن يحرم قتله إلا لسبب، بل هو ممن يجوز قتله، فيكون المرتد داخلا في مفهوم قوله ﷻ: {التي حرم الله}؛ لأن المرتد ليس محرما،لأنه ليس ممن حرم من الأصل، فلما ارتد صار وصفه كافرا، فلا يدخل في الأربعة، لكن الزاني يبقى على إسلامه مع زناه، والقاتل يبقى على إسلامه مع قتله، فالمرتد نقول: سلب عنه وصف الإسلام، يعني زال عنه الوصف نهائيا، فيكون غير محترم.

لو قال قائل: هل المراد بقوله ﷺ: "التارك لدينه المفارق للجماعة" المرتد التارك لدينه المفارق للجماعة بعضهم قال: المراد قطاع الطريق؛ لأن قطع الطريق ترك للدين؛ لأجل أن يكون الاستثناء متصلا، وبعضهم قال: إن التارك لدينه هو المرتد، ويكون الاستثناء بالنسبة إليه منقطعا؛ لأنه ليس مسلما حين يترك دينه إلا باعتبار وصف زال، والمفارق للجماعة هو الخارج على الإمام.

قوله: {ولا يزنون} لما ذكر انتهاك الأنفس، ذكر انتهاك الأعراض، والزنا فعل الفاحشة في قبل أو دبر، فإن كان بذكر سمي لواطا، وإن كان بأنثى فهو زنا، وإنما لم يذكر الله تبارك وتعالى اللواط لأنه أمر مستكره مستبعد؛ لأن الطبيعة لا تدعو إليه إلا من نكس الله ﷻ طبيعته وفطرته؛ لأنه أخبث، ولأن اللواط لا يحل بحال، والفرج يحل بالزواج، ولهذا كانت عقوبة اللواط على القول الراجح الإعدام بكل حال، سواء كان محصنا أم غير محصن؛ لأنه فرج لا يباح بحال، ثم إنه أمر لا

=

=

يمكن التحرز منه، فلا يمكن تطهير المجتمع إلا بإعدام الفاعل والمفعول به.

وكذلك أيضا على القول الراجح الزنا بذوات المحارم يوجب القتل بكل حال؛ لأن هذا الفرج لا يباح بحال من الأحوال، وقد ورد في ذلك حديث في السنن، وهو صحيح، والزنا بذوات المحارم -كما لو زنا بأخته، والعياذ بالله، ولو من الرضاع- يوجب قتله بكل حال، سواء كان محصنا أم غير محصن.

وقد وصف الله تبارك وتعالى الزنا بأنه فاحشة، ووصف اللواط على لسان لوط بأنه الفاحشة: {أتأتون الفاحشة} [الأعراف: ٨٠] فدخلت عليه (أل)، أما بصيغة النكرة أي: كان فاحشة من الفواحش، لكن كأن هذا انحصرت الفاحشة فيه لعظمه وقبحه.

لو قال قائل: إذا زنا المسلم فأقيم عليه الحد هل يكون كفارة له؟

الجواب: نعم.

لو قال قائل: إذا أطلقت النفس هل تخص ببني آدم أم يدخل الحيوان في الأنفس التي نهي عن قتلها؟

الجواب: تختص ببني آدم، أما نفس الحيوان فلا تدخل في هذا، لكن هي على كل حال تدخل في المعاصي الأخرى، لكن إذا قيل: لا يقتل النفس، أو من قتل نفسا فعليه كذا وكذا، فالمراد نفس الآدمي.

لو قال قائل: هل قاعدة: ما آذى طبعا قتل شرعا مستقيمة؟

الجواب: هي مستقيمة، فكل ما آذى طبعا فإنه يقتل شرعا.

لو قال قائل: الجن لو عملوا هذه الأعمال، أي القتل، هل يقتل بعضهم بعضا قصاصا؟

الجواب: الظاهر أن أحكامهم مثل أحكام الإنس، فالرسول بعث إليهم، وهذا من الاعتداء، ولهذا يذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا أتي إليه بمصروع

=

=

وعظه وزجره، وبين له أن الاعتداء على المسلم محرم، مما يدل على أنهم يعتقدون تحريم ذلك، وأنهم ملزمون به.

وقد سبقت هذه المسألة، وهي: هل تكليف الجن كتكليف الإنس؟

قلنا: إن ظاهر النصوص أنهم مساوون لهم؛ لأن الرسول بعث إليهم جميعا، ولم نعلم أن شريعة تخصهم، ولكن من نظر إلى الحكمة من التشريع وجد أن الله يشرع لكل أحد ما يناسبه، فعلى هذا يكون تكليف الجن يخالف تكليف الانس، ويكلفون بما يليق بهم، ويدل على هذا أن الله جعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه يجدونه أوفر ما يكون لحما، مما يدل على أنهم يخالفون الإنس؛ لأن الإنس لا يحصل لهم ذلك. وأيضا الإنس أنفسهم يختلفون في التكليف بحسب الحال؛ فتكليف الغني بالزكاة لا يساويه تكليف الفقير؛ لأنه لا مال عنده، وتكليف القادر على العبادة لا يساويه تكليف العاجز عنها؛ لأنه ليس فيه الوصف الذي لزم فيه التكليف.

فالظاهر -والله أعلم- أن يقال: أصول العبادة لا شك أنهم مكلفون بها، وأما صفات العبادة، وفروع العبادة، فإنه لا يلزم أن يكونوا مساوين للإنس؛ لأنهم يختلفون عنهم في الحقيقة، والشريعة تقتضي أن يشرع لكل إنسان ما يناسبه.

لو قال قائل: هؤلاء الجن الذين أسلموا لقوا النبي ﷺ مرة واحدة، فهل أعطاهم النبي ﷺ تشريعات أم انقطع تكليفهم؟

الجواب: لا يلزم أن يكون هؤلاء الجماعة الذين اتصلوا به انقطع تكليفهم، فقد يكونون ملزمين بما يسمعونه ويعلمونه من الشريعة، وإن كان الرسول ما باشره؛ لأن قوله سبحانه وتعالى: {إنا سمعنا قرآنا عجبا (١) يهدي إلى الرشد} [الجن: ١ - ٢]، يقتضي أنهم يهتدون بالقرآن كله؛ لأنه قال: {إنا سمعنا قرآنا عجبا}، وهم لم يسمعوا القرآن كله؛ لأن السورة مكية، والقرآن ما نزل كله في مكة.

=

=

لو قال قائل: إن الجن مخاطبون بالتصديق فقط؟

نقول: لا، هذا ليس بصحيح، هم مخاطبون بالفروع بلا شك.

لكن هل يلزم من هذا أن يكونوا مساوين لنا؟

بعض العلماء يقولون: يلزم؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعث إلى الجن والإنس، ولم نعلم أن تشريعا خاصا بالجن قد جعل لهم، فما داموا مكلفين بالرسالة فإنها تلزمهم عموما.

وبعض العلماء يقول: من نظر إلى الحكمة في التشريع قال: إن كل قوم يشرع لهم ما يناسبهم، فإذا كان الإنس يختلف بعضهم عن بعض بنوع من التكليف خص به، فما بالك بالجنس الآخر، وهذا أقرب إلى الحكمة في التشريع أن لهم شرائع خاصة بهم، أما أصول الدين فلا شك أنهم مثلنا، يعني مثل الصلاة وأصل الزكاة وما أشبه ذلك.

لو قال قائل: أفعال الصلاة والحج بالنسبة للجن هل تختلف عن الإنس؟

الظاهر: أن هذه العبادات لا تختلف؛ لأنهم يمكنهم أن يصلوا، ويمكنهم أن يحجوا، وهم مخلوقون من نار، وأيضا هم لا يرون، وإلا فهم أجسام، والعوام يقولون: ليس لهم عظام ولا عصب، ولا ندري هل هذا صحيح أو لا، المهم أنهم أجسام يأكلون ويشربون ويبولون، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه" وذكر عليه الصلاة والسلام أنه إذا لم يسم الإنسان على الطعام فإنه يشاركه الشيطان: الجن، وأخبر بأن "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما".

ومسكنهم في ظاهر الأرض، لكن حسب ما نعرف من التتبع أنهم يأوون دائما إلى الأماكن الخالية فيكونون فيها، وهذا من رحمة الله بنا وبهم؛ لأنهم لو كانوا في الأماكن المسكونة فيمكن أن يتأذوا، أو نحن نتأذى بهم، وأحيانا إذا سكن أحد في

=

=

أماكن خالية يأتونه ويقولون: اذهب عنا. وقيل: إنه كان يوجد محل مهجور لا يسكن، فجاء إنسان وسكنه، فثاروا عليه بالليل فقالوا: لا بد أن ترحل عنا وإلا نقتل أولادك. فخرج وذهب وتركه، وأنا -والحمد لله- سالم منهم، ما عمري سمعت منهم تهديدا، لكن هذا الشيء معروف عند الناس.

لو قال قائل: هل يجوز للإنسان أن يتزوج منهم؟

بعض العلماء يقول: إنه يجوز، وبعض العلماء يقول: لا يجوز أن الإنسان يتزوج منهم؛ لأن من شرط الزواج مثلما قال الله: {خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها} [الروم: ٢١]، فهم أولا ليسوا من أنفسهم، وثانيا: لا يمكن أن يسكن إليهم، فبينهما غاية النفور، فكيف يمكن أن تكون زوجة له، لكن صحيح أن الجن يتناكحون، والدليل قوله سبحانه وتعالى: {أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو} [الكهف: ٥٠]، فهذا يدل على أنهم يتزاوجون ويتوالدون، وهذا صريح القرآن، والواقع أيضا يشهد له، أما كون الجني يتزوج الإنسية، أو الإنسي يتزوج الجنية؛ فهذا فيه نظر، فالصواب قول من يمنع ذلك، ولهذا الفقهاء قالوا: لو قالت امرأة: إن بها جنيا يجامعها كالرجل، وجب عليها أن تغتسل، ولكن هذا أولا ينظر في إمكانه ووجوده ثم ينظر في حكمه.

لو قال قائل: هل يقام عليها الحد؟

نقول: لا، إلى هذا الحد لا أظنه، ونقول للسائل: انتبه لهم الليلة، فالظاهر أن هذا البحث الدقيق قد يجعلهم يتصلون بك الليلة!

والغالب أنهم يكلمون، وقد ذكرنا -كما تقدم- أن الجني يكلم شيخ الإسلام ويخاطبه، ويأخذ عليه العهد، وأنه يضربه، لكن يقول: إن الضرب يقع على المصروع في الظاهر، وهو في الحقيقة على الصارع، فإذا أفاق المصروع لا يحس.

وأذكر أن واحدا من الإخوان قدم إليه رجل قالوا: إنه مصروع، فقال: أعطوني

=

=

العصا، وبدأ يضربه حتى ازرق جلده، ولم يستفد المصروع من هذا الشيء أبدا، المسكين يصرخ ويقول: آلمتموني. ولما قام إذا الضرب واقع عليه. فهو يريد أن يفعل مثلما فعل ابن تيمية، فظن أن كل إنسان يحصل له مثل هذا الأمر يفعل به هذا الفعل!

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ومن يفعل ذلك} أي واحدا من هذه الثلاثة {يلق أثاما}، قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي واحدا من الثلاثة] فيه نظر؛ لأن الأصل في الإشارة أن تعود لما سبق كله، فيقتضي أن يكون: ومن يفعل ذلك المذكور من دعاء غير الله، وقتل النفس، والزنا، ثلاثة {يلق أثاما (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا}، وهذا الذي قررناه من عوده على الجميع نسلم به من إيراد سيأتي عند قوله: {ويخلد فيه} [الفرقان: ٦٩]، فإن الزنا ليس موجبا للخلود في النار.

والقتل ذكر الله تعالى في سورة النساء أنه موجب للخلود في النار، وسيأتي إن شاء الله ذكره قريبا.

فعود الكلام على الثلاثة نسلم به من الإيراد الآتي إن شاء الله، وأما إذا فعل واحدا منها على الانفراد فيؤخذ حكمه من دليل آخر ليس بلازم أن نأخذه من هذه الآية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يلق أثاما} أي عقوبة] والأثام والنكال بمعنى واحد، والعقوبة والنكال بمعنى واحد أيضا، فالمراد بالأثام هنا العقوبة، وهو مفرد وليس بجمع؛ لأن الجمع (آثام) جمع إثم، وأما قوله: {أثاما} فمفرد.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يضاعف} وفي قراءة "يضعف" بالتشديد]، وهي سبعية "يضعف" و"يضاعف"، والمضاعفة والتضعيف بمعنى تكرير الشيء، وإنما ضوعف له العذاب لأنه فعل ثلاثة أسباب للعذاب، وهي الإشراك بالله، وقتل النفس، والزنا، ومعلوم أن الأسباب إذا اجتمعت صار لكل واحد منها أثره، فمن فعل شيئا واحدا من ثلاثة فعليه إثمه، ومن فعل اثنين فعليه إثمهما، ومن فعل ثلاثة

=

=

فعليه إثمهن، فهذا وجه التضعيف.

قوله: {يضاعف له العذاب} العذاب والنكال بمعنى واحد، وهو العقوبة.

قوله: {يوم القيامة} يوم القيامة هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسمي يوم القيامة لأسباب ثلاثة:

- لقيام الناس من القبور.

- وإقامة العدل.

- ولأنه تقام فيه الشهادة ويقوم الأشهاد فيه: {ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: ٥١]، وهم الملائكة والرسل، وكذلك الأمم.

إذن سمي يوم القيامة لهذه الوجوه الثلاثة.

قوله: {ويخلد} يبقى {فيه} أي في العذاب، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بجزم الفعلين بدلا، وبرفعهما استئنافا] الفعلان {يضاعف} {ويخلد}، يعني أن فيهما قراءتين {يضاعف له العذاب} (يضاعف له العذاب)، {ويخلد} (ويخلد). أما قوله: {يلق أثاما} فليس فيها سوى قراءة واحدة، وهي الجزم؛ لأنها جواب الشرط، وجواب الشرط لا بد أن يكون مجزوما، لكن فيها إشكال، وهو أنها مفتوحة (يلق)، فيقال: هي مجزومة بحذف الألف، وهذه الفتحة ليست بفتحة الإعراب، ولكنها فتحة الفعل.

وقوله ﷻ: {ويخلد فيه} {فيه} هذه خارجة عن شبيهاتها، فيجوز فيها وجهان: {فيه} بالمد، و {فيه مهانا} بالصلة: بالوصل، بدون مد، أما {فيه مهانا} بدون مد فهذه على أصلها، وأما {فيه مهانا} بالمد فهذه على خلاف الأصل، لكنها جائزة؛ لأنها مسموعة عن النبي ﷺ، ولها نظير خارج عن العادة أيضا، وهو قوله: {ومن أوفى بما عاهد عليه الله} [الفتح: ١٠]، وفي قراءة أخرى سبعية (عليه الله)، يعني على الأصل، فهذان حرفان في القرآن خرجا عن الأصل المتبع في القراءة

=

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠).

{إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} مِنْهُمْ {فَأُولَئِكَ يُبَدِّل الله سَيِّئَاتهمْ} الْمَذْكُورَة {حَسَنَات} فِي الْآخِرَة {وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا} أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[1].

=

المشهورة في المصاحف.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{مهانا} حال] هذا قصور من المصنف حقيقة، أعرب {مهانا} على أنها حال من الضمير في قوله: {ويخلد}، أو من الضميرين في قوله سبحانه وتعالى: {يضاعف} {ويخلد}، لكنها للأقرب أقرب، إلا أنه لم يفسر ما معنى {مهانا}، ونحن إلى تفسير الكلمة أحوج منا إلى إعرابها؛ لأننا سنقرؤها كما هي لكن لا نفهم معناها، فما معنى {مهانا}؟ المهان المحتقر الذليل، يعني محتقرا ذليلا، لا يقام له وزن ولا إكرام.

(١) قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا} [الفرقان: ٧٠]، أي:"لكن مَن تاب مِن هذه الذنوب توبة نصوحًا وآمن إيمانًا جازمًا مقرونًا بالعمل الصالح".

قال ابن كثير:"أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر {إِلا مَنْ تَابَ} في الدنيا إلى الله من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه.

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب، لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبتت السنة

=

=

الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، وقبل منه، وغير ذلك من الأحاديث".

قال سعيد بن جبير:"فاستثنى: {إلا من تاب} يعنى، من الشرك، {وآمن}، يعني: وصدق بتوحيد الله".

قال قتادة:"{إلا من تاب}، أي: من ذنوبه"، {وآمن}، أي: بربه. {وعمل عملا صالحا}، أي: فيما بينه وبين الله ﷻ".

قال ابن عباس:"هم الذين يتوبون فيعملون بطاعة الله".

قال سعيد بن جبير: "سألت ابن عباس، عن قوله: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر}، إلى قوله: {إلا من تاب}، قال: كانت هذه في الجاهلية".

قال ابن عباس:"نزلت هذه الآية: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم}، بعد قوله: {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا}، بسنة".

قال أبو سعيد: "لما أسلم وحشي أنزل الله ﷻ: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق}، قال وحشي وأصحابه: فنحن قد ارتكبنا هذا كله. فأنزل الله ﷻ:"{يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم}، الآية".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: ٧٠]، أي:"فأولئك يمحو الله عنهم سيئاتهم ويجعل مكانها حسنات؛ بسبب توبتهم وندمهم".

قال الحسن:"هذه ليست لكم هذه في أهل الشرك".

قال ميسرة أبي جميلة:"هم الذين ولجوا إلى الإسلام من المشركين".

عن أبي هريرة قال: "ليأتين الله بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله بسيئاتهم حسنات".

وفي تفسير قوله تعالى: {يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: ٧٠]، قولان:

أحدهما: أن هذا في الدنيا، ومعناه: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل

=

=

الحسنات. وهذا قول الحسن البصري، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطاء بن ابي رباح، وآخرون.

قال الزجاج:"ليس أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن التأويل: أن السيئة تمحى بالتوبة، وتكتب الحسنة مع التوبة، والكافر يحبط الله عمله ويثبت الله عليه السيئات".

عن سعيد بن جبير، " {فأولئك}، يعني: الذين فعلوا ما ذكر الله ﷻ في هذه الآية، {يبدل الله}، يعنى: يحول الله، [قال]: يبدلهم بمكان الشرك الإسلام وبمكان القتال الكف، وبمكان الزنا العفاف".

قال سعيد بن جبير:"فأبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله وأبدلهم بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين المشركين وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات".

قال الحسن:"التبديل في الدنيا أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح وأبدلهم بالشرك إخلاصا. وأبدلهم بالفجور إحصانا، وبالكفر إيمانا وإسلاما".

قال عطاء بن أبي رباح" إنما هذا في الدنيا الرجل يكون على الهيئة القبيحة ثم يبدله الله بها خيرا".

وعن قتادة: "{فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات}، قال: ذكر الله بعد نسيانه وطاعة الله بعد معصيته".

قال ابن عباس:"هم المؤمنون كانوا قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم، عن ذلك فحولهم إلى الحسنات وأبدلهم مكان السيئات الحسنات".

عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية:"بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَريفا.. وَبَعْدَ طُول النَّفَس الوَجيفَا". قال ابن كثير:"يعني: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها".

عن شعيب بن الحبحاب:"قيل لأبي العالية: إن ناسا يقولون ودوا أنهم استكثروا من الذنوب، فقال أبو العالية ولم يقولون ذلك؟ قال: قيل: يتأولون هذه الآية:

=

=

{فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات}، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا هذه الآية: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا}، الآية".

الثاني: أن هذا في الآخرة، والله تعالى يبدل سيئات التائب بالحسنات في صحيفته. وهذا قول علي بن الحسن، ومكحول، وسلمان.

عن علي بن الحسين: "{يبدل الله سيئاتهم حسنات}، قال: في الآخرة".

قال مكحول:"يجعل سيئاتهم حسنات".

قال مكحول:"يغفرها لهم فيجعلها حسنات".

قال سلمان: "يعطى رجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته فإذا كان يسوء إنه ينظر في أسفلها فإذا حسنات، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات".

عن ابي حمزة، قال أبو الضيف -وكان من أصحاب معاذ بن جبل-: "يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين، قلت: لم سموا أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم عملوا بالحسنات والسيئات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا حرفا، قالوا: يا ربنا هذه سيئاتنا فأنى حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وأبدلها حسنات فعند ذلك قالوا: هاؤم اقرؤا كتابيه. فهم أهل الجنة".

عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يؤتى برجل فيقول: نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا - فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة. فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها هاهنا". قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه".

=

=

قال الطبري:"وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل من تأوله: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشرك حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى، وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إن فعل ذلك كذلك أن يصير شرك الكافر الذي كان شركا في الكفر بعينه إيمانا يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حجا".

قال ابن كثير:"وما ذاك [أي: تبديل السيئات بالحسنات] إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار المروية عن السلف، رحمهم الله تعالى".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: ٧٠]، أي:"وكان الله غفورًا لمن تاب، رحيمًا بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بأكبر المعاصي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكان الله ذا عفو عن ذنوب من تاب من عباده، وراجع طاعته، وذا رحمة به أن يعاقبه على ذنوبه بعد توبته منها".

قال سعيد بن جبير: {غفورا} " يعنى: لما كان في الشرك، {رحيما}، يعني: رحيما بهم في الإسلام".

لا خلاف بين العلماء في أن التوبة ترفع حكم الكفر والزنى، واختلفوا في حكم قتل النفس التي حرم الله.

قال ابن عطية: (وقوله: {إلا من تاب لا} الآية [الفرقان:٧٠]، لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من

=

=

المسلمين).القول الأول:

المشهور من مذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإحدى الروايتين عن أحمد: أن توبة القاتل غير مقبولة. ... وقد ناظر ابن عباس في هذه المسألة أصحابه، فقالوا: أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان: {ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق} [الفرقان:٦٨] إلى أن قال: {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما (٧٠)} [الفرقان:٧٠]، فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية، وذلك أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة؛ فنزل: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر} الآية [الفرقان:٦٨]، فهذه في أولئك، وأما التي في سورة النساء وهي قوله تعالى: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما (٩٣)} [النساء:٩٣]، فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل، فجزاؤه جهنم.

وصح عن ابن عباس أن آية الفرقان مكية، وآية النساء مدنية، نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء.

واستدلوا: بأن التوبة من قتل المؤمن عمدا متعذرة، إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله، أو إعادة نفسه إلى جسده وكلاهما متعذر.

القول الثاني:

ذهب جمهور العلماء إلى أن توبة قاتل النفس مقبولة، واستدلوا بما يلي:

١ - قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء:٤٨]، فالآية عامة، وهي مذكورة في هذه السورة بعد آية الوعيد وقبلها؛ لتقوية الرجاء.

٢ - وقوله تعالى: {قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة

=

=

الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم (٥٣)} [الزمر: ٥٣]، فهذه عامة في جميع التائبين.

٣ - وقوله تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى (٨٢)} [طه:٨٢]، فإذا تاب القاتل وآمن وعمل صالحا، فإن الله ﷻ غفار له.

٤ - ... قصة قاتل المائة لما تاب نفعته توبته وألحق بالقرية الصالحة التي خرج إليها.

٥ - ... أن الكفر أعظم ذنبا من القتل، والكافر إذا تاب قبلت توبته، فالقاتل إذا تاب من باب أولى.

والراجح في هذه المسألة ما عليه جمهور العلماء؛ لصراحة وقوة أدلتهم، وإمكان الإجابة عما استدل به أصحاب القول الأول بما يلي:

أولا: أن يكون ابن عباس استبعد أن يكون للقاتل عمدا توبة، ورأى أنه لا يوفق للتوبة، أو يحمل على أنه لا توبة للقاتل فيما يتعلق بحق المقتول، ويأتي الجواب عن هذا.

ثانيا: دعوى النسخ لآية الفرقان غير مقبول؛ لأنه خبر، والأخبار لا تنسخ بإجماع؛ لأن الخبر لو نسخ لكان تكذيبا له، ويتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فالآيتان محكمتان.

وروي عن ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: {إلا من تاب لا} الآية [الفرقان:٧٠] قال: نزلت في أهل الشرك.

قال ابن حجر: (ويمكن الجمع بين كلاميه بأن عموم التي في الفرقان خص منها مباشرة المؤمن القتل متعمدا، وكثير من السلف يطلقون النسخ على التخصيص، وهذا أولى من حمل كلامه على التناقض وأولى من دعوى أنه قال بالنسخ ثم رجع عنه).

=

=

ثالثا: أنه روي عن ابن عباس القول بقبول توبة القاتل وأنه تحت مشيئة الله.

قال ابن عطية: (وروي عن بعض العلماء: أنهم كانوا يقصدون الإغلاظ والتخويف أحيانا؛ فيطلقون: لا تقبل توبة القاتل، منهم ابن شهاب: كان إذا سأله من يفهم منه أنه قد قتل، قال له: توبتك مقبولة، وإذا سأله من لم يفعل، قال له: لا توبة للقاتل، ومنهم ابن عباس، وقع عنه في تفسير عبد بن حميد: أن رجلا سأله أللقاتل توبة؟ فقال له: لا توبة للقاتل وجزاؤه جهنم، فلما مضى السائل، قال له أصحابه: ما هكذا كنا نعرفك تقول إلا أن للقاتل التوبة، فقال لهم: إني رأيته مغضبا وأظنه يريد أن يقتل، فقاموا فطلبوه وسألوا عنه فإذا هو كذلك).

رابعا: آية النساء في القتل محمولة على أحد المعاني التي ذكرها العلماء ومن أظهرها:

أ/ أن يكون معناها: فجزاؤه إن جازاه، روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم} [النساء:٩٣] قال: "هو جزاؤه إن جازاه"، والله سبحانه إذا وعد بالعذاب جاز أن يعفو.

قال الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه - إن جزاه - جهنم خالدا فيها، ولكنه يعفو، ويتفضل على أهل الإيمان به وبرسوله فلا يجازيهم بالخلود فيها).

ب/ أن يقال: إن هذا جزاؤه إذا لم يتب، فإن تاب فقد بين الله أمره في آيات التوبة، وهو قبول توبته.

ج/ وقال بعضهم: إنها نزلت في رجل بعينه من الأنصار ارتد وقتل رجلا مؤمنا.

د/ أن ما في الآية وعيد، وإخلاف الوعيد لا يذم، بل يمدح، فيجوز إخلاف الوعيد دون الوعد؛ لأن إخلاف الوعيد عفو وهبة وإسقاط، وذلك موجب كرمه وإحسانه.

=

=

هـ/ أن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد المكث الدائم؛ لأن اللغة يطلق فيها الخلود على المكث الطويل كما يقال: فلان خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا، والله سبحانه لم يذكر التأبيد في هذه الآية.

و/ ومن أحسن المعاني ما ذكره ابن القيم حيث قال: (هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده؛ فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه، وغاية هذه النصوص: الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارا بمقتضى العقاب ومانعه، وإعمالا لأرجحها).

خامسا: أن إقامة القصاص عليه كفارة له، كما في حديث عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: "تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه؛ فأمره إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه".

سادسا: قال العلماء: الحقوق في القتل ثلاثة: حق لله، وحق للمقتول، وحق للوارث.

فإذا تاب القاتل من حق الله وسلم نفسه طوعا إلى الوارث ليستوفي منه حق موروثه سقط عنه الحقان، وبقي حق المقتول فلا يضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته

=

=

للقاتل: أن يعوض المقتول عن مظلمته ويرضيه عن مطالبته، وأن لا يعاقب القاتل التائب؛ لأن التوبة تهدم ما قبلها.

قال ابن القيم: (فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده، والحكم بعد ذلك لله {إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم} [النمل:٧٨]). والله أعلم.

قال العثيمين: قوله: {إلا من تاب} هل هذا الاستثناء متصل أو منقطع؟

الاستثناء متصل، يعني: من تاب من دعاء غير الله معه، ومن تاب من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن تاب من الزنا، أما الأول، وهو التوبة من دعاء غير الله معه، فلا شبهة فيه ولا إشكال؛ لأنه حق لله، فإذا تاب الإنسان منه إلى الله قبله إذا كانت التوبة نصوحا، ولا حاجة إلى أن يستأذن أحدا، فلا شك أنه لا يحتاج أن يستأذن ويسترخص من الصنم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا} منهم]، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [منهم] أي من فاعل هذه الأمور الثلاثة: الشرك وقتل النفس والزنا، وإنما قيدها بذلك لقرينة السياق، ولئلا تتكرر مع ما بعدها.

وما هي التوبة؟ التوبة هي الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ثبت في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ثم سأل عابدا: هل له من توبة؟ فقال العابد: ليس لك توبة، فالعابد جاهل، واستعظم تسعا وتسعين نفسا، قال: ليس لك توبة، فقال: نكمل بك المئة، فقتله، وهذا من الجريرة التي يجرها الإنسان على نفسه إذا أفتى بغير علم، ثم سأل عالما: هل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ! ولكنه أرشده إلى أن يخرج من قريته هذه إلى قرية أخرى يكثر فيها الصالحون إلى آخر الحديث، فإذا كان هذا في بني إسرائيل، فما بالك بهذه الأمة الذين وضع الله عنهم الآصار والأغلال، يقول الله تعالى: {لقد

=

=

كان في قصصهم عبرة} [يوسف: ١١١]، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يقصها علينا من أجل أن نفهم القصة فقط، لكن لنعتبر بها، وإلا لكانت لغوا، أما كونها في شريعة منسوخة فإن مثل هذه الأمور لا يدخلها النسخ، يعني كون الله يتوب على من تاب هذا من صفاته التي لا تتخلف، ثم إن نسخها لا يمكن أن ينسخ إلى أسوأ في هذه الحال؛ لأن هذه الأمة أكمل من غيرها، فقد رفع الله عنها الآصار والأغلال، ولو كانت التوبة لا تقبل من القاتل لكان هذا من أعظم الآصار والأغلال التي على هذه الأمة، ولهذا بنو إسرائيل ما يقص الله علينا شيئا من قصصهم، ولا كذلك النبي ﷺ إلا للتحذير مما يكره والترغيب فيما يجب.

والتوبة من قتل النفس التي حرم الله هل يتعلق بها حق آخر لغير الله؟

الجواب: نعم يتعلق بها حقان آخران، أحدهما حق المقتول: الميت، والثاني حق أولياء المقتول، فلا تصح التوبة إلا بتمكين ذوي الحقوق أن يأخذوا بحقوقهم.

فنقول: الميت لا يمكن الوصول إلى أخذ بحقه، لا يمكن لأنه مات ولا نعلم عنه وربما نعلم في الحقيقة أحيانا إذا لم يمت حتى أباح صاحبه، ربما نعلم لكن في الغالب أنه لا يعلم، وأما أولياء المقتول فالتمكين من حقهم ممكن، فيذهب إليهم ويسلم نفسه لهم، ويقول: أنتم الآن بالخيار: تريدون الدية، تريدون القتل، تريدون العفو.

إذن نقول: التوبة من قتل النفس يتعلق بها حقان آخران غير حق الله؛ حق ممكن تحقيقه، وهو حق الورثة: أولياء المقتول، وحق يمكن أو لا يمكن، وهو حق المقتول؛ فإن أمكن تحقيقه في الدنيا وأسقطه فذاك، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى إذا علم من هذا القاتل أنه تاب إليه توبة نصوحا فإن من تمام توبة الله عليه أن يعطي المقتول حقه حتى لا يأخذ من حسنات القاتل شيئا.

لو قال قائل: إذا لم يتب القاتل هل هو تحت المشيئة؟

=

=

نقول: إذا لم يتب القاتل فعليه الوعيد الذي ذكره الله سبحانه وتعالى، فالقتل من الكبائر، فهو تحت المشيئة، لكن لا نجزم أنه سيغفر له.

ننتقل إلى الزنا في قوله: {ولا يزنون} هل يتعلق به حق آخر سوى حق الله؟ وهل يحتاج إذا تاب أن يستبيح أو أن يستحل المزني به أو لا يحتاج؟

إذا كان باختيارها وهي التي جنت على نفسها، إذا كانت ذات زوج فنعم، لكن إذا لم يكن لها زوج فإذا كان باختيارها فلا حق لها؛ لأنها هي التي انتهكت عرضها، وإذا كانت مجبرة فلها حق، فلا بد من استحلالها. وقد يقال: إن التوبة إذا صارت نصوحا وتاب إلى الله فلا حاجة إلى الاستحلال؛ فإن الله تعالى يتوب عليه كما ثبت في الحديث الصحيح؛ أن الحد يكون كفارة للذنب، ولم يذكر النبي ﷺ شيئا فوقه بدون استحلال، فمن نظر إلى أن هذا فيه حق انتهاك عرضها وإكراهها على الفاحشة وسوء سمعتها وسمعة أهلها قال: لا بد من استحلالها من هذا الأمر، لأنه أمر عظيم، ومن نظر إلى عمومات الأدلة الدالة على أن الزاني إذا أقيم عليه الحد وإذا تاب تاب الله عليه قلنا: إن الله تعالى يتحمل عنه حق هذه المرأة المزني بها؛ وعلى هذا فاستحلاله أولى وأحسن.

إذن نقول: الأول حق لله محض، ولا إشكال فيه، والثاني حق لله ولغيره، ولا إشكال فيه، والثالث حق لغير الله، ولكن من نظر إلى عمومات الأدلة الدالة على أنه ليس بشرط أن يستحل من زنا بها قال: لا حاجة إلى الاستحلال، ولكن الأولى والأحوط أن يستحل كما تقدم.

لو قال قائل: هل يفرق بين البكر والثيب؟

نقول: كله واحد.

ولو قال قائل: ذكر الفقهاء أن البكر تعطى بغشاء البكارة؟

هذا من جهة المال، وليس من صحة التوبة، لكن لا بد أن يبذل لها النقص الذي

=

=

حصل، مثل ما لو أتلف مالها، وإذا لم يبذل تصح، ويكون ذنبا آخر مستقلا، وقد نقول: إنه من تمام التوبة، ولا تصح؛ لأن هذا الفعل ناشئ عن ذلك، إنما على كل حال هذا لا يدخل في مسألة العرض، إنما يدخل في مسألة المال، فالبكارة من جهة المال، لا من جهة العرض.

قوله: {إلا من تاب} وشروط التوبة خمسة:

الأول: الندم على الذنب، أي على فعله.

الثاني: الإقلاع عن الذنب والإقلاع عن المعصية، ويشمل إعادة الحق؛ لأنه ما دام الحق عندك ما أقلعت، ولهذا نقول: ليس بشرط إذا كان الحق لآدمي أن نزيد لأن هذا الشرط دخل في قولنا: الإقلاع.

الثالث: العزم على عدم العودة، لو قال قائل: العزم على عدم العودة ألا يدخل في الإقلال عن الذنب؟

الجواب: لا؛ لأن الإنسان قد يقلع ويقول: أنا اليوم لن أفعل، لكن غدا أفعله.

الرابع: الإخلاص لله؛ لأن الإنسان قد يتوب رياء.

لو قال قائل: العزم على عدم العودة ألا يدخل أيضا في الإخلاص؟

نقول: الكلام على أن تكون التوبة لله هذا معنى الإخلاص، وإلا فإنه إذا أخلص سيقلع وسيندم، وهكذا في كل الشروط ما عدا أن تكون في الوقت، لكن المراد أن يكون الحامل لها الإخلاص، يعني أنه ما تاب رياء ولا سمعة ولا خوفا من سلطان.

لو قال قائل: قد يكون العزم على ألا يعود إخلاصا؟

نقول: لا يلزم، يمكن أن يعزم على ألا يعود نظرا لأن السلطة قوية ولا يستطيع، فلا بد من الإخلاص، فكل عمل صالح لا بد فيه من الإخلاص.

الخامس: أن تكون التوبة في وقت قبولها، أما كونها في محلها فهي بالنسبة لكل

=

=

واحد أن يتوب قبل أن يعاين الموت؛ لقوله سبحانه وتعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: ١٨]، وبالنسبة لعموم الناس أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، فإن بعد طلوع الشمس من مغربها لا تقبل لو تاب الإنسان.

لو قال قائل: كيف يجمع بين قوله: {ويخلد فيه مهانا} وبين آيات التوبة؟

نقول: الآية التي ذكرت في قوله تعالى: {ويخلد فيه مهانا} هذه لغير التائبين، وهذه الآية مع آيات التوبة ليس فيها إشكال.

فلو قيل: كيف الجواب عن قوله ﷻ: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما} [النساء: ٩٣]؟

نقول: هذا جزاؤه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية} [البينة: ٦]، ومع ذلك إذا أسلموا وتابوا قبلت توبتهم، فنقول: حتى الشرك ورد فيه الخلود الأبدي، ومع ذلك لو تاب منه قبلت توبته، هذه مثلها، لكن الكلام على أنه إذا تاب هل نقول: إن التوبة قبلت مطلقا أو نقول كما قال ابن القيم مثلما فصلنا: إن التوبة يتعلق بها ثلاثة أشياء ولابد من تحقيقها.

فلو قيل: كيف الجواب عن قول ابن عباس رضي الله عنهما عمن سأله: ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ قال: لا؟

الجواب: هذا يحمل مثلما قال ابن القيم على أنه لا يجد له توبة بالنسبة لحق المقتول؛ لأن الله يقول: {قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} [الزمر: ٥٣]، وحقيقة فإنه بالنسبة للميت ففي الغالب لا يمكن الوصول إلى تحقيق التوبة، والسبب لأنه فات، ولا يمكن استحلاله، كما تقدم، وأما بالنسبة لحق الله فلا شك فيه أبدا.

=

=

لو قال قائل: قوله في سورة طه: {فلا يصدنك} [طه: ١٦] وفي سورة القصص {ولا يصدنك} [القصص: ٨٧] ما الفرق بينهما؟

نقول: آية طه قوله تعالى: {إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها} {من} هذا الفاعل {من لا يؤمن}، إذن هل الفعل مفرد أو مجموع؟ مفرد، وإذا كان مفردا يبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد؛ لأنه ليس بينه وبين التوكيد شيء، وأما قوله: {ولا يصدنك عن آيات الله} التي قبلها {فلا تكونن ظهيرا للكافرين (٨٦) ولا يصدنك} يعني المجرمين، فهو عائد إلى جمع، فيكون الفعل الآن غير مباشر لنون التوكيد، أصله يصدوننك، فحذفت النون للجازم، وبقيت عندنا (الواو) ساكنة والنون المشددة ساكن أولها، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، ثم بقيت الدال على ما هي عليه.

لو قال قائل: هل يلزم التائب من الزنا أن يطلب إقامة الحد على نفسه مثلما فعل ماعز والغامدية؟

نقول: لا يلزم، بل الأولى أن يستر على نفسه، وفعل هؤلاء اجتهاد منهم، ولا مانع منه، والرسول ﷺ لاحظ أنه يراعي أشياء يفعلها الإنسان اجتهادا ولا ينكر عليه إذا كانت غير مخالفة للشرع، مثل الصدقة عن الميت، والحج عن الميت، وما أشبه ذلك مما لم يأمر به الرسول عليه الصلاة والسلام، فهذا جائز وليس من المشروع.

لو قال قائل: إذا كان الذنب مثلا غيبة لأحد، هل يلزم أن نطرق عليه بابه ونقول له: والله يا أخي قد اغتبناك ونريد أن نستحلك؟ وإذا كان مالا: افرض أنه مال، أخذ من إنسان مالا وتاب إلى الله، هل يلزم أن يذهب ويقول: هذا مالك؟ يلزمه؛ لأن من تمام التوبة أن يعيد المال، والرسول ﷺ يقول: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام"، فإذا اغتابه فليس هناك فرق بين المال والعرض والرسول عليه الصلاة والسلام جمع بينهما، إذن نقول: اذهب إليه واستحله.

=

=

وإلى هذا ذهب الفقهاء رحمهم الله، فالمذهب أنه إذا تاب من الغيبة يجب عليه أن يخبر المغتاب ويقول له: أنا حصل مني كذا وكذا، فأرجوك أن تسمح لي.

القول الثاني: لا؛ لأن الغيبة عبارة عن قدح فيه وردها بمثلها، وذلك بأن تثني عليه في المكان الذي اغتبته فيه بما يزيل هذه الغيبة، وهذا رده في الحقيقة؛ لأن كونك تذهب إليه وتقول له: حللني هذا ليس برد اعتباره الذي سقط حينما اغتبته في المجلس، فلا يزول إذا حلله، بل يبقى، فرد الغيبة أن تثني عليه بالخير في مقابل الثناء بالسوء، وهذا أصح؛ لأنك في الحقيقة لو ذهبت تعلمه يمكن أن تأخذه العزة بالإثم ويقول: لا، ثم إنك لو قلت له: إني قلت: فلان بخيل، قال: لا، ما قال: بخيل فقط، بل قال: بخيل وشرير وفاسق وفاجر؛ لأن الشيطان يقول له هذا، فيتصور أن الأمر أكثر من هذا، ولا يسامحك، فما دام ما وصله العلم فلا حاجة لأن تخبره، نعم لو وصله العلم وعرفت أن الرجل قد أخبر عنك بأنك اغتبته فهنا لا بد أن تستحله.

فالخلاصة أن يقال: إن المغتاب إن كان عالما بغيبتك فهو الآن قد صار في نفسه عليك شيء، فلا بد أن تستحله ليزول ما في نفسه، وإن كانت ما بلغته، يعني أنك ما تكلمت إلا بهذا المجلس، وعرفت أنه ما وصله العلم، فهنا لا حاجة إلى أن تذهب وتقول له، وإنما تثني عليه بالخير مقابل ثنائك عليه بالشر، وهذا القول هو الصحيح، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا} التوبة تقدم الكلام عليها، والإيمان في اللغة: التصديق والإقرار، ولكنه في الشرع تصديق القلب المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق، بل هو تصديق مستلزم لهذا، فإن لم يستلزمه فليس بإيمان، فيقبل ما جاء به الشرع ويذعن له فيصدقه إن كان خبرا ويقوم به إن كان طلبا.

=

=

وقوله: {وعمل عملا صالحا} هنا ذكر العمل ووصفه بالصلاح؛ لأن العمل غير الصالح لا ينفع صاحبه، والعمل الصالح ما جمع شرطين، وهما الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ، فإن لم يكن فيه الإخلاص فليس بمقبول، وإن لم يكن فيه المتابعة فليس بمقبول، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه"، هذا دليل على أن غير المخلص فيه مردود، وأما غير المتابع فيه فلقول النبي ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، ويجمعهما قول الله ﷻ: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [الكهف: ١١٠].

قوله رحمه الله: [منهم] أي من فاعل هذه الأمور الثلاثة: الشرك وقتل النفس والزنا، وإنما قيدها بذلك بقرينة السياق، ولئلا تتكرر مع ما بعدها.

قوله ﷻ: {فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات} هذا مستثنى من قوله: {يلق أثاما}، وما أبدل منه، يعني {إلا من تاب} فإنه لا يلقى أثاما، ولا يضاعف له العذاب، ولا يخلد فيه، وتقدم أن شروط التوبة خمسة: الإخلاص لله، والندم على ما وقع، والعزم على أن يقلع عنها، وأن يعزم على ألا يعود، وأن تكون في وقتها، أي في الوقت الذي تقبل فيه التوبة، وتقدم أيضا أن هذا الاستثناء يشمل كل الذنوب الثلاثة: الشرك، وقتل النفس، والزنا، وأن ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القاتل لا توبة له، فإن أراد على وجه الإطلاق فليس بصحيح، وإن أراد لا توبة له فيما يتعلق بحق المقتول فهذا صحيح، على أننا نقول: لا يبعد أنه إذا تاب توبة نصوحا أن يتحمل الله تبارك وتعالى عنه حق المقتول فيرضيه.

لو قال قائل: ما رأيكم في قول ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين أن الحدود تسقط بالتوبة، استدل بحديث النسائي، وفيه أن امرأة وقع عليها رجل في سواد الصبح

=

=

وهي تعمد إلى المسجد عكورة على نفسها، فاستغاثت برجل مر عليها، وفر صاحبها، ثم مر عليها ذوو عدد، فاستغاثت بهم فأدركوا الرجل الذي كانت استغاثت به، فأخذوه، وسبقهم الآخر، فجاءوا به يقودونه إليها، فقال لها: أنا الذي أغثتك، وقد ذهب الآخر. قال: فأتوا به النبي عليه الصلاة والسلام، فأخبرته أنه وقع عليها، وأخبر القوم أنهم أدركوه يشتد، فقال: إنما كنت أغيثها على صاحبها فأدركوني هؤلاء فأخذوني. قالت: كذب، هو الذي وقع علي. فقال رسول الله ﷺ: "انطلقوا به فارجموه". فقام الرجل من الناس فقال: لا ترجموه وارجموني، فأنا الذي فعلت بها الفعل. فاعترف، فاجتمع ثلاثة عند رسول الله ﷺ: الذي وقع عليها، والذي أغاثها، والمرأة، فقال: "أما أنت فقد غفر لك"، وقال للذي أغاثها قولا حسنا، فقال عمر: أرجم الذي اعترف بالزنى؟ فأبى رسول الله ﷺ، قال: "لا، إنه قد تاب إلى الله".

هذا صحيح، ففي القرآن قال تعالى: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} [المائدة: ٣٤]، لا يقام عليه الحد إذا تاب قبل القدرة عليه، إذا كان هذا في قطاع الطريق وذنبهم من أعظم الذنوب، فهذا من باب أولى، إلا حد القذف، فهو حق للآدمي فلا يسقط إلا بإسقاط المقذوف، فاعتراف الرجل علامة على التوبة، أو أن الرسول ﷺ علم منه ذلك، المهم أنه إذا تاب قبل القدرة فإنه لا يقام عليه الحد.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فأولئك يبدل الله سيئاتهم} المذكورة {حسنات} في الآخرة]، يبدلها، التبديل: جعل شيء مكان شيء، وهذا التبديل هل هو تبديل قدري أو تبديل جزائي؟

اختلف في ذلك أهل العلم؛ فمنهم من قال: إنه تبديل قدري، ومنهم من قال: إنه تبديل جزائي، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنه تبديل قدري يقولون: إن معنى تبديل

=

=

السيئات حسنات أنه لما آمن وعمل عملا صالحا صار بدل الشرك إيمان، وصار بدل الزنا وقتل النفس عمل صالح، معناه أن هذا الإيمان والعمل الصالح صار بدلا عن الكفر والزنا وقتل النفس، فالمعنى أن إيمانه وعمله الصالح الذي فعله هو الحسنات التي أبدل الله السيئات بها، فيكون هذا التبديل قدريا.

وقيل: بل هو جزائي، بمعنى أن هذه المعاصي نفسها تكون حسنات، يبدل الله السيئات السابقة يجعلها حسنات، بالإضافة إلى حسناته الأخيرة التي قدرت له ففعلها، وكيف ذلك؟ يقولون: لأن هذه السيئات لما تاب منها صار له بكل توبة من هذه السيئات حسنة، فأبدلت السيئات حسنات بالتوبة منها، ولأنه كلما تذكر ما سبق من أعماله السيئة أحدث لها توبة، فصارت هذه الأعمال السابقة حسنات بالتوبة منها، والصحيح شمول الآيه لهذا وهذا، وأن الآية شاملة للأمرين، فإن من تاب وآمن وعمل عملا صالحا تبدلت سيئاته السابقة فصارت حسنات، لكنها ليس هي الأولى نفسها، وكذلك إذا تاب منها جوزي على هذه التوبة بالثواب، فصارت السيئات بالتوبة منها حسنات.

وكلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يميل إلى الثاني؛ إلى أن هذا التبديل تبديل جزائى؛ لقوله: {في الآخرة}؛ لأنه لو كان قدريا ما كان في الآخرة؛ إذ التبديل القدري إنما يكون في الدنيا؛ لأنه عمله، والصحيح شمول الآية للأمرين، فبالإيمان والعمل الصالح تبدلت أعماله إلى أعمال صالحة، وبالتوبة من السيئات صارت السيئات السابقة حسنات؛ لأنه يزداد بهذه التوبة رفعة ومقاما عند الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكان الله غفورا رحيما} أي: لم يزل متصفا بذلك]، (كان) هنا -كما مر- مجردة من الزمن، والمراد بها اتصاف اسمها بخبرها صفة لازمة، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي لم يزل متصفا بذلك] أي بالمغفرة والرحمة. والغفور صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة، وكلاهما يدل على الثبوت والدوام والكثرة. والمغفرة:

=

=

ستر الذنب مع التجاوز عنه، يعني ستر الذنب وإسقاط عقوبته، وليس مجرد الستر؛ لأنها مأخوذة من المغفر، وبالمغفر يكون الستر والوقاية.

وأما الرحيم: فهو ذو الرحمة الواصلة إلى المرحومين؛ لأنها تدل على الفعل مع الصفة أيضا، والرحمة صفة من صفات الله ﷻ يكون بسببها الإنعام والإحسان إلى الخلق بجلب المنافع ودفع المضار، وأما من فسر الرحمة بالإحسان أو بإرادته فقوله خطأ؛ لأن إرادة الإحسان أثر من آثار الرحمة، وكذلك الإحسان، وليس هو الرحمة.

لو قال قائل: قوله: {غفورا} صفة مشبهة، مع أنها منصوبة ولم تعمل؟

نقول: ليس بلازم أن تعمل، وأما نصبها فللعامل.

لو قال قائل: ورد حديث ما معناه: ما يزال العبد يرى سيئاته توضع في كفة موازين حسناته حتى يتمنى أن لو أكثر من السيئات؟.

(فائدة): قال ابن القيم في طريق الهجرتين: وههنا مسألةٌ، هذا الموضعُ أخصُّ المواضعِ ببيانها. وهي أنّ التائب إذا تاب إلى الله توبةً نصوحًا، فهل تُمحى تلك السيئات، ويذهب لا له ولا عليه، أوإذا مُحِيتْ أُثبِت له مكان كلّ سيّئةٍ حسنةٌ؟

هذا مما اختلف الناس فيه من المفسّرين وغيرهم قديمًا وحديثًا. فقال الزجّاج: "ليس يُجعَل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة".

قال ابن عطية: "يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة. فيكون ذلك سببًا لرحمة الله إئاهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن" وردّ على من قال: هو في يوم القيامة. قال: "وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذرّ يقتضي أنّ الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحّدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري. وهذا تأويل سعيد بن المسيّب في هذه الآية".

=

=

قال ابن عطية: "وهو معنى كرم العفو". هذا آخر كلامه.

قلت: سيأتي إن شاءَ الله ذكرُ الحديث بلفظه، والكلام عليه.

قال المهدوي: "وروي معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد ابن جبير وغيرهما".

وقال الثعلبي: "قال ابن عبّاس وابن جريج والضحّاك وابن زيد: {يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان/ ٧٠]: يبدّلهم الله بقبائح أعمالهم في الشرك محاسنَ الأعمال في الإسلام، فيبدّلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتلَ المشركين، وبالزنى عفّةً وإحصانًا. وقال الآخرون: يعني يبذل الله سيّئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسناتٍ يوم القيامة".

وأصل القولين أنّ هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات؛ وهذا تبديل حقيقة. والذين نصروا هذا القول احتجّوا بأنّ السيّئة لا تنقلب حسنةً، بل غايتها أن تُمْحى وتُكَفَّر ويذهب أثرها. فأما أن تنقلب حسنةً فلا، فإنّها لم تكن طاعة، وإنّما كانت بغيضة مكروهة للربّ، فكيف تنقلب محبوبة له مرضيّة؟

قالوا: وأيضًا فالذي دلّ عليه القرآن إنّما هو تكفير السيّئات ومغفرة الذنوب، كقوله: {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} [آل عمران/ ١٩٣]، وقوله: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ} [الشورى/ ٢٥]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر/ ٥٣]. والقرآن مملوءٌ من ذلك.

وفي الصحيح من حديث قتادة، عن صفوان بن مُحرِز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعتُه يقول: "يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربّه حتّى يضعَ عليه كنَفَه، فيقرّره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟

=

=

فيقول: ربِّ أعرِفُ. قال: فإنّي قد سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطَى صحيفةَ حسناتِه. وأمّا الكفّار والمنافقون فيُنادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاءِ الذين كذبوا على الله ﷻ". فهذا الحديث المتفَق عليه الذي يتضمّن العنايةَ بهذا العبد إنّما فيه سترُ ذنوبه عليه في الدنيا ومغفرتُها له يوم القيامة، ولم يقل له: وأعطيُتك بكلّ سيّئة منها حسنة؛ فدل على أن غاية السيّئات مغفرتُها وتجاوزُ الله عنها.

وقد قال تعالى في حقّ الصادقين: {لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥)} [الزمر/ ٣٥]. فهؤلاءِ خيار الخلق، وقد أخبر أنّه يكفر عنهم سيئاتِ أعمالهم، ويجزيهم بأحسن ما عملوا، وأحسن ما عملوا إنّما هو الحسنات لا السيّئات؛ فدلّ على أن الجزاء بالحسنى إنّما يكون على الحسنات وحدها. وأمّا السيّئات فحسبُها أن تلغى ويبطلَ أثرها.

قالوا: وأيضًا فلو انقلبت السيّئات أنفسها حسناتِ في حق التائب لكان أحسن حالًا من الذي لم يرتكب منها شيئًا، وأكثرَ حسناتِ منه، لأنّه إذا شاركه في حسناته التي فعلها، وامتاز عنه بتلك السيّئات، ثمّ انقلبت له حسناتٍ، ترجَّحَ عليه. وكيف يكون صاحبُ السيّئات أرجحَ ممّن لا سيّئة له؟

قالوا: وأيضًا فكما أنّ العبد إذا فعل حسناتٍ، ثمّ أتى بما يُحبِطها، فإنّها لا تنقلب سيّئاتِ يعاقَبُ عليها، بل يبطل أثرُها، ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبتُه عدمَ ترتُّب ثوابِه عليها؛ فهكذا من فعل سيّئاتٍ ثمّ تاب منها، فإنّها لا تنقلب حسنات. فإن قلتم: وهكذا التائبُ يكون ثوابه عدمَ ترتُّب العقوبة على سيّئاته، لم نُنازِعْكم في هذا. وليس هذا معنى الحسنة، فإنّ الحسنة تقتضي ثوابًا وجوديًّا.

واحتجّت الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيّئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيّئة. وهذا إنّما يكون في السيّئة

=

=
المحقّقة، وهي التي قد فُعِلتْ ووقَعتْ؛ فإذا بُدِّلت حسنةً كان معناه أنّها مُحِيت وأُثبتَ مكانها حسنةٌ.

قالوا: ولهذا قال سبحانه: {سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان/ ٧٠]، فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكَّر الحسناتِ ولم يُضفها إليهم لأنَّها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرَّد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضًا فالتبديل في الآية إنَّما هو فعل الله، لا فعلهم؛ فإنَّه أخبر أنَّه هو يُبدِّل سيّئاتِهم حسناتٍ. ولو كان المراد ما ذكرتم لأضافَ التبديل إليهم، فإنَّهم هم الذين بدَّلوا سيّئاتهم حسنات. والأعمال إنَّما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [البقرة/ ٥٩]. وأمَّا ما كان من غيرِ الفاعل فإنَّه يجعله من تبديله هو، كما قال تعالى: {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ} [سبأ/ ١٦]. فلمَّا أخبر سبحانه أنَّه هو الذي يبدِّل سيئاتهم حسنات، دلَّ على أنَّه شيء فعله هو سبحانه بسيّئاتهم، لا أنَّهم فعلوه من تلقاءِ أنفسهم، وإن كان سببُه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدلّ عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن المعرور بن سُويد، عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنِّي لأعلم آخرَ أهلِ الجنَّة دخولًا الجنَّة، وآخِرَ أهل النَّارِ خروجًا منها: رجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامة فيقال: اعرضُوا عليه صغارَ ذنوبه، وارفعوا عنه كبارَها. فتُعرَضُ عليه صغارُ ذنوبه فيقال: عملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم. لا يستطيع أن يُنكر، وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تُعرَضَ عليه. فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ، قد عملتُ أشياءَ لا أراها ههنا" فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحِكَ حتَّى بدَتْ نواجذُه.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا وكيع، حدَّثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي
=

=

ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بالرجل يومَ القيامة، فيقال: اعرِضوا عليه صغارَ ذنوبه. قال: فتُعرَض عليه، ويُخَبَّأ عنه كبارُها. فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مُقِرٌّ لا ينكر، وهو مشفِق من الكبار. فيقال: أعطُوه مكانَ كلِّ سيئةٍ عمِلَها حسنةً. قال: فيقول: إنَّ لي ذنوبًا ما أراها". فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذُه.

قالوا: وأيضًا فروى أبو حفص المستملي، عن محمد بن عبد العزيز ابن أبي رِزْمة، حدثنا الفضل بن موسى القطيعي، عن أبي العنبَس، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ أنَّهم أكثروا من السيّئات". قيل: مَن هم؟ قال: "الذين بدّل اللهُ سيّئاتِهم حسناتٍ".

قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنَّهم إنَّما سُمُّوا "أبدالًا" لأنهم بدَّلوا أعمالهم السيّئة بالأعمال الحسنة، فبدَّل اللهُ سيّئاتِهم التي عملوها حسناتٍ.

قالوا: وأيضًا فالجزاءُ من جنس العمل، فكما بدَّلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة، بدَّلها اللهُ من صُحُفِ الحَفَظة حسناتٍ جزاءً وفاقًا.

قالت الطائفة الأولى: كيف يمكنكم الاحتجاجُ بحديث أبي ذرّ على صحّة قولكم، وهو صريح في أنَّ هذا الذي قد بُدِّلت سيّئاته حسنات قد عُذِّبَ عليها في النَّار حتَّى كان آخرَ أهلها خروجًا منها؟ فهذا قد عوقب على سيّئاته، فزال أثرُها بالعقوبة، فبُدِّل مكانَ كلّ سيّئة منها حسنةً. وهذا حكمُ غير ما نحن فيه، فإنَّ الكلام في التائب من السيّئات، لا فيمن مات مصرًّا عليها غيرَ تائب منها، فأين أحدهما من الآخر؟

وأمَّا حديث الإمام أحمد فهو الحديث بعينه إسنادًا ومتنًا، إلا أنَّه مختصر.

وأمَّا حديث أبي هريرة فلا يثبت مثلُه. ومن أبو العنبس ومن أبوه حتّى يُقبَل منهما تفرّدُهما بمثل هذا الأمر الجليل؟ وكيف يصحّ مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ مع شدَّة حرصه على التنفير من السيّئات، وتقبيح أهلها، وذفهم وعيبهم،

=

=

والإخبار بأنَّها تنقص الحسنات وتضادّها؟ فكيف يصحّ عنه ﷺ أنَّه يقول: "ليتمنينَّ أقوام أنَّهم أكثروا منها"؟ ثمَّ كيف يتمنَّى المرءُ إكثاره منها، مع سوء عاقبتها، وسوءِ مغبّتها؟ وإنَّما يُتمنَّى الإكثارُ من الطاعات. وفي الترمذيّ مرفوعًا: "لَيتمنينَّ أقوامٌ يومَ القيامة أنَّ جلودَهم كانت تُقرَض بالمقاريض، لِما يَرون من ثواب أهل البلاءِ". فهذا فيه تمنّي البلاءِ يوم القيامة لأجل مزيد ثواب أهله. وأمَّا تمنِّي الحسناتِ، فهذا لا ريب فيه؛ وأمَّا تمنِّي السيئات، فكيف يتمنَّى العبدُ أنَّه كان أكثرَ من السيّئات؟ هذا ما لا يكون أبدًا. وإنَّما يتمنَّى المسيء أن لو لم يكن أساءَ، وأمَّا تمنّيه أنَّه ازداد من إساءته، فكلَّا!

قالوا: وأمَّا ما ذكرتم من أنَّ التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيّئه، فحقٌّ، وكذلك نقول إنَّ الحسنة المفعولة صارت في مكان السيّئة التي لولا الحسنة لحلَّت محلّها.

قالوا: وأمَّا احتجاجكم بإضافةِ السيّئاتِ إليهم، وذلك يقتضي أن تكون هي السيّئات الواقعة؛ وتنكير الحسنات، وهو يقتضي أن تكون حسناتٍ من فضل الله = فهو حقٌّ بلا ريب، ولكن من أين يُنفَى أن يكون فضلُ الله بها مقارنًا لكسبهم إيَّاها بفضله؟

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ التبديل مضاف إلى الله لا إليهم، وذلك يقتضي أنَّه هو الذي بدَّلها سبحانه من الصحف، لا أنَّهم هم الذين بدَّلوا الأعمال بأضدادها؛ فهذا لا دليلَ لكم فيه، فإنَّ الله تعالى خالق أفعال العباد، فهو المبدّل للسيّئات حسناتٍ خلقًا وتكوينًا، وهم المبدّلون لها فعلًا وكسبًا.

قالوا: وأمَّا احتجاجكم بأنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فكما بدّلوا سيّئات أعمالهم بمحاسنهم، بدَّلها اللهُ كذلك في صحف الأعمال؛ فهذا حقّ، وبه نقول، وأنَّه بُدِّلت السيّئات التي كانت مهيّأة معدَّة أن تحلّ في الصحف بحسناتٍ حلَّت موضعها.

فهذا منتهى إقدام الطائفتين، ومحطّ نظر الفريقين. وإليك أيّها المنصف الحكمَ

=

=

بينهما، فقد أدلى كلّ منهما بحجّته، وقام ببيّنته، والحقُّ لا يعدوهما ولا يتجاوزهما. فأرشدَ اللهُ من أعانَ على هدًى، فنال به درجةَ الدَّاعين إلى الله القائمين ببيان حججه ودينه؛ أو عذَرَ طالبًا منفردًا في طريق مطلبه، قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق، فغايةُ أمنيّته أن يُخلَّى بينه وبين سيره، وأن لا يُقطع عليه طريقُه. فمن رُفع له مثل هذا العَلَم، ولم يشمّر إليه، فقد رضي بالدون، وحصل على صفقة المغبون. ومن شمَّر إليه، ورامَ أن لا يعارضه معارض، ولا يتصدّى له ممانع، فقد منَّى نفسه المحال! وإن صبر على لأوائها وشدّتها، فهو -والله- الفوز المبين والحظّ الجزيل. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكّلت، وإليه أنيب.

فالصواب -إن شاء الله- في هذه المسألة أن يقال: لا ريب أنَّ الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنَّما هي أمرٌ وجوديّ يقتضي ثوابًا، ولهذا كان تارك المنهيّات إنَّما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكفّ والحبس أمرٌ وجوديّ هو متعلَّق الثواب. وأمَّا من لم يخطر بباله الذنبُ أصلًا، ولم يحدّث به نفسَه، فهذا كيف يثاب على تركه؟ ولو أثيب مثلُ هذا على ترك هذا الذنب لكان مثابًا على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى، فإنَّ الترك مستصحَب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب على ذلك كلّه؟ هذا ممَّا لا يُتوهَّم. وإذا كانت الحسنة لا بدّ أن تكون أمرًا وجوديًّا، فالتائب من الذنوب التي قد عملها قد قارن كلَّ ذنب منها ندمًا عليه، وكفَّ نفسِه عنه، وعزمَه على تركِ معاودته، وهذه حسنات بلا ريب، وقد محت التوبة أثرَ الذنب، وخلَفَه هذا الندم والعزمُ، وهو حسنة، فقد بُدِّلت تلك السيّئةُ حسنةً. وهذا معنى قول بعض المفسِّرين: "يجعل مكان السيّئة التوبة، والحسنة مع التوبة". فإذا كانت كلُّ سيّئةٍ من سيّئاته قد تاب منها، فتوبته منها حسنة حلَّت مكانها، فهذا معنى التبديل، لا أنَّ السيّئة نفسها تنقلب حسنة. ولهذا

=

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا (٧١).

{وَمَنْ تَابَ} مِنْ ذُنُوبه غَيْر مَنْ ذُكِرَ {وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوب إِلَى الله مَتَابًا} أَيْ يَرْجِع إِلَيْهِ رُجُوعًا فَيُجَازِيه خَيْرًا[1].

=

قال بعض المفسّرين في هذه الآية: "يعطيهم بالندم على كلّ سيّئة أساؤوها حسنة".

وعلى هذا فقد زالَ بحمد الله الإشكالُ، واتَّضح الصوابُ، وظهر أنَّ كلَّ واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجَب العلم والحجّة.

وأمَّا حديث أبي ذرّ -وإن كان التبديل فيه في حقّ المصرّ الذي عُذِّب على سيئاته- فهو يدلّ بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيّئاته. فإنَّ الذنوب التي عُذِّب عليها المصرُّ لمَّا زال أثرُها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن، فأعطاه الله مكان كلّ سيئة منها حسنةً، لأنَّ ما حصلَ له يوم القيامة من الندم المفرِط عليها مع العقوبة اقتضى زوال أثرها وتبديلها حسناتٍ، فإنَّ النَّدم لم يكن في وقت ينفعه، فلمَّا عوقب عليها وزال أثرُها بدَّلها الله له حسناتٍ، فزوالُ أثرها بالتوبة النصوح أعظمُ من زوال أثرها بالعقوبة، فإذا بدلت بعد زواله بالعقوبة حسناتٍ، فلأن تُبَدَّل بعد زوالها بالتوبة حسناتٍ أولى وأحرى. وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة، لأنَّ التوبة فعل اختياري أتى به العبدُ طوعًا ومحبَّة لله وفرَقًا منه. وأمَّا العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره، بل بفعل الله، ولا ريب أن تأثيرَ الأفعال الاختيارية التي يحبها الله ويرضاها في محو أثر الذنوب أعظمُ من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره.

الجواب: لا أعرف هذا الحديث، لكن نظرا إلى تبديل السيئات بالحسنات يمكن من هذا الوجه.

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا} [الفرقان: ٧١]،

=

=

أي:"ومن تاب عمَّا ارتكب من الذنوب، وعمل عملا صالحا فإنه بذلك يرجع إلى الله رجوعًا صحيحًا، فيقبل الله توبته ويكفر ذنوبه".

قال الطبري:"يقول: ومن تاب من المشركين، فآمن بالله ورسوله وعمل بما أمره الله فأطاعه، فإن الله فاعل به من إبداله سيئ أعماله في الشرك بحسنها في الإسلام، مثل الذي فعل من ذلك بمن تاب وآمن وعمل صالحا قبل نزول هذه الآية من أصحاب رسول الله ﷺ".

قال ابن زيد:"هذا للمشركين الذين قالوا لما أنزلت: {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر}... إلى قوله {وكان الله غفورا رحيما} لأصحاب رسول الله ﷺ، ما كان هؤلاء إلا معنا، قال: ومن تاب وعمل صالحا فإن لهم مثل ما لهؤلاء {فإنه يتوب إلى الله متابا} لم تحظر التوبة عليكم".

عن مجاهد، قوله: "{ومن تاب}، قال: تاب الله عليه".

قال ابن عباس:"الأعمال الصالحة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا اله والله أكبر".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ومن تاب} من ذنوبه غير من ذكر]، ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ فيمن سبق: [{وعمل صالحا} (منهم)]، من هؤلاء، وإنما قال: [غير من ذكر]؛ لئلا يلزم التكرار، ولكن لا مانع من أن نقول: لا حاجة للاستثناء، وتكون الآية الثانية عامة، فيكون من باب ذكر العام بعد الخاص؛ لأن إخراج من سبق من عموم الآية هذه لا وجه له، فالأولى أن يقال: إن الآية الثانية عامة تشمل من سبق وغيرهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا} أي يرجع إليه رجوعا فيجازيه خيرا].

قوله: {ومن تاب وعمل صالحا}: {تاب} رجع من ذنبه {وعمل صالحا} استزاد

=

من العمل الصالح، فيكون هذا الرجل استعتب مما فعل وازداد خيرا، يقول: {فإنه يتوب إلى الله متابا} أي متابا تاما، فالمصدر هنا لتعظيم هذه التوبة، أي متابا عظيما؛ لكمال هذه التوبة، وإلا لو قال قائل: هذا تحصيل حاصل، من تاب فإنه يكون تائبا؟ نقول: لا، المقصود أن توبته هذه توبة كاملة عظيمة، فالإتيان بالمصدر {فإنه يتوب إلى الله متابا} للدلالة على أن هذه التوبة وقعت موقعها وأنها كاملة، وهذا حق، فإن الرجل إذا تاب وازداد عملا صالحا تبين بذلك صحة توبته وكمالها.

وقوله سبحانه وتعالى: {فإنه يتوب إلى الله متابا} ليس كقول القائل: الأرض تحتنا والسماء فوقنا، يعني تحصيل حاصل، بل إن المعنى أن هذه هي التوبة الصادقة الحقيقية الكاملة.

وقوله: {إلى الله} يعني يرجع إلى الله رجوعا تاما كاملا، كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله هل يشترط للتوبة إصلاح العمل، أو لا يشترط؟

فمنهم من قال: إنه يشترط لها إصلاح العمل، وعلى هذا فيكون ذلك شرطا سادسا زائدا على الشروط الخمسة، وأن من تاب ولم يصلح عمله فإنه ليس بتائب.

وقال بعض العلماء: بل تصح التوبة مع عدم إصلاح العمل، وقال بعضهم: إن كان العمل من جنس ما تاب منه فلا بد من إصلاحه، وإلا فلا تصح التوبة، مثال ذلك: رجل تاب من الزنا ولكنه يسرق، فعلى القول الأول لا تصح توبته من الزنا؛ لعدم إصلاح العمل، وعلى القول الثاني تصح؛ لأن السرقة ليست من جنس الزنا، وعلى القول الثالث من باب أولى أنه لا يشترط إصلاح العمل مطلقا وأن من تاب من ذنب قبلت توبته، ورجل آخر تاب من الزنا ولكنه استمر في النظر المحرم، فاستمر ينظر إلى النساء نظرا محرما، فهذا على القول بأنه لا يشترط إصلاح العمل تصح

=

توبته من الزنا، وعلى القول بأنه لابد من إصلاح العمل لا تصح توبته من الزنا، وعلى القول الوسط الذي يقول: إذا كان من جنس ما تاب منه لم تقبل أيضا لا تصح؛ لأن هذا زنا العين، كما قال النبي ﷺ.

ولكن الصحيح أن يقال: أما إن أريد بالتوبة وصف هذا الرجل بأنه من التائبين الذين يلحقهم الثناء، ويصدق عليهم أنهم تائبون، فهذا لا يمكن أن تصح منه التوبة، أو أن يستحق وصف التوبة، إلا بإصلاح العمل، لأنه لم يتب التوبة المطلقة، وإنما عنده مطلق توبة، وأما إن أريد بالتوبة التوبة من العمل المعين، فالصواب الجزم بأن توبته تقبل؛ لأن هذا مقتضى عدل الله سبحانه وتعالى، من عمل خيرا فله، ومن عمل شرا فعليه: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} [الزلزلة: ٧ - ٨]، فكيف نقول: إن هذا الرجل لا تصح توبته من عمل تاب منه ورجع وندم؛ لأنه مصر على غيره؟ ! لا يصح.

فالصواب في هذا أن يقال: أما استحقاق وصف التائبين على وجه الإطلاق فهذا لا يستحقه التائب إلا لإصلاح العمل؛ لأنه كيف يكون تائبا إلى الله من هو مصر على معصيته، ولو من غير جنس ما تاب منه، أو من جنسه، وأما إذا كان المقصود التوبة من هذا العمل المعين، يعني مطلق توبة لا توبة مطلقة، فإن هذه تصح جزما؛ لأن هذا مقتضى عدل الله سبحانه وتعالى.

لو قال قائل: ورد في الحديث: "أذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك"؟

=

=

نقول: هذه غير مسألتنا، نحن نقول: هذا الرجل تاب من الذنب، ولم يرجع إليه، لكنه عاص لله من جهة أخرى، هذا هو بحثنا.

لو قال قائل: إذا قلنا بأنه جزما تحصل له التوبة، فهناك أحكام كثيرة تترتب على التوبة، مثل قلب السيئات حسنات؟

نقول: نعم، بالنسبة لهذا العمل المعين إذا تاب منه صار حسنة.

وهل هو قلب جزائي أو قلب قدري؟

لو قيل: هذا إذا تاب توبة نصوحا تامة.

قلنا: لا، تاب من هذه الأشياء: الشرك والزنا وقتل النفس، المهم أنه حتى من تاب توبة خاصة من ذنب خاص بدلت سيئاته حسنات، فالسيئة التي تاب منها تكون حسنة؛ لأنه تركها لله، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن "من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة" لأنه تركها لله، فهذا مثله، ثم إن مجرد أنه يتوب إلى الله ويعرف أن له ربا يؤاخذه ويعاقبه ويشعر بالخجل من الله ﷻ والحياء منه؛ هذا من الحسنات العظيمة.

فلو قيل: لكنه وصف بالعاصي والفاسق.

نقول: عاص بالنسبة لكذا، تائب بالنسبة لكذا.

لو قال قائل: ما الفرق بين الزنا والسرقة؟ هل كلاهما من الكبائر؟ وهل كلاهما فسق؟

الفرق بينهما هذا يجلد وهذا تقطع يده، وهذا يكون فاسقا من وجه، وذاك فاسق من وجه آخر، هذا باعتبار الأعراض، وهذا باعتبار الأموال، فبينهما فروق، ليس كل الذنوب على حد سواء، لا في النوع، ولا في القدر، ولا في الإثم.

ولهذا قلنا: إن الوصف المطلق للتوبة لا يستحقه؛ لأنه حقيقة ليس بتائب؛ إذ إنه عاص لله سبحانه وتعالى من وجه، لكن كوننا نقول: لا تقبل توبتك من الزنا لأنك

=

=

تسرق، فهذا ليس بصحيح، فالذي تاب منه يغفر له، والذي أصر عليه يبقى عليه، صغيرة كانت أم كبيرة؛ لأن هذا مقتضى عدل الله، أليس هذا عمل خيرا بتوبته.

وقلنا: إن قلب السيئة حسنة بالتوبة؛ لأن مجرد رجوعه إلى الله سبحانه وتعالى وتركه لها وتوبته منه حسنة، هذا إذا قلنا: إن المراد بالحسنة الجزائي، يعني أنه يجازى على نفس السيئة حسنة. إذا قلنا: إنه قدري، بمعنى أن إقلاع هذا الرجل عن هذا الذنب واستقامته هذا منه، فالقدري واضح، والجزائي أيضا؛ لأن كرم الله سبحانه وتعالى أسرع وأسبق من عقوبته، وقولنا: قدري من القدر، بمعنى أنه يقدر له حسنات جديدة غير الأولى، والجزائي أيضا من القدر، لكنه ثواب بمعنى أنه يجزى على نفس السيئات حسنات.

لو قال قائل: (الواو) في قوله تعالى: {إلا من تاب وآمن وعمل} هل هي عاطفة؟

نقول: نعم عاطفة.

فلو قيل: إذا كانت عاطفة نرجع إلى الشرط السادس الذي يقول: لابد من صلاح العمل؟

نحن قلنا: إنه لا يستحق وصف التوبة المطلق، إلا بهذا: بالعمل الصالح.

لو قال قائل: هناك آيات من القرآن تصف الإنسان بالتوبة، ولو ما عمل عملا صالحا؟

نقول: نعم، مثل قوله سبحانه وتعالى: {إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم} [المائدة: ٣٤].

لو قال قائل: إذا كان مثلا العاصي يعرف من نفسه ضعف إيمان وتسلط عدوه عليه، وأنه سوف يعود إلى هذه المعصية، أيهما أولى، كلما يعمل معصية يتوب أو يترك التوبة، لئلا تكون توبة كذب؟

يتوب، ما يدريه، نقول: توبته هذه لا تصح، لكن مجرد شعوره بأنه مخطئ قد

=

=

ينفعه هذا، أما أن يقول: سأستمر فهذا لا يجوز، هو معترف أنه مخطئ، لكن هو يقول: أريد أن أستمر، لن أقلع لا بقلبي ولا بفعلي، كلما سنحت لي الفرصة سأفعل، فهذا شر، لكن كونه يتوب إلى الله ويخجل ويصير عنده نوع من التقرب إلى الله أحسن من عدمه، ولو تعددت توبته، لكن الواجب على المؤمن أن يتوب جزما، وإذا قدر فيما بعد أن أسباب المعصية توفرت لديه وأن نفسه غلبته، فإن ذلك لا ينقض توبته الأولى، فإنه يؤاخذ من جديد بالمعصية الجديدة ثم يتوب.

لو قال قائل: قول: أستغفر الله وأتوب إليه بعضهم يقول: إن قولك: وأتوب إليه دائما توبة كذابين، واستغفارك أيضا استغفار كذابين؟

على كل حال نسأل الله أن يتوب علينا، حتى قول الإنسان إذا انتهى من الأكل: الحمد لله، لا أحد يشعر معنى هذه الكلمة تماما، إلا أنها روتينية، وباسم الله كذلك، وأيضا الصلاة عادة، وهذا الذي في الحقيقة يفسدنا أن أعمال القلوب لا نشعر بها، تجد الكثير منا يحافظ على سنة رفع الإصبع عند الدعاء، لكن رفع القلب عند الدعاء لا أحد يهتم به، مع أن هذا أهم، الحقيقة أن الله يتوب علينا إذا فكرنا في أنفسنا، وإذا بنا ظاهريون لا باطنيون.

لو قال قائل: في هذه الآية في التوبة العامة قال: {من تاب}، ولم يذكر الإيمان، وفي الآية التي قبلها في التوبة الخاصة {من تاب وآمن}، فذكر الإيمان، ما وجه ذلك؟

لأنه ذكر الشرك هناك؛ فلابد من الإيمان مقابل الشرك.

لو قال قائل: ما حكم إنسان ابتلي بذنب فأخذ يستغفر الله ويتوب، وظل على هذا، وعجز أن يقلع عنه؟

فالجواب: مسألة العجز هذه أمر غير وارد، إلا على مذهب الجبرية، لا أحد يعجز عن الترك، فالتروك أهون من الأفعال، ولهذا لا تجد الترك رتب عليه مثلا الثواب

=

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢).

{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّور} أَيْ الْكَذِب وَالْبَاطِل {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ} مِنْ الْكَلَام الْقَبِيح وَغَيْره {مَرُّوا كِرَامًا} مُعْرِضِينَ عَنْهُ[1].

=

المطلق، بخلاف الفعل، فالفعل أشق على النفس؛ لأنه جهاد للنفس من وجهين، لكن الترك من وجه واحد، فكلمة عجزت ليست بصحيحة، ولو أن سوط السلطان في ظهره مرة وفي بطنه مرة لا يعجز.

لكن لو قال قائل: الذين يشربون الدخان إذا نصحناهم يقولون: والله عجزنا؟

هذا ليس بصحيح، أنا أشهد أنه يكذب؛ لأنه وجد أناس صدقوا العزيمة وتابوا وأقلعوا عنه، فالصحابة ﷺ قبل أن ينزل الخمر كانوا مدمنين على الخمر، وإمساك الخمر لشاربها أكثر من شرب الدخان، ومع ذلك في يوم واحد كلهم امتثلوا، فالكلام على صدق العزيمة، الآن في غير الصيام هذا الشارب لا يستطيع أن يتوقف النهار كله على زعمه عن الدخان، وفي الصيام حيث إنه عازم يستطيع.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [الفرقان: ٧٢]، أي:"والذين لا يشهدون بالكذب ولا يحضرون مجالسه".

قال ابن كثير:"وهذه أيضا من صفات عباد الرحمن".

واختلف أهل التفسير في معنى «الزور» في الآية، على أقوال:

أحدها: معناه: الشرك بالله. قاله ابن زيد.

وقال مقاتل:"يعني: لا يحضرون الذنب، يعني: الشرك".

الثاني: أنه الغناء. وهذا قول مجاهد.

الثالث: أنه الكذب. وهذا قول ابن جريج.

قال الفراء:"يقول: لا يحضرون مجالس الكذب والمعاصي".

الرابع: أنه شهادة الزور، وهي الكذب متعمدا على غيره. حكاه ابن كثير.

=

=

عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر" ثلاثا، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: "الشرك بالله، وعقوق الوالدين". وكان متكئًا فجلس، فقال: "ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور. فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت.

قال ابن كثير:"الأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه".

الخامس: معناه: لا يشهدون أهل الباطل على باطلهم ولا يمالئونهم فيه. قاله يحيى بن سلام.

السادس: أن «الزور»: مجالس المبتدعين. قاله سهل بن عبد الله.

السابع: أنه أعياد المشركين، لأنها زور وكذب إذ كانت لغير الله. ذكره الفراء.

قال الطبري:"وأصل الزور تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه، أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك، لأنه محسن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء، لأنه أيضا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور.

فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئا من الباطل لا شركا، ولا غناء، ولا كذبا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور، لأن الله عم في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل".

قوله تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]، أي:"وإذا مروا بأهل الباطل واللغو من غير قصد مرُّوا معرضين منكرين يتنزهون عنه، ولا يرضونه

=

=

لغيرهم".

قال الزجاج:"تأويله أعرضوا عنه".

قال السمعاني:"«اللغو»: في اللغة كل ما هو باطل، ولا يفيد فائدة، أي: مروا معرضين كما يمر الكرام، وقيل: أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه".

قال الفراء:"ذكر أنهم كانوا إذا أجروا ذكر النساء كنوا عن قبيح الكلام فيهن. فذلك مرورهم به".

قال ابن كثير:"أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرُّوا، ولم يتدنسوا منه بشيء".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢]، أقوال:

احدها: معناه: ما كان المشركون يقولونه للمؤمنين، ويكلمونهم به من الأذى. ومرورهم به كراما إعراضهم عنهم وصفحهم. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"إذا أوذوا مروا كراما، قال: صفحوا".

قال مقاتل:"يقول: إذا سمعوا من كفار مكة الشتم والأذى على الإسلام «مروا كراما» معرضين عنهم، كقوله- سبحانه-: {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه} [القصص:٥٥]".

الثاني: معناه: وإذا مروا بذكر النكاح، كفوا عنه. وهذا قول مجاهد ايضا.

وقال سيار:"إذا مروا بالرفث كفوا".

الثالث: المعنى: إذا مروا بما كان المشركون فيه من الباطل مروا منكرين له. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"هؤلاء المهاجرون، واللغو ما كانوا فيه من الباطل، يعني المشركين وقرأ {فاجتنبوا الرجس من الأوثان}".

الرابع: أن «اللغو» -هاهنا-: المعاصي كلها. وهذا قول الحسن.

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراما، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو. وذكر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه إذ كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو، أن يقال: عني به بعض ذلك دون بعض، إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل. فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وإذا مروا بالباطل فسمعوه أو رأوه، مروا كراما، مرورهم كراما في بعض ذلك بأن لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أو ذوا بإسماع القبيح من القول، وفي بعضه بأن ينهوا عن ذلك، وذلك بأن يروا من المنكر ما يغير بالقول فيغيروه بالقول. وفي بعضه بأن يضاربوا عليه بالسيوف، وذلك بأن يروا قوما يقطعون الطريق على قوم، فيستصرخهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكل ذلك مرورهم كراما".

عن إبراهيم بن ميسرة، قال: "مر ابن مسعود بلهو مسرعا فقال رسول الله ﷺ: "إن أصبح ابن مسعود لكريما".

عن سفيان، قال: "سمعت السدي يقول: {وإذا مروا باللغو مروا كراما}، قال: هي مكية".

قال الطبري:"وإنما عني السدي بقوله هذا إن شاء الله، أن الله نسخ ذلك بأمره المؤمنين بقتال المشركين بقوله: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}، وأمرهم إذا مروا باللغو الذي هو شرك، أن يقاتلوا أمراءه، وإذا مروا باللغو، الذي هو

=

=

معصية لله أن يغيروه، ولم يكونوا أمروا بذلك بمكة".

قال الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "وفرض الله على السمع: أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله، وأن يغضي عما نهى الله عنه، فقال: {والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما}، الآية، فذلك ما فرض الله جل ذكره على السمع من التنزيه عما لا يحل له، وهو عمله، وهو من الإيمان".

قال العثيمين: قوله: {والذين لا يشهدون الزور} هذه معطوفة على قوله: {الذين يمشون}، وسبق أن الصحيح أن {الذين يمشون} خبر وليست صفة كما قال المصنف.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين لا يشهدون الزور} أي الكذب والباطل]، معنى الزور من ازور، أي: مال وانحرف، {وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين} [الكهف: ١٧]، فالزور كل ميل قولي أو فعلي إن كان قولا وصف بالكذب، وإن كان فعلا وصف بالباطل، فكل قول أو فعل مائل عن الطريق فإنه زور، فالكذب زور، والشتم واللعن والغيبة زور أيضا، والغصب والسرقة والزنا وغير ذلك زور أيضا، لكن قد نسميه باطلا إذا كان فعلا.

فالهم أنهم لا يشهدون الزور، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فهل يفعلونه؟ من باب أولى؛ لأنهم إذا كانوا لا يحضرونه فإنهم لا يفعلونه قطعا؛ إذ لو فعلوه لحضروه، كل فاعل حاضر، وليس كل حاضر فاعلا على وجه الحقيقة، لكنه فاعل حكما؛ لقول الله تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم} [النساء: ١٤٠]، فدل هذا على أن المشاهد للعاصي -سواء كان قاعدا أو مضطجعا أو واقفا- مثل العاصي حكما عند الله، وهذا في كل المعاصي، إلا من أكره على الحضور فهذا شيء آخر لا حكم له، كمن أكره على الفعل.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإذا مروا باللغو} من الكلام القبيح وغيره {مروا كراما} معرضين عنه].

قوله: {وإذا مروا باللغو} اللغو الصواب أنه ليس الكلام القبيح؛ لأن الكلام القبيح داخل في الزور، لكن المراد باللغو ما لا فائدة فيه، فكل ما لا فائدة فيه فهو لغو، وذلك لأنه لا يقصد، وما لا يقصد فهو لغو {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان} [المائدة: ٨٩]، فاللغو ما لا فائدة فيه، سواء كان قولا أو فعلا.

وقوله: {وإذا مروا باللغو مروا كراما} لم يقل مثلما سبق {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}؛ لأن هناك خطابا معينا مباشرا، فلا بد أن يقولوا قولا يسلمون به، لكن هنا يمرون بالشيء بدون أن يخاطبوا به، والمراد بالمرور به سواء كانوا مارين في طريق أو جالسين، فجاء شيء لغو لا فائدة فيه، فإنهم يمرون كراما، ومعنى مر الكرام هنا أي أنهم لا يلحقهم منه شيء، بل يحاولون الإصلاح؛ لأن الكريم يعطي غيره، ينفع نفسه وغيره، فهم إذا مروا باللغو يمرون كراما، يحاولون أن يفيدوا من وجودهم، وذلك بأن ينقلوا هذا اللغو إلى أمر مفيد، ولهذا قال: {مروا كراما}، لم يقل: {قالوا سلاما}؛ لأن هناك يخاطبون بما يسيء إليهم، فيقولون قولا يسلمون به؛ لأن المقام يقتضي أن تسلم فقط، لكن هنا لا يؤذون إنما يمرون بلغو لا فائدة منه، فيمرون كراما مفيدين ومستفيدين.

قوله: {وإذا مروا باللغو مروا كراما} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [معرضين عنه] هذا غير صحيح أيضا، قد لا يعرضون عنه لكن يفيدون ويستفيدون، والإنسان الموفق يستطيع أن يفيد ويستفيد، حتى إذا كان المجلس مجلس لغو، يعني كلاما مباحا يستطيع أن يحوله إلى كلام مطلوب، وذلك بما يستعرضه مثلا من كون هذا الشيء الذي يتحدثون به دليلا على قدر الله، أو على رحمة الله، أو على حكمة الله

=

=

مثلا، فيفيد ويستفيد، لكن هذه الأمور في الحقيقة تريد رجالا يعتبرون أنفسهم قادة مصلحين، لا تريد رجالا يعتبرون أنفسهم من جنس مجتمعهم، يمشون الهوينى بدون إصلاح؛ ولهذا يفوتنا كثير في هذه الأمور، فنجلس مجالس اللغو لا نفيد ولا نستفيد، غاية ما هنالك إن كان الإنسان استحضر نية التأليف وعدم الانزواء، وما أشبه ذلك، وهذا خير، لكن ولو، الخير والأكمل أن تحاول الإفادة والاستفادة.

وبعض الناس أيضا يريد من المجالس التسلي فقط، لا يريد معنى وراء ذلك، وهذا فاته خير كثير، وعلى كل حال الناس يختلفون، والمسائل تعود على النيات، وكم من عمل عمله شخص وعمله آخر، فصار بينهما مثل ما بين السماء والأرض، فالسجود يكون شركا ويكون طاعة، إن سجدت لصنم كان شركا، وإن سجدت لله كان طاعة، وهكذا جميع الأعمال، فالنية في الحقيقة لها تأثير كبير في إصلاحها أو في إفسادها.

لو قال قائل: أنا أريد أن أسافر مع شباب في بعض النوادي، وهؤلاء الشباب لا يريدون إلا اللهو، وأريد أن أذهب معهم إلى الأماكن التي يذهبون إليها، هم على قصد وأنا على قصد، وأنا لي هدف، أنا قصدي أريد إصلاحهم، وأحاول أن أعالجهم، وهم قصدهم أني داخل معهم؟

الجواب: لا بأس، فإذا قصدت الإصلاح فهذا طيب، لكن نخشى أن يتغلبوا عليك، لكن لا تحولهم قفزة، لكن تستطيع رويدا رويدا، الآن مثلا عندما تحاول أن تمنع الماء الكثير المنحدر مرة واحدة لا تستطيع، ضع أمامه مثلا نقطة طين لا ترده، لكن ضعها في الجوانب رويدا رويدا يمكن أن تقضي عليه.

لو قال قائل: هل هذه النوادي التي يذهب إليها الشباب محرمة؟

النوادي ليست محرمة، من يقول: إن النوادي محرمة! بعض الأفعال فيها قد تكون غير مرضية، لكننا لا نقول: إن هذا محرم؛ لأن تركهم وترك الاختلاط بهم مشكلة

=

=

أيضا، معناه أنهم يتركون والشياطين.

على كل حال ليس هناك شك أن المراد منها -وهو أصل المؤسسين لها-: صد الناس عن دين الله، وهذا هو الواقع؛ لكن مع ذلك لا نقول: إنها معدومة الخير مئة بالمئة، فنحاول أن ننصحهم، وليس إصلاحها إزالتها، نحن لا نؤيدهم على أعمالهم ولا على نواديهم في الحقيقة، ونرى أنه من المصلحة أن يصرف الشباب إلى شيء آخر؛ إلى تعلم الرماية وإلى تعلم السباحة وإلى السباق وإلى الأشياء المفيدة، حتى لو نجعلهم يقطعون حصا، المهم يفيدون الناس.

أما أنا فلا أقول: إني أؤيد النوادي، بل أقول: إن ضررها أكثر من نفعها، وإن كان مع ذلك لا نقول: إن ضررها مئة بالمئة، نقول: ضررها أكثر من نفعها، لكن ألا ترى هؤلاء الشباب الكثير لو بقي مسرحا في الأسواق ألا يحصل من ذلك مفسدة؟ والله أنا عندي أنها كافة عن أشياء كثيرة، وأن الشباب لو بقوا مسرحين في الأسواق لكان أفسد وأفسد، واتفقنا على هذا؛ على أنها تحتاج إلى توجيه، وأن وجود النوادي ضرر، لكن لا نقول: إنها ضرر محض؛ لأنها كافة عن أشياء كثيرة، فلو أن الشباب مثلا قام يتجول في الأسواق ويتجمعون تجمعات كان يحصل شيء عظيم، نقول: إن هذه ليست بفكرة جيدة، وليست سليمة أبدا، وليس المقصود بها الخير للمسلمين أيضا، أنا أجزم -والله أعلم- أنه ما قصد بها الخير للمسلمين، إنما قصد بها إلهاء الناس وصدهم عن دين الله، لكن مع ذلك لا نقول: إنها شر محض، الكلام الآن الذي هو موضع نقاش هل هي شر محض أو فيها خير، وأقصد بالخير ليس الخير الإيجابي، لكن أقصد الخير السلبي، بمعنى أنها تكف عن مفاسد -في ظني- أكثر.

لو قال قائل: أحدهم يكتب في الجرائد يستدل بقوله تعالى: {قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين} [البقرة: ١١١]، ويذكر أدلة من القرآن على أن الكرة السعودية غير

=

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣).

=

متدهورة، ويقول: من يقول: إن الكرة السعودية متدهورة أو ضعيفة، رغم أن علم السعودية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وكذلك تجمعهم الكرة مع لاعبي الكرة الآخرين، ولو كان مع يهودي؟ !

فهذا ليس فيه شك، ولهذا تجد أن بعضهم يشجع أناسا من النصارى واليهود من هؤلاء اللاعبين، وتجدهم إذا جاءت المباراة في التلفزيون لو أقيمت الصلاة يسمع إقامة الصلاة ولا يقوم للصلاة، هذا صحيح، بل ربما يحبون من يشجعون من هؤلاء أشد من حب الله ورسوله.

لو قال قائل: هل تعتبر كرة القدم صنما، لأنهم قدموا طاعتها على طاعة الله ﷻ؟

صحيح، ينطبق عليها عبد الدينار والدرهم؛ لأنهم إن أعطوا رضوا، وإن لم يعطوا سخطوا، إن نجحوا رضوا، وإلا سخطوا وقالوا: ما هذا الحظ! ما هذا النصيب! ما هذا التقدير؟ ! حتى يقال: إن أحدهم في البدائع مات فرحا لانتصار فريقه الذي يراه، الله أكبر، سبحان الله العظيم!

لو قال قائل: هؤلاء إذا طلبوا من أحد طلاب العلم أن يلقي عندهم محاضرة، هل يذهب إليهم؟

نقول: يذهب إليهم، ولا يكون إلا خيرا، فإذا كانوا هم الذين طلبوه، وهم لم يطلبوه إلا وهم يظنون أنهم سيستفيدون منه.

لو قيل: هم ما طلبوه إلا من أجل أن يبارك هذا العمل؟

أنا أخشى أيضا أن يكون هذا خطيرا، فيجب على الإنسان أن يراعي الذي بينه وبين الله، فإذا طلبوا منك ذلك وقالوا: تعال ذكرنا، وهم مجتمع.

فلو قيل: يوجد في هذه الأماكن منكرات كصور مجسمة وغيرها.

نقول: لا نريد هذا المكان، نذهب إلى مكان آخر، ثم بعد ذلك تنصحهم.

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا} وُعِظُوا {بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} أَيْ الْقُرْآن {لَمْ يَخِرُّوا} يَسْقُطُوا {عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} بَلْ خَرُّوا سَامِعِينَ نَاظِرِينَ مُنْتَفِعِينَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [الفرقان: ٧٣]، أي:"والذين إذا وُعِظُوا بآيات القرآن ودلائل وحدانية الله".

قال الفراء:"يقال: إذا تلي عليهم القرآن".

قال الطبري: يقول:"والذين إذا ذكرهم مذكر بحجج الله".

قال قتادة:"انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله".

قال ابن زيد:"قال: هؤلاء المهاجرون".

قوله تعالى: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان: ٧٣]، أي:"لم يتغافلوا عنها، كأنهم صمٌّ لم يسمعوها، وعُمْيٌ لم يبصروها، بل وَعَتْها قلوبهم، وتفتَّحت لها بصائرهم، فخرُّوا لله ساجدين مطيعين".

قال الطبري: يقول:"لم يكونوا صما لا يسمعون، وعميا لا يبصرونها ولكنهم يقاظ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانا سمعته، وقلوبا وعته".

قال ابن كثير:"بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. فقوله: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} أي: بخلاف الكافر الذي ذكر بآيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى".

قال الفراء:"لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه. فذلك الخرور.
=

=

وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، وأقبل يشتمني. وأنشدني بعض العرب:

لا يقنع الجارية الخضاب... ولا الوشاحان ولا الجلباب

من دون أن تلتقي الأركاب... ويقعد الهن له لعاب

قال الفراء: يقال لموضع المذاكير: ركب. ويقعد كقولك: يصير".

عن مجاهد، قوله: "{لم يخروا عليها صما وعميانا}، فلا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يفقهون حقا".

قال أسباط:"يقول" صموا عنها وعموا عنها".

عن ابن عون، قال: "قلت للشعبي: رأيت قوما قد سجدوا ولم أعلم ما سجدوا منه أسجد، قال: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا}".

قال الحسن:"كم من رجل يقرأه ويخر عليها أصم أعمى".

قال ابن زيد: هذا مثل ضربه الله لهم، لم يدعوها إلى غيرها، وقرأ قول الله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}... الآية".

قال العثيمين: قوله: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم} لم يبين من المذكر، ليشمل كل مذكر، وليبين أن قبولهم للتذكير ليس من أجل شخص المذكر؛ لأن من الناس من لا يقبل الحق إلا من شخص معين، وإذا جاءه من شخص آخر لم يقبله، مثلما فعل أهل الكتاب وغيرهم بالنبي ﷺ، فلا يقبلون الحق إلا من طائفة معينة أو شخص معين {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك} [البقرة: ١٤٥]، فهنا قال: {إذا ذكروا} ولم يبين المذكر إشارة إلى أنهم إنما يقبلون الحق لأنه حق، لا من أجل من قال به، فهم لا يقبلون التذكير لأجل شخص المذكر، أو يردونه من أجل شخص المذكر، وإنما يقبلونه لأنه تذكير، وهذه هي الفائدة في حذف الفاعل.

قال المصنف: [{والذين إذا ذكروا} وعظوا {بآيات ربهم} أي القرآن].

=

=

قوله: {ذكروا بآيات ربهم} هل المراد (ذكروا بها) أي أنها جعلت وسيلة للذكرى أو التذكير، أو (ذكروا بها) أي بما حكمت به ليعملوا به؟ شاملة للجميع، يعني سواء ذكروا تذكيرا بواسطة الآيات بأن قرئت عليهم ليذكروا، أو ذكروا بها أي قيل لهم: اذكروا أحكام الله واعملوا بها، فهو شامل للأمرين.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بآيات ربهم} أي القرآن] الصواب العموم؛ القرآن وغير القرآن، وأنه أيضا أعم من جهة كون الآيات كونية أو شرعية، فنحن نقول: بالقرآن وغيره من الكتب السابقة، ونقول أيضا: بالقرآن والكتب أو بالآيات الكونية؛ فإن الآيات الكونية مذكرة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام في الكسوف: "يخوف الله بهما عباده"، فالآيات الكونية مخوفة ومذكرة بالله ﷻ؛ ولهذا دائما يحث الله ﷻ على النظر في هذه الآيات الكونية؛ لما فيها من الدلالة على الخالق، وعلى ما تشتمل عليه من صفاته من الحكمة والرحمة وغير ذلك، فالآن عندنا عمومان في التذكير بالآيات:

العموم الأول: أنها تشمل الآيات الكونية والشرعية.

العموم الثاني: أنها تشمل القرآن وغير القرآن من الكتب السابقة؛ لأن المراد بقوله: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض} ليس خاصا بعباد الرحمن من هذه الأمة، بل هو عام لكل عباد الرحمن من كل أمة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لم يخروا} يسقطوا {عليها صما وعميانا} بل خروا سامعين ناظرين منتفعين].

قوله: {صما} جمع أصم، وهو الذي لم يسمع، {وعميانا} جمع أعمى، وهو الذي لم ير، وإنما قيده بهاتين الحاستين لأنهما الوسيلة إلى وصول الشيء إلى القلب؛ إذ الأشياء إما مرئية فوسيلتها النظر، وإما مسموعة فوسيلتها السمع، فنفى أن يكونوا صما، ونفى أن يكونوا عميانا.

=

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤).

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا} بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَاد {قُرَّةَ أَعْيُنٍ} لَنَا بِأَنْ نَرَاهُمْ مُطِيعِينَ لَك {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} فِي الخير[1].

=

وقوله: {لم يخروا} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لم يسقطوا] وإنما يقبلون عليها إقبال سامع مبصر، لا أنهم يسقطون عليها على هذا الوجه.

فإذا قال قائل: هذه الصفة سلبية، والصفات الثبوتية أبلغ في الثناء، فلماذا لم يقل: إذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها مبصرين سامعين؟

نقول: حتى إذا قلنا: إن هذا النفي يتضمن إثباتا، والنفي -كما تقدم- لا يكون مدحا إلا إذا تضمن إثباتا، لكننا نقول: لماذا لم يثبت أصلا فلا يرتفع الإشكال؟ إنما يقال: إنه تعريض بهؤلاء الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صما وعميانا، فهم على نقيضهم، لكن نقول: لماذا لم يقل: خروا عليها مبصرين سامعين؟ من أجل السبب الذي ذكرت، ومن المعروف أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في مجادلة المنكرين لما جاء به الرسول ﷺ، وهم إذا كانوا منكرين يخرون على الآيات صما وعميانا، فهذا -والله أعلم- وجه المناسبة في العدول عن ذكر الصفة الثبوتية إلى ذكر الصفة السلبية، ولهذا قال المصنف: [بل خروا سامعين ناظرين منتفعين].

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} [الفرقان: ٧٤]، أي:"والذين يسألون الله تعالى قائلين: ربنا هب لنا مِن أزواجنا وذريَّاتنا ما تَقَرُّ به أعيننا، وفيه أنسنا وسرورنا".

قال الطبري: يقول:"والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقر به أعيننا من أن تريناهم يعملون بطاعتك".

=

=

قال ابن كثير:"يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له".

قال ابن عباس:"يعنون: من يعمل لك بالطاعة فتقر بهم أعيننا في الدنيا والآخرة".

عن حزم، قال: "سمعت كثيرا سأل الحسن، قال: يا أبا سعيد، قول الله: {هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين}، في الدنيا والآخرة؟ قال: لا بل في الدنيا، قال: وما ذاك؟ قال: المؤمن يرى زوجته وولده يطيعون الله".

قال سليمان:"وإنما قرة أعينهم أن يروهم يعملون بطاعة الله".

قال ابن جريج:"يعبدونك يحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر".

قال ابن زيد:"يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام".

عن جبير بن نفير، قال: "جلسنا إلى المقداد بن الأسود، فقال: لقد بعث رسول الله ﷺ على أشد حالة بعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى ولده ووالده وأخاه كافرا، وقد فتح الله قفل قلبه بالإسلام، فيعلم أنه إن مات دخل النار، فلا تقر عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها للتي قال الله: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} ... الآية".

قوله تعالى: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، أي:"واجعلنا قدوة يُقتدى بنا في الخير".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{للمتقين}، يعنى: الذين يتقون الشرك".

وفي قوله تعالى: {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: ٧٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أمثالا، قاله عكرمة.

الثاني: رضًا، قاله جعفر الصادق.

=

=

عن القاسم بن الأرقم قال: "قلت لجعفر بن محمد: يقول الرجل في الصلاة: اللهم اجعلني للمتقين إماما. قال: نعم وتدري ما ذاك. قال: قلت: لا. قال: يقول اللهم اجعلني في المسلمين رضيا، وإذا قلت صدقوني وقبلوا ذاك مني".

الثالث: قدوة في الحلال والحرام. قاله السدي.

قال أبو حفص الأبار: "قلت للسدي رأيتك في المنام كأنك تؤم الناس قال: فقال: إن قوله: واجعلنا للمتقين إماما ليس أن يؤم الرجل الناس، إنما قالوا: اجعلنا أئمة لهم في الحلال والحرام يقتدون بنا فيه".

الرابع: أئمة هدى يُهْتدى بنا، قاله ابن عباس، وأبو صالح، وعبد الله بن شوذب.

قال ابن عباس:"يقول: أئمة يقتدى بنا". وفي رواية:"أئمة التقوى ولأهله يقتدى بنا".

قال ابن زيد: "كما قال لإبراهيم: {إني جاعلك للناس إماما}".

قال ابن كثير:"فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»".

الخامس: نأتم بمن قبلنا حتى يأتم بنا من بعدنا، قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومكحول.

قال مجاهد:"أئمة نقتدي بمن قبلنا، ونكون أئمة لمن بعدنا".

قال مجاهد:"اجعلنا مؤتمين بهم، مقتدين بهم".

قال مكحول:"أئمة في التقوى حتى نأتم بمن كان قبلنا ويأتم بنا من بعدنا".

قال الطبري:"والصواب قول من قال: معناه: واجعلنا للمتقين الذين يتقون

=

=

معاصيك، ويخافون عقابك إماما يأتمون بنا في الخيرات، لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمة ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماما.

قال الماوردي:"وفي الآية دليل عل أن طلب الرياسة في الدين ندب".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا} بالجمع والإفراد]، {وذرياتنا} جمع، و (ذريتنا) إفراد. ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قرة أعين} لنا بأن نراهم مطيعين لك {واجعلنا للمتقين إماما} في الخير].

بعد أن ذكر الله ﷻ صلاح هؤلاء في أنفسهم، ذكر أنهم أيضا يسعون في إصلاح غيرهم ممن يتصل بهم من الأزواج والذرية، فقال: {والذين يقولون ربنا هب لنا}، وفي هذا دليل واضح على أن دأب المؤمنين دعاء الله، وأما من قال: (علمه بحالي يكفي عن سؤالي) فهذا قول باطل وليس بصحيح؛ لأننا نقول: إن الله وصف الرسل وأتباعهم بأنهم يدعون الله، وهم يعلمون علم اليقين بأن الله يعلم بحالهم، ومن قال مثل هذا القول فإنه يدل على استكباره عن دعاء الله ﷻ وعدم خضوعه لربه، وإلا فمن المعلوم أن الله عالم بحال كل أحد، فلماذا لم تقل: يا رب؟ ولكن هذا -والعياذ بالله- من الطرق الشيطانية التي أرسلها الشيطان على متبعيها من الصوفية وغيرهم.

قوله: {والذين يقولون ربنا هب لنا} الهبة بمعنى العطية.

قوله: {من أزواجنا وذرياتنا} هل (من) للتبعيض أو لبيان الجنس؟ لبيان الجنس، فهم لا يقولون: بعض أزواجنا تهب لنا منهم قرة أعين، بل الجميع، ولكنها للبيان، فـ (من) بيانية وليست تبعيضية.

وقوله: {من أزواجنا} جمع زوج، فيشمل الذكر والأنثى، فقوله: {والذين يقولون} الرجل يقوله؛ لأن (الذين) للمذكر، والمرأة تقوله أيضا؛ لأن الخطاب أو

=

=

التحدث بصيغة جمع المذكر يشمل المؤنث أيضا، فالمرأة تقوله والرجل يقوله أيضا.

قوله: {هب لنا من أزواجنا وذرياتنا} قراءتان: "ذريتنا" و {وذرياتنا}، أما على قراءة {وذرياتنا} فالوجه فيها ظاهر لفظا ومعنى، أما لفظا فلمناسبة الجمع قبلها: {من أزواجنا وذرياتنا}، وأما معنى فلأنه أشمل، فشموله ظاهر من أجل الجمع، وأما "ذريتنا" فإنها لا تتلاقى مع ما قبلها من حيث الصيغة؛ لأنها مفردة، لكنها تلاقيها من حيث المعنى؛ لأنها مفرد مضاف، والمفرد المضاف للعموم، ويدل على أن المفرد المضاف للعموم من القرآن قوله سبحانه وتعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [النحل: ١٨]، يقينا أن المراد بالنعمة هنا الجمع؛ لأنه قال: {وإن تعدوا} والنعمة الواحدة أولا: لا تعد، والشيء الثاني: تحصى، والله يقول: {لا تحصوها} فهذا مثال واضح جدا على أن المفرد المضاف يكون للعموم والشمول، إذن (ذريتنا) على قراءة الإفراد يلاقي ما قبله من حيث المعنى؛ لأنه يشمل جميع الذرية.

ومن المراد بالذرية؟

المراد بالذرية الأولاد؛ ذكورهم وإناثهم، وأولاد الأبناء دون أولاد البنات، فإن أولاد البنات ليسوا من الذرية لغة ولا شرعا عند كثير من الفقهاء، وقيل: بل أولاد البنات من الذرية؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال في إبراهيم: {ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس} [الأنعام: ٨٤ - ٨٥]، وعيسى ولد بنت وليس ولد ابن، فجعله الله من الذرية، فدل هذا على أن أولاد البنات من الذرية، ولكننا نقول: ليس في الآية دلالة؛ لأن عيسى عليه الصلاة والسلام أمه أبوه، يعني ليس له نسب من قبل الأبوة، منقطع؛ ولهذا المرأة الملاعنة -أو الملاعنة- إذا نفى زوجها

=

=

ولدها منه صارت هي أما أبا، فالصواب أن الذرية لا يدخل فيها أولاد البنات، هذا من حيث ناحية اللغة والشرع.

أما من حيث الوقف والهبة، وما أشبه ذلك مما يتصرف فيه الإنسان بنفسه، وله الحرية فيه، فهذا حسب ما ينص عليه، لو قال مثلا: هذا وقف على ذريتي الذكور والإناث، ومن مات منهم عن ولد فنصيبه لولده، يكون هذا للجميع.

وكذلك لو قال: هذا وقف على ذريتي ومن تفرع منهم، وليس له إلا بنات، فيدخل أولاد البنات بلا شك، أو قال مثلا: على ذريتي، وأولاد البنات ينزلون منزلة أمهاتهم، فكذلك إذا نص على الشيء أو دلت القرينة عليه دخل أولاد البنات، لكن هذا الدخول بحسب ما تقتضيه الصيغة عرفا أو نطقا، لا بحسب الشرع واللغة العربية.

قوله: {قرة أعين} ما معنى قرة العين، قرة العين هل معناها الاستقرار، يعني أنها مأخوذة من الاستقرار، أو مأخوذة من القر، وهو البرد؛ لأنهم يقولون: إن دموع العين الحزينة حارة، والعين القريرة باردة؟

هذا هو الأقرب، وليس من الاستقرار، وليس المعنى أن الإنسان إذا فرح قرت عينه، وإذا حزن اضطربت وتحركت، ليس الأمر كذلك، لكنها من القر الذي هو البرودة؛ لأن الإنسان إذا حزن حميت عينه، ولهذا يقال: دموع الحزين حارة، فالمعنى السرور والاطمئنان، وما أشبه ذلك، وكني بالعين لأنها تتأثر.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن نراهم مطيعين لك] هذا في الحقيقة من جملة ما تقر به عين المؤمن، أن يرى أزواجه وذرياته مطيعين لله، والغريب أن الإنسان المسلم إذا رأى أزواجه وذرياته مطيعين لله تقر عينه وإن كان هو فاسقا، الغريب أن الوالد يفرح أن ولده يصير مطيعا لله مجتنبا للمعاصي، وهو فاسق، ويحب أن ولده يصلي مع الجماعة، ولو كان هو لا يصلي، وكذلك يحب أن ولده لا يشرب

=

=

الدخان، ولو كان هو يشرب الدخان؛ لأن المسلم مجبول على محبة طاعة الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهؤلاء الذين يقولون: {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين} يعني بأن نراهم مطيعين لك، هذا واحد. والصواب أيضا (ولنا)؛ لأن الإنسان أيضا إذا كان ولده وزوجته موافقين لطاعته تقر عينه، هذا إذا أضيفت إلى طاعة الله، لكن إذا كانوا مطيعين لله وعاصين له تقر عينه من وجه، إذا ذكر طاعتهم لله وقيامهم بطاعة الله رضي وفرح، وإذا رآهم عاصين له فإن هذا يسوءه، كأن يقول للولد: اجلس في القهوة وانتظر الرجال، ولكنه يخرج، ويقول للمرأة: أصلحي الطعام، ولكنها لا تصلحه، فلا شك أن هذا الشيء يسوءه، ولا تقر عينه به، مع أن هذا الأمر معصية لله.

يعني لو شئنا لقلنا: إن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن نراهم مطيعين لك] يشمل حتى طاعتهم لأبيهم وطاعة المرأة لزوجها، يشمل هذا وهذا، وكذلك قيام الرجل بما يجب لزوجته يدخل في ذلك، فلو شئنا أن نقول هذا لقلناه، لكنه خلاف ظاهر الكلام، فالصواب أن نراهم مطيعين لك قائمين بما يجب عليهم لنا؛ لأن بذلك يتم قرار العين.

قال سبحانه وتعالى: {واجعلنا للمتقين إماما}: {إماما} يعني قدوة، والإمام هو القدوة المتبع.

وقوله: {للمتقين} سبق الكلام عن التقوى عدة مرات، وأن المراد بالتقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك بفعل الأوامر واجتناب النواهي، ومعنى كونه للمتقين إماما أي قدوة، لاتصافهم بالتقوى، واتصافهم بالعلم؛ لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان قدوة إلا إذا علم فيه العلم والتقوى، فإذا لم يكن عالما لم يثق الناس به من حيث العلم، فالجاهل لا يقتدون به، وإذا كان عالما لكن عنده انحراف قولي، أو عملي، أو اعتقادي، فإنه أيضا لا يكون قدوة للمتقين، لا لعدم علمه، ولكن

=

=

لعدم نصحه.

فهذا الدعاء {واجعلنا للمتقين إماما} يتضمن ثلاثة أمور: العلم والتقوى والتأثير؛ لأن من لم يكن عالما لم يكن قدوة، ومن لم يكن متقيا لم يكن قدوة، ومن لم يكن مؤثرا لم يكن قدوة أيضا، والتأثير بالقول والفعل له دور كبير، تجد مثلا رجلين متقاربين في العلم لكن أحدهما يصرف الله القلوب إليه فيتخذونه قدوة، والآخر لا يحصل له هذا الأمر، فلهذا نقول: نزيد على العلم والتقوى التأثير، والتأثير كما هو معروف يكون سببه قوة البيان والفصاحة، إذا كان التأثير بالقول، ويكون سببه أيضا الاستقامة وحسن السلوك، إذا كان تأثيرا بالفعل. وعلى كل حال فلا تتم الإمامة إلا بهذه الأمور الثلاثة: العلم والتقوى والتأثير بالقول أو بالفعل.

وفي الآية إشكال لفظي، وهو قوله: {واجعلنا للمتقين إماما} لأن (اجعلنا) فعل ينصب مفعولين، أحدهما مبتدأ والثاني الخبر، ومن شروط المبتدأ والخبر أن يكونا متطابقين إفرادا وتثنية وجمعا، هنا المبتدأ جمع، أي في قوله: (واجعلنا) فـ (نا) جمع {للمتقين إماما} (إماما) هذا الخبر، وهو المفعول الثاني، وهو مفرد، فيبقى إشكال وهو عدم مطابقة الخبر للمبتدأ، والمطابقة أن يقال: واجعلنا للمتقين أئمة، فما هو الجواب عن هذا؟

بعضهم قال: إن (إماما) لفظ صالح للمفرد وغير، مثل فلك وجنب وأشياء كثيرة من هذا النوع، وعلى هذا لا إشكال لأن (إماما) بمعنى أئمة، صالحة للجمع.

ومنهم من قال: إن (نا) في قوله: {واجعلنا للمتقين إماما} نائبة عن كل واحد، ليس عن المجموع، يعني اجعل كل واحد منا إماما، يعني كل واحد يدعو بمفرده، فعلى هذا لا إشكال أيضا إذا جعلنا الضمير في (اجعلنا) ليس عائدا للمجموع، إنما عائد لكل فرد من الجميع، فلا إشكال في المسألة، وهذا أقرب؛ لأن كل واحد من

=

=

المؤمنين لا يسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل المجموع أئمة، هو يريد أن يجعل كل واحد إماما.

وفي هذا دليل على فضيلة الإمامة في الدين، ومنها إمامة المساجد، فإن الإمام في المسجد إمام للمتقين؛ لأن الذين يأتون للصلاة متقون إن شاء الله، فهو إمام لهم، فيدل ذلك على فضيلة تولي الإمامة في المساجد، وأمر ذلك معلوم، يعني فضل الإمامة في المساجد معلوم، ولو لم يكن منها إلا أن الإنسان يكون قدوة، وأن الإمامة تعينه على أداء الصلاة، فالإمام لا تفوته الصلاة كل يوم، وغيره تفوته أو يفوته بعضها، كذلك الإمام إذا تكلم يسمع له أكثر، وكم من إنسان ما برز وظهر إلا بسبب إمامته، لاسيما إذا تولى الخطابة.

المهم أن إمامة المساجد ينفر الناس منها مع الأسف، الآن تجد حتى بعض طلبة العلم لا يمكن أن يتولوا إمامة مسجد، حتى مع الضرورة إلى ذلك، وهذا يتيح الفرصة لمن هم دونهم في العلم والاستقامة وحسن التوجيه والإرشاد والقدوة أن يتولوا إمامة المساجد، حتى إن منهم من يخرج على ما اعتاده أهل البلد، مثل أن يجهر بالبسملة ويقنت في صلاة الفجر، وهذا وإن كان جائزا عند بعض أهل العلم أو مستحبا، لكن السنة على خلافه، والسنة أولى، لاسيما إذا كان الإنسان في بلد لا يفعلون هذا، لكن أولئك يرون أنهم على حق، وأن الإنسان يجب أن يتمسك بالحق مهما كان الأمر، وهم معذورون؛ لأنهم مجتهدون، ولكننا نأسف لطلبة العلم أن يفسحوا المجال لمثل هؤلاء، فالمستحب المؤكد الذي ينبغي أن يتولوا هم هذه الإمامة؛ لينتفعوا وينفعوا غيرهم ويسدوا الفراغ الذي ربما يشغله من لا يوثق في دينه وعمله.

لو قال قائل: لو أن الأوقاف تقوم بحملة توعية وإرشاد للناس في فضل وأهمية الإمامة لأجل ألا ينفر طلاب العلم من الإمامة؛ لأن الأشخاص الذين يرغبون في

=

=

الإمامة يأتيهم مثلا آباؤهم أو أقاربهم ويقولون لهم: كيف تتحمل الجماعة يوم القيامة؟ !

نقول: صحيح، بعض الناس يظنون أن الإمام مسؤول عن جماعته، ولكنه ليس مسؤولا أبدا، هو مسؤول عن صلاته، صحيح أن عليه مسؤولية من جهة إتمام الصلاة، يعني مثلا إذا صليت وحدي ممكن أن أقتصر على الواجبات فقط، لكن إذا كنت إماما لغيري لا يجوز أن أقتصر على الواجبات، يجب أن آتي بالصلاة كاملة، وهذه مسألة أيضا يجب أن يلاحظها الأئمة؛ لأن بعض الناس يقول: ما دام أني إمام أنا سآتي بأدنى الواجب، نقول: نعم، لو كنت تصلي وحدك فلا حرج عليك أن تقتصر على أدنى الواجب، ولا حرج عليك أن تطول ما شئت كما قال الرسول ﷺ لكن إذا كنت إماما فأنت الآن في ولاية، والولي على الشيء يجب عليه أن يفعل ما هو أحسن، قال سبحانه وتعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن} [الأنعام: ١٥٢].

فما دام أنك ولي يجب عليك أن تفعل في صلاتك أكمل ما يكون، فلا تقتصر على الواجب. والفقهاء رحمهم الله يقولون: يكره سرعة تمنع المأموم فعل ما يسن، وتحرم السرعة التي تمنع المأموم فعل ما يجب. هذا صحيح، لكن أنا عندي أن السرعة التي تمنع المأموم فعل ما يسن ليست مكروهة فقط بل حرام؛ لأنك الآن ولي، ويجب على الولي أن يفعل ما هو الأصلح لمن ولي عليه، ولا شك أن الأصلح هو اتباع السنة مثلما قلنا في الأمور التي يخير فيها الإنسان، فالأمور التي يخير فيها الإنسان إن كانت من أجل ما يتعلق بنفسه فالتخيير الذي يشتهي يفعله، كالتخيير في خصال الكفارة مثلا إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، وإذا كان التخيير فيما يتعلق بمصلحة الغير فالتخيير تخيير مصلحة.

لو قال قائل: هل على الإمام مسؤولية من جهة الذين لا يصلون مع الجماعة؟

=

=

الإمام ليس عليه مسؤولية في هذا إلا مثل ما على غيره، كل إنسان رأى منكرا فليغيره، ولا تزيد مسؤوليته أبدا، فهو مثل غيره، لو كان في المسجد إنسان وجيه كلمته مسموعة صار عليه من السلطة أكثر من الإمام، نحن نقول: هو مثل غيره بحسب الحال، فالإنسان الذي يقدر أن يغير بيده يغير بيده، والذي لا يقدر يغير بلسانه، والذي لا يقدر يغير بقلبه.

لو قال قائل: هل واجب على الإمام قيامه بالعدد؟

قلنا: لا يجب عليه العدد أبدا.

ولو قيل: هذا من التعاون.

نقول: كل الناس يريدون أن يتعاونوا على هذا الأمر، حتى لو فرض أن الرجل قال: إن كنت إماما ألزمت نفسي بهذا، فهل هذا من الخير أو من الشر؟ الحمد لله إن كان من الخير فليكن مما يدعو إلى الإمامة ويشجع عليها، والحقيقة أن الله ﷻ جعل للأشياء شروطا {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} [العنكبوت: ٦٩]، لا يهدى الإنسان سبيله إلا بعد أن يجاهد فيه، لكن لا يمكن أن تصل إلى شيء به السرور والأنس والحبور على جناح الريح! فلا بد من شوك ومن حصا ومن كل شيء: "حفت الجنة بالمكاره".

لو قال قائل: الآن توجد للإمامة مرتبات وعدم قيامه بالعدد، فقط يركع الركعات صار كأنه من الجماعة، فما دام ما شع النور وصار المسجد مدرسة، فما فائدة الإمام؟

ليس بلازم، لكن لا يوجد شك أنه من الكمال أن يكون الإمام عالما أو طالب علم يستطيع أن يتكلم، لكن إذا لم يكن.

أنا أقول: إنه يجب أن نسد الفراغ عن غيرنا؛ لأنهم إذا كثر الأجانب عندنا وصارت مساجدنا كلها أئمة أجانب فالإمام يؤثر، ولولا أن الناس عندهم تمسك وعدم ثقة

=

=

بالأجانب وعندهم ثقة كبيرة في المواطنين لكان كل الذين يصلون وراء هؤلاء الأجانب يجهرون بالبسملة ويقنتون في الفجر، وهكذا، لكن الحمد لله أنهم إلى الان ما صار لهم قبول في البلد، وهذه من نعمة الله، وإلا كانوا يؤثرون تأثيرا بالغا، فالإمام لا شك أنه يؤثر في من خلفه، نحن نقول: يجب على المواطنين عندنا أن يسدوا هذا الفراغ لئلا يشغله من لا يوثق به، وبعضهم يدخنون، لكن الدخان أهون من العقيدة؛ لأن المشكلة في العقيدة، الآن المهم هو العقيدة.

لو قال قائل: الأوقاف لها لوائح ويجب على الإمام كذا وكذا، فصارت الإمامة وظيفة؟ هي وظيفة، حتى الفقهاء يسمونها وظائف، وإذا قلنا: إنه يجب على الإمام كذا بمقتضى الإمامة، هل هذا يمنع أيضا لأنك أنت إذا ما قمت بهذا قام بها الأجنبي.

لو قيل: الأجنبي يرشد الناس وسيقول كلمة خير؟

قلنا: ما الذي يدريك أنهم يقولون كلمة خير.

لو قيل: هذا واضح.

نقول: قبل أن يتكلم وهو غير معروف لك ليس بواضح.

ثم أيضا هذا الإمام نفسه قد لا يكون عنده إدراك، فهذا الذي يقول كلمة خير يمكن أن يأتي بحديث موضوع؛ كقولهم: الذي يترك الصلاة له خمسة عشرة خصلة وهو حديث موضوع، ما الذي يدريك، واتقاء الشر قبل الوقوع فيه أحسن من علاجه بعدما يقع.

لو قيل: الأصل الإباحة، والرسول ﷺ لم يمنع أحدا؟

أولا ما أظن أن أحدا يتكلم والرسول ﷺ حاضر، هذه واحدة، وكذلك أيضا ما عهدنا أن أحدا يتكلم مع وجود الأئمة، والشيء الثاني نحن لا نقول: إن الحق يجب أن يمنع لكن نقول: من يقول: إن هؤلاء يريدون الحق؟ نجد كثيرا يتكلمون

=

=

وإذا انتهوا قالوا: أعطونا. فهؤلاء يجب أن يمنعوا ويضربوا أيضا، فهم يصطادون الدنيا بالدين، فبعدما يوجه يقول: والله أنا في الحقيقة مستح منكم وخجلان، لكن علي كذا وكذا. أنت مستح وخجلان فلماذا تعظهم وتقول: أعطوني قروشا؟ ! وهذه حصلت عندنا بالجامع، وتحصل عند غيرنا، ونسمع عن هذا، وهذا الشخص ليس معروفا، وإذا كان معروفا لا يمنع، وأنا لم تأتني تبليغات من هذه، لكن أجزم جزما أنهم يقولون الذي لا تعرفونه، فلا تسمحون لهم.

المهم أن هذا غير مانع من تولي الإمامة، وأنت إذا كنت غير إمام وتولى الإمامة غيرك هل سيسمح للناس أن يتكلموا؟ أبدا، أنا قصدي أن الإمامة فيها مصالح كثيرة بالنسبة للشخص نفسه؛ لأنه يقدر أن يتكلم بما يشاء ويوجه الناس، وعندما لا يكون إماما لو جاء يتكلم قال له الإمام: لا تتكلم، لكن لو صار هو الإمام هل أحد يمنعه ويقول له لا تتكلم؟ إذن ينفع الناس بعلمه، ثم هي أيضا مما يعين على الطاعة، فأنا أشعر بهذا عندما كنت غير إمام، فيفوتني بعض الأحيان بعض الصلاة، وأتكاسل، وأحيانا أذهب إلى هذا المسجد، وأحيانا أذهب إلى هذا المسجد، لكن لما صرت إماما لم تفتني صلاة الجماعة.

لكن لو قيل: الذي جعله منضبطا الإمامة فهل ينقص أجره؟

لا ينقص أبدا؛ لأن كون الإنسان يصير له مشجعات على الخير لا يبطل هذا أجره، ما جعل الله المرغبات التي في الكتاب والسنة على الخير إلا لأجل أن يسعى له.

لكن لو قيل: بعض الناس يأتون الصلاة مبكرين بدون إمامة، لماذا لم تبكر إلا لما صرت إماما؟

المسألة ليست مسألة التبكير، المسألة أنها تعينني ليس على التبكير فقط ولكن على إدراك الجماعة أيضا إذا كنت لا أبكر، فهذا مما يعين، أليس الله جعل للناس من الغنيمة شيئا، وأليس الأئمة والمؤذنون جعل لهم رصدا من بيت المال،

=

=

وأليس النبي عليه الصلاة والسلام يشجع بإعطاء المؤلفة قلوبهم وغير ذلك؟

فكون الإنسان يكون له مشجعات على الخير لا يبطل أجره، فالأصل والكلام على النية، إذا كنت تفعل هذا للدنيا فهذا صحيح يؤثر فيك كثيرا، أما إذا يسر الله لك من أسباب الطاعة ما يعينك عليها؛ فهذا طيب، ولا ينقص الأجر، بل إن الرسول ﷺ يشجع على ما يعين: "تسحروا؛ فإن في السحور بركة" وكان يصب على رأسه الماء وهو صائم من الحر، كل هذا يعينه على الطاعة، فالمشجعات على الخير لا تنقص الخير، الكلام على النية فقط، إن فعلت هذا الشيء للدنيا فيكون صحيحا وحبط عملك.

لو قال قائل: ما حكم من يبكر ويسرع لإدراك الجماعة خجلا من الناس؟

إذا كان يرائي الناس فهذا شيء ثان، حتى الذي ليس بإمام قد يرى أنه يفقد في الجماعة ويحب ألا يفقد، ولو لم يكن إماما، فالكلام على النية، إذا كان يخجل من الناس فهذا لا شك أنه ينقص الأجر، لكن إذا كان يقول: أنا أسرع لأقوم بالواجب علي ولا أربك الناس، مرة أتقدم ومرة أتأخر، فهذا طيب، فهذا أسرع لإحسان عمله.

لو قال قائل: بعض الأئمة عوام، ولا يستطيعون أن يتكلموا، مع أنه يصلي خلفهم طلاب علم، ولا يمكن أن يتركوا الإمامة، فيوجد أربعة شباب من طلاب العلم يصلون خلف إمام عامي؟

نقول: نحن نريد أن يأتوا هؤلاء عندنا، وإن كان تلاميذنا هذه السنة أحسن ونفع بعضهم في التراويح، وقاموا ببعض الواجب، لكن نحتاج المزيد، وأما هؤلاء الأئمة من صلى بهم إمام لا يمكن أن نقول له: تأخر لأن اختيارنا الأولى عند ابتداء الإمامة، فإذا وجد إمام لا يمكن أن نعزله إلا بسبب شرعي، ولن يرضى، ولو كان متطوعا، لكن يجوز عزله إذا رضي، فليس هناك مانع، لاسيما إذا كان الذي

=

=

سيتولى الإمامة خيرا منه، فإذا كان الذي سيتولى خيرا منه فهذا طيب، لكن الإمام الأول هل يجوز أن يأخذ المرتب؟ نعم؛ لأن هذا تنازل له؛ لأن المرتب للثاني، والثاني تنازل عنه، وهذه وقعت حسب ما سمعت، مؤذن الجامع الكبير في الرياض ابن ماجد كان يؤذن في مسجد في أحد الجهات، ولما عمر هذا المسجد الجديد الكبير طلبوا منه أن يكون هو المؤذن، لكن إمامه الأول لم يكن راضيا بذلك، فجعلوا له المرتب والوظائف التي للمسجد وهذا جعلوا له مرتبا جديدا.

لو قال قائل: بعض الأئمة عنده ظروف في البيت مثلا، كأن يكون كبيرا في السن أو شيئا من هذا القبيل، يقول: أنا أريد أن أصلي أوقاتي التي أستطيع أن أحضر فيها إلى المسجد، ويجعل شخصا آخر من أهل البلد يساعده، هل يجوز هذا؟

لا يوجد مانع إذا قال لشخص: إذا تخلفت فصل.

لو قال قائل: بعضهم يقول: الإمامة ارتباط ولا أستطيع السفر؟

هذا أكثر ما يعتذرون به، يقولون: والله الإمامة تربط وتشغل، وأنا أريد يوما أتمشى هنا ويوما أتمشى هنا؟ أنا أقول: {ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا} [الطلاق: ٤]، كل هذه عقبات الأصل عدمها، فأنت اجزم واحتسب الأجر من الله، وسيساعدك الله ويهيئ الله لك من أمرك يسرا.

لو قال قائل: رجحتم أن الأذان أفضل من الإمامة؟

إذا قلنا: إن الأذان أفضل من الإمامة فليس معنى ذلك أن الإمامة ليس فيها فضل، ثم نقول: جزاك الله خيرا كن مؤذنا وإماما، فإذا كنت حريصا على الخير فكن مؤذنا وكن إماما.

لو قال قائل: ما معنى حديث: "الإمام ضامن"؟

حديث: "الإمام ضامن" الحديث فيه مقال، لكن إذا صح فالمعنى أن الإمام مسؤول عمن وراءه، يعني ضامنا لهم، فيجب أن يكون في صلاته مثلما قلنا قبل

=

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥).

{أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَة} الدَّرَجَة الْعُلْيَا فِي الْجَنَّة {بِمَا صَبَرُوا} عَلَى طَاعَة الله {وَيُلَقَّوْنَ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف مَعَ فَتْح الْيَاء {فِيهَا} فِي الْغُرْفَة {تَحِيَّة وَسَلَامًا} مِنْ الْمَلَائِكَة[1].

=

قليل: أن يأتي بها على الوجه الأكمل إذا صلى بهم، أما ما وراء ذلك فليس عليه شيء، فلو صلى واحد محدثا فالإمام ليس عليه شيء.

لو قال قائل: هل الأحسن أخذ المرتب أم عدم أخذه، خاصة أن الإمام غير محتاج، لكن جماعة المسجد قالوا: لا بد أن تأخذه حتى لا ينقطع عن المسجد؟

نرى أن الأحسن أن يأخذ المرتب، وكذلك الوظائف التي على المسجد، فهو على خير، يأخذه ما دامت نيته أصلا أنه ما جاء إلا لله، أليس الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه يأخذون من الغنائم، وهل يوجد أحد أخلص منهم؟ ! لا، لم يقولوا: نحن لن نأخذ من الغنائم، هذا شيء جاء من بيت المال "إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه".

وإذا شئت فخذه واصرفه في شيء نافع لك، يعني حقيقة الأمر مثلما قالوا: إنك لو لم تأخذ أنت يتعطل المسجد، وإذا جاء إمام جديد بعدك يحتاج إلى معاملة جديدة، وكذلك أيضا الوظائف، بعض الناس يقول: والله أنا لن أطالب الناس، أقول: أعطوني حقي، مثل بعض الصبر التي تكون للإمام أو المؤذن، نقول: هذا باختيارك، يعني كونك تأخذ أو لا تأخذ هذا شيء ثان، لكن نظرا لأنك إذا تركته وتناساه هؤلاء ذهب ليس عليك فقط؛ لأنك أنت تقول: لا أريده، بل يذهب على غيرك أيضا؛ لأن الإمام في الحقيقة وأيضا المؤذن كلاهما ليس مستقلا بما يعطى من كل وجه.

(١) قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} [الفرقان: ٧٦]، أي:"أولئك

=

=

الذين اتصفوا بالصفات السابقة من عباد الرحمن، يثابون أعلى منازل الجنة؛ برحمة الله وبسبب صبرهم على الطاعات".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة - قال بعد ذلك كله: {أُوْلَئِك} أي: المتصفون بهذه {يُجْزَوْن} أي: يوم القيامة {الْغُرْفَةَ} وهي الجنة، {بِمَا صَبَرُوا} أي: على القيام بذلك".

قال الطبري:"هؤلاء الذين وصفت صفتهم من عبادي، وذلك من ابتداء قوله: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا} ... إلى قوله: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا} ... الآية، يثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا {الغرفة} وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة، بصبرهم على هذه الأفعال، ومقاساة شدتها".

عن سعيد بن جبير، " {أولئك}، يعني: الذين في هؤلاء الآيات. {يجزون}، يعنى: في الآخرة، {الغرفة} الجنة، {بما صبروا على أمر ربهم}".

عن أبي جعفر، قوله: "{أولئك يجزون الغرفة بما صبروا}، على الفقر في الدنيا".

عن الضحاك، وأبي جعفر محمد بن علي، والسدي، قالوا:"{الغرفة} الجنة".

قوله تعالى: {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} [الفرقان: ٧٦]، أي:"وسَيُلَقَّوْن في الجنة التحية والتسليم من الملائكة، والحياة الطيبة والسلامة مِنَ الآفات".

قال الطبري:"تتلقاهم الملائكة فيها بالتحية".

قال ابن كثير:"يُبْتَدرُون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار".

عن سعيد بن جبير، " {ويلقون فيها}، يعنى تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام".

=

=

قال مجاهد:"تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم في الدنيا يوم القيامة".

عن عاصم قال: "لقي ابن سيرين رجل فقال: حياك الله. فقال: إن أفضل التحية تحية أهل الجنة السلام".

قال العثيمين: قوله: {أولئك يجزون الغرفة بما صبروا} جزاء عباد الرحمن أنهم يجزون الغرفة بما صبروا. وأنواع الصبر: صبر على أحكام الله القدرية، وصبر على أحكامه الشرعية، والصبر على الأحكام الشرعية ينقسم إلى قسمين؛ صبر على ما حرم الله، وصبر على ما أمر الله به.

قوله: {يجزون الغرفة بما صبروا} (الباء) للسببية، و (ما) مصدرية، أي بصبرهم، إذا قلنا: إن الباء للسببية فكيف نجمع بينها وبين قوله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧]؟

الجواب: هما متفقان، فقوله: {جزاء بما كانوا يعملون} مثل قوله: {يجزون الغرفة بما صبروا}، فلا تعارض بينهما، فـ (الباء) للسببية في هذا وهذا، لكن نحتاج إلى الجمع بينهما وبين الحديث الصحيح: "لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله"، نقول: إن (الباء) في قوله: "لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله" للعوض، فالمنفي (باء) العوض، يعني لا يمكن أن يكون العمل عوضا، لأنه لو كان عوضا وأراد الله أن يقتص من العامل لكان العمل لا يكافئ نعمة من النعم، وأما الآيات والأحاديث التي تثبت أن العمل يدخل الإنسان به الجنة وينجو به من النار، فهذه للسببية، إذا قلت: بعت عليك ثوبا بدرهم (الباء) هنا معلوم أنها للعوض، ليس بسبب الدرهم، لو كان الدرهم معك ما أعطيتك الثوب، لكن إذا عوضتني به أعطيتك الثوب، فهذا هو الفرق.

قوله: {تحية وسلاما} هل هما مترادفان أو متغايران؟

التحية أعم، فكل سلام تحية، ثم أيضا التحية كما تكون بالقول تكون بالفعل،

=

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦).

{خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} مَوْضِع إقَامَة لَهُمْ وَأُولَئِكَ وَمَا بَعْده خَبَر عِبَاد الرَّحْمَن المبتدأ[1].

=

ولهذا يقال: حياه بالتحف وبطيب المنزل، وما أشبه ذلك.

قوله: {تحية وسلاما} يعني أنهم يلقون بالتحية قولا، وبالسلامة بقاء، يعني يبقون سالمين، وهذه المعاني ثابتة بالنسبة لأهل الجنة، فإنهم يحيون بأنواع التحيات المرضية المفرحة المسرة، وكذلك أيضا يسلمون من كل الآفات، وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تحية وسلاما} من الملائكة]، هذا فيه نقص، فإنه يحيي بعضهم بعضا، ويحييهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكة، لكن كأن المصنف خصصها بقوله تعالى: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم بما صبرتم} [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، لكن هذا ما يعطي التخصيص.

(١) قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [الفرقان: ٧٦]، أي:"خالدين فيها أبدًا مِن غير موت".

قال سعيد بن جبير:"يعنى: لا يموتون".

قال الطبري: يقول:"أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، خالدين في الغرفة، يعني أنهم ماكثون فيها، لابثون إلى غير أمد".

قال ابن كثير:"أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]".

قوله تعالى: {حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: ٧٦]، أي:"حَسُنَتْ مستقرًا يَقِرُّون فيه ومقامًا يقيمون به، لا يبغون عنها تحولا".

قال الطبري: يقول:"حسنت تلك الغرفة قرارا لهم وإقامة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: حسنت منظرا وطابت مَقيلا ومنزلا".

عن سعيد بن جبير:"{حسنت مستقرا}، يعنى: مستقرهم في الجنة. وقوله: {ومقاما}، يعنى: مقام أهل الجنة".

قال العثيمين: قوله: {خالدين} أي ماكثين، وهنا أطلق الخلود وقيده بالأبدية في مواضع متعددة بالنسبة لأهل الجنة، وكذلك بالنسبة للنار ذكر الله تعالى فيها الخلود مطلقا ومقيدا بالأبدية.

قوله: {خالدين فيها} أي في هذه الغرفة، أي ماكثين أبدا، ثم أثنى الله على هذه الغرفة بقوله: {حسنت مستقرا ومقاما}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [موضع إقامة لهم]، فهم ضد أهل النار الذين قالوا فيها: {إنها ساءت مستقرا ومقاما} [الفرقان: ٦٦]، لكن في هذه الآية: {حسنت مستقرا ومقاما} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [موضع إقامة]، وفي قوله سبحانه وتعالى: {ساءت مستقرا ومقاما} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي موضع استقرار وإقامة]، وهذه الآية ينبغي أن تكون مثلها، لكن هل بينهما فرق، أي بين المستقر والمقام؟ المستقر الشيء الثابت، والمقام الذي يقيم فيه الإنسان، سواء استقر أم لم يستقر. فإن قيل: لا حاجة إلى قوله: (ومقاما)؛ لأن الجنة أو النار مستقر دائم {وإن الآخرة هي دار القرار} [غافر: ٣٩]؟ نقول: المستقر باعتبار المكان، والمقام باعتبار ما يحصل لهم من النعيم والسرور والتحية، وغير ذلك، تقول: مقامي فيكم سرور، أو مقامي في هذا المكان حزن، أو ما أشبه ذلك، ويمكن أيضا أن يقال: المقام بالنسبة للزمن، يعني أن الله أثنى عليها مكانا وزمنا، وكوننا نحاول أن يكون بين اللفظين تغاير أولى من الترادف؛ لأننا إذا قلنا بالترادف في هذا وغيره صار في المسألة تكرار، والأصل عدم التكرار، فحاول ما استطعت أن تجعل اللفظين متغايرين إذا أمكن في كل آية، في آيات القرآن وغير القرآن، فحاول في كل كلام فصيح أن تكون الألفاظ متميزا بعضها عن بعض في المعنى؛ لأن الترادف لا

=

قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِأَهْل مَكَّة {مَا} نَافِيَة {يَعْبَأ} يَكْتَرِث {بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} إِيَّاهُ فِي الشَّدَائِد فَيَكْشِفهَا {فَقَدْ} أَيْ فَكَيْفَ يَعْبَأ بِكُمْ وَقَدْ {كَذَّبْتُمْ} الرَّسُول وَالْقُرْآن {فَسَوْفَ يَكُون} الْعَذَاب {لِزَامًا} مُلَازِمًا لَكُمْ فِي الْآخِرَة بَعْد

=

يصار إليه إلا عند الضروة؛ لأنه مجرد تكرار.

قوله: {حسنت مستقرا ومقاما} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وأولئك وما بعده خبر عباد الرحمن المبتدأ]، وعباد الرحمن أولئك يجزون الغرفة هذا بعيد جدا أن الله ﷻ يذكرهم ليبين جزاءهم، وإنما يذكرهم ليبين صفاتهم أولا، ثم يأتي بالجزاء كالخاتمة، فالصواب، بل المتعين، أن تكون {وعباد الرحمن} مبتدأ، وخبره {الذين يمشون على الأرض} وما عطف عليه، وتكون جملة: {أولئك يجزون الغرفة} استئنافية لبيان جزائهم على هذه الأعمال.

بعد أن انتهت هذه الصفات الجليلة لم نأخذ فوائدها، وعمدا فعلنا ذلك؛ لأجل أن نستنبط الفوائد بعد استكمال الصفات؛ لأن الكلام متصل بعضه ببعض، ولكن إذا رأى الطالب أن يمتحن عضلاته العقلية والفكرية بأن يستنبط ما يستفاد من الآيات، ومن الأحكام العملية والعلمية والسلوكية، وصفات الله سبحانه وتعالى، وغير ذلك، ويعد الطالب عدة ورقات: ورقة لما في الآيات من صفات الله مثلا، وورقة لما فيها من الأخلاق، وورقة لما فيها من العمل؛ لأن الآيات فيها عمل وفيها أخلاق، وإذا شاء أن يسير على ترتيب الآيات فلا بأس، لكن ربما تختلف أفهام الناس فيظن هذا من باب السلوك، وذاك يقول: من باب العمليات، إذن نسير على ترتيب الآيات، فهو أسهل بلا شك وأضمن، ويمكن أن يستعين الطالب ببعض الكتب، لكن لا ينقل نقلا، وموضع البحث كما تقدم من قوله: {وعباد الرحمن} إلى قوله: {حسنت مستقرا ومقاما}.

مَا يَحِلّ بِكُـمْ فِي الـدُّنْيَا فَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْم بَدْر سَبْعُونَ وَجَوَاب لَوْلَا دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلهَا[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ} [الفرقان: ٧٧]، أي:"قل لهم يا محمد: لا يكترثُ ولا يحفلُ بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إيّاه في الشدائد".

قال ابن قتيبة:"أي: ما يعبأ بعذابكم ربّي لولا ما تدعونه من دونه من الشريك والولد".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلت إليهم: أي شيء يعدكم، وأي شيء يصنع بكم ربي؟ لولا عبادة من يعبده منكم، وطاعة من يطيعه منكم".

قال ابن كثير:"أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا".

عن عمرو بن شعيب، قوله: "{قل ما يعبؤا بكم ربي}، قال: ما يصنع بكم ربي، {لولا دعاؤكم}: لولا أدعوكم إلى الإسلام فتستجيبون لي".

قال مجاهد:"يقول: ما يفعل بكم ربي، {لولا دعاؤكم}: دعاؤه إياكم لتعبدوه وتطيعوه".

عن ابن عباس قوله: "{لولا دعاؤكم}، يقول: لولا إيمانكم فأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين. ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين".

عن الوليد بن أبي الوليد، قال: بلغني أن تفسير هذه الآية: {قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم}، ما خلقتكم لي بكم حاجة إلا أن تسألون فأغفر وتسألوني فأعطكم".

=

=

قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} [الفرقان: ٧٧]، أي:"فقد كذبتم أيها الكافرون بالرسول والقرآن".

قال ابن كثير:"أي: أيها الكافرون".

عن السدي: "{فقد كذبتم}، يقول: لقريش".

عن سلمان أبي عبد الله، قال: "صليت خلف عبد الله بن الزبير فقرأ: «فقد كذب الكافرون فسوف يكون لزاما»".

قال الضحاك:"كذبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به من عند الله".

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان: ٧٧]، أي:"فسوف يكون العذاب ملازمًا لكم في الآخرة".

قال يحيى:"أخذا بالعذاب".

قال أبو عبيدة:"أي: جزاء وهو الفيصل قال الهذلي:

فإما ينجوا من حتف يوم... فقد لقيا حتوفهما لزاما".

قال ابن قتيبة:"أي يكون العذاب لمن كذّب ودعا من دونه إلها- لازما. ومثله من المضمر الشاعر:

من شاء دلّى النّفس في هوّة... ضنك، ولكن من له بالمضيق

أراد: ولكن من له بالخروج من المضيق؟".

قال ابن كثير أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر".

عن أبي مالك: "{فسوف يكون لزاما}، يوم بدر". وروى، عن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة والضحاك نحو ذلك.

قال مقاتل:"يلزمكم العذاب ببدر، فقتلوا وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وعجل الله- تعالى- بأرواحهم إلى النار فيعرضون عليها طرفي النهار".

=

=

قال السدي:"اللزام القتل الذي أصابهم يوم بدر". وفي رواية:"يقول: عذابا فكان يوم بدر العذاب".

عن محمد بن كعب، قوله: "{لزاما}، قال: موتا".

وعن قتادة: "{فسوف يكون لزاما}، قال: كان الحسن يقول ذلك يوم القيامة".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قل} يا محمد لأهل مكة، {ما} نافية {يعبأ} يكترث {بكم ربي لولا دعاؤكم} إياه في الشدائد فيكشفها، {فقد} أي فكيف يعبأ بكم وقد {كذبتم} الرسول والقرآن {فسوف يكون لزاما}].

قوله: {قل} يا محمد {ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم} يعني ما يكترث بكم، أي بإهلاككم والقضاء عليكم، ليس ذلك مما يثقل عليه، ولا مما يعجز عنه، بل هو قادر عليه، ولكن الذي يمنع هو الدعاء {لولا دعاؤكم} يعني ودعاؤكم هذا يمنع من أخذكم، ولكنه إلى أجل، {فقد كذبتم} وحيئذ يحل بكم العقاب، فقد كذبتم النبي ﷺ وما جاء به، وهذا التكذيب موجب للعقاب، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فسوف يكون} العقاب لكم {لزاما} ملازما لكم في الآخرة بعدما يحل بكم في الدنيا]، معنى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأهلككم، ولم يعبأ بكم؛ لأنكم لا تعجزون الله، ولكن المانع دعاؤكم في الشدائد؛ لأنهم إذا أصيبوا بشدة دعوا الله ﷻ أن يكشفها عنهم {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين} [العنكبوت: ٦٥]، هذا الدعاء مانع مع كفرهم، فعلى هذا يكون الخطاب للكفار، والمعنى كما تقدم: لولا دعاؤهم الله لعاجلهم بالعذاب، ويكون هذا الدعاء إذا نزل بهم العذاب، هذا هو ظاهر الآية، لقوله: {فقد كذبتم}.

وقيل: إن الخطاب للمؤمنين، وإن المراد بالدعاء العبادة، يعني ما يصنع الله بكم لولا عبادتكم، ويكون قوله: {فقد كذبتم} انتقال إلى خطاب آخرين، لكن في هذا تشتيت الضمائر في الواقع، واختلاف السياق بعضه مع بعض، وما دام المعنى

=

=

صحيحا مع وجود التناسق بين الكلامين فهو أولى.

لو قال قائل: هذا الدعاء ليس دليلا على محبتهم لله، بل لحاجتهم؟.

لكن في هذه الحال دعاء مضطر، والله سبحانه يقول: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه} [النمل: ٦٢]، وهذا عام، فدعاء المضطر ودعاء المظلوم يجاب؛ لأن المضطر في تلك الحال يعلم أنه مضطر إلى الله، ويسأله سؤال افتقار، وسؤال حاجة، والله ﷻ أكرم الأكرمين، ما أحد يحتاج إليه ويدعوه، ولو كان كافرا؛ إلا أجابه، فالكافر لو دعا على ظالم يستجاب، ولو كان كافرا.

لو قال قائل: ألا يشكل على هذا قوله تعالى: {إنما يتقبل الله من المتقين} [المائدة: ٢٧]؟

هذا تقبل العمل؛ لأنها في سياق عمل، قرب أحدهما قربانا فتقبل منه، والثاني لم يتقبل، فقال: {إنما يتقبل الله من المتقين}.

لو قيل: والدعاء أيضا عمل، لكن الدعاء سؤال وإلحاح، يعني أن واحدا محتاجا يسألك، والكريم إذا سأله السائل، ولو كان أعدى عدو له، فهو يعطيه؛ لكرمه، ليس لذات الشخص السائل، كما أن المظلوم يجاب ولو كان كافرا، ليس لشخصه، ولكن إقامة للعدل، ولهذا يقبل الدعاء حتى من غير المتقي مثلما ذكرنا، ثم إن الله تمدح فقال: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء} [النمل: ٦٢]، ثم الله بين {فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: ٦٥].

ثم تهددهم الله تعالى بقوله: {فقد كذبتم} يعني فالآن لا ينفعكم الدعاء بعد أن كذبتم، بل يحل بكم العقاب الملازم لكم في الآخرة. يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بعدما يحل بكم في الدنيا]، وعلى هذا التفسير يكون في الآية دليل على عذاب القبر؛ لأنهم إذا لازمهم العذاب من حين يحل بهم إلى الأبد كان ذلك دليلا على عذاب

=

=

القبر، والأدلة على عذاب القبر كثيرة وأصرح من هذا وأبين.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فقتل منهم يوم بدر سبعون]، الذي قتل من أهل مكة يوم بدر سبعون كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وأسر سبعون. وجواب (لولا) في قوله: {لولا دعاؤكم} دل عليه ما قبله، فهذه شرطية، وجوابها ما سبق، المعنى: لولا دعاؤكم ما عبأ الله بكم، ولكن الدعاء يمنع، والله أعلم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى (منها) قوله تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان: ٣)، وفي سورة يس: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) (يس: ٧٤)، للسائل أن يسأل عن ورود اسمه سبحانه مضمرًا في قوله سبحانه: (مِنْ دُونِهِ) في سورة الفرقان ومظهرًا في قوله: (مِنْ دُونِ اللهِ) في سورة يس ما وجه ذلك؟

والجواب عنه: أن آية الفرقان تقدم قبلها اسمه سبحانه مكنيًا عنه جل وتعالى في قوله: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان: ١ - ٢)، فورد اسمه سبحانه مكنيًا عنه ثماني مرات: أولها الموصول (وهو) الذي من قوله: (تَبَارَكَ الَّذِي)، وفاعل نزل المضمر، والضمير في (عَبْدِهِ) والموصول الثاني، والضمير المجرور باللام، والضمير الفاعل في (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)، والضمير في (له) المجرور، والضمير الفاعل في (وخلق)، فلما تكرر اسمه مكنيًا عنه ثماني مرات جرى بعد ذلك في قوله: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ) مضمرًا على حكم ما تقدم، ولو ورد مظهرًا لم يكن ليناسب، وأما الوارد في سورة يس فتقدم قبل الآية قوله تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (يس: ٦٠)، فلم يكن ورود اسم الله تعالى هنا مضمرًا ليناسبه لو قيل: (واتخذوا من دونه لما تقدم قبله ذكر الشيطان وتحذيرهم من عبادته، فجاء

=

سُورَة الشُّعَرَاء[1]

=

كل من الآيتين على ما يجب ويناسب. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٣٧٤).

(١) في وقت نزول السورة، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت بمكة. وهذا قول ابن عباس، وابن الزبير، ويحيى بن سلام.

الثاني: انها مكية غير آيتين فإنهما مدنيتان أحدهما قوله- تعالى-: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ١٩٧]، والأخرى قوله- تعالى-: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: ٢٢٤]. قاله مقاتل.

الثالث: أنها مكية سوى أربع آيات من آخرها نزلت بالمدينة: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها، وهذا قول ابن عباس أيضا، وقتادة، وبه قال الثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والفخر الرازي.

قال القرطبي:"هي مكية في قول الجمهور".

* عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون فى عدّ الكوفىّ والشامىّ. وست فى عدّ الباقين. كلماتها أَلف ومائتان وسبع وسبعون. وحروفها خمسة آلاف وخمْسمائة وثنتان وأَربعون: الآيات المختلف فيها أَربع طسم {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين}.

مجموع فواصل آياتها (مِلْن) على اللام أَربع، آخرهنّ إِسرائيل.

* أسماء السورة.

تسمى «سورة الشعراء» اشتهرت تسميتها باسم «سورة الشعراء»، وكتبت في المصاحف وكتب التفسير، وكتب السنة.

سميت «سورة الشعراء» لما ختمت به من المقارنة بين الشعراء الضالين والشعراء المؤمنين في قوله سبحانه: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} [الشعراء: ٢٢٤]،إلى

=

=

قوله: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} [الشعراء: ٢٢٧]، بقصد الرد على المشركين الذين زعموا أن محمدا ﷺ كان شاعرا، وأن ما جاء به من قبيل الشعر.

وتسمى هذه السورة: «طسم»، وسميت ايضا «طسم الشعراء»، وذلك من باب تسمية السورة بمفتتحها، إذ روي عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه-أنه سئل عن «طسم» الشعراء، فقال:"ليست معي ولكن عليكم ممن اخذها من رسول الله -ﷺ-، عليكم بأبي عبد الله خباب بن الأرث".

وتسمى «سورة الجامعة» وقعت هذه التسمية في تفسير الإمام مالك كما نسبها إليه ابن كثير، والسيوطي، وذكرها الألوسي، والقاسمي.

قال ابن عاشور:"ولم يظهر وصفها بهذا الوصف، ولعلها أول سورة جمعت ذكر أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية".

وقد وردت في احكام القرين لابن العربي بلفظ «الخاضعة»، ولعلها تصحيف لفظ «الجامعة».

وقد ذكرها لها البقاعي اسما آخر، وهي «الظلة»، وقال:"وكذا تسميتها بالظلة إشارة إلى أنه أعدل في بيانه، أو أدل في جميع شأنه، من المقادير التي دلت عليها قصة شعيب عليه السلام بالمكيال والميزان، وأحرق من الظلة لمن يبارزه بالعصيان".

* مقصود السّورة وجُلّ ما اشتملت عليه: ذكر القَسم ببيان آيات القرآن، وتسلية الرّسول عن تأَخُّر المنكِرين عن الإِيمان، وذكر موسى وهارون، ومناظرة فرعون الملعون، وذكر السّحرة، ومكرهم فى الابتداءِ، وإِيمانهم وانقيادهم فى الانتهاءِ، وسَفَرِ موسى ببنى إِسرائيل من مصر، وطلب فرعون إِيَّاهم، وانفلاق البحر، وإِغراق القِبْط، وذكر الجَبَل، وذكر المناجاة، ودعاءُ إِبراهيم الخليل، وذكر استغاثة الكفَّار من عذاب النيران، وقصّة نوح، وذكر الطُّوفان، وتعدّى عاد، وذكر هود، وذكر عقوبة ثمود، وذكر قوم لوط، وخُبْثهم، وقصّة شُعيب، وهلاك أَصحاب

=

=

الأَيْكة، لعبثهم، وتنزيل جبريل على النبىّ بالقرآن العربىّ، وتفصيل حال الأُمم السّالفة الكثيرة، وأَمر الرّسول ﷺ بإِنذار العشيرة، وتواضعه للمؤمنين، وأَخلاقه اللَّينة، وبيان غَوَاية شعراءِ الجاهلية، وأَنَّ العذاب منقلَب الذين يظلمون فى قوله {وَسَيَعْلَمْ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}.

* المتشابهات: قوله: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمان مُحْدَثٍ} سبق فى الأَنبياءِ. {فَسَيَأْتِيهِم} سبق فى الأَنعام، وكذا {أَلَمْ يَرَوْا} وما تعلَّق بقصّة موسى وفرعون سبق فى الأَعراف.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} مذكور فى ثمانية مواضع: أَوّلها فى محمّد ﷺ، وإِن لم يتقدّم ذكرُه صريحًا، فقد تقدّم كناية ووضوحًا، والثانية فى قصّة موسى، ثمَّ إبراهيم، ثم نوح، ثم هود، ثم صالح، ثم لوط، ثم شُعيب.

قوله {أَلاَ تَتَّقُونَ} إِلى قوله: {العَالَمِيْنَ} مذكور فى خمسة مواضع: فى قصّة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشُعيب عليهم السّلام. ثمَّ كرّر {فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ} فى قصّة نوح، وهود، وصالح فصار ثمانية مواضع. وليس فى ذكر النبىّ ﷺ {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}؛ لذكرها فى مواضع. وليس فى قصّة موسى؛ (لأَنَّه ربَّاه فرعون حيث قال: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيْدًا} ولا فى قصة إِبراهيم، لأَن أَباه فى المخاطبين حيث يقول: {إِذْ قَالَ لأَبِيْهِ وَقَوْمِهِ} وهو ربَّاه، فاستحيا موسى) وإبراهيم أَن يقولا: ما أَسأَلكم عليه من أَجر، وإِن كانا منزَّهَيْن من طلب الأَجر.

قوله: فى قصّة إِبراهيم: {مَا تَعْبُدُوْنَ} وفى الصافات {مَاذَا تَعْبُدُوْنَ} لأَنَّ (ما) لمجرّد الاستفهام، فأَجابوا فقالوا: {نَعْبُدُ أَصْنَامًا} و (ماذا) فيه مبالغة، وقد تضمّن فى الصّافَّات معنى التوبيخ، فلمَّا وبَّخهم ولم يجيبوا، زاد فى التوبيخ فقال: {أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين} فجاءَ فى كلّ سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده.

=

مَكِّيَّة إلَّا آيَة ١٩٧ و ٢٢٤ إلَى آخِر السُّورَة فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٢٢٧ آيَة نزلت بعد الواقعة(١).

=

قوله: {الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} زاد (هو) فى الإطعام، والشِّفاءِ؛ لأَنهما ممَّا يدَّعى الإنسان، فيقال: زيد يُطعم، وعمرو يداوى. فأَكد؛ إعلامًا لأَنَّ ذلك منه سبحانه وتعالى لا من غيره. وأَمَّا الخَلْق والموت، والحياة، فلا يدَّعيها مدّع، فأَطلق.

قوله فى قصّة صالح: {مَآ أَنتَ} بغير واو، وفى قصّة شعيب: {وَمَآ أَنتَ} لأَنَّه فى قصّة صالح بَدَل من الأَول، وفى الثانية عطف، وخُصّت الأُولى بالبدل؛ لأَنَّ صالحًا قلَّل فى الخطاب، (فقللوا فى الجواب) وأَكثر شعيب فى الخطاب، فأَكثروا فى الجواب. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٤٤-٣٤٥).

(١) قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [سورة الشعراء [مكية إلا آية ١٩٧ و ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية وآياتها ٢٢٧ آية نزلت بعد الواقعة].

الشعراء: جمع شاعر، وسميت به لأنه ذكر في آخرها، والتسمية للسور منها شيء توقيفي من النبي ﷺ ومنها شيء اجتهادي، فالنبي عليه الصلاة والسلام أحيانا يذكر السورة بعينها، مثلما قال: "اقرءوا الزهراوين؛ البقرة، وسورة آل عمران"، وأحيانا لا يذكرها ولا يبين اسمها، ولكن يجتهد الصحابة في تسميتها.

وتسمية السور أيضا قد تكون واحدة، بمعنى: أن تسمى السورة باسم واحد، وقد يكون للسورة عدة أسماء.

ومن السور ذوات الأسماء العدة سورة الإسراء، فهي تسمى أيضا سورة بني إسرائيل، لكن بعض القوميين أنكروا ذلك، وحجتهم في هذا الإنكار: أنه لا يمكن أن تكون سورة باسم بني إسرائيل، يعني سورة اليهود، فأنكروا هذا الشيء.

وقلنا: إن القوميين أثبتوا أن اليهود قتلوا عيسى بن مريم، وقد قال الله تعالى: {وما

=

=

قتلوه وما صلبوه} [النساء: ١٥٧].

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مكية]، والمكي هو الذي نزل قبل الهجرة على القول الصحيح، يعني: فالمعتبر الزمن لا المكان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلا {والشعراء يتبعهم الغاوون} إلى آخرها]، وهي أربع آيات: {والشعراء يتبعهم الغاوون (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧]، وهذا الإستثناء ليس بمقبول إلا إذا دل الدليل عليه، والدليل عليه تارة يكون بالنقل، وتارة يكون بالمعنى، والمعنى قد يكون واضحا وقد ينازع فيه.

فهنا المصنف استثنى هذه الآيات الأربع بقرينة السياق؛ لأن قوله: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء: ٢٢٧]، قيل: لما نزلت {والشعراء يتبعهم الغاوون} [الشعراء: ٢٢٤]، تأثر لها حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنزل الله تعالى: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} [الشعراء: ٢٢٧]، والإنتصار بعد الظلم كان في المدينة وليس بمكة، ومن ثم قالوا: إن هذه الآيات مدنية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي مائتان وسبع وعشرون آية]، وتقسيم الآيات أيضا توقيفي، حتى النبي عليه الصلاة والسلام ليس له شأن في تقسيم الآيات، فتنزل الآيات من عند الله مقسمة، وأيضا الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر بوضعها في مكانها من السورة، فهي توقيفية أيضا في الترتيب.

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

طسم (١).

{طسم} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[٢].

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) .

{تِلْكَ} أَيْ هَذِهِ الْآيَات {آيَات الْكِتَاب} الْقُرْآن وَالْإِضَافَة بِمَعْنَى مِنْ {الْمُبِين} الْمُظْهِر الْحَقّ مِنْ الْبَاطِل.

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣).

{لَعَلَّك} يَا مُحَمَّد {بَاخِع نَفْسك} قَاتِلهَا غَمًّا مِنْ أَجْل {أَلَّا يَكُونُوا} أَيْ أَهْل مَكَّة {مُؤْمِنِينَ} وَلَعَلَّ هُنَا لِلْإِشْفَاقِ أَيْ أَشْفَقَ عَلَيْهَا بِتَخْفِيفِ هَذَا الْغَمّ.

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤).

{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّل عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاء آيَة فَظَلَّتْ} بِمَعْنَى الْمُضَارِع أَيْ تَظَلّ أَيْ تَدُوم {أَعْنَاقهمْ لَهَا خَاضِعِينَ} فَيُؤْمِنُونَ وَلِمَا وَصَفَتْ الْأَعْنَاق بِالْخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لِأَرْبَابِهَا جُمِعَتْ الصِّفَة مِنْهُ جمع العقلاء.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥).

{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْر} قُرْآن {مِنْ الرَّحْمَن محدث} صفة كاشفة {إلا كانوا عنه معرضين}.

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦).

{فقد كذبوا} به {فسيأتيهم أنباء} عواقب {ما كانوا به يستهزءون}

---

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧).

{أَوَلَمْ يَرَوْا} يَنْظُرُوا {إِلَى الْأَرْض كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا} أَيْ كَثِيرًا {مِنْ كُلّ زَوْج كَرِيم} نوع حسن.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨).

{إِنَّ فِي ذَلِك لَآيَة} دَلَالَة عَلَى كَمَال قُدْرَته تَعَالَى {وَمَا كَانَ أَكْثَرهمْ مُؤْمِنِينَ} فِي عِلْم الله وَكَانَ قَالَ سِيبَوَيْهِ زَائِدَة.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩).

{وَإِنَّ رَبّك لَهُوَ الْعَزِيز} ذُو الْعِزَّة يَنْتَقِم من الكافرين {الرحيم} يرحم المؤمنين[1].

---

(١) قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} [الشعراء: ٢].

هذه آيات القرآن الموضِّح لكل شيء الفاصل بين الهدى والضلال.

قال يحيى:"هذه آيات الكتاب، القرآن. {المبين}: البين".

عن أبي مالك قوله: "{تلك}، يعني: هذه".

عن سعيد بن جبير قوله: "{الكتاب}، يعنى: القرآن". وروى، عن ابن عباس والحسن البصري مثل ذلك.

عن مطر:"{تلك آيات}، قال: الزبور".

عن الحسن:"{تلك آيات الكتاب،} قال: التوراة والزبور".

عن قتادة:"{الر تلك آيات الكتاب}، قال: الكتب التي خلت قبل القرآن. {المبين}، قال: إي والله تبين بركته وهداه ورشده".

قوله تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٣]

لعلك - أيها الرسول - من شدة حرصك على هدايتهم مُهْلِك نفسك؛ لأنهم لم

=

يصدِّقوا بك ولم يعملوا بهديك، فلا تفعل ذلك.

قال الطبري: يقول:"لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به والبخع: هو القتل والإهلاك في كلام العرب؛ ومنه قول ذي الرمة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه... لشيء نحته عن يديه المقادر".

قال ابن كثير:"أي: مهلك {نفسك}، أي: مما تحرص عليهم وتحزن عليهم {أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، وهذه تسلية من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]، وقال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: ٦]".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{لعلك}، يعنى: لكي".

عن مجاهد، قوله: "{لعلك باخع نفسك}، قال: قاتل نفسك". وروى، عن الحسن وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك مثل ذلك.

عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني:"أما {لعلك باخع نفسك}، فيقال: فعلك مخرج نفسك وقاتلها".

قال السدي:"قاتل نفسك حزنا إن لم يؤمنوا".

قال ابن زيد:"لعلك من الحرص على إيمانهم مخرج نفسك من جسدك".

عن نصر بن علي، قال: "سألت الأصمعي، عن حديث النبي ﷺ:أتاكم أهل اليمن، فقال: أفصح فقلت: إن أبا أحمد الزبيري، حدثني، عن إسرائيل، عن أبي يحيى، عن مجاهد: {لعلك باخع نفسك}، قال: قاتل نفسك. قال: هذا الذي قلت لك بلغت بهم النصيحة حتى قتلوا أنفسهم".

قال ابن عباس:"فإن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتبعوه

=

=

على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول ا".

قوله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤]

إن نشأ ننزل على المكذبين من قومك من السماء معجزة مخوِّفة لهم تلجئهم إلى الإيمان، فتصير أعناقهم خاضعة ذليلة، ولكننا لم نشأ ذلك؛ فإن الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب اختيارًا.

قوله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً} [الشعراء: ٤]، أي:"إن نشأ ننزل على المكذبين من قومك من السماء معجزة مخوِّفة لهم تلجئهم إلى الإيمان".

عن قتادة، " {إن نشأ}، قال: لو نشاء".

عن زاذان، قوله: "{ننزل عليهم من السماء}: الشمس من مغربها".

قوله تعالى: {فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤]، أي:"فتصير أعناقهم خاضعة ذليلة".

قال قتادة:"لو شاء الله أنزل عليهم آيه يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية الله".

عن قتادة:"{فظلت أعناقهم لها خاضعين}، حتى لا يلتفت أحد إلى معصية".

قال ابن زيد:"الخاضع: الذليل".

قال ابن كثير:"أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكَّنا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩]، وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩]، فنفَذ قَدَرُه،

=

=

ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم".

قال الزجاج:"ذكر «الأعناق» لأن معنى خضوع الأعناق هو خضوع أصحاب الأعناق، لما لم يكن الخضوع إلا لخضوع الأعناق جاز أن يعبر عن المضاف إليه كما قال الشاعر:

رأت مرّ السنين أخذن مني... كما أخذ السرار من الهلال

لما كانت السنون لا تكون إلا بمر أخبر عن السنين وإن كان أضاف إليها المرور، ومثل ذلك أيضا قول الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت... أعاليها مر الرياح النواسم

كأنه قال تسفهتها الرياح، لما كانت - الرياح لا تكون إلا بالمرور.

وجاء في التفسير {أعناقهم}، يعنى به: كبراؤهم ورؤساؤهم، وجاء في اللغة أعناقهم جماعاتهم، يقال: جاء لي عنق من الناس أي جماعة وذكر بعضهم وجها آخر، قالوا: فظلت أعناقهم لها خاضعين هم، وأضمرهم. وأنشد:

ترى أرباقهم متقلديها كما... صدئ الحديد عن الكماة

وهذا لا يجوز في القرآن، وهو على بدل الغلط يجوز في الشعر، كأنه قال: يرى أرباقهم يرى متقلديها، كأنه قال: يرى قوما متقلدين أرباقهم فلو كان على حذف هم لكان مما يجوز في الشعر أيضا".

قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} [الشعراء: ٥]

وما يجيء هؤلاء المشركين المكذبين مِن ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَث إنزاله، شيئًا بعد شيء، يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم بالدين الحق إلا أعرضوا عنه، ولم يقبلوه.

قال مقاتل:"يقول ما يحدث الله- ﷻ- إلى النبي ﷺ من القرآن {إلا كانوا عنه}،

=

=

يعني: عن الإيمان بالقرآن معرضين".

قال الطبري: يقول:"وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويجحدون ما أتيتهم به يا محمد من عند ربك من تذكير وتنبيه على مواضع حجج الله عليهم على صدقك، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يحدثه الله إليك ويوحيه إليك، لتذكرهم به، إلا أعرضوا عن استماعه، وتركوا إعمال الفكر فيه وتدبره".

قال ابن كثير:"أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]، وقال: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس: ٣٠]، وقال: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: ٤٤]".

قال قتادة:"يقول: ما يأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه".

قال سهل بن عبد الله:"أي: ما أحدث لهم من علم القرآن الذي لم يكونوا يعلمونه من قبل، وهو النزول، إلا أعرضوا عنه، ليس أن يكون الذكر في نفسه محدثا، لأنه من صفات ذات الحق، ليس بمكون ولا مخلوق".

قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الشعراء: ٦]

فقد كذَّبوا بالقرآن واستهزؤوا به، فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يستهزئون به ويسخرون منه، وسيحلُّ بهم العذاب جزاء تمردهم على ربهم.

قوله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوا} [الشعراء: ٦]، أي:"فقد كذَّبوا بالقرآن واستهزؤوا به".

قال مقاتل:"يعني: بالقرآن لما جاءهم، يعني: حين جاءهم به محمد ﷺ".

قال الطبري: يقول:"فقد كذب يا محمد هؤلاء المشركون بالذكر الذي أتاهم من عند الله، وأعرضوا عنه".

قال ابن كثير:"أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق".

=

=

قوله تعالى: {فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الشعراء: ٦]، أي:"فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يستهزئون به ويسخرون منه، وسيحلُّ بهم العذاب جزاء تمردهم على ربهم".

قال الطبري:"يقول: فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون منه، وذلك وعيد من الله لهم أنه محل بهم عقابه على تماديهم في كفرهم، وتمردهم على ربهم".

قال مقاتل:"يعنى: حديث ما كانوا به يستهزؤن، وذلك أنهم حين كذبوا بالقرآن أوعدهم الله- ﷻ- بالقتل ببدر".

قال ابن كثير: أي:"فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٢٢٧]".

عن قتادة:"{فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء}، يعنى: يوم القيامة، {ما كانوا به يستهزؤن}، يقول: أنباء ما استهزؤا به من كتاب الله ﷻ".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ٧ - ٩]

أكذبوا ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبتنا فيها من كل نوع حسن نافع من النبات، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين؟ إن في إخراج النبات من الأرض لَدلالة واضحة على كمال قدرة الله، وما كان أكثر القوم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز على كل مخلوق، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} [الشعراء: ٧]، أي:"أكذبوا ولم ينظروا إلى الأرض التي أنبتنا فيها من كل نوع حسن نافع من النبات، لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين؟".

قال الطبري: يقول:"أولم ير هؤلاء المشركون المكذبون بالبعث والنشر إلى الأرض، كم أنبتنا فيها بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها {من كل زوج كريم}، يعني:

=

=

بالكريم: الحسن، كما يقال للنخلة الطيبة الحمل: كريمة، وكما يقال للشاة أو الناقة إذا غزرتا، فكثرت ألبانهما: ناقة كريمة، وشاة كريمة".

قال ابن كثير:"ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان".

عن مجاهد قوله: "{من كل زوج كريم}، قال: من نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام".

عن الشعبي، قوله:"{كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم}، قال: الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم".

عن سعيد بن جبير قوله: "{كريم}، يعنى: حسن". وروي، عن قتادة مثل ذلك.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ٨]، أي:"إن في إخراج النبات من الأرض لَدلالة واضحة على كمال قدرة الله".

قال الطبري: يقول:"إن في إنباتنا في الأرض من كل زوج كريم لآية. يقول: لدلالة لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث، على حقيقته، وأن القدرة التي بها أنبت الله في الأرض ذلك النبات بعد جدوبتها، لن يعجزه أن ينشر بها الأموات بعد مماتهم، أحياء من قبورهم".

قال ابن كثير:"أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء".

عن ابن عباس: "{إن في ذلك لآية}، قال: علامة ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة أرسل بخاتمه أو بثوبه فعرفوا أنه حق". وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٨]، أي:"وما كان أكثر القوم

=

=

مؤمنين".

قال الطبري: "يقول: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين بالبعث، الجاحدين نبوتك يا محمد، بمصدقيك على ما تأتيهم به من عند الله من الذكر. يقول جل ثناؤه: وقد سبق في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بك أكثرهم للسابق من علمي فيهم".

عن سعيد بن جبير، " {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}،:يعنى: مصدقين".

قال ابن كثير: أي: "ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ٩]، أي:"وإن ربك لهو العزيز على كل مخلوق، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء".

قال الطبري: "يقول: وإن ربك يا محمد لهو العزيز في نقمته، لا يمتنع عليه أحد أراد الانتقام منه. يقول تعالى ذكره: وإني إن أحللت بهؤلاء المكذبين بك يا محمد، المعرضين عما يأتيهم من ذكر من عندي، عقوبتي بتكذيبهم إياك، فلن يمنعهم مني مانع، لأني أنا العزيز الرحيم، يعني أنه ذو الرحمة بمن تاب من خلقه من كفره ومعصيته، أن يعاقبه على ما سلف من جرمه بعد توبته".

قال ابن كثير: "أي: الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه، {الرحيم} أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر".

عن محمد بن إسحاق: "{العزيز}، قال: العزيز في نصرته ممن كفر به إذا شاء".

عن سعيد، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بهم بعد التوبة".

قال ابن جريج: "كل شيء في الشعراء من قوله «العزيز الرحيم»، فهو ما أهلك ممن مضى من الأمم، يقول: عزيز، حين انتقم من أعدائه، رحيم بالمؤمنين، حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه".

قال العثيمين: قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تِلْكَ} أي: هَذِهِ الآيات {آيَاتُ الْكِتَابِ}]

=

=

وتعبيرُ القُرآن: {تِلْكَ آيَاتُ} وهناك فرق بين التعبير القُرآنيّ وتعبير المصنف؛ الفرقُ بينهما أن التعبيرَ القُرآنيَّ أتَى بالإشارةِ للبَعيد، والمصنف أتى بالإشارة للقريبِ.

ثم قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: هَذِهِ الآيَات {آيَاتُ الْكِتَابِ}]، أيضًا لِيُبَيِّن أن آيات الكِتاب هِيَ الخبرُ.

والصَّوابُ أن نقولَ: لو قال المصنف: (تلك الآيَاتُ آيات) لكَانَ أحسنَ؛ لِأَنَّ كونه يعدِل عن الإشارةِ بالبعيدِ إِلَى الإشارةِ بالقريبِ، معَ أن الله تعالى أثبتَ الإشارةَ للبعيدِ، فهذا لَيْسَ تفسيرًا، والصَّواب بلا شكّ: القُرآن هُوَ الصَّوابُ، والإشارة بالبعيدِ هنا مع قُربِ القُرآنِ الكريمِ وكَوْنه بينَ أيدينا إشارةٌ إِلَى عُلُوّ مَرْتَبَتِه، فهو للتَّعْظيمِ، وإذا صِرنا عَلَى ما قال المصنف فاتنا هَذَا المَعْنى الَّذِي أُرِيدَ بالإشارة للبَعيد.

قَالَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{آيَاتُ الْكِتَابِ} هو القُرآن، والإضافة بمَعْنى (مِن)]، يعني: آيات من الكِتابِ.

وقوله: {الْكِتَابِ} بمَعْنى: المكتوب، كاللِّبَاسِ بمعنَى: المَلْبُوس، والغِرَاس: بمعنى المغروس، والبناء بمعنى: المبني، والفراش: بمعنى المفروش. وسمي كتابا لأنه كتب في اللوح المحفوظ، وكتب بالصحف التي بأيدي الملائكة، وكتب في الأرض بين الناس، قال تعالى: {كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام برررة} [عبس: ١١ - ١٦].

وقوله: {آيات الكتاب} الآيات جمع آية، وهي في اللغة: العلامة، والمراد بها هنا العلامة الدالة على منزل هذا القرآن، وهو الله سبحانه وتعالى.

إذن كل آية من هذه الآيات فيها إعجاز؛ لأنه لو لم يكن فيها إعجاز لم تكن آية؛

=

=

لأن الآية العلامة الفارقة، ولا يكون القرآن علامة فارقة بينه وبين كلام الآدميين إلا إذا كان معجزا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{المبين} المظهر الحق من الباطل]، وأحيانا يفسرون المبين بالبين، قال تعالى: {فتوكل على الله إنك على الحق المبين} [النمل: ٧٩]، يعني: البين الواضح؛ وذلك لأن أبان تستعمل قاصرة ومتعدية، يعني: فتستعمل قاصرة: بان الشيء وأبان الشيء، وتستعمل متعدية، فيقال: أبنت الحق، يعني: أظهرته، فالمبين إذا فسرت بالبين فمعناه أن السياق لا يقتضي سوى ذلك، فتكون من اللازم، فإذا كان المعنى يحتمل أن تكون من المتعدي - يعني: بمعنى مظهر - وجب أن تفسر به؛ لأن تفسيرها بالمظهر يشمل أو يتضمن تفسيرها بالبين؛ إذ المبين معناه: بين بنفسه، مبين لغيره، خلاف البين بنفسه فقد لا يبين غيره.

إذن كلما جاءت (مبين) في القرآن إن أمكن أن تفسر بالإبانة، التي هي الإظهار وجب؛ لأن ذلك أشمل، وإذا لم يمكن فسرت بالبين الذي هو اللازم دون المتعدي؛ كقوله: {وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} [الجمعة: ٢]، فهي بمعنى (بين) من اللازم، ويمكن على بعد أن تكون بمعنى (المبين)، يعني: المظهر لضلالهم، ولكن المعنى الأول أبين.

على كل حال نقول: {المبين} هنا بمعنى: المظهر للحق، ولا يكون مظهرا للحق إلا وهو بين بنفسه.

وترك المفعول في قوله: {المبين} لإفادة العموم والشمول، فهو مبين لكل شيء، ولهذا قال الله تعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} [النحل: ٨٩]، وهذا يدل على أن القرآن شامل لكل شيء، وأما: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} [الأنعام: ٣٨]، فليس المراد به القرآن، وإن كان كثير من الناس تسمعهم يستدلون بهذه الآية على أن القرآن شامل لكل شيء، ولكن المراد {ما فرطنا في الكتاب من

=

=

شيء}: اللوح المحفوظ.

و{تبيانا لكل شيء} أبلغ، فهو مذكور فيه بيان كل شيء، فالقرآن تبيان لكل شيء، ولا يخفى على أحد تبيان القرآن إلا لعلة فيه ليست في القرآن، لعلة في نفس الذي خفي عليه؛ لأنا نجزم بصدق هذه القضية {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء}، وما خفي على أحد من الناس ما خفي من الأحكام، إلا لقصور في فهمهم، أو في علمهم، أو في إرادتهم، فهو إما قاصر في الفهم لا يفهم، وهذا لا يتبين له الشيء، وإما قاصر في العلم ليس لديه معلومات، وإما قاصر في قصده، أي نيته.

ولهذا قال شيخ الإسلام: "من تدبر القرآن طالبا الهدى منه تبين له طريق الحق". ذكره في (العقيدة الواسطية)، حينما تكلم عن الآيات القرآنية الدالة على الصفات، وهي كلمة لها معناها.

إذن فقوله: {تلك آيات الكتاب المبين} أي: المبين لكل شيء، وخفاء بعض الأمور على الناس من القرآن ليس من قصور القرآن، ولكن من قصورهم؛ إما لقصور في الفهم، أو العلم، أو القصد.

قد يقول قائل: إننا لا نجد كل شيء في القرآن؟ وأول ما يعترض علينا أننا لا نجد كم عدد الركعات في الصلاة، فأين البيان؟

فيرد عليه بأن القرآن أتى بتبيان كل شيء على العموم، والسنة أنزلها الله عليه ﷺ لتبين للناس موضوعه، والرسول ﷺ قد فسر القرآن، ولكن على الصيغ العامة والإشارات العامة بالقرآن، وأما التفريعات فبينها رسول الله ﷺ.

فنقول: بيان القرآن نوعان:

أحدهما: أن يبين الشيء بعينه.

والثاني: أن يبينه بوسيلته وطريقته. يعني: يقول: الطريق إلى معرفة هذا كذا.

فتارة يبين الشيء بعينه، والغالب أن ذلك فيما لا يمكن إدراكه، وتارة يبين الشيء

=

=

بطريقته ووسيلته، يعني: يقول الطريقة إلى كذا هي كذا، فمثلا: بين لنا الطريق إلى معرفة عدد الصلاة بقوله: {وما آتاكم الرسول فخذوه} [الحشر: ٧]، وبقوله: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣]، وبقوله: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: ٨٠]، وبقوله: {لتبين للناس ما نزل إليهم} [النحل: ٤٤]، وغير ذلك.

وقد نقلت قصة عن الشيخ محمد عبده مع رجل نصراني اعترض عليه، حيث قال النصراني: إننا لا نجد في القرآن كيف نصنع هذا الطعام؟ فدعا الشيخ محمد عبده بصاحب المطعم وقال له: كيف صنعت هذا الطعام؟ فقال صاحب المطعم: فعلت كذا وكذا. فقال الشيخ محمد عبده: هكذا علمنا القرآن. فقال النصراني: كيف علمكم القرآن؟ قال: لأنة قال: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} [النحل: ٤٣].

فالتبيان في القرآن تارة يبين الشيء بعينه، وتارة يبين وسيلته التي تظهره وتبينه ا.هـ

ثم خاطب- سبحانه- رسوله ﷺ بما يسليه عن تكذيب المشركين له، وبما يهون عليه أمرهم فقال- تعالى- لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

قال بعض العلماء ما ملخصه: اعلم أن لفظة لعل تكون للترجى في المحبوب، وللإشفاق في المحذور.

واستظهر أبو حيان في تفسيره، أن لعل هنا للاشفاق عليه ﷺ أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم.

وقال بعضهم: إن لعل هنا للنهى، أى: لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم وهو الأظهر، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك. قال- تعالى-: فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ا.هـ.

والمعنى: لعلك- أيها الرسول الكريم- قاتل نفسك هما وغما. بسبب تكذيب

=

=

الكافرين لك، وعدم إيمانهم بدعوتك وإعراضهم عن رسالتك التي أرسلناك بها إليهم..

لا- أيها الرسول الكريم- لا تفعل ذلك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله- تعالى- يهدى من يشاء، وإننا إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ.

ومفعول المشيئة محذوف، والمراد بالآية هنا المعجزة القاهرة التي تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن الإيمان، والأعناق جمع عنق. وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم تقول: جاءني عنق من الناس: أى جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمين فيهم.

والمعنى: لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك، فإننا إن نشأ إيمانهم، ننزل عليهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان. تجعلهم ينقادون له، ويدخلون فيه دخولا ملزما لهم، ولكنا لا نفعل ذلك، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس في الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة، وليس عن طريق الإلجاء والقسر.

وصور- سبحانه- هذه الآية بتلك الصورة الحسية فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ، للإشعار بأن هذه الآية لو أراد- سبحانه- إنزالها لجعلتهم يخضعون خضوعا تاما لها، حتى لكأن أعناقهم على هيئة من الخضوع والذلة لا تملك معها الارتفاع أو الحركة.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق؟ قلت:

أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين. فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله. كقوله: ذهبت أهل اليمامة، كأن الأهل غير مذكور. أو لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء، قيل: خاضعين.. وقيل أعناق الناس:

=

=

رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرءوس والنواصي والصدور ... وقيل: جماعات الناس..» ا.هـ.

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لعلك} يا محمد {باخع نفسك} قاتلها غما من أجل {ألا يكونوا} أي: أهل مكة {مؤمنين} (ولعل) هنا للإشفاق، أي: أشفق عليها بتخفيف هذا الغم].

(لعل) للإشفاق، وتكون للتعليل وتكون للترجي. فإذا تعلقت بمكروه فهي للإشفاق، وإذا تعلقت بمحبوب تكون للترجي، وإذا تعلقت بعلة من العلل فهي للتعليل، وهي هنا للإشفاق، مثل أن تقول: (لعل الحبيب هالك) فلا يمكن أن يكون قصدك ترجي أن يهلك حبيبك، لكنك تشفق.

والله تعالى أشفق على نبيه ﷺ من أن يهلك نفسه - يقتلها من الغم - بسبب عدم إيمانهم، والرسول عليه الصلاة والسلام يعاني من عدم إيمانهم، ومن المشقة الشديدة، ويحزن، ويضيق صدره ولكن الله تعالى يسليه بمثل هذه الآية: {ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون} [النمل: ٧٠]، وهنا يقول: {لعلك باخع نفسك} مهلكها {ألا يكونوا مؤمنين} ففي هذا دليل على أن الإنسان الداعية لا ينبغي أن يهلك نفسه في الهم والغم لعدم قبول الناس للحق؛ لأنه إذا أتى بما يجب عليه انشرح صدره، وكفى. فأنت أتيت بما يجب عليك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم إن امتثل الناس فهو نعمة على الجميع، وإن لم يمتثلوا فلا تغتم؛ لأنك إذا اغتممت اشتغلت بغيرك عن نفسك، وصار همك ولاء الناس، وهذا يفسد عليك أنت عباداتك الخاصة، فاشتغل بنفسك، وغيرك أد ما أوجب الله عليك لهم، ثم إن اهتدوا، وإلا لست عليهم بمسيطر. وبهذا يستريح الإنسان راحة عظيمة ويكون مقبلا على عبادته، محسنا لها.

فإن قال قائل: بعض الناس الذين لا يدعون الناس لهم حجة في ذلك، ويقولون

=

=

حديثا عن الرسول ﷺ: "إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام".

فالجواب: قال "عليك بخاصة نفسك" فمن خاصة نفسك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر: {ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم} [المائدة: ١٠٥]. فلا تدع نفسك في ملاحقة الناس والإشتغال بهم عن دينك.

ويستفاد من الآية الكريمة: تسلية الرسول ﷺ لعدم إيمان قومه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت} بمعنى المضارع، أي: تظل، أي: تدوم {أعناقهم لها خاضعين} فيؤمنون].

قوله: {إن نشأ ننزل} جملة شرطية، فعل الشرط: (نشأ) وجوابه: (ننزل)، وفي الإتيان بهذه الصيغة: {نشأ ننزل} من تعظيم الله سبحانه وتعالى لنفسه ما لا يخفى؛ لأنه جعل الأمر هنا يسيرا عليه إذا شاءه، وأنه سبحانه وتعالى بإرادته لم يفعل، ثم الإتيان بنون العظمة هو تعظيم آخر أيضا، فالله تعالى ما قال: إذا شئنا نزلنا، قال: {إن نشأ ننزل}.

وقوله: {من السماء آية فظلت} أي: علامة، وهذه العلامة لا شك أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها - كما أشرنا إليه قريبا - ثم إنها علامة أيضا ليست على قدرة من هي له، أو على انفراده بالخلق، ولكنها آية أيضا على أنهم لم يؤمنوا، وعلى تهديدهم بالوعيد، ولهذا قال: {فظلت أعناقهم لها خاضعين} فلا تستطيع أن تمثل هذه الآية لأن الله سبحانه وتعالى نكرها، فهي آية ليست معلومة لنا؛ لأن الله لم ينزلها، لكنها آية تخضعهم، ولهذا قال: {فظلت أعناقهم لها خاضعين}.

وقوله: {من السماء} هل المراد بها السقف أم المراد بها العلو؟ محتمل هذا وهذا، يحتمل أنها بمعنى العلو، ويحتمل أن المراد بها السقف الذي هو على الأرض.

=

=

وأيا كان فإن إتيان الشيء من فوق أبلغ في التهديد؛ لأن من فوقك فقد علاك، ومن علاك فلا طاقة لك به، بخلاف من كان بحذائك فقد تفر وقد تناضل، ولكن المشكل إذا جاء الأمر من فوق.

وقوله: {فظلت} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (بمعنى المضارع، أي: تظل)، وإنما قال المصنف: (بمعنى المضارع) لأن قوله: {إن نشأ ننزل} مضارع، فناسب أن يكون {فظلت} مضارعا، لكنه عدل عنه لبيان أنه كالأمر الواقع، مثل قوله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه} [النحل: ١]، مع أنه سيأتي، فالمعنى: فإذا نزلت بهم ظلت أعناقهم لها خاضعين.

وقوله: {أعناقهم لها} أي: لهذه الآية، فيحتمل أن تكون اللام هنا للتعدية، أي: خاضعين لها، أو للتعريف، أي: من أجلها. وقوله: {خاضعين}: أي ذليلين. قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولما وصفت الأعناق بالخضوع الذي هو لأربابها، جمعت الصفة منه جمع العقلاء]، المراد بـ(الصفة منه) هنا الخبر {خاضعين}، والخبر صفة في المعنى، وإن كان في الإعراب لا يسمى صفة، لكنه في المعنى صفة. وهنا {أعناقهم} المعروف الكثير في اللغة العربية أن تكون (خاضعة): (أعناقهم لها خاضعة)، مثل: {خاشعة أبصارهم} [القلم: ٤٣]، لكنه لما كان الخضوع من أوصاف العقلاء لا من أوصاف غير العاقل جمع جمع عاقل؛ لأن جمع المذكر السالم يختص بالعقلاء، فجمعت جمع العاقل لهذا السبب.

ولا يمكن أن نقول: {فظلت أعناقهم لها} (لها) هي الخبر، وتكون (خاضعين) حالا من الضمير المستتر في الخبر، نقول: هذا بعيد، لأنه لا معنى لـ {فظلت أعناقهم لها}، فإذا قال إنسان: ربما يكون التقدير: ناظرة لها؛ أي: ظلت أعناقهم ناظرة لها، فرد هذا بأن يقال: إن المتعلق إذا كان خاصا فإنه لا يحذف، وإنما يحذف إذا كان عاما، يعني: تقديره كائن أو مستقر، هذا الذي يحذف، أما إذا كان

=

=

خاصا كراكب وجالس، وما أشبه ذلك؛ فإنه لا يحذف ا.هـ

ثم بين- سبحانه- ما عليه هؤلاء الكافرون من صلف وجحود فقال: وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ.

أى: ولقد بلغ الجحود والجهل بهؤلاء الكافرين، أنهم كلما جاءهم قرآن محدث تنزيله على نبيهم ﷺ ومتجدد نزوله عليه ﷺ أعرضوا عنه إعراضا تاما.

وعبر عن إعراضهم بصيغة النفي والاستثناء التي هي أقوى أدوات القصر، للإشارة إلى عتوهم في الكفر والضلال، وإصرارهم على العناد والتكذيب.

وفي ذكر اسم الرحمن هنا: إشارة إلى عظيم رحمته- سبحانه- بإنزال هذا الذكر، وتسجيل لأقصى دركات الجهالة عليهم، لأنهم أعرضوا عن الهداية التي أنزلها الرحمن الرحيم لسعادتهم، وحرموا أنفسهم منها وهم أحوج الناس إليها.

ومِنَ الأولى لتأكيد عموم إعراضهم، والثانية لابتداء الغاية، وجملة إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ حالية.

ثم بين- سبحانه- سوء عاقبتهم فقال: فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

أى: فقد كذب هؤلاء الجاحدون بالذكر الذي أتيتهم به- أيها الرسول الكريم- دون أن يكتفوا بالإعراض عنه، فاصبر فسيأتيهم أنباء العذاب الذي كانوا يستهزئون به عند ما تحدثهم عنه، وهو واقع بهم لا محالة ولكن في الوقت الذي يشاؤه- سبحانه-.

وفي التعبير عن وقوع العذاب بهم، بإتيان أنبائه وأخباره، تهويل من شأن هذا العذاب، وتحقيق لنزوله. أى: فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ويصيرون هم أحاديث الناس يتحدثون بها ويتناقلون أنباءها.

قال العثيمين: يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما يأتيهم من ذكر} قرآن {من الرحمن

=

=

محدث} صفة كاشفة {إلا كانوا عنه معرضين}]، (ما): نافية؛ بدليل قوله: {إلا كانوا}، وهذا الإستثناء مفرق من عموم الأحوال، يعني: لا يكون لهم من أي حالة من الأحوال سوى الإعراض.

وقوله: {وما يأتيهم من ذكر}، (من) زائدة إعرابا للتوكيد، والتقدير: ذكر، وقوله تبارك وتعالى: {من ذكر} قال المصنف: (قرآن)، وسمي القرآن ذكرا لأن به التذكر والتذكير أيضا، فهو تذكير من الله وتذكر من سامعه، ولهذا سمي ذكرا، ووصف القرآن مرة ثانية بأنه ذو الذكر، قال تعالى: {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس: ٦٩]، والقرآن للذكر؛ فمرة جعله ذكرا، ومرة جعله ذا ذكر، ولا فرق بينهما في الواقع؛ لأنه ذكر بنفسه وتذكير، ولأنه ذو ذكر، أي: ذو تذكر، فمن قرأه وحفظه وتدبره تذكر به، قال تعالى: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} [القمر: ١٧].

فإن قال قائل: ألا يكون كذلك القرآن مشتملا على الذكر؟ أي فيه آيات فيها أذكار.

فالإجابة: لا، فحتى الأذكار المقصود بها تذكير الناس. فالمقصود بكونه ذكرا أنه مذكر، ويتذكر به من تذكر.

قال تعالى: {من الرحمن}، وفي آية أخرى: {ما يأتيهم من ذكر من ربهم} [الأنبياء: ٢]، فذكر الرحمن هنا إشارة إلى أن نزول هذا القرآن وإتيانه من مقتضى رحمة الله، وأن الله تعالى سبحانه وتعالى رحم العباد بهذا القرآن، وهذا كقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} [لأنبياء: ١٠٧]، أي {إلا رحمة} منا {للعالمين}، وليس المعنى - كما يفهم كثير من العوام - {إلا رحمة} يعني: أنك أنت الرحمة، لا، يعني: وما أرسلناك إلا لنرحم العباد، هذا هو المعنى، وليس هو نفسه رحمة كما يقول أهل الغلو في النبي ﷺ والجاهلون أيضا.

=

=

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [صفة كاشفة]، والصفة الكاشفة هي التي تبين الواقع، ولا تقيد الموصول؛ لأن الصفات منها صفة مقيدة تخرج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبين حقيقة أمره.

فهنا يقول المصنف: إن كلمة (محدث) صفة كاشفة؛ فكلمة: (ما يأتيهم) تدل على (محدث)، فلا مفهوم لها؛ لأنه إذا كان يأتيهم وجب أن يكون محدثا؛ لأن بإتيانه إياه صار محدثا، ووجه ذلك ظاهر أنها صفة كاشفة؛ لأنه لو كان غير محدث ما صح أن يقول: {وما يأتيهم}، إذ هو آت من الأصل.

وقوله: {محدث} وظاهر الآية الكريمة أن المحدث هو الذكر نفسه، فيكون في الآية دلالة على أن الله تعالى يتكلم بالقرآن حين إنزاله، وأنه ليس - كما روي عن ابن عباس - أنه نزل إلى بيت العزة من اللوح المحفوظ، وإنما يتكلم الله تبارك وتعالى به حين إنزاله.

وقيل: {محدث} إنزاله، {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث} إنزاله، فلا تكون الصفة هنا حقيقية، وإنما هي صفة سببية؛ لأن الموصوف فيها حقيقة ليس الذكر، بل هو الإنزال، هذا إذا قلنا: {محدث} إنزاله، كما إذا قلت: مررت برجل قائم أبوه، فـ(قائم) هذه الصفة من حيث الإعراب لـ(رجل)، لكن من حيث المعنى صفة لـ(أبوه)، وهذا الوصف على هذا الوجه يسمى بالنعت السببي.

فعلى هذا على القول بأن المراد: {محدث} إنزاله يكون النعت هنا سببيا لا حقيقيا، ولكن إذا دار الأمر بين أن يكون النعت صفة حقيقية أو صفة سببية؛ فالواجب أن يكون صفة حقيقية؛ لأن الصفة السببية تحتاج إلى تقدير، وكل ما يحتاج إلى تقدير يحتاج إلى دليل، فهنا نقول: {وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث} ظاهر اللفظ أن القرآن نفسه محدث، ثم إن {محدث} إنزاله لا معنى لها في الواقع بعد قوله: {وما يأتيهم}؛ لأنه لا يمكن أن يأتيهم إلا وإنزاله محدث؛ لأن

=

(أتى) معناه (حدث). فعلى هذا نقول: الصواب أن المراد بالمحدث نفس الذكر، وليس إنزاله.

قال تعالى: {إلا كانوا عنه معرضين}، (عنه) جار ومجرور متعلق بـ (معرضين)، و (معرضين) خبر (كان)، وفائدة تقديمه عليه هنا لفظية ومعنوية؛ أما اللفظية فمراعاة الفواصل - فواصل الآيات - وأما المعنوية فلإفادة الحصر، كأنه يقول: ما تكون حالهم إلا الإعراض عنه دون غيره، يعني: عنه فقط وحده معرضين، وهذا أبلغ في الذم مما لو قال: إلا كانوا معرضين عنه؛ لأنه يحتمل أن يعرضوا عنه وغيره، ولكنه لما قال: {عنه معرضين} كأنهم لا يتصفون بالإعراض إلا عن هذا الذكر.

وهذا الإعراض معنوي وحسي، يشمل الأمرين؛ فهم معرضون وإن حضروا بأبدانهم، ومعرضون أيضا بأبدانهم يقومون عنه، قال تعالى: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون} [فصلت: ٢٦]، فهم معرضون - والعياذ بالله - في قلوبهم وأبدانهم

قال الله ﷻ: {فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون} [الشعراء: ٦].

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فقد كذبوا} به]، أي: بهذا الذكر، والجملة محققة بـ (قد)، والمعنى أنه مع وضوح كون هذا الذكر من الرحمن ما انتفعوا به، بل كذبوا به، والتكذيب به يعم التكذيب به رأسا، بأن يقولوا: إن هذا القرآن ليس من الله، كما قالوا: {إنما يعلمه بشر} [النحل: ١٠٣]، أو التكذيب ببعض الآيات منه، كما لو كذبوا بقصة أحد الرسل، أو بقصة قصها الله تعالى عن أحد؛ كالذي مر على قرية، أو ما أشبه ذلك.

فهو إما أن يكون التكذيب به رأسا فيقال: أنت لا يوحى إليك، وهذا القرآن ليس بوحي، أو التكذيب ببعض الآيات التي جاءت بهذا، فكله تكذيب، والتكذيب أبلغ

=

من الإعراض؛ لأن الإنسان قد يعرض تهاونا وتكاسلا ولسبب من الأسباب ولا يكذب، لكن المكذب أشد؛ لأن المكذب لا يمكن أن يقبل، وكيف يقبل على أمر يعتقده كذبا؟ ! ولهذا قال: {إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا} ما قال: فقد أعرضوا، قال: {فقد كذبوا} وهذا شامل للإعراض والتكذيب.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فقد كذبوا} به {فسيأتيهم أنباء} عواقب {ما كانوا به يستهزئون}، الفاء عاطفة، وتفيد الترتيب، والسين تفيد التقريب أيضا، والمعنى: فبسبب تكذيبهم فسيأتيهم عن قرب، و {أنباء} بمعنى: أخبار، والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر من الأمور الهامة، والمراد بالخبر هنا العواقب، كما قال المصنف؛ لأن العواقب أخبار في الحقيقة، فمثلا: في القرآن أن الله تعالى ينصر رسوله ويهلك المكذبين، هذه أنباء هي في الحقيقة ستكون عواقب: سينتصر النبي عليه الصلاة والسلام وسيهزم أعداؤه، وهذه هي الحقيقة، وهي العاقبة.

وقوله: {ما كانوا به يستهزئون} أي يسخرون، وتقديم المعمول في قوله: {به يستهزئون} للفائدتين السابقتين: اللفظية والمعنوية. وقوله: {ما كانوا به} يحتمل أن تكون مجردة عن الزمان، أي: ما يستهزئون به، ويحتمل أن تكون للزمان، أي: ما كانوا في الماضي يستهزئون به عند وقوع العاقبة، فإن استهزاءهم به سابق لهذه العاقبة، ولكن الظاهر أنها مجردة عن الزمان، وهو غالب ما تأتي (كان)، قال تعالى: {وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [الحجر: ١١]، أي: يسخرون ويضحكون منه.

والتكذيب بالشيء الحق نوع من الإستهزاء به؛ لأنه مثلا إذا كان مع الرسول وعد ووعيد، وأمر ونهي، وخبر واستخبار، وإرشاد وتوبيخ، ثم كذب به فمعناه أنه يستهزأ به، وبأحكامه، وبأخباره، وبما تضمنه من هذه الأمور.

فائدة: يقولون: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فإذا وجدت بالكلمة

=

=

حروفا زائدة فمعنى ذلك أن هناك معاني زائدة، والزيادة هنا للمبالغة، مثل: (استكبر وتكبر)، (استكبر) أبلغ من (تكبر)، وهنا: (استهزأ به) أبلغ من (هزئ به)، فلذلك نقول: السين والتاء هنا للمبالغة ا.هـ

ثم وبخهم- سبحانه- على غفلتهم وعلى عدم التفاتهم إلى ما في هذا الكون من عظات وعبر. فقال- تعالى-: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام.

أى: أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله- تعالى- ورحمته بهم، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض، وجعلنا فيها أصنافا وأنواعا لا تحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى.

فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف الأنواع والأشكال والثمار. لعل هذا التأمل ينبه حسهم الخامد وذهنهم البليد وقلبهم المطموس.

قال صاحب الكشاف: «وصف الزوج- وهو الصنف من النبات- بالكرم، والكريم:

صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه. يقال: وجه كريم إذا رضى في حسنه وجماله، وكتاب كريم. أى: مرضى في معانيه وفوائده ... والنبات الكريم: المرضى فيما يتعلق به من المنافع.

فإن قلت: ما معنى الجمع بين كم وكل؟ قلت: قد دل كُلِّ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل. وكَمْ على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة، فهذا معنى الجمع بينهما، وبه نبه على كمال قدرته..» ا.هـ.

=

=

ثم ختم- سبحانه- هذه الآيات بآيتين تكررتا في السورة الكريمة ثماني مرات. ألا وهما قوله- تعالى- إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

أى: إن في ذلك الذي ذكرناه عن إنباتنا لكل زوج كريم في الأرض لَآيَةً عظيمة الدلالة على كمال قدرتنا، وسعة رحمتنا، وما كان أكثر هؤلاء الكافرين مؤمنين، لإيثارهم العمى على الهدى، والغي على الرشد وَإِنَّ رَبَّكَ- أيها الرسول الكريم- لَهُوَ الْعَزِيزُ أى: صاحب العزة والغلبة والقهر الرَّحِيمُ أى: الواسع الرحمة بعباده، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم لعلهم يتوبون أو يعقلون.

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} [الشعراء: ٧].

قال الله تعالى مبينا دليلا واضحا على آياته: {أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم}، يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أولم يروا} ينظروا {إلى الأرض كم أنبتنا فيها} أي: كثيرا {من كل زوج كريم} نوع حسن]. {أولم يروا} يعني: هؤلاء المكذبون. و {يروا} يقول المصنف: (ينظروا)، فجعلها من الرؤية الحسية، لا من الرؤية العلمية، ولكن نقول: إنها تحتمل المعنيين؛ الرؤية الحسية: إذا نظر بعينه هو، والعلمية: إذا علم بذلك من غيره؛ لأن هناك أشياء لا نعلمها مما ينبت في الأرض، يعني: لا نراها ولكننا نخبر بها، فالأولى أن يقال: إنه شامل للنظر بالعين، والنظر بالقلب الذي هو العلم.

قال تعالى: {إلى الأرض كم أنبتنا} يقول المصنف: (أي كثيرا)، و (كثيرا) هذه تفسير لـ (كم)، يعني أن (كم) هنا تكثيرية، المعنى: كثيرا أنبتنا فيها، مثل قوله تعالى: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين} [البقرة: ٢٤٩]، أي: كثيرا تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

=

=

وقوله: {كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم} أضاف الإنبات إليه تبارك وتعالى لأنه هو الفاعل حقيقة، وإذا أضيف الإنبات إلى المطر فإنما ذلك لأنه سبب، وقوله: {من كل زوج كريم} أي: صنف، والكريم في الأصل: كثير البذل، ولكنه يطلق أحيانا على الحسن، ومنه قوله ﷺ لمعاذ: "إياك وكرائم أموالهم" أي: حسنها، وليس معنى كرائمها التي تعطي كثيرا؛ لأنها لا تعطي البهائم، ولكن المراد بها الحسنة. فهنا الكريم نقول: الحسن، والزوج بمعنى: الصنف والنوع.

وهذه الأصناف والأنواع الحسنة البهيجة تدل على قدرة خالقها تبارك وتعالى وعلى فضله وإحسانه، وعلى حكمته، فانظر إلى الأرض وفيها هذا النبات تجده مختلفا في حجمه، ومختلفا في لونه، ومختلفا في نفعه، ومختلفا من جميع الوجوه، والأرض واحدة والماء واحد، بل أحيانا تجد النوع الواحد من هذا النبات يختلف، كما إذا نظرنا إلى البر، فالبر نوع واحد بالنسبة للحبوب، ومع ذلك يختلف، وإذا نظرنا أيضا إلى النخل وجدناه يختلف، وإذا نظرنا إلى البطيخ وغيره نجده مختلفا، مما يدل على كمال قدرة الله تبارك وتعالى، كما قال الله تعالى: {يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} [الرعد: ٤]، فالماء واحد، والأرض واحدة، فتأخذ من هذا شيئا تذوقه وإذا هو مر، وتأخذ من هذا تذوقه وإذا هو حلو، مع أن الأرض واحدة والماء واحد، ولكن هذه هي قدرة الله سبحانه وتعالى التي يستدل بها الموفقون على كمال قدرته.

قال الله ﷻ: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} [الشعراء: ٨].

قال المصنف رحمه الله: [{إن في ذلك لآية} دلالة على كمال قدرته تعالى {وما كان أكثرهم مؤمنين}].

{إن في ذلك لآية} أي: في ذلك المذكور من الإنبات، ومن الأنواع، ومن الحسن،

=

=

فتكون (آية) هنا بمعنى (آيات)، و (آية) يقول المصنف: (دلالة على كمال قدرته تعالى)، هذا صحيح، فأبرز ما فيها القدرة، لكن في الآيات أيضا الدلالة على الحكمة البالغة في تنويع هذه الأشياء واختلافها؛ فإنها لحكمة أرادها الله تبارك وتعالى، فالقدرة - مثلما قال المصنف- هي أبين ما يكون في هذا النبات من آيات الله سبحانه وتعالى، لكنها أيضا آية على أمور أخرى.

وقوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين} قال المصنف: [في علم الله]، يقصد (كان)، {وما كان أكثرهم مؤمنين} لأنهم إلى الآن ما آمنوا، وليس معناه أنهم لم يكونوا مؤمنين فيما سبق والآن هم مؤمنون. فيقول المصنف: [في علم الله]، ما كانوا في علم الله [و (كان) قال سيبويه: زائدة].

وهذا إدخال من المصنف لقول في قول؛ لأن الذي يقول في قوله تعالى: {وما كان أكثرهم مؤمنين}: إن (كان) زائدة لا يقول: (في علم الله)، {وما كان أكثرهم مؤمنين} يعني: حسب الواقع والحال، أما الذي يقول: (في علم الله) فلا يحتاج إلى كونها زائدة، ومن يقول: إن (كان) فعل ماض على حقيقتها، يحتاج إلى أن يقول: "في علم الله".

ولكننا نتخلص من هذا كله بأن نقول: إن المراد بـ (كان) هنا مجرد الحدث، أي الدلالة على الحدث فقط، فهي مجردة عن الزمان، وإذا كانت مجردة عن الزمان فلا نحتاج إلى أن نقول: إنها زائدة، ولا نحتاج إلى أن نقول: في علم الله، نقول: إن الواقع أكثرهم ليس بمؤمن {وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وقوله: {وما كان أكثرهم} لا يتوجه على كلام الشارح، إلا أن يكون قولا آخر؛ لأنك إذا قلت: {وما كان أكثرهم مؤمنين} في علم الله، لا يصلح أن تقول: (كان) زائدة.

ومعنى قوله: [و (كان) قال سيبويه: زائدة]، أن سيبويه يرى أنها زائدة، والمصنف

=

=

يرى أنها أصلية لكن باعتبار علم الله، ونحن نقول: إنها أصلية مجردة عن الزمان، بل للدلالة على الحدث فقط.

وقوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين} فيه دليل على أن بعضهم مؤمن، وهو كذلك؛ فإن بعضهم مؤمن وآمن بالفعل.

قال: {وما كان أكثرهم مؤمنين} فلا ينتفع بالآية إلا المؤمن، فإذا لم ينتفع بها أحد ما صارت بالنسبة إليه آية، ولهذا قيدها بقوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين} أي: لا ينتفعون بها.

قال الله ﷻ: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٩].

{وإن ربك} الربوبية هنا خاصة؛ لأن الله تعالى رب النبي ﷺ وغيره، لكنه للعناية به ﷺ وبيان أنه لن يخذله مع هذا التكذيب، بل لا بد أن يتولاه بربوبيته وعنايته الخاصة.

وقوله: {لهو} اللام للتوكيد، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ [{العزيز}: ذو العزة ينتقم من الكافرين، {الرحيم} يرحم المؤمنين]، والعزة: بمعنى الغلبة، ويقال: عز بمعنى: غلب وقهر، وقد قالوا: إن العزة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الإمتناع.

فمعنى عزة القدر: أنه سبحانه وتعالى عزيز لا يبلغ أحد قدره.

وعزة القهر: عزيز لا يقهر، بل هو الغالب.

وعزة الإمتناع أنه سبحانه وتعالى ممتنع عليه النقص في أي وجه من الوجوه، يعني: عبارة عن القوة، ومنه: الأرض العزاز، يعني الصلبة القوية.

على كل حال، العزة بجميع أنواعها هذه الثلاثة كاملة لله تبارك وتعالى، ومن عزته أخذ المكذبين، ولهذا قال المصنف: [ينتقم من الكافرين]، وهذا يعود - من الأنواع الثلاثة - إلى عزة القهر.

=

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠).

{و} اذكر يا محمد لقومك {إِذْ نَادَى رَبّك مُوسَى} لَيْلَة رَأَى النَّار وَالشَّجَرَة {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {ائْتِ الْقَوْم الظَّالِمِينَ} رسولا.

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١).

{قَوْم فِرْعَوْن} مَعَهُ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ بِالْكُفْرِ بِاَللهِ وَبَنِي إِسْرَائِيل بِاسْتِعْبَادِهِمْ {أَلَا} الْهَمْزَة لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيّ {يتقون} الله بطاعته فيوحدونه.

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢).

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الرحيم} يرحم المؤمنين]، ولو أن المصنف أبقاها على عمومها لكان أولى، لكنه لما قال الله تعالى: {وكان بالمؤمنين رحيما} [الأحزاب: ٤٣]، أخذ المصنف يقيد كلمة الرحيم بالمؤمنين، ولكنه ينبغي أن يكون عاما؛ لأن عزته لا تقتضي انتقامه، بل قد يمنع الإنتقام هذه الرحمة التي تخصص بها.

فالجمع هنا بين هاتين الصفتين العزة والرحمة للتناسب البالغ؛ لأن من اجتماعهما يحصل الكمال، فهو بعزته ذو رحمة؛ فلو قارنا بين العزة والرحمة في صفات المخلوقين، لوجدنا أنهما لا يجتمعان في الغالب، وأن العزيز الذي يرى نفسه قاهرا في الغالب لا تكون فيه رحمة، فاجتماع الصفتين يحصل بهما كمال على الكمال: عزة ورحمة، ثم اجتماعهما كمال، فيكون مع العزة رحيما لا يؤاخذ ولا ينتقم، ولهذا لم يعجل الله سبحانه وتعالى العقوبة للظالم، ولكنه بحكمته يملي له حتى إذا أخذه لم يفلته.

وفي هذه الآية ختم الله تعالى بعزته ورحمته؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب؛ الترهيب بالعزة، والترغيب بالرحمة.

{قال} موسى {رب إني أخاف أن يكذبون}.

وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣).

{وَيَضِيق صَدْرِي} مِنْ تَكْذِيبهمْ لِي {وَلَا يَنْطَلِق لِسَانِي} بِأَدَاءِ الرِّسَالَة لِلْعُقْدَةِ الَّتِي فِيهِ {فَأَرْسِلْ إِلَى} أَخِي {هَارُونَ} مَعِي.

وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤).

{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْب} بِقَتْلِ الْقِبْطِيّ مِنْهُمْ {فَأَخَاف أن يقتلون} به.

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥).

{قَالَ} تَعَالَى {كَلَّا} لَا يَقْتُلُونَك {فَاذْهَبَا} أَيْ أَنْتَ وَأَخُوك فَفِيهِ تَغْلِيب الْحَاضِر عَلَى الْغَائِب {بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} مَا تَقُولُونَ وَمَا يُقَال لَكُمْ أُجْرِيَا مَجْرَى الْجَمَاعَة.

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦).

{فَأْتِيَا فِرْعَوْن فَقُولَا إِنَّا} كُلًّا مِنَّا {رَسُول رَبّ الْعَالَمِينَ} إِلَيْك.

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧).

{أَنْ} أَيْ بِأَنْ {أَرْسِلْ مَعَنَا} إِلَى الشَّام {بَنِي إِسْرَائِيل} فَأْتِيَاهُ فَقَالَا لَهُ مَا ذُكِرَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٠ - ١١]

واذكر - أيها الرسول - لقومك إذ نادى ربك موسى: أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون، وقل لهم: ألا يخافون عقاب الله تعالى، ويتركون ما هم عليه من الكفر والضلال؟

قوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ}
=

=

[الشعراء: ١٠ - ١١]، أي:"واذكر - أيها الرسول - لقومك إذ نادى ربك موسى: أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون".

قال مقاتل:"وإذ أمر ربك يا محمد {موسى أن ائت القوم الظالمين}، يعني: المشركين {قوم فرعون}، واسمه: فيطوس بأرض مصر".

عن السدي: "{وإذ نادى ربك موسى}، قال: حين نودي من جانب الطور الأيمن".

عن ابن عباس: "{الظالمين}، يقول: الكافرين".

قال الزمخشري:"سجل عليهم بالظلم بأن قدم القوم الظالمين، ثم عطفهم عليهم عطف البيان، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد: إن شاء ذاكرهم عبر عنهم بالقوم الظالمين، وإن شاء عبر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بالكفر وشرارتهم، ومن جهة ظلمهم لبنى إسرائيل باستعبادهم لهم".

قوله تعالى: {أَلَا يَتَّقُونَ} [الشعراء: ١١]، أي:"ألا يخافون عقاب الله؟".

قال الطبري:"يقول: ألا يتقون عقاب الله على كفرهم به".

قال يحيى:"أي: فليتقوا الله".

قال مقاتل:"يعني: ألا يعبدون الله- ﷻ-".

قال الزمخشري:"فيه لطف وحث على زيادة التقوى، وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين، تدبرا لها واعتبارا بموردها. وفي ألا يتقون بالياء وكسر النون وجه آخر، وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون، كقوله: {أَلَّا يَسْجُدُوا} [النمل: ٢٥]".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} [الشعراء: ١٢ - ١٤]

=

=

قال موسى: رب إني أخاف أن يكذبوني في الرسالة، ويملأ صدري الغمُّ لتكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بالدعوة فأرسِلْ جبريل بالوحي إلى أخي هارون؛ ليعاونني ويصدقني فيما أقول، ويبين لهم ما أخاطبهم به، فهو أفصح مني نطقًا. ولهم علي ذنب في قتل رجل منهم، وهو القبطي، فأخاف أن يقتلوني به.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} [الشعراء: ١٢]، أي:"قال موسى: رب إني أخاف أن يكذبوني في الرسالة".

قال الطبري:"{قال} موسى لربه {رب إني أخاف} من قوم فرعون الذين أمرتني أن آتيهم {أن يكذبون} بقيلي لهم: إنك أرسلتني إليهم".

قوله تعالى: {وَيَضِيقُ صَدْرِي} [الشعراء: ١٣]، أي:"ويملأ صدري الغمُّ لتكذيبهم إياي".

قال الطبري:"من تكذيبهم إياي إن كذبوني".

قال يحيى:"فلا ينشرح بتبليغ الرسالة، فشجعني حتى أبلغ الرسالة".

قوله تعالى: {وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي} [الشعراء: ١٣]، أي:"ولا ينطلق لساني بالدعوة".

قال الطبري:"يقول: ولا ينطق بالعبارة عما ترسلني به إليهم، للعلة التي كانت بلسانه".

قال يحيى:"للعقدة التي كانت في لسانه".

قال ابن عباس:"شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير الكلام فآتاه الله سؤله فحل عقدة لسانه".

قوله تعالى: {فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} [الشعراء: ١٣]، أي:"فأرسلْ إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك".

=

=

قال الزمخشري: معناه:"أرسل إليه جبرائيل، واجعله نبيا، وآزرنى به".

قال ابن عباس:"سأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردئا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يأمره الله بأمر فلا يتقبله بسمع وطاعة من غير توقف وتشبث بعلل، وقد علم أن الله من ورائه؟ قلت: قد امتثل وتقبل، ولكنه التمس من ربه أن بعضده بأخيه حتى يتعاونا على تنفيذ أمره وتبليغ رسالته. فمهد قبل التماسه عذره فيما التمسه، ثم التمس بعد ذلك، وتمهيد العذر في التماس المعين على تنفيذ الأمر: ليس بتوقف في امتثال الأمر، ولا بتعلل فيه، وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} [الشعراء: ١٤]، أي:"ولهم علي ذنب في قتل رجل منهم، وهو القبطي، فأخاف أن يقتلوني به".

قال الطبري:"يقول: ولقوم فرعون علي دعوى ذنب أذنبت إليهم-وذلك قتله النفس التي قتلها منه- فأخاف أن يقتلوني قودا بالنفس التي قتلت منهم".

قال ابن كثير:"أي: بسبب ما كان من قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر".

عن مجاهد، قوله: "{ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون}، قال: قتل النفس التي قتل منهم".

قال ابن عباس: "شكى موسى صلى الله عليه وسلم إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل".

قال الزمخشري:"أراد بالذنب: قتله القبطي. وقيل: كان خباز فرعون واسمه فاتون. يعنى: ولهم على تبعة ذنب، وهي قود ذلك القتل، فأخاف أن يقتلوني به، فحذف المضاف. أو سمى تبعة الذنب ذنبا، كما سمى جزاء السيئة سيئة. فإن قلت: قد أبيت أن تكون تلك الثلاث عللا، وجعلتها تمهيدا للعذر فيما التمسه،

=

=

فما قولك في هذه الرابعة؟ قلت: هذه استدفاع للبلية المتوقعة. وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة، فكيف يكون تعللا. والدليل عليه: ما جاء بعده من كلمة الردع، والموعد بالكلاءة والدفع".

قوله تعالى: {قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ١٥ - ١٧]

قال الله لموسى: كلا لن يقتلوك، وقد أجبت طلبك في هارون، فاذهبا بالمعجزات الدالة على صدقكما، إنا معكم بالعلم والحفظ والنصرة مستمعون. فأتِيَا فرعون فقولا له: إنا مرسَلان إليك وإلى قومك من رب العالمين: أن اترك بني إسرائيل؛ ليذهبوا معنا.

قوله تعالى: {قَالَ كَلَّا} [الشعراء: ١٥]، أي:"قال الله لموسى: كلا لن يقتلوك".

قال محمد بن كعب:"يقول الجبار ﷻ: كلا".

قال الطبري:"أي: لن يقتلك قوم فرعون".

قال مقاتل:"لا تخافا القتل".

قال الزجاج:"{كلا}: ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظن، كأنه قال: ارتدع عن هذا الظن وثق بالله".

قال القرطبي:"فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى، أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم، فإنهم لا يقدرون على قتلك، ولا يقوون عليه".

قال الزمخشري:"يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما".

قال ابن كثير:"أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كما قال: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} أي: برهانا {فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [القصص: ٣٥]".

=

=

قال السعدي:"أي: لا يتمكنون من قتلك فإنا سنجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه".

قوله تعالى: {فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا} [الشعراء: ١٥]، أي:"فاذهب أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة".

قال الطبري:"يقول: فاذهب أنت وأخوك بآياتنا، يعني بأعلامنا وحججنا التي أعطيناك عليهم".

قال القرطبي:"{فاذهبا}، أي: أنت وأخوك فقد جعلته رسولا معك. {بآياتنا}، أي: ببراهيننا وبالمعجزات".

قوله تعالى: {إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} [الشعراء: ١٥]، أي:"فأنا معكما بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به".

قال السعدي:"أي: أحفظكما وأكلؤكما".

قال الطبري: أي:"من قوم فرعون ما يقولون لكم، ويجيبونكم به".

قال ابن كثير:"أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي".

قال الزمخشري:"يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما".

قال القرطبي:"يريد نفسه سبحانه وتعالى. {مستمعون}، أي: سامعون ما يقولون وما يجاوبون. وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في: [طه: ١]، {أسمع وأرى}، وقال: {معكم}، فأجراهما مجرى الجمع، لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل".

=

=

قال وهب:"قال لموسى- يعنى ربه ﷻ-: إني قد أقمتك اليوم في مقام لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامي، وكنت بأقرب الأمكنة مني فانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي، وإن معك ايدي وبصري".

قوله تعالى: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦]، أي:"فأتِيَا فرعون فقولا له: إنا مرسَلان إليك وإلى قومك من رب العالمين".

قال ابن كثير:"أي: كل منا رسول الله إليك".

قال ابن عباس:"لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما يجاوز يديها مرفقه، فاستؤذن على فرعون، فقال: أدخلوه. فدخل، فقال: إن إلهي أرسلني إليك. فقال: للقوم حوله ما علمت لكم من إله غيري. قال: خذوه".

قوله تعالى: {أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ١٧]، أي:"أن اترك بني إسرائيل؛ ليذهبوا معنا".

قال الزجاج:"معناه: إنا رسالة رب العالمين، أي: ذوو رسالة رب العالمين".

قال ابن كثير:"أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين".

قال ابن عباس:"قال: فرعون لموسى وهارون، ما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما سمعت. فقال: أريد أن تؤمن بالله ﷻ، وأن ترسل معي بني إسرائيل".

قال العثيمين: {وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين}؛ (إذ) هذه ظرف، عاملها محذوف تقديره ما قدره المصنف: [{و} اذكر يا محمد لقومك {وإذ نادى ربك موسى} ليلة رأى النار والشجرة ...]، إلى آخره.

قال: {وإذ نادى ربك موسى} ناداه: أي: دعاه بصوت مرتفع؛ لأن النداء لا يكون إلا بصوت عال، قال تعالى: {وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا} [مريم: ٥٢]، فالنداء يكون للبعيد، ويلزم أن يكون بصوت عال، وأما المناجاة

=

=

فهي للقريب.

قال: {وإذ نادى ربك موسى} هو ابن عمران عليه الصلاة والسلام، وقوله: {ربك} الإضافة هنا للتخصيص، فهي ربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله نوعان، كما أن عبوديته نوعان.

قال: {أن ائت القوم الظالمين}، (أن) تفسيرية؛ لأنها سبقت بمعنى القول دون حروفه، و (أن) إذا سبقت بمعنى القول دون حروفه تسمى تفسيرية، ومثلها {فأوحينا إليه أن اصنع الفلك} [المؤمنون: ٢٧]؛ لأن الوحي فيه معنى القول دون حروفه، فيعربون مثل هذه بأنها تفسيرية. ولهذا قال المصنف: [أي بأن {ائت}].

وقول المصنف: [ليلة رأى النار والشجرة]، فكونه (ليلة رأى النار) صحيح، قال تعالى: {إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا} [طه: ١٠]، وكذلك الشجرة، ولكن التزام أنه رآها فيه نظر؛ لأن سورة القصص لا تدل على أنه رآها، قال تعالى: {قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون (٢٩) فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين} [القصص: ٢٩ - ٣٠]، فلا يتبين من القرآن أنه رأى الشجرة، إنما يتبين أن الصوت سمعه من قبل الشجرة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أن ائت القوم الظالمين} رسولا]؛ لأنه ليس المراد أنه يأتيهم فقط، بل يأتيهم بالرسالة، و (القوم): الجماعة، و (الظالمين) سيأتي ذكر المصنف لمعنى الظلم.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قوم فرعون} معه، ظلموا أنفسهم بالكفر بالله وبني إسرائيل باستعبادهم]، فهم من الظالمين المعتدين الناقصين حق الله وحق العباد، أما حق الله فإنهم كفروا به وأشركوا به، وقد قال الله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم}

=

=

[لقمان: ١٣]، وأما حق الإنسان فقد استعبدوا بني إسرائيل، وصاروا يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم.

وفي قوله: {أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون} تخصيص بعد تعميم، أو بيان بعد إجمال؛ لأن {القوم الظالمين} مبهم، لكن: {قوم فرعون} مبين.

وفائدة الإبهام ثم البيان بعده التأكيد من وجه، وبيان الإهتمام به من وجه آخر، وتلقي السمع له بالقبول من وجه ثالث.

أما التأكيد فلأنه كرر مرتين: مرة مجملا، ومرة مبينا، وهذا التأكيد، وأما الإهتمام به فلأن ذكره مؤكدا دليل على أنه مهتم به، وأما تلقي السمع له بالقبول فلأنه إذا جاء اللفظ له مجملا بقي الذهن يدور: ما هذا؟ ومن هؤلاء مثلا؟ فإذا أتى البيان إليه بعد ذلك أتى إلى ذهن متشوق حريص على معرفة هذا المبهم، فيتلقاه بالقبول أكثر؛ لأنه متشوق إليه، ومتطلع إليه، فهذه فوائد البيان بعد الإجمال.

وفي وصفهم بالظلم قبل بيانهم - أي في هذه الآية - إشارة إلى عظم أمرهم، حيث قدم الوصف على الموصوف في الحقيقة؛ لأنه عندما يقال: {أن ائت القوم الظالمين} يتصور الإنسان ويعرف أنهم ظلمة، فإذا جاء بيانهم جاء بعد الحكم عليهم بهذا الوصف، مما يدل على قبح ما هم عليه من هذا الأمر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ألا} الهمزة للإستفهام الإنكاري {يتقون} الله بطاعته فيوحدونه]. قوله: {ألا يتقون} يحتمل أنه من المرسل به، يعني: يقول لهم {ألا يتقون}، ويحتمل أنه من كلام الله سبحانه وتعالى لموسى، ليبين له حالهم، وأنهم يتجنبون التقوى، وأن الأليق بهم أن يتقوا الله سبحانه وتعالى.

وقوله: [{ألا} الهمزة للإستفهام الإنكاري]، مقتضى كلامه أن يقول: الهمزة للإستفهام، و (لا) نافية، يعني: أهم لا يتقون، وأنه لا يصح أن يجعلها للعرض، نحو (ألا تنزل عندنا فتصيب خيرا)، ويكون المقصود بقوله: {ألا يتقون} عرض

=

=

التقوى عليهم.

فعلى كلام المصنف تعرب الهمزة وحدها، و (لا) وحدها، فتكون الهمزة للإستفهام، و (لا) نافية.

وعلى الإحتمال الذي ذكرنا أن تكون للعرض، يعني: اعرض عليهم التقوى ملزما لهم بها، وسبق أن المراد بالتقوى اتخاذ الوقاية من عذاب الله ا.هـ

ثم حكى- سبحانه- رد موسى فقال: قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ.

أى: قال موسى في الإجابة على ربه- ﷻ: يا رب إنى أعرف هؤلاء القوم، وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان، وإنى أخاف تكذيبهم لي عند ما أذهب إليهم لتبليغ وحيك وَيَضِيقُ صَدْرِي أى: وينتابنى الغم والهم بسبب تكذيبهم لي..

وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي أى: وليس عندي فصاحة اللسان التي تجعلني أظهر ما في نفسي من تفنيد لأباطيلهم، ومن إزهاق لشبهاتهم، خصوصا عند اشتداد غضبى عليهم.

فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ أى: فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون، ليكون معينا لي على تبليغ ما تكلفني بتبليغه.

قوله (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ) حيث إنى قتلت منهم نفسا.

وقد فسر بعض العلماء [على] في هذه الآية بـ[عند]، وهذا هو ما فسرها به ابن قتيبة حيث قال: (قال الله تعالى: {ولهم علي ذنب} [الشعراء:١٤]، أي: عندي).

وقال السمرقندي: (قال القتبي: [علي] بمعنى [عندي]، أي: لهم عندي ذنب).

وقال الزركشي: ([على] بمعنى [عند] نحو: {ولهم علي ذنب} [الشعراء:١٤]، أي: عندي).

وجعلها جماعة من المفسرين على تقدير محذوف.

كما قال السمعاني: (وقوله: {ولهم علي ذنب} [الشعراء:١٤]، أي: دعوى ذنب).

وكذا قال البغوي، وابن الجوزي.

=

=

وقال الزمخشري: (يعني: ولهم علي تبعة ذنب وهي قود ذلك القتل، فأخاف أن يقتلوني به، فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة).

ومثله قال البيضاوي، وكثير من المفسرين.

والأولى أن يقال: إن [على] في هذه الآية على بابها تفيد الاستعلاء لأمرين:

١ - أن الأصل عدم التضمين أو التقدير ما دام المعنى صحيحا بدونهما.

٢ - أنه قد يتبادر للذهن أن معنى الاستعلاء لا يكون إلا حسيا، وليس كذلك، بل يأتي ويكون معنويا، وهو كذلك في هذه الآية، كما قال ابن هشام: (وقد يكون الاستعلاء معنويا نحو: {ولهم علي ذنب} [الشعراء:١٤]، {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} [الرعد:٦]). والله أعلم.

قوله (فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) عند ما أذهب إليهم، على سبيل القصاص مني.

فأنت ترى أن موسى- عليه السلام- قد شكا إلى ربه خوفه من تكذيبهم وضيق صدره من طغيانهم، وعقدة في لسانه، وخشيته من قتلهم له عند ما يرونه.

وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة، أو الاعتذار عن تبليغها. وإنما هو من باب طلب العون من الله- تعالى- والاستعانة به- عز وجل- على تحمل هذا الأمر والتماس الإذن منه- في إرسال هارون معه. ليكون عونا له في مهمته، وليخلفه في تبليغ الرسالة في حال قتلهم له..

وشبيه بهذا الجواب ما حكاه عنه- سبحانه- في سورة طه في قوله- تعالى- اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى. قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا. إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيرًا.

وقد رد الله- تعالى- على نبيه موسى- عليه السلام- ردا حاسما لإزالة الخوف، ومزهقا

=

=

لكل ما يحتمل أى يساور نفسه من عدوان عليه، فقال- تعالى-: (قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

قال النحاس: (ثم قال جل وعز: {فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون (١٥)} [الشعراء:١٥]، يحتمل أن يكون {معكم} لموسى وهارون عليهما السلام؛ لأن الاثنين جمع كما قال تعالى: {فإن كان له إخوة} [النساء:١١]، ويحتمل أن يكون لموسى وهارون والآيات، ويحتمل أن يكون لموسى وهارون ومن أرسل إليهم، قال أبو جعفر: الأول أولاها؛ ليكون المعنى: إنا معكم ناصرين ومقوين).

قال أبو السعود: (وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا في المعية، وقيل: أجريا مجرى الجماعة، ويأباه ما قبله وما بعده من ضمير التثنية).

وقال الآلوسي: (والخطاب لموسى وهارون ومن يتبعهما من بني إسرائيل؛ فيتضمن الكلام البشارة بالإشارة إلى علو أمرهما واتباع القوم لهما، وذهب سيبويه إلى أنه لهما عليهما السلام، ولشرفهما وعظمتهما عند الله تعالى عوملا في الخطاب معاملة الجمع، واعترض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من ضمير التثنية، وقيل هو لهما عليهما السلام ولفرعون، واعتبر لكون الموعود بمحضر منه، وإن شئت ضم إلى ذلك قوم فرعون أيضا ...).

وأما قوله تعالى: {مستمعون} [الشعراء:١٥] فالمراد بالجمع التعظيم والتفخيم، وهو كثير في القرآن، وهذا ما أشار إليه العلماء.

قال السمعاني: (وأما قوله: {مستمعون} قد بينا مثل هذا فيما سبق وذكرنا أنه قد ذكر نفسه بلفظ الجماعة في مواضع على طريق التفخيم والتعظيم).

وقال ابن الجوزي: ({مستمعون}: نسمع ما تقولان وما يجيبونكما به).

وقال الشنقيطي: (صيغة الجمع في قوله: {إنا معكم مستمعون} [الشعراء:١٥] للتعظيم).

=

=

وفي استعمال الجمع أيضا اهتمام واعتناء وتسلية وضمان للحفظ والنصرة لهما.

أى: قال الله- تعالى- لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم: كلا، لا تخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك، أو أن لا ينطلق لسانك، أو أن يقتلوك. كلا لا تخف من شيء من ذلك، فأنا معكما برعايتي ومادام الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولانه لهم ولما سيقولونه لكما.

وعبر- سبحانه- بكلا المفيدة للزجر، لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى- عليه السلام.

والمراد بالآيات هنا: المعجزات التي أعطاها- سبحانه- لموسى وعلى رأسها العصا..

وقال- سبحانه- إِنَّا مَعَكُمْ مع أنهما اثنان، تعظيما لشأنهما أو لكون الاثنين أقل الجمع. أو المراد هما ومن أرسلا إليه.

والتعبير بقوله إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ بصيغة التأكيد والمعية والاستماع، فيه ما فيه من العناية بشأنهما، والرعاية لهما، والتأييد لأمرهما.

والفاء في قوله: فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما.

و «أن» في قوله أَنْ أَرْسِلْ مفسرة. لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول.

أى: اذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا.

فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه قُولا

له بكل شجاعة وجراءةنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

=

=

أى: رب جميع العوالم التي من بينها عالم الجن. وعالم الملائكة.

وقد أرسلنا- سبحانه- إليك، لكي تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك، وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكي يعبدوا الله- تعالى- وحده.

قال الآلوسى: «وإفراد الرسول في قوله نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

لأنه مصدر بحسب الأصل، وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة، كرجل عدل.. أو لوحدة المرسل أو المرسل به- أى: لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفي مهمة واحدة».

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا، ما أمر الله- تعالى- به نبيه موسى- عليه السلام- وما زوده به- سبحانه- من إرشاد وتعليم، بعد أن التمس منه- سبحانه- العون والتأييد.

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {قال رب إني أخاف أن يكذبون} [الشعراء: ١٢].

قال المصنف رحمه الله: [{قال} موسى {رب إني أخاف أن يكذبون}]، هذا جواب موسى عليه الصلاة والسلام لله مبينا له حاله حتى يكون الأمر لدى موسى واضحا، فينشط ويقوى، وليس المراد بهذا معارضة أمر الله؛ فإن موسى لن يعارض أمر الله ﷻ ولكن يريد أن يستبين الأمر؛ ماذا تكون حاله مع فرعون وقد اتصف بهذه الصفة، وهي الخوف، قال: {إني أخاف أن يكذبون}، و (أن) هذه مصدرية، يعني: أخاف تكذيبهم إياي، والمراد بالخوف هنا أنه يتوقع ذلك: {أن يكذبون}؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم منهم هذا الأمر، وعتوهم، واستكبارهم، والتزامهم بعبادة فرعون.

قال الله ﷻ: {ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون} [الشعراء: ١٣].

قال المصنف رحمه الله: [{ويضيق صدري} من تكذيبهم لي]، قوله: {ويضيق

=

=

صدري} فيه إشكال، حيث رفع مع أنه يلي المنصوب: {أن يكذبون} لأن (أن) هذه مصدرية، و (يكذبون) منصوبة بها بحذف النون، والنون الموجودة للوقاية، وأصلها: يكذبونني، ثم حذفت النون الأولى للناصب، وحذفت الياء للتخفيف، لكن قال: {ويضيق صدري} ولم يقل: "ويضيق صدري".

والجواب أن (الواو) عاطفة على قوله: {إني أخاف أن يكذبون}، يقول: أنا أخاف أن يكذبوني وأخاف أن يضيق صدري ولا ينطلق لساني بتكذيبهم.

و{أن يكذبون} لا تعدو أن تكون مفعولا به، مثل: ضربت زيدا وأكرمته.

قال تعالى: {ويضيق صدري}، وضيق الصدر: عدم انشراحه وانبساطه، وهذا أمر فطري أن الإنسان إذا خولف فسوف يضيق صدره، كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يضيق صدره، ولكن الله تعالى يسلي رسله، لئلا تضيق صدورهم، ولا يحزنوا على هؤلاء المكذبين؛ لأن لهم يوما يحاسبهم الله تعالى فيه والرسل يبلغون فقط.

ويقولون: إن ضيق الصدر من أسباب حدوث الضغط، ولهذا ينصحون المصابين بالضغط بأن يتجنبوا الغضب، وما يحزنهم ويضيق صدورهم، فهذا في الحقيقة هو الواقع؛ لأن الضغط يستلزم ضيق الصدر، وضيق التنفس، وضيق الأرض على الإنسان، فإذا عرض نفسه لما يفعل به ذلك ازداد عليه الضغط، فإذا عود نفسه الإنبساط والإنشراح وعدم الإكتراث في النوازل؛ فإنه يحصل خير كثير، ويبقى دائما في سرور، لا سيما إذا كان محتسبا ومؤمنا بالقدر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {ولا ينطلق لساني} بأداء الرسالة للعقدة التي فيه]، وهذه العقدة معنوية وليست حسية.

فإن قيل: هذه العقدة لأنه أخذ الجمرة وهو صغير.

قلنا: لا، قصة أخذ الجمرة باطلة، فقصة إسرائيل ليست مقبولة، لكن يحتمل أن

=

=

العقدة معنوية، بمعنى أنه لا يستطيع التعبير بانطلاق وفصاحة. وقوله: {واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي} [طه: ٢٧ - ٢٨]، وقول فرعون في وصفه {الذي هو مهين ولا يكاد يبين} [الزخرف: ٥٢]، يحتمل - وهو الأقرب - أن تكون فيه لثغة؛ إما سرعة القول بنطق الحروف، بحيث تتابع الحروف حتى لا تفهم؛ لأن من الناس من يكون كذلك، ليس في لسانه عقدة حسية، لكن تترادف الحروف في كلامه بحيث لا تدري ما يقول.

أو لأنه فيه لثغة لا تتبين الحروف من كلامه، وكل هذا محتمل، وهذه العقدة ليست كما ذكر من الجمرة، وأن لها أثرا حسيا يمنعه من الكلام، بل هي أثر خلقي، يعني بأصل الخلقة.

ويحتمل أنها جهل البيان، يعني: ليس فصيحا في خطابه وبيانه وإقناعه، لكن الأول أولى، وأنها عقدة معنوية، وذلك بصفة الكلام، بحيث لا تتبين الحروف في كلامه؛ إما لعجلته، وإما للثغته، أو غير ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فأرسل إلى} أخي {هارون} معي]، أرسل إليه يعني: ابعث له بالرسالة؛ حتى يكون معينا ووزيرا له، وقد قيل: إنه لا يوجد أحد أشد منة على أخيه من موسى على أخيه هارون؛ لأنه طلب أن يكون أخوه في المقام الأعلى من مقامات بني آدم الذين أنعم الله عليهم، وهي الرسالة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون} [الشعراء: ١٤].

ذكر الرسالة حيث قال: {فأرسل إلى هارون} ثم بين مانعا آخر غير التكذيب، فقال: {ولهم علي ذنب}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بقتل القبطي منهم {فأخاف أن يقتلون}، هذا خوف آخر ناتج عن معاملته معهم، والأول خوف يتعلق بالرسالة، فهذا خوف متعلق بالمعاملة معهم، ولهذا في الأول قال: {أخاف أن يكذبون}، ما قال: أن يقتلون، ولا كان يتصور أن يقتل إذا جاء بالرسالة، ولهذا قال في الثاني:

=

=

{ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون} بأي شيء؟ مثلما قال المصنف: [بقتل القبطي منهم]، وقصته مشهورة في سورة القصص.

حيث إنه عليه الصلاة والسلام كان رجلا قويا وشديدا، فخرج باكرا فوجد في المدينة رجلين يقتتلان؛ أحدهما من شيعته من بني إسرائيل، والثاني من عدوه: الأقباط، فاستنجد به الإسرائيلي، فوكز موسى القبطي حتى مات، وفي اليوم الثاني خرج فوجد صاحبه الإسرائيلي مع رجل آخر، وقال له موسى: {إنك لغوي مبين} [القصص: ١٨]، وأراد أن يبطش بالعدو، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به؛ لأنه وبخه وقال: {إنك لغوي مبين}، فلما تهيأ للبطش ظن أنه سيبطش به، فقال الإسرائيلي: {أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس} [القصص: ١٨ - ١٩]، - الله يكفيك شر من تحسن إليه! - فلما قال هكذا انتبه له القبطي، فدل على موسى بهذا السبب، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام خائفا يترقب ولجأ إلى الله سبحانه وتعالى {قال رب نجني من القوم الظالمين} [القصص: ٢١]، فنجاه الله ومن عليه بالرسالة.

قال تعالى: {ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون} أي: يقتلوني به، وحذفت الياء للتخفيف، والنون من الفعل حذفت للنصب.

وفي الآية دليل على جواز الخوف الطبيعي، وأنه ليس بشرك، وقد ذكر الخوف مرتين؛ قال: {رب إني أخاف أن يكذبون}، وقال: {فأخاف أن يقتلون}، والمقصود الخوف الثاني، والمراد بالأول ملازمه وهو التوقع، يعني يتوقع هذا، فقوله: {رب إني أخاف أن يكذبون} ليس معناه أنه يخاف خوف الذعر الذي يقع في النفس، بل المعنى التوقع.

قال الله ﷻ: {قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون} [الشعراء: ١٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} تعالى: {كلا} لا يقتلونك {فاذهبا} أي: أنت

=

=

وأخوك، ففيه تغليب الحاضر على الغائب]، وفيه أيضا أن الله تعالى أجاب دعاء موسى، كما قال في سورة طه: {قال قد أوتيت سؤلك ياموسى} [طه: ٣٦]، أجابه وأرسل إلى هارون بالرسالة.

قال: {فاذهبا بآياتنا} الباء للمصاحبة، أي مصاحبين بآيات الله، أي: العلامات الخاصة به، التي تدل عليه وحده دون غيره، والآيات التي ذهب بها هي الوحي، والثانية قلب العصا، والثالثة اليد.

هذه الآيات التي كانت عند الوحي إليه ثم تلاها بعد ذلك تسع آيات كما هو واضح. وهذه الآيات ثلاث: منها آية معنوية، وآيتان حسيتان مناسبتان للسحرة؛ لأن انقلاب العصا حية يشبه السحر وليس بسحر، لأن هذا حقيقة، والسحر خيال، وأيضا كون اليد إذا أدخلها في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء، يعني: من غير ضرر ونقص، هذا أيضا يشبه السحر، ولكنه ليس بسحر، ففيه آية من آيات الله سبحانه وتعالى المعجزة لهؤلاء أن يأتوا بمثلها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنا معكم مستمعون} ما تقولون وما يقال لكم، أجري مجرى الجماعة]. قال: إن الضمير لله سبحانه وتعالى بلفظ الغلبة، مع أنه في سورة طه قال: {إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦]، لكن هنا ذكر {إنا معكم مستمعون}، وكانت المبالغة حصلت بانضمام الأمرين: السمع والرؤية، وهنا ما ذكر إلا الإستماع فقط، ولهذا جاء في صورة العظمة بالنسبة للمبتدأ، فقال: {إنا معكم} ولم يقل: {إنني معكما} كما قال في سورة طه، يقول المصنف: [أجري مجرى الجماعة].

فالجواب عن هذا ما قال المصنف: [أجري الإثنان مجرى الجماعة]، وإذا قلنا: إن أقل الجمع اثنان نقول: هذا وإن كان بلفظ الجمع لكنه دال على الإثنين باعتبار الوضع اللغوي، فلا حاجة إلى التعيين.

=

=

وقيل: الجمع باعتبار ما مع موسى وهارون من الآيات؛ كأنهم ثلاث، وإن كانت الآيات ليست آدمية، ولكنها مؤيدة؛ لأن التأييد يكون بالأدلة وبقوة الداعي والمستدل.

ويحتمل أيضا أنه جمع باعتبار أن موسى وهارون سيكون لهما قوم وسيكون اجتماع موسى وهارون بقومهما.

قال الله ﷻ: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين} [الشعراء: ١٦].

قال: {فأتيا فرعون}، وقال قبلها: {أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون} [الشعراء: ١٠ - ١١]، فدل ذلك على أن القوم والآل إذا أضيفت إلى الشخص فإنه يدخل مع من أضيف لهم، فقوله: {أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [غافر: ٤٦]، لا يدل على نجاة فرعون؛ لقوله: {يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار} [هود: ٩٨]، فهو أولهم، وهنا أيضا {أن ائت القوم الظالمين} ثم قال: {فأتيا فرعون} مما يدل على أن القوم إذا أضيفت فأول ما يدخل فيها من أضيفت له، ما لم يمنع من ذلك مانع حسي كموته مثلا، فإذا مات لم تعد توجد فائدة، لكن إذا كان موجودا فهو أول من يدخل في قومه.

قال تعالى: {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين} ولم يبين الله تعالى صفة القول، بل بين هنا المقول، لكنه بين في آية في سورة طه: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى} [طه: ٤٤]، فأمر موسى وهارون بأن يقولا: إنهما رسول من الله، وذلك بلهجة لينة لا بلهجة قاسية؛ لأن القاسي إذا قوبل بلهجة قاسية قسا أكثر، فإذا قوبل بلهجة لينة اجتمع لين وقاس، فلا يحصل الصدام والإصطدام بينهما، وهذا من الحكمة في الدعوة، أما الإنسان إذا كان عاتيا جبارا فلا ينبغي أن يقابل بالعتو والجبروت؛ وذلك لأنه لا يزيد الأمر إلا شدة، فيقابل باللين حتى تقوم عليه الحجة.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فأتيا فرعون فقولا إنا} كلا منا {رسول رب العالمين}]، قدر المصنف (كلا منا) لأجل التناسب مع المبتدأ الذي هو اسم (إن)، والخبر الذي هو رسول: {إنا رسول}، وفي آية أخرى: {إنا رسولا ربك} [طه: ٤٧]، هكذا بالتثنية، وهنا بالإفراد، فخرج المصنف الآية على أن المعنى: كل واحد منا، كما في قوله تعالى: {واجعلنا للمتقين إماما} [الفرقان: ٧٤]، أي: اجعل كل واحد منهم. هذا أحد الوجوه.

وجه آخر أن {رسول} بمعنى الرسالة، أي بمعنى اسم المصدر، والمصدر إذا وصف به يستوي فيه المفرد وغيره.

ووجه ثالث أن يقال: إن الأصل في الرسالة موسى، وهو واحد، وهارون معين ووزير، وإلا فالأصل أن موسى هو الرسول، كما يوجد في آيات كثيرة ذكر موسى بدون ذكر هارون.

وقوله: {إنا رسول رب العالمين} ولم يقل: "إنا رسول الله"؛ لأنهما سيقابلان شخصا يدعي الربوبية وأنه الرب، فيتبين له من أول الأمر أن الربوبية ليست له وإنما هي لله.

والعالمون: كل من سوى الله فهو عالم، وكل المخلوقات عالم، ومع ذلك ربما تضاف إلى أنواعها، ويقال: عالم البشر، عالم الجن، عالم الإبل، عالم كذا وعالم كذا، لكن إذا جمعت هكذا شملت جميع أنواعها، فكل من سوى الله فإنه عالم، قالوا: وسموا عالما لأنهم علم على خالقهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنا رسول رب العالمين} إليك]، قدر المصنف (إليك) للإيضاح، وإلا فلا حاجة؛ لأنهما يخاطبانه، فهما {رسول رب العالمين} إليه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {أن أرسل معنا بني إسرائيل} [الشعراء: ١٧].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أن} أي: بأن {أرسل معنا} إلى الشام {بني إسرائيل}].

=

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨).

{قَالَ} فِرْعَوْن لِمُوسَى {أَلَمْ نُرَبِّك فِينَا} فِي مَنَازِلنَا {وَلِيدًا} صَغِيرًا قَرِيبًا مِنْ الْوِلَادَة بَعْد فِطَامه {وَلَبِثْت فِينَا مِنْ عُمُرك سِنِينَ} ثَلَاثِينَ سَنَة يَلْبَس مِنْ مَلَابِس فِرْعَوْن وَيَرْكَب مِنْ مَرَاكِبه وَكَانَ يُسَمَّى ابْنه.

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩).

{وَفَعَلْت فَعْلَتَك الَّتِي فَعَلْت} هِيَ قَتْله الْقِبْطِيّ {وَأَنْت مِنْ الْكَافِرِينَ} الْجَاحِدِينَ لِنِعْمَتِي عَلَيْك بِالتَّرْبِيَةِ وعدم الاستعباد.

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠).

{قَالَ} مُوسَى {فَعَلْتهَا إذًا} أَيْ حِينَئِذٍ {وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ} عَمَّا آتَانِي الله بَعْدهَا مِنْ العلم والرسالة.

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١).

{فَفَرَرْت مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حكما} علما {وجعلني من المرسلين}.

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢).

{وَتِلْكَ نِعْمَة تَمُنّهَا عَلَيَّ} أَصْله تَمُنّ بِهَا عَلَيَّ {أَنْ عَبَّدْت بَنِي إِسْرَائِيل} بَيَان

=

قوله: {أن أرسل معنا بني إسرائيل} الإرسال بمعنى الإطلاق، يعني: أطلقهم؛ لأنه كان قد ضيق عليهم الخناق وعذبهم بكونه يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فاضطر موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، ويطلقهم. وستأتي المناقشة بينه وبين موسى فيما بعد إن شاء الله.

لِتِلْكَ أَيْ اتَّخَذْتهمْ عَبِيدًا وَلَمْ تَسْتَعْبِدنِي لَا نِعْمَة لَك بِذَلِكَ لِظُلْمِك بِاسْتِعْبَادِهِمْ وَقَدَّرَ بَعْضهمْ أَوَّل الْكَلَام هَمْزَة اسْتِفْهَام لِلْإِنْكَارِ.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣).

{قَالَ فِرْعَوْن} لِمُوسَى {وَمَا رَبّ الْعَالَمِينَ} الَّذِي قُلْت إنَّك رَسُوله أَيْ أَيْ شَيْء هُوَ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ سَبِيل لِلْخَلْقِ إلَى مَعْرِفَة حَقِيقَته تَعَالَى وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَهُ بِصِفَاتِهِ أَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام بِبَعْضِهَا.

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤).

{قَالَ رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا} أَيْ خَالِق ذَلِكَ {إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقه فَآمِنُوا بِهِ وَحْده.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥).

{قَالَ} فِرْعَوْن {لِمَنْ حَوْله} مِنْ أَشْرَاف قَوْمه {أَلَا تَسْتَمِعُونَ} جَوَابه الَّذِي لَمْ يُطَابِق السُّؤَال.

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦).

{قَالَ} مُوسَى {رَبّكُمْ وَرَبّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ} وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيمَا قَبْله يَغِيظ فِرْعَوْن ولذلك.

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧).

{قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون}.

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨).

{قَالَ} مُوسَى {رَبّ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب وَمَا بَيْنهمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} أَنَّهُ كَذَلِكَ فَآمِنُوا بِهِ وحده.

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩).

{قَالَ} فِرْعَوْن لِمُوسَى {لَئِنْ اتَّخَذْت إلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنك مِنْ الْمَسْجُونِينَ} كَانَ سِجْنه شَدِيدًا يَحْبِس الشَّخْص فِي مَكَان تَحْت الْأَرْض وَحْده لَا يُبْصِر وَلَا يَسْمَع فِيهِ أَحَدًا.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠).

{قَالَ} لَهُ مُوسَى {أَوَلَوْ} أَيْ أَتَفْعَلُ ذَلِك وَلَوْ {جِئْتُك بِشَيْءٍ مُبِين} بُرْهَان بَيِّن عَلَى رسالتي.

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١).

{قَالَ} فِرْعَوْن لَهُ {فَأْتِ بِهِ إنْ كُنْت مِنْ الصَّادِقِينَ} فِيهِ.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢).

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَان مُبِين} حَيَّة عظيمة.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣).

{وَنَزَعَ يَده} أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبه {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء} ذَات شُعَاع {لِلنَّاظِرِينَ} خِلَاف مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْأَدْمَة.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤).

{قَالَ} فِرْعَوْن {لِلْمَلَإِ حَوْله إنَّ هَذَا لَسَاحِر عَلِيم} فَائِق فِي عِلْم السحر.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥).

{يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا} [الشعراء: ١٨]، أي:"قال فرعون لموسى -ممتنًا عليه-: ألم نُرَبِّك في منازلنا صغيرًا".

قال الطبري: في الكلام محذوف، تقديره:"فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة ربهما إليه، =

=

فقال فرعون: ألم نربك فينا يا موسى وليدا..".

قال ابن كثير:"أي: أما أنت الذي ربيناه فينا، وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذيناه".

قوله تعالى: {وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} [الشعراء: ١٨]، أي:"ومكثت في رعايتنا سنين من عُمُرك".

قال الطبري: "وذلك مكثه عنده قبل قتل القتيل الذي قتله من القبط".

قال ابن كثير:"أي وأنعمنا عليه مدة من السنين".

قوله تعالى: {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ} [الشعراء: ١٩]، أي:"وارتكبت جنايةً بقتلك رجلا من قومي حين ضربته ودفعته".

قال مجاهد:"قتل النفس".

قال الطبري: "يعني: قتله النفس التي قتل من القبط".

قال ابن كثير:"ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلا".

قال الصابوني:"والتعبيرُ بالفعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر، ومرادُه قتل القبطي".

وقرأ الشعبي «فعلتك» - بكسر الفاء -.

قال الزجاج:"والفتح أجود وأكثره لأنه يريد قتلت النفس قتلتك على مذهب المرة الواحدة، وقرأ الشعبي على معنى: وقتلت القتلة التي عرفتها، لأنه قتله بوكزة، يقال: جلست جلسة تريد مرة واحدة، وجلست جلسة - بالكسر تريد هيئة الجلوس".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الشعراء: ١٩]، أي:"وأنت من الجاحدين نعمتي المنكرين ربوبيتي؟".

قال ابن كثير:"وجحدت نعمتنا عليك".

قال الزجاج:"نفى موسى - ﷺ - الكفر واعترف بأن فعله ذلك جهل، فقال:

=

{قال فعلتها إذا وأنا من الضالين}، أي: من الجاهلين".

وفي قوله تعالى: {وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [الشعراء: ١٩]، وجهان:

أحدهما: أي: من الكافرين بالهك، كنت معنا على ديننا الذي تعيب، وهو قول الحسن، والسدي.

قال السدي:"يعني: على ديننا هذا الذي تعيب".

الثاني: من الكافرين لإحساني إليك وفضلي عليك. وهذا قول ابن عباس، وابن زيد، ومحمد بن إسحاق.

قال ابن عباس:"يقول: كافرا للنعمة، لأن فرعون لم يكن يعلم ما الكفر".

قال يحيى:"لنعمتنا، أي: إنا ربيناك".

قال ابن زيد:"ربيناك فينا وليدا، فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفسا، وكفرت نعمتنا!".

قال الطبري:"وهذا القول الذي قاله ابن زيد أشبه بتأويل الآية، لأن فرعون لم يكن مقرا لله بالربوبية وإنما كان يزعم أنه هو الرب، فغير جائز أن يقول لموسى إن كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السدي: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنت من الكافرين يومئذ يا موسى، على قولك اليوم، فيكون ذلك وجها يتوجه. فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه. وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك، وتربيتي إياك".

قال محمد بن إسحاق:"فلما وقف على فرعون قال إني رسول رب العالمين فعرفه فرعون قال: {ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين}، أي: لإحساني إليك وفضلي عليك، ولم تشكر نعمتي

=

ولا صنيعي، ثم قتلت رجلا من شيعتي".

قوله تعالى: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} [الشعراء: ٢٠]، أي:"قال موسى مجيبًا لفرعون: فعلتُ ما ذكرتَ قبل أن يوحي الله إلي، ويبعثني رسولا".

قال السمعاني:"أي: فعلت ما فعلت حينئذ {وأنا من الضالين} أي: من الجاهلين. وقيل: من الناسين".

قال ابن كثير:"أي: في تلك الحال، {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} أي: قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليَّ بالرسالة والنبوة".

قال الطبري:"قال موسى لفرعون: قتلت تلك النفس التي قتلت إذن وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله علي، والعرب تضع من الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضل الطريق، بمعنى واحد".

عن ابن عباس: "{قال فعلتها إذا وأنا من الضالين}، يقول: وأنا من الجاهلين".

عن مجاهد: "{وأنا من الضالين}، قال: من الجاهلين".

قال ابن زيد:"قبل أن يأتيني من الله شيء كان قتلي إياه ضلالة خطأ. قال: والضلالة ههنا الخطأ، لم يقل ضلاله فيما بينه وبين الله".

قال الضحاك:"فقال موسى: لم أكفر، ولكن فعلتها وأنا من الضالين. وفي حرف ابن مسعود: «فعلتها إذا وأنا من الجاهلين»".

وقال محمد بن إسحاق:"أي خطأ لا أريد ذلك".

قوله تعالى: {فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ} [الشعراء: ٢١]، أي:"فخرجت من بينكم فارًّا إلى «مدين» لمَّا خفت أن تقتلوني بما فعلتُ من غير عَمْد".

قال الطبري:"{ففررت منكم}، معشر الملأ من قوم فرعون {لما خفتكم} أن تقتلوني بقتلي القتيل منكم".

=

=

قوله تعالى: {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ٢١]، أي:"فوهب لي ربي تفضلا منه النبوة والعلم، وجعلني من المرسلين".

قال الطبري:"يقول: فوهب لي ربي نبوة وهي الحكم، وألحقني بعداد من أرسله إلى خلقه، مبلغا عنه رسالته إليهم بإرساله إياي إليك يا فرعون".

قال ابن كثير:"أي: الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سَلمت، وإن خالفته عَطبت".

قال السدي:"والحكم النبوة".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٢٢]، أي:"أو تلك التربية في بيتك تَعُدُّها نعمة منك عليَّ، وقد جعلت بني إسرائيل عبيدًا تذبح أبناءهم وتستبقي نساءهم للخدمة والامتهان؟".

قال الطبري: يقول:"وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركتني، فلم تستعبدني".

قال ابن كثير:"أي: وما أحسنت إلي وربَّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرتَه شيئا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم".

قال الأخفش:"{وتلك نعمة تمنها علي} فيقال هذا استفهام كأنه قال «أو تلك نعمة تمنها» ثم فسر فقال {أن عبدت بني إسرائيل} وجعله بدلا من النعمة".

قال الزجاج:"أخرجه المفسرون على جهة الإنكار أن تكون تلك نعمة، كأنه قال: فأية نعمة لك علي في أن عبدت بني إسرائيل. واللفظ لفظ خبر، والمعنى يخرج على ما قالوا على أن لفظه لفظ الخبر وفيه تبكيت للمخاطب كأنه قال له: هذه نعمة أن اتخذت بني إسرائيل عبيدا على جهة التبكيت لفرعون، واللفظ يوجب أن

=

=

موسى - ﷺ - قال: هذه نعمة لأنك اتخذت بني إسرائيل عبيدا ولم تتخذني عبدا. ويقال: عبدت الرجل، وأعبدته، اتخذته عبدا".

عن مجاهد: "{تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل}، قال: قهرتهم واستعملتهم".

قال ابن جريج:"قهرت وغلبت واستعملت بني إسرائيل".

وقال قتادة:"يقول موسى لفرعون: أتمن علي أن اتخذت أنت بني إسرائيل عبيدا".

قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)} [الشعراء: ٢٣]

قال فرعون لموسى: وما رب العالمين الذي تدَّعي أنك رسوله؟

قال الطبري:"يقول: وأي شيء رب العالمين؟".

قال ابن إسحاق:"يستوصفه الله الذي أرسله إليه أي ما إلهك هذا؟".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: «{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٤٩، ٥٠]».

ثم قال ابن كثير:"ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه".

عن ابن إسحاق، قال: فرعون وما رب العالمين قال: يستوصفه الله الذي أرسله

=

=

إليه أي ما إلهك هذا؟".

عن السدي: "{قال فرعون وما رب العالمين}،... قال: فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

عن أبي العالية في قوله:"{رب العالمين}، قال: الجن عالم، والإنس عالم وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة، وعلى الأرض في كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم خلقهم لعبادته تبارك وتعالى".

قوله تعالى: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء: ٢٤]، أي:"قال موسى: هو مالك ومدبر السموات والأرض وما بينهما".

قال الطبري:"{قال} موسى هو {رب السماوات والأرض} ومالكهن، ومالك ما بين السموات والأرض من شيء".

قال ابن كثير:"أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار

وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون".

قال السعدي:": أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية. ومن جملة ذلك، أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسماوات".

قال الزجاج:"فأجابه موسى - ﷺ - بما هو دليل على الله - جل وعز - بما خلق مما يعجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله".

قال ابن عباس:"فلم يزده إلا رغما".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} [الشعراء: ٢٤]، أي:"إن كنتم موقنين بذلك،

=

=

فآمِنوا".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السموات والأرض وما بينهما".

قال ابن كثير:"أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة".

قال الزمخشري:"معناه: إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب، وإلا لم ينفع. أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به، لظهوره وإنارة دليله".

قوله تعالى: {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥)} [الشعراء: ٢٥]

قال فرعون لمن حوله مِن أشراف قومه: ألا تسمعون مقالة موسى العجيبة بوجود رب سواي؟

قال الطبري:"قال فرعون لمن حوله من قومه: ألا تستمعون لما يقول موسى، فأخبر موسى عليه السلام القوم بالحواب عن مسألة فرعون إياه وقيله له (وما رب العالمين) ليفهم بذلك قوم فرعون مقالته لفرعون، وجوابه إياه عما سأله، إذ قال لهم فرعون {ألا تستمعون} إلى قول موسى".

قال الزجاج:"فتحير فرعون ولم يردد جوابا ينقض به هذا القول، فقال لمن حوله: {ألا تستمعون}".

قال ابن كثير:"التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: {أَلَا تَسْتَمِعُونَ} أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلها غيري؟".

قال ابن إسحاق:"أي: إنكارا لما قال أن ليس إلها غيري".

قال الزمخشري:"كان حوله أشراف قومه، قيل: كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت الملوك خاصة".

=

=

قوله تعالى: {قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦)} [الشعراء: ٢٦]

قال موسى: الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلقكم وخلق آباءكم الأولين، فكيف تعبدون مَن هو مخلوق مثلكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم؟

قال الطبري:"فقال لهم الذي دعوته إليه وإلى عبادته {ربكم} الذي خلقكم {ورب آبائكم الأولين}".

قال ابن إسحاق:"أي: وخلق آبائكم الأولين وخلقكم، من آبائكم".

قال ابن كثير:"أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذي كانوا قبل فرعون وزمانه".

قال الزمخشري:"قد عمم أولا، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم. لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)} [الشعراء: ٢٧]

قال فرعون لخاصته يستثير غضبهم؛ لتكذيب موسى إياه: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، يتكلم كلامًا لا يُعْقَل!

قال ابن إسحاق:"أي ما هذا الكلام صحيح أن يزعم أن لكم إليها غيري".

قال ابن كثير:"قال فرعون لقومه: ليس لرسولكم عقل في دعواه أن ثمّ ربا غيري".

قال الطبري:"يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله، لأنه يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونسب موسى عدو الله إلى الجنة، لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته، إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربا لهم في ذلك

=

=

الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أربابا ملوك أخر، كانوا قبل فرعون، قد مضوا فلم يكن عندهم أن موسى أخبرهم بشيء له معنى يفهمونه ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعون: إنه مجنون، لأن كلامه كان عندهم كلاما لا يعقلون معناه".

قال السعدي:"قال فرعون معاندا للحق، قادحا بمن جاء به: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم، بأنفسهم، خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص، من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}".

وقرئ: «الذي أرسل إليكم»، بفتح الهمزة.

قوله تعالى: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)} [الشعراء: ٢٨]

قال موسى: رب المشرق والمغرب وما بينهما وما يكون فيهما من نور وظلمة، وهذا يستوجب الإيمان به وحده إن كنتم من أهل العقل والتدبر!

قوله تعالى: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء: ٢٨]، أي:"قال موسى: رب المشرق والمغرب وما بينهما وما يكون فيهما من نور وظلمة".

قال ابن إسحاق:"أي: خالق المشرق والمغرب، {وما بينهما}، أي: خالق ما بينهما من الخلق".

عن مجاهد:"{رب المشرق والمغرب}، قال: عدد أيام السنة لها كل يوم مطلع

=

=

ومغرب، لا ترجع إلى مطلعها ذلك إلى يوم القيامة".

عن عطية العوفي:"{رب المشرق والمغرب}، قال: لها كل يوم مطلع ومغرب".

قال الطبري:"معناه: الذي أدعوكم وفرعون إلى عبادته رب المشرق والمغرب وما بينهما يعني ملك مشرق الشمس ومغربها، وما بينهما من شيء لا إلى عبادة ملوك مصر الذين كانوا ملوكها قبل فرعون لآبائكم فمضوا، ولا إلى عبادة فرعون الذي هو ملكها".

قال ابن كثير:"أي: {قال} موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سَخّرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالى عن {الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨]".

قال الزمخشري:"خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان، فبهت الذي كفر".

وقرئ: «رب المشارق والمغارب».

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [الشعراء: ٢٨]، أي:"وهذا يستوجب الإيمان به وحده إن كنتم من أهل العقل والتدبر!".

=

=

قال الطبري:"يقول: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح، إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر، وتبين لفرعون ومن حوله من قومه أن الذي يدعوهم موسى إلى عبادته، هو الملك الذي يملك الملوك".

قال السعدي: أي:"فقد أديت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا وأكملهم علما، بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأي شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأي شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة، أهدى منكم".

عن ابن زيد:"{تعقلون}: يتفكرون".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف قال أولا إن كنتم موقنين وآخرا إن كنتم تعقلون؟ قلت: لاين أولا، فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض: إن رسولكم لمجنون، بقوله: إن كنتم تعقلون".

قوله تعالى: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)} [الشعراء: ٢٩]

قال فرعون لموسى مهددًا له: لئن اتخذت إلهًا غيري لأسجننك مع مَن سجنت.

قال الطبري:"قال فرعون حينئذ استكبارا عن الحق، وتماديا في الغي لموسى: لئن

=

=

أقررت بمعبود". سواي لأسجننك مع من في السجن من أهله".

قال ابن إسحاق:"أي: إن أقمت على هذا أن تعبد غيري، وتترك عبادتي لأجعلنك من المسجونين".

قال ابن كثير:"لما غُلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى، عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.. لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال".

قال السعدي: "زعم – قبحه الله – أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلها غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو ومن معه، على بصيرة من أمرهم".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ألم يكن: لأسجننك، أخصر من: {لأجعلنك من المسجونين}، ومؤديا مؤداه؟

قلت: أما أخصر فنعم. وأما مؤد مؤداه فلا، لأن معناه: لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم في سجونى. وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهبة في الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشد من القتل وأشد".

قوله تعالى: {قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠)} [الشعراء: ٣٠]

قال موسى: أتجعلني من المسجونين، ولو جئتك ببرهان قاطع يتبين منه صدقي؟

قال الطبري: "قال موسى لفرعون لما عرفه ربه، وأنه رب المشرق والمغرب، ودعاه إلى عبادته وإخلاص الألوهة له: أتجعلني من المسجونين {أولو جئتك بشيء مبين} يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه؟ وإنما قال ذلك له، لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد

=

=

البيان".

قال ابن كثير:"أي: ببرهان قاطع واضح".

قال السعدي: "أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات".

عن قتادة:"{قال أولو جئتك بشيء مبين}، قال: موسى {أولو جئتك بشيء مبين}".

قال ابن إسحاق:"أي: بأمر تعرف به صدقي وكذبك وحقي وباطلك".

قال الزمخشري:"«الواو» في قوله: {أولو جئتك}: واو الحال، دخلت عليها همزة الاستفهام. معناه: أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشيء مبين، أى: جائيا بالمعجزة".

قوله تعالى: {قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)} [الشعراء: ٣١]

قال فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين في دعواك.

عن قتادة:"قال: فرعون: {فأت به إن كنت من الصادقين}".

قال السدي:"ثم قال له فرعون: {إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ١٠٦]. وذلك بعدما قال الله مِن الكلام ما ذكر الله، قال له موسى: {أولو جئتك بشيء مبين}".

قال الطبري: "قال له فرعون: فأت بالشيء المبين حقيقة ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذ إن اتخذت إلها غيري، إن كنت محقا فيما تقول، وصادقا فيما تصف وتخبر".

قال السدي:"ثم قال له فرعون: إن كنت جئت بآية فأت بها {إن كنت من الصادقين} وذلك بعد ما قال: الله من الكلام ما ذكر الله قال: له موسى: {أولو جئتك بشيء مبين}".

قال ابن عباس:"لقد دخل موسى على فرعون وعليه زرمانقة من صوف ما تجاوز

=

=

مرفقيه، قال: فاستؤذن على فرعون فقال: أدخلوه فدخل فقال: إن إلهي أرسلني إليك. فقال: للملأ حوله ما علمت لكم من إله غيري. قال: خذوه. قال: إني قد جئتك بآية، قال: {فأت به إن كنت من الصادقين}".

قال الزمخشري:"في قوله {إن كنت من الصادقين}: أنه لا يأتى بالمعجزة إلا الصادق في دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعي النبوة، والحكيم لا يصدق الكاذب".

قوله تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)} [الشعراء: ٣٢ - ٣٣]

فألقى موسى عصاه فتحولت ثعبانًا حقيقيًا، ليس تمويهًا كما يفعل السحرة، وأخرج يده مِن جيبه فإذا هي بيضاء كالثلج من غير برص، تَبْهَر الناظرين.

قوله تعالى: {فَأَلْقَى عَصَاهُ} [الشعراء: ٣٢]، أي:"فألقى موسى عصاه".

قال سعيد بن جبير:"كان عصا موسى من عوسج فقط".

قال الحكم: "كانت عصى موسى -عليه الصلاة والسلام- من عوسج ولم يسخر العوسج لأحد بعده".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} [الشعراء: ٣٢]، أي:"فتحولت ثعبانًا حقيقيًا، ليس تمويهًا كما يفعل السحرة".

قال الطبري:"يعني حية {مبين}، يقول: تتبين لمن يراها أنها حية".

عن ابن عباس: قوله: {ثعبان مبين}، قال: "الحية الذكر".

قال ابن عباس:"فالفى عصاه فصارت ثعبانا ما بين لحييه ما بين الشفق إلى الأرض".

قال ابن عباس:"فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه خافها فاقتحم على سريره، واستغاث

=

=

بموسى أن يكفها عنه ففعل".

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن معمر، عن قتادة، {فإذا هي ثعبان مبين}، قال: "تحولت حية عظيمة وقال: غيره مثل المدينة وقال: قتادة فأكلت سحرهم كله".

قال السدي:"والثعبان: الذكر من الحيات، فاتحةً فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رأها ذُعِر منها، ووثب فأحدث، ولم يكن يُحْدِث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا مؤمن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل! فأخذها موسى فعادت عصًا".

قال وهب بن منبه:"كان بين لحى الثعبان الذي من عصا موسى اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {وَنَزَعَ يَدَهُ} [الشعراء: ٣٣]، أي:"وأخرج يده مِن جيبه".

قال ابن عباس:"فأخرج يده من جيبه".

قال ابن كثير:"أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} [الشعراء: ٣٣]، أي:"فإذا هي بيضاء كالثلج من غير برص، تبْهر الناظرين".

قال ابن كثير:"أي: تتلألأ كقطعة من القمر".

قال مجاهد:"بيضاء من غير برص".

قال السدي:"وكان موسى رجلا آدم، فأخرج يده، فإذا هي بيضاء، أشد بياضا اللبن {من غير سوء}، قال: من غير برص، آيةً لفرعون".

قال ابن عباس:"أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص ثم أعادها إلى كمّه، فعادت إلى لونها الأول".

قال ابن عباس:"فأدخل يده في جيبه فأخرجها مثل البرق تلتمع الأبصار فخروا على وجوههم، وأخذ موسى عصاه ثم خرج ليس أحد من الناس إلا يفر منه".

قال ابن إسحاق:"ثم أدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء مثل الثلج ثم ردها

=

=

فرجعت كهيئتها وأدخل موسى يده في جيبه فصارت عصا بيده، يده بين شعبتيها ومحجنها في أسفلها كما كان وأخذ فرعون بطنه فكان فيما يزعمون يمكث الخميس والسبت ما يلتمس المذهب كما كان يلتمسه الناس، وكان ذلك مما زين له أن يقول: إنه ليس له في الناس شبيه".

قوله تعالى: {قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [الشعراء: ٣٤]، أي:"قال فرعون لأشراف قومه خشية أن يؤمنوا: إن موسى لَساحر ماهر".

قال ابن كثير:"فبادر فرعون - بشقائه - إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} أي: فاضل بارع في السحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة".

قال المراغي:"أي: ماهر فى فنون السحر".

قال ابن إسحاق:"قال: لملائه: {إن هذا لساحر عليم}، أي: ما ساحر أسحر منه".

قوله تعالى: {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ} [الشعراء: ٣٥]، أي:"يريد أن يخرجكم بسحره من أرضكم".

قال ابن كثير:"ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}؟ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟".

قال الطبري:"يريد: أرض مصر، معشر القبط السحرة".

قال السدي:"يستخرجكم من أرضكم".

قوله تعالى: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [الشعراء: ٣٥]، أي:"فأي شيء تشيرون به في شأنه أتبع رأيكم فيه؟".

قال الطبري:"يقول: فأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ بأي شيء تشيرون فيه؟".

=

=

قال ابن كثير:"وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافترائهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: ٦]".

عن محمد بن إسحاق: "{فماذا تأمرون}، أأقتله؟".

قال ابن عباس:"فلما أفاق وذهب، عن فرعون الروع قال للملإ حوله ماذا تأمرون".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين} [الشعراء: ١٨].

قال الله تبارك وتعالى في ذكر جواب فرعون لموسى: {ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} فرعون لموسى {ألم نربك}]، في الآية إيجاز، والإيجاز عند البلاغيين منقسم إلى قسمين: إيجاز حذف، وإيجاز اختصار، والموجود هنا إيجاز الحذف، ولهذا قال: [فأتياه فقالا له ما ذكر {قال} فرعون لموسى ...]، إلى آخره.

وموسى لما أدى الرسالة هو وأخوه، قال فرعون مجيبا لهذه الدعوة: [{ألم نربك فينا} في منازلنا {وليدا} صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامه]، هذه واحدة، {ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين} يعني: أفبعد هذا الأمر تأتي وتدعي أنك رسول رب العالمين؟ ! ومعنى ذلك أنه ينكر ربوبية فرعون، فكأنه يقول بعد هذه الأمور الثلاثة: كان الأليق بك أن تأتي معتذرا، وأن تأتي خاضعا؛ لأننا مننا عليك، ولأنك أخطأت علينا.

والمنة قال: [{ألم نربك فينا} في منازلنا {وليدا} صغيرا قريبا من الولادة بعد

=

=

فطامه]، والقصة معروفة في سورة القصص، أن الله تعالى أوحى إلى أمه إذا خافت عليه أن تجعله في تابوت، وتلقيه في اليم، وفعلت؛ إيمانا منها بوعد الله، ثم قدر الله تعالى أن وقع هذا التابوت في قبضة آل فرعون فالتقطوه؛ لحكمة يريدها الله ﷻ وهم لا يشعرون، فلما التقطوه أرسلت أم موسى أخته لتقص الخبر {فبصرت به عن جنب} [القصص: ١١]، عن بعد، ثم رأتهم يطلبون له مرضعة، فعرضت عليهم {هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون} [القصص: ١٢]، فرد إلى أمه، ولم يرتضع ثدي أنثى غيرها، وهذا من تمام قدرة الله ﷻ ووفائه بوعده، أنه رده إلى أمه قبل أن يتغذى بشيء سوى لبنها، وبقي معها حتى فطمته.

وبحسب الحال سوف يرجع إلى آل فرعون الذين التقطوه، فرجع إليهم فنشأ فيهم، وهذا من تمام قدرة الله أن ينشأ هذا الصبي الذي كان هلاك فرعون بسببه في حجره.

وقد قيل: إن فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل خوفا من هذا الولد؛ لأن الكهنة قالوا له: إنه سيظهر رجل في بني إسرائيل يكون زوال ملكك على يده، فصار يقتل أبناءهم.

هذه على كل حال من الإسرائيليات التي لا ندري هل تصدق أم لا؟ إنما كونه يقتل الأبناء ويستحيي النساء هذا في القرآن، لكن هل هو إذلال للشعب واستعباد لهم، أم خوفا من هذا الولد؟ الله أعلم.

على كل حال، تربى عندهم فكان يمن عليه فرعون بهذه المنة {ألم نربك فينا وليدا} يعني: فكيف تأتي ضد ما نريد، وتدعي أن لك ربا أرسلك، ثانيا: {ولبثت فينا من عمرك سنين} - وليس سنينا؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم -.

وقوله: {من عمرك} في الأصل صفة للسنين، أصلها: لبثت فينا سنين من عمرك،

=

=

ولكن القاعدة في النحو أن الصفة إذا قدمت أعربت حالا؛ لأن الحال صفة في المعنى، والصفة للمعنى - الذي هو النعت - لا يمكن أن تتقدم على المنعوت، لهذا قالوا: إن الصفة - صفة النكرة - إذا قدمت عليها أعربت حالا منها، هذه قاعدة عند النحويين.

قال: {من عمرك سنين} هذه السنون ثلاثون سنة، حسب ما قال المصنف وأكثر المصنفين، ولكن الأولى أن تبهم كما أبهم الله، لكن هم قدروا هذه الثلاثين لأن موسى عليه الصلاة والسلام نبئ على رأس الأربعين على ما هي عادة الله سبحانه وتعالى في إرسال الرسل، فقالوا: إن الثلاثين كانت عند فرعون، ثم إنه ذهب إلى مدين وبقي فيهم عشر سنوات، ثم أرسله الله.

فمن هنا صارت السنون ثلاثين، ولكن هذا ليس بلازم؛ لأنه قد يكون تربى عند فرعون أقل من هذا، ثم انضم إلى بني إسرائيل، فلهذا لا ينبغي أن نجزم بأنها ثلاثون سنة، فلنقل كما قال الله: {سنين} وهي جمع، وأقل الجمع ثلاث سنوات، ولكن يبدو أنها أكثر؛ لأن الثلاث سنوات قد لا تكون بها تلك المنة التي يمن بها فرعون.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [يلبس من ملابس فرعون، ويركب من مراكبه، وكان يسمى ابنه]، ولذلك قالت امرأة فرعون: {لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا} [القصص: ٩].

فهذا دليل على أنهم اتخذوه ولدا، يعني: عسى أن ينفعنا مطلقا وإن لم يتبنه أو نتخذه ولدا، ومن المعلوم أن الولد سوف ينفع، ولكن الله يقول: {وهم لا يشعرون} [القصص: ٩] لم يكن الأمر كما توقعوه، بل كان بالعكس.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين} [الشعراء: ١٩].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وفعلت فعلتك التي فعلت} وهي قتله القبطي]، {وفعلت

=

=

فعلتك} أبهمها تعظيما لها، والإبهام يأتي للتعظيم أحيانا، كما في قوله تعالى: {الحاقة (١) ما الحاقة} [الحاقة: ١ - ٢]، وقوله: {فغشيهم من اليم ما غشيهم} [طه: ٧٨]، هذا إبهام يراد به التعظيم، وهنا قال: {وفعلت فعلتك} ولم يقل: قتلت القبطي؛ إشارة إلى تعظيمها، وأضافها إليه من باب التقرير، يعني: إنك فعلت تلك الفعلة التي لم يفعلها سواك، وهي قتله القبطي، الذي كان في مشاجرة مع الإسرائيلي.

قال تعالى: {وأنت من الكافرين}، الجملة حال من الضمير في {فعلت}.

قال: {وأنت من الكافرين} الكافرين: ليس بالله؛ لأنه لا يؤمن بالله، ولكن من الكافرين بفرعون؛ لأن موسى لم يتخذه إلها كما اتخذه الأقباط.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأنت من الكافرين} الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية وعدم الإستعباد]، فهذا ما ذهب إليه المصنف؛ أن المراد بالكفر هنا كفر النعمة، وذلك جحده لما من به فرعون عليه من التربية، وعدم الإستعباد، كما استعبد بني إسرائيل، ولكن الذي ينبغي أن نقول: هي أعم مما قال المصنف، بل كذلك - وهي الأهم عند فرعون - أنه كفر بعبوديته، فلم يتعبد له.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قال فعلتها إذا وأنا من الضالين} [الشعراء: ٢٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} موسى {فعلتها إذا} أي: حينئذ {وأنا من الضالين} عما آتاني الله بعدها من العلم والرسالة].

قوله: {فعلتها إذا} كلمة (إذا) للمستقبل؛ لأن أصلها: (إذا)، فنونت، و (حينئذ) تكون للماضي، فتفسير المصنف (إذا) بـ (حينئذ) من باب التفسير بالمعنى، لا التفسير باللفظ؛ إذ لا يفسر حرف بحرف يقابله في المعنى، ولكن من باب التفسير بالمعنى، يعني: فعلتها حينئذ فعلتها فيما مضى {وأنا من الضالين}.

وذهب بعض المصنفين إلى أن (إذا) على ما هي عليه جواب لفرعون كالمتهكم

=

=

به، كأنه يقول (إذن أفعلها) يعني: ولا أبالي بك، ولكني من الضالين الجاهلين لحكم القتل. ولعل هذا أقرب أن تكون: (إذا) على بابها ليست بمعنى الماضي، وكأن ذلك جواب لفرعون على سبيل الإستهانة به وعدم الإكتراث، وأنه لا يبالي به.

وقوله: {وأنا من الضالين} جواب لقول فرعون له: {وأنت من الكافرين} [الشعراء: ١٩]. وقوله: {وأنا من الضالين} يقول الشارح - أو المصنف-: [عما آتاني الله بعدها من العلم والرسالة]، فيكون المراد بالضلال هنا الجهل. وعلى هذا فيكون الضلال ينقسم إلى قسمين:

* ضلال يذم عليه الفاعل أو الضال.
* وضلال لا يذم عليه.

والضلال الذي حصل أو الذي اتصف به موسى حين قتله القبطي ضلال لا يلام عليه؛ لأنه لم يأته وحي ولا رسالة حينئذ، فهو معذور، ومن هنا نعرف أنه يصح أن نصف المخالفين للصواب من أهل العلم بالضلالة، لكن لا الضلال المطلق الذي يذمون عليه إذا عرف أنهم أهل نصح في الإسلام، لكن أخطئوا بعد الإجتهاد.

مثال ذلك: أن كثيرا من أهل العلم أشاعرة من الذين عرفوا بالإخلاص للإسلام، وبمقام الصدق فيه، ومع ذلك نصفهم بأنهم ضالون، لكن لا الضلال المطلق الذي يشم منه، أو يشعر بالذم والقدح، لكن المراد مخالفة الصواب، وإلا سنجد من يشنع إذا قلنا مثلا: ابن حجر ضال، والنووي ضال، وكثير من أكابر العلماء مخطئون للصواب، أو مخطئون فيما يقولون، مجانبون للصواب، لكن لا نقول: ليس الضلال المطلق الذي يذم عليه الفاعل؛ لأن الضلال مع الإجتهاد وتحري الحق لا يذم عليه المرء وإن وصف به.

فائدة: قوله: {إذا} في جواب للحال باعتبار جوابه لفرعون. وقوله: {وأنا من

=

=

الضالين} الجملة الحالية حال من الفاعل {فعلتها}، فـ {إذا} لا تكون متعلقة بـ (فعلت)، وتكون متعلقة بجواب: أجيبك إذن، {فعلتها إذا وأنا من الضالين} يعني: باعتبار جوابه لفرعون، لا باعتبار أنه فعلها.

فكأنه يشعر بعدم الإكتراث وبالتحدي لفرعون، وأنه لم يبال به. يقول {وأنا من الضالين} والمراد بالضلال: الجهل الذي ليس عن عمد.

قال الله ﷻ: {ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين} [الشعراء: ٢١].

قال: {ففررت منكم}. وسبب فراره منهم أن رجلا جاءه يسعى وقال: {ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين} [القصص: ٢٠]، وهذا الرجل مجهول، لكن قبل موسى خبره لوجود القرينة؛ وهي قتله القبطي، وإلا فإنه ما يقبل خبر رجل مجهول. ثم إن هذا الرجل أكد خبره بقوله: {فاخرج إني لك من الناصحين} فخرج وفر منه خائفا.

قال: {ففررت منكم لما خفتكم}، (لما) ظرف بمعنى: (حين)، وتستعمل عدة استعمالات، فتستعمل ظرفا بمعنى: (حين)، وتستعمل بمعنى أداة استثناء، بمعنى: (إلا)، وتستعمل شرطية، وتستعمل نافية، أما استعمالها نافية ففي مثل قول الله تعالى: {ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} [الحجرات: ١٤]، يعني: لم يدخل.

وأما استعمالها شرطية ففي مثل قوله تعالى: {ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون} [البقرة: ١٠١]، فهذه الشرطية، وأما استعمالها بمعنى (إلا) ففي مثل قول الله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: ٤]، يعني: ما كل نفس إلا عليها حافظ.

=

=

وهنا {لما خفتكم} اسم بمعنى: (حين)، فهي ظرف يعني: حين خفتكم.

وهذا مما يؤيد ما سبق أن أشرنا إليه بأن الكلمات تعتبر حقيقة بحسب السياق، وأن هذا هو مأخذ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في أنه ليس في اللغة العربية ما يسمى بالمجاز مطلقا؛ لأن اللفظ ليس أمرا ذاتيا للكلمة، بل الكلمة لها معنى بحسب قياسها وقرائن أحوالها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فوهب لي ربي حكما} علما {وجعلني من المرسلين}].

{فوهب لي}: أعطاني، قال: [{حكما} علما]، ولكن تفسير الحكم بالعلم قد يقول قائل: إن فيه نظرا؛ لأن الله تعالى يعطف بعضهما على بعض؛ كما في قوله تعالى: {آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين} [يوسف: ٢٢]، والعطف يقتضي المغايرة، وإذا كان كذلك، فإنه لا يمكن أن يفسر أحدهما بالآخر.

ولننظر: هل هذا الإعتراض صحيح، أم يقال: إنهما من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت، فإذا اجتمعتا تغايرتا، وإذا انفردت إحداهما صار معنى كل واحدة معنى الأخرى.

قال تعالى: {فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين} الحكم: القضاء بالشيء، ويسمى حكما، ولا حكم إلا بعلم، فتفسير الحكم بلازمه، وإذا جمع مع العلم صار العلم ضد الجهل، والحكم تطبيق ذلك العلم، فالذي يظهر أن المراد بالحكم هنا أخف من العلم، يعني: الحكم: القضاء، أو ما به يقضي الإنسان بين الناس، ولا يكون ذلك إلا بعلم، فتفسير المصنف له تفسير بلازمه؛ لأن من لازم الحكم العلم، وليس من لازم العلم الحكم؛ لأنه قد يعلم ولكن لا يحكم.

وقوله: {فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين} هذا بعد أن أوحى الله إليه وآتاه من العلم والحكم جعله أيضا مرسلا وكلف بالرسالة.

وفي قوله: {من المرسلين} ولم يقل: وجعلني رسولا، كالتنبيه لفرعون أنه ليس

=

=

ببدع من الرسل، وأنه لم يأت بأمر جديد، بل إن أمامه رسلا، وقد ذكر الله تعالى في سورة غافر أن الرجل المؤمن يقول لهم: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به} [غافر: ٣٤]، فكأنه يقول له: {وجعلني من المرسلين} الذين عندك خبرهم، فلست ببدع من الرسل.

قال الله ﷻ: {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} [الشعراء: ٢٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وتلك نعمة تمنها علي} أصلها: تمن بها علي]، أي: تجعل بها منة علي، ولكن حذف حرف الجر وعدي الفعل إليها. قال: {تمنها علي} أي: تجعلها منة {أن عبدت بني إسرائيل} يقول: [بيان لـ (تلك)، أي: اتخذتهم عبيدا]، وإذا كانت بيانا لـ (تلك) فتكون (أن) تفسيرية، تفسير لاسم الإشارة في قوله: {وتلك نعمة} أي: حين عبدت بني إسرائيل جعلت تربيتي عندك وليد النعمة، وفي الحقيقة هذا ليس بنعمة؛ لأن كون الإنسان لا يقتل هذا الرجل وهو يقتل غيره عدوانا ليس بنعمة؛ لأن أصل قتل أولئك ظلم وجور، فكونه لا يقتل هذا الرجل ليس نعمة.

وغاية ما هنالك أنه لم يظلمه، فهو لن يدفع عنه ضررا نازلا به من غيره، ولم يجلب إليه نفعا. فموسى يقول: كيف تمن علي بهذه النعمة أن عبدت بني إسرائيل، يعني: ولم تستعبدني، فهذه ليست نعمة؛ لأن كون الإنسان لا يظلم هذا الرجل ويظلم ذاك، فهذا ليس نعمة على من لم يظلم؛ إذ لم يسد إليه نفعا، ولم يدفع عنه ضررا، غاية ما هنالك أنه امتنع عن ظلمه.

وفي الواقع امتناعه عن ظلمه نعمة على نفس الظالم؛ أن الله تعالى أنعم عليه فمنعه من ظلم هذا الرجل، ولهذا يقول المصنف: [{أن عبدت بني إسرائيل} ولم تستعبدني، لا نعمة لك بذلك لظلمك باستعبادهم]، فأنت ما أعطيتني منة جديدة ونعمة جديدة حتى تمن بها، فهو ينكر عليه، ولهذا يقول المصنف: [وقدر بعضهم

=

=

أول الكلام همزة استفهام للإنكار]، يقول: كيف تمن علي بهذا الشيء؛ بأنك عبدت بني إسرائيل، هذا ليس بنعمة.

ففرعون يراها نعمة، قال: {قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين (١٨) وفعلت فعلتك} فهو جعل هذه من النعم.

قال تعالى: {وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل} كونك عبدتهم، أي: جعلتهم عبيدا لك، ووجه الإستعباد أنه - والعياذ بالله - كان يقتل الرجال، فتبقى النساء بدون قيم، والمرأة إذا بقيت بدون قيم تضطر إلى أن تخدم، ولهذا قال العلماء: إنه كان يستخدم النساء فيبقيهن بالضرورة، وإذا لم يكن لهن قيم سوف يلجأن إلى الأقباط لاستخدامهن.

وسبق أن قال موسى: {وأنا من الضالين} [الشعراء: ٢٠]، ثم قال: {ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين} [الشعراء: ٢١]، فكأنه يقول: أنتم لم تألوا جهدا في معاقبتي، ولكنني فررت منكم فلم تدركوني فنجوت، فالعقوبة نجوت منها بالفرار، والجهل تنزهت منه بالرسالة.

فكأنه يقول: ترك الظلم بالنسبة إلي لا يعد نعمة؛ لأن الإنسان ليس مستحقا له حتى نقول: إنه عفا عنه وتركه، فهذا ما صار عليه المصنف، لكن هناك احتمال آخر، فالإساءة إلى قومه إساءة له، فكأنه يؤكد نفي النعمة، يعني: أين النعمة وأنت قد عبدت بني إسرائيل وهم قومي، فإذا قدر أني سلمت من التعبيد والظلم، فأنا فرد من قبيلة وقومي قد عبدتهم، فأين النعمة؟ !

وقوله: [قدر بعضهم أول الكلام همزة]، ليس ببعيد أنه قال: أوتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل. يعني: فليس لك علي نعمة.

و(أن) تبين المبهم في قوله: {وتلك نعمة تمنها علي} فكأنه يقول: تمن علي بهذه النعمة حين عبدت بني إسرائيل، يعني: ولم تستعبدهم، هذا هو المعنى.

=

=

ولولا أن هذا المعنى ظاهر لقلنا: إن موسى عليه الصلاة والسلام صرف نعمته عليه كالمتهكم به، يعني: يقول: أين النعمة التي أنعمت بها علي وأنت تعبد بني إسرائيل؛ لأن تعبيد بني إسرائيل خلاف النعمة في الواقع، ومن المعلوم أن موسى من بني إسرائيل، فتعبيد بني إسرائيل - وهم قومه - إذلال له، وهذا معنى جيد في الحقيقة، نقول: {وتلك نعمة تمنها علي} يعني: كيف تمن علي بهذه النعمة وأنت تعبد بني إسرائيل، ويكون هذا من باب ما يسمونه بـ(تأكيد الذم بما يشبه المدح)، وحينئذ تكون {أن عبدت بني إسرائيل} تفسيرا لـ(تلك)، يعني: أهذه النعمة التي تمنها علي أن تعبد بني إسرائيل، فأين النعمة؟ ! فهذا معنى جيد.

قال الله ﷻ: {قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين} [الشعراء: ٢٣ - ٢٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال فرعون} لموسى {وما رب العالمين} الذي قلت: إنك رسوله؟ أي: أي شيء هو؟ ولما لم يكن سبيل للخلق إلى معرفة حقيقته تعالى، وإنما يعرفونه بصفاته، أجابه موسى ببعضها {قال رب السماوات والأرض}].

هذا الكلام الذي قاله المصنف في تفسير الجملة بعيد من الصواب كل البعد؛ قوله: {وما رب العالمين} من المعروف أن (ما) يستفهم بها عن الحقيقة، فتقول: ما الذهب؟ يقال مثلا: هو معدن نفيس.. إلى آخره، تقول مثلا: ما العلم؟ تقول: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازما، فـ(ما) يستفهم بها في الأصل عن الحقيقة.

ويدعي المصنف أن فرعون استفهم عن ذلك - عن الحقيقة - ولكنه ليس كذلك، ففرعون استفهم عن هذه الربوبية؛ لأنه قال: {إنا رسول رب العالمين}، فما هذه الربوبية التي زعمت أن الله تعالى أرسلك وهو رب العالمين؟ !

=

=

لأننا لو قلنا: إنه يستفهم عن حقيقة الله سبحانه وتعالى للزم من ذلك أن يكون قد أقر به، وهو لم يقر به حتى يسأل عن حقيقة هذا الرب، وإنما ينكر الرب أصلا، فالإستفهام للإنكار: أي شيء هو رب العالمين الذي زعمت أنه أرسلك؟ ! يعني: ليس هناك رب، فالتفسير الذي ذهب إليه المصنف بناء على ما هو معروف من أن (ما) - وهو عند المناطق أيضا، ليس معروفا في اللغة العربية، بل عند أهل المنطق - يستفهم بها عن كنه الشيء وحقيقته، فقال: إن فرعون يستفهم عن كنه الخالق سبحانه وتعالى وحقيقته، ولكن موسى لما لم يمكن أن يجيب عن ذلك، عدل إلى بيان صفة من صفاته، فيكون الجواب من موسى غير مطابق للسؤال، ويسمى هذا بأسلوب الحكيم، أن يجاب السائل بغير ما يتوقع.

ولكن ما قاله وما ذهب إليه ليس بصحيح، كما أنكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، وقال: إن هذا معناه إقرار فرعون بالله، لكن يسأل عن حقيقة هذا الإله، فالصواب أن موسى عليه الصلاة والسلام أجابه بجواب مطابق للسؤال، وأن فرعون يسأل عن هذه الربوبية التي زعم موسى أنه مرسل من رب العالمين فقال {وما رب العالمين}؟ ! أي شيء رب العالمين الذي أرسلك؟ ! وليس معناه: أي شيء هو مادته.

والجواب: [{قال رب السماوات والأرض وما بينهما} أي: خالق ذلك]، ولا يكفي أن يفسر بالخالق، بل خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه؛ لأن الرب لا يكفي أن يكون خالقا، بل لا بد من خلق وتدبير وتصرف.

قال: {السماوات والأرض وما بينهما} وليست ربوبية فرعون كهذه الربوبية؟ وفرعون يدخل في ذلك؛ لأن الله ربه، لأنه لا يخرج عن السماوات والأرض وما بينهما، فهو في الأرض، وكأنه أيضا أجاب بهذا إشارة إلى إبطال عبودية فرعون، لأن فرعون لا خلق سماوات ولا أرضا، ولا ما بينهما، فالذي يستحق الربوبية هو

=

=

الله.

وينبغي الوقوف: {رب السماوات والأرض وما بينهما}، ثم يقال: {إن كنتم موقنين} فالأمر بين.

ولهذا المصنف قدر الجواب، وقال: [{إن كنتم موقنين} بأنه تعالى خالقه فآمنوا به وحده].

وإنما قلنا: إنها لا تعلق لها بما قبل؛ لأنه لو تعلقت بما قبلها لكان معنى أنه رب السماوات والأرض إن أيقنوا بذلك وإلا فليس رب السماوات والأرض، وهذا الكلام لا يستقيم.

والتقدير: {إن كنتم موقنين} - أي: من ذوي الإيقان - فأيقنوا بذلك؛ لأنه لا أحد يقدر على خلق السماوات والأرض، فـ(إن) هنا شرطية، وجواب الشرط محذوف، وقدر المصنف: (فآمنوا به وحده). و (آمنوا) و (أيقنوا) معناهما واحد.

قال الله ﷻ: {قال لمن حوله ألا تستمعون} [الشعراء: ٢٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} فرعون {لمن حوله} من أشراف قومه: {ألا تستمعون} جوابه الذي لم يطابق السؤال]، وهذا غريب! فالإستفهام هنا للتهكم بلا شك، يعني: ألا تستمعون إلى هذا الذي زعم أن رب العالمين رب السماوات والأرض، والواقع - على حسب زعمه - أن رب العالمين هو فرعون، فهو يتهكم به، يقول: استمعوا إلى هذا يقول: إن رب العالمين رب السماوات والأرض وما بينهما. فيكون على هذا خاطئا في تهكمه، وقصده بهذا حقيقة التهويل، وتحطيم موسى عليه الصلاة والسلام، وبيان أن ما جاء به ليس بصواب، أما على رأي المصنف فجوابه لم يطابق السؤال، ولو كان الأمر كذلك لكان فرعون محقا في اعتراضه؛ لأن كل أحد إذا عرف أن الإنسان أجاب بغير ما سئل عنه فمعنى ذلك أنه منقطع عن الحجة، وعاجز عن دفعها، فهذا من أبعد ما يكون.

=

=

ونحن نقول للمؤلف ولغير المصنف ممن نشأ على طريقته: إن جواب موسى {رب السماوات والأرض وما بينهما} مطابق للسؤال، وإن فرعون لم يسأل عن حقيقة وكنه الخالق أبدا، ولا دار في فكره هذا، ولا يبالي به من أي شيء هو.

فلهذا نقول: إن الجواب مطابق للسؤال، و {ألا تستمعون} الإستفهام للتهكم، لأن موسى أتى بأمر بعيد عما يريده فرعون، ففرعون الذي يقول: {وما رب العالمين} يريد من موسى أن يقول: رب العالمين فرعون، ولكنه قال: {رب السماوات والأرض وما بينهما}، ثم أيضا استبلههم بقوله: {إن كنتم موقنين} يعني: إن كنتم من ذوي الإيقان والعلم فأيقنوا بذلك.

والإستفهام هنا في {ألا تستمعون} في هذا المقام لا شك أنه سيصدر من مثل فرعون، حيث يتهكم بموسى الذي جاء بالحقيقة ولا يستطيع فرعون أن يدفعها.

قال الله ﷻ: {قال ربكم ورب آبائكم الأولين} [الشعراء: ٢٦].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} موسى: {ربكم ورب آبائكم الأولين} وهذا وإن كان داخلا فيما قبله يغيظ فرعون].

موسى عليه السلام أسلوبه أسلوب حكيم: أتى أولا بالربوبية العامة للسماوات والأرض وما بينهما، ثم أتى للربوبية الخاصة لفرعون الذي يدعي أنه ربه، وقال: {ربكم ورب آبائكم الأولين}، إشارة إلى أنكم أنتم أتيتم من آبائكم، ومن أتى من أب فكيف يمكن أن يكون ربا؟ ! هو مخلوق من نطفة.

فكأنه يقول: ارجعوا إلى أصلكم، فالله تعالى ربكم أنتم الذين تدعون أنكم أرباب ورب آبائكم الأولين الذين أتيتم منهم، فيذكرهم بأصلهم؛ ليذكروا أنهم كانوا محدثين، وأنهم لا يصلحون لأن يكونوا أربابا، وهذا من حسن الجواب، وفي الحقيقة كل جواب يقوله موسى فهو حجة قاطعة تدمغهم، ولكن - والعياذ بالله - من لم يوفق بالحق فإنه لا ينتفع به ويستكبر عنه.

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ربكم ورب آبائكم الأولين} وهذا وإن كان داخلا فيما قبله يغيظ فرعون]، وفي الحقيقة هذا كلام لين من المصنف، ولو قال: هذا أيضا إقامة حجة أخرى على فرعون أنهم مربوبون، وأنهم مخلوقون من أصلاب آبائهم الأولين، ومن كان كذلك مولودا فلا يستحق أن يكون ربا وإلها - الله أكبر - لو قال ذلك لكان أولى، فالرسل يعانون من أقوامهم شيئا كثيرا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: ٢٧].

(إن) للتوكيد، و (لمجنون) اللام أيضا للتوكيد، فأكد جنون موسى بأمرين؛ بـ (إن) واللام، وفي قوله: {إن رسولكم} من التهكم ما هو غير خفي، يتهكم به لأنه ينكر رسالته وينكر ربوبية ما أرسله، فهذا من باب التهكم به، ثم إنه لم يضفه إلى نفسه تكبرا، فما قال: إن الرسول الذي أرسل إلينا أو إن رسولنا، قال: {إن رسولكم}، وهذا علو منه وتكبر وتهكم بموسى.

فالعلو والتكبر والترفع حيث أضافه إليهم، فكأنه هو في شأن أعلى من أن يرسل إليه ولا على سبيل التهكم، ثم إن إضافة الرسالة إليهم وهو ينكر ذلك تهكم بموسى ظاهر، فقوله: {الذي أرسل إليكم} ولم يقل: أرسله رب العالمين، مع أن موسى قال: إني رسول رب العالمين؛ لأنه ما سمح لنفسه أن يصف الله تعالى بالربوبية ولا على سبيل التهكم.

وقوله: {لمجنون} المجنون: فاقد العقل، وهذا دأب جميع الذين كذبوا الرسل، قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢]، يقولون: ساحر أو مجنون، و (أو) هذه مانعة خلو وليست مانعة جمع؛ لأنهم قد يقولون: ساحر فقط، أو مجنون فقط، أو ساحر ومجنون، وهذا ما وقع لموسى عليه الصلاة والسلام كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون} [الشعراء:

=

=

٢٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} موسى: {رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون}]، يعني: هو رب المشرق والمغرب، {رب المشرق} ليس المراد منه الجهة فقط، ولكن المراد الجهة وما يحدث فيها من شروق الشمس والقمر والنجوم، وما إليها.

قال: {رب المشرق والمغرب وما بينهما} وهذا كقول إبراهيم للذي حاجه، قال إبراهيم: {فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب} [البقرة: ٢٥٨]، فكأن موسى عليه الصلاة والسلام عدل إلى أمر ظاهر بين لا يمكن المماراة فيه أبدا؟ قال: {رب المشرق والمغرب وما بينهما} والذي بينهما وما يحدث من السحاب والرياح وغير ذلك، فهذا أمر لا أحد ينكره، ولهذا قال لهم: {إن كنتم تعقلون}؛ لأن هذا الأمر ظاهر للعقلاء.

ثم في قوله: {إن كنتم تعقلون} تعريض لهم كرد على قولهم: إن رسولكم لمجنون، كأنه يقول: المجنون من ينكر هذه الأشياء.

ولهذا قال: {إن كنتم تعقلون}، وفي قوله: {إن كنتم تعقلون} من ظهور القوة من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه لم يكترث بهم، فهو رجل وحده أمام جبار عنيد، وهذا كلام مزعج في الواقع أن يقوله الإنسان لمن كان ندا له، ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال الله له في الأول: {فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون} [الشعراء: ١٥]، كان واثقا بالله سبحانه وتعالى وموقنا بأنه لن يضره فرعون، والأمر كذلك.

الشاهد أن المشرق والمغرب وما بينهما لظهور الآيات فيهما؛ قال لهم: {إن كنتم تعقلون} فهذا من وجه.

ثانيا: أراد أن يقابل قول فرعون: {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} [الشعراء: ٢٧]، فكأنه يقول: المجنون من لم يستدل بهذه الآيات على الرب

=

=

سبحانه وتعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن كنتم تعقلون} أنه كذلك فآمنوا به وحده]، مثلما قال المصنف فيما سبق: [{إن كنتم موقنين} [الشعراء: ٢٤]، بأنه تعالى خالقه فآمنوا به وحده].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين} [الشعراء: ٢٩].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} فرعون لموسى: {لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين}]، بعد أن انقطع به سلطان الحجة والبرهان عدل إلى سلطان القوة والتهديد؛ فهكذا العاجز عن رد الحجة بالحجة يعمد إلى القوة إذا كان له سلطان، وهذا له سلطان على موسى، ولهذا هدده بقوله: {لئن اتخذت إلها غيري} لم يقل: لئن دعوت إلى الله فقط، يعني: يريد منه أن يمتنع عن الدعوة إلى الله بالأولى، وأن لا يتخذ إلها سواه، وفي هذا دليل على أن فرعون كان ينكر أن يكون هناك رب سواه، وأن قوله: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤]، صفة كاشفة وليست صفة مقيدة؛ لأنه لا يعتقد أن هناك ربا سواه.

وقوله: {لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك} فيه شيئان يحتاجان إلى جواب: الشرط والقسم، والموجود هنا جواب القسم وليس جواب الشرط؛ فكلمة {لأجعلنك} ليست جواب شرط، بل جواب قسم، ولهذا أكدت بالنون واللام، فهي جواب قسم، وهذه هي القاعدة؛ يقول مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

وهنا اجتمع شرط وقسم: الشرط (إن)، والقسم (والله) المحذوف، يقول: "احذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت" والمؤخر هو الشرط، فيكون الجواب الموجود للقسم، وهو كذلك.

=

=

وقوله: {لئن اتخذت إلها غيري} (إلها) بمعنى: مألوه، أي: معبود، والمراد بالمعبود هنا المعبود الذي يستحق أن يعبد، وذلك لربوبيته، فهو يعتقد أنه الرب، فيجب أن يكون هو الإله الذي يعبد.

قال: {لأجعلنك من المسجونين} انظر: {من المسجونين} ولم يقل: لأسجننك، كما قال الله تعالى في قصة يوسف: {ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه} [يوسف: ٣٥]، بل قال: {لأجعلنك من المسجونين} زيادة في تهديد موسى، كأنه يقول: إن هناك سجناء، وأنا قادر على سجن الناس، فإذا لم تتخذني إلها واتخذت إلها غيري، جعلتك في جملة هؤلاء.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{من المسجونين} كان سجنه شديدا؛ يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده، لا يبصر ولا يسمع فيه أحدا]. وهذا ليس شديدا بما نعرف من السجون، فهي أشد من هذا بكثير، وفرعون إنما قال: {لأجعلنك من المسجونين} أما كيف يسجنه فالآية لم تتعرض له، وأيضا إذا كان معروفا أن سجنه بهذه الكيفية فهذا السجن ليس شديدا، بل في السجون من التعذيب ما هو أشد، فنسمع أنه - والعياذ بالله - يؤتى بالشخص ويجعل في مثل برميل، وفيه مسامير وتحته نار، فهذا الرجل لا يستطيع أن يجلس؛ إن جلس خرقته المسامير، وإن اتكأ على أحد الجدران كذلك، فهذا - والعياذ بالله - من الأساليب التي يفعلونها.

ونسمع أيضا أنه من الأساليب أنهم يجوعون السباع الضارية ثم يرسلونها على السجناء تنهشهم، ولا يستطيعون الدفاع؛ لأنه ليس عندهم القدرة، مثلما فعل الحجاج بجحدر بن مالك، فإنه كان من الخوارج، فقبضه، وكان شجاعا جدا، فلما قبضه حبسه وأتى به، وقال: إنا ملقوك إلى الأسد، وإنا سنقيد يدك، وأنت وشأنك، فأتى بأسد فأجاعه ثلاثة أيام، ثم قال له جحدر: أعطني سيفا، وشد

=

=

إحدى يدي، فأعطاه السيف وشد إحدى يديه، ثم ألقاه إلى الأسد والأسد جائع ثلاثة أيام لم يأكل، يقولون في ترجمته: فلما وثب عليه الأسد ضربه في نحره بالسيف بيد واحدة، فخر الأسد صريعا، فأطلقه الحجاج؛ لقوته وشجاعته. فهذه الأساليب أيضا مما يعمد إليه أهل الظلم - والعياذ بالله - بالسجناء.

والمهم أن الآية الكريمة ليس فيها ذكر ما يفعل بموسى، إنما فيها أنه سيكون من المسجونين؛ أي من جملة من يسجن.

قال الله ﷻ: {قال أولو جئتك بشيء مبين (٣٠) قال فأت به إن كنت من الصادقين (٣١) فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (٣٢) ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين (٣٣) قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم (٣٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} [الشعراء: ٣٠ - ٣٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} له موسى: {أولو} أي: أتفعل ذلك ولو {جئتك}]، إذا اقترنت همزة الإستفهام بالعاطف فإما أن تقدر بعدها جملة يعطف عليها ما بعد الهمزة، أو تقدر الهمزة متأخرة بعد حرف العطف، وجهان لأهل العلم، والوجه الأخير أسهل؛ لأن الأول - كما يمر بك - قد لا يمكن فيه التقدير، وأما هذا فتقول: الهمزة للإستفهام، وهي مقدمة، والواو حرف عطف، وهو مقدم حكما، مؤخر لفظا، والجملة معطوفة.

أما على ما ذهب إليه المصنف هنا فإنه جعل الهمزة داخلة على شيء محذوف: [أتفعل ذلك ولو {جئتك بشيء مبين}]، كأن موسى عليه الصلاة والسلام قال له: على رسلك، لا تسجنني، فأنا ما جئت بباطل وسأقيم البرهان على ما أتيت به: {أولو جئتك بشيء مبين}.

ومن لطف الله أن فرعون قال: {فأت به}، وكان مقتضى جبروته وطغيانه أن يقول: ولو جئتني بشيء مبين إن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين،

=

=

ولكن القلوب بيد الله ﷻ، فألان الله قلب هذا الرجل المتكبر الجبار لموسى حين قال: {أولو جئتك بشيء مبين}، وهذا اللين قد يكون له سبب حسي، فهو لئلا ينقطع أمام الملأ الذين عنده؛ لأن موسى إذا عرض عليهم خطة الرشد ثم تعسف، وقال: ولو جئتني بهذا، فربما حينئذ يظهر أمام ملئه أنه معاند وأنه منقطع، فقال: {فأت به}.

ثم إنه أيضا قد يكون مما حمله على ذلك أنه أراد أن يأتي به ليكون إبطاله أو دعوى بطلانه على يده؛ لأنه ربما يأتي به موسى في مكان آخر فيغتر به الناس - على زعمه - فأراد أن يأتي به أمامه؛ ليتمكن من دعوى بطلانه.

نقول: ووجه التليين - أو أن الله ألانه له - أنه ما قال: لا تأت بشيء وسأسجنك ولو لم تأت؛ فقد عرض عليه أنه يأتي بشيء محتمل أن يأتي به، ولكن فرعون لان بعض الشيء للأسباب التي ذكرناها:

أولا: أن الله سبحانه وتعالى ألانه، والله على كل شيء قدير.

ثانيا: الأسباب الحسية لأجل ألا يقال: إن حجته انقطعت، وإن الرجل عرض عليه خطة رشد فأباها.

ثالثا: لأجل أن يكون إبطال ما يأتي به موسى على يده حتى يبين، وأنه أراد أن يتحداه، وإن كان هذا ما يمنع أن يقول: لا تأت به؛ لأنه هو قادر على أن يقول: لا تأت به بدون أن يتحداه؛ لأن تحديه له فيه احتمال أن يأتي به، وحينئذ تنقطع حجة فرعون.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بشيء مبين} برهان بين على رسالتي]، شيء: فسره المصنف ببرهان، (مبين): بـ (بين)، إذن فهي من (أبان) اللازم؛ لأننا نقول: أبان بمعنى أظهر متعد، وأبان بمعنى بان.

وقوله: [بين على رسالتي]، المصنف قيدها بقوله: (على رسالتي) والأولى أن

=

=

يقال: إنها أعم من ذلك؛ على كل ما قلت من الرسالة، ومن وصف الله تبارك وتعالى بأنه {رب العالمين}، و {رب السماوات والأرض}، و {ربكم ورب آبائكم الأولين}، و {رب المشرق والمغرب}، ولكن كلام المصنف لا يأباه إذا قلنا: إن المراد بالرسالة كل ما جاء به موسى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال} فرعون له: {فأت به}]، أي: بهذا الشيء المبين [{إن كنت من الصادقين} فيه].

والجملة الشرطية موصولة فيما قبلها وليست منقطعة، يعني: إن كنت من الصادقين فأت به، وفي مثل هذا التركيب يقول بعض النحويين: إنه لا حاجة إلى جواب الشرط؛ لدلالة ما قبله عليه، وبعضهم يقول: إن جواب الشرط محذوف، ودل عليه ما قبله، ولا أعلم أن أحدا قال: إن جواب الشرط ما سبق؛ وذلك لأن جواب الشرط لا يتقدم على العامل، ولكن الصحيح الأول: أن التركيب في مثل هذا لا يحتاج إلى جواب، والفرق بين هذا وبين الذي بعده أن الذي بعده يقول: يجب أن يقدر الجواب، ولكنه حذف للعلم به، ونحن نقول: إن ما علم فلا يحتاج إلى جواب إطلاقا، فهذا هو الصحيح، ومثل هذا يقع أيضا في القسم.

وقوله: {فأت به إن كنت من الصادقين}، ذكرنا أن هذا الخضوع من فرعون يتضمن ثلاثة أمور، ومنها أن الله ألان قلبه، فقد تحداه بقوله: {فأت به إن كنت من الصادقين}، مع أنه في الحقيقة هذا التحدي لولا أن الله ألانه لكان ما تحداه به؛ إذ من الجائز أن يقول له: لا تأت به، ومن الجائز بعد أن تحداه أن يأتي به موسى، فيكون كذلك حجة على فرعون.

فأتى بالآيتين العظيمتين، وهما آية العصا، وآية اليد، وقابلهما فرعون بمثل ما قابل به أولا، وهو التمويه، وادعاء السحر، وأنه ساحر عليم جيد في سحره. ثم قال: {يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون} [الشعراء: ٣٥]، ما قال: أن

=

=

يخرجني مثلا، أو أن يخرجنا؛ ترفعا وتعظما أن يبدو أمام موسى بمظهر الضعف الذي يهدد، ولكنه خاطب به قومه.

ثم قال: {من أرضكم}؛ تهييجا لهم؛ لأن الإنسان لا شك أنه لا يمكن أحدا ليخرجه من أرضه، ولهذا قال: {يخرجكم من أرضكم} ولم يقل: من أرض مصر، ولا: من الأرض؛ تهييجا لهم على مقابلة موسى بما يقابلونه به، ولأجل أن يكرهوا موسى عليه الصلاة والسلام ويروا أنه عدو مستعمر.

وقوله: {بسحره} الباء للسببية، أي: بسبب سحره، وفرعون هنا قال: {يريد أن يخرجكم من أرضكم}، والملأ ما قالوا: (بسحره)، أما هو فقال: (بسحره)؛ لأجل أن يشدهم إلى طلب السحرة الذين يقابلون فرعون، قال في سورة الأعراف: {قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم (١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون} [الأعراف: ١٠٩ - ١١٠] ولم يقل: (بسحره)، والفرق أن فرعون أراد أن يشدهم، وأن يغريهم بما يقابلون به موسى عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {فماذا تأمرون} ليس المراد بالأمر هنا هو طلب الفعل على وجه الإستعلاء؛ لأن فرعون لن يخضع لقومه حتى يطلب منهم أمرا، ولكن المراد بالأمر المشورة، يعني: فبماذا تشيرون علي؟ وسمي المشير آمرا لأنه موجه؛ فإن من استشاره لا شك أنه يطلب توجيهه، فتكون مشورته بالأمر أمرا به.

والإشارة هنا لمصلحته؛ لأنه إذا استشارهم فإنه يريد أن يختبرهم ماذا يكون عندهم، ويريد أيضا أن لهم وزنا لأجل أن يتشجعوا على هذا الأمر.

فائدة: قال تعالى: {واضمم إليك جناحك من الرهب} [القصص: ٣٢]، وقال: {وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء} [النمل: ١٢]؛ لأنه - والله أعلم - أن الجيب في مقدمة الجسم، ويمكن لو أنه ألقاها خلف ظهره ثم أخرجها أن يقول قائل: إنه عمل فيها عملا لم نشاهده، لكن هذا أمامهم وظهر.

=

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦).

{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ} أَخِّرْ أَمْرهمَا {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِن حَاشِرِينَ} جَامِعِينَ.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧).

{يَأْتُوك بِكُلِّ سَحَّار عَلِيم} يَفْضُل مُوسَى فِي عِلْم السِّحْر.

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨).

{فَجُمِعَ السَّحَرَة لِمِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم} وَهُوَ وَقْت الضُّحَى مِنْ يَوْم الزِّينَة.

وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩).

{وقيل للناس هل أنتم مجتمعون}.

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠).

{لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} الِاسْتِفْهَام لِلْحَثِّ عَلَى الِاجْتِمَاع وَالتَّرَجِّي عَلَى تَقْدِير غَلَبَتهمْ لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينهمْ فَلَا يَتْبَعُوا مُوسَى.

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١).

{فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا على الوجهين {لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين.

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢).

=

وكنت أتصور بالأول أنه لما كان في العادة أن اليد إذا أدخلت وتغيبت عن الشمس والهواء ابيضت، فالظاهر أن الجلد كله المستور من الإنسان أبيض، والبارز للشمس والهواء أسمر، ولكن أن يتغير بهذه السرعة فهذا خلاف العادة، ففي العادة لا يتغير إلا بعد مدة طويلة، وهذه السرعة تدل على أنها ليست أمرا عاديا، بل هو أمر خلاف العادة، وهذه من آيات الله.

{قال نعم وإنكم إذا} أي حينئذ {لمن المقربين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} [الشعراء: ٣٦]، أي:"قال له قومه: أخِّر أمر موسى وهارون".

قال ابن عباس:"يقول: أخره وأخاه".

قال ابن عباس:"لا تأتنا به ولا يقربنا".

وقال قتادة:"احبسه وأخاه".

قال ابن كثير:"أي: أخِّره وأخاه".

قال الطبري:"«الإرجاء»: في كلام العرب التأخير. يقال منه: "أرجيت هذا الأمر"، أرجأته"، إذا أخرته. ومنه قول الله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} [سورة الأحزاب: ٥١] تؤخر، فالهمز من كلام بعض قبائل قيس، يقولون: "أرجأت هذا الأمر"، وترك الهمز من لغة تميم وأسد، يقولون: "أرجيته"».

وسمي «المرجئة» بذلك، لأنهم أخروا العمل عن الإيمان وقالوا العمل ليس جزءا من الإيمان.

قوله تعالى: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الشعراء: ٣٦]، أي:"وأرسِلْ في المدائن جندًا جامعين للسحرة".

قال ابن كثير:"حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك".

قال المراغي:"أي: جامعين لك السحرة منها وسائقيهم إليك".

قال أبو السعود:"قيل هي مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد".

قال أبو هلال العسكري: "«الحشر»: هو الجمع مع السوق، والشاهد قوله تعالى: {قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين} [الشعراء: ٣٦]، أي: ابعث من يجمع السحرة ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر لأن الخلق يجمعون فيه ويساقون =

=

إلى الموقف".

عن ابن عباس في قوله: "{في المدائن حاشرين}، قال: الشُّرَط". وروي عن مجاهد، والسدي مثل ذلك.

قال ابن عباس:"وكانت السحرة يخشون من فرعون فلما أرسل إليهم قال: قد احتاج إليكم إلهكم، قال: إن هذا فعل كذا وكذا".

قال ابن كثير:"وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير

ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [طه: ٥٧ - ٦٠]".

قوله تعالى: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [الشعراء: ٣٧]، أي:"يأتوك بكلِّ مَن أجاد السحر، وتفوَّق في معرفته".

قال الطبري:"وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن مشورة الملأ من قوم فرعون على فرعون، أن يرسل في المدائن حاشرين يحشرون كل ساحر عليم".

قال ابن كثير: أي:"كل سحَّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة".

عن محمد بن إسحاق: "{يأتوك بكل سحار عليم}، أي: كابره بالسحر لعلك تجد في السحرة من يأتي بمثل ما جاء به وقد كان موسى وهارون خرجا من عنده

=

=

حين أراه موسى من سلطان الله ما أراه وبعث فرعون في مملكته مكانه فلم يترك في سلطانه ساحر إلا أتي به".

قال ابن عباس:"فحشر له كل سحار متعالم".

قال السدي:"فحشروا السحرة وحشر الناس ينظرون".

قوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: ٣٩]، أي:"فَجُمع السحرة، وحُدِّد لهم وقت معلوم، هو وقت الضحى من يوم الزينة".

قال ابن كثير:"ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في "سورة الأعراف" وفي "سورة طه" وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١٨]، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، قيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: خمسة عشر ألفًا. وقيل: سبعة عشر ألفًا وقيل: تسعة عشر ألفًا. وقيل: بضعة وثلاثين ألفًا. وقيل: ثمانين ألفًا. وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم".

قال محمد بن إسحاق:"فذكر لي والله أعلم أنه جمع له خمسة عشر ألف ساحر".

قوله تعالى: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ} [الشعراء: ٣٩]، أي:"وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين: هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود".

قال السدي:"يقول: حشر الناس ينظرون".

قال المراغي:"وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور، وقد طلب أن يكون ذلك

=

=

بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع من موسى الموقع الذي يريده، لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة، وحجة الكافرين هى الداحضة، وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين، وقهر للمبطلين".

قوله تعالى: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤٠]، أي:"إننا نطمع أن تكون الغلبة للسحرة، فنثبت على ديننا".

قال ابن كثير:"لم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم".

قال ابن عباس:"فلما اجتمعوا في صعيد قال: الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، يعني بذلك موسى وهارون عليهما السلام استهزاء بهما".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} [الشعراء: ٤١]، أي: "فلما جاء السحرة فرعون".

قال عكرمة: "السحرة كانوا سبعين، قال أبو جعفر: أحسبه أنه قال: ألفًا".

قال محمد بن كعب:"السحرة الذين توفاهم الله مسلمين ثمانين ألفا".

قال كعب: "كانت سحرة فرعون اثنى عشر ألفا".

وقال كعب: "كانت سحرة فرعون تسعة عشر ألفا".

وعن أبي ثمامة قال: "سحرة فرعون سبعة عشر ألفا".

قال السدي:"كان يعين السحرة بضعة وثلاثين ألفا ليس منهم رجل إلا ومعه حبل أو عصا".

قال محمد بن إسحاق:"فاجتمعوا إليه أمرهم أمره، فقال: لهم إنه قد جاءنا ساحر لم نر مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم وقربتكم وفضلتكم على أهل مملكتي".

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤١]، أي:"قالوا لفرعون: أإن لنا لأجرًا مِن مال أو جاه، إنْ كنا نحن الغالبين لموسى؟".

قال السدي:"يقول: عطية تعطينا {إن كنا نحن الغالبين}".

قال ابن كثير:"أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: {أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}".

قال ابن عباس:"فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: عمله بالحيات، قالوا: فلا والله ما في الأرض قوم يعملون بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذي نعمل، فما أجرنا إن غلبنا؟ قال: فقال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كما أحببتم".

قوله تعالى: {قَالَ نَعَمْ} [الشعراء: ٤٢]، أي:"قال فرعون للسحرة: نعم لكم عندي ما طلبتم مِن أجر".

قال الطبري:"قال: نعم، لكم ذلك".

قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الشعراء: ٤٢]، أي:"وإنكم حينئذ لمن المقربين لديَّ".

قال الطبري:"وإنكم لممن أقرِّبه وأدْنيه مني".

قال الماتريدي: أي:"في المنزلة والقدر عندي".

قال السمعاني:"أي: لكم المنزلة الرفيعة مع الأجر".

قال ابن كثير:"أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي".

قال الرازي:"أراد: أني لا أقتصر بكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة أني أجعلكم من المقربين عندي".

=

=

قال الكلبي: "أول من يدخل علي وآخر من يخرج، يعني السحرة".

قال ابن عباس:"فقال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كما أحببتم"

قال قتادة: "في العطية والفضيلة".

قال ابن إسحاق:"وبعث فرعون في مملكته، فلم يترك في سلطانه ساحرًا إلا أتي به. فذكر لي، والله أعلم، أنه جمع له خمسة عشر ألف ساحر، فلما اجتمعوا إليه، أمرهم أمره، وقال لهم: قد جاءنا ساحرٌ ما رأينا مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم وفضلتكم، وقرَّبتكم على أهل مملكتي! قالوا: وإن لنا ذلك إن غلبناه؟ قال: نعم!".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين (٣٦) يأتوك بكل سحار عليم} [الشعراء: ٣٦ - ٣٧].

إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه، لو سلط فرعون على موسى وأخيه لقضى عليهما، ولكن الله تعالى جعل لكل شيء سببا.

أشار الملأ على فرعون أن يؤخر أمر موسى وهارون، وأن يبعث في {المدائن} جمع مدينة {حاشرين} جامعين، يعني: يرسل إلى مدائن مصر من يجمع السحرة.

ولهذا جاء الجواب: {يأتوك بكل سحار عليم}، وكان من المتوقع أن يقول: (يأتونك)، فما هو الفرق بين (يأتوك) وبين (يأتونك) من حيث المعنى؟

لو قال: (يأتونك) لكانت صفة لـ (حاشرين)، أي: حاشرين يأتونك بكل سحار عليم، لكن المراد خلاف ذلك؛ لأن: (يأتوك) أبلغ من: يأتونك، حيث كانت جوابا للأمر، الذي هو للمشورة، إذن (ابعث) أيضا ليست أمرا حقيقيا، فهي أمر للمشورة: (ابعث يأتوك)؛ لأنه بمجرد بعثك يأتونك به.

لكن لو كانت صفة لـ (حاشرين): (حاشرين يأتونك) لكان من الجائز ألا يأتوا،

=

=

فصفة الحاشر من يجمع ويأتي بالسحرة، لكن قد يتهيأ له ذلك وقد لا يتهيأ، أما إذا قال: ابعث يأتوك، صار هذا مثل الشرط والجزاء، يعني: إنه إذا حصل بعثك لزم منه النتيجة، وهو أن يأتوك بكل سحار عليم.

و(سحار) هي من باب المبالغة، أو هي من باب النسبة، كما يقال: بناء ونجار وصناع، يعني: لأن صنعته السحر، ولا يكون ذلك ولا ينسب الإنسان إلى هذه الصفة إلا إذا كان مجيدا فيها، فلا يقال لمن بنى مرة واحدة: إنه بناء، ولا لمن نجر مرة واحدة: إنه نجار، وإنما يقال ذلك فيمن أتقن المهنة والصنعة.

إذن فالسحار إما صيغة مبالغة أو صيغة نسبة، والفرق بينهما ظاهر؛ لأن (سحار) على معنى المبالغة بمعنى كثير السحر، ولكن (سحار) على معنى النسبة بمعنى أنه متقن لهذه الصنعة؛ لأنه نسب إليها.

والظاهر أن النسبة أولى، يعني: بذي سحر قد أتقن هذه المهنة، فتكون للنسبة، ويغني عن المبالغة قولهم: (عليم) يعني فائق السحر، وقد يقال: إن هذا يغني عن النسبة وإن (سحار) صيغة مبالغة لكثرة سحره وإتقانه.

قال: {سحار عليم} أي سحار وعليم، ولهذا قد يترجح أنها للمبالغة وتكون النسبة مفهومة من قوله: {عليم}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{يأتوك بكل سحار عليم} يفضل موسى في علم السحر]، يعني: يزيد عليه، فعلى هذا طلبوا أن يأتوا بسحرة يفوقون موسى في الكم وفي الكيف، وفعلا حصل هذا، وأتوا بمهرة سحرة وبعدد كبير، ولكن ليس الأمر الذي من آيات الله سبحانه وتعالى مثل السحر الذي هو خيال لا حقيقة له.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {فجمع السحرة لميقات يوم معلوم} [الشعراء: ٣٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {فجمع السحرة لميقات يوم معلوم} وهو وقت الضحى من يوم الزينة].

=

=

{السحرة} (أل) للعموم، والجامع إما فرعون وإما الحاشرون الذين ذهبوا إلى المدائن يحشرون الناس.

وقوله: {لميقات} اللام للتوقيت؛ كقوله تعالى: {فطلقوهن لعدتهن} [الطلاق: ١]، أي: لوقت عدتهن.

جمعوا لهذا اليوم {لميقات يوم معلوم} لدى الناس، والذي فرض هذا اليوم - سبحان الله - موسى والذي اقترحه موسى، انظر كيف التفصيل! فموسى هو الذي يحدد الزمان والمكان، {قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى} [طه: ٥٩]؛ لأنه واثق بنصر الله، ولهذا وعدهم يوما يسمونه (يوم الزينة) بمنزلة عيد المسلمين، وأمرهم أيضا أن يكون في واضحة النهار ضحى؛ ليتمكن الناس من الرؤية والمشاهدة على وجه التأني والطمأنينة.

قال الله ﷻ: {وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} [الشعراء: ٣٩ - ٤٠].

القائل مبهم؛ لأن القائلين كثيرون، يقولون: {هل أنتم مجتمعون} والإستفهام هنا للأمر، يعني: اجتمعوا، أو هو للتشويق؛ كقوله سبحانه وتعالى: {ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} [الصف: ١٠]، لكن الأمر أوضح، يعني: أمروا أن يجتمعوا {وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين}.

قال المصنف رحمه الله: [الإستفهام للحث على الإجتماع والترجي على تقدير غلبتهم، ليستمروا على دينهم، فلا يتبعوا موسى]، وما ذكره المصنف محتمل، وهو التشويق الذي أشرنا إليه، ويحتمل أنه للأمر، يعني: يأمرون الناس أن يجتمعوا.

فإن قال قائل: قولهم: {إن كانوا هم الغالبين} ألا يفهم منه أنهم شاكون في انتصار

=

=

السحرة على موسى؟

فالجواب: يمكن هذا أنهم شاكون، فهذا من باب التحرز، فما قالوا: لعلنا نتبع الغالب، أو الحق، ثم إنه يحتمل قولهم: {إن كانوا هم الغالبين} أن هذا من باب الشرط المبين الواقع؛ لأنهم سيغلبون.

وقال: {لعلنا نتبع السحرة}، (لعلنا) يعني معشر الأقباط جميعا {نتبع السحرة} دون موسى، لكن بشرط: {إن كانوا هم الغالبين}، وهذا الشرط في ظنهم أنه متحقق، وأن السحرة سوف يغلبون.

وفي قولهم: {لعلنا نتبع السحرة} من إظهار التعصب ما لا يخفى؛ لأن الواجب عليهم أن يقولوا: لعلنا نتبع الغالب، لا أن يقولوا: {لعلنا نتبع السحرة}، فقد يكون الحق مع موسى وقد يكون الحق مع السحرة، فلو وفقوا لقالوا: لعلنا نتبع الغالب أو الحق، ولكنهم قالوا: {لعلنا نتبع السحرة}.

ثم استدركوا فقالوا: {إن كانوا هم الغالبين} وهذا ما يسمى بـ(التحفظ) - في لغة العصر- يعني: كأنهم حكموا بأن الغلبة للسحرة، لكن مع تحفظ لقولهم: {إن كانوا هم الغالبين}.

وفي قولهم: {الغالبين} إشكال من الناحية الإعرابية؛ لأن: (هم) ضمير، والخبر يكون مرفوعا، فلماذا نصب؟

نقول: (هم) هنا ضمير فصل ليس لها محل من الإعراب، و (الغالبين) خبر (كان)، ومعلوم أن خبر (كان) يكون منصوبا. وضمير الفصل له فوائد:

أولا: تمييز الصفة عن الخبر، مثل أن تقول: زيد الفاضل، وزيد هو الفاضل، فإذا قلت: زيد الفاضل، قد يكون (الفاضل) نعتا والخبر لم يأت، أما إذا قلت: هو الفاضل فقد حددنا أن (الفاضل) خبر.

ثانيا: وكذلك من فوائده حصر المبتدأ بالخبر، (زيد هو الفاضل) يعني: لا غيره.

=

=

ثالثا: التأكيد، يعني أنك إذا قلت: زيد هو الفاضل، كأنك تؤكد ذلك: أنه الفاضل دون غيره.

قال: [{وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} الإستفهام للحث على الإجتماع]، قوله: {هل أنتم مجتمعون} يعني: اجتمعوا كترغيب وحث [والترجي على تقدير غلبتهم]، الترجي في قوله: {لعلنا نتبع السحرة} [ليستمروا على دينهم فلا يتبعوا موسى].

وهل هؤلاء الذين ذهبوا يجمعون الناس هل فيهم نوع من الإنصاف؟

قالوا: {إن كانوا هم الغالبين} فيه نوع من الإنصاف؛ لأنه {إن كانوا هم الغالبين} اتبعناهم، وإلا فلا. لكن تقديم اتباع السحرة وترجي اتباعهم هذا هو الذي فيه نوع من التعصب، وكان عليهم ألا يذكروا السحرة إطلاقا، وأن يقولوا: لعلنا نتبع الغالب.

فإن قال قائل: في قوله: {لعلنا نتبع السحرة} هل يمكن أن تكون للتعليل؟

فالجواب: يمكن، لكن للترجي أبين.

قال الله ﷻ: {فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين} [الشعراء: ٤١].

{فلما جاء السحرة} يعني: لفرعون {قالوا} له: {أئن} قال: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين،، التحقيق والتسهيل، {أئن} هذا تحقيق، وتسهيل الثانية (أين)، وإدخال الألف بينهما على الوجهين: (آئنا)، (آينا)، فتكون القراءة على هذا أربعا.

قال: {لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين} هذه اللام للتوكيد: {لأجرا}، والمراد بالأجر هنا المثوبة الدنيوية والقربى والزلفى منه، أو نقول: المثوبة الدنيوية فقط، لكن هو زادهم القربى والزلفى منه: {نعم وإنكم إذا لمن المقربين}، وهنا يقول:

=

=

{أئن لنا لأجرا} وقد يقال: كيف دخلت لام التوكيد على الإستفهام والإستفهام إلى الآن ما وقع بعد، فكيف يؤكد؟

ولهذا نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: {أإنك لأنت يوسف} [يوسف: ٩٠]، فكيف يصح التوكيد مع الإستفهام والمستفهم يسأل فإلى الآن ما تبين له الأمر أنه واقع، فكيف يؤكد؟

فيقال: إن التأكيد هنا يراد به تأكيد الجواب، كأنه يقول: أتؤكد لنا الأجر؟ أتؤكد لنا أنك أنت يوسف؟ أما بالنسبة للسائل فلا يمكن التوكيد؛ لأنه سائل مستفهم، ولا جمع بين الإستفهام الذي هو جهل وبين التوكيد الذي هو علم محقق.

فعليه نقول: الإستفهام هنا على تقدير: أتؤكد لنا أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين؟ الجواب: قال: نعم.

فهؤلاء يريدون الراكب قبل المركبة، يبغون الأجر، مثلما يقول بعض الناس إذا طلب منه أن يكون إماما في مسجد: هل هناك شيء؟ أو مؤذنا، أو ما أشبه ذلك، فكذلك هؤلاء؛ لأن المقام مقام انتصار حق على زعمهم، ومع ذلك قالوا: إن انتصرنا على الباطل - كما يزعمون - بالحق أئن لنا لأجرا؟ فقال لهم: نعم؛ يعني: لكم أجر.

و(نعم) حرف جواب، ويقال: إن الجواب سؤال معاد، فالحرف نائب عن السؤال، يعني: نعم لكم أجر، ولهذا في هذه القاعدة، وهو أن حرف الجواب إعادة لسؤال، لو قيل للرجل: أطلقت امرأتك؟ فقال: نعم، وما قال: هي طالق، قال: نعم، فهل تطلق؟

نقول: تطلق، لأن حرف الجواب إعادة للسؤال، كذلك أيضا لو قيل له: أقبلت النكاح؟ فقال: نعم، انعقد النكاح. ولو قيل له: أعتقت عبدك؟ فقال: نعم، عتق، أوقفت بيتك؟ قال: نعم. فلو أراد الكذب في مثل هذه الأحوال، إن قلنا: أوقفت

=

=

بيتك؟ قال: نعم، وهو يكذب، أطلقت امرأتك؟ قال: نعم، وهو يكذب، فهل يقع الطلاق والوقف والعتق، وما أشبه ذلك، أم لا يقع؟

نقول: أما الطلاق ففيه تفصيل، وحق الغير يقع؛ لأنه يؤخذ بالظاهر، فيقال: هذا يدين، حكما لا يقبل، وأما فيما بينه وبين الله إذا لم يحاكم فإنه يقبل، يعني: لو أن زوجته وثقت به وقالت: إن الرجل لما قيل له: أطلقت امرأتك؟ قال: نعم، أراد أن يكذب على صاحبه، فإنها تبقى معه؛ لأن ما ادعاه محتمل، وإذا كان محتملا ولم ينازع فيه من له الحق وصدقه؛ فإنه يقبل منه.

فـ(نعم) حرف جواب لغة وعرفا، ولا تأتي في اللغة ولا في العرف استفهامية، إلا إذا قرنت بشيء، مثل: نعم ماذا تقول؟ يعني: كأنه يقول: نعم هات ما عندك، يعني: يستجيب.

فإن قيل: هم يسمون العالم عندهم ساحرا؛ استدلالا بقوله: {ياأيه الساحر ادع لنا ربك} [الزخرف: ٤٩]، أو أنه اتهام لموسى بأنه ساحر؟

فالجواب: لا، هذا غير صحيح، فهم معتقدون أنه ساحر، وقولهم: {ياأيه الساحر ادع لنا ربك} من باب التهكم.

قال الله ﷻ: {قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين} [الشعراء: ٤٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال نعم وإنكم إذا} أي: حينئذ]، ولكن هذا ليس بصحيح، فتفسير (إذا) بـ(حينئذ) غير صحيح؛ لأن (حينئذ) للماضي، لكن (إذا) أي: إذا غلبتموه إذا كنتم الغالبين {لمن المقربين} يعني: لدي، فكأنه زادهم على ما طلبوا القربى منه، وإنما وعدهم بذلك تشجيعا لهم على هذا الأمر، فأجابهم على ما سألوا وزيادة؛ تشجيعا لهم.

والتنوين في (إذا) عوض عن جمع، يعني: إذا غلبتموه.

وقوله: {وإنكم إذا لمن المقربين} اللام للتوكيد.

=

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣).

{قَالَ لَهُمْ مُوسَى} بَعْد مَا قَالُوا لَهُ {إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ نكُون نَحْنُ الْمُلْقِينَ} {أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ} فالأمر فيه للإذن بتقديم إلقائهم إلى إظهار الحق.

فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤).

{فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون}.

فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥).

{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَف} بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنْ الْأَصْل تَبْتَلِع {مَا يَأْفِكُونَ} يَقْلِبُونَهُ بِتَمْوِيهِهِمْ فَيُخَيِّلُونَ حِبَالهمْ وَعِصِيّهمْ أَنَّهَا حَيَّات تسعى.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦).

{فألقى السحرة ساجدين}.

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧).

{قالوا آمنا برب العالمين}.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨).

{رَبّ مُوسَى وَهَارُونَ} لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ الْعَصَا لَا يَتَأَتَّى بِالسِّحْرِ.

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩).

{قال} فرعون {ءآمنتم} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا {لَهُ} لِمُوسَى

=

وقال: {لمن المقربين} إشارة إلى أنه سيجعلهم في حاشيته؛ لأنه ما قال: لأقربنكم، قال: {لمن المقربين} يعني: إنكم تكونون في جملة الحاشية الذين هم أقرب الناس إلي.

{قَبْل أَنْ آذَن} أَنَا {لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيركُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْر} فَعَلَّمَكُمْ شَيْئًا مِنْهُ وَغَلَبَكُمْ بِآخَر {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} مَا يَنَالكُمْ مِنِّي {لَأُقَطِّعَن أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلكُمْ مِنْ خِلَاف} أَيْ يَد كُلّ وَاحِد الْيُمْنَى ورجله اليسرى {ولأصلبنكم أجمعين}.

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠).

{قَالُوا لَا ضَيْر} لَا ضَرَر عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ {إِنَّا إِلَى رَبّنَا} بَعْد مَوْتنَا بِأَيِّ وَجْه كَانَ {مُنْقَلِبُونَ} رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَة.

إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١).

{إِنَّا نَطْمَع} نَرْجُو {أَنْ يَغْفِر لَنَا رَبّنَا خَطَايَانَا أَنْ} أَيْ بِأَنْ {كُنَّا أَوَّل الْمُؤْمِنِينَ} في زماننا[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣)} [الشعراء: ٤٣]

قال موسى للسحرة مريدًا إبطال سحرهم وإظهار أن ما جاء به ليس سحرًا: ألقوا ما تريدون إلقاءه من السحر.

قال الطبري: أي:"من حبالكم وعصيكم".

قال ابن كثير: "أي: أنتم أولا قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان".

عن ابن عباس، قال: "اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء فلما اجتمعوا في صعيد قال: الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، يعنون بذلك موسى وهارون استهزاء بهما، قالوا يا موسى لقدرتهم لسحرهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين... فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى =

=

موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه: أن ألقي العصا".

قوله تعالى: {فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ} [الشعراء: ٤٤]، أي:"فألقَوا حبالهم وعصيَّهم من أيديهم".

قال السدي:"فألقوا حبالهم وعصيهم! وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس منهم رجل إلا معه حبل وعصا".

قال ابن عباس:"ألقوا حبالا غلاظًا طوالا وخشبًا طوالا قال: فأقبلت يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى".

قوله تعالى: {وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [الشعراء: ٤٤]، أي:"وأقسموا بعزة فرعون قائلين: إننا لنحن الغالبون".

قال الطبري:"يقول: أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه، ومنعة مملكته {إنا لنحن الغالبون} موسى".

قال قتادة:"فوجدوا الله ﷻ أعز منه".

قال بشر بن منصور: "بلغني أنه لما تكلم ببعض هذا وقالوا بعزة فرعون أو نحو هذا، قالت الملائكة: قصه ورب الكعبة. قال: فقال: الله ﷻ: تألون علي قد أمهلته أربعين عاما".

قال ابن إسحاق:"صفّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه. وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمعَ، وفرعونُ في مجلسه مع أشراف مملكته، ثم قالت السحرة: {يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: ٦٥ - ٦٦]، فكان أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصرَ موسى وبصرَ فرعون، ثم أبصارَ الناس بعدُ. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركبُ بعضها بعضًا {فَأَوْجَسَ فِي

=

=
نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى}، [طه: ٦٧]، وقال: والله إن كانت لعصيًّا في أيديهم، ولقد عادت حيات! وما تعدو عصايَ هذه! أو كما حدّث نفسه".

قوله تعالى: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ} [الشعراء: ٤٥]، أي:"فألقى موسى عصاه من يده".

قال الطبري:"حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم".

قال ابن عباس:"أوحى الله إليه أن ألقي العصا فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيما".

قال ابن عباس:"وعصى موسى اسمها: «ماسا»، وهي مع يوشع بن نون".

قال الحكم: "كان عصا موسى من عوسج، ولم يسخر العوسج لأحد بعده".

وروى عن سعيد بن جبير، قال: "كان عصا موسى من عوسج فقط".

قال مالك بن دينار:"بلغني أنه كان بين لحى عصا موسى حين عادت حية خمسون ذراعا".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [الشعراء: ٤٥]، أي:"، فإذا هي حية عظيمة، تبتلع ما صدر منهم من إفك وتزوير".

قال الطبري:"يقول: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة".

قال ابن كثير:"أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا".

عن مجاهد: "{يأفكون}، قال: يكذبون".

عن الحسن: "{تلفق ما يأفكون}، قال: حيالهم وعصيهم، تسترطها استراطا".

قال قتادة:"فألقى موسى عصاه، فتحولت حية، فأكلت سحرهم كله".

قال ابن عباس:"فألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخُشُبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بسحر، فخرُّوا سجَّدًا وقالوا: {آمنا بربّ العالمين* رب موسى
=

=

وهارون}".

وعن ابن عباس أيضا:"فجعلت العصا بدعوة موسى تلتبس بالحبال، فصارت جرزا إلى الثعبان حتى تدخل فيه حتى ما بقيت عصا ولا حبل إلا ابتلعته".

قال السدي:"أوحى الله إلى موسى: لا تخف، وألق ما في يمينك تلقف ما يأفكون. فألقى عصاه، فأكلت كل حية لهم. فلما رأوا ذلك سجدوا، وقالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون".

قوله تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [الشعراء: ٤٦]، أي:"وخَرَّ السحرة سُجَّدًا على وجوههم لله رب العالمين لِمَا عاينوا من عظيم قدرة الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله، ساقطين على وجوههم سجَّدًا لربهم".

قال الواحدي:"خرُّوا لله عابدين سامعين مطيعين".

قال الثعلبي:"حيث عرفوا أن ذلك أمر سماوي وليس سحرا، قيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا".

قال مقاتل: "ألقاهم الله".

وقال الأخفش: "من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا".

قال السمعاني:"قيل: إن موسى وهارون سجدا شكرا لله - تعالى - فوافقهم السحرة".

قال الزمخشري:"وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء، لأنه ذكر مع الإلقاآت، فسلك به طريق المشاكلة. وفيه أيضا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا. فإن قلت: فاعل الإلقاء ما هو لو صرح به؟ قلت: هو الله ﷻ بما خولهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزات الباهرة، ولك أن لا تقدر فاعلا، لأن ألقوا

=

=

بمعنى خروا وسقطوا".

قال سعيد بن جبير:"رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم".

قال ابن عباس:"لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجدًا، وقالوا: {آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون}".

قال ابن كعب: "كانت السحرة الذين توفاهم الله مسلمين ثمانين ألفا". وروي عن محمد بن المنكدر مثل ذلك.

وروي عن كعب:"كان سحرة فرعون اثنا عشر ألفا". وفي رواية:"كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفا".

قتادة: "كانوا أول النهار كفارا سحرة، وفي آخره شهداء بررة".

وعن الحسن: "تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله".

قال أبو الليث:"قال بعض الحكماء: إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته؟".

قوله تعالى: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٤٧]، أي:"قال السحرة: صدقنا واعترفنا برب العالمين".

قال الطبري:"يقولون: صدقنا بما جاءنا به موسى، وأنّ الذي علينا عبادته، هو الذي يملك الجنّ والإنس وجميع الأشياء، وغير ذلك، ويدبر ذلك كله".

قال الزجاج:"فسلموا الأمر لله وتبين لهم ما لا يدفع".

قال ابن عباس:"فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ولكن هذا أمر من الله آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه".

=

=

قال ابن عطية:"لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى آمنوا بقلوبهم وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تعالى فخروا سجدا لله تعالى متطارحين وآمنوا نطقا بألسنتهم".

واختُلِف في "العالمين"، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج، وقتادة، ومجاهد، وابن عباس في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣ - ٢٤]".

الثاني: أنّه الإنس، والجنِّ، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، ومقاتل بن سليمان.

ودليلهم قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم.

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

الثالث: أن العالم: الدنيا وما فيها.

الرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٥]، أي: من الناس، وقال العجّاج:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ..... مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى:

تنصفه البرية وهو سام..... ويضحي العالمون له عيالا

الخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم: عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل

=

=

خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة.

السادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة، وأنشد قول لبيد بن ربيعة:

ما إن رأيت ولا سمعـ..... تُ بمثلهم فى العالمينا

السابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون، وابن قتيبة، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض".

الثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

قوله تعالى: {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الشعراء: ٤٨]، أي:"وهو رب موسى وهارون".

قال الطبري: أي:"لا فرعون".

قال الخازن:"وإنما قالوا: {رب موسى وهارون}، لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله".

قال البيضاوي:"إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما".

قال الماتريدي:"قال بعض أهل التأويل: إنهم لما قالوا: آمنا برب العالمين، قال لهم فرعون: إياي تعنون، فعند ذلك قالوا: لا، ولكن رب موسى وهارون، ولكن لا ندري هذا، وموسى أول ما جاء فرعون ودعاه إلى دينه قال له: {إني رسول من رب العالمينؤ، فلا يحتمل أن يشكل عليه قولهم: {آمنا برب العالمين} وإنهم إياه عنوا بذلك، وجائز أن يكون آمنا برب الذي أرسل موسى وهارون رسولا".

=

=

قال الشوكاني:"وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين، ثم لم يكتفوا بذلك حتى قالوا: {رب موسى وهارون}، لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته أن السجود له".

قال ابن عطية:"هارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين".

قال ابن عباس:"لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجدًا، وقالوا: {آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون}".

قال قتادة:"ذكر لنا أن السحرة قالوا حين اجتمعوا إن يكن ما جاء به موسى سحرا فلن نغلب وإن يكن من الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه تلقفت ما أفكوا من سحرهم وجاءوا به من حبالهم وعصيهم علموا أنه من الله فألقى السحرة عند ذلك اجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون".

قال محمد بن إسحاق:"وكان من رؤوس السحرة الذي جمع فرعون لموسى فيما بلغني سابور، وعاذور، وحصحط، ومصفى أربعة هم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله فآمنت معهم السحرة جميعا".

قوله تعالى: {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} [الشعراء: ٤٩]، أي:"قال فرعون للسحرة مستنكرًا: آمنتم لموسى بغير إذن مني".

قال الطبري:"قال فرعون للذين كانوا سحرته فآمنوا: آمنتم لموسى بأن ما جاء به حق قبل أن آذن لكم في الإيمان به".

قال ابن كثير: أي:"كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع".

قال ابن إسحاق:"قال: لهم فرعون وأسف ورأى الغلبة البينة: {آمنتم له قبل أن آذن لكم}".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [الشعراء: ٤٩]، أي:"إن موسى

=

=

لرئيسكم في السحر، وهو الذي علمكموه، ولذلك آمنتم به".

قال ابن كثير:"وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل".

قال محمد بن إسحاق:"أي: إنه لعظيم السحار الذي علمكم السحر".

قال قتادة:"يعنى بكبيرهم موسى ﷺ".

عن السدي:"{الذي علمكم السحر}: يعني: لَعالِمُكم في علم السحر، ولم يكن أكبرَهم في السن".

قوله تعالى: {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الشعراء: ٤٩]، أي:"فلسوف تعلمون ما ينزل بكم من عقاب".

قال ابن كثير:"أي: ما أصنع بكم".

قال الزمخشري:"أي: وبال ما فعلتم".

قال الطبري: أي:"عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم، وخطأ ما صنعتم من الإيمان به".

قال الخازن: الآية" فيه وعيد مطلق وتهديد شديد".

قوله تعالى: {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ} [الشعراء: ٤٩]، أي:"لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم -أيها السحرة- من خلاف: بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى".

قال قتادة:"لَمّا رأى السحرة ما جاء به عرفوا أنّه من الله، فخروا سجدًا، وآمنوا، عند ذلك قال عدوُّ الله: {فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف} الآية".

قال السدي:"اليد اليمنى، والرجل اليسرى".

قال الطبري:"وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده

=

=

اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطع من خلاف»، ويقال: إن أوّل من سن هذا القطع فرعون".

قال ابن كثير:"يعني: يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس".

قال ابن عباس:"أوّل من صلّب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون".

قوله تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} [الشعراء: ٤٩]، أي:"ثم لأعلقنَّكم جميعًا على جذوع النخل؛ تنكيلا بكم وإرهابًا للناس".

قال المراغي: أي:"ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك".

قال الطبري:"وإنما قال هذا فرعون، لما رأى من خذلان الله إياه، وغلبة موسى عليه السلام وقهره له".

قوله تعالى: {قَالُوا لَا ضَيْرَ} [الشعراء: ٥٠]، أي:"قال السحرة لفرعون: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا".

قال الطبري:"معناه: لا ضرر".

قال ابن كثير:"أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به".

قال ابن زيد:"يقول: لا يضرنا الذي تقول، وإن صنعته بنا وصلبتنا".

قوله تعالى: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} [الشعراء: ٥٠]، أي:"إنا راجعون إلى ربنا فيعطينا النعيم المقيم".

قال سعيد بن جبير:"يعني: إنا إلى ربنا راجعون".

قال مقاتل:"يعني: لراجعون إلى الآخرة".

قال الطبري:"يقول: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر به".

قال ابن كثير:"أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى

=

=

عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء".

وقال ابن كثير:"أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله ما تدعونا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله".

قوله تعالى: {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٥١]، أي:"إنا نرجو أن يغفر لنا ربنا خطايانا من الشرك وغيره؛ لكوننا أول المؤمنين في قومك".

قال ابن كثير:"أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل السحرة: إنا نطمع: إنا نرجو أن يصفع لنا ربنا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها".

عن ابن زيد، قوله:"{إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا}، قال: السحر والكفر الذي كانوا فيه".

قوله تعالى: {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٥١]، أي:"لكوننا أول المؤمنين في قومك".

قال الفراء:"يقولون: أول مؤمني أهل زماننا".

قال ابن كثير:"أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم".

قال الطبري:"لأن كنا أول من آمن بموسى وصدقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادعائه الربوبية في دهرنا هذا وزماننا".

قال ابن زيد:"كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون} [الشعراء: ٤٣].

قال المصنف رحمه الله: [{قال لهم موسى} - بعدما قالوا له: {إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين} [الأعراف: ١١٥]-: {ألقوا ما أنتم ملقون}، فالأمر فيه

=

=

للإذن بتقديم إلقائهم توصلا به إلى إظهار الحق].

قوله: {ألقوا ما أنتم ملقون} مثلما قال المصنف: بعد أن قالوا: {إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين} [الأعراف: ١١٥]، قال: {ألقوا}، هذا الأمر يقول المصنف: إنه للإذن.

ويحتمل أن يكون للتحدي، ولهذا قال: {ألقوا ما أنتم ملقون}. و (ما) لصلة العموم، يعني: ألقوا ما تريدون مما تلقونه، فأنا لا أكترث به ولا أهتم به، ويدل على ذلك أنه طلب أن يكونوا هم الملقين؛ لأجل أن يكون هو الغالب بعدهم؛ لأنه لو ألقى عصاه فصارت ثعبانا مبينا فماذا تصنع وليس أمامها شيء؟

فأمرهم أن يلقوا هم أولا؛ لأنه عليه السلام واثق بوعد الله، فهو ينطق من منطق القوة، يقول: أنا لا أكترث بكم، ألقوا ما تريدون: {ألقوا ما أنتم ملقون}، والإبهام هنا للمبالغة، يعني: ألقوا الذي تريدون مما تلقونه، وفي قوله: {ما أنتم ملقون} بالجملة الإسمية دليل على أنه مهما كانوا متصفين به من الإلقاء؛ فإنه لا يهتم به.

قال الله عز وجل: {فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} [الشعراء: ٤٤].

يقول: {فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون} أعوذ بالله {إنا لنحن الغالبون}. {حبالهم} يعني: التي يسحرون الناس بها، {وعصيهم} التي يسحرون الناس بها، وهم يلقون هذه الحبال وهذه العصي فتكون في أعين الناس ثعابين وحيات، وأيضا تظهر بمظهر الكثرة وتملأ الوادي، وهي حقيقة ليست ثعابين وحيات، إذن السحر هو حقيقة، وليس خيالا.

والحبال: جمع حبل، والعصي: جمع عصا، وتلك الحبال والعصي يلقونها ليوهموا الناس بسحرهم أنها حيات وثعابين، حتى موسى عليه الصلاة والسلام خاف وأوجس من هذا خيفة لما رأى هذه الحيات والثعابين تقبل إليه، ولكن الله

=

=

قال له في تلك الساعة: {قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما في يمينك} [طه: ٦٨ - ٦٩]، وقالوا لما ألقوها: {بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون} والباء للسببية، وعزة فرعون: غلبته وقهره، وفي تقديمهم هنا للعزة دليل على أنهم لا يعتزون بغيره، وأنهم لا يرون أنهم ينتصرون بسوى عزته.

والسحر حقيقة، لكن باعتبار ما سحر به خيال، حقيقة لأنه أثر في الرؤية، وأثر بدلا من أن يرى الإنسان هذه الحبال حبالا وعصيا صار يراها ثعابين وحيات.

إذن فهذه حقيقة، لكن بالنسبة لمن يراه فليس متغيرا عن حقيقته، فالحبال حبال، والعصي عصي، ولو رآها من لم يصل إليه السحر لرآها حقيقة: حبالا وعصيا.

فإن قال قائل: هل يقتل العائن؟

فالجواب: لا، الصحيح أنه لا يقتل إلا إذا تعمد القتل، إذا قال: أنا أقتل فلانا.

فإذا أكد يحبس، وهو يجب حبسه على كل حال، مثلما قال أهل العلم، ولكن الغريب أن هذا مشهور في الزمن السابق بين الناس، والولاة أقوياء والأمراء أقوى مركزا من اليوم، حتى أمراء البلدان، والقضاة موجودون وكلام الفقهاء أيضا الحنابلة، فالمذهب أنه يجب أن يحبس هؤلاء، ولكن مع ذلك ما في عمرنا سمعنا أنهم حبسوا، وإلا لو حبسوا لقل الشر.

وأما إذا كان ما قصد قتله ولكن مات، فهذا خطأ، يرمونه بالدية، على أن بعض العلماء يقولون: لا يقتل حتى وإن كان تعمد قتله؛ لأن هذا السلاح سلاح خفي باطن، وبعضهم قال: يقتل بمثله بإيجاد واحد يحسده قال تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} [النحل: ١٢٦] لكن نخاف أن يشجع هذا الذين يصيبون الناس بالعين.

فإن قال قائل: فبم يعالج الإنسان إذا أصيب بعين؟

فالجواب: بالقراءة، ويعالج بالحس معالجة حسية، فيؤتى بالعائن ويتوضأ،

=

=

ويؤخذ ما يتناثر منه، ويسقى على هذا، ويرش به رأسه من فوق على جهة ظهره، وبإذن الله يبرأ. وعند الناس شيء ليس معروفا في السنة لكنه مجرب، أنه يأخذ من ثيابه التي تحمل من عرقه إن كانت طاقية أو غترة أو (فنيلة) أو سروالا، ويغسل، ويؤخذ غسالته ويشربه المصاب، وينتفع.

والعين لا تأتي إلا على غفلة، وأكثر ما تأتي أيضا من يخاف منها.

إذن فالعلاج أنه يتوضأ ويرش على بدنه؛ على الأعضاء زيادة على الوضوء.

ويزعمون أن الإنسان العائن إذا صلي عليه صلاة الجنازة أنه يكفر، ولكن هذا ليس بصحيح.

والعين منشؤها الحسد، ولهذا قيل في قوله تعالى: {ومن شر حاسد إذا حسد} [الفلق: ٥]: العائن إذا عان.

الله يرحمه شيخنا، كان يدرسنا بالليل بين العشاءين، ومرت الطيور هذه التي تصيح بالليل، وأظنها يسمونها البط، ورفعت رأسي، فقال هو: إن صيد العلم أفضل - أو خير - من صيد الطيور! وهو صحيح ما فيه شك، وأنا أجزم جزما أن الإنسان الذي يلتفت يقينا (بيروح)، وهو ما يلتفت إلا مؤتمرا بأمر قلبه، لا يمكن أن يلتفت إلا بهذا.

وقولهم: {إنا لنحن الغالبون} أكدوها بـ(إن) واللام؛ لأنهم يعتقدون تلك الساعة أنه لا أحد أقوى من فرعون، وأنهم بعزته سيغلبون لا محالة، ولهذا أكدوها بقولهم: {إنا لنحن الغالبون}، وأتوا بالجملة الإسمية إشارة إلى أن هذه الغلبة ستدوم وتستمر؛ لأن الجملة الإسمية تدل على الثبوت والإستقرار والدوام.

وفي قولهم: {إنا لنحن} إذا أعربنا (نحن) ضمير فصل ففيه ما يستفاد من ضمير الفصل، وهو التأكيد والحصر والفصل، يعني: إنا لنحن الغالبون دون غيرنا بهذه العزة العظيمة، التي كانوا يعتقدونها حينذاك.

=

=

قال الله ﷻ: {فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون} [الشعراء: ٤٥].

قال الله تعالى: {فألقى موسى عصاه} ألقى موسى عصاه بوحي خاص من الله، كما في سورة طه: {قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا} [طه: ٦٨ - ٦٩]، فألقى موسى عصاه، {فإذا هي تلقف} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بحذف إحدى التاءين من الأصل، تبتلع {ما يأفكون}]: (تلقف) ولم يشر المصنف إلى القراءة الثانية، وهي (تلقف)، أما قراءة: (تلقف) فليس فيها حذف إحدى التاءين، وأما (تلقف) ففيها حذف إحدى التاءين، وأصله: (تتلقف)، ومعناهما واحد، يعني: تبتلع، لكن (تلقف) تفيد معنى زائدا على (تلقف)، فهي تفيد التتبع، يعني: كأنها جعلت تتبع حتى أفنتها كلها؛ لأنه إذا كانت الحبال أمامها كثيرة فلا تتبعها، فأي جهة تأخذ تلقف، لكن لما فنيت وقلت صارت حبلا هنا وحبلا هنا، فهي تتلقفه: تتبعه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ما يأفكون} يقلبونه بتمويههم، فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى]، {ما يأفكون} الإفك: الكذب، وهذا كذب بالفعل وليس بالقول، فهذا كذب فعلي؛ لأن الكذب القولي يكون باللسان، وهو إخبار الإنسان بما لا يوافق الواقع، والكذب الفعلي يكون بالفعل، وهو إظهار الإنسان الفعل بخلاف الحقيقة، فهؤلاء أظهروا الحبال والعصي حيات، لكنها ليست كذلك، ليست حيات، وإنما هي حبال وعصي.

وقد زعم بعض العلماء أن السحر لا حقيقة له، واستدلوا بقوله: {يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى} [طه: ٦٦]، والصواب أن له حقيقة، وحقيقته هذا التخييل.

فإن قال قائل: هل يؤثر السحر؟

فالجواب: نعم، يؤثر في التصور، وفي الإحساس، وما أشبه ذلك، أما أن يؤثر بقلب الحقائق، فلا؛ لأن هذا من صفات الخالق.

=

=

* قال الله ﷻ: {فألقي السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى وهارون} [الشعراء: ٤٦ - ٤٨].

لما رأى السحرة، وهم أعلم الناس بالسحر وآثاره وتأثيره، لما رأوا ما تفعله هذه العصا التي وضعها من يده وهم يشاهدون، عرفوا أن الأمر ليس بسحر؛ لأن سحرهم أقوى ما يكون من السحر وأكثره.

وكان السحر في ذلك الوقت أيضا شائعا، ولهذا جاءت آية موسى بشيء يشبهه؛ بنوع منه، ولكن هم عرفوا أن هذا ليس بسحر، وأنه فوق طاقة السحرة، فماذا حصل؟ {فألقي السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى وهارون}.

قال: {فألقي السحرة} ولم يقل: فسجد السحرة، كأن هذا السجود أمر اضطراري؛ لقوة ما دفعهم إليه، يعني: لا كأنه أمر اختياري، لكن لقوة الدافع صار كأنهم ألقوا إلقاء بدون اختيار.

و{فألقي السحرة} (أل) للعموم، يعني: جميع السحرة مع مهارتهم ومعرفتهم ألقوا ساجدين لله، بدليل قولهم: {قالوا آمنا}، وليسوا ساجدين تعظيما لعصا موسى؛ لأن تصريحهم بالإيمان دليل على أنهم ساجدون لله سبحانه وتعالى: {قالوا آمنا برب العالمين (٤٧) رب موسى وهارون} هذا البدل من أحسن ما يكون بعد العموم {برب العالمين}؛ لأن موسى كان يقول: إنه رسول رب العالمين، فقالوا: رب العالمين، وكان فرعون أيضا يقول: إنه رب العالمين، فأخرجوا ربوبية فرعون بقولهم: {رب موسى وهارون}؛ لأن فرعون وإن كان يدعي أنه رب العالمين، لكنه ليس رب موسى وهارون؛ لأن موسى وهارون ينكران ربوبيته، فلذلك كان هذا البدل من أحسن ما يكون في بيان المراد.

وإتيانهم برب العالمين دون أن يأتوا مباشرة برب موسى وهارون، إشارة إلى أنهم

=

=
آمنوا برسالة موسى؛ لأن موسى قال: {إنا رسول رب العالمين}، ما قال: أنا رسول ربي، قال: {رب العالمين}، هذه هي فائدة البدل بقوله: {رب موسى وهارون}، والترتيب هنا بين موسى وهارون ترتيب يطابق الواقع؛ فإن مرتبة موسى أعلى من مرتبة هارون؛ لأن موسى من أولي العزم.

ولكن الترتيب اختلف في سورة طه: {برب هارون وموسى} [طه: ٧٠]، من أجل مراعاة الفواصل، وفي هذا دليل على أن القرآن الكريم وكل كلام فصيح قد تراعى فيه الفواصل والنغمات، لكن في الأمر المعلوم، فمن المعلوم أن موسى أفضل من هارون، وترتيبه في الذكر لا أحد يتوهم منه أن هارون أعلى منه مرتبة، فالتقديم له غاية، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "أبدأ بما بدأ الله به".

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{رب موسى وهارون} لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر]، فلما آمنوا هذا الإيمان أعلنوه إعلانا غير مبالين بما ينتج وراء ذلك؛ لأن الإيمان الصادق يقضي على كل عاطفة، فعاطفة حب النفس أمر جبلي فطري، لكن الإيمان يقضي عليها، ولهذا الإنسان يعرض نفسه للهلاك حينما يخرج مجاهدا في سبيل الله وهو يعرف أن سيوف القوم قد تبتر رقبته، لكنه لا يبالي، وكذلك الإنسان ينسى العاطفة بينه وبين أقاربه، حتى إن الرجل ليقتل أباه إذا كان من الكفار.

فهنا قالوا معلنين هذا الإعلان غير مبالين بما ينتج، وفي ظني أنهم سيعلمون أنه سينتج عن ذلك أمر عظيم؛ لأن فرعون جاء بهم كسلاح له، فإذا خانوه في هذا المجتمع العظيم، وهو يوم الزينة، فسينتج عن هذا العقوبات، إلا أنهم غير مبالين بهذا؛ لما أشرنا إليه قبل.

فائدة: في سورة طه قال تعالى: {فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى
=

=

(٧٣) إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى} [طه: ٧٢ - ٧٤]، قوله: {والله خير وأبقى} تبع من كلامهم هم، لكن: {إنه من يأت ربه مجرما} قد يحتمل أن يكون من كلامهم أو من كلام الله.

* قال الله ﷻ: {قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين (٤٩) قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون} [الشعراء: ٤٩ - ٥٠].

{قال آمنتم} هذا قول فرعون، وكلمة {قال} أتت بالفصل وليس بالوصل؛ لأن الوصل هو العطف بالواو، ومع ذلك فهي مفصولة لكن تدل على وقوع هذا الشيء مباشرة كأنه جواب عن فعلهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال آمنتم} بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفا {له} لموسى {قبل أن آذن} أنا {لكم}]، هذا أمر لا يكون عادة من هؤلاء ولا من غيرهم أن يؤمن أحد لعدو فرعون بدون إذنه، وفي قوله: {قبل أن آذن لكم} إشارة إلى أن الرجل قد سيطر عليهم سيطرة تامة، وأنهم لا يتصرفون بشيء إلا بإذنه. والإستفهام في قوله: {آمنتم له قبل أن آذن لكم} للإنكار والتوبيخ.

فإن قيل: في سورة الأعراف: {آمنتم به} [الأعراف: ١٢٣]، وهنا: {آمنتم له}؟

فالجواب: في الأصل بينهما فرق: آمن به: أقر به واعترف الإيمان الكامل، وآمن له: مضمنة معنى انقاد. فإذا جمعت بين الآيتين هنا صارت أبلغ، يعني: كأنهم آمنوا إيمانا به، ثم آمنوا له فانقادوا له.

قال تعالى: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} انظر التمويه، هذا غريب، فهذا في الحقيقة مظهر ضعف منه، كيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر وهم قد حشروا من المدائن وليسوا مع موسى في مدينته، وكيف يقال: إنه علمهم، بل إنهم في مدائن متباعدة، وكيف يمكن أن يقال: إنه كبيرهم الذي علمهم السحر وهم قد

=

=

وضعوا حبالهم وعصيهم ليقضوا عليه؟ ! فإن من علمهم السحر لا بد أن يخافوا منه، وكيف يقال: إنه علمهم السحر وهم قد استعزوا بعزة فرعون {بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون}، وهم يعلمون أن فرعون خصم لموسى، لكن هذا من باب التمويه على قومه، كما قال الله فيهم: {فاستخف قومه فأطاعوه} [الزخرف: ٥٤]، يعني: عقولهم بالنسبة لفرعون لا شيء، فهم خفيفو العقول والتفكير، ولا يعرفون شيئا سوى فرعون، أنه إلههم!

قال: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} وقلنا: إن هذا باطل من الأوجه التي ذكرنا، وإنه لا يمكن، لكن هذا مظهر ضعف من فرعون بلا شك، يعني: كأنه يقول الآن: أنتم اجتمعتم علي، وتحاشدتم علي، أنتم ومعلمكم، ثم لجأ إلى التهديد كعادته قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فلسوف تعلمون} ما ينالكم مني {لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين}].

قوله: {فلسوف تعلمون} هذا تهديد بأمر مبهم، والإجمال ثم التفصيل من فوائده تشوق المخاطب إلى تبين هذا المجمل، وإذا كان وعيدا فإنه يتشوق ذلك لكنه يكون خائفا جدا؛ لأنه لا يدري ما هذا المبهم الذي وعد به، بينه بقوله: {لأقطعن} واللام واقعة في جواب القسم، بدليل أنه مؤكد {لأقطعن}.

وقوله: {من خلاف} يعني: متخالفة؛ إذا قطع اليد اليمنى قطع الرجل اليسرى، وإذا قطع اليد اليسرى قطع الرجل اليمنى، وليس معنى: {من خلاف} أني أخالف بينكم فمنكم من أقطع يديه ومنكم من أقطع رجليه، بل هذا واقع على محل واحد، فالخلاف في محل واحد، يعني: كل واحد منكم أقطع يده ورجله متخالفتين، وهذا في شريعتنا حد قطاع الطريق، يعني: أحد ما يحد به قطاع الطريق هو هذا؛ أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

قال تعالى: {ولأصلبنكم أجمعين} يعني: بعد أن أفعل هذا لأصلبنكم أجمعين،

=

=

يعني: كما قال في آية أخرى: {في جذوع النخل} [طه: ٧١]، وهنا يشير إلى أن في مصر نخلا، فهو وعدهم بذلك. والصلب: الربط، وهل يشترط أن يكون المصلوب ممدود اليد أو لا؟ ليس بشرط، فالمهم أن يربط ربطا محكما على خشبة الصليب.

فإن قال قائل: الصلب بعد الموت أم قبله؟

فالجواب: قبل الموت؛ لأنه قال: {لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم}.

وإن قال قائل: الصلب في آيات قطاع الطريق قبل الموت أم بعده؟

فالجواب: الصلب في آيات قطاع الطريق اختلف فيه العلماء: هل يكون قبل الموت أم بعده، والمشهور في مذهبنا أنه بعد الموت، ولكن الصحيح أنه قبل؛ لأنهم إذا صلبوا قبل نالوا الألمين: الحسي والنفسي، أو القلبي، لكن إذا صلبوا بعد الموت فلا يؤلمهم شيء أبدا.

ثم إن تصليبهم بعد الموت لا فائدة منه، لهذا لما قيل لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها -وعنها-: إن الحجاج فعل كذا وكذا بعبد الله بن الزبير بعد موته، قالت رضي الله عنها: "وما يضر الشاة سلخ جلدها بعد موتها؟ "؛ لأن هذا الشيء لا يؤثر.

فكان جوابهم أن قالوا: {لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون}، قال المصنف رحمه الله: [{لا ضير} لا ضرر علينا في ذلك]، ما شاء الله! يعني: لقوة إيمانهم قالوا: هذا لا يضرنا، ولا يؤثر، وفي هذا من التحدي وإظهار القوة والشجاعة ما هو ظاهر؛ لأنهم يخاطبون أعتى أهل الأرض، وهو فرعون، يقولون: لا ضير، افعل ما تريد، لا يهمنا، وصدقوا أنه لا ضير عليهم في ذلك ما دام تعذيبهم هذا في ذات الله، فهم هنا إنما يعذبون في ذات الله فقط، وهذا لا يضرهم أبدا، بل يزيدهم رفعة، ولذلك كان ذكرهم إلى يوم القيامة، فأشاد الله تعالى بذكرهم في القرآن، وسيبقى إلى يوم

=

=

القيامة، وهذا فيه أكبر منفعة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنا إلى ربنا} بعد موتنا بأي وجه كان {منقلبون} راجعون في الآخرة]، يعني: يقولون: مهما كان حتى لو بلغنا إلى الموت فإن النهاية أننا سنرجع إلى ربنا، ورجوعنا إلى ربنا خير من الدنيا؛ لأنهم يرجعون إلى نعيم أبدي لا يماثله شيء من نعيم الدنيا، وفي سورة طه: {فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا} [طه: ٧٢]، يعني: اقض ما تريد، غاية ما يكون أن يكون تعذيبك موصلا إلى الموت، وإذا أوصل إلى الموت فالنتيجة {إنما تقضي هذه الحياة الدنيا}، مما يدل على أنهم صادقون في الإيمان، وأن إيمانهم راسخ جدا.

وفي هذا من آيات الله سبحانه وتعالى وبيان قدرته ما هو ظاهر، ففي لحظة واحدة انقلب الكفر العظيم إلى إيمان عميق، فبمجرد أن رأوا ما تفعله عصا موسى انقلبوا بعد الكفر مؤمنين، ولهذا قال بعض العلماء: أصبحوا كفارا سحرة، وأمسوا شهداء بررة. وهذا صحيح أنهم كانوا بررة وأتقياء، وكانوا من أقوى الناس إيمانا وجهادا في سبيل الله.

قال تعالى: {إنا إلى ربنا منقلبون}، وفي هذا أيضا دليل على إيمانهم بالبعث؛ لقولهم: {إنا إلى ربنا منقلبون}، فهم مؤمنون بلقاء الله سبحانه وتعالى، وهو من أصول الإيمان.

فوائد الآيتين الكريمتين:

الفائدة الأولى: شدة تمويه فرعون حين قال: {إنه لكبيركم الذي علمكم السحر} مع أنه يعلم أنه ليس بين موسى وبين هؤلاء السحرة شيء من الإتصال، ولكنه لقوة تمويهه أراد أن يموه بهذا الكلام الذي ليس بمعقول.

الفائدة الثانية: قوة جبروته حين هددهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف ثم الصلب.

=

=

الفائدة الثالثة: قوة إيمان هؤلاء السحرة الذين تحدوا فرعون بجبروته، وقالوا: إنه لا ضرر علينا فيما هددتنا به؛ لأننا سننقلب إلى الله سبحانه وتعالى وسيعطينا من الأجر والثواب أكثر مما فقدنا من هذه الحياة الدنيا، كما قال في سورة طه: {إنما تقضي هذه الحياة الدنيا} [طه: ٧٢].

الفائدة الرابعة: أن الإيمان إذا صدق صار أقوى من العاطفة، فحب النفس أمر فطري، ولكن الإيمان يؤدي إلى أن ترخص النفس عند المرء بجانب دينه.

* قال الله ﷻ: {إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين} [الشعراء: ٥١].

قال المصنف رحمه الله: [{إنا نطمع} نرجو {يغفر لنا ربنا خطايانا أن} أي: بأن {كنا أول المؤمنين} في زماننا].

{نطمع} يعني: نرجو ونؤمل، وهذا الطمع مما يمدح عليه العبد، لكن إذا فعل أسبابه، أما إذا لم يفعل أسبابه فإنه من الأماني الباطلة، كما جاء في الحديث: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله".

هم أكدوا أنهم يطمعون في مغفرة الله؛ لأنهم فعلوا السبب، وهو الإيمان بعد الكفر، وقد قال الله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: ٣٨]، فهم طمعوا هذا الطمع مع وجود سببه، وهو مدح، وقولهم رضي الله عنهم: {أن يغفر لنا ربنا خطايانا} الغفر معناه: ستر الذنب والعفو عنه، وقولهم: {خطايانا} جمع: خطيئة، وهل الخطايا والسيئات واحدة، أم بينهما فرق، أم يفرق بينهما عند الإجتماع فقط؟

يفرق بينهما عند الإجتماع فقط، وأما إذا أفردت إحداهما فإنها تشمل الأخرى، ففي سورة آل عمران: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار

=

=

لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، إلى أن قالوا: {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا} [آل عمران: ١٩٣]، ففرقوا بين الذنوب والسيئات، فالذنوب طلبوا مغفرتها، والسيئات طلبوا تكفيرها؛ لأنها من الصغائر التي تكفرها الأعمال الصالحة، والسيئات المراد بها هنا الكبائر، التي لا تزول إلا بمغفرة، لا بتكفير.

قال تعالى: {أن كنا أول المؤمنين} هذا ليس من باب الإدلال على الله والمنة عليه بكونهم أول المؤمنين، ولكن من باب التحدث بنعمة الله الذي يرونه سببا ووسيلة لمغفرة الذنوب؛ لأن السبق إلى الإيمان وإلى العمل الصالح منقبة، ومن أسباب الرتب العالية، ولهذا قال الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير} [الحديد: ١٠]، فالسبق إلى الإيمان والعمل الصالح له مزيته، ولصاحبه مرتبة عالية.

فإن قال قائل: هؤلاء السحرة هم الذين أتعبوا موسى عليه السلام بعد؟ أم هؤلاء قتلوا؟

فالجواب: لا، هؤلاء إيمانهم صحيح، وهؤلاء إما أنهم قتلوا مباشرة، أو أنهم لم يحدث لهم شيء، أما الذين آذوه فهم قومه.

فإن قال قائل: هل كان بنو إسرائيل مؤمنين؟

فالجواب: في هذه المعالجة الظاهر ما كانوا مؤمنين، أو كان بعضهم مؤمنا، لا أدري؛ لأن أصل إنزال التوراة بعد ذلك: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى} [القصص: ٤٣].

فإن قال قائل: هل قتل جميع السحرة؟

=

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢).

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى} بَعْد سِنِينَ أَقَامَهَا بَيْنهمْ يَدْعُوهُمْ بِآيَاتِ الله إِلَى الْحَقّ فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَّا عُتُوًّا {أَنْ أَسِرْ بِعِبَادِي} بَنِي إِسْرَائِيل وَفِي قِرَاءَة بِكَسْرِ النُّون وَوَصْل هَمْزَة أَسْرِ مِنْ سَرَى لُغَة فِي أَسْرَى أَيْ سِرْ بِهِمْ لَيْلًا إِلَى الْبَحْر {إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} يَتْبَعكُمْ فِرْعَوْن وَجُنُوده فَيَلِجُونَ وَرَاءَكُمْ الْبَحْر فَأُنْجِيكُمْ وَأُغْرِقهُمْ.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣).

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْن} حِين أَخْبَرَ بِسَيْرِهِمْ {فِي الْمَدَائِن} قِيلَ كَانَ لَهُ أَلْف مَدِينَة وَاثْنَا عَشَر أَلْف قَرْيَة {حَاشِرِينَ} جَامِعِينَ الْجَيْش قَائِلًا.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤).

{إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَة} طَائِفَة {قَلِيلُونَ} قِيلَ كَانُوا سِتّمِائَةِ أَلْف وَسَبْعِينَ أَلْفًا وَمُقَدَّمَة جَيْشه سَبْعمِائَةِ أَلْف فَقَلَّلَهُمْ بِالنَّظَرِ إِلَى كَثْرَة جَيْشه.

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥).

{وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} فَاعِلُونَ مَا يَغِيظنَا.

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦).

{وَإِنَّا لجميع حذرون} مستعدون وفي قراءة حاذرون متيقظون.

=

فالجواب: الظاهر أنهم كلهم؛ لأن قول بعض العلماء: "شهداء بررة" يدل على أنهم قتلوا، وعلى كل حال نحتاج إلى التثبت.

وإن قال قائل: هل آمنوا جميعهم؟

فالجواب: كلهم آمنوا، قال تعالى: {فألقي السحرة ساجدين} [الشعراء: ٤٦]، فكلهم آمنوا إيمانا كاملا.

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧).

قال تعالى {فَأَخْرَجْنَاهُمْ} أَيْ فِرْعَوْن وَقَوْمه مِنْ مِصْر لِيَلْحَقُوا مُوسَى وَقَوْمه {مِنْ جَنَّات} بَسَاتِين كَانَتْ عَلَى جَانِبَيْ النِّيل {وَعُيُون} أَنْهَار جَارِيَة فِي الدُّور من النيل.

وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨).

{وَكُنُوز} أَمْوَال ظَاهِرَة مِنْ الذَّهَب وَالْفِضَّة وَسُمِّيَتْ كُنُوزًا لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ حَقّ الله تَعَالَى مِنْهَا {وَمَقَام كَرِيم} مَجْلِس حَسَن لِلْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاء يحفه أتباعهم.

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩).

{كَذَلِكَ} أَيْ إخْرَاجنَا كَمَا وَصَفْنَا {وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيل} بَعْد إغْرَاق فِرْعَوْن وَقَوْمه.

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠).

{فَأَتْبَعُوهُمْ} لَحِقُوهُمْ {مُشْرِقِينَ} وَقْت شُرُوق الشَّمْس.

فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١).

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} رَأَى كُلّ مِنْهُمَا الْآخَر {قَالَ أَصْحَاب مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} يُدْرِكنَا جَمْع فِرْعَوْن وَلَا طَاقَة لَنَا بِهِ.

قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢).

{قَالَ} مُوسَى {كَلَّا} أَيْ لَنْ يُدْرِكُونَا {إِنَّ معي ربي} بنصره {سيهدين} طريق النجاة.

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣).

قال تعالى {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاك الْبَحْر} فَضَرَبَهُ {فَانْفَلَقَ}

فَانْشَقَّ اثْنَيْ عَشَر فِرَقًا {فَكَانَ كُلّ فِرْق كَالطَّوْدِ الْعَظِيم} الْجَبَل الضَّخْم بَيْنهمَا مَسَالِك سَلَكُوهَا لَمْ يَبْتَلّ مِنْهَا سُرُج الرَّاكِب ولا لبده.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤).

{وَأَزْلَفْنَا} قَرَّبْنَا {ثَمَّ} هُنَاكَ {الْآخِرِينَ} فِرْعَوْن وَقَوْمه حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكهمْ.

وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥).

{وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ الْبَحْر عَلَى هَيْئَته الْمَذْكُورَة.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦).

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} فِرْعَوْن وَقَوْمه بِإِطْبَاقِ الْبَحْر عَلَيْهِمْ لَمَّا تَمَّ دُخُولهمْ فِي الْبَحْر وَخُرُوج بَنِي إِسْرَائِيل مِنْهُ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} إِغْرَاق فِرْعَوْن وَقَوْمه {لَآيَة} عِبْرَة لِمَنْ بَعْدهمْ {وَمَا كَانَ أَكْثَرهمْ مُؤْمِنِينَ} بِاَللَّهِ لَمْ يُؤْمِن مِنْهُمْ غَيْر آسِيَة امْرَأَة فِرْعَوْن وحزقيل مُؤْمِن آل فِرْعَوْن وَمَرْيَم بِنْت ناموصي الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عِظَام يُوسُف عليه السلام.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨).

{وَإِنَّ رَبّك لَهُوَ الْعَزِيز} فَانْتَقَمَ مِنْ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ {الرَّحِيم} بِالْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَاهُمْ مِنْ الْغَرَق[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي} [الشعراء: ٥٢]، أي:"وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: أَنْ سِرْ ليلا بمن آمن من بني إسرائيل".

=

=

قال الطبري:"يقول: وأوحينا إلى موسى إذ تمادى فرعون في غيه وأبى إلا الثبات على طغيانه بعد ما أريناه آياتنا: أن سر ببني إسرائيل ليلا من أرض مصر".

قال ابن عباس:"فلما طال مكث موسى لمواعيد فرعون الكاذبة أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا".

قال السدي:"ثم إن الله أمر موسى: أن يخرج ببني إسرائيل، فقال: {فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون}، يقول: طريقا كما هو، فأمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط وأمر أن لا ينادي أحد منهم صاحبه وأن يسرجوا بيوتهم حتى الصبح وأن لا ينادي إنسان منهم صاحبه وأن من خرج يلطخ أمام بابه بكف من دم حتى يعلم أنه قد خرج وإن الله أخرج كل ولد زنا في القبط من بني إسرائيل وأخرج كل ولد زنا في بني إسرائيل من القبط إلى القبط حتى أتوا آباءهم ثم خرج موسى ببني إسرائيل ليلا والقبط لا يعلمون وقد دعوا قبل ذلك على القبط فخرج في قومه وألقي على القبط الموت، فمات كل بكر رجل منهم فأصبحوا يدفنونهم، فشغلوا، عن طلبهم حتى طلعت الشمس، "وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف لا يعدون لصغره ولا ابن ستين

لكبره وإنما عدوا فيما بين ذلك سوى الذرية، وتبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذيانة".

قال ابن كثير:"لما طال مُقام موسى، عليه السلام، ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى، عليه السلام، أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤْمَر، ففعل موسى، عليه السلام، ما أمره به ربه عز وجل. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا، وكان خروجه بهم، فيما ذكر غير واحد من المفسرين، وقت طلوع القمر. وذكر مجاهد، رحمه الله، أنه كُسِف القمر تلك

=

=

الليلة، فالله أعلم، وأن موسى، عليه السلام، سأل عن قبر يوسف، عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه، عليهما السلام، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم، رحمه الله، فقال: حدَّثنا علي بن الحسين... عن أبي موسى قال: «نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: تعاهدنا. فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ: "ما حاجتك؟ " قال ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلي، فقال: "أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟ " فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: "إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدِّثك أن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل. فأرسل إليها فقال لها: دليني على قبر يوسف. فقالت: والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي. قال لها: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة. فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها. قال: فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم: أنضبوا هذا الماء. فلما أنضبوه قالت: احتفروا، فلما احتفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار»".

ثم قال قال ابن كثير: "هذا حديث غريب جدًا، والأقرب أنه موقوف، والله أعلم".

وقرئ: «أسر»، بقطع الهمزة ووصلها.

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} [الشعراء: ٥٢]، أي:"لأن فرعون وجنوده متبعوكم".

قال يحيى:"أي: يتبعكم فرعون وقومه".

=

=

قال الطبري: يقول:"إن فرعون وجنده متبعوك وقومك من بني إسرائيل، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرضهم، أرض مصر".

قال الزمخشري:"علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم. والمعنى: أنى بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم، حتى يدخلوا مدخلكم، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر، فأطبقه عليهم فأهلكهم".

قوله تعالى: {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣)} [الشعراء: ٥٣]

فأرسل فرعون جنده -حين بلغه مسير بني إسرائيل- يجمعون جيشه من مدائن مملكته.

قال الطبري: يقول:"فأرسل فرعون في المدائن يحشر له جنده وقومه".

قال الزجاج:"أي: أرسل من جمع له الجيش، معناه: فجمع جمعه".

قال ابن كثير:"فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين، أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنّقباء والحُجَّاب".

قال السدي:"وأرسل إلى المدائن حاشرين".

عن مجاهد، والسدي في قوله: "{في المدائن حاشرين}، قالا: "الشُّرَط".

قوله تعالى: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} [الشعراء: ٥٤]، أي:"قال فرعون: إن بني إسرائيل الذين فرُّوا مع موسى لَطائفة حقيرة قليلة العدد".

قال ابن كثير:"نادى فيهم: {إِنَّ هَؤُلاءِ} - يعني: بني إسرائيل - {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} أي: لطائفة قليلة".

قال الفراء:"يقول عصبة قليلة".

قال أبو عبيدة:"أي: طائفة. وكل بقية قليلة فهى: شرذمة".

قال الزجاج:"الشرذمة في كلام العرب: القليل".

=

=

قال الطبري: يقول:"ويقول فرعون لجنده وقومه: {إن هؤلاء} يعني بهؤلاء: بني إسرائيل {لشرذمة قليلون}، يعني بالشرذمة: الطائفة والعصبة الباقية من عصب جبيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة؛ ومنه قول الراجز:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق... شراذم يضحك منه التواق

وقيل: قليلون، لأن كل جماعة منهم كان يلزمها معنى القلة؛ فلما جمع جمع جماعاتهم قيل: قليلون، كما قال الكميت:

فرد قواصي الأحياء منهم... فقد صاروا كحي واحدينا".

قال الزمخشري:"يجوز أن يريد بالقلة: الذلة والقماءة، ولا يريد قلة العدد. والمعنى: أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم".

عن السدي، قوله: "{إن هؤلاء لشرذمة قليلون}، يعني: بني إسرائيل".

قال مجاهد:"هم يومئذ ست مئة ألف، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون".

قال أبو عبيدة:"كانوا ست مئة وسبعين ألفا".

قال ابن عباس:"كان مع فرعون يومئذ ألف جبار، كلهم عليه تاج، وكلهم أمير على خيل".

قال عبد الله بن شداد بن الهاد: "اجتمع يعقوب وولده إلى يوسف، وهم اثنان وسبعون، وخرجوا مع موسى وهم ست مئة ألف، فقال فرعون {إن هؤلاء لشرذمة قليلون}، وخرج فرعون على فرس أدهم حصان على لون فرسه في عسكره ثمان مئة ألف".

عن يحيى بن عروة بن الزبير، "إن الله ﷻ أمر موسى بالسير ببني إسرائيل وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ، فلما سار موسى ببني إسرائيل أذن فرعون في الناس إن هؤلاء لشرذمة قليلون".

=

=

عن قيس بن عباد: "أن الشرذمة الذين سماهم فرعون من بني إسرائيل كانوا ست مئة ألف، قال: وكان مقدمة فرعون سبعة مئة ألف، كل رجل منهم على حصان على رأسه بيضة، وفي يده حربة، وهو خلفهم في الدهم. فلما انتهى موسى ببني إسرائيل إلى البحر، قالت بنو إسرائيل. يا موسى أين ما وعدتنا، هذا البحر بين أيدينا، وهذا فرعون وجنوده قد دهمنا من خلفنا، فقال موسى للبحر: انفلق أبا خالد، قال: لا لن أنفلق لك يا موسى، أنا أقدم منك خلقا؛ قال: فنودي أن أضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق البحر، وكانوا اثني عسر سبطا. قال الجريري. فأحسبه قال: إنه كان لكل سبط طريق، قال: فلما انتهى أول جنود فرعون إلى البحر، هابت الخيل اللهب؛ قال: ومثل لحصان منها فرس وديق، فوجد ريحها فاشتد، فاتبعه الخيل؛ قال: فلما تتام آخر جنود فرعون في البحر، وخرج آخر بني إسرائيل، أمر البحر فانصفق عليهم، فقالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا، فسمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام، قال: فرمى به على الساحل، كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} [الشعراء: ٥٥]، أي:"وإنهم لمالئون صدورنا غيظًا؛ حيث خالفوا ديننا، وخرجوا بغير إذننا".

قال ابن كثير:"أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا".

قال الطبري:"يقول: وإن هؤلاء الشرذمة لنا لغائظون، فذكر أن غيظهم إياهم كان قتل الملائكة من قتلت من أبكارهم، وقد يحتمل أن يكون معناه: وإنهم لنا لغائظون بذهابهم منهم بالعواري التي كانوا استعاروها منهم من الحلي، ويحتمل أن يكون ذلك بفراقهم إياهم، وخروجهم من أرضهم بكره لهم لذلك".

قال ابن جريج:"يقول: بقتلهم أبكارنا من أنفسنا وأموالنا".

قال الزمخشري: أي:"ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا".

=

=

قال الزجاج:"يقال: قد غاظني فلان، ومن قال: أغاظني فقد لحن".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} [الشعراء: ٥٦]، أي:"وإنا لجميع متيقظون مستعدون لهم".

قال الطبري: معناه" أنهم معدون مؤدون ذوو أداة وقوة وسلاح".

قال ابن كثير:"أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم".

قال الزمخشري: أي:"ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور، فإذا خرج علينا خارج، سارعنا إلى حسم فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن، لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه".

عن ابن عباس في قوله: وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ}، قال:"مؤدون مقوون".

عن أبي إسحاق، قال: "سمعت الأسود بن زيد يقرأ: {وإنا لجميع حاذرون}، قال: مقوون مؤدون".

عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرأ: "{وإنا لجميع حاذرون}، يقول: مؤدون".

قال السدي:"يقول: حذرنا، قال: جمعنا أمرنا".

قال ابن جريج:"مؤدون معدون في السلاح والكراع".

قال محمد بن قيس: "كان مع فرعون ست مئة ألف حصان أدهم سوى ألوان الخيل".

قال الزجاج:"جاء في التفسير أن معنى حاذرون، مؤدون. أي: ذوو أداة، أي ذوو سلاح والسلاح أداة الحرب، فالحاذر المستعد، والحذر المتيقظ".

وقرئ: «وأنا لجميع حذرون»، بغير ألف.

قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الشعراء: ٥٧ - ٥٨]، أي:"فأخرج الله فرعون وقومه من أرض «مصر» ذات البساتين

=

=

وعيون الماء وخزائن المال والمنازل الحسان".

قال ابن كثير:"أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا".

قال الطبري: يقول:"فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء، وكنوز ذهب وفضة، ومقام كريم. قيل: إن ذلك المقام الكريم: المنابر".

قال السمعاني:"في القصة: أن البساتين كانت ممتدة على حافتي النيل من أعلاه إلى آخره.. وقوله: {وكنوز} أي: كنوز الأموال، وفي بعض القصص: أنه كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام، كل غلام على فرس من عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب، وقوله: {ومقام كريم} أي: منازل حسان، وقد قيل: إن المقام الكريم هو المنابر، وكان بمصر ألف منبر في ذلك الوقت، وقيل: {ومقام كريم} أي: مجلس الأشراف، وذكر بعضهم: أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف، عليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب".

قال قتادة:"كانوا في ذلك في الدنيا، فأخرجهم الله مِن ذلك، وأورثها بني إسرائيل".

قال مجاهد بن جبر: "سمّاها: كنوزًا؛ لأنّه لم يُعْطِ حقَّ الله منها، وما لم يُعْطَ حقُّ الله منه فهو كنز، وإن كان ظاهرًا".

عن سعيد بن جبير، ومجاهد:"{ومقام كريم}، قال: المنابِر".

قال قتادة: "{ومقام كريم}، أي: في الدنيا".

عن السدي:"{ومقام كريم}، يعني: مَسْكنًا حَسَنًا".

قال عقيل:"سمعت: أنّ المقام الكريم: الفَيُّوم".

عن عبد الله بن عمرو قال: "نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب وذلله له فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فمدته الأنهار بمائها وفجر الله له من الأرض عيونا فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله أوحى

=

=

الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ٥٧]، أي:"وكما أخرجناهم، جعلنا هذه الديار من بعدهم لبني إسرائيل".

قال الطبري: "يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفت لكم في هذه الآية والتي قبلها، وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل".

قال ابن كثير:"{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، كما قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: ٥، ٦]".

عن الحسن:"{كَذَلِكَ}، أي: كذلك كان الخبر، {وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، رجعوا إلى مصر بعدما أهلك الله فرعون وقومه"

قوله تعالى: {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠)} [الشعراء: ٦٠].

فلحق فرعون وجنده موسى ومَن معه وقت شروق الشمس.

قال قتادة:"أتبع فرعون وجنوده موسى حين أشرقت الأرض".

قال الطبري: "فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل، مشرقين حين أشرقت الشمس، وقيل حين أصبحوا".

قال الزجاج:"أي: في وقت شروق الشمس، يقال أشرقنا أي دخلنا في وقت طلوع الشمس، ويقال شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت وصفت،

=

=

وأشرقنا نحن دخلنا في الشروق".

قال ابن كثير:"أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها".

قال ابن كثير:"ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأمَّا ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على

خيل دُهْم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم".

قال السدي:"خرج موسى ليلا فكسف القمر وأظلمت الأرض، وقال أصحابه: إن يوسف أخبرنا أنا سننجى من فرعون، وأخذ علينا العهد لنخرجن بعظامه معنا، فخرج موسى ليلته يسأل عن قبره، فوجد عجوزا بيتها على قبره، فأخرجته له بحكمها، وكان حكمها أو كلمة تشبه هذا، أن قالت: احملني فأخرجني معك، فجعل عظام يوسف في كسائه، ثم حمل العجوز على كسائه، فجعله على رقبته، وخيل فرعون هي ملء أعنتها حضرا في أعينهم، ولا تبرح، حبست عن موسى وأصحابه حتى تواروا".

قوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)} [الشعراء:٦١]

التفسير:

فلما رأى كل واحد من الفريقين الآخر قال أصحاب موسى: إنَّ جَمْعَ فرعون مُدْرِكنا ومهلكنا.

=

=

قوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} [الشعراء:٦١]، أي:"فلما رأى كل واحد من الفريقين الآخر".

قال ابن كثير:"أي: رأى كل من الفريقين صاحبه".

قال الزجاج:"أي لما واقف جمع موسى جمع فرعون، وكان أصحاب موسى قد خرجوا ليلا".

روي عن المشيخة، قال: "لما لقي موسى فرعون، قال: أمر موسى يوشع بن نون وأصحابه أن يسودوا رؤوسهم ولحاهم".

قوله تعالى: {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} [الشعراء:٦١]، أي:"قال أصحاب موسى: إنَّ جَمْعَ فرعون مُدْرِكنا ومهلكنا".

قال الزجاج:"أي: سيدركنا جمع فرعون هذا الكثير، ولا طاقة لنا بهم".

قال ابن كثير:"وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده".

قال السدي:"فلما تراءى الجمعان فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد ردفهم، قالوا: {إنا لمدركون}، وقالوا: {أوذينا من قبل أن تأتينا}، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا {ومن بعد ما جئتنا}، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، {إنا لمدركون}".

قوله تعالى: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)} [الشعراء:٦٢]

التفسير:

قال موسى لهم: كلا ليس الأمر كما ذكرتم فلن تُدْرَكوا؛ إن معي ربي بالنصر، سيهديني لما فيه نجاتي ونجاتكم.

قوله تعالى: {قَالَ كَلَّا} [الشعراء:٦٢]، أي:"قال موسى لهم: كلا ليس الأمر كما ذكرتم فلن تُدْرَكوا"

=

=

قال الزجاج:"قال موسى كلا أي ارتدعوا وازدجروا فليسوا يدركوننا".

قال ابن كثير:"أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون".

قوله تعالى: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء:٦٢]، أي:"إن معي ربي بالنصر، سيهديني لما فيه نجاتي ونجاتكم".

قال السدي:"يقول: سيكفيني".

قال ابن كثير: أي: "فإن الله – سبحانه – هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.

عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي: "قال أصحاب موسى: {إنا لمدركون}. قال: {كلا إن معي ربي سيهدين} إلى النجاة قد وعدني ذلك ولا خلف لموعده".

قال ابن إسحاق:"وخرج موسى ببني إسرائيل، حتى إذا قابله البحر لم يكن له عنه مُنصَرَف؛ طلع فرعون في جنوده من خلفهم، {فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين} للنجاة، قد وعدني ذلك، ولا خُلْف لموعوده".

قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ} [الشعراء:٦٣]، أي:"أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه".

قال قيس بن عبادة:"لما انتهى موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى البحر، قالت بنوا إسرائيل: أين ما وعدتنا هذا البحر بين أيدينا وهذا فرعون وجنوده قد دهمنا من خلفنا. فقال موسى للبحر: انفرق أبا خالد. فقال: لن أنفرق لك يا موسى، أنا أقدم منك وأشد خلقا. قال: فنودي {أن اضرب بعصاك البحر}".

قال السدي:"فتقدم هارون فضرب البحر، فأبى البحر أن ينفتح، وقال: من هذا الجبار الذي يضربني؟ حتى أتاه موسى، فكناه: أبا خالد، وضربه فانفلق".

قال محمد بن إسحاق:"فأوحى الله عز وجل فيما ذكر لي إلى البحر أن إذا ضربك

=

=

موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضرب بعضه بعضا خوفا من الله انتظارا لما أمره الله وأوحى الله إلى موسى أن اضرب البحر، فضربه بها فيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق".

قوله تعالى: {فَانْفَلَقَ} [الشعراء:٦٣]، أي:"فضربه فانشق وانفلق".

قال ابن كثير:"كان هارون، عليه السلام، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى، عليه السلام، في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى، عليه السلام: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله".

قال قيس بن عباد: "فضرب يعنى موسى البحر، فانفلق البحر".

قال أبو مسعود الجريري: "كانوا اثنا عشر سبطا فأحسب أنه كان لكل سبط طريق".

عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام:"أن موسى، عليه السلام، لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء، والكائن قبل كل شيء، اجعل لنا مخرجًا. فأوحى الله إليه: {أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ}".

قال ابن عباس:"خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث، وخرج موسى عليه السلام في بني إسرائيل في ستمائة ألف قال فرعون إن هؤلاء لشرذمة قليلون فلما بلغ موسى البحر واتبعه فرعون قال له فتاه أين تريد؟ وكان الله عز وجل أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر وأوحى الله إلى البحر أن موسى سيضربك فإذا ضربك فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله أفكل يعنى رعدة لا يدري من أي جوانبه يضرب موسى، فقال له فتاه يوشع بن نون: يا موسى أين أمرك ربك قال:

=

=
أمرني أن أضرب البحر قال: فاضربه".
قال ابن عباس:"وأوحى الله عز جل إلى البحر إذا ضربك عبدي فانفلق له اثنا عشر فرقا حتى يجوز موسى ومن معه ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه فنسي موسى أن يضرب البحر فدفع إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا له فلما تراءا الجمعان وتقاربا قال قوم موسى: إنا لمدركون افعل ما أمرك ربك فإنك لم تكذب ولم تكذب قال وعدني إذا انتهيت إلى البحر أن ينفرق لي حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بالعصا حين دنى أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمر الله وكما وعد موسى ﷺ".
قال عمرو بن ميمون:"لما انتهى موسى إلى البحر، قال له وصيه: يا نبي الله أين أمرت؟ قال: هاهنا. قال: والله ما كذبت ولا كذبت مرتين ثم إن موسى قال للبحر: أتعرفني فقال: لقد استكبرت يا موسى ما انفرقت لأحد من بني إسرائيل إلا لك فأوحى الله إليه: {اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم}".
قال سعيد بن جبير:"كان البحر ساكنا لا يتحرك فلما كان ليلة ضربه موسى بالعصا صار يمد ويزجر".
قوله تعالى: {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء:٦٣]، أي:"فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت".
قال الزجاج:"أي: كل جزء تفرق منه كالجبل العظيم".
قال ابن عباس:"أوحى الله إلى موسى: {أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم}، قال: فضرب فصار اثنا عشر طريقا، وكانوا اثنا عشر سبط لكل سبط طريق".
عن ابن عباس، قوله: "{كالطود}، يقول: كالجبل". وروى عن عبد الله بن مسعود
=

=

ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وعبد الله بن عبيد مثل ذلك.

قال عطاء:"وأما {كالطود العظيم}: الفسح العظيم بين الجبلين".

عن السدي، " {فكان كل فرق كالطود العظيم}،يقول: كالجبل العظيم، فدخل بنوا إسرائيل وكان في البحر اثنا عشر طريقا في كل طريق سبط، وكانت الطرق إذا انفلقت بجدران فقال كل سبط: قد قتل أصحابنا فلما رأى ذلك موسى دعا الله ﷻ فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيقان ينظر آخرهم إلى أولهم حتى خرجوا جميعا".

قال محمد بن إسحاق: {فكان كل فرق كالطود العظيم}، أي: كالجبل العظيم، عن يبس من الأرض، يقول ﷻ لموسى: {فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى}، فلما أسفر له البحر، عن طريق قائمة يبس، سلك فيه موسى ببني إسرائيل وأتبعه فرعون بجنوده".

قوله تعالى: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} [الشعراء:٦٤]، أي:"وقرَّبْنا هناك فرعون وقومه حتى دخلوا البحر".

قال أبو عبيدة:"أي: وجمعنا، ومنه ليلة المزدلفة، والحجة فيها أنها ليلة جمع وقال بعضهم وأهلكنا".

قال الزجاج:"أي: قربنا ثم الآخرين من الغرق، وهم أصحاب فرعون، وقال أبو عبيدة: {أزلفنا}: جمعنا ثم الآخرين. قال ومن ذلك سميت مزدلفة جمعا. وكلا القولين حسن جميل، لأن جمعهم تقريب بعضهم من بعض، وأصل الزلفى في كلام العرب القربى".

قال الطبري:"وقربنا هنالك آل فرعون من البحر، وقدمناهم إليه، ومنه قوله: {وأزلفت الجنة للمتقين}، بمعنى: قربت وأدنيت؛ ومنه قول العجاج:

طي الليالي زلفا فزلفا... سماوة الهلال حتى احقوقفا".

قال قتادة:"يقول: وأدنينا فرعون وجنوده إلى البحر".

=

=

قال عطاء:"وأما: {أزلفنا ثم الآخرين}: فقدمنا إلى البحر آل فرعون".

قال السدي:"ثم دنا فرعون وأصحابه، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلق قال: ألا ترون إلى البحر فرق مني فانفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله ﷻ: {أزلفنا}، يقول: قربنا".

قوله تعالى: {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ} [الشعراء:٦٥]، أي:"وأنجينا موسى ومَن معه جميعا".

قال الطبري: يقول:"وأنجينا موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر ومن مع موسى من بني إسرائيل أجمعين".

قال ابن كثير:"أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد".

عن عبد الله:"أن موسى ﷺ حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ثم قال: لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع إلي ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له: انفرق فقال له البحر لقد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك؟ قال: ومع موسى رجل على حصان له، فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه هذا البحر. فأقحم فرسه فسبح به فخرج. فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت ولا كذبت. ثم أقحم الثانية فسبح ثم خرج، ثم قال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه. قال: والله ما كذبت ولا كذبت. قال: فأوحى الله إلى موسى: {أن اضرب بعصاك البحر} فضربه موسى بعصاه {فانفلق}، فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فيه، فلما خرج أصحاب موسى تتام أصحاب فرعون، التقى البحر عليهم فأغرقهم".

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} [الشعراء:٦٦]، أي:"ثم أغرقنا فرعون ومن معه".

قال الطبري: "يقول: ثم أغرقنا فرعون وقومه من القبط في البحر بعد أن أنجينا موسى منه ومن معه".

قال ابن كثير:"وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك".

قال ابن عباس:"فلما جاز أصحاب موسى كلهم دخل أصحاب فرعون كلهم فالتقى البحر عليهم كما أمر، فلما جاوز البحر موسى، قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه، فأخرجه ببدنه حتى استيقنوا".

قال قتادة:"ذكر لنا أنه لما خرج آخر بني إسرائيل من البحر ودخل البحر آل فرعون، أطبق عليهم البحر فغرقهم".

قال عبد الله:"فلما خرج أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، اضطم عليهم البحر، فما رؤي سواد أكثر من يومئذ، قال: وغرق فرعون".

قال السدي:"فلما قام فرعون على أفواه الطريق أبت خيله أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذيانة فشامت الحصن ريح الماذيانة فاقتحمت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم، وتفرد جبريل بفرعون يمقله من مقل البحر فجعل يدسها في فيه".

عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: "حدثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل البحر فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذ، فعرض له جبريل على فرس أنثى وديق، فقربها منه فشمها الفحل، فلما شمها قدمها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون. فلما رأى جند فرعون فرعون قد دخل، دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون، وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم،

=

=

يقول:"الحقوا بصاحبكم". حتى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى، وليس خلفه أحد، طبق عليهم البحر، ونادى فرعون -حين رأى من سلطان الله ﷻ وقدرته ما رأى وعرف ذله، وخذلته نفسه: {لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين}".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ٦٧]، أي:"إن في ذلك الذي حدث لَعبرة عجيبة دالة على قدرة الله".

قال ابن كثير:"أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة".

قال محمد بن إسحاق:"أي: عبرة وبينة أنك لم تكن كما كنت تقول لنفسك، وكان يقال: لو لم يخرجه الله تعالى ببدنه حين أغرقه لشك فيه بعض الناس".

قال الطبري: يقول: "إن فيما فعلت بفرعون ومن معه تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سنتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة أن ادكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم من تكذيبك مع البرهان والآيات التي قد أتيتهم، فيحل بهم من العقوبة نظير ما حل بهم، ولك آية في فعلي بموسى، وتنجيتي إياه بعد طول علاجه فرعون وقومه منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دورهم وأرضهم وأموالهم، على أني سالك فيك سبيله، إن أنت صبرت صبره، وقمت من تبليغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه قيامه، ومظهرك على مكذبيك، ومعليك عليهم".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه

=

=

إلى أهله".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٦٧]، أي:"وما صار أكثر أتباع فرعون مؤمنين مع هذه العلامة الباهرة".

قال الطبري:"يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون".

عن سعيد بن جبير، " {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}،:يعنى: مصدقين".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)} [الشعراء: ٦٨]،

وإن ربك لهو العزيز الرحيم، بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجَّى موسى ومَن معه أجمعين.

قال الطبري:"{العزيز} في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله من أعدائه، {الرحيم} بمن أنجى من رسله، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عذب به الكفرة".

قال ابن كثير: "أي: الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه، {الرحيم} أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر".

عن محمد بن إسحاق: "{العزيز}، قال: العزيز في نصرته ممن كفر به إذا شاء".

عن سعيد، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بهم بعد التوبة".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون} [الشعراء: ٥٢].

قال المصنف رحمه الله: [{وأوحينا إلى موسى} بعد سنين أقامها بينهم يدعوهم بآيات الله إلى الحق، فلم يزيدوا إلا عتوا].

قال تعالى: {وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي} والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وأما في الشرع: فهو إعلام الله تعالى بالشرع لأحد أنبيائه، ثم إن الوحي قد يكون بواسطة، وقد يكون بغير واسطة، وقد قسم الله ذلك بقوله: {وما

=

=
كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء} [الشورى: ٥١]، فقوله: {إلا وحيا} هذا الإلهام (الوحي الإلهامي)، {من وراء حجاب} مكالمة صريحة، لكن من وراء حجاب، والثالث: {يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء}.

قال: {وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي} (أن) تفسيرية؛ لأنهم يقولون: إذا سبقها معنى القول دون حروفه فهي تفسيرية، نحو قوله تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه} [القصص: ٧]، وقوله: {فأوحينا إليه أن اصنع الفلك} [المؤمنون: ٢٧]، وهنا: {وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي}؛ لأنها تفسر ما يوحى به.

وقوله: {بعبادي} المراد بهم بنو إسرائيل، وهي عبودية شرعية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أن أسر بعبادي} بني إسرائيل، وفي قراءة بكسر النون ووصل همزة {أسر} من سرى لغة في أسرى، أي: سر بهم ليلا إلى البحر]، يعني: يقال: أسرى وسرى، فالأمر من أسرى الرباعي: أسر، والأمر من سرى: اسر بهمزة وصل، فعلى أنه من الرباعي تكون {أن أسر}، تظهر (أن) وتبقى ساكنة، وعلى أنها من (سرى) تكسر النون؛ لملاقاة الساكن، وتكون الهمزة همزة وصل: (أن اسر بعبادي).

والمعنى: سر بهم ليلا، يقول المصنف: [إلى البحر]، والدليل أنه إلى البحر قوله تعالى: {واترك البحر رهوا} [الدخان: ٢٤]. وكذلك أيضا ما جاء في سياق هذه الآيات.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنكم متبعون} يتبعكم فرعون وجنوده فيلجون وراءكم البحر، فأنجيكم وأغرقهم]. أمرهم الله أن يسيروا ليلا، وإنما أمروا أن يسيروا ليلا؛ لئلا يظهر أمرهم، لأنهم لو أرادوا أن يسيروا نهارا وتجهزوا، لشعر بهم آل فرعون،
=

=

وحينئذ يمنعونهم أو يؤذونهم، فلذلك أمروا أن يسيروا بالليل.

قال: {إنكم متبعون} أكدت هذه الجملة بـ(إن) مع أنها جملة اسمية أيضا، إشارة إلى أنه لا بد أن آل فرعون يتبعونهم بدون تردد، فاتباعهم لهم أمر مؤكد، ولكنهم يتبعونهم طلبا لهم؛ لأجل أن يقضوا عليهم.

* قال الله ﷻ: {فأرسل فرعون في المدائن حاشرين} [الشعراء: ٥٣].

بعدما سروا ليلا قال المصنف رحمه الله: [{فأرسل فرعون} حين أخبر بسيرهم {في المدائن} قيل: كان له ألف مدينة، واثنا عشر ألف قرية {حاشرين} جامعين الجيش]، فلما علم بهم فرعون تحفز وخاف أن يخرجوا إلى مكان آخر، فيكونوا أمة فيغزوه، فأراد أن يقضي عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، والمدائن مدائن مصر، وكونها بهذا العدد الذي قال المصنف يحتاج إلى ثبوت، ونحن ما علينا إلا أن نقول ما قاله الله، ولكننا نفهم أن هذه المدائن كثيرة، ووجهها أن (فعائل) صيغة منتهى الجموع، فهي تدل على الكثرة.

قال المصنف رحمه الله: [{حاشرين}: جامعين الجيش]، وفي هذا دليل على أنهم ليسوا يقولون: اخرجوا، بل يجبرونهم على أن يخرجوا.

قال الله ﷻ: {إن هؤلاء لشرذمة قليلون} [الشعراء: ٥٤].

قال المصنف رحمه الله: [{حاشرين}: جامعين الجيش قائلا: {إن هؤلاء لشرذمة} طائفة {قليلون}]، هذا من باب الإغراء على الخروج أن يقلل الإنسان عدوه في مسامع القوم؛ لأجل أن يتشجعوا.

فإذا قيل: أليس من الأولى أن يكثرهم لأجل أن يستعدوا؟

فالجواب: الأولى من حيث التجهيز العسكري التقليل، هذا هو الظاهر، وإن كان البعض قد يتبادر إلى ذهنه أن يقول: لماذا لم يكثروا لأجل أن يستعدوا ويخرجوا؟ فيقال: إن المفاسد التي تترتب على التكثير أكثر من المفاسد التي تترتب على

=

=

التقليل.

فإن قيل: من المقصود بقوله: (شرذمة)؟

فالجواب: المقصود موسى وقومه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لشرذمة} طائفة {قليلون}]، وكلمة: (شرذمة) ليست بمعنى طائفة فقط، كما قال المصنف، بل بمعنى التحقير، يعني: أبلغ من كلمة طائفة، و {قليلون} تدل على قلة العدد، و (شرذمة) تدل على قلة القوة، ففيها هنا التقليل الكمي والكيفي، فالكمي بقوله: {قليلون}، والكيفي بقوله: (شرذمة)؛ لأن الشرذمة الشيء الذي لا يعبأ به؛ لضعفه مثلا أو عدم استعداده، وما أشبه هذا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [قيل: كانوا ست مئة ألف وسبعين ألفا، ومقدمة جيشه سبع مئة ألف]، هذا نقول: لا أصل له ولا صحة له؛ لأنه يبعد أن يكون بنو إسرائيل بهذا المبلغ الكبير الذي ذكر، بل كانوا قليلين مستضعفين بمصر، حتى إن فرعون كان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فليسوا إلى هذا الحد بكثرة، فنحن نقول: إن هؤلاء وإن كانوا ليسوا كما وصف فرعون بكونهم شرذمة قليلين، لكن نعلم أنهم ليسوا بهذه الكثرة.

ويقول: [فقللهم بالنظر إلى كثرة جيشه]، وليس كذلك أيضا، وإنما قللهم بمسامع الناس من أجل ألا يتأخر أحد، ومن أجل أن يتشجعوا للخروج، فيقول: هؤلاء شرذمة قليلون، فهم لقمة سائغة لا يحتاجون منا كثير عناء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {وإنهم لنا لغائظون} [الشعراء: ٥٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإنهم لنا لغائظون}: فاعلون ما يغيظنا]، هذا أيضا من باب الإغراء، {وإنهم لنا} يعني: لنا آل فرعون {لغائظون} فاعلون ما يغيظنا، وهذه نقطة أخرى للتيسير على الخروج إليهم؛ لأن أحدا من الناس لا يرضى أن يغيظه أحد، فهو إغراء لبني إسرائيل.

=

=

فإن قيل: قوله: {وإنهم لنا لغائظون} هذا الكلام قائله فرعون نفسه أو الله سبحانه وتعالى يحكيه؟

فالجواب: فرعون الذي قاله، ولكن ليس يقوله أمام الناس، يقوله لرسله الذين أرسلهم إلى المدائن، يقول: {إن هؤلاء لشرذمة قليلون (٥٤) وإنهم لنا لغائظون (٥٥) وإنا لجميع حاذرون} كل هذا مما أرسل به الرسل؛ لأجل أن ينشط الناس على الإقبال.

وإن قيل: القصص في القرآن يكون من كلام القاص، يعني: من كلام الله سبحانه وتعالى أو من كلام المتحدث؟

فالجواب: من كلام من أخبر عنه، لكن ليس بلفظه؛ لأن فرعون لغته قبطية ولكن الله ترجم كلامه إلى اللغة العربية.

قال الله ﷻ: {وإنا لجميع حاذرون} [الشعراء: ٥٦].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإنا لجميع حاذرون} متيقظون، وفي قراءة: "حاذرون" مستعدون]، بدأ بنفسه، وأخبر أنه هو وقومه حذرون، أو "حاذرون"، واجتماع القراءتين يفيد المعنيين جميعا، أي: إننا متيقظون، ولتيقظنا كنا مستعدين، فهاتان القراءتان تفيدان معنيين: المعنى الأول: التيقظ، وهو استعداد نفسي، والمعنى الثاني: الإستعداد الحسي؛ لقوله: (حاذرون)؛ لأن الحاذر اسم فاعل، وهو الذي فعل ما يحذر به، وهو الإستعداد فقط.

فإن قيل: ألا تشمل (حاذرون) كلا المعنيين؟

فالجواب: لا؛ لأن الإنسان قد يستعد ويحسن الإعداد والأجهزة لكن لا يكون متيقظا، فقد يستعد ولا يتيقظ. أليس أهل مصر في حرب الأيام الستة كانوا مستعدين، ولكنهم ليسوا متيقظين، فالطائرات قد ملأت المطار والدعايات من الإذاعات كثيرة جدا، ومع ذلك لعدم تيقظهم قضي عليهم، فلا بد من استعداد

=

=

وتيقظ.

قال الله ﷻ: {فأخرجناهم من جنات وعيون (٥٧) وكنوز ومقام كريم} [الشعراء: ٥٧ - ٥٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [قال الله ﷻ: {فأخرجناهم} أي: فرعون وقومه من مصر ليلحقوا موسى وقومه {من جنات وعيون}: بساتين كانت على جانبي النيل، {وعيون}: أنهار جارية في الدور من النيل، {وكنوز}: أموال ظاهرة من الذهب والفضة، وسميت كنوزا لأنه لم يعط حق الله منها، {ومقام كريم}: مجلس حسن للأمراء والوزراء، يحفه أتباعهم].

يقول الله ﷻ: {فأخرجناهم} الضمير يعود على آل فرعون، وفي قوله: {فأخرجناهم} بصيغة العظمة لمناسبة المقام؛ لأن هؤلاء الذين تعاظموا في أنفسهم وتكبروا قوبلوا بما هو أعظم، وهو قوة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: {فأخرجناهم من جنات} يقول المصنف: [بساتين كانت على جانبي النيل]، ولا يقال للبساتين: (جنات) إلا إذا كانت كثيرة الأشجار والزروع، بحيث تستتر أرضها بها ويستتر من فيها بها، وأما ما فيه نخلات قليلة أو زرع قليل فلا يسمى جنة. وفي قوله: {من جنات} إشارة إلى كثرتها، ولعل الكثير منهم كان له بستان.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وعيون}: أنهار جارية في الدور من النيل]، وينبغي أن يقال: في الدور وغيرها، حتى الجنات التي هي البساتين إذا كانت فيها أنهار مختلفة؛ فإن ذلك لا شك مما يبهج ويسر القلب، فهو أعم من كونها في الدور، أو في هذه الجنات.

وقوله: {وكنوز} يقول المصنف: [أموال ظاهرة]، ولكن في هذا نظر كونه يفسرها بالأموال الظاهرة، ولو فسرناها بالأموال التي تكنز سواء كانت مكنوزة بالفعل؛

=

=

لكثرة المال ووفرته، فهم لا يحتاجون إلى إنفاقه، وإنما يكنزونه في الأرض ليرصدوه لما يستقبل؛ أقول: سواء كانت مكنوزة بمعنى مدفونة أو غير مدفونة؛ لأن الذهب والفضة يسمى كنزا إذا لم تؤد زكاته، وهذا كنز شرعي، وإذا دفن سمي كنزا؛ لغويا.

المهم أننا نقول: الكنوز هي الأموال العظيمة الكثيرة من الذهب والفضة، وسواء كانت هذه الكنوز نقودا أو كانت حليا يتحلون بها.

يقول: {ومقام كريم} المقام نقول: المجلس، ويمكن أن يكون المراد به محل الإقامة، يعني: المراد بالمقام المسكن، فهو أعم من أن يكون المجلس. والكريم: الحسن، ولهذا قال النبي ﷺ: "إياك وكرائم أموالهم" يعني: أحاسنها، فصار هؤلاء ممتعين من كل وجه: مقام كريم بأمن وطمأنينة، وراحة، وحسن، وباللون والكيفية، وكذلك أيضا من حيث الأموال الوفيرة التي توفرت لهم حتى صاروا يكنزونها.

قال الله ﷻ: {كذلك وأورثناها بني إسرائيل} [الشعراء: ٥٩].

قال المصنف رحمه الله: [{كذلك} أي: إخراجنا كما وصفنا، {وأورثناها بني إسرائيل}]، يعني أن {كذلك} تكون خبرا لمبتدأ محذوف، يعني: إخراجنا لهم كان كذلك، أو يكون التقدير: الأمر كذلك. المهم أن {كذلك} خبر لمبتدأ محذوف، فهي جملة مستقلة عما قبلها وعما بعدها.

ثم قال: {وأورثناها} يعني هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم، أورثناها [{بني إسرائيل} بعد إغراق فرعون وقومه]، فصارت لهم.

وقوله: {بني إسرائيل} إسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق، ومعناه: عبد الله، وإنما نسبوا إليه لأن بني إسرائيل تفرعوا منه.

وقوله: {وأورثناها بني إسرائيل} فيه من الإشكال أن النبي ﷺ يقول: "أحلت لي

=

=

الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي"، وهنا أورث الله ديار فرعون وقومه وأموالهم بني إسرائيل؟

والجواب: أن الله سبحانه وتعالى أهلك فرعون في البحر بدون حرب، والغنيمة هي ما أخذ من مال الكفار بقتال وما ألحق به، هذا تعريفها شرعا، وهذا ما أخذ بقتال فهؤلاء هلكوا، فبقيت ديارهم لبني إسرائيل، وحتى لو لم يسكنها بنو إسرائيل لسكنها آخرون غيرهم، فالمسألة هذه ما غنموها بأيديهم، ولكنها من الله ﷻ لهلاك هؤلاء، يعني: كان الأمر أنهم لما هلكوا صارت إرثا لبني إسرائيل: إرثا قدريا؛ لأنه لا بد أن يكون كذلك.

فإن قيل: هذا كما قال الله سبحانه وتعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥]، فهذا شيء كتبه الله سبحانه وتعالى من بدء الخليقة أن الأرض للمؤمنين، فهذه هي القرينة التي تخرجها عن الغنائم فلا تكون غنيمة.

فالجواب: لا، هي ليست أرضا فقط، بل جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، وهذه الكنوز مما ينقل.

وإن قيل: هل كان بنو إسرائيل يسكنون معهم؟

فالجواب: ساكنون في جانب من مصر، من جانب المدينة، لكن اهم أخذوا كنوز فرعون وآل فرعون.

المهم أن الجواب الصحيح هو الأول، وهو أن يقال: إن الغنيمة هي ما أخذ بقتال وما ألحق به، وما عدا ذلك لا يسمى غنيمة شرعا.

إذن نقول: {وأورثناها بني إسرائيل} ظاهرها مشكل مع قوله: "أحلت لي الغنائم"، ونحن نقول: أصلا ليس هناك غنيمة، يعني: كوننا نقول: هذه من الغنائم ليس بصحيح، فليست غنيمة، لكن قد يتبادر لذهن أحد عندما يقرأ الآية: كيف

=

=

يؤتيها الله بني إسرائيل وقد قال النبي ﷺ: "إن الغنائم لم تحل لأحد قبلي"؟ فجوابه أن نقول: إن هذه ليست من باب الغنائم.

فنقول: إن هذا التوريث ليس من باب الغنيمة؛ لأن الغنيمة ما أخذ من كفار بقتال، وما ألحق به.

فإن قال قائل: هل موسى بعد إبراهيم عليهما السلام مباشرة؟

فالجواب: لا، بينهما مدة طويلة، هناك إسحاق ويعقوب، وجاء بعدهم يوسف بن يعقوب إلى أهل مصر رسولا، ولهذا المؤمن قال: {ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به} [غافر: ٣٤].

وإن قيل: هل بنو إسرائيل خرجوا كلهم من مصر؟

فالجواب: نعم، الظاهر أنهم خرجوا مع موسى كلهم، قال تعالى: {أن أسر بعبادي إنكم متبعون} [الشعراء: ٥٢]، فهذا عام. وبعد ذلك عادوا ورجعوا إلى مصر وصاروا فيها.

قال الله ﷻ: {فأتبعوهم مشرقين} [الشعراء: ٦٠].

قال المصنف رحمه الله: [{فأتبعوهم} لحقوهم {مشرقين} وقت شروق الشمس].

والواو في قوله: {فأتبعوهم} تعود إلى فرعون، والهاء إلى بني إسرائيل، وعلى هذا فقوله: {وأورثناها بني إسرائيل} من حيث المعنى جملة معترضة؛ لأن توريث بني إسرائيل كان بعد أن غرق فرعون وقومه.

فيصير ذكر {وأورثناها بني إسرائيل} مناسبة تقديمها في الترتيب على ما بعدها؛ لأنه لما قال: {فأخرجناهم} كأن قائلا يقول: من الذي حل محلهم؟ فقال: {وأورثناها بني إسرائيل}، فلمناسبة الإخراج قدمت، وإلا كان مقتضى الترتيب أن تكون بعد ذكر إهلاك فرعون وقومه.

قال المصنف رحمه الله: [{فأتبعوهم} لحقوهم]، يقال: تبعه واتبعه وأتبعه بمعنى

=

=

واحد، ومنه قوله تعالى: {فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين} [الأعراف: ١٧٥]، (فأتبعه) يعني: تبعه أو اتبعه، فكل الثلاث بمعنى واحد، فقوله: {فأتبعوهم} يعني: اتبعوهم أو تبعوهم، بمعنى: لحقوهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مشرقين} وقت شروق الشمس]، وإلى جهة المشرق أيضا، مثلما نقول نحن: مشرق، يعني: نحو المشرق، فهم في الحقيقة {مشرقين} إما كما قال المصنف: [وقت شروق الشمس] أو متجهين نحو المشرق، وكلا المعنيين صحيح، فمشرق: متجه نحو المشرق باعتبار المكان، ومشرق وقت الشروق باعتبار الزمان، والعادة أن الخروج أول النهار أنشط للناس وأولى، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج مبكرا، ولكنه يبقى حتى تفيء الأفياء، وتزول الشمس، وتهب الرياح.

فإن قال قائل: لماذا موسى ومن معه خرجوا في الليل وفرعون ما خرج بعدهم إلا بعد خروج الشمس؟

فالجواب: خرج موسى وقومه ليلا اختفاء؛ خوفا على أنفسهم من فرعون فخرجوا بالليل، أما هذا فما خرج خائفا حتى ينتظر قدوم الليل، فخرج معلنا أنه ظاهر منتصر لنفسه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون (٦١) قال كلا إن معي ربي سيهدين} [الشعراء: ٦١ - ٦٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {فلما تراءى الجمعان} رأى كل منهما الآخر]، والمراد بهما جمع موسى وجمع فرعون [{قال أصحاب موسى إنا لمدركون} يدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا به].

قال: {إنا لمدركون} أكدوا الإدراك بـ(إن) واللام، يعني: مدركون يقينا؛ وذلك لأن البحر أمامهم وآل فرعون خلفهم، فلا بد أن يدركوهم، فأين يذهبون؟ فليس

=

=

أمامهم إلا البحر؛ إن خاضوا البحر غرقوا، وهم لن يخوضوه بحسب اعتقادهم في تلك الساعة؛ لأنهم لا يعلمون بالأمر، فهم لن يخوضوا البحر، فما بقي إلا أن يدركهم آل فرعون.

ولهذا قالوا: {إنا لمدركون} بالجملة الإسمية المؤكدة بـ (إن) واللام، ولكن موسى أجابهم بقوله: {كلا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: لن يدركونا]، قال ذلك موسى إيمانا بالله تعالى، وثقة بوعده، وأنه سبحانه وتعالى ما أمرهم بالخروج إلا ليحميهم من فرعون وآله.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن معي ربي} بنصره {سيهدين} طريق النجاة].

أولا: ما قال: كلا إني سأهدى، بل قدم معية الله؛ لأنها أقوى في تثبيت قومه، قال: {إن معي ربي}، وكل إنسان يكون الله معه فلن يضره شيء، ثم قال أيضا مؤكدا أثر هذه المعية: {سيهدين} والسين تدل على التحقيق والقرب، ومعنى {سيهدين} أي: سيدلني على طريق أنجو به، وموسى لم يكن عالما بهذا الطريق حين ذاك، ولكنه واثق من النجاة، ولهذا أتى بالسين الدالة على التحقيق وعلى القرب أيضا؛ لأن المقام يقتضي ذلك.

فهؤلاء أكدوا أنهم مدركون، فقوبلوا بالتأكيد أنهم لن يدركوا، وتأكيد ذلك أولا بذكر معية الله سبحانه وتعالى: {إن معي ربي}، وتأكيده ثانيا بقوله: {سيهدين}؛ لأن السين كما هو معروف عند أهل النحو تدل على التحقيق والقرب، قال: {إن معي ربي سيهدين} وفعلا حصل ما تيقنه موسى عليه الصلاة والسلام من أن الله سبحانه سيهديه طريق النجاة.

فإن قال قائل: ما توجيه المعية هنا في قول المصنف: [{إن معي ربي} بنصره]؟

فالجواب: المراد بالمعية هنا المعية الخاصة التي تقتضي النصر والتأييد؛ فإن قصد المصنف بنصره أنه تفسير بالمعية بالمعنى العام فهذا ليس بصحيح، وإن أراد

=

=

بنصره أنه أثر لذلك، فهذا صحيح، فالمصنف لا يعترض عليه؛ لأن هناك احتمالا أنه يقول: معي بنصره، بمعنى أن هذه المعية سيكون أثرها النصر.

قال الله ﷻ: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} [الشعراء: ٦٣].

قال تعالى: {أن اضرب} وهذه لا يصلح فيها: (أن أضرب)؛ لأن (ضرب) لا يأتي رباعيا، ولهذا يجب كسر النون: {أن اضرب}، و (أن) هذه تفسيرية.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أن اضرب بعصاك البحر} فضربه {فانفلق}]. تقدير المصنف (فضربه) صحيح؛ لأن البحر لم ينفلق بمجرد الوحي، بل بالضرب، وفي قوله: {أن اضرب بعصاك البحر فانفلق} إشارة إلى أن موسى ﷺ بادر بضرب البحر، وأن البحر انفلق حالا بدون تأخر.

قال البغوي: ({فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق} [الشعراء:٦٣]، يعني: فضربه فانفلق).

وقال الرازي: ({فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق} [الشعراء:٦٣] ولا شبهة في أن المراد: فضرب فانفلق؛ لأنه كالمعلوم من الكلام؛ إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب، ومع ذلك يأمره بالضرب؛ لأنه كالعبث، ولأنه تعالى جعله من معجزاته التي ظهرت بالعصا، ولأن انفلاقه بضربه أعظم في النعمة عليه وأقوى لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام، وهذا التفسير هو ما تتابع عليه عامة العلماء.

فإن قيل: فما الحكمة من هذا الحذف؟.

فالجواب من وجوه:

١ - أن هذا من مجاز الحذف المستعمل في اللغة العربية، وهو أسلوب بليغ فصيح.

=

=

٢ - أن المعنى واضح جدا ومعلوم بدون ذكر الفعل.

٣ - فيه إشارة إلى سرعة النتيجة، لتدل على عظمة الله وسرعة إنفاذ أمره.

٤ - فيه تعظيم لموسى، حيث أنجاه الله ومن معه بهذه الطريقة العجيبة، بدون تأخير في استجابة الدعاء. والله أعلم.

ومعنى {فانفلق} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فانشق اثني عشر فرقا، {فكان كل فرق كالطود العظيم} الجبل الضخم، بينهما مسالك سلكوها، لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده].

يقول: {أن اضرب بعصاك البحر} وهذه العصا التي كان يحملها دائما يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وله فيها مآرب، فتكون هذه العصا فيها مصالح عظيمة، وفيها من آيات الله ثلاث آيات، هذه إحداها.

والثانية: الثعبان، أنه إذا ألقاها صارت ثعبانا مبينا.

والثالثة: إذا ضرب بها الحجر تفجر عيونا.

فهذه ثلاث آيات، أما البقية: فالإتكاء عليها، والهش بها على الغنم، ودفع الصائل، وما أشبه ذلك، فهذه ليست من الآيات، بل من الأمور المعتادة.

وقوله: {البحر} المراد به البحر الأحمر، ويسمى بحر القلزم، هذا البحر انفلق {فكان كل فرق كالطود العظيم} كالجبل العظيم، يعني: لكبره وارتفاعه؛ لأن قاع البحر قوي عميق، فيكون كالطود العظيم للكبر وللإرتفاع، وظاهره أنه عريض؛ لأن الطود العظيم يتناول الكبر والإرتفاع والعرض، وهو كذلك، وهذا من آيات الله؛ لأن العصا إذا ضربت لا تتسع لمكان واسع، وهذه الأطواد - الإثنا عشر - مكانها بلا شك واسع، والطرق أيضا ستكون واسعة.

ثم إن في هذه الضربة من آيات الله - غير انفلاق البحر - أنه صار يبسا، يبس في الحال، قال تعالى: {لا تخاف دركا ولا تخشى} [طه: ٧٧]، وهذا أيضا من آيات

=

=

الله، أن الله أزال عنهم الخوف وألقاه عنهم، وإلا فطبيعة البشر تقتضي إذا كان الماء على يمينه ويساره كالأطواد أن يخاف، ولكن الله سبحانه وتعالى ألقى عنهم الخوف، فلم يخافوا أبدا.

وفي قوله: {كالطود العظيم} ظاهر أن الماء لم يتغير، يعني: لم يتجمد بالمعنى المعروف، فيكون أبيض جامدا، ولكنه بقي جامدا على طبيعته أسود، وهذا أعظم مما لو تجمد وهو على غير طبيعته لصارت فيه آية واحدة، وهي سرعة التجمد بهذه اللحظة، فكونه لا يسيل وهو جامد أمر طبيعي عادي، لكن كونه يبقى مائعا ولكن لا يسيل، فهذا أبلغ من ذلك. ففيه آيتان: أنه لا يسيل، وأنه لا يسيل وهو على طبيعته، والله تعالى على كل شيء قدير.

وفيه أيضا دليل على أن كل شيء يمتثل لأمر الله، وأن الله تعالى قادر على قلب الأمور عن طبائعها، فضلا عن تغير صفاتها، فهذه النار التي من طبيعتها الإحراق والحرارة كانت بردا وسلاما على إبراهيم في الحال، وهذا الماء الذي من طبيعته الإغراق والسيلان صار أمنا وجامدا لا يسيل بالنسبة لبني إسرائيل.

قال أهل العلم: إنه ما من آية أعطيها أحد من الأنبياء إلا وكانت للرسول عليه الصلاة والسلام، والآية المقابلة لهذا الأمر ما جرى لسعد بن أبي وقاص لما أراد الغزو حيث خاض الماء، ولكن ما صار يبسا، وهذا أبلغ؛ أنه يكون باقيا على طبيعته يجري كما هو، وهذه الخيول والإبل والمشاة يمشون عليها.

فإن قال قائل: هذه ليست بعهد النبي عليه الصلاة والسلام؟

فالجواب: كرامة أتباعه معجزة له.

فالحاصل أن يقال: إن ما جرى لبني إسرائيل جرى لهذه الأمة مثله؛ وذلك لأن كرامة أتباع النبي معجزة له؛ إذ معنى الكرامة الشهادة بأن ما عليه هذا المكرم حق، فإذا كان أتباع النبي ﷺ جاء لهم شهادة بأن ما هم عليه حق، كان معنى ذلك أن ما

=

=

جاء به الرسول ﷺ هو حق.

فإن قيل: قوله تعالى: {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق} اثني عشر فرقا، الإثنا عشر هذه ضرب اثنتي عشرة مرة أم ضربة واحدة فانفلق اثني عشر؟

فالجواب: لا، ضربة واحدة، فانفلق اثني عشر.

وإن قيل: كل اثني عشر ألفا يدخلون من طريق؟

فالجواب: لا ندري، كل اثني عشر ألفا يدخلون من طريق أو عشرة آلاف أو ألف.

وإن قيل: كم عددهم؟

فالجواب: لا ندري، هم على كل حال اثنتا عشرة قبيلة، فالأسباط في بني إسرائيل مثل القبائل في العرب، وهم اثنتا عشرة، لا نعرف كم عدد القبيلة؛ قد تقل أو تكثر، فيمكن كل قبيلة مثلا خمس مئة نفر أو أكثر أو أقل.

فإن قال قائل: قوله: {فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} دليل على الكثرة، لأنه ينافي الحكمة لو أخبر الله سبحانه وتعالى أن الطريق عظيم وهم قليل؟ فالله سبحانه وتعالى جعل اثني عشر طريقا لقبائل بني إسرائيل، وهم قليلون وينافي الحكمة، فلا بد أنهم كثيرون، وكل واحد كالطود العظيم؟

فالجواب: كل فرق ليس معناه الطريق، فالماء الذي بينها مثل الجبال وليس نفس الطريق، فـ {كل فرق كالطود العظيم} يعني: من الماء، فالماء الذي بينها مثل الجبال. وذكر بعض الذين ينقلون الإسرائيليات أنه صار بهذه الأطواد فرج ينظر بعضهم إلى بعض؛ زيادة في الأمن، ولكن الله تعالى أعلم هل هذا صحيح أو لا.

فإن قال قائل: فمن المقصودون في قوله تعالى: {واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا} [الأعراف: ١٥٥]؟

فالجواب: هم الذين قالوا: {أرنا الله جهرة} [النساء: ١٥٣]، هؤلاء المختارون.

=

=

فإن قيل: كيف يكونون المختارين ثم يقولون: {أرنا الله جهرة}؟!

فالجواب: نعم، لا شك أن هذا في الحقيقة مما يدل على أنهم مهما بلغوا بالكمال أنهم ليسوا كهذه الأمة.

فإن قيل: الظاهر أن إيمانهم ضعيف؛ لأنهم وصلوا إلى حد عبادة الصنم؟

قلنا: لا، هم طلبوا إلها، لكن منعوا، وقد عبدوا العجل بعد أن غاب عنهم موسى. وهم على كل حال حتى لو كان إيمانهم ضعيفا في أول الأمر، ونحن لا نعلم عن إيمانهم، لكن ظاهر الآيات أنهم من عليهم بهذا لكمال إيمانهم، والإنسان إذا توفرت لديه النعمة قد يختلف حاله، فهم خرجوا في الأول وهم في قلة وفي ضعف وفي خوف، وهم أقرب إلى الإيمان مما إذا نعموا هذا النعيم؛ لأن العادة أن الإنسان إذا نعم فإنه يحصل منه الأشر والبطر، هذا هي العادة.

فإن قيل: هل يمكن أن يقال: إن هؤلاء الذين حصل منهم هذه الأشياء أنهم ذريتهم؟

فالجواب: الظاهر أنهم على حسب الأجيال المعروفة يتوالدون، والذين صاروا في التيه وحرمت عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة فلأجل أن تتغير أوضاعهم وأحوالهم بإنشاء خلق آخر.

المهم نجزم أن إيمانهم في ذلك اليوم كان إيمانا جيدا قويا حينما أغرق فرعون، ولهذا نصروا هذا النصر العظيم على فرعون؛ لأن سياق الآيات يدل على هذا.

فإن قيل: إن إيمانهم ضعيف بقرينة ما حصل؟

قلنا: ما حصل بعد، والإنسان يتغير.

فإن قيل: المهاجرون لما آمنوا إيمانا قويا، والأنصار لما آمنوا إيمانا قويا ما صار منهم شيء مثلما حصل من بني إسرائيل؟

قلنا: لا نقارن بني إسرائيل بهذه الأمة، فمسألة المقارنة غير واردة؛ لأنه لا سواء،

=

=

بنو إسرائيل ابتلوا بالحيتان فلم يصبروا وتحيلوا، وهذه الأمة ابتلوا بالصيد وهم محرمون فصبروا، وغيره، وغيره، فلا تقارن إيمان هذه الأمة بإيمان من سبق.

فإن قال قائل: أنا لا أقصد المقارنة، ولكن أقصد أن الإيمان إذا كان جيدا في البداية فالغالب أنه تصرف عنه مثل هذه الأشياء الخطيرة، وإلا فالصغائر أمرها أقل خطرا.

قلنا: على كل حال هم حينذاك لا شك أنهم مؤمنون؛ لأنهم شاهدوا الإيمان وورثوا الأرض، ولا مانع أن تطرأ لهم أحوال يتغيرون بها.

فإن قيل: لو لم يكونوا مؤمنين لما صبروا على أذى فرعون حينما قطع أرجلهم وأيديهم من خلاف، وهذا دليل على قوة إيمانهم العظيم.

قلنا: لا، هؤلاء السحرة لا شك في قوة إيمانهم، والسحرة من آل فرعون. وهم غير الذين ذهبوا مع موسى، فالكلام عن بني إسرائيل، وبنو إسرائيل غير السحرة، فالسحرة من القبط من آل فرعون.

فنقول: الأصل أن إيمانهم في تلك الساعة قوي، هذا هو الأصل، وإن النصر إنما يستحقه المؤمنون، وإنما يرث الأرض عباد الله الصالحون، لكن لا مانع من أن تطرأ أحوال، وتتجدد أعمال، فينصرفون هم أو بعضهم عن الحق.

فهذا الجدل لا فائدة فيه، نحن نقول: إن من انتصر فهو مؤمن حقا، ومن نصره الله وأورثه الديار فهو من عباد الله الصالحين، هذا الأصل. ثم إذا طرأت أحوال نقول: الله أعلم كيف تطورت هذه الأحوال، ففي الحقيقة ليس في هذا فائدة، وليست المسألة عملية نطبقها حتى نحقق كيف نعمل، فقد قص الله علينا في هذه المسألة أحوالا لبني إسرائيل تدل على أن هؤلاء القوم آمنوا وطرأت عليهم أحوال، وبالنظر إلى أحوالهم العامة نعرف أن إيمانهم ليس كإيمان هذه الأمة، وأن هذه الأمة أكمل في إيمانها، وأكمل عملا.

=

=

فإن قيل: هل نستنتج من هذا أنه من الممكن أن يكون هناك إيمان كامل في البداية ثم ينقص نقصا شديدا إلى أن يصل إلى حد ما وصلوا إليه؟

فالجواب: هذا ممكن، وليس هناك إشكال أن الإيمان حاصل، لكن الذي أشكل أنه كيف تطورت الأحوال إلى أن يقولوا: {اجعل لنا إلها كما لهم آلهة} [الأعراف: ١٣٨]، وهذا لا يمنع أن بعضهم قال هذا، أو تقلبت بهم الأحوال، فالله أعلم.

فإن قال قائل: ما المقصود بالفرق؟

فالجواب: الفرق: الطائفة من الماء، فصار كل فرق وقطعة منه مثل الطود العظيم.

فإن قيل: ما الغرض من ذكر عهد أسلافهم؟

فالجواب: من الممكن أن الله يذكرهم بعيوبهم السابقة لعلهم يرتدعوا، أو يذكرهم بهذا لبيان أن هذا من عادتهم وسجيتهم، فهو بين أمرين:

* إما أن يبين عيبهم لعله يصلح من أحوالهم، ويكون ما صلح من أحوال باقيهم كالهادم لما سبق.

* وإما أن يقال: إن هذا بيان؛ لأن هذه طبيعتهم وسجيتهم مثلا، فيكون فيه مع التوبيخ لهؤلاء تسلية للرسول ﷺ وأصحابه.

فإن قيل: وماذا عن أحوالهم الآن؟

فالجواب: ما صاروا عليه أخبث؛ لأنهم صاروا كفارا؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ، بل بعد بعثة عيسى عليه الصلاة والسلام وكفرهم به صاروا كفارا وليس فيهم إيمان أبدا.

ولا شك أن عندهم عتوا، ومن أراد أن يعرف عن أحوالهم شيئا فليراجع (إغاثة اللهفان) لابن القيم، لكن الكلام عن الذين أورثوا أرض فرعون في ذلك الوقت، ما لنا في الحقيقة حق أن نقول: إيمانهم كامل، أو إيمانهم ناقص، إنما نعرف من

=

=

قول الله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥]، أنهم في ذلك الوقت صالحون فقط، وتغير الأحوال بعد ذلك الوقت واضح.

قال الله ﷻ: {وأزلفنا ثم الآخرين (٦٤) وأنجينا موسى ومن معه أجمعين (٦٥) ثم أغرقنا الآخرين} [الشعراء: ٦٤ - ٦٦].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأزلفنا} قربنا {ثم} هناك {الآخرين} فرعون وقومه حتى سلكوا مسالكهم]، الإزلاف: بمعنى الإقراب، ومنه قوله تعالى: {وأزلفت الجنة للمتقين} [الشعراء: ٩٠]، أي: قربت.

وقوله: {ثم} أي: هناك عند البحر. وقوله: {الآخرين} يعني فرعون وقومه، قربهم الله تعالى إلى البحر، فرأوا هذه الطرق مفتوحة أمامهم، فما كان منهم إلا أن دخلوها؛ لأنها طرق أمامهم رأوا موسى وقومه قد عبروا منها، فاتبعوهم، فلما تكامل هؤلاء داخلين وهؤلاء خارجين، يقول الله تعالى: {وأنجينا موسى ومن معه أجمعين} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بإخراجهم من البحر على هيئته المذكورة]، وهذا إنجاء من أعظم المنن، {ثم} بعد ذلك {أغرقنا الآخرين} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فرعون وقومه بإطباق البحر عليهم لما تم دخولهم في البحر وخروج بني إسرائيل منه]، فانتقم الله تعالى من فرعون وقومه، وأغرقهم بالماء الذي كان يفخر به فرعون من قبل، فإنه كان يقول لقومه مفتخرا: {أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون} [الزخرف: ٥١]، فهو افتخر على قومه بأن الأنهار تجري من تحته، وهي ماء، فأغرق بما كان يفتخر به.

وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى بأن الله يغرق المعجبين؛ إما بما أعجبوا به، وإما بما هو أهون شيئا. فعاد لما قالوا: {من أشد منا قوة} [فصلت: ١٥]، أهلكوا بألطف الأشياء، وهي الريح.

=

=

* قال الله ﷻ: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} [الشعراء: ٦٧].

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن في ذلك} إغراق فرعون وقومه {لآية}]، وتفسير المصنف للمشار إليه فيه قصور؛ لأنه ليست الآية بإغراق فرعون وقومه فحسب، ولكن بفلق البحر، وكونه يبسا، وإنجاء موسى وقومه، وإغراق فرعون وقومه، ولو قيل: إن الإشارة تعود إلى كل ما ذكر، يعني: إن في ذلك المذكور من قصة موسى {لآية} علامة على قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى نصره لأوليائه، فيكون متضمنا لتسلية النبي ﷺ وتحذير المخالفين له؛ لكان أولى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لآية} عبرة لمن بعدهم]، واللام للتأكيد، ومحلها لام الإبتداء التي تكون في أول الجملة: (لئن في ذلك)، لكن قال النحويون في تعليلهم لهذا: إنه لا ينبغي أن يجتمع مؤكدان متواليان، فأخروا اللام إلى ما تأخر من خبر إن واسمها، والله أعلم هل هذا حقيقة أم أن العرب نطقوا بها هكذا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما كان أكثرهم مؤمنين} بالله، فلم يؤمن منهم غير آسية امرأة فرعون، وحزقيل مؤمن آل فرعون، ومريم بنت ناموصى، التي دلت على عظام يوسف عليه السلام]. يجوز أن يكون: {وما كان أكثرهم} يعني: أكثر قوم موسى الذين أرسل إليهم، ويجوز أن يكون: {وما كان أكثرهم} أي: أكثر الناس المخاطبين بهذا القرآن، يعني: هذا فيه آية لكن ما كان أكثر المخاطبين به مؤمنين به.

والأولى أن يقال: {وما كان أكثرهم مؤمنين} أنه يعود على الذين نزل عليهم القرآن، لا على بني إسرائيل، أو آل فرعون.

وأما ما ذكره المصنف فنقول: أما امرأة فرعون، فصحيح أنها آمنت، وأما مؤمن آل فرعون فصحيح أنه آمن، لكن تسميته بحزقيل يحتاج إلى دليل، والثالثة مريم بنت ناموصى، هذه لا ندري بعد من أين جاءت؟ ! وما سمعنا بها إلى الآن، وقوله:

=

=

[التي دلت على عظام يوسف]، هو ابن يعقوب، ولا ندري أين عظامه، ثم إذا دلت على عظامه فهي إلى الذم أقرب من المدح؛ لأن العظام محترمة، والمفروض أنها لا تنبش ولا يسأل عنها، ثم إن قوله: [عظام يوسف]، هذا خطأ؛ لأنه ثبت أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فكيف يقال: ما بقي إلا عظامه؟ !

الحاصل أن مثل هذه الإسرائيليات يؤسف من المصنف ومن غيره أن ينقلوها.

فإن قيل: بإمكان فرعون أن يعوم في الماء؟

فالجواب: هذا ليس محل العوم؛ لأنه انطبق عليهم الماء في أعماق البحر، فلا يستطيعون، ثم إن العذاب إذا نزل لا تنفع فيه سباحة ولا غيره، فأظن قبل ثلاث سنوات نزل على محطة الكهرباء في نيويورك صواعق مع أن عندهم مانعات صواعق فقلعت الأعمدة، فما نفعها.

* قال الله ﷻ: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٦٨].

قوله: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} هذا مما يؤيد ما ذهبنا إليه؛ أن المراد بأكثرهم: الذين نزل عليهم القرآن، ولهذا أضاف الربوبية إلى النبي ﷺ في قوله: {وإن ربك}؛ لأنها تقتضي العناية الخاصة بالرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي قوله: {لهو العزيز} أتى باللام الدالة على التأكيد؛ لتكون الجملة مؤكدة بمؤكدين.

فإذا قال قائل: الخطاب للنبي ﷺ وحاله لا يقتضي التأكيد؛ لأنه مقر، ومن قواعد البلاغة أنه لا يؤكد الكلام إلا للمتردد أو للمنكر؛ فإن كان للمتردد فهو استحسان، وإن كان للمنكر فهو وجوب، يعني التأكيد، وهنا أكد بمؤكدين مع أن الخطاب للنبي ﷺ وهو مقر بذلك؟

فيقال: إن هذه القاعدة التي ذكروها ليست على إطلاقها، بل فيها قصور؛ فإن الشيء يؤكد باعتبار حال المخاطب، وحينئذ نقول: إذا كان مترددا فيحسن تأكيده،

=

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩).

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {نَبَأ} خَبَر {إبراهيم} ويبدل منه.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠).

{إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون}.

=

وإذا كان منكرا فيجب تأكيده، كذلك يؤكد الكلام باعتبار أهميته، فإذا كان الكلام موضع اهتمام فإنه يؤكد حتى وإن كان المخاطب مقرا به، لبيان اعتناء المتكلم به، فهنا هذه المسألة مهمة جدا.

ثم يقال أيضا: إن الآية ذكرت تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ومن جهة أخرى تهديدا للكفار، والكفار قد يشكون - أو ينكرون- في عزة الله ورحمته، فلهذا جمع بينهما مؤكدا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لهو العزيز} فانتقم من الكافرين بإغراقهم، {الرحيم} بالمؤمنين، فأنجاهم من الغرق]، يقرن الله تبارك وتعالى دائما بين العزة والحكمة، وأحيانا في مثل هذه السورة بين العزة والرحمة.

وبين الوصفين أو الإسمين تناسب ظاهر، أما العزة والحكمة فالتناسب بينهما هو أن العزيز هو الغالب القاهر، والغالب القاهر إن لم تكن في غلبته حكمة صار تصرفه غير محمود؛ لأنه يتصرف من مصدر القوة، وإذا كان يتصرف من مصدر القوة ولا حكمة عنده صار يبطش بطشا في غير محله، وربما يترك ما ينبغي فيه البطش، فجاءت الحكمة مقترنة بالعزة، وأما هنا فلما كان في سياق الآيات يتضمن ما تقتضيه الرحمة ويتضمن ما تقتضيه العزة، فإهلاك فرعون يقتضي أن يقابل بالعزة، وإنجاء موسى يقتضي أن يقابل بالرحمة لأنه من مقتضاه؛ جمع الله تعالى بينهما.

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١).

{قَالُوا نَعْبُد أَصْنَامًا} صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ لِيَعْطِفُوا عَلَيْهِ {فَنَظَلّ لَهَا عَاكِفِينَ} نُقِيم نَهَارًا عَلَى عِبَادَتهَا زَادُوهُ فِي الْجَوَاب افْتِخَارًا بِهِ.

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢).

{قال هل يسمعونكم إذ} حين {تدعون}.

أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣).

{أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ} إِنْ عَبَدْتُمُوهُمْ {أَوْ يَضُرُّونَ} كُمْ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ.

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤).

{قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} أَيْ مثل فعلنا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ} [الشعراء: ٦٩]، أي:"واقصص على الكافرين - أيها الرسول - خبر إبراهيم".

قال الزجاج:"معناه: خبر إبراهيم".

قال الطبري: يقول:"واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم".

قال ابن كثير:"هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمدا، صلوات الله وسلامه عليه، أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشَأ وشَب".

قال السدي:"إن أول ملك ملك في الأرض شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوشن بن سام بن نوح وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض أربعة نمرود وسليمان بن داود وذو القرنين وبخت نصر مسلمين وكافرين، وإنه اطلع كوكب على نمرود =

=

ذهب بضوء الشمس والقمر ففزع من ذلك فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة فسألهم، عن ذلك فقالوا يخرج من ملكك رجل يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك، وكان مسكنه ببابل الكوفة فخرج من قريته إلى قرية أخرى وأخرج الرجال وترك النساء وأمر ألا يولد مولود ذكر إلا ذبحه فذبح أولادهم، ثم إنه بدت له حاجة في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر أبو إبراهيم فدعاه فأرسله فقال له: انظر لا تواقع أهلك فقال له آزر أنا أضن بديني من ذلك فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها ففر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها أور فجعلها في سرب فكان يتعاهدها بالطعام ومما يصلحها وإن الملك لما طال عليه الأمر قال: قول سحرة كذابين ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا وولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام فكان في كل يوم يمر به كأنه جمعة والجمعة كالشهر من سرعة نمائه، نسي الملك ذلك، وكبر إبراهيم ولا يدري أحد من الخلق غيره وغير أبيه وأمه فقال آزر لأصحابه: إن لي ابنا وقد خبأته فتخافون عليه الملك إن أنا جئت به، قالوا: لا فأت به فانطلق فأخرجه، فلما خرج الغلام من السرب نظر إلى الدواب والبهائم والخلق فجعل يسأل أباه فيقول: ما هذا فيخبره، عن البعير أنه بعير وعن البقرة أنها بقرة وعن الشاة أنها شاة فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب".

عن محمد بن إسحاق، "كان من حديث إبراهيم أن آزر كان رجلا من أهل كوثى من أهل قرية بالسواد سواد الكوفة وكان إذ ذاك ملك المشرق لنمرود الخابط وكان يقال له العاصي وكان ملكه فيما يزعمون قد أحاط بمشارق الأرض ومغاربها وكان ببابل، وكان ملك قومه بالمشرق وقيل ملك فارس ويقال لم يجتمع ملك الأرض ولم يجتمع الناس على ملك واحد إلا على ثلاثة ملوك نمرود بن راعو وذو القرنين وسليمان ابن داود فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم

=

=

حجة على قومه ورسولا إلى عباده ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبي قبله إلا هود وصالح فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله فيه ما أراد أتى أصحاب النجوم نمرود فقالوا له إنا نجد في علمنا أن غلاما يولد في قريتك هذه يقال له إبراهيم يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا فكان مما أجاز عندي هذا الحديث وصدقت به أن للمرسل نجوما يولدون بها يعرفها أصحاب العلم من أهل العلم بها".

قال محمد بن إسحاق:"فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود بعث نمرود إلى كل امرأة بحبلها وذلك أنها كانت جادة حديثه فيما يذكرون لم يعزف الحبل في بطنها ولما أراد الله أن يبلغ بولدها أراد أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة حذرا على ملكه فجعل لا تلد امرأة غلاما في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبا منها فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ثم رجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه في المغارة لتنظر ما فعل فتجده حيا يمص إبهامه- والله أعلم فيما يزعمون- إن الله ﷻ جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصة، وكان آزر فيما يزعمون سأل أم إبراهيم، عن حملها ما فعل فقالت: ولدت غلاما فمات فصدقها وسكت عنها فكان اليوم فيما يذكرون على إبراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم ﷺ في المغارة فيما يذكرون إلا خمسة عشر شهرا حتى قال لأمه أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر فتفكر في خلق السماوات والأرض وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي مالي إله غيره".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} [الشعراء: ٧٠]، أي:"حين قال لأبيه وقومه: أي شيء تعبدونه؟".

=

=

قال الطبري: يقول:"حين قال لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون؟".

قال ابن كثير:"أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله".

قال السدي:"فجعل إبراهيم يدعوا قومه وينذرهم فكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها ولده فيبيعونها وكان يعطيه فينادي: من يشتري ما يضره ولا ينفعه فرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هي".

قوله تعالى: {قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)} [الشعراء: ٧١]

قالوا: نعبد أصنامًا، فنَعْكُف على عبادتها.

قال الطبري: "يقول: فنظل لها خدما مقيمين على عبادتها وخدمتها".

قال الزجاج:"معناه: مقيمين على عبادتها".

قال ابن كثير:"أي: مقيمين على عبادتها ودعائها".

عن قتادة:"{لها عاكفين}، عابدين".

قال السدي:"أي: فنقيم لها عابدين".

عن ابن عباس، قوله:"{قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين}، قال: الصلاة لأصنامهم".

قوله تعالى: {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ} [الشعراء: ٧٢]، أي:"قال إبراهيم منبهًا على فساد مذهبهم: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعونهم؟".

قال قتادة:"هل تجيبكم آلهتكم إذا دعوتموهم؟".

قال الطبري: "قال إبراهيم لهم: هل تسمع دعاءكم هؤلاء الآلهة إذ تدعونهم؟".

قوله تعالى: {أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ} [الشعراء: ٧٣]، أي:"أو يقدِّمون لكم نفعًا إذا عبدتموهم؟".

قال الطبري:"يقول: أو تنفعكم هذه الأصنام، فيرزقونكم شيئا على عبادتكموها".

=

=

قوله تعالى: {أَوْ يَضُرُّونَ} [الشعراء: ٧٣]، أي:"أو يصيبونكم بضر إذا تركتم عبادتهم؟".

قال الطبري:"أو يضرونكم فيعاقبونكم على تركككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم".

قال السدي:"فجعل إبراهيم يدعوا قومه وينذرهم فكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها ولده فيبيعونها وكان يعطيه فينادي: من يشتري ما يضره ولا ينفعه فرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هي به فرحا شديدا وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدون ثم يعطيها إبراهيم يبيعها له فيذهب بها فيما يذكرون فيقول من يشتري ما يضر ولا ينفعه فلا يشتريها منه أحد فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر لهم فصوب فيه رؤسها وقال: اشربي استهزاء بقومه وبما هم عليه من ضلالة حتى فشا عيبه إياها واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته من غير أن يكون ذلك بلغ نمرود الملك".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)} [الشعراء: ٧٤]

قالوا: لا يكون منهم شيء من ذلك، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونهم، فقلَّدناهم فيما كانوا يفعلون.

قال الطبري: أي:"آبائنا يعبدونها ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداء بهم، واتباعا لمنهاجهم".

قال قتادة:"يعنى: على دين وإنا متبعوهم على ذلك".

قال ابن كثير:"يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون".

عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه:"أنه رأى قوما يمر بعضهم على بعض فقال: يوشك هؤلاء أن يقولوا إنا رأينا آباءنا كذلك يفعلون".

=

=

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {واتل عليهم نبأ إبراهيم (٦٩) إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون} [الشعراء: ٦٩ - ٧٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{واتل عليهم} أي: كفار مكة]، والصواب: أي: على الناس الذين أرسلت إليهم. والرسول عليه الصلاة والسلام تلا على الناس، حتى إننا نقول: هو تلا عليهم، حتى في هذا العصر وفيما بعده فقد تلا رسول الله ﷺ على الناس هذا النبأ.

وقوله: [{نبأ}: خبر]، ولكن لا يكون النبأ إلا في الأمور الهامة، والخبر يكون فيها وفي غيرها، لكن النبأ لا يكون إلا في الأمور الهامة، وهذا النبأ هام جدا؛ لما يتضمنه من التوحيد والمناظرة، وما يتعلق بذلك من الثواب والعقاب.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{نبأ} خبر {إبراهيم} ويبدل منه]، أي: من {نبأ} [{إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون}]، فتكون (إذ) هنا في محل نصب بدلا من (نبأ). وإبراهيم هو خليل الله سبحانه وتعالى وهو معروف.

قال تعالى: {إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون} أبوه اسمه: آزر، كما قال الله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر} [الأنعام: ٧٤]، وأما قومه فالذين بعث إليهم، وفي هذا دليل على أن إبراهيم لم يبعث إلى الناس عامة، وإنما بعث إلى قومه كسائر الأنبياء.

فإن قيل: ورد في بعض التفاسير أن (آزر) لقب؟

فالجواب: ليس بصحيح.

وقوله: {ما تعبدون} (ما) للإستفهام، والمراد به الإنكار والتعجب أيضا، أي أنه ينكر متعجبا.

قال الله ﷻ: {قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين} [الشعراء: ٧١].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قالوا نعبد أصناما} صرحوا بالفعل؛ ليعطفوا عليه: {فنظل

=

=

لها عاكفين}]، (أصناما) جمع صنم، والمراد بالصنم كل ما اتخذ إلها مع الله، سواء كان شجرا أو حجرا، أم غيرهما، ولكن هل يشترط أن يكون منصوبا؟

الظاهر عدم اشتراطه وأنه ليس شرطا، وأنه قد لا يكون منصوبا، فقد يكون مبطوحا ومضجعا، وغير قائم.

وقول المصنف: [صرحوا بالفعل ليعطفوا عليه {فنظل لها عاكفين}]. هذه مناسبة لفظية قد تكون مقصودة وقد لا تكون مقصودة. قد يقول قائل: لو قالوا: (أصناما فنظل)، لكان المعنى مستقيما، ولا حاجة إلى ذكر الجملة ليعطف عليها؛ لأننا نرى أنه تأتي أحيانا جمل عطف عليها جمل وهي محذوفة، مثل: {أولم يسيروا} [الروم: ٩]، {أولم يهد لهم} [السجدة: ٢٦]، على أحد الوجهين.

ولكن الصحيح أنهم صرحوا بالفعل؛ إظهارا لفعلهم كأنهم يفتخرون به، يعني: يحققون العبادة ويفخرون بعبادتهم؛ لأن التصريح بالعبادة للمعبود تدل على أن الإنسان فخور بها: قالوا: {نعبد أصناما}، يعني: فهم أظهروها تأكيدا وافتخارا بها، هذا الذي لا شك فيه، وأما لأجل العطف فهذا العطف نقول: يصح بدون ذكره، وهذا ليس بمقصوده فيما يبدو، وإنما المقصود هو تأكيد هذا، والإفتخار به، مثلما يقول لك القائل: "أنت تفعل كذا؟ "، فتقول: "نعم أفعله"، لو قلت: "نعم" لكفى، لكن: "أفعله" من باب تأكيده والإفتخار به، فهم كذلك يقولون: {نعبد أصناما} مؤكدين لعبادتها مفتخرين بها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فنظل لها عاكفين} نقيم نهارا على عبادتها، زادوه في الجواب افتخارا به]، صحيح، قالوا: {فنظل لها عاكفين} وهو ما سألهم: هل أنتم تدومون على عبادتها أم لا؟ لكنهم زادوا على هذا وقالوا: {فنظل} يعني: نستمر {لها عاكفين}.

وقوله: {لها} متعلق بـ {عاكفين} وتقديمه عليه يفيد الحصر، يعني: إننا نعكف

=

=

لها لا لغيرها. ويقول المصنف: [زادوه في الجواب افتخارا به]، وهو كذلك، ثم إصرارا وعنادا، يعني: لسنا نعبدها وقتا دون وقت، بل نعبدها ونستمر على عبادتها.

وقول المصنف: [نهارا]، أخذها من قولهم: إن (ظل) فعل يدل على وقوع الشيء نهارا، وهذا هو المعروف عند النحويين، والذي يظهر أنها تدل على وقوع الفعل باستمرار، نحو قوله تعالى: {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم} [النحل: ٥٨]، أي وقت يبشر بها يستمر وجهه مسودا ليلا ونهارا، فالصواب أن هذا الفعل يشعر بالإستمرار، ولا يختص بالنهار كما قاله المصنف وغيره.

قال الله ﷻ: {قال هل يسمعونكم إذ تدعون} [الشعراء: ٧٢].

قال عليه الصلاة والسلام: {قال هل يسمعونكم إذ تدعون}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هل يسمعونكم إذ} حين {تدعون}]، (إذ) هذه ظرف للفعل (يسمعون)، و (هل) للإستفهام المراد به الإنكار مع التحدي، يعني: يتحداهم، يقول: هذه الأصنام التي تعبدونها وتسألونها الحوائج {هل يسمعونكم إذ تدعون}؟ والجواب: لا.

قال الله ﷻ: {أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} [الشعراء: ٧٣ - ٧٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أو ينفعونكم} إن عبدتموهم {أو يضرون} كم إن لم تعبدوهم]، أي: أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ والجواب: لا.

هم أقروا: {قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} يعني أنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، وإنما فعلنا ذلك تقليدا فقط محضا لآبائنا.

وقوله: {أو يضرون} قدر المصنف المفعول بقوله: (يضرونكم) وحينئذ نسأل: ما

=

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥).

{قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون}.

أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦).

{أنتم وٓاباؤكم الأقدمون}.

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧).

=

الحكمة في حذف المفعول؟

الحكمة هي بالنسبة لآخر الآية لفظية، وهي مراعاة الفواصل، وبالنسبة للعموم معنوية؛ لأن الإنسان الذي يعبد الشيء لا يريد أن يضره، بل يريد أن ينفعه، ولهذا قال: {أو ينفعونكم}، أما أنه يريد أن يضره فلا، نعم يريد أن يضر غيره، فقد يعبد هذا الشيء ليدعوه أن يضر عدوه، فالحذف هنا للعموم، يصير إما: أو يضرونكم إن لم تعبدوهم، أو: أو يضرون عدوكم إذا عبدتموهم.

وجواب هؤلاء: {قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون} معناه أنهم أنكروا أن تسمعهم هذه الأصنام، أو تنفعهم، أو تضرهم، ولكنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون، يعني: يفعلون كذلك، يعبدون هذه الأصنام.

والكاف اسم بمعنى (مثل)، و (ذا) اسم إشارة تعود إلى الفعل، يعني: مثل ذلك الفعل يفعلون. ومحل الكاف بقوله: {كذلك} النصب على أنها مفعول مطلق، أي: يفعلون مثل فعلنا، وليت أن المصنف جعل [أي مثل فعلنا]، قبل {يفعلون}؛ لأن تأخيره عن الفعل يوهم أنه يريد أن يكون مفعول الفعل محذوفا، أي: مثل فعلنا، والصواب أنه موجود، وهو قوله: {كذلك}، فيحسن به أن يقدم [مثل فعلنا]، على قوله: {يفعلون}: {كذلك} أي: مثل فعلنا {يفعلون}. ولصار ما لهم حجة إلا التقليد الأعمى فقط، أنهم وجدوا آباءهم على هذه الملة فسلكوها.

{فَإِنَّهُمْ عَدُوّ لِي} لَا أَعْبُدهُمْ {إِلَّا} لَكِنْ {رَبّ الْعَالَمِينَ} فَإِنِّي أَعْبُدهُ.

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨).

{الذي خلقني فهو يهدين} إلى الدين.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩).

{والذي هو يطعمني ويسقين}.

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠).

{وإذا مرضت فهو يشفين}.

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١).

{والذي يميتني ثم يحيين}.

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢).

{وَالَّذِي أَطْمَع} أَرْجُو {أَنْ يَغْفِر لِي خَطِيئَتِي يَوْم الدِّين} الْجَزَاء.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣).

{رَبّ هَبْ لِي حُكْمًا} عِلْمًا {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} النبيين.

وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤).

{وَاجْعَلْ لِي لِسَان صِدْق} ثَنَاء حَسَنًا {فِي الْآخِرِينَ} الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْم الْقِيَامَة.

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥).

{وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَة جَنَّة النَّعِيم} مِمَّنْ يُعْطَاهَا.

وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦).

{وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنْ الضَّالِّينَ} بِأَنْ تَتُوب عَلَيْهِ فَتَغْفِر لَهُ وَهَذَا قَبْل أَنْ يَتَبَيَّن لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ لِلَّهِ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَة بَرَاءَة.

وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧).

{وَلَا تُخْزِنِي} تَفْضَحنِي {يَوْم يُبْعَثُونَ} النَّاس.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) .

قَالَ تَعَالَى فِيهِ {يَوْم لَا يَنْفَع مَال وَلَا بنون} أحدا.

إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩).

{إِلَّا} لَكِنْ {مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيم} مِنْ الشِّرْك وَالنِّفَاق وَهُوَ قَلْب الْمُؤْمِن فَإِنَّهُ ينفعه ذلك[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦)} [الشعراء: ٧٥ - ٧٦]، أي:"قال إبراهيم: أفأبصرتم بتدبر ما كنتم تعبدون من الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، أنتم وآباؤكم الأقدمون من قبلكم؟".

قال الطبري:"قال إبراهيم لقومه: أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون".

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٧٧]، أي:"فإن ما تعبدونهم من دون الله أعداء لي، لكن رب العالمين ومالك أمرهم هو وحده الذي أعبده".

قال الطبري: أي:"أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني منه بريء لا أعبده، إلا رب العالمين".

قال الحسن:"يقول: أنتم وآباؤكم عدوٌّ لي، إلا مَن عبد رب العالمين مِن آبائكم الأولين، فإنّه ليس لي بعدو".

قال ابن كثير:"أي: إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن نوح، عليه السلام: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا =

=

تُنْظِرُونِ} [يونس: ٧١] وقال هود، عليه السلام: {إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤ - ٥٦] وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [الأنعام: ٨١] وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤] وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] يعني: لا إله إلا الله".

قال الزجاج:"قال النحويون: إنه استثناء ليس من الأول، أي لكن رب العالمين، ويجوز أن يكونوا عبدوا مع الله الأصنام وغيرها، فقال لهم: أن جميع من عبدتم عدو لي إلا رب العالمين؛ لأنهم سووا آلهتهم بالله فأعلمهم أنه قد تبرأ مما يعبدون إلا الله فإنه لم يتبرأ من عبادته".

قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء: ٧٨]، أي:"هو الذي خلقني في أحسن صورة فهو يرشدني إلى مصالح الدنيا والآخرة".

قال الطبري: أي:"للصواب من القول والعمل، ويسددني للرشاد".

قال ابن كثير:"يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدّر، وهو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء".

قال السعدي:"هو المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية".

=

=

قال قتادة:"كان يقال أول نعمة الله على عبده حين خلقه".

قوله تعالى: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} [الشعراء: ٧٩]، أي:"وهو الذي ينعم عليَّ بالطعام والشراب".

قال الطبري: "يقول: والذي يغذوني بالطعام والشراب، ويرزقني الأرزاق".

قال ابن كثير:"أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويَسَّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالا لـ {نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} [الفرقان: ٤٩]".

قوله تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٨٠]، أي:"وإذا أصابني مرض فهو الذي يَشْفيني ويعافيني منه".

قال الطبري: "يقول: وإذا سقم جسمي واعتل، فهو يبرئه ويعافيه".

قال ابن كثير:"أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلَقْه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا، كما قال تعالى آمرًا للمصلي أن يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٦، ٧]، فأسند الإنعام إلى الله، سبحانه وتعالى، والغضب حُذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: {وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [الجن: ١٠]؛ ولهذا قال إبراهيم: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه".

قوله تعالى: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} [الشعراء: ٨١]، أي:"وهو الذي يميتني في الدينا بقبض روحي، ثم يحييني يوم القيامة".

قال الطبري: "يقول: والذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي".

=

=

قال ابن كثير:"أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد".

قوله تعالى: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢]، أي:"والذي أطمع أن يتجاوز عن ذنبي يوم الجزاء".

قال ابن كثير:"أي: هو الذي لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء".

قال السعدي:"فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ} الآيات".

قال الزجاج:"معنى: {خطيئتي} أن الأنبياء بشر، وقد يجوز أن يقع عليهم الخطيئة إلا أنهم صلوات الله عليهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون مختارون على العالمين كل نبي هو أفضل من عالم أهل دهره كلهم".

عن ابن عباس قوله: "{يوم الدين}: يوم حساب الخلائق وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر إلا من عفي عنه".

قال الطبري: "فربي هذا الذي بيده نفعي وضري، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضر. وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرا.

وقيل: إن إبراهيم صلوات الله عليه، عني بقوله: {والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين}: والذي أرجو أن يغفر لي قولي: {إني سقيم} وقوله: {بل فعله كبيرهم هذا} وقولي لسارة: إنها أختي".

عن مجاهد، قوله: "{أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين}، قال: قوله: {إني سقيم}

=

=

وقوله: {فعله كبيرهم هذا}، وقوله لسارة: إنها أختي، حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها".

عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم في شيء قط إلا في ثلاث كلهن في الله قوله: {إني سقيم}. ولم يكن سقيما، وقوله لسارة: أختي. قوله: {بل فعله كبيرهم هذا}".

عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، إنّ ابنَ جَدْعان كان يقْرِي الضيف، ويَصِل الرحم، ويفعل ويفعل، أينفعه ذلك؟ قال: «لا، إنّه لم يقل يومًا: ربِّ، اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)} [الشعراء: ٨٣]

قال إبراهيم داعيًا ربه: ربِّ امنحني العلم والفهم، وألحقني بالصالحين، واجمع بيني وبينهم في الجنة.".

قوله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} [الشعراء: ٨٣]، أي:"قال إبراهيم داعيًا ربه: ربِّ امنحني العلم والفهم".

قال الطبري:"يقول: رب هب لي نبوة".

قال السمعاني:"أي: العلم والفهم، وقيل: إصابة الحق".

قال السدي:"الحكم: النبوة".

قال عكرمة:"الحكم: اللب".

قال ابن عباس:"الحكم: العلم".

وقال مجاهد:"الحكم هو القرآن".

قوله تعالى: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: ٨٣]، أي:"وألحقني بالصالحين، واجمع بيني وبينهم في الجنة".

قال الطبري:"يقول: واجعلني رسولا إلى خلقك، حتى تلحقني بذلك بعداد من

=

=

أرسلته من رسلك إلى خلقك، وائتمنته على وحيك، واصطفيته لنفسك".

قال السمعاني:"أي: من الأنبياء والمرسلين".

قال ابن زيد:"مع الأنبياء والمؤمنين".

قال ابن كثير:"أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم الرفيق الأعلى» قالها ثلاثا. وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدلين»".

قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)} [الشعراء: ٨٤]

واجعل لي ثناء حسنًا وذكرًا جميلا في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

قال الطبري:"يقول: واجعل لي في الناس ذكرا جميلا وثناء حسنا، باقيا فيمن يجيء من القرون بعدي".

قال السمعاني:"أي: ثناء حسنا إلى قيام الساعة، ويقال: إن المراد منه تولي جميع أهل الأديان له، وقبول كل الناس إياه، ويقال: إن معناه: اجعل في ذريتي من يقوم بالحق إلى قيام الساعة".

قال ابن كثير:"أي: واجعل لي ذكرًا جميلا بعدي أذكرَ به، ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات: ١٠٨ - ١١٠]".

عن ابن عباس قوله: "{واجعل لي لسان صدق في الآخرين}، قال: اجتماع أهل الملل على إبراهيم".

قال مجاهد: "الثناء الحسن". وروى عن قتادة مثل ذلك.

وقال مجاهد:"هو كقوله: {وآتيناه في الدنيا حسنة وآتيناه أجره في الدنيا}".

قال ابن زيد:"اللسان الصدق: الذكر الصدق، والثناء الصالح، والذكر الصالح في الآخرين من الناس، من الأمم".

=

=

وعن ليث بن أبي سليم، قوله:"{اجعل لي لسان صدق في الآخرين}، قال: يؤمن به أهل كل ملة".

عن عكرمة، قوله: "{واجعل لي لسان صدق في الآخرين} قوله: {وآتيناه أجره في الدنيا}. قال: إن الله فضله بالخلة حين اتخذه خليلا فسأل الله فقال: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} حتى لا تكذبني الأمم، فأعطاه الله ذلك، فإن اليهود آمنت بموسى، وكفرت بعيسى، وإن النصارى آمنت بعيسى، وكفرت بمحمد ﷺ، وكلهم يتولى إبراهيم؛ قالت اليهود: هو خليل الله وهو منا، فقطع الله ولايتهم منه بعد ما أقروا له بالنبوة وآمنوا به، فقال: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} ثم ألحق ولايته بكم فقال: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين} فهذا أجره الذي عجل له، وهي الحسنة، إذ يقول: {وآتيناه في الدنيا حسنة} وهو اللسان الصدق الذي سأل ربه".

وروي عن ابن زيد، قوله:"{في الآخرين}، قال في الآخرين من الناس من الاسم".

قوله تعالى: {وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)} [الشعراء: ٨٥]

واجعلني من عبادك الذين تورثهم نعيم الجنة.

قال الطبري: يقول:"أورثني يا رب من منازل من هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة، وأسكني ذلك".

قال السمعاني:"أي: ممن تعطيه جنة النعيم".

قال ابن كثير:"أي: أنعم عَليَّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم".

قال مالك بن دينار: "جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن وفيها جواري خلقن من ورد الجنة قيل ومن يسكنها قال: الذين هموا بالمعاصي فلما

=

=

ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أبدانهم من خشيتي وعزتي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب".

قوله تعالى: {وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)} [الشعراء: ٨٦]

وهذا دعاء من إبراهيم عليه السلام أن ينقذ الله أباه من الضلال إلى الهدى، فيغفر له ويتجاوز عنه، كما وعد إبراهيم أباه بالدعاء له، فلما تبيَّن له أنه مستمر في الكفر والشرك إلى أن يموت تبرَّأ منه.

قال الطبري: "يقول: واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه، إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى، فكفر بك".

قال ابن عباس:"امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك، يعنى بتوبة الإسلام".

قال السمعاني:"قال أهل العلم: هذا قبل أن يتبرأ منه، ويستقين أنه عدو لله، وقال بعضهم: واغفر لأبي أي: جنايته عليّ، كأنه أسقط حقه وعفا عنه".

قال ابن كثير: هو" كقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} [إبراهيم: ٤١]، وهذا مما رجَعَ عنه إبراهيم، عليه السلام، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]، وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا

بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [الممتحنة: ٤]".

قوله تعالى: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} [الشعراء: ٨٧]، أي:"ولا تُلْحق بي الذل، يوم يخرج الناس من القبور للحساب والجزاء".

=

=

قال الطبري: "يقول: ولا تذلني بعقابك إياي يوم تبعث عبادك من قبورهم لموقف القيامة".

قال ابن كثير:"أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم".

قال الصابوني:"وهذا تواضعٌ منه امام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} [النحل: ١٢٠] الآية".

عن أبي هريرة رضي الله عنه،

عن النبي ﷺ قال: (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار).

قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ} [الشعراء: ٨٧]، أي:"يوم لا ينفع المال والبنون أحدًا من العباد".

قال الطبري: "يقول: لا تخزني يوم لا ينفع من كفر بك وعصاك في الدنيا مال كان له في الدنيا، ولا بنوه الذين كانوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقاب الله إذا عاقبه، ولا ينجيه منه".

قال ابن كثير:"أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا: {وَلا بَنُونَ} ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك".

قال علي رضي الله عنه: "المال والبنون حرث الدنيا والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لأقوام".

=

=

عن معاوية ابن هشام قال: سمعت الثرى قال:"إنما سمي المال لأنه يميل بالناس".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٧]، أي:"إلا مَن أتى الله بقلب سليم من الكفر والنفاق والرذيلة".

قال ابن كثير:"أي: سالم من الدنس والشرك".

قال الطبري: "يقول: ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع إلا القلب السليم، والذي عني به من سلامة القلب في هذا الموضع: هو سلامة القلب من الشك في توحيد الله، والبعث بعد الممات".

عن عون، قال: "قلت لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور".

عن ابن عباس: "{إلا من أتى الله بقلب سليم}، قال: شهادة أن لا إله إلا الله".

عن مجاهد: "{إلا من أتى الله بقلب سليم}، قال: لا شك فيه".

قال قتادة:"سليم من الشرك". وروي عن الحسن مثله.

قال ابن زيد:"سليم من الشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد".

عن الضحاك، قوله: "{إلا من أتى الله بقلب سليم}، قال: هو الخالص". وفي رواية: "مخلص".

وقال الضحاك:"الناصح لله في خلقه".

عن عوف قال: "قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم بأن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور".

وقال سعيد بن المسيب: "القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة: ١٠]".

وقال أبو عثمان النيسابوري: "هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن إلى السنة".

=

=

عن هشام، عن أبيه، " {إلا من أتى الله بقلب سليم}، قال: ألا يكون لعانا".

وجملة: أفرأيتم ما كنتم تعبدون مفرعة على جمل كلام القوم المتضمنة عبادتهم الأصنام وأنهم مقتدون في ذلك بآبائهم. فالفاء في أفرأيتم للتفريع وقدم عليها همزة الاستفهام اتباعا للاستعمال المعروف وهو صدارة أدوات الاستفهام. وفعل الرؤية قلبي.

ومثل هذا التركيب يستعمل في التنبيه على ما يجب أن يعلم على إرادة التعجيب مما يعلم من شأنه. ولذلك كثر إردافه بكلام يشير إلى شيء من عجائب أحوال مفعول الرؤية كقوله تعالى: أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا [النجم: ٣٣، ٣٤] الآية، ومنه تعقيب قوله

هنا أفرأيتم ما كنتم تعبدون بقوله: فإنهم عدو لي.

وعطف آباؤكم على أنتم لزيادة إظهار قلة اكتراثه بتلك الأصنام مع العلم بأن الأقدمين عبدوها فتضمن ذلك إبطال شبهتهم في استحقاقها العبادة.

ووصف الآباء بالأقدمية إيغال في قلة الاكتراث بتقليدهم لأن عرف الأمم أن الآباء كلما تقادم عهدهم كان تقليدهم آكد.

والفاء في قوله: فإنهم عدو لي للتفريع على ما اقتضته جملة: أفرأيتم ما كنتم تعبدون من التعجيب من شأن عبادتهم إياها. ويجوز جعل الرؤية بصرية لها مفعول واحد وجعل الاستفهام تقريريا والكلام مستعمل في التنبيه لشيء يريد المتكلم الحديث عنه ليعيه السامع حق الوعي، أو فاء فصيحة بتقدير: إن رأيتموهم فاعلموا أنهم عدو لي. وهذا الوجه أظهر.

والاستثناء في قوله: إلا رب العالمين منقطع. وإلا بمعنى (لكن) إذا كان رب العالمين غير مشمول لعبادتهم إذ الظاهر أنهم ما كانوا يعترفون بالخالق ولم يكونوا يجعلون آلهتهم شركاء لله كما هو حال مشركي العرب، ألا ترى إلى قوله

=

=

تعالى: قال بل فعله كبيرهم هذا [الأنبياء: ٦٣] فهو الصنم الأعظم عندهم، وإلى قوله: قال أتحاجوني في الله وقد هدان [الأنعام: ٨٠]. ويظهر أن الكلدانيين (قوم إبراهيم) لم يكونوا يؤمنون بالخالق الذي لا تدركه الأبصار. وكان أعظم الآلهة عندهم هو كوكب الشمس والصنم الذي يمثل الشمس هو (بعل)، فوظيفة الأصنام عندهم تدبير شؤون الناس في حياتهم. وأما الإيجاد والإعدام فكانوا من الذين يقولون وما يهلكنا إلا الدهر [الجاثية: ٢٤] وأن الإيجاد من أعمال التناسل وهم في غفلة عن سر تكوين تلك النظم الحيوانية وإيداعها فيها. وقد يكونون معترفين برب عظيم خالق للأكوان وإنما جعلوا الأصنام شركاء له في التصرف في نظام تلك المخلوقات كما كان حال الإشراك في العرب فيكون الاستثناء متصلا لأن الله من جملة معبوديهم، أي إلا الرب الذي خلق العوالم.

قوله: الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (٨٢)

الأظهر أن الموصول في موضع نعت ل رب العالمين [الشعراء: ٧٧] وأن فهو يهدين عطف على الصلة مفرع عليه لأنه إذا كان هو الخالق فهو الأولى بتدبير مخلوقاته دون أن يتولاها غيره. ويجوز أن يكون الموصول مبتدأ مستأنفا به ويكون فهو يهدين خبرا عن الذي. وزيدت الفاء في الخبر لمشابهة الموصول للشرط. وعلى الاحتمالين ففي الموصولية إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو الاستدراك بالاستثناء الذي في قوله: إلا رب العالمين [الشعراء: ٧٧]، أي ذلك هو الذي أخلص له لأنه خلقني كقوله في الآية الأخرى: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض [الأنعام: ٧٩].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: فهو يهدين دون أن يقول:

=

=

فيهدين، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي، وهو قصر قلب. وليس الضمير ضمير فصل لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف.

والتعبير بالمضارع في قوله: يهدين لأن الهداية متجددة له. وجعل فعل الهداية مفرعا بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى: الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [طه: ٥٠]. والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى: وهديناه النجدين [البلد: ١٠] فيكون المعنى: الذي خلقني جسدا وعقلا. ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوما من الخطأ.

والقول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: والذي هو يطعمني ويسقين، وقوله: فهو يشفين كالقول في سابقهما للرد على زعمهم أن الأصنام تقدر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون وبها برؤهم إذا مرضوا، وليسا بضميري فصل أيضا.

وعطف إذا مرضت على يطعمني ويسقين لأنه لم يكن حين قال ذلك مريضا فإن إذا تخلص الفعل بعدها للمستقبل، أي إذا طرأ علي مرض.

وفي إسناده فعل المرض إلى نفسه تأدب مع الله راعى فيه الإسناد إلى الأسباب الظاهرة في مقام الأدب، فأسند إحداث المرض إلى ذاته ولأنه المتسبب فيه، فأما قوله:

والذي يميتني ثم يحيين فلم يأت فيه بما يقتضي الحصر لأنهم لم يكونوا يزعمون أن الأصنام تميت بل عمل الأصنام قاصر على الإعانة أو الإعاقة في أعمال الناس

=

=

في حياتهم. فأما الموت فهو من فعل الدهر والطبيعة إن كانوا دهريين وإن كانوا يعلمون أن

الخلق والإحياء والإماتة ليست من شؤون الأصنام وأنها من فعل الله تعالى كما يعتقد المشركون من العرب فظاهر.

وتكرير اسم الموصول في المواضع الثلاثة مع أن مقتضى الظاهر أن تعطف الصلتان على الصلة الأولى للاهتمام بصاحب تلك الصلات الثلاث لأنها نعت عظيم لله تعالى فحقيق أن يجعل مستقلا بدلالته.

وأطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعا لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة وإنما طمع في ذلك لوعد الله بذلك.

والخطيئة: الذنب. يقال: خطىء إذا أذنب. وتقدم في قوله تعالى: نغفر لكم خطاياكم في البقرة [٥٨]. والمقصود في لسان الشرائع: مخالفة ما أمر به الشرع. وإذ قد كان إبراهيم حينئذ نبيئا والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي.

والمغفرة: العفو عن الخطايا، وإنما قيده ب يوم الدين لأنه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو، فأما صدور العفو من الله لمثل إبراهيم عليه السلام ففي الدنيا، وقد يغفر خطايا بعض الخاطئين يوم القيامة بعد الشفاعة. ويوم الدين: هو يوم الجزاء، وهذا الكلام خبر يتضمن تعريضا بالدعاء. وقد أشار في هذه النعوت إلى ما هو من تصرفات الله في العالم الحسي بحيث لا يخفى عن أحد قصدا لاقتصاص إيمان المشركين إن راموا الاهتداء.

وفي تلك النعوت إشارة إلى أنها مهيئات للكمال النفساني فقد جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام مع دلالتها على انفراد الله بالتصرف في تلك الأفعال التي هي أصل أطوار الخلق الجسماني دلالة أخرى على جميع أصول النعم من أول الخلق إلى

=

=

الخلق الثاني وهو البعث، فذكر خلق الجسد وخلق العقل وإعطاء ما به بقاء المخلوق وهو الغذاء والماء، وما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه، وذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى، وأعقبه بذكر الحياة الثانية للإشارة إلى أن الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلا بغوص فكر ولكن وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له نعمة.

وحذفت ياءات المتكلم من يهدين، ويسقين، ويشفين، ويحيين لأجل التخفيف ورعاية الفاصلة لأنها يوقف عليها، وفواصل هذه السورة أكثرها بالنون الساكنة، وقد تقدم

ذلك في قوله: فأخاف أن يقتلون [الشعراء: ١٤] في قصة موسى المتقدمة.

قوله: رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين (٨٣) واجعل لي لسان صدق في الآخرين (٨٤) واجعلني من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لأبي إنه كان من الضالين (٨٦) ولا تخزني يوم يبعثون (٨٧)

يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩)

لما كان آخر مقاله في الدعوة إلى الدين الحق متضمنا دعاء بطلب المغفرة تخلص منه إلى الدعاء بما فيه جمع الكمال النفساني بالرسالة وتبليغ دعوة الخلق إلى الله فإن الحجة التي قام بها في قومه بوحي من الله كما قال تعالى: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه [الأنعام: ٨٣] فكان حينئذ في حال قرب من الله. وجهر بذلك في ذلك الجمع لأنه عقب الانتهاء من أقدس واجب وهو الدعوة إلى الدين، فهو ابتهال أرجى للقبول كالدعاء عقب الصلوات وعند إفطار الصائم ودعاء يوم عرفة والدعاء عند الزحف، وكلها فراغ من عبادات. ونظير ذلك دعاؤه عند الانتهاء من بناء أساس الكعبة المحكي في قوله تعالى: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل إلى قوله: ربنا واجعلنا مسلمين لك إلى إنك أنت العزيز الحكيم

=

=

[البقرة: ١٢٧ - ١٢٩] وابتدأ بنفسه في أعمال هذا الدين كما قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: وأنا أول المؤمنين [الأعراف: ١٤٣]، وكما أمر رسوله محمد ﷺ إذ قال: وأمرت لأن أكون أول المسلمين [الزمر: ١٢].

وللأوليات في الفضائل مرتبة مرغوبة، قال سعد بن أبي وقاص «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله». وبضد ذلك أوليات المساويء

ففي الحديث: «ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ذلك لأنه أول من سن القتل»

. وقد قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله: الذي خلقني فهو يهدين إلى قوله: يوم الدين [الشعراء: ٧٨- ٨٢] الراجعة إلى مواهب حسية بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني كما أومأ إليه قوله: إلا من أتى الله بقلب سليم وأقحم بين طلباته سؤاله المغفرة لأبيه لأن ذلك داخل في قوله: ولا تخزني يوم يبعثون.

فابتداء دعائه بأن يعطى حكما. والحكم: هو الحكمة والنبوءة، قال تعالى عن يوسف: آتيناه حكما وعلما [القصص: ١٤] أي النبوءة، وقد كان إبراهيم حين دعا نبيئا فلذلك كان السؤال طلبا للازدياد لأن مراتب الكمال لا حد لها بأن يعطى الرسالة مع

النبوءة أو يعطى شريعة مع الرسالة، أو سأل الدوام على ذلك.

ثم ارتقى فطلب إلحاقه بالصالحين. ولفظ الصالحين يعم جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين، فيكون قد سأل بلوغ درجات الرسل أولي العزم نوح وهود وصالح والشهداء والصالحين فجعل الصالحين آخرا لأنه يعم، فكان تذييلا.

ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده. وهذا يتضمن سؤال الدوام والختام على الكمال وطلب نشر الثناء عليه وهذا ما تتغذى به الروح من

=

=

بعد موته لأن الثناء عليه يستعدي دعاء الناس له والصلاة عليه والتسليم جزاء على ما عرفوه من زكاء نفسه.

وقد جعل الله في ذريته أنبياء ورسلا يذكرونه وتذكره الأمم التابعة لهم ويخلد ذكره في الكتب. قال ابن العربي: «قال مالك: لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله وهو الثناء الصالح»، وقد قال الله تعالى:

وألقيت عليك محبة مني [طه: ٣٩]، وهي رواية أشهب عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد تقدم الكلام على هذا مشبعا عند قوله تعالى: والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما في سورة الفرقان [٧٤].

واللسان مراد به الكلام من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوم بها. واللام في قوله: لي تقتضي أن الذكر الحسن لأجله فهو ذكره بخير. وإضافة لسان إلى صدق من إضافة الموصوف إلى الصفة، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر، أي لسانا صادقا.

والصدق هنا كناية عن المحبوب المرغوب فيه لأنه يرغب في تحققه ووقوعه في نفس الأمر. وسأل أن يكون من المستحقين الجنة خالدا فاستعير اسم الورثة إلى أهل الاستحقاق لأن الوارث ينتقل إليه ملك الشيء الموروث بمجرد موت المالك السابق. ولما لم يكن للجنة مالكون تعين أن يكون الوارثون المستحقين من وقت تبوؤ أهل الجنة الجنة، قال تعالى: أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون [المؤمنون: ١٠، ١١].

وسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه أراد أن لا يلحقه يومئذ شيء ينكسر منه خاطره وقد اجتهد في العمل المبلغ لذلك واستعان الله على ذلك وما بقيت له حزازة إلا حزازة كفر أبيه فسأل المغفرة له لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالين لحقه انكسار ولو كان قد استجيب له بقية دعواته، فكان هذا آخر شيء

=

=

تخوف منه لحاق

مهانة نفسية من جهة أصله لا من جهة ذاته. وفي الحديث أنه يؤتى بأبي إبراهيم يوم القيامة في صورة ذيخ (أي ضبع ذكر) فيلقى في النار فلا يشعر به أهل الموقف فذلك إجابة قوله:

ولا تخزني يوم يبعثون أي قطعا لما فيه شائبة الخزي.

وضمير يبعثون راجع إلى العباد المعلوم من المقام.

وجملة: إنه كان من الضالين تعليل لطلب المغفرة لأبيه فيه إيماء إلى أنه سأل له مغفرة خاصة وهي مغفرة أكبر الذنوب أعني الإشراك بالله، وهو سؤال اقتضاه مقام الخلة وقد كان أبوه حيا حينئذ لقوله في الآية الأخرى: قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا [مريم: ٤٧]. ولعل إبراهيم علم من حال أبيه أنه لا يرجى إيمانه بما جاء به ابنه أو أن الله أوحى إليه بذلك ما ترشد إليه آية وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤]. ويجوز أنه لم يتقرر في شرع إبراهيم حينئذ حرمان المشركين من المغفرة فيكون ذلك من معنى قوله تعالى: فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [التوبة: ١١٤]. ويجوز أن يكون طلب الغفران له كناية عن سبب الغفران وهو هدايته إلى الإيمان.

ويوم لا ينفع مال إلخ يظهر أنه من كلام إبراهيم عليه السلام فيكون يوم لا ينفع بدلا من يوم يبعثون قصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم.

واستظهر ابن عطية: أن الآيات التي أولها يوم لا ينفع مال ولا بنون يريد إلى قوله: فنكون من المؤمنين [الشعراء: ١٠٢] منقطعة عن كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله تعالى صفة لليوم الذي وقف إبراهيم عنده في دعائه أن لا يخزى فيه اه.

=

=

وهو استظهار رشيق فيكون: يوم لا ينفع مال استئنافا خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا ينفع مال ولا بنون. وفتحة يوم فتحة بناء لأن (يوم) ظرف أضيف إلى فعل معرب فيجوز إعرابه ويجوز بناؤه على الفتح، فهو كقوله تعالى: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم [المائدة: ١١٩]. ويظهر على هذا الوجه أن يكون المراد ب من أتى الله بقلب سليم الإشارة إلى إبراهيم عليه السلام لأن الله تعالى وصفه بمثل هذا في آية سورة

الصافات [٨٣، ٨٤] في قوله: وإن من شيعته (أي شيعة نوح) لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم.

وفيه أيضا تذكير قومه بأن أصنامهم لا تغني عنهم شيئا، ونفي نفع المال صادق بنفي وجود المال يومئذ من باب «على لا حب لا يهتدى بمناره»، أي لا منار له فيهتدى به، وهو استعمال عربي إذا قامت عليه القرينة. ومن عبارات علم المنطق «السالبة تصدق بنفي الموضوع».

والاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد عن نفسه بأن يدافع إما بفدية وإما بنجدة (وهي النصر)، فالمال وسيلة الفدية، والبنون أحق من ينصرون أباهم، ويعتبر ذلك النصر عندهم عهدا يجب الوفاء به. قال قيس ابن الخطيم:

ثأرت عديا والخطيم ولم أضع ... ولاية أشياخ جعلت إزاءها

واقتضى ذلك أن انتفاء نفع ما عدا المال والبنين من وسائل الدفاع حاصل بالأولى بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العرف. فالكلام من قبيل الاكتفاء، كأنه قيل: يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر. وقوله: إلا من أتى الله بقلب سليم استثناء من مفعول ينفع، أي إلا منفوعا أتى الله بقلب سليم.

هذا معنى الآية وهو مفهوم للسامعين فلذلك لم يؤثر عن أحد من سلف

=

=

المصنفين عد هذه الآية من متشابه المعنى وإنما أعضل على خلفهم طريق استخلاص هذا المعنى المجمل من تفاصيل أجزاء تركيب الكلام. وذكر صاحب «الكشاف» احتمالات لا يسلم شيء منها من تقدير حذف، فبنا أن نفصل وجه استفادة هذا المعنى من نظم الآية بوجه يكون أليق بتركيبها دون تكلف.

فاعلم أن فعل ينفع رافع لفاعل ومتعد إلى مفعول، فهو بحق تعديه إلى المفعول يقتضي مفعولا، كما يصلح لأن تعلق به متعلقات بحروف تعدية، أي حروف جر، وإن أول متعلقاته خطورا بالذهن متعلق سبب الفعل، فيعلم أن قوله: يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم يشير إلى فاعل ينفع ومفعوله وسببه الذي يحصل به، فقوله: بقلب سليم هو المتعلق بفعل أتى الله لأن فاعل الإتيان إلى الله هو المنفوع فهو في المعنى مفعول فعل ينفع والمتعلق بأحد فعليه وهو فعل أتى الذي

هو فاعله متعلق في المعنى بفعله الآخر وهو ينفع الذي من أتى الله مفعوله. فعلم أن تقدير الكلام: يوم لا ينفع نافع أو شيء، أو نحو ذلك مما يفيد عموم نفي النافع، حسبما دل عليه مال- وبنون من عموم الأشياء كما قررنا. وحذف مفعول ينفع لقصد العموم كحذفه في قوله تعالى: والله يدعوا إلى دار السلام [يونس: ٢٥] أي يدعو كل أحد، فتحصل أن التقدير: يوم لا ينفع أحدا شيء يأتي به للدفع عن نفسه.

والمستثنى وهو من أتى الله بقلب سليم متعين لأن يكون استثناء من مفعول ينفع وليس مستثنى من فاعل ينفع لأن من أتى الله بقلب سليم يومئذ هو منفوع لا نافع فليس مستثنى من صريح أحد الاسمين السابقين قبله، ولا مما دل عليه الاسمان من المعنى الأعم الذي قدرناه بمعنى: «ولا غيرهما»، فتمحض أن يكون هذا المستثنى مخرجا من عموم مفعول ينفع. وتقديره: إلا أحدا أتى الله بقلب سليم،

=

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠).

{وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّة} قُرِّبَتْ {لِلْمُتَّقِينَ} فَيَرَوْنَهَا.

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١).

{وبرزت الجحيم} أظهرت {للغاوين} الكافرين

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢).

{وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون}.

مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣).

{مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره مِنْ الْأَصْنَام {هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ} بِدَفْعِ الْعَذَاب عَنْكُمْ {أَوْ يَنْتَصِرُونَ} بدفعه عن أنفسهم لا.

فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤).

=

أي فهو منفوع، واستثناؤه من مفعول فعل ينفع يضطرنا إلى وجوب تقدير نافعه فاعل فعل ينفع، أي فإنه نفعه شيء نافع. ويبين إجماله متعلق فعل ينفع وهو بقلب سليم إذ كان القلب السليم سبب النفع فهو أحد أفراد الفاعل العام المقدر بلفظ «شيء» كما تقدم آنفا.

فالخلاصة أن الذي يأتي الله يومئذ بقلب سليم هو منفوع بدلالة الاستثناء وهو نافع (أي نافع نفسه) بدلالة المجرور المتعلق بفعل أتى، فإن القلب السليم قلب ذلك الشخص المنفوع فصار ذلك الشخص نافعا ومنفوعا باختلاف الاعتبار، وهو ضرب من التجريد. وقريب من وقوع الفاعل مفعولا في باب ظن في قولهم: خلتني ورأيتني، فجعل القلب السليم سببا يحصل به النفع، ولهذا فالاستثناء متصل مفرغ عن المفعول. وقد حصل من نسج الكلام على هذا المنوال إيجاز مغن أضعاف من الجمل المطوية. وجعل الاستثناء منقطعا لا يدفع الإشكال.

{فكبكبوا} ألقوا {فيها هم والغاوون}.

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥).

{وَجُنُود إبْلِيس} أَتْبَاعه وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ الْجِنّ والإنس {أجمعون}.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦).

{قَالُوا} أَيْ الْغَاوُونَ {وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} مَعَ معبوديهم.

تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧).

{تَاللهِ إِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ إِنَّهُ {كُنَّا لَفِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن.

إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨).

{إِذْ} حَيْثُ {نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} فِي الْعِبَادَة

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩).

{وَمَا أَضَلَّنَا} عَنْ الْهُدَى {إِلَّا الْمُجْرِمُونَ} أَيْ الشَّيَاطِين أَوْ أَوَّلُونَا الَّذِينَ اقْتَدَيْنَا بِهِمْ.

فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠).

{فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} كَمَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْمَلَائِكَة وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ.

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١).

{وَلَا صَدِيق حَمِيم} يُهِمّهُ أَمْرنَا.

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢).

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّة} رَجْعَة إِلَى الدُّنْيَا {فَنَكُون مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} لَوْ هُنَا لِلتَّمَنِّي وَنَكُون جوابه.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ قِصَّة إِبْرَاهِيم وقومه {لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)} [الشعراء: ٩٠]

وقُرِّبت الجنة للذين اجتنبوا الكفر والمعاصي، وأقبلوا على الله بالطاعة.

قال الطبري: "وأدنيت الجنة وقربت للمتقين، الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: قربت الجنة وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها عملها في الدنيا".

قال الضحاك:"قربت من أهلها". وروى عن السدي وقتادة والربيع بن خثيم نحو ذلك.

عن السدي، " {للمتقين}، قال: هم المؤمنون. وذكر حديث: لا يكون الرجل من المتقين".

قوله تعالى: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)} [الشعراء: ٩١]

وأُظهرت النار للكافرين الذين ضَلُّوا عن الهدى، وتجرَّؤوا على محارم الله وكذَّبوا رسله.

قال الطبري: "يقول: وأظهرت النار للذين غووا فضلوا عن سواء السبيل".

قال ابن كثير: أي:"أظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عُنقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر".

عن أبي مالك قوله: "{الجحيم}، يعنى: ما عظم من النار".

قوله تعالى: {وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ} [الشعراء: ٩٢ – =

=
٩٣]، أي:"قيل للمجرمين على سبيل التقريع والتوبيخ: أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد؟".

قال الطبري: أي:"من الأنداد".

قوله تعالى: {هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ} [الشعراء: ٩٣]، أي:"هل ينصرونكم، فيدفعون العذاب عنكم، أو ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم؟".

قال الطبري: يقول:"{هل ينصرونكم} اليوم من الله، فينقذونكم من عذابه، {أو ينتصرون} لأنفسهم، فينجونها مما يراد بها؟".

قال ابن كثير:"أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جَهَنم أنتم لها واردون".

قال الصابوني:"هذا كله توبيخ".

عن الزعراء:"قال عبد الله بن مسعود: ثم يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى لله خلق في السماوات والأرض إلا مات إلا ما شاء ربك ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون وليس من بني آدم خلق في الأرض إلا في السماء منه شيء، فيرسل الله ماء من تحت العرش منيا كمني الرجال فينبت جسمانهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى ثم قال عبد الله بن مسعود والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ثم يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها حتى تدخل فيه ثم يقومون فيحيون تحية رجل واحد قياما لرب العالمين وليس أحد كان يعبد شيئا من دون الله في الدنيا إلا هو مرفوع له يتبعه، ثم الله تبارك وتعالى يلقى الخلق فيلقى اليهود فيقول: من تعبدون فيقولون نعبد عزيرا فيقول: هل يسركم الماء؟ فيقولون: نعم، فيريهم جهنم وهي كهيئة
=

=

السراب ثم كذلك من كان يعبد من دون الله شيئا ثم يمر به المسلمون فيقول: من تعبدون فيقولون: نعبد الله ولا نشرك به شيئا".

قوله تعالى: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} [الشعراء: ٩٤]، أي:"فجُمِعوا وألقُوا في جهنم، هم والذين أضلوهم".

قال الطبري:"يقول: وكبكب فيها مع الأنداد والغاوين".

قال مقاتل:"يعني: فقذفوا في النار، يعني: فقذفهم الحزنة في النار، {هم} يعني: كفار بني آدم، {والغاوون}، يعني: الشياطين الذين أغووا بني آدم".

قال ابن كثير:"المراد: أنه ألقي بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك".

قال الزمخشري:"أى: الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. و «الكبكبة»: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار".

عن ابن عباس قوله: "{فكبكبوا فيها} يقول: جمعوا فيها". وروى عن السدي مثل ذلك.

عن مجاهد: "{فكبكبوا فيها}، قد هووا فيها".

قال ابن زيد:"طرحوا فيها".

عن السدي قوله: "{فكبكبوا فيها}، قال: الآلهة"، " {فيها}، في النار".

وعن السدي: "{فكبكبوا}، قال: مشركوا العرب".

قال السدي:"يقول: جمعوا فيها هم الآلهة والمشركون".

عن ابن عباس، قوله: "{الغاوون}، قال: المشركون".

عن السدي: "{الغاوون}: مشركوا العرب".

عن قتادة، قوله:"{هم والغاوون}، قال: الشياطين".

=

=

قوله تعالى: {وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} [الشعراء: ٩٥]، أي:"وأتباعُ إبليس قاطبة من الإنس والجن".

قال مقاتل:"يعني: ذرية إبليس كلهم".

قال الطبري:"وجنوده: كل من كان من تباعه، من ذريته كان أو من ذرية آدم".

قال الزمخشري:"{جنود إبليس}: شياطينه، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس".

قال ابن كثير:"أي: ألقوا فيها عن آخرهم".

عن السدي، قوله: "{وجنود إبليس أجمعون}، قال: مما كان من ذريته".

عن السدي قوله: "{وجنود إبليس أجمعون}، قال: هم الشياطين".

قال ابن عباس:"إن الجن لا يدخلون الجنة إنما ينجو مؤمنهم من العذاب، لأنهم من ذرية إبليس ولا يدخل ذرية إبليس الجنة".

قوله تعالى: {قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} [الشعراء: ٩٦]، أي:"قال العابدون لمعبوديهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون".

قال الطبري: يقول:"قال هؤلاء الغاوون والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله وجنود إبليس، وهم في الجحيم يختصمون".

قال الزمخشري:"يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم. ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين".

قال ابن عباس:"يخاصم الصادق الكاذب، والمظلمون الظالم والمهتدي الضال، والضعيف المتكبر".

قوله تعالى: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الشعراء: ٩٧]، أي:"نقسم بالله لقد كنا في ضلالٍ واضح وبعدٍ عن الحق ظاهر".

قال الطبري: "يقول: تالله لقد كنا في ذهاب عن الحق، إن كنا لفي ضلال مبين، يبين ذهابنا ذلك عنه عن نفسه، لمن تأمله وتدبره، أنه ضلال وباطل".

=

=

قال ابن زيد:"الضلال هو أن يكفر بعد إيمانه".

قوله تعالى: {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٩٨]، أي:"حين عبدناكم مع ربّ العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة".

قال الطبري: "يقول الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إن كنا لفي ذهاب عن الحق حين نعدلكم برب العالمين فنعبدكم من دونه".

قال ابن كثير:"أي: نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع ربِ العالمين".

عن ابن زيد، في قوله: "{إذ نسويكم برب العالمين}، قال: لتلك الآلهة".

عن عطاء بن دينار الهذلي:"أنّ عبد الملك بن مروان كتب إلى سعيد بن جبير يسأله عن هذه المسائل، فأجابه فيها -وذكر منها العبادة، فقال: - والعبادة هي الطاعة، وذلك أنّه مَن أطاع الله فيما أمره به وفيما نهاه عنه فقد أَتَمَّ عبادة الله، ومَن أطاع الشيطان في دينه وعمله فقد عبد الشيطان، ألم تر أنّ الله قال للذين فرَّطوا: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان} [يس: ٦٠]، وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم، فمنهم مَن أمرهم فاتخذوا أوثانًا أو شمسًا أو قمرًا أو بشرًا أو ملكًا يسجدون له من دون الله، ولم يظهر الشيطان لأحد منهم فيُتَعَبَّد له، أو يُسجَد له، ولكنهم أطاعوه فاتخذوها آلهة مِن دون الله، فلمّا جُمِعوا جميعًا يوم القيامة في النار قال لهم الشيطان: {إني كفرت بما أشركتمون من قبل} [إبراهيم: ٢٢]، {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: ٩٨]، فعُبِد عيسى والملائكة مِن دون الله، فلم يجعلهم الله في النار، فليس للشمس والقمر ذنبٌ، وذلك يصير إلى طاعة الشيطان، فيجعلهم معهم، فذلك قوله حين تقربوا منهم: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين} [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]، وقالت الملائكة حين سألهم الله: {أهؤلاء إياكم

=

=

كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}. قال: أفلا ترى إلى عبادتهم الجن! إنما هي أنهم أطاعوه في عبادة غير الله، فيصير العبادة إلى أنها طاعة".

قوله تعالى: {وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ} [الشعراء: ٩٩]، أي:"وما أضلنا عن الهدى إلاّ الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي".

قال الطبري: "يعني بالمجرمين إبليس، وابن آدم الذي سن القتل".

قال ابن كثير:"أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون".

قال الزمخشري:"المراد بالمجرمين الذين أضلوهم: رؤساؤهم وكبراؤهم، كقوله: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} [الأحزاب: ٦٧]".

عن عكرمة، قوله: "{وما أضلنا إلا المجرمون}، قال: إبليس وابن آدم القاتل".

قوله تعالى: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} [الشعراء: ١٠٠]، أي:"ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم".

قال الطبري: "يقول: فليس لنا شافع فيشفع لنا عند الله من الأباعد، فيعفو عنا، وينجينا من عقابه".

قال الزمخشري:"{فما لنا من شافعين}، كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين".

عن ابن جريج: "{فما لنا من شافعين}، قال: من الملائكة". وفي لفظ:"من أهل السماء".

قوله تعالى: {وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} [الشعراء: ١٠١]، أي:"ولا صديقٍ خالص الود ينقذنا من عذاب الله".

قال الطبري: أي: "من الأقارب".

قال ابن كثير:"أي: قريب".

=

=

قال الزمخشري: "{ولا صديق} كما نرى لهم أصدقاء، لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون. وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض، قال الله تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين أو: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء، لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، فقصدوا بنفيهم نفى ما يتعلق بهم من النفع، لأن ما لا ينفع: حكمه حكم المعدوم، و «الحميم»: من الاحتمام، وهو الاهتمام، وهو الذي يهمه ما يهمك. أو من الحامة بمعنى الخاصة، وهو الصديق الخاص".

عن ابن جريج: "{ولا صديق حميم}، قال: من الناس". وفي لفظ:"من أهل الأرض".

قال مجاهد:"يحمل عنا من ذنوبنا كما كان يحمل الحميمَ عن حميمه في الدنيا".

عن مجاهد:"{صديق حميم}، قال: شقيق".

عن السدي:"{ولا صديق}، يقول: ولا شفيع يهتم بأمرنا".

وعن الحسن:"{صديق حميم}، قال: القرابة، كما يحمل ذو القرابة عن قرابته، والصديق عن صديقه".

قال يحيى بن سعيد المسمعي: "كان قتادة إذا قرأ: {فما لنا من شافعين ولا صديق حميم}، قال: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع".

قال الزمخشري:"جمع الشافع ووحد الصديق، لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق-

=

=

وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك- فأعز من بيض الأنوق. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له. ويجوز أن يريد بالصديق: الجمع".

قوله تعالى: {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً} [الشعراء: ١٠٢]، أي:"فليت لنا رجعة إلى الدنيا".

قال الطبري: "يقول: فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا".

قال ابن عباس:"يعنون: رجعة".

قال الربيع: "لو أن لنا كرة إلى الدنيا".

قال الزمخشري:"{لو}: في مثل هذا الموضع في معنى التمني، كأنه قيل: فليت لنا كرة. وذلك لما بين معنى «لو» و «ليت» من التلاقي في التقدير. ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب، وهو: لفعلنا كيت وكيت".

قوله تعالى: {فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٠٢]، أي:"فنصير من جملة المؤمنين الناجين".

قال الطبري: أي: "فنؤمن بالله فنكون بإيماننا به من المؤمنين".

قال ابن كثير:"وذلك أنهم يتمنون أنهم يردُّون إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو، سبحانه وتعالى، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص: ٦٤]".

عن ابن عباس، قوله: {فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، قال:"حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ١٠٣]، أي:"إن في نبأ إبراهيم السابق لَعبرة لِمن يعتبر".

قال الطبري: يقول:"إن فيما احتج به إبراهيم على قومه من الحجج التي ذكرنا له

=

=

لدلالة بينة واضحة لمن اعتبر، على أن سنة الله في خلقه الذين يستنون بسنة قوم إبراهيم من عبادة الأصنام والآلهة، ويقتدون بهم في ذلك ما سن فيهم في الدار الآخرة، من كبكبتهم وما عبدوا من دونه مع جنود إبليس في الجحيم".

قال ابن كثير:"أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٠٣]، أي:"وما صار أكثر الذين سمعوا هذا النبأ مؤمنين".

قال الطبري:"وما كان أكثرهم في سابق علمه مؤمنين".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء: ١٠٤]، أي:"وإن ربك لهو العزيز القادر على الانتقام من المكذبين، الرحيم بعباده المؤمنين".

قال الطبري: يقول:"وإن ربك يا محمد لهو الشديد الانتقام ممن عبد دونه، ثم لم يتب من كفره حتى هلك، الرحيم بمن تاب منهم أن يعاقبه على ما كان سلف منه قبل توبته من إثم وجرم".

قال محمد بن إسحاق: "{العزيز} في نصرته ممن كفر إذا شاء".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {وأزلفت الجنة للمتقين (٩٠) وبرزت الجحيم للغاوين (٩١) وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون (٩٢) من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون} [الشعراء: ٩٠ - ٩٣].

قوله: {تعبدون (٩٢) من دون الله} يقول المصنف: [أي غيره]؛ لأن (دون) تأتي بمعنى: غير وسوى، وتأتي بمعنى: أقل، فعندما تقول: هذا دون هذا، يعني: أقل

=

=

منه، حسب السياق.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هل ينصرونكم} بدفع العذاب عنكم]، والجواب: لا، مع أنهم يزعمون أنها تنفعهم، ولكنها في الواقع لا تنفعهم، بل تضرهم [{أو ينتصرون} بدفعه عن أنفسهم؟ لا].

فإذا كانوا لا ينصرون ولا ينتصرون، فلا خير فيهم ولا في عبادتهم.

وفي قوله: {أو ينتصرون} دليل على أن هذه الأصنام تعذب وتلقى في جهنم، كما جاء في الآيات الأخرى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: ٩٨]، لكن إذا كان الذي يعبد من دون الله مما كلف فإن رضي بعبادتهم فهو معهم، وإن لم يرض فقد قال الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} [الأنبياء: ١٠١]، أي: لا يدخلون النار.

فإذا قيل: ما فائدة إدخال الأصنام النار وتعذيبها مع أنها لا تفهم؟

قلنا: إهانة لعابديها؛ لأن هذا فيه من الإهانة وبيان أنها لا تنفع ما هو ظاهر.

فوائد الآيات الكريمة:

الفائدة الأولى والثانية: في ذلك دليل على إثبات الجنة؛ لقوله: {وأزلفت الجنة}، وأن أهلها هم المتقون، وهم الذين فعلوا ما يقيهم من عذاب الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

الفائدة الثالثة: وفي ذلك دليل على إثبات النار؛ لقوله: {وبرزت الجحيم}.

الفائدة الرابعة: فرق الله سبحانه وتعالى بين التعبيرين في إزلاف الجنة وإظهار النار، وهو دليل على أن الرحمة سبقت الغضب؛ لأن الجنة تدنى للمؤمنين، أما أولئك فتظهر لهم فيرونها من بعيد: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا} [الفرقان: ١٢]؛ لأجل أن يكونوا في خوف وذعر من قبل أن يصلوا إليها.

الفائدة الخامسة: وفي ذلك دليل على أن أصحاب الجحيم: كل غاو، والغواية ضد

=

=

الضلال، والغواية: ضد الرشد، فالمراد بالغاوين هم الذين جانبوا الصراط المستقيم، جانبوه لا ضلوا عنه، يعني: علموه ولكن جانبوه، والعياذ بالله.

الفائدة السادسة: وفي ذلك دليل على التعذيب البدني والقلبي لأصحاب النار؛ البدني: {وبرزت الجحيم}، والقلبي: {وقيل لهم}.

قال الله ﷻ: {فكبكبوا فيها هم والغاوون (٩٤) وجنود إبليس أجمعون} [الشعراء: ٩٤ - ٩٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فكبكبوا} ألقوا {هم والغاوون}]، (هم) الضمير يعود على ما يعبدون من دون الله، وقوله: {فكبكبوا} بمعنى: ألقوا، ولكن هذا التكرار يدل على معنى أدق من الإلقاء فقط، يعني: كأنهم يكبون فيها على وجوههم، وبدون أيضا ترتيب، وبدون نظام، كأنما يحثون حثيا - والعياذ بالله - ويلقون.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وجنود إبليس أجمعون}: أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس {أجمعون}]، أعوذ بالله! جنود إبليس هم الذين يتبعونه ويغوون الناس، فكل من سعى في إغواء الناس والإفساد بينهم؛ فإنهم جنود إبليس، ومعلوم أن جنود إبليس على عكس جنود الرحمن، فجنود الرحمن يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك يدعون إلى الشر، ويأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

وفي هذا دليل على أن كل من نصر أحدا فهو من جنوده ولو بالإتباع؛ فإنه يكون من جنده، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "المرء مع من أحب".

ومن أحب شخصا أطاعه واتبعه.

قوله: {هم والغاوون} المراد بـ(الغاوون) هنا الغاوون الأولون الذين سبقوا، ولكن كرر ذلك الوصف، ما قال: فكبكبوا فيها هم وأولئك، كرره لإظهار ذم الغواية، ولكن قوله: {وجنود إبليس أجمعون} هذا هل هو من باب عطف

=

=

المتغايرين وأن الغاوي ليس من جنود إبليس، أم أنه من باب عطف المترادفين؟

نقول: الأصل في العطف: التغاير، والظاهر أن الغاوي هو الفاسد في نفسه، وأن جنود إبليس على اسمهم جنود ينصرونه ويدعون لما يدعو إليه، يقول المصنف: [أتباعه ومن أطاعه]، يقيد بمن أطاعه في إغواء الناس ودعوتهم إلى الضلالة، فيصير هنا من باب عطف الخاص على العام؛ لأن كل من دعا الناس إلى الباطل فهو غاو ولا عكس.

* قال الله ﷻ: {قالوا وهم فيها يختصمون (٩٦) تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين} [الشعراء: ٩٦ - ٩٨].

قال المصنف رحمه الله: [{قالوا} أي الغاوون {وهم فيها يختصمون} مع معبوديهم {تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين}]، لكن هذا الإقرار ينفع لو كان في الدنيا، فهم يتخاصمون: العابد والمعبود، والتابع والمتبوع يوم القيامة، كما قال الله تبارك وتعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب} [البقرة: ١٦٦]، وكذلك أيضا: {قال الذين استكبروا للذين استضعفوا} [سبأ: ٣٢]، وقال تعالى: {إن ذلك لحق تخاصم أهل النار} [ص: ٦٤]، وقال تعالى: {كلما دخلت أمة لعنت أختها} [الأعراف: ٣٨]، وهكذا {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} [الزخرف: ٦٧].

فهؤلاء الذين كانوا في الدنيا على ضلال وعلى باطل يوم القيامة كما قال الخليل: {يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} [العنكبوت: ٢٥]، ونحن نستعرض مثل هذه الآيات ونعظ الناس بها، ونقول لكل قوم اجتمعوا على فساد: ستزول يوم القيامة هذه المحبة بينهم، وهذه الرابطة، ويتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا، ونذكرهم بهذا الأمر الذي في الحقيقة ليس ببعيد، فما بينهم وبينه إلا أن تخرج أرواحهم من أجسامهم، ثم

=

=

يجدونه، وخروج الروح من الجسد ليس ببعيد، فقد يكون قريبا جدا، وكما قال أبو بكر:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وقد يكون غير قريب جدا، ولكنه مؤخر لأجل معدود، فإذا كان الله تعالى يقول في يوم القيامة: {وما نؤخره إلا لأجل معدود} [هود: ١٠٤]، فكيف إذن بأجل الإنسان نفسه فيكون من باب أولى!

قال: {قالوا وهم فيها يختصمون (٩٦) تالله} (تالله) هذا قسم بحرف التاء. وحروف القسم ثلاثة: الباء والواو والتاء، والأصل الباء، فهذه الحروف ليست كلها أصولا، فكلها يقسم بها، لكن بعضها أصل وبعضها غير أصل، مثل أن يقال: كان وأخواتها مثلا.

والدليل على أن الباء الأصل أن الباء تأتي مع القسم وبدونه، وتكون في الضمير والظاهر: (أقسم بالله) و (أقسم به) و (أقسم بك يا رب).

فلهذا نقول: هي الأصل، حتى ما تأتي إلا مع الظاهر وبدون فعل القسم، وأيضا ليست مع كل ظاهر، وإنما تكون بالله فقط، وقد يقسم بالرحمن، فيقال: (تالرحمن) وقد يقسم برب الكعبة، لكن على قلة، والواو تدخل على كل ظاهر، فيقسم بها بكل اسم ظاهر، سواء الله أو الرحمن أو العزيز، وما أشبه ذلك، ولكن لا يقسم بها في المضمر، ولا يأتي معها غير القسم، وبهذا يتبين أن الأم من هذه الثلاثة: الباء، ثم الواو، ثم التاء.

قال: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين} (إن) يقول المصنف: [مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: إنه]، أي: الفعل [{كنا لفي ضلال مبين} بين]، كلها بفعل ماض، ولم يسلب منها الدلالة على الزمن؛ لأن المراد: كنا في الدنيا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كنا لفي ضلال مبين} بين {إذ} حيث {نسويكم برب

=

=

العالمين} في العبادة]، وهذا صحيح، فهذه غاية ما يكون من الضلال أن يسوي الإنسان المخلوق بالخالق في العبادة، وليست العبادة هي الركوع والسجود فقط، بل حتى من أطاع أحدا في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله؛ فإنه عابد له، كما قال الله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} [التوبة: ٣١]، قال عدي بن حاتم للنبي ﷺ: إنا لسنا نعبدهم - يعني: ما نعبد أحبارنا ورهباننا، يعني: علماءنا وعبادنا - فقال النبي ﷺ: "أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟". قال عدي: بلى. قال: "فتلك عبادتهم".

فهؤلاء الذين يطبقون أنظمة وضعية مع مخالفتها للشرع، فيكون مآلهم يوم القيامة كهؤلاء، يعني: يتبرءون منهم ويخاصمونهم، ويقولون مقرين على أنفسهم: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين}.

فمثلا: الإنسان يقول له الله في كتابه وعلى لسان رسوله عليه الصلاة والسلام: هذا حلال، فيقول له الحاكم: هذا حرام ممنوع، فيمنعه، ويرى أنه محرم؛ مع تحليل الله له، فلا شك أنه اتخذ هذا الحاكم إلها مع الله مشرعا، كذلك يقول له مثلا ربه: هذا حرام، فيأتي هذا الحاكم ويقول: النظام أو الدستور يقتضي الحل، فيحله، فلا شك أيضا أنه اتخذ هذا الحاكم إلها مع الله، وسيكون مآله مآل هؤلاء القوم، سيخاصمه يوم القيامة ويقول له: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين}.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "إنما الطاعة في المعروف"، يعني طاعة ولي الأمر في المعروف، الذي عرفه الشرع.

فإن قيل: كيف يتصور أن أصحاب النار يتجادلون حال العذاب؟

فالجواب: أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، أليست الشمس تدنو من

=

=

الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل؟ ! لو قربت الشمس مقدار أنملة عن مكانها، لأحرقت الدنيا إحراقا، وتكون يوم القيامة بمقدار ميل ولا تحرق الناس! فلا يمكن أن تقاس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا أبدا، كما أن أحوال البرزخ إذا مات الإنسان وأقعد وسئل وعذب، فلا تقاس بأحوال الدنيا.

الحاصل أن الله تعالى يقول لهؤلاء الذين اتخذوا معبودين سواه، سواء كانت عبادة التذلل، أم عبادة الحكم، يقول لهم: إنهم يكبكبون في نار جهنم، ويختصمون فيها، ويقول التابعون للمتبوعين: {تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين}.

* قال الله تعالى: {وما أضلنا إلا المجرمون} [الشعراء: ٩٩].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما أضلنا} عن الهدى {إلا المجرمون} أي: الشياطين]، يعني: شياطين الإنس والجن، هكذا يجب، والمجرم: فاعل الإجرام، ويطلق كثيرا في القرآن على الكافر، والمعنى: ما أضلنا إلا أهل الكفر والإجرام، الذين اعتدوا علينا بهذا الإضلال، ولكن حقيقة هم ما اعتدوا عليهم؛ لأنهم هم الذين انقادوا لهذا الكفر، قال تعالى: {وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد} [غافر: ٤٧ - ٤٨]، وفي سور سبأ {وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون} [سبأ: ٣٣].

فالكفار الذين تبعوا المستكبرين لا عذر لهم عند الله ﷻ حتى وإن سبوهم، وقالوا: إنهم مجرمون؛ فإن ذلك ليس بعذر، فإنهم قد أعطاهم الله تعالى العقول والإدراك، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، فما بقيت لهم حجة في أن

=

=

يحتجوا بأن هؤلاء أضلوهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلا المجرمون} أي: الشياطين، أو الأولون الذين اقتدينا بهم]، فهذا إذا كان المراد بالمجرم الضال، سواء اعتدى أو لم يعتد؛ لأنه إذا كانوا آباءهم الذين اقتدوا بهم فإنهم لم يضلوهم، ولم يجرموا عليهم، فهؤلاء هم الذين أجرموا على أنفسهم.

ولا يبعد أن يراد بالآيات المعنيان جميعا؛ فإنهم ضلوا بأمرين:

الأول: بمن يدعونهم وهم أحياء إلى الضلال.

والثاني: بمن يقلدونهم وهؤلاء من الأموات.

لكن في المسألة الأولى يكون الجرم عليهم وعلى من أضلهم، وفي الثانية عليهم وحدهم؛ لأن أولئك الأموات في الحقيقة ما جنوا عليهم؛ إذ إن الرسل جاءتهم وبينت لهم.

ويستفاد من الآية:

سب هؤلاء بعضهم بعضا؛ لقوله تعالى: {وما أضلنا إلا المجرمون}، فهذا قدح فيهم من جهة أنهم أضلوهم، ومن جهة أنهم مجرمون.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: {فما لنا من شافعين} [الشعراء: ١٠٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فما لنا من شافعين} كما للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمؤمنين].

كلمة (ما) نافية وليست استفهامية، والدليل إتيان (من) المؤكدة: {فما لنا من شافعين}، وأصلها: فما لنا شافعون، ولكن أتي بـ(من) للتوكيد.

والشافع: هو المتوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، فشفاعة النبي ﷺ لأهل الموقف أن يقضى بينهم من باب الشفاعة؛ لدفع المضرة والمشقة، وشفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة من باب جلب المنافع، فالشفاعة هي التوسط للغير بجلب

=

=

منفعة أو دفع مضرة، وإن شئت فقل: لدفع الضير أو جلب الخير، فهذه هي الشفاعة.

فهم ليس لهم شافعون؛ لأن من شرط الشفاعة أن يكون المشفوع له مؤمنا، والدليل {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء: ٢٨]. وهؤلاء لا يرتضيهم الله، فهم يقولون: {فما لنا من شافعين} يعني: ما لنا أحد يشفع إطلاقا لا من الأنبياء ولا من غيرهم؛ لأن من شرط الشفاعة أن يرضى الله تبارك وتعالى عن المشفوع له، وعن الشافع من باب أولى، فإذا كان لا بد من رضا الله عن المشفوع له، فعن الشافع من باب أولى.

وأما الإذن فهو شرط أيضا حتى مع رضا الله عن هذا وهذا، فلا بد أيضا من الإذن، والله تبارك وتعالى لا يأذن بالشفاعة إلا لمن يرضاه، فصار لا بد من الشرطين، فلا يقال مثلا: إنه إذا ارتضى شخصا فإنه لا بد أن يأذن له، فقد يأذن وقد لا يأذن، ولكن نعلم أنه لن يأذن إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرتضيهم الله.

* قال الله ﷻ: {ولا صديق حميم} [الشعراء: ١٠١].

قوله: {ولا صديق حميم} معطوف على: {شافعين} باعتبار اللفظ، ولو عطفت الآية هنا باعتبار المحل لكانت: (ولا صديق)؛ لأن: (شافعين) في محل مبتدأ.

قال: {ولا صديق حميم} الصديق: من صدقك الود، يعني: الصاحب الصادق في وده يسمى صديقا، وهو أخص من الصاحب، فكل صديق صاحب، وليس كل صاحب صديقا، وأما الحميم فإنه القريب، أو أنه البالغ في الصداقة، بحيث يحنو عليك كما يحنو القريب.

والمصنف يقول: [{ولا صديق حميم} يهمه أمرنا]؛ لأن الصديق الحميم الحاني العاطف أو القريب يهمه أمر صاحبه وصديقه، وهل هذه الصفة - حميم - صفة كاشفة أم صفة مقيدة؟

=

=

هي صفة كاشفة، إذا قلنا: ما من صديق إلا وهو حميم، فهي صفة كاشفة، وإذا قلنا: قد يكون صديقا لكنه ليس بحميم، فهذه تكون صفة مقيدة، بشرط أن نجعل الحميم هنا بمعنى القريب؛ لأنه قد يكون صديقا وليس قريبا، فإذا جعلنا الحميم بمعنى الحاني الذي يكون كالقريب بحنوه وعطفه، فهي صفة كاشفة، لكن إذا قلنا: حميم قريب، صارت مقيدة؛ لأنه ما كل صديق يكون قريبا.

قال الله ﷻ {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين} [الشعراء: ١٠٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فلو أن لنا كرة} رجعة إلى الدنيا {فنكون من المؤمنين} (لو) هنا للتمني، و (نكون) جوابه]، يعني: ليت لنا كرة، أي رجعة إلى الدنيا، (فنكون) الفاء للسببية، و (نكون) منصوبة بأن مضمرة بعد فاء السببية بتقدم التمني، ولهذا يقول: [(لو) هنا للتمني و (نكون) جوابه].

قال: {فلو أن لنا كرة} يعني: ليت أن لنا كرة {فنكون من المؤمنين} ولم يقولوا: (ليت)؛ لأن المقام مقام تذلل وخضوع، و (لو) للتمني أقل من (ليت)؛ لأن (ليت) صريحة الطلب، و (لو) فيها نوع من اللين والعرض، مثلما تقول للإنسان الذي تتمنى أن يزورك: (لو أنك تزورنا)؛ فإن (لو) هذه للتمني بلا شك، لكنها تمن بلين وعرض ولطف، والمقام هنا يقتضيه؛ لأنهم في مقام ذل - والعياذ بالله - وخضوع، فلم يقولوا: ليتنا نرجع، ولكنهم يقولون: {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين}.

على أنه في سورة الأنعام يقولون: {ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين} [الأنعام: ٢٧]، فيقال: الجمع بينهما أن لهم حالات، فأحيانا يقولون بهذا وأحيانا يقولون بهذا، لكن أيهن أول؟ ليت أم لو؟

الظاهر (ليت) هي الأولى، يعني: كأنه يكون بالأول بعزم على التمني، ثم إذا لم يحصل لهم رجعوا إلى الخضوع والخنوع والعرض.

=

=

ولو أنهم ردوا هل يرجعون؟

يقول الله تعالى في سورة الأنعام: {بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} [الأنعام: ٢٨]، هذا الخبر الصادق، يعني: ليس قولهم: إننا إذا رجعنا نكون من المؤمنين، فهذا خبر كاذب، والخبر الصادق: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون} في قولهم: {نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين} [الأنعام: ٢٧].

فإن قيل: في نفس المقام يستشعرون أنهم كاذبون أم في علم الله أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؟

فالجواب: الظاهر أنه في علم الله، فيمكن أنهم حينما يقولونه في تلك الساعة يقولونه صدقا، ولكن الله أخبر بأنهم إذا رجعوا فسيعودون إلى الكفر.

قال: {فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين} أى: من المصدقين المقرين الملتزمين بالعمل؛ لأن الإيمان وحده لا ينفع، فإذا لم يستلزم العمل فليس بإيمان، ولهذا نقول: إن الكفار الذين أتتهم آيات الله كان بها مؤمنين {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم} [النمل: ١٤]، ولكن لكونهم لا ينقادون لم ينتفعوا بإيمانهم، فإبليس بمعنى التصديق مؤمن، لكنه مستكبر، فلم ينفعه إيمانه.

وأذكر أنه حينما صعد أول رجل إلى الفضاء من الروس وشاهد الكون أعلن أن هذا الكون له مدبر، فجاء أصحابه الروس وقالوا: ما تقول؟

فإذا لم ينقد الإنسان فليس بمؤمن، ولهذا نقول: إن الإيمان هو التصديق المستلزم للقبول وللإنقياد: قبول الخبر والإنقياد للأمر والنهي، هذا هو الإيمان. وأما مجرد أن الإنسان يقول: أنا مؤمن بالله، وأنا أعترف بأن الله موجود، وأن له رسلا، لكنه لا يعمل، فلا ينفعه هذا الإيمان.

فالإيمان الذي ينفع هو ما ذكرت، وقد يطلق الإيمان لغة على مجرد التصديق،

=

=

ويقال: هذا مؤمن بشيء، لكنه كافر بأشياء، فهذا ليس الإيمان الشرعي.

وكل من كان مستكبرا فهو أشد؛ لأن الذي يتبين له الحق ويستكبر عنه، يكون كفره كفر عناد، والذي لا يعرف الحق وهو الآن يعمل بعمل أهل الكفر، هذا كفره كفر جهل.

فالنصارى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام قبل بعثته يعتبرون ضالين، وبعد أن بعث وتبين لهم الحق يكونون مغضوبا عليهم؛ إذ لا فرق بينهم وبين اليهود، فكل منهم بشر بمحمد ﷺ، والله تعالى يقول في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام: {الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل} [الأعراف: ١٥٧]، معروف، وكفرهم على حد سواء، ولهذا لا يصلح أن نقول: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى} [المائدة: ٨٢]، فهذه لا تنطبق على زماننا هذا، ولا على ما قبله بأزمنة؛ لأن الله بين هذه العلة {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين} [المائدة: ٨٢ - ٨٣]، الآن منهم قسيسون ورهبان مستكبرون عن الحق، داعون إلى الضلال - والعياذ بالله - فلا يمكن أن ينطبق عليهم هذا الوصف، وعداوتهم الآن للمسلمين والذين آمنوا أيضا، خاصة للذين آمنوا لا للمسلمين فقط، ظاهرة، وهم لا ينسون أبدا غزوات المسلمين لهم في عقر دارهم، ولا ينسون أبدا الحروب الصليبية، ولا ينسون الإفتتاح العظيم الذي حصل في دارهم؛ فإن بلاد الروم كلها أخذت، والروم كلهم نصارى، فأخذت على أيدي المسلمين.

وفي الآية الكريمة دليل على الندم البالغ الذي يصيب هؤلاء في ذلك اليوم، وتمنيهم لو أنهم رجعوا إلى الدنيا؛ لقوله تعالى: {فلو أن لنا كرة فنكون من

=

=

المؤمنين}، وهذا التمني ليس بصحيح؛ فإنهم لو رجعوا لما كانوا مؤمنين؛ والدليل قوله تعالى: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون} [الأنعام: ٢٨].

* قال الله ﷻ: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١٠٣ - ١٠٤].

قال المصنف رحمه الله: [{إن في ذلك} المذكور من قصة إبراهيم وقومه].

يقول الله تعالى: {إن في ذلك} المشار إليه هو المذكور من قصة إبراهيم عليه السلام وقومه {لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}، وقد سبق الكلام عليها.

لكن يجب علينا أن نعرف أن الله تعالى إذا قال عن شيء: إن فيه آية، يجب ألا نأخذه مأخذ الظاهر فقط، بل يجب أن نتأمل ما هذه الآيات.

وقوله: {في ذلك لآية} هل المراد بذلك جملة القصة، أم في كل جزء من القصة؟

فنقول: إن الإشارة إلى المجموع بلا شك، ففي كل قطعة منها آية، وفي اجتماع هذه القطع بعضها إلى بعض أيضا آية، فتكون الآية موزعة على كل قطعة، ويكون أيضا اجتماع هذه الأشياء جميعا فيه آية.

وإنما المهم أن الله تعالى إذا قال: {إن في ذلك لآية} يجب عليك أن تتأمل وتتفكر وتعتبر؛ لتظهر لك هذه الآية.

وقوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين} الضمير في قوله: {وما كان أكثرهم} الراجح أنه يعود إلى من كانوا في عهد النبي ﷺ.

و(ما) فيها قولان:

الأول: أنها حجازية على الصواب، وليست هي العاملة، بل الصواب أن الذي عمل (كان)؛ لأنك إذا جعلت (ما) هي العاملة صارت (كان) زائدة، والأصل عدم

=

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥).

{كَذَّبَتْ قَوْم نُوح الْمُرْسَلِينَ} بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيء بِالتَّوْحِيدِ أَوْ لِأَنَّهُ لِطُولِ لُبْثه فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُل وَتَأْنِيث قَوْم بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ وَتَذْكِيره بِاعْتِبَارِ لَفْظه.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦).

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} نَسَبًا {نُوح أَلَا تتقون} الله

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧).

{إِنِّي لَكُمْ رَسُول أَمِين} عَلَى تَبْلِيغ مَا أرسلت به.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨).

{فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ} فِيمَا آمُركُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد الله وَطَاعَته.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩).

{وَمَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ} عَلَى تَبْلِيغه {مِنْ أَجْر إن} ما {أجري} أي ثوابي {إلا على رب العالمين}.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠).

{فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ} كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا.

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١).

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ} نُصَدِّق {لَك} لِقَوْلِك {وَاتَّبَعَك} وَفِي قِرَاءَة وَأَتْبَاعك جَمْع

=

الزيادة.

والثاني: أنها نافية، فيكون قوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين} يعني: لم يكن أكثرهم مؤمنا.

تَابِع مُبْتَدَأ {الْأَرْذَلُونَ} السَّفَلَة كالحاكة والأساكفة.

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢).

{قال وما علمي} أي علم لي {بما كانوا يعملون}.

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣).

{إِنْ} مَا {حِسَابهمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي} فَيُجَازِيهِمْ {لو تشعرون} تعلمون ذلك ما عبدتموهم.

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤).

{وما أنا بطارد المؤمنين}.

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥).

{إِنْ} مَا {أَنَا إِلَّا نَذِير مُبِين} بَيِّن الإنذار.

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦).

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوح} عَمَّا تَقُول لَنَا {لَتَكُونَن مِنْ الْمَرْجُومِينَ} بِالْحِجَارَةِ أَوْ بالشتم.

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧).

{قال} نوح {رب إن قومي كذبون}.

فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨).

{فافتح بيني وبينهم فتحا} أي احكم {ونجني ومن معي من المؤمنين.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩).

قال تعالى {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْك الْمَشْحُون} الْمَمْلُوء مِنْ النَّاس وَالْحَيَوَان وَالطَّيْر.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠).

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْد} بَعْد إنْجَائِهِمْ {الْبَاقِينَ} مِنْ قومه.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١).

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٠٥]، أي:"كَذَّبت قوم نوح رسالة نبيهم، فكانوا بهذا مكذبين لجميع الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل".

قال مقاتل: يعني: كذبوا نوحا وحده".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {كذبت قوم نوح} رسل الله الذين أرسلهم إليهم لما".

قال الزجاج:"دخلت «التاء» و «قوم نوح» مذكرون، لأن المعنى: كذبت جماعة قوم نوح، وقال: «المرسلين»، ويجوز أن يكونوا كذبوا نوحا وحده، ومن كذب رسولا واحدا من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل، وجائز أن يكون كذبت جميع الرسل".

عن أنس أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل نوح عليه السلام".

قال يزيد الرقاشي: "إنما سمي نوحا لطول ما ناح على نفسه".

قال ابن عباس:"بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس ونموا".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٠٦]، أي:"إذ قال لهم أخوهم نوح: ألا تخشون الله بترك عبادة غيره؟".

قال الطبري:"فتحذروا عقابه على كفركم به، وتكذيبكم رسله".

=

=

قال الزجاج:"قيل {أخوهم}، لأنه منهم، وكل رسول يأتي بلسان قومه ليوضع لهم الحجة ويكون أبين لهم".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: ١٠٧]، أي:"إني لكم رسول أمين فيما أبلغكم".

قال الطبري: أي:"{إني لكم رسول} من الله {أمين} على وحيه إلي، برسالته إياي إليكم".

قال السمعاني:"أي: أمين فيما بينكم وبين الله تعالى، وفي بعض التفاسير: أن نوحا كان يسمى الأمين قبل أن يبعثه الله".

قال الزمخشري:"كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة، كمحمد ﷺ في قريش".

عن عبيد بن عمير الليثي، "أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم كانوا يبسطونه، -يعنى نوحا عليه السلام- فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق، قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية وعظمت فيهم في الأرض الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنونا، لا يقبلون منه شيء، حتى شكا ذلك من أمرهم نوح ﷺ إلى الله ﷻ وقال: كما قص الله علينا في كتابه".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٠٨]، أي:"فاجعلوا الإيمان وقاية لكم من عذاب الله وأطيعوني فيما آمركم به من عبادته وحده".

قال الطبري:"فاتقوا عقاب الله أيها القوم على كفركم به، وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم باتقائه".

قال السمعاني:"أي: اتقوا الله بترك الشرك، وأطيعون فيما آمركم [به]".

قال الزمخشري: أي:"{وأطيعون} في نصحى لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق

=

=

عليه على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعنى: دعاءه ونصحه".

قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء: ١٠٩]، أي:"وما أطلب منكم أجرًا على تبليغ الرسالة".

قال السمعاني:"أي: من جعل".

قال الطبري:"يقول: وما أطلب منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاء عقاب الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، من ثواب ولا جزاء".

عن ابن عباس:" {أجر}، يقول: عرضا من عرض الدنيا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٠٩]، أي:"ما أجري إلا على رب العالمين، المتصرف في خلقه".

قال الطبري: يقول: " {إن أجري إلا على رب العالمين} دونكم ودون جميع خلق الله".

قال السمعاني:"أي: ثوابي، قال أهل العلم: ولا يجوز للنبي أن يأخذ جعلا على النبوة؛ لأنه يؤدي إلى تنفير الناس عن قبول الإيمان، ويجوز أن يأخذ الهدية؛ لأنه لا يؤدي إلى التنفير".

عن مجاهد: " {إن أجري إلا على الله}، قال: جزائي".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١١٠]، أي: فاحذروا عقابه، وأطيعوني بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه".

قال الطبري: يقول:"فاتقوا عقاب الله على كفركم به، وخافوا حلول سخطه بكم على تكذيبكم رسله، وأطيعون: يقول: وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم بإخلاص العبادة لخالقكم".

قال السمعاني:"أعاده تأكيدا".

قال الزمخشري:"فاتقوا الله في طاعتي، وكرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم،

=

=

مع تعليق كل واحدة منهما بعلة، جعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم، وفي الثاني حسم طمعه عنهم".

قوله تعالى: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)} [الشعراء: ١١١]

قال له قومه: كيف نصدِّقك ونتبعك، والذين اتبعوك أراذل الناس وأسافلهم؟

قال الطبري: "قالوا: أنؤمن لك يا نوح، ونقر بتصديقك فيما تدعونا إليه، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات".

قال الزجاج:"قيل في قوله: «الأرذلون»: نسبوهم إلى الحياكة والحجامة، والصناعات لا تضر في باب الديانات".

قال الواحدي:"{واتبعك الأرذلون}، يعني: السلفة والحاكة".

قال السمعاني:"في التفسير: أنهم الحاكة، والحجامون، والأساكفة ومن أشبههم، وقيل: إنهم أسافل الناس".

قال الزمخشري:"الرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله ﷺ، فلما قال: «ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك»".

عن مجاهد، قوله: "{واتبعك الأرذلون}، قال: الحواكون".

عن قتادة، قوله: "{أنؤمن لك واتبعك الأرذلون}، يقول: سفلة الناس وأراذلهم".

ويقرأ «وأتباعك الأرذلون». قال الزجاج:"وهي في العربية جيدة قوية لأن واو الحال تصحب الأسماء أكثر في العربية، لأنك تقول: جئتك وأصحابك الزيدون، ويجوز: وصحبك الزيدون، والأكثر جئتك وقد صحبك الزيدون".

=

=

قوله تعالى: {قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢)} [الشعراء: ١١٢]

فأجابهم نوح عليه السلام بقوله: لست مكلفًا بمعرفة أعمالهم، إنما كُلفت أن أدعوهم إلى الإيمان. والاعتبار بالإيمان لا بالحسب والنسب والحِرف والصنائع.

قال الطبري: "قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، ولم أكلف علم باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فمن أظهر حسنا ظننت به حسنا، ومن أظهر سيئا ظننت به سيئا".

قال السمعاني:"معنى قول نوح: «أنه لا علم لي بصناعتهم»، وإنما أمرت أن أدعوهم إلى الله، فمن أجاب قبلته".

قال الزمخشري: يقول:"وأى شيء علمى؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا- مع استرذالهم- في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى الله عنهم في قوله: {الذين هم أراذلنا بادي الرأي}. ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم «الأرذلين»، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم".

قال ابن زيد:"«يعملون» و «يصنعون» واحد".

قوله تعالى: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي} [الشعراء: ١١٣]، أي:"ما حسابهم للجزاء على أعمالهم وبواطنهم إلا على ربي المطَّلِع على السرائر".

قال الطبري: "يقول: إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني إلا على ربي، فإنه يعلم سر أمرهم وعلانيته".

قال السمعاني:"{إن حسابهم} أي: أعمالهم {إلا على ربي}".

قال الزمخشري:"يقول: ما على إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيئ، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه، وما

=

=

أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز".

قال ابن جريج:"هو أعلم بما في نفوسهم".

قوله تعالى: {لَوْ تَشْعُرُونَ} [الشعراء: ١١٣]، أي:"لو كنتم تشعرون بذلك لما قلتم هذا الكلام".

قال السمعاني:"أي: لو تعلمون".

قال الزمخشري: يقول:"لو تشعرون ذلك، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم، وقصد بذلك رد اعتقادهم وإنكار أن يسمى المؤمن رذلا، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا، فإن الغنى غنى الدين، والنسب نسب التقوى".

قال زر بن حبيش: "شهدت صاحبنا وابصة بن معبد وسمع رجلين يتنازعان في أهل العراق وأهل الشام، يعيب أحدهما هؤلاء ويعيب الآخر هؤلاء. قال وابصة: فهلا يقولون غير ذلك. قال: وماذا نقول؟ قال: يقولان: {إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون}".

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١١٥]، أي:"وما أنا بطارد الذين يؤمنون بدعوتي، مهما تكن حالهم؛ تلبية لرغبتكم كي تؤمنوا بي".

قال الطبري: يقول:"وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعني على التصديق بما جئت به من عند الله".

قال الزمخشري:"يريد: ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا في إيمانكم وما على إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل، ثم أنتم أعلم بشأنكم".

عن سعيد بن جبير، {المؤمنين}، يعني: المصدقين".

قوله تعالى: {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الشعراء: ١١٥]، أي:"ما أنا إلا نذير بيِّن الإنذار".

=

=

قال الطبري: "يقول: ما أنا إلا نذير لكم من عند ربكم أنذركم بأسه، وسطوته على كفركم به {مبين}: يقول: نذير قد أبان لكم إنذاره، ولم يكتمكم نصيحته".

عن ابن عباس، "{نذير}، قال: نذير من النار".

قوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)} [الشعراء: ١١٦]

عدل قوم نوح عن المحاورة إلى التهديد، فقالوا له: لئن لم ترجع -يا نوح- عن دعوتك لتكوننَّ مِنَ المقتولين رميًا بالحجارة.

قال الطبري:"قال لنوح قومه: لئن لم تنته يا نوح عما تقول، وتدعو إليه، وتعيب به آلهتنا، لتكونن من المشتومين، يقول: لنشتمك".

قال ابن كثير:"لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ} أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} أي: لنرجمنَّك".

قال مقاتل: {مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، "يعني: من المقتولين".

قال الزجاج:"أي: بالحجارة".

عن قتادة، قوله: "{لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين}، أي: بالحجارة".

وقال السدي:"بالشتيمة".

عن عبد بن عمير الليثي، "أنه كان يحدث أنه بلغه أنهم يبطشون به فيخنقونه. حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ} [الشعراء: ١١٧]، أي:"رب إن قومي أصروا على تكذيبي".

قال الطبري: أي:"{كذبون} فيما أتيتهم به من الحق من عندك، وردوا علي

=

=

نصيحتي لهم".

قال الزمخشري:"ليس هذا بإخبار بالتكذيب، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظونى وآذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك".

عن ابن عمير الليثي: "حتى إذا تمادوا يعنى قوم نوح في المعصية وعظمت فيهم في الأرض الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليهم منه البلاء وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا لا يقبلون منه شيء حتى شكي ذلك من أمرهم نوح إلى الله ﷻ فقال كما قص الله علينا في كتابه: رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا إلى آخر القصة إلى آخر السورة فلما شكي نوح عليه السلام ذلك منهم إلى الله واستنصره عليهم أوحى الله إليه أن اصنع الفلك".

قوله تعالى: {فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا} [الشعراء: ١١٨]، أي:"فاحكم بيني وبينهم حكمًا تُهلك به مَن جحد توحيدك وكذَّب رسولك".

قال الطبري:"يقول: فاحكم بيني وبينهم حكما من عندك تهلك به المبطل، وتنتقم به ممن كفر بك وجحد توحيدك، وكذب رسولك".

قال قتادة:"فاقض بيني وبينهم قضاء".

قال ابن زيد:"يقول: اقض بيني وبينهم".

قال الزمخشري: يقول:"ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكم بيني وبينهم، و «الفتاحة»: الحكومة. والفتاح: الحاكم، لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا، لأنه يفصل بين الخصومات".

قال ابن عباس: "ما كنت أدري ما قوله: «افتح بيننا وبين قومنا بالحق»، حتى سمعت بن ذي يزن يقول: تعالى أفاتحك. يعني: تعال أخاصمك".

=

=

قوله تعالى: {وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١١٨]، أي:"ونجني ومَن معي من المؤمنين مما تعذب به الكافرين".

قال الطبري:"يقول: ونجني من ذلك العذاب الذي تأتي به حكما بيني وبينهم، والذين معي من أهل الإيمان بك والتصديق لي".

قوله تعالى: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)} [الشعراء: ١١٩]

فأنجيناه ومَن معه في السفينة المملوءة بصنوف المخلوقات التي حملها معه.

قال الطبري:"يقول: فأنجينا نوحا ومن معه من المؤمنين -حين فتحنا بينهم وبين قومهم، وأنزلنا بأسنا بالقوم الكافرين- في الفلك المشحون، يعني في السفينة الموقرة المملوءة".

قال ابن كثير:"أي: نجيناه ومن معه كلهم، و «المشحون»: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين".

عن ابن عباس، قوله: "{في الفلك المشحون}، قال: يعني الموقر".

وقال ابن عباس:"كان طول سفينة نوح عليه السلام أربعمائة ذراع وطولها في السماء ثلاثون ذراعا".

عن مجاهد، قوله: "{الفلك المشحون}، قال: المفروغ منه المملوء". وفي رواية:"المفروغ منه تحميلا".

عن قتادة، قوله:"{الفلك المشحون}، قال: هو المحمل".

قال الزجاج:"{المشحون}: المملوء، يقال: شحنته أي ملأته".

قال قتادة:"ذكر لنا أنه لم ينج ممن في السفينة إلا نوح وثلاثة بنين له ونساؤهم فجميعهم ثمانية".

قال ابن عباس:"كان في سفينة نوح ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا".

=

=

قال مطر:"كان مع نوح في السفينة سبعة نوح وثلاثة أولاده وكنائنه ثلاث".

قال محمد بن إسحاق:"ما على وجه الأرض من الخلق شيء فيه الروح أو شجر فلم يبق من الخلائق إلا نوح ومن معه في الفلك الأعوج بن أعنق فيما يزعم أهل الكتاب وكان عوج بن سيحان وأمه أعنق جبارا خلقه الله كما شاء أن يخلقه له وكانت أمه أعنق من بنات آدم فكانت فيما يزعمون من أحسن الناس فأما أهل الكتاب يقولون في ولادته أمرا لا نحب أن نقوله وكان فيما يزعمون السحاب يكون على محجز إزاره وانه كان يصوب يده

فيأخذ الحوب من أسفل البحر ثم يشويه بيده بقلب الشمس حتى ينضجه ثم يأكله وكان عمره ثلاثة آلاف سنة وستمائة سنة ولد في دار آدم ثم عاش حتى قتله موسى بن عمران ﷺ".

قوله تعالى: {ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)} [الشعراء: ١٢٠]

ثم أغرقنا بعد إنجاء نوح ومن معه الباقين، الذين لم يؤمنوا مِن قومه وردُّوا عليه النصيحة.

قال الطبري: أي: "من قومه الذين كذبوه، وردوا عليه النصيحة".

قال ابن كثير: أي: "وأغرقنا مَنْ كذبه وخالف أمره كلهم".

عن عوف أبي شداد: "غرق الماء الجبال فصار فوقها ثمانين سيلا. وذكر أيضا حديث المرأة معها الصبي".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١)} [الشعراء: ١٢١]

إن في نبأ نوح وما كان من إنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين لَعلامة وعبرةً عظيمة لمن بعدهم، وما كان أكثر الذين سمعوا هذه القصة مؤمنين بالله وبرسوله وشرعه.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ١٢١]، أي:"إن في نبأ نوح وما كان من إنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين لَعلامة وعبرةً عظيمة لمن بعدهم".

=

=

قال مقاتل:"يقول" إن في هلاك قوم نوح بالغرق لعبرة لمن بعدهم من هذه الأمة ليحذروا مثل عقوبتهم".

قال الطبري: يقول:"إن فيما فعلنا يا محمد بنوح ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسطوتنا، بقومه الذين كذبوه، لآية لك ولقومك المصدقيك منهم والمكذبيك، في أن سنتنا تنجية رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين بهم من قومهم، وإهلاك المكذبين بالله، وكذلك سنتي فيك وفي قومك".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٢١]، أي:"وما كان أكثر الذين سمعوا هذه القصة مؤمنين بالله وبرسوله وشرعه".

قال مقاتل:"يعني: مصدقين بتوحيد الله- ﷻ- يقول: كان أكثرهم كافرين بالتوحيد ولو كان أكثرهم مؤمنين لم يعذبوا في الدنيا".

قال الطبري: "يقول: ولم يكن أكثر قومك بالذين يصدقونك مما سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا".

قال أهل لعلم:"فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبي، في سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١٢١ - ١٢٢]. وبالجملة: فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول إنه رسول الله، وأن أقواما اتبعوهم، وأن أقواما خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم: هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها. ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء

=

=

الطب، كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه. ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم - علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة: منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم. ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه، - كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم - عرف صدق الرسل".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)} [الشعراء: ١٢٢]

وإن ربك لهو العزيز في انتقامه ممن كفر به وخالف أمره، الرحيم بعباده المؤمنين.

قال الطبري: أي:"{العزيز}، في انتقامه ممن كفر به، وخالف أمره. {الرحيم} بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته".

قال محمد بن إسحاق: "{العزيز} في نصرته ممن كفر إذا شاء".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال أهل العلم:"وربما عبر عن المبتلي بالعزيز المقتدر، كقوله: {فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} [القمر: ٤٢]، كما أشار إليه في سورة الشعراء حيث قال بعد كل قصة فيها تعذيب أعدائه الكافرين، ورحمة أوليائه المؤمنين: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٩] حتى تكرر ذلك ثمان مرار بعد ثمان قصص، فكان فيه تنبيه لنا على تسمية العزيز القدير بالنظر إلى انتقامه من الكافرين، وإنزاله بهم المضار والعقوبات، وتسميته بالرحيم بالنظر إلى المؤمنين كقوله: {وكان بالمؤمنين رحيما} [الأحزاب: ٤٣]".

قال ابن عثيمين:"ختم سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١] فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة

=

=

ورحمة فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته ونجى رسله وأتباعهم برحمته والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود وهي غاية الفعل لا أنها أمر اتفاقي".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥)} [الشعراء: ١٠٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كذبت قوم نوح المرسلين} بتكذيبهم له لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل، وتأنيث (قوم) باعتبار معناه وتذكيره باعتبار لفظه].

قوله: {كذبت قوم} ذكر المصنف جوابا على تأنيث الفعل مع أن الفاعل مذكر.

قوله: {نوح} نوح عليه الصلاة والسلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، يؤخذ من قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: ١٦٣]، أما آدم فهو أول نبي نبئ؛ فإنه كان نبيا بلا شك، ونوح كان أول رسول، وإنما كان آدم نبيا للضرورة؛ لأنه لا بد أن يتعبد لله، ولا عبادة لله إلا بما شرع، ولا شرع إلا بوحي، لكنه لم يرسل؛ لعدم دعاء الحاجة إلى ذلك؛ إذ الناس كانوا متفقين، فلما اختلفوا بعث الله الرسل: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين}، في قراءة ابن عباس: "كان الناس أمة واحدة فاختلفوا"، وهذه الجملة لا داعي لها؛ لأنها مأخوذة من قوله: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣].

فعلى كل حال، في عهد آدم لم يكن حاجة إلى الرسالة، إنما النبوة فقط، وهو يتعبد لله وأبناؤه، بل أولاده يتبعونه في ذلك على وجه الإتفاق بينهم.

ولما كثرت الأمة وانتشرت في الأرض اختلفوا، فصارت الحاجة والضرورة داعية إلى إرسال الرسل، فبعث الله تعالى نوحا، وهو أول رسول أرسله الله إلى الأرض،

=

=

كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} [النساء: ١٦٣]، وكما هو صحيح صريح في حديث الشفاعة: "ولكن ائتوا نوحا، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض".

وإذا قلنا: إنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فهل نقول: إنه أرسل إلى الناس كافة، فيحتاج حينئذ أن نجمع بينه وبين قول النبي ﷺ: "وبعثت إلى الناس كافة"؟ **قلنا**: هو أول رسول؛ لأنه لو شاركه غيره ما كان هو الأول، لكان هو وغيره هو الأول. وقد يقول قائل: لعل أحدا بعث في حياة نوح، لكن في غير مكانه، وقد نقول بظاهر الأول، وإنه إنما بعث إلى الناس لأن الناس كانوا في ذلك الوقت أمة واحدة قليلين، لم ينتشروا كثيرا في الأرض، فكان هؤلاء الناس بمنزلة القوم في الرسل الذين بعدهم، وعلى هذا الطريق نسلم من الإشكال الآخر، وهو أن الله تعالى أغرق جميع أهل الأرض في عهد نوح، إلا من آمن معه، إذ يقال: كيف يغرقون ولم يبعث إليهم رسولا؟ فلولا أن نوحا كان رسولا إليهم ما أغرقوا جميعا، وإن كان من الجائز أن يقال: لعلهم أيضا - الذين بعث إليهم في زمنه - كذبوا رسله، لكن ظاهر الآيات أن الذين غرقوا إنما غرقوا بسؤال نوح.

وعلى كل حال، هذا إشكال دائر بين العلماء من قديم، وقد أجابوا عن ذلك بأن نوحا عليه الصلاة والسلام كانت رسالته إلى الناس كافة في ذلك الوقت؛ عرضا لا أصلا.

وفرق بين ما يأتي إلى أمم مختلفة أرسل إلى كل أمة رسول، ثم يقال لهؤلاء الأمم كلهم: يجب أن تتبعوا هذا الرسول، لتكون الأمة واحدة، وبين من لم يبعث إلا في قومه فقط؛ في أمة واحدة فقط، فإن كونه مبعوثا إليهم جميعا على سبيل الإتفاق والعرف لا على سبيل القصد، وبهذا تظهر الميزة بين محمد ﷺ وبين نوح عليه الصلاة والسلام ونسلم من الإشكال.

=

=

فنقول: نوح أرسل إلى قومه وليس هناك أمم مختلفة يجب أن يتوحدوا على رسول كما كان في عهد النبي محمد ﷺ، وكونه مرسلا إلى جميع الناس في ذلك الوقت ليس من باب القصد، بل هو من باب الإتفاق والعرض، أي أنه اتفق أن الناس كلهم انحصروا في قوم نوح، فهنا ما قصد من رسالته أن تكون شاملة لجميع الأمم، بخلاف رسالة النبي ﷺ فإنه قصد أن تكون شاملة، وأن يتوحد اليهود والنصارى والمجوس والوثنيون، كلهم يتوحدون في أمة واحدة، بفرق بين العمومين: العموم القصدي والعموم الإتفاقي.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لهم: إن قومه كذبوا المرسلين، ونحن نعلم أنهم ما كذبوا إلا رسولا واحدا، فليس قبل نوح أحد حتى نقول: كذبوا هذا وهذا.

وكيف نجمع بين ما جاء في حديث الشفاعة: "فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض"، وبين قوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} [الشعراء: ١٠٥]، مع أنه أول الرسل؟

يقول المصنف في الجواب عن هذا: [بتكذيبهم له لاشتراكهم - أي: المرسلين - في المجيء بالتوحيد]؛ إذ اشتركوا كلهم في المجيء بتوحيد الله ﷻ والقيام بطاعته، فصاروا جنسا واحدا، وتكذيب واحد من الجنس تكذيب للجميع؛ إذ إنهم لم يكذبوا نوحا لأنه نوح، لكن كذبوه لأنه جاء بالتوحيد، فلو جاء كل نبي بالتوحيد لكذبوه، وعلى هذا فإذا جاءهم هود كذبوه، إذ لا فرق، وإذا جاءهم صالح كذبوه، وإذا جاءهم موسى كذبوه، وإذا جاءهم محمد كذبوه؛ لأنهم كذبوا الجنس لا الشخص؛ لأنه أتى بما يخالف ما هم عليه فكذبوه، لذلك يكونون مكذبين لجميع الرسل.

ولهذا نقول للنصارى الذين يدعون أنهم مؤمنون بعيسى عليه الصلاة والسلام: إنكم كافرون به، مكذبون له؛ لأنهم كذبوا محمدا ﷺ، لا سيما وأن رسولهم

=

=

عيسى عليه الصلاة والسلام بشرهم به كما حكى عنه سبحانه وتعالى في قوله: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦]، ولا شك أنه لن يبشرهم بمن ليس لهم.

أرأيت لو أن مولودا لفلان ولد فهل آتي إليك وأقول: أبشر بمولود فلان وليس بينك وبينه ارتباط؟

ولو أن إنسانا قدم ليوزع جوائز على آل فلان، فهل أبشرك بقدومه؟ ! ولو حدث هذا لكان سفها.

إذن لم يبشرهم عيسى إلا لأنه رسول إليهم، ولهذا قال: {ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} [الصف: ٦]، يعني: عينه بالإسم حتى لا يبقى فيه إشكال فيما بعد، ولكن - والعياذ بالله - هم كفروا، وكفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام، فيكونون كافرين بعيسى بن مريم.

وكذلك اليهود كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام كفر بموسى وبالتوراة التي وجد فيها رسول الله مكتوبا عندهم: {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} [البقرة: ١٤٦]، مثلما أن الإنسان يعرف ابنه فهم يعرفون محمدا ﷺ بوصفه، ولكنه الإستكبار والعياذ بالله.

فإن سأل سائل: إن كان نوح نبئ ولم يرسل برسالة، فكيف اتبعه أولاده؟

فالجواب: رأوا ما يفعل ففعلوا؛ لأنه عادة أن الإنسان يقلد من هو أكبر منه، وليس هناك موانع وفوارق تمنعهم وتصرفهم عن تقليده.

فإن كان في عبادته أشياء قولية تحتاج إلى تفسير، فإنه سيفهمهم من فعله ومن قوله، لكن هذا لا يعني أنه صار رسولا؛ لأن المرسل هو المبلغ المكلف، أما هذا فليس بمكلف، ولهذا نقول مثلا: إن الجن لم ينتفعوا برسالة نوح؛ إذ المعروف

=

=

عند أهل العلم أنه لم يرسل إليهم، وأنه ما أرسل إلى أحد من الجن إلا محمد ﷺ، مع أنهم يقولون: {ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه} [الأحقاف: ٣٠]، وهذا يدل على أنهم كانوا منتفعين بكتاب موسى.

فإن قيل: وما دليل أهل العلم على أن الرسل السابقين لم يرسلوا إلى الجن ما دام أن الله سبحانه وتعالى يقول: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]؟

قلنا: هم يقولون: إن النبي يبعث إلى قومه، وقومه قبيلته وما يتصل بهم، والجن ليسوا من جنسه حتى يكونوا من قومه.

لكن رسالة النبي ﷺ إلى الجن لا تدل على عموم رسالته إلى الجن؛ لأن الجن ليسوا من الناس، لكن في كون الرسول عليه الصلاة والسلام يجتمع بهم ويواعدهم، ويقرأ عليهم القرآن، ويخبرهم بما فيه يدل على أنه مرسل إليهم.

فإن قيل: قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]، هل يعني أن الجن يعبدون بشرع؟

قلنا: الأصل أن من يعبدون الله ﷻ أنهم يعبدون بالشرع، فهم يتعبدون بالشرع بلا شك.

وهل منهم رسل أو ليس منهم رسل؟

هذه المسألة موضع نزاع بين العلماء؛ فمنهم من قال: منهم رسل؛ لقوله: {يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي} [الأنعام: ١٣٠]، فقال: {رسل منكم}، والرسول لا بد أن يكون من جنس من أرسل إليه؛ لقوله: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون} [الأنعام: ٩]، ولا يمكن أن يرسل إلى الجن بشر.

ومنهم من قال: إن قوله: {منكم} يعود إلى المخاطبين باعتبار المجموع:

=

=

{يامعشر الجن والإنس} يخاطب اثنين، والضمير في: {منكم} يعود إلى أحد الإثنين، مثلما قالوا - على زعمهم-: {مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢١) يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} [الرحمن: ١٩ - ٢٢]، وزعموا أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح.

وعلى كل حال فإن عود الضمير على واحد من المجموع إذا خوطب الجميع شائع في اللغة.

وبعضهم يقول: إن المراد بالرسل هنا النذر، فقلنا: رسل؛ لمشابهتهم له، والنذر لا شك أنهم يأتون إلى الجن كما يأتون إلى الإنس.

والراجح أنه ليس منهم رسول؛ لقول الله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا} [يوسف: ١٠٩]، والجن ليسوا من (رجالا).

والنبي غير الرسول، فالنبي من أوحي إليه؛ لأن الوحي الذي يشبه بوحي محمد عليه الصلاة والسلام هو من نوح فأقل فما دونه، فالوحي المشبه بوحي الله إلى رسوله محمد ﷺ هو ما كان إلى نوح ومن بعده؛ لأنه وحي مقرون بالإرسال.

ونقول: إن الله تعالى بشر النصارى على لسان عيسى نبيكم بمحمد، فالذي لا يعتقد إلا أنه مخبر بأنه سوف يبعث رسولا؛ فإن هذا من ضلال قومه الذين أضلوه، وإلا ما عندنا شك أن عيسى بشر قومه بمحمد عليه الصلاة والسلام حتى يتبعوه، وإلا ما الفائدة من البشارة؟ !

ومن كذب أي رسول فهو منكر لله، أو واصف الله بما لا يستحق؛ لأن الله تعالى يؤيد الرسول بالآيات، فإذا كان كاذبا لزم أن يكون الله تعالى غير موجود، أو أنه تعالى - والعياذ بالله - خائن أو ما أشبه ذلك.

* قال الله ﷻ: {إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون (١٠٦) إني لكم رسول أمين (١٠٧) فاتقوا الله وأطيعون (١٠٨) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على

=

=

رب العالمين (١٠٩) فاتقوا الله وأطيعون} [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إذ قال لهم أخوهم} نسبا {نوح ألا تتقون} الله، {إني لكم رسول أمين} على تبليغ ما أرسلت به، {فاتقوا الله وأطيعون} فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته، {وما أسألكم عليه} على تبليغه {من أجر إن} ما {أجري} أي ثوابي {إلا على رب العالمين (١٠٩) فاتقوا الله وأطيعون} كرره تأكيدا].

قوله: {ألا}: في الأصل تكون للعرض، وهو الطلب برفق، كما في قوله تعالى: {فقربه إليهم قال ألا تأكلون} [الذاريات: ٢٧]، ولكن المراد به هنا التحضيض، وهو الطلب بحث.

قولـه: {ألا تتقون} أي: ألا تتقون الله، يعني أنه يحثهم على أن يتقوا الله ﷻ ويتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

ثم بين لهم أنه إنما قام بهذه الموعظة لأنه رسول أمين: {إني لكم رسول أمين}، فقوله: {إني لكم} يعني: لا لغيركم، والخطاب لقومه، وفي قوله: {لكم} ولم يقل: إني رسول، حض لهم على قبوله؛ لأنه إذا كان رسولا مطلقا قد يقولون: إنك لم ترسل إلينا، فإذا قال: {لكم} تعين.

ثم إنه إذا قال: {لكم} يشعرهم بأن الله تعالى قد اعتنى بهم، حيث بعث إليهم هذا الرسول، فيكون فيه هنا حمل على أن يقبلوا رسالته.

وقول: {رسول} أي: من الله، وهذا معروف من سياق هذه الآيات، ومن غيرها من الآيات الأخرى.

وقولـه: {أمين} الأمين: هو من كان محل أمانة، والرسل - عليهم الصلاة والسلام- كلهم محل أمانة لرسالتهم، كما قال الله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الأنعام: ١٢٤].

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [على تبليغ ما أرسلت به]، واضح، فالذي ائتمنه على ذلك

=

=

هو الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى: {رسول أمين} إظهار لوصفه الخاص المناسب للمقام، وهي الرسالة، بأمانة لا خيانة فيها، لا بزيادة ولا بنقص.

وقد يقول قائل: أي فائدة لوصفه نفسه بأنه: {رسول أمين} وهو يخاطب قوما قد أنكروه، فإذا كانوا قد أنكروا رسالته فبالأولى ينكرون أمانته؟

والجواب: أنه لم يدع أنه رسول أمين فقط، ولكنه جاءهم بآيات، فـ"ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر"؛ لأن الله سبحانه وتعالى عليم حكيم ولا يمكن أن يرسل أحدا إلى أقوام فيسفه أحلامهم، ويفسد أديانهم، إلا ومعه من الآيات ما يؤمنون على مثله لو لم يستكبروا.

وقوله تعالى: {إني لكم رسول أمين (١٠٧) فاتقوا الله} هذا في المعنى مكرر مع ما قبله، لكنه في الأسلوب أشد من الأول، فالأول حض بصفة العرض: {ألا تتقون}، وهنا أمر: {فاتقوا الله}، وفي هذا دليل على قوة جانب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بحيث توصلوا إلى أن يأمروا أقوامهم، مع أنهم في الواقع يتحدثون من مصدر الملتمس، لكن هم بأنفسهم أعزاء، وقد يكون أنهم يتكلمون من مصدر القوة، أما هم بالنسبة لإخوانهم فإن أقوامهم مستكبرون عنهم، ليسوا مبالين بهم.

قوله تعالى: {وأطيعون}، وهم إذا اتقوا الله وأطاعوا رسوله، فقد حققوا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رسول الله، وهو أمرهم بهذا، ولا يتم الإسلام في أي زمان أو مكان إلا بذلك - شهادة أن لا إله إلا الله، وأن هذا رسول الله - أما بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام فتعين: وأن محمدا رسول الله.

قال المصنف: [فيما آمركم به]، أي: من توحيد الله وطاعته. وفي أمرهم بهذا إشارة إلى أنه أرسل بذلك، أي: أرسل بأن يأمرهم بتقوى الله؛ لأنه قال: {إني لكم رسول

=

=

أمين (١٠٧) فاتقوا الله}، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، يعني: هذه الرسالة التي أرسلت بها تتضمن التقوى، وطاعة الرسول؛ لأن طاعة الرسول طاعة للمرسل: {فاتقوا الله وأطيعون}.

قوله: {وما أسألكم عليه} أي: على ما قلت، أي: على تبليغ الرسالة، و (من): زائدة، و (أجر): اسم منصوب على أنه مفعول ثان لـ (أسألكم)، وهو منصوب بفتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وأتت (من) هنا في سياق النفي داخلة على نكرة؛ للتنصيص على العموم، يعني: من أجر قليل أو كثير، والمراد بالأجر هنا أجر الدنيا، وهو المعاوضة، يعني: ما قلت لكم: أعطوني أجرا، ولو أمرتكم بهذا لقيل: هذا رجل يريد أن يستجدي بما يدعيه من الرسالة.

وهناك أناس يتكلمون في المساجد، ويعظون الناس ويوجهونهم؛ فإذا انتهوا مدوا أيديهم يسألون الناس، وهؤلاء حالهم خلاف حال الرسل، ولهذا تجدون الناس لو كانوا قد تأثروا بموعظتهم الأولى، فإذا مدوا أيديهم بعد أن وعظوا ذهب كل ما كان في نفوسهم من هذا التأثر؛ لأن الإنسان إذا طلب الدنيا بما يراد به الآخرة، فسد أمره، {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار} [هود: ١٥ - ١٦].

ويستفاد من هذا: أن من طلب العلم الذي جاءت به الرسل لينال به أمرا من الدنيا، فليس طريقه طريق الرسل؛ لأن الرسل إنما يأمرون الناس وينهونهم؛ لما يرجونه من ثواب الله لا لما ينالونه من الأجر، ففي هذا دليل على وجوب تصليح النية لمن قام مقام الرسل بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

يقول المصنف: [{إن} ما {أجري}]، ففسر (إن) بـ (ما)، فهي نافية، وفسر

=

=

{أجري} بقوله: [ثوابي]، فالمعنى: ليس أجري عليكم ولا على غيركم من الخلق، وإنما هو: {على رب العالمين}، وهو الله سبحانه وتعالى، وفي هذا إخلاص المرء لله ﷻ وأنه لا يريد ثوابا من أحد ولا منالا إلا من الله، وفيه أيضا دليل على أن عمل الإنسان لينال الثواب ليس أمرا ممقوتا، بل هو طريق الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وأتباعهم.

وقوله: {رب العالمين} أي: مالكهم المدبر لهم بما يشاء، وأصل المالك: المتصرف في الشيء، ومنه سمي رب البيت، ورب البهيمة، ورب كذا، ويطلق بمعنى (صاحب) كقوله تعالى: {سبحان ربك رب العزة عما يصفون} [الصافات: ١٨٠]، ورب العزة يعني: صاحب العزة، ولا يمكن أن تكون الرب هنا مثل الرب في قول: ربكم، لأن العزة من صفات الله، ولا تكون مخلوقة.

فهنا: {رب العالمين} أي: خالقهم ومالكهم ومدبر أمرهم بما شاء، و (العالمين) معناها: كل ما سوى الله.

وقوله: {فاتقوا الله وأطيعون} كرر تأسيسا؛ لأنه بناه على قوله: {وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} يعني: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتقوا الله وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسا، ولا يستفاد المعنى المقصود منه لو حذف.

والفرق بين التأكيد والتأسيس: أن التأكيد لو حذف لاستفيد المعنى منه مما بقي دون التأكيد، أي أن المؤكد لا يستفاد منه سوى التأكيد، فلا يحمل معنى جديدا، أما التأسيس فيحمل معنى جديدا، وهو: وعلى أنني لا أريد الأجر، وإنما ألتمس الثواب من الله، فيجب عليكم أن تتقوا الله وتطيعوني.

ويستفاد من قوله: {فاتقوا الله وأطيعون} أن التقوى لا تضاف إلى المخلوق، بخلاف الطاعة، فلا بأس أن أقول: أنا أطعت فلانا، لكن لا يجوز أن تقول: اتق فلانا، بمعنى التقوى المستلزمة للتذلل.

=

=

* قال الله ﷻ: {قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون (١١١) قال وما علمي بما كانوا يعملون (١١٢) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١١٣) وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤) إن أنا إلا نذير مبين} [الشعراء: ١١١ - ١١٥].

قال المصنف رحمه الله: [{قالوا أنؤمن} نصدق {لك} لقولك {واتبعك} وفي قراءة: "وأتباعك" جمع تابع مبتدأ {الأرذلون} السفلة كالحاكة والأساكفة، {قال وما علمي} أي علم لي {بما كانوا يعملون (١١٢) إن} ما {حسابهم إلا على ربي} فيجازيهم {لو تشعرون} تعلمون ذلك ما عبتموهم، {وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤) إن} ما {أنا إلا نذير مبين} بين الإنذار].

قوله تعالى: {أنؤمن لك} إجابة صريحة قبيحة في الواقع؛ لأن الإستفهام هنا من إنكار، وإتيان الإستفهام من الإنكار والنفي أبلغ من النفي المجرد، يعني: كيف نؤمن لك، ولا يمكن أن نؤمن لك؟ وقوله: {لك} ما قال: بك، وقول المصنف: (لقولك) فيه نظر؛ لأنهم يريدون الإستكبار لا نفي مجرد التصديق، فيكون قولهم: {أنؤمن} ضمن معنى (ننقاد).

قوله: {واتبعك} حالية على تقدير (قد)، يعني: وقد اتبعك الأرذلون، يعني: لا يمكن أن نؤمن لك.

قوله: {واتبعك الأرذلون} أي الأنقصون من الخلق، وقوله: {واتبعك} فيها قراءتان: (وأتباعك) جمع: تابع، مبتدأ، و (الأرذلون) خبره، أما على قراءة {واتبعك} فـ (الأرذلون) فاعل.

والمعنى: أنهم قالوا: لو كان أتباعك الملأ والأشراف لاتبعناك، لكن أتباعك أراذل الناس، من الفقراء والسوقة، والذين لا يقدرون الأمور ولا يعرفونها؛ فهم أراذلهم من حيث المال - على زعمهم - ويمكن أن نقول: إنهم أراذلهم من حيث الثقافة أيضا والجاه والشرف، فهم أرذل الأراذل عندهم.

=

=

وهل هذا مانع، فهو يوجه الخطاب إليكم أيها الأكملون، فكيف تقولون: لا نؤمن واتبعك الأرذلون؟ فالخطاب موجه لكم؛ لأنكم لو آمنتم ما احتيج إلى توجيه الخطاب والأمر لكم بتقوى الله، وطاعته، ولكنكم معاندون.

وهنا قالوا: {واتبعك الأرذلون} على سبيل الإطلاق بدون إضافة إلى أحد، وفي سورة هود قالوا: {وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي} [هود: ٢٧]، فكانت العبارة هناك أهون من هذه من جهتين:

أولا: لأنهم أضافوا الأمر إليهم، وهنا أطلقوا.

ثانيا: أنهم هناك قالوا: {بادي الرأي} يعني: ولعله عند التأمل لا يكون الأراذل هم الأتباع، وهنا أطلقوا فما قالوا: {بادي الرأي} ولا آخر الرأي، فإما أن تكون هذه الآية قبل تلك أو تلك قبل هذه.

ويحتمل أن هذا قول طائفة، وهذا قالته طائفة أخرى، لكن حمله على حالين أحسن من حمله على طائفتين، فأول التبليغ يكون الإنكار أشد، و {الأرذلون} على العموم، ثم قالوا: {أراذلنا} للتخصيص.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما علمي} أي علم لي {بما كانوا يعملون}]، فقد يقال في بادئ الأمر: إن اعتذارهم منه يعني: كونهم آمنوا وهم على زعمكم {الأرذلون} أنا لا أدري أنهم الأرذلون؟ يعني: فأنا ما قصدتهم حتى آمنوا لعلم بهم، ولكن هكذا جرت الدعوة، فاتبعها هؤلاء، فهذا ما يتبادر إلى الذهن في أول الأمر.

ولكن الظاهر - والله أعلم - أن نفيه العلم هنا نفي للتبعية، يعني: أي شيء يكون علي وأي شيء يلحقني بعملهم؟ فلو كانوا هم الأراذل على زعمكم، فأنا لا يضرني ذلك.

قوله تعالى: {وما علمي} أي: ما حسابي، وما التبعة التي تلحقوني بها فيما كانوا يعملون؟

=

=

وقال المصنف: [{وما علمي} أي علم لي {بما كانوا يعملون}]، أي أنهم يدعون أنهم إنما تابعوه لينالوا بذلك جاها ومالا، فيكونون غير مخلصين في إيمانهم، فالمعنى: بما كانوا يعملونه من أعمال القلوب، على أن هذا ليس بظاهر، ولكن هذا خلاف الظاهر فيما يبدو.

بل إن المعنى: إن عملهم هذا ليس علي فيه تبعة مهما عملوا، ولو كانوا في زعمكم الأراذل؛ فإن ذلك لا يلحقني بشيء ما دامت رسالتي قائمة، وآياتي بينة، فالحجة عليكم قائمة، أما هم حتى وإن كانوا الأراذل عندكم، فحسابهم على ربي.

و {إن} بمعنى (ما): فما حسابهم - كما قال المصنف- {إلا على ربي} فيجازيهم، وأما أنا فما علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس علي أيضا من حسابكم من شيء.

أما كون عمل هؤلاء بالقلوب فليس بظاهر؛ يعني: حسابهم على ربي حتى لو عملوا هذه الأعمال؛ لأن أعمال البواطن لا يمكن أن يقدحوا بها، ولو قدحوا بهم ما قبل، فيقول: حسابهم على الله ليس علي، وأنا ما علي إلا تبليغ الرسالة.

وقوله: {لو تشعرون} الشعور هنا بمعنى: العلم، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ما عبتموهم]، يعني: ما قدحتم فيهم، يعني: لو أنكم تشعرون بالأمر وتعلمونه ما عبتموهم بقولكم: أراذلنا، ولكن عيبهم إياهم في الواقع لأنهم آمنوا بنوح، فهم أراذل عندهم لأنهم آمنوا بمن يرون أنه ليس على حق، ومعلوم أن من اتبع من ليس بحق فهو من أراذل الناس معنى، وإن لم يكن من أراذلهم حسا، فالذي يتبع من لم تقم عليه البينة، فهو من أراذل الناس معنى، وإن كان فيما بين الناس قد يكون له جاه، ويكون عزيزا.

فالمعنى: لو تشعرون بالأمر على حقيقته لعرفتم أنهم ليسوا بأراذل، وأن حسابهم ليس علي، وأن علي واجبا وعليهم واجب.

=

=

قوله تعالى: {وما أنا بطارد المؤمنين} هذا يشعر بأنه علم إخلاصهم، وأنهم إنما قالوا: {واتبعك الأرذلون} تلميحا لطردهم بلا شك، فهذا الذي قالوه كأنهم يقولون: نحن نأنف أن نكون معك ومعك هؤلاء الأرذلون، فنكون نحن على اليمين وهم على اليسار، أو على اليسار وهم على اليمين، فلا بد أن تطردهم لنؤمن، فقال: {وما أنا بطارد المؤمنين}، فأكد قوله بالباء، يعني: لا يمكن أن أطردهم أبدا؛ لأنني أنا دعوتهم إلى الإيمان فآمنوا، فكان حقهم علي الإكرام.

وهذا الذي قاله قوم نوح، وهو أول الرسل، قاله قوم محمد ﷺ وهو آخر الرسل، فقال الله تعالى له: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا} [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} [الأنعام: ٥٢]، فهذا دأب المكذبين للرسل، ما عندهم شيء يعتمدون عليه سوى التمويه والتضليل وزخارف القول، التي لا تنطلي إلا على العميان.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن} ما {أنا إلا نذير مبين}]. والنذير هو المخبر بما يخوف، يعني الإعلام المقرون بالتخويف.

وقوله تعالى: {مبين} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بين الإنذار]، فجعله المصنف من (أبان) اللازم، مع أنه يحتمل أنه من (أبان) المتعدي، فتكون بمعنى: مظهر، يعني: إني مظهر لما جئت به، فأنا نذير مبين للناس.

* قال الله ﷻ: {قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين (١١٦) قال رب إن قومي كذبون (١١٧) فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين} [الشعراء: ١١٦ - ١١٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قالوا لئن لم تنته يانوح} عما تقول لنا {لتكونن من المرجومين} بالحجارة أو بالشتم، {قال} نوح: {رب إن قومي كذبون (١١٧)

=

=

فافتح بيني وبينهم فتحا} أي احكم، {ونجني ومن معي من المؤمنين}].

قوله تعالى: {قالوا} يعني: لما رأوا تصميمه عليه الصلاة والسلام وأنه لن يطرد المؤمنين لقولهم، وأن هؤلاء الأراذل ليس عليهم من حسابهم من شيء، وإنما حسابهم على الله وهم مؤمنون، فلجئوا إلى القوة، فقالوا: {لم تنته يانوح} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [عما تقول لنا {لتكونن من المرجومين} بالحجارة أو بالشتم].

وقوله: {لئن لم تنته} في الآية إشكال من حيث الإعراب؛ لأن فيها قسما وشرطا، وكلاهما يحتاج إلى جواب، فأين جواب الشرط؟ وأين جواب القسم؟

والجواب: أن {لتكونن} جواب القسم، وابن مالك يقول:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم.

وأيضا: {لتكونن} لا تصلح جواب شرط؛ لأن اللام لا يمكن أن تقترن بجواب الشرط، إنما تقترن بجواب القسم.

والقاعدة عند أهل العلم في النحو يقولون: إنه إذا اجتمع شرط وقسم، فاحذف جواب المتأخر، فإذا قلت: "إن قمت والله ضربتك"، جاز أن تقول: "لأضربنك"؛ لأن الشرط متقدم، ولكن لو قلت: "والله إن قمت ضربتك" فلا يجوز أن تقول: "لأضربنك".

وقولهم: {لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين} أكدوا فيه - والعياذ بالله - ما أرادوا من رجمه بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، ونون التوكيد، ثم أوغلوا في الوعيد والتهديد، حيث قالوا: {من المرجومين} ولم يقولوا: لنرجمنك، كأنهم يقولون: هناك من سبقك فرجم، فنحن نرجمك معهم، فهذا أبلغ من لو أنهم قالوا: (لنرجمنك)؛ لأن فيه تخويفا؛ حيث إنه ليس أول من يرجم، بل هناك من رجم قبله.

وهل يقصدون أنهم يرجمونه بالحجارة أو بالقول؟

=

=

الظاهر والأقرب أنهم يقصدون رجمه بالحجارة؛ لأن الرجم بالقول قليل الإستعمال، ثم إن التهديد به من هؤلاء الذين يرون أنهم يتكلمون من مصدر القوة ليس بلائق في المقام، فالصواب أنهم يهددونه بالرجم بالحجارة، والله أعلم.

حينئذ لجأ إلى الله سبحانه وتعالى فقال: {رب إن قومي كذبون (١١٧) فافتح بيني وبينهم}، وهذا الدعاء جمع بين أسباب الإجابة الثلاثة، وهي:

الأول: دعاء الله تعالى باسم الربوبية: {رب}.

الثاني: ذكر الحال الداعية المقتضية في الدعاء: {إن قومي كذبون}.

الثالث: الطلب، {فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين}.

أولا: قوله: {رب إن قومي}، والربوبية تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، وهذه من الربوبية الخاصة، بل هي من أخص الربوبيات؛ لأنها ربوبية الله تعالى في رسله.

ثانيا: قوله: {إن قومي كذبون} إظهار للأضعف، يعني: لما هو أضعف؛ لأن قوله: {إن قومي} كان مقتضى الحال أن يكونوا مصدقين له؛ لأنهم قومه، ولكنهم - والعياذ بالله - صاروا مكذبين له، فصارت حاله تقتضي رأفة أكثر، حيث إن قومه هم الذين كذبوه، ثم إنه يقتضي أن تكون النكاية فيهم أعظم أيضا؛ لأنهم قومه.

وهذه الإضافة فيها فائدتان:

الفائدة الأولى: بيان أنه مستحق للرأفة أكثر؛ لأن قومه هم الذين كذبوه.

الفائدة الثانية: أن قومه مستحقون للتنكيل بهم أكثر؛ لأنهم قومه، وكان عليهم أن يصدقوه ويمنعوه، يعني: من أن يؤذى، فكيف يكونون هم الذين يؤذونه؟ !

وهذا كقوله تعالى: {والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى} [النجم: ١ - ٢]، ولم يقل: "ما ضل النبي أو الرسول"، بل قال: {ما ضل صاحبكم}، يعني: الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته، فكيف تنكرون ما جاءكم به من المعراج؟

=

=

قال {إن قومي كذبون} يعني: نسبوني إلى الكذب، وقالوا: كذبه، وكذبه، والفرق بينهما أن (كذبه) أخبره بخلاف الواقع، و (كذبه) أنه لم يصدق ما جاء به.

ثالثا: الفاء للسببية في قوله: {فافتح بيني وبينهم}، وهذا القول ظاهره الأمر، لكنه في جانب له يسمى دعاء؛ إذ الأمر لا يكون إلا ممن يستعلي على المأمور، وليس الطالب بمستعل على مطلوبه، ثم إن الله جل وعلا فوق كل شيء.

وقوله: {فافتح بيني وبينهم فتحا} أي: احكم، وسمي الحكم فتحا؛ لأنه ينفتح به الأمر ويتبين، فينفصل هذا عن هذا، وهذا الفتح بأن ينجيه ومن معه من المؤمنين، ويهلكهم، أما نجاته ومن معه من المؤمنين فمصرح بها، وأما إهلاكهم فلا نجاة إلا من هلكة، هذا هو الفتح الذي سأله نوح أن يهلك الله تعالى قومه وأن ينجيه هو ومن معه من المؤمنين.

وقد قال تعالى عنه في سورة نوح: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} [نوح: ٢٦ - ٢٧].

وقد يقول قائل: هل يخبر نوح الله تعالى بالواقع؟ أليس الله تعالى عالما به؟

فالجواب: بلى، هو عالم به، لكن قصده عليه الصلاة والسلام بيان الحامل له على هذا الدعاء أنه يعتقد أنه إذا أبقاهم لا يلدوا إلا فاجرا كفارا، وإلا فالله تعالى عليم به، فيكون هذا كالإعتذار عن هذا السؤال العام: {رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا}.

قوله: {ونجني ومن معي من المؤمنين} هذه المعية ليست معية اختلاط كما هو معروف، بل هي معية اشتراك في عمل وعقيدة؛ فإن الذي مع نوح من المؤمنين كانوا مشاركين له في العقيدة والعمل، وهذا مما يدل على أن المعية ليست كما فهمه المحرفون في معية الله سبحانه وتعالى وأنها تقتضي المشاركة في المكان، أو الإختلاط، فهذا ليس بلازم.

=

=

وقوله: {من المؤمنين} لبيان المبهم فيمن معي؛ لأن (من) اسم موصول، والإسم الموصول يحتاج إلى بيان، وبيانه إما من صلته وإما من غيرها.

ويستفاد منه أنه عند اليأس يجوز أن يدعو الإنسان على المكذبين والمعاندين.

وهل أقر شرعنا هذا أم خالفه؟

الجواب: إن شرعنا أقره، لكنه فضل عدم الدعاء، إلا إذا كان ثبت أنهم لا يستقيمون، ولا يؤمنون، فيشرع الدعاء، والدليل على ذلك أن الله رأى النبي ﷺ عندما نادى عليه جبريل وقال له ملك الجبال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا". لكنه لم يمنع أحدا.

ودليل أصرح منه أن النبي ﷺ لما دعا عليهم في الصلاة قال: "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف ... اللهم العن فلانا وفلانا" لأحياء من العرب؛ نزل عليه قوله تعالى: {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم} [آل عمران: ١٢٨] فكف عن هذا، فشرعنا أمر بالصبر، وعدم الدعاء عليهم.

ولكن قد يقال: إن نوحا عليه الصلاة والسلام شريعته تخالف شريعتنا، ولا مانع من أن تختلف الشرائع بمثل هذا، وأيضا فإن نوحا عليه الصلاة والسلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وكلما دعاهم ازدادوا إصرارا واستكبارا، فما كان للصبر عليهم فائدة، لكنه لم يهاجر منهم كما فعل يونس، بل بقي فيهم، حتى عذبهم الله.

وهل كون الرسول ﷺ دعا على الملأ من قريش، يدل هذا على جواز الدعاء؟

نقول: نعم، لكنه منع منه في آخر الأمر، وهو دعا على الملأ من قريش في مكة قبل أن يهاجر، ففي الأخير منع {ليس لك من الأمر شيء} [آل عمران: ١٢٨].

=

=

* قال الله ﷻ: {فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون (١١٩) ثم أغرقنا بعد الباقين (١٢٠) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٢١) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١١٩ - ١٢٢].

قال المصنف رحمه الله: [{فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون} المملوء من الناس والحيوان والطير، {ثم أغرقنا بعد} بعد إنجائهم {الباقين} من قومه، {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٢١) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}].

قال الله تعالى: {فأنجيناه} الفاء للسببية، أي: فبسبب دعائه أنجيناه، وهي مع إفادتها السببية تفيد أيضا التعقيب، {ومن معه} مع أن دعاءه: {ومن معي من المؤمنين} [الشعراء: ١١٨]، فكلمة: {ومن معه} أعم.

فما هي الحكمة في ذلك؟

ذلك لأنه صحب معه بعض الحيوانات والمخلوقات، وأخذ من كل زوجين، فهذه لا تلصق في الإيمان أو عدمه.

وقد نقول: لعله ما قصدها أيضا من نوح عليه الصلاة والسلام في دعائه، فما كان - فيما يظهر - يدور في ذهنه أن الله ينجي هذه المخلوقات الأخرى، بل قال: {ومن معي من المؤمنين}.

وقد نقول: إن قوله: {ومن معي من المؤمنين} من باب التغليب؛ لأنه هو أيضا إنما دعا من معه، فكأن الله سبحانه وتعالى غلب جانب العقلاء؛ لأنه هو إنما دعا بإنجائهم، فصار هذا أنسب لمطابقة الإجابة للطلب.

وقوله تعالى: {في الفلك المشحون}، الفلك الذي بناه أو صنعه نوح بأمر الله ﷻ، وقد قال الله تعالى: {وحملناه على ذات ألواح ودسر} [القمر: ١٣]، وهنا قال: {في الفلك}.

وأيهما أخطر؛ قوله: {ذات ألواح ودسر}، أم قوله: {في الفلك}؟

=

=

الفلك بلا شك أخطر من: {ذات ألواح ودسر}، لكن في السورة: {اقتربت الساعة وانشق القمر} [القمر: ١]، كما هو معروف في تواصل آياتها ومقاطعها وجمل الآيات المناسبة لها: {ذات ألواح ودسر}.

كما أن فيه فائدة معنوية، وهي بيان مواد هذه السفينة، أنها من الألواح والمسامير، ليكون في ذلك دليل على أنها محكمة، ولأجل أن يتعلم صناعة السفن من لم يعرف، والصناعة في ذلك الوقت ما تطورت إلى هذا التطور.

وقوله: {المشحون} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [المملوء من الناس والحيوان والطير]، فهو مشحون مملوء من الحيوان، ومن الناس، والطير، والطير من الحيوان، لكن عطفه عليه من باب عطف الخاص على العام، وكأنه يريد أن الحيوان هو ما يمشي على رجليه، والطير ما يطير بجناحيه، وإلا لو قال: الحيوان لكفى.

وقوله: {الفلك} اسم جنس يشمل بلفظه الواحد والجمع، يعني هذا اللفظ صالح للجمع والمفرد، قال تعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة} [يونس: ٢٢]، فقال: {وجرين} هنا أراد بالفلك الجمع، وقال في موضع آخر: {ألم تر أن الفلك تجري في البحر} [لقمان: ٣١]، فهنا أراد المفرد، ولو كان بالجمع لقال: تجرين.

فإن قيل: وهل هذا الفلك يشمل الطائرات والسيارات؛ لقوله تعالى: {أنا حملنا ذريتهم} [يس: ٤١]، ولم يقل: أنا حملناهم؟

قلنا: الذي يمنع من هذا هو قوله: {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم}، والذرية تأتي بعد، فكيف تكون آية لهم وهم سابقون عليها، ولذلك أكثر المصنفين على خلاف هذا الرأي، يقول: {ذريتهم} يعني ذرية أبيهم، أي نوح عليه الصلاة والسلام، وبعضهم قال: إن الذرية هنا بمعنى الآباء، لكن استعمال الذرية بمعنى الآباء بعيد في اللغة العربية، لكن استعمالها بمعنى الذرية التي نشئوا منها، ليس في الإضافة

=

=

للذرية التي نشأت منهم، وهي ذرية أبيهم نوح، وهذا أنسب؛ لأن الحقيقة أننا لو جعلنا: {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم} لذرية ما بعد جاءت تكون آية لمن قد مات، فهذا بعيد.

لكنها ربما تطلق على الطائرات وغيرها من وسائل النقل الحديثة؛ لأن الفلك هو كل مركوب مخلوق، ولهذا حصر الله سبحانه وتعالى المركوبات في هذا: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} [الزخرف: ١٢]، فالفلك ما نصنعه نحن، والأنعام ما يخلقه الله.

لكن الكلام هنا على كون هذه الوسائل آية لهم، وهم موجودون، والذرية ما بعد أتت، فنفس الآيات الموجودة في عهده إذا حملناها نحن على الطائرات والسيارات وسائر المراكب، لا يكون آية لهؤلاء.

ثم إن كلمة: {حملنا} يحتاج إلى تأويلها إلى: سنحمل، وحينئذ إذا كانت سنحمل لا تصير آية لهم إلا باعتبارها وعدا من الله ليس مشاهدا، والله سبحانه وتعالى لا يخاطب هؤلاء المعاندين بما يقتضيه وعده فقط، وإنما يخاطبهم بآيات يشاهدونها، أو تكون معلومة لديهم، بحيث لا يتمكن من الإنكار.

فالقول بأن الفلك المشحون هنا يراد به الطائرات وغيره ليس له وجه، والصواب أن نقول: {حملنا ذريتهم في الفلك المشحون} [يس: ٤١]، يعني الذرية التي كانوا منها، فالإضافة - كما يقول النحويون - لأدنى ملابسة، فآباؤهم بالنسبة لنوح ذرية، وأما عادة الإطلاق أن الذرية تأتي بالمعنى الحقيقي للآباء.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم أغرقنا بعد} أي: بعد إنجائهم {الباقين} من قومه]، والذين هم نجوا كما قال الله تعالى في سورة هود: {وما آمن معه إلا قليل} [هود: ٤٠]، وابنه - أحد أبنائه - ما نجا؛ لأنه كان كافرا، وهو قد سأل: {ونجني ومن معي من المؤمنين} [الشعراء: ١١٨].

=

=

وفي الآيات الأخرى أن الله تعالى قال له: {من كل زوجين اثنين وأهلك} ثم استثنى سبحانه وتعالى {إلا من سبق عليه القول} [هود: ٤٠]، ولكنه عليه الصلاة والسلام دعا الله تعالى مشفقا وراجيا رحمته: {فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين} [هود: ٤٥]، فقال الله تعالى له: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح} [هود: ٤٦]، والجواب هنا فيه إشكال، إنما قال: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}؛ لأنه كان مقتضى ما سبق أن يقول: إنه ليس من أهلك؛ لأنه استثنى قبلا: {إلا من سبق عليه القول}.

لكن لو قيل كذلك - لأنه سبق عليه القول - لقالوا: ولماذا سبق عليه القول؟

فذكر النتيجة الأخيرة، وهو أنه: {عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم} إلى آخره، ولها توجيهان:

التوجيه الأول: أنه، أي: سؤالك {عمل غير صالح}؛ لأنك سألت ما لا يجوز في علم الله.

التوجيه الثاني: أنه، أي: الولد {عمل غير صالح} من باب المبالغة، يعني: عامل غير صالح، فأطلق عليه المصدر كما يقال: فلان عدل، وفلان رضا، بمعنى ذي عدل ورضا، فالمعنى أنه ذو عمل غير صالح، ويؤيد هذا الإحتمال قراءة: {إنه عمل غير صالح}.

فإن قيل: هؤلاء الذين نجوا هل هم الذين بقوا من أهل الأرض؟

قلنا: لا، ليسوا هم، بل ذرية نوح هم الذين بقوا، وأما من كان معه من المؤمنين فإنهم فنوا، وما بقي لهم نسل، كما في قوله تعالى: {وجعلنا ذريته هم الباقين} [الصافات: ٧٧].

ولهذا يقال: إن نوحا عليه الصلاة والسلام هو الأب الثاني للإنسان؛ فالأب الأول آدم، ونوح هو الأب الثاني؛ لأن جميع بني الإنسان ماتوا، وما بقيت إلا ذريته:

=

=

{وجعلنا ذريته هم الباقين}، و {هم} ضمير فصل يفيد الحصر والإختصار، فهم الذين بقوا.

ويقول المؤرخون: إنهم ثلاثة: سام، وحام، ويافث، والله أعلم إن كانت هذه أسماءهم أم لا؟ وهل هم ثلاثة أم أكثر أو أقل؟ إنما هذا كلام المؤرخين.

والمهم أن المتيقن أنه ما بقي أحد من أهل الأرض إلا ذرية نوح عليه السلام، فيكون هو الأب الثاني.

قوله: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٢١) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} أي أن إغراقهم آية عظيمة، قال الله تبارك وتعالى: {ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} [القمر: ١١]، وفيها {ففتحنا}، و"ففتحنا": قراءتان سبعيتان، و (ففتحنا) أبلغ من {ففتحنا}. ففتح الله أبواب السماء بماء منهمر، يعني: نازل بقوة وشدة وكثرة.

قال تعالى: {وفجرنا الأرض عيونا} [القمر: ١٢]، المعربون يقولون: إن الأصل: (فجرنا عيون الأرض)، وإنها تمييز محولة عن مفعول، وفي الحقيقة أن {وفجرنا الأرض عيونا} أبلغ وأعظم، يعني: كأن الأرض كلها صارت عيونا، فهو أبلغ من: (فجرنا عيون الأرض)، فعيون الأرض نفرض أنها عشر عيون، فلا تفيد لو كانت: (فجرنا عيون الأرض)، لكن {وفجرنا الأرض عيونا} كلها، حتى إن التنور بدأ يفور من الماء، والتنور أبعد ما يكون عن الماء؛ لأنه محل تفجير النار، ومحل تفجير النار يكون يابسا يبوسا بالغا، ولكن مع ذلك صار بإذن الله يفور.

قال تعالى: {فالتقى الماء على أمر قد قدر} [القمر: ١٢]، حتى بلغ قمم الجبال، وغرق الناس كلهم إلا من في هذه السفينة، وحينئذ صدق قول نوح لقومه: {إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} [هود: ٣٨ - ٣٩]، فصارت السخرية السخرية

=

=

الحقيقية لهؤلاء الذين على السفينة، وكأني بهم يطلعون إليهم من نوافذها، وهم يعومون في هذا الماء ويغرقون، وهؤلاء في منجاة منه.

قوله تعالى: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} على رأي المصنف المراد أكثر قوم نوح عليه السلام، ولكن الأصح: {أكثرهم} أي: الذين بعث فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله: {وما كان أكثرهم مؤمنين}، (ما) نافية، و (كان) أصلية، فالعمل لـ (كان)؛ لأن الأصل عدم الزيادة، وإذا جعلت العمل لـ (ما) لزم أن تجعل (كان) زائدة، وإذا جعلت العمل لـ (كان) بقيت (ما) نافية على ما هي عليه.

قوله: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم} الجامع بين العزة الغالبة القاهرة والرحمة البالغة، لكنه سبحانه وتعالى لجمعه بين العز والرحمة صارت الرحمة تكون في مواضعها، والعز يكون في مواضعه.

وأقسام العزة التي يتصف الله بها ثلاثة: عزة قدر، وعزة قهر، وعزة امتناع.

وعزة القدر: هي أن الله سبحانه وتعالى له القدر العالي، وهو الذي لا يشبهه أحد من المخلوقات؛ لأنه إذا صار عزيز القدر يعني أن قدره لا نظير له، مثل أن تقول: هذا عزيز، يعني: لا يوجد له مثيل.

وعزة القهر: هي أن الله سبحانه وتعالى قاهر لمن سواه من المخلوقات، وغالب له.

وعزة الإمتناع: هي أنه لا يمكن لأحد المخلوقات أن يتوصل إليه، يعني: يمتنع عليه دون سوء أو نقص.

وقالوا في المعنى الأخير: منه قولهم: أرض عزاز، يعني: صلبة قوية ممتنعة، ليست رخوة لينة.

وأما الرحيم فمعناه: ذو الرحمة الواصلة إلى خلقه؛ لأن: (الرحيم) غير

=

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣).

{كذبت عاد المرسلين}.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)

{إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون}.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥).

{إني لكم رسول أمين}.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦).

{فاتقوا الله وأطيعون}.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧)

=

(الرحمن)، وأهل السنة والجماعة يثبتون الرحمة لله حقيقة، وغيرهم يؤولها بأن المراد بها الإحسان، أو إرادة الإحسان، يعني أنهم يثبتونها إلى لازمها؛ لأن الرحمة هي الرقة، والله سبحانه وتعالى منزه عن الرقة! فيقال: من قال لكم: إن الله منزه عن رقة الرحمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يرحم عبده، بمعنى أنه يعطف عليه، وأي مانع يمنع الله من العطف؟ ! فالقاسي ليس بمحمود، أما اللين فهو المحمود لا شك.

ثم إننا نقول: إن لين الإنسان غير لين الله سبحانه وتعالى؛ لأن لين الإنسان سببه الضعف أحيانا، وعدم القدرة، ولهذا يرحم الإنسان أحيانا من لا يستحق الرحمة؛ لأنه ما عنده إلا مجرد العاطفة؛ عاطفة اللين، التي سببها الضعف، أما الله ﷻ فإن رحمته رحمة قوة، ورحمة حكمة، ولهذا يعذب أهل النار ذلك العذاب العظيم، وهو أرحم الراحمين.

فإن الأدلة على رحمة الخالق ليست كرحمة المخلوق.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ} مَا {أجري إلا على رب العالمين}
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)
{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيع} مَكَان مُرْتَفِع {آيَة} بِنَاء عَلَمًا لِلْمَارَّةِ {تَعْبَثُونَ}
بِمَنْ يَمُرّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ منهم والجملة حال من ضمير تبنون
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)
{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِع} لِلْمَاءِ تَحْت الْأَرْض {لَعَلَّكُمْ} كَأَنَّكُمْ {تَخْلُدُونَ} فِيهَا
لَا تَمُوتُونَ
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)
{وَإِذَا بَطَشْتُمْ} بِضَرْبٍ أَوْ قَتْل {بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} مِنْ غَيْر رَأْفَة
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)
{فَاتَّقُوا الله} فِي ذَلِكَ {وَأَطِيعُونِ} فِيمَا أَمَرْتُكُمْ به
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢)
{واتقوا الذي أمدكم} أنعم عليكم {بما تعلمون}
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣).
{أمدكم بأنعام وبنين}.
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤).
{وَجَنَّات} بَسَاتِين {وَعُيُون} أَنْهَار.
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥).
{إِنِّي أَخَاف عَلَيْكُمْ عَذَاب يَوْم عَظِيم} فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة إِنْ عَصَيْتُمُونِي.
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦).
{قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا} مُسْتَوٍ عِنْدنَا {أَوَعَظْت أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ} أَصْلًا

أَيْ لَا نرعوي لوعظك.

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧).

{إِنْ} مَا {هَذَا} الَّذِي خَوَّفْتنَا بِهِ {إِلَّا خلق الأولين} اختلافهم وَكَذِبهمْ وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الْخَاء وَاللَّام أَيْ مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَار البعث إلا خلق الأولين أي طبيعتهم وعادتهم.

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨).

{وما نحن بمعذبين}.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩).

{فكذبوه} بالعذاب {فأهلكناهم} في الدنيا بالريح {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)} [الشعراء: ١٢٣]

التفسير:

كذَّبت قبيلة عاد رسولهم هودًا -عليه السلام- فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسل؛ لاتحاد دعوتهم في أصولها وغايتها.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {كذبت عاد} رسل الله إليهم".

قال يحيى: يعني: هودا أخاهم".

قال ابن كثير:"هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود، عليه السلام، أنه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريبًا من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في "سورة الأعراف":

=

=
{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً} [الأعراف: ٦٩] وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلا منهم رسولا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه".

قال الربيع ابن خثعم: "عاد، ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر".

قال محمد بن إسحاق:"كان من حديث عاد فيما بلغني والله أعلم أنهم كانوا قوم عربا يتكلمون بهذا اللسان العربي وكان الله قد أعطاهم بسطة في الخلق لم يعطيها غيرهم يقول الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد فكانت منازلهم وجماعتهم حيث بعث الله فيهم بالأحقاف، والأحقاف: الرمل فيما بين عمان إلى حضرموت واليمن كله، وكانوا مع ذلك فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله ﷻ".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٢٤]، أي:"إذ قال لهم أخوهم هود: ألا تخشون الله فتخلصوا له العبادة؟".

قال يحيى: "أخوهم في النسب وليس بأخيهم في الدين".

قال مقاتل:"{ألا تتقون}، يعني: ألا تخشون الله- ﷻ-".

قال الطبري:"{ألا تتقون}، عقاب الله على كفركم به".

قال السدي:"إن عاد كانوا قوما باليمن بالأحقاف، والأحقاف: هي الرمال فأتاهم فوعظهم وذكرهم بما قص الله في القرآن فكذبوه وسألوا أن يأتيهم بالعذاب".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: ١٢٥]، أي:"إني مرسَل إليكم لهدايتكم وإرشادكم، حفيظ على رسالة الله، أبلِّغها لكم كما أمرني ربي".
=

=

قال مقاتل:"فيما بينكم وبين ربكم".

قال يحيى: "على ما جئتكم به".

قال الطبري: يقول:"{إني لكم رسول} من ربي يأمركم بطاعته، ويحذركم على كفركم بأسه، {أمين} على وحيه ورسالته".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٢٦]، أي:"فخافوا عقاب الله وأطيعوني فيما جئتكم به من عند الله".

قال الطبري: يقول:"{فاتقوا الله} بطاعته والانتهاء إلى ما يأمركم وينهاكم {وأطيعون} فيما آمركم به من اتقاء الله وتحذيركم سطوته".

قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء: ١٢٧]، أي:"وما أطلب منكم على إرشادكم إلى التوحيد أيَّ نوع من أنواع الأجر".

قال الطبري:"يقول: وما أطلب منكم على أمري إياكم باتقاء الله جزاء ولا ثوابا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٢٧]، أي:"ما أجري إلا على رب العالمين".

قال الطبري:"يقول: ما جزائي وثوابي على نصيحتي إياكم إلا على رب العالمين".

قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} [الشعراء: ١٢٨]، أي:"أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عاليًا تشرفون منه فتسخرون مِنَ المارة؟ وذلك عبث وإسراف لا يعود عليكم بفائدة في الدين أو الدنيا".

قال الزجاج:"«الريع»: -في اللغة-: الموضع المرتفع من الأرض ومن ذلك كم ريع أرضك، أي كم ارتفاع أرضك. جاء في التفسير: {بكل ريع} كل فج والفج الطريق المنفرج في الجبل، وجاء أيضا بكل طريق، وقوله: {آية}، علامة".

قال الزمخشري:"«الريع»: المكان المرتفع، ومنه قولهم: كم ريع أرضك؟ وهو

=

=

ارتفاعها، و «الآية»: العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طرقهم أعلاما طوالا فعبثوا بذلك، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم".

قال الطبري:"الريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد؛ ومنه قول ذي الرمة:

طراق الخوافي مشرف فوق ريعة... ندى ليله في ريشه يترقرق

وقول الأعشى:

ويهماء قفر تجاوزتها... إذا خب في ريعها آلها

ويعني بقوله: {آية}: بنيانا، علما، وقوله: {تعبثون}، قال: تلعبون".

قال عطاء:"بكل شرف ومنظر تبنون عبثا".

عن ابن عباس، قوله: "{أتبنون بكل ريع آية تعبثون}، يقول: بكل شرف". قوله: {آية}، قال: «الآية»: علم". قوله: "{تعبثون}، قال: تلعبون".

وروي عن ابن عباس في قوله: {بكل ريع}، قال:"بكل طريق". وروي عن قتادة والضحاك مثل ذلك.

عن مجاهد، قوله: "{بكل ريع}، قال: فج". قوله: {آية}، قال: «آية»: بنيان". وفي رواية:"بنيان الحمام".

وروي عن مجاهد، في قوله: "{بكل ريع}، قال:"الثنية الصغيرة". وفي رواية:"{بكل ريع}، فج بين جبلين". وفي رواية:"شرف ومنظر".

وقال عكرمة:"فج وواد".

عن أبي صخر، "{أتبنون بكل ريع آية تعبثون}، قال: الريع: الجبال والأمكنة المرتفعة من الأرض".

قال السدي:"الريع: ما استقبل الطريق بين الجبال والظراب".

قال مجاهد:"ليس أحد أشبه فعالا بعاد من أمة محمد ﷺ، قال: {أتبنون بكل ريع

=

=

آية تعبثون}، فقد والله فعلوا".

قوله تعالى: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [الشعراء: ١٢٨]، أي:"وتتخذون قصورًا منيعة وحصونًا مشيَّدة، كأنكم تخلدون في الدنيا ولا تموتون".

قال الزجاج:"أي: وتتخذون مباني للخلود، لا تتفكرون في الموت".

قال البغوي:"المعنى: أنهم كانوا يستوثقون المصانع كأنهم لا يموتون".

قال الزمخشري:"«المصانع»: مآخذ الماء، {لعلكم تخلدون}: ترجون الخلود في الدنيا. أو تشبه حالكم حال من يخلد".

عن ابن عباس، قوله: "{لعلكم تخلدون}، يقول: كأنكم تخلدون".

وقال ابن زيد:"هذا استفهام، يقول: لعلكم تخلدون حين تبنون هذه الأشياء؟".

وفي قوله تعالى: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} [الشعراء: ١٢٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: القصور المشيدة، قاله مجاهد، ومنه قول الشاعر:

تركنا ديارهم منهم قفارًا... وهَدّمنا المصانع والبُروجا

الثاني: أنها مآخذ الماء تحت الأرض، يعني الحياض، قاله قتادة، ومنه قول لبيد:

بَلينا وما تبلى النجوم الطوالع... وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

قال مجاهد:"قصور مشيدة، وبنيان مخلد". وفي رواية:"حصون وقصور".

الثالث: أنها بروج الحمام، قاله مجاهد أيضا، والسدي.

قال السمعاني:"المصانع: جمع مصنعة؛ وهي الحوض وموضع الماء".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورا وحصونا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا

=

=

يتخذون مصانع".

وفي حرف أبيّ: «كأنكم». وقرئ: «تخلدون»، بضم التاء مخففا ومشددا.

قوله تعالى: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} [الشعراء: ١٢٨]، أي:"وإذا بطشتم بأحد من الخلق قتلا أو ضربًا، فعلتم ذلك قاهرين ظالمين".

قال ابن قتيبة:"يقول إذا ضربتم: ضربتم بالسياط ضرب الجبارين، وإذا عاقبتم قتلتم".

قال مقاتل:"يقول إذا أخذتم أخذتم فقتلتم في غير حق كفعل الجبارين، والجبار: من يقتل بغير حق".

قال الطبري:"يقول: وإذا سطوتم سطوتم قتلا بالسيوف، وضربا بالسياط".

قال الزمخشري:"وإذا بطشتم بسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب".

قال الزجاج:"جاء في التفسير: أن بطشهم كان بالسوط والسيف، وإنما أنكر ذلك عليهم لأنه ظلم، فأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز".

عن ابن جريج: "{وإذا بطشتم بطشتم جبارين}، قال: القتل بالسيف والسياط".

وعن الحسن: "تبادرون تعجيل العذاب، لا تتثبتون متفكرين في العواقب".

وقال الكلبي:"تقتلون على الغضب".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٢٨]، أي:"فخافوا الله، وامتثلوا ما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم".

قال الطبري: يقول:"اتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ} [الشعراء:١٣٢]، أي:"واخشوا الله الذي أعطاكم من أنواع النعم ما لا خفاء فيه عليكم".

=

=

قال الطبري: يقول:"واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون".

قوله تعالى: {أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} [الشعراء:١٣٣]، أي:"أعطاكم الأنعام: من الإبل والبقر والغنم، وأعطاكم الأولاد".

قال الطبري: يقول:"أعانكم به من بين المواشي والبنين".

عن السدي: "«أنعام»، قال: الراعية".

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الشعراء:١٣٤]، أي:"وأعطاكم البساتين المثمرة، وفجَّر لكم الماء من العيون الجارية".

قال الطبري: يقول:"والبساتين والأنهار".

قال مقاتل:"{وجنات}، يقول: البساتين. {وعيون}، يعني: وأنهار جارية أعطاهم. هذا الخير كله، بعد ما أخبرهم عن قوم نوح بالغرق".

عن مجاهد، قوله: "{جنات}، قال: حوائط".

عن السدي، " {جنات}، قال: البساتين".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)} [الشعراء:١٣٥]

قال هود -عليه السلام- محذرًا لهم: إني أخاف إن أصررتم على ما أنتم عليه من التكذيب والظلم وكُفْر النِّعم، أن ينزل الله بكم عذابًا في يوم تعظم شدته من هول عذابه.

قال مقاتل:"فإن لم تؤمنوا فـ {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} أن ينزل بكم في الدنيا، يعني: بـ«العظيم» الشديد".

قال القرطبي: أي:"إن كفرتم به وأصررتم على ذلك".

عن ابن عباس في قوله: "{عذاب}، يقول: نكال".

عن سعيد بن جبير، " {عظيم}، يعني: وافرا".

قوله تعالى: {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)}

=

=

[الشعراء:١٣٦]

قالوا له: يستوي عندنا تذكيرك وتخويفك لنا وتركه، فلن نؤمن لك.

قال الطبري:"قالت عاد لنبيهم هود ﷺ: معتدل عندنا وعظك إيانا، وتركك الوعظ، فلن نؤمن لك ولن نصدقك على ما جئتنا به".

قال السمعاني:"الوعظ: كلام يلين القلب بذكر الأمر والنهي والوعد والوعيد".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لو قيل أوعظت أو لم تعظ، كان أخصر. والمعنى واحد.

قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق، لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه، من قولك: أم لم تعظ".

قال محمد بن إسحاق:"بعث الله إليهم هودا يعني إلى عاد فأمرهم أن يوحدوا الله ﷻ، ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفوا، عن ظلم الناس لم يأمرهم فيما يذكر والله أعلم غير ذلك فأبوا عليه وكذبوا وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم إناس وهم يسير مكتتمون بإيمانهم وكان من آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له يزيد بن سعد ابن غفير وكان يكتم إيمانه فلما عتوا على الله وكذبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد، {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [هود: ٥٣]".

قوله تعالى: {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء: ١٣٧]، أي:"وقالوا: ما هذا الذي نحن عليه إلا دين الأولين وعاداتهم".

قال الطبري: معناه: "إن هذا إلا عادة الأوّلين ودينهم".

وفي قوله تعالى: {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء: ١٣٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: ما هذا إلا دين الأولين وعادتهم وأخلاقهم. قاله ابن عباس، ويحيى

=

=

بن سلام، وبه قال الطبري.

قال يحيى:"دين الأولين، يعنون ما هم عليه من شرك".

قال الطبري:"لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاء منهم سنة من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خلق الأوّلين، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين. ويزيد ذلك بيانا وتصحيحا لما اخترنا من القراءة والتأويل، قولهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} لأنهم لو كانوا لا يقرُّون بأن لهم ربا يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئتنا به يا هود إلا خلق الأوّلين، وما لنا من معذب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون إنها تقربنا إلى الله زلفى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله معذبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسلهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}".

الثاني: ما هذا إلا كذب الأولين وأساطيرهم. قاله ابن عباس أيضا، ومجاهد، وابن زيد.

قال ابن قتيبة:"أراد: اختلاقهم وكذبهم. يقال: خلقت الحديث واختلقته؛ إذا افتعلته".

قال الفراء:"لأن العرب يقولون: هذه أحاديث الخلق، يريدون: المختلقة".

قال ابن زيد:"إن هذا إلا أمر الأولين وأساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا".

=

=

وقال عبد الله بن مسعود:"يقول: إن هذا إلا اختلاق الأولين". وروي عن علقمة مثل ذلك.

وروي عن عبد الله، أنه كان يقرأ: «إن هذا إلا خلق الأولين»، ويقول شيء اختلقوه".

الثالث: عادة الأولين، قاله الكسائي، والفراء.

قال الفراء:"أي: وراثة أبيك عن أول".

وعن محمد بن يزيد، قال: "«خلق الأولين»: مذهبهم، وما جرى عليه أمرهم".

قال النحاس:"والقولان متقاربان من هذا الحديث عن النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»، أي: أحسنهم مذهبا وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله جل وعز، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرا فاضلا، ولا أن يكون أكمل إيمانا من السيئ الخلق الذي ليس بفاجر".

الرابع: يعني: أن الأولين قبلنا كانوا يموتون فلا يبعثون ولا يحاسبون، وهذا معنى قول قتادة.

قال قتادة:"يقول: هكذا خلقة الأولين، وهكذا كانوا يحيون ويموتون".

قال الزجاج:"أي: خلقنا كما خلق من كان قبلنا، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا ولا نبعث، لأنهم أنكروا البعث".

قال الزمخشري:"من قرأ: «خلق الأولين» بالفتح، فمعناه: أن ما جئت به اختلاق الأولين وتخرصهم، كما قالوا: أساطير الأولين. أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية، نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب. ومن قرأ: «خلق»، بضمتين، وبواحدة، فمعناه. ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون. أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا

=

=
الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه".
قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [الشعراء: ١٣٨]، أي:"وما نحن بمعذبين على ما نفعل مما حَذَّرْتنا منه من العذاب".
قال يحيى:"أي: لا نبعث ولا نعذب".
قال السمعاني:"قالوا هذا إنكار لما وعدهم هود من العذاب".
قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ} [الشعراء:١٣٩]، أي:"فاستمَرُّوا على تكذيبه، فأهلكهم الله".
قال الطبري: يقول:"فكذّبت عاد رسول ربهم هودا، فأهلكنا عادا بتكذيبهم رسولنا".
قال ابن كثير:"أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر: ٦، ٧] وهم عاد الأولى، كما قال: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأولَى} [النجم: ٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. {ذَاتِ الْعِمَادِ} أي: الذين كانوا يسكنون العمد. ومن زعم أن "إرم" مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ} [الفجر: ٨]، أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت: ١٥]. وقد قَدَّمنا أن الله تعالى لم
=

=

يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، فأذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى : {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ} الآية [الأحقاف: ٢٥]، وقال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٦، ٧]، أي: كاملة {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [الحاقة: ٧]، أي: بقوا أبدانًا بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء:١٣٩]، أي:"إن في ذلك الإهلاك لَعبرة لمن بعدهم".

قال الطبري: يقول:"إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذّبيك فيما أتيتهم به من عند ربك".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء:١٣٩]، أي:"وما كان أكثر الذين سمعوا قصتهم مؤمنين بك".

قال الطبري: "يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الشعراء:١٣٩]، أي:"وإن ربك لهو العزيز الغالب على ما يريده من إهلاك المكذبين، الرحيم بالمؤمنين".

قال الطبري: يقول: "{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} في انتقامه من أعدائه، {الرَّحِيمُ}

=

=

بالمؤمنين به".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال قتادة:"قوله: {رحيما}، بعباده". وفي رواية: "بهم بعد التوب".

قال سعيد بن جبير:"قوله: {رحيما} بهم بعد التوب".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {كذبت عاد المرسلين (١٢٣) إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون (١٢٤) إني لكم رسول أمين (١٢٥) فاتقوا الله وأطيعون (١٢٦) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع آية تعبثون} [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما أسألكم عليه من أجر إن} ما {أجري إلا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع} مكان مرتفع {آية} بناء علما للمارة {تعبثون} بمن يمر بكم وتسخرون منهم، والجملة حال من ضمير (تبنون)].

قوله: {كذبت عاد المرسلين} عاد هم قوم هود، ولهذا قال: {إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون}، ومحل هؤلاء القوم في الربع الخالي في الأحقاف، قال تعالى: {واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف} [الأحقاف: ٢١]، فهؤلاء القوم معروفون بالقوة والشدة إلى حد أنهم قالوا: {من أشد منا قوة} [فصلت: ١٥]؛ فإنهم مسيطرون.

وأما المبالغة التي يذكرها المصنفون والمؤرخون في كبر أجسادهم وقوتهم، فالله أعلم بها، ولكنهم بلا شك قوم أقوياء، وعتاة، يعني: جفاة القلوب، أقوياء الأبدان، فهم معروفون بالقوة، ولكن الله تعالى أراد أن يوبخهم ويقيم الحجة عليهم في قوله: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم} [فصلت: ١٥]، جعلهم يطمئنون، يعني: يخفضون رءوسهم، {الذي خلقهم} فهم مخلوقون، وهو خالق، فلا بد ضرورة أن يكون الخالق أعلى من المخلوق، وأن يكون المخلوق في قبضته، وهذه هي

=

=

الحكمة في قوله: {أن الله الذي خلقهم}، ولم يقل: إن الله الذي خلق السماوات والأرض، مع أن {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس} [غافر: ٥٧]، لكن لأجل أن يخفض رءوسهم أكثر {خلقهم}، فهم بأنفسهم مخلوقون مربوبون ذليلون.

وكل من القومين كذب نبيه، كذب قوم نوح نوحا عليه الصلاة والسلام، وكذب قوم هود هودا عليه الصلاة والسلام، مع أنه نصحهم هذه النصيحة: {ألا تتقون}، وهذا الإستفهام إما للتحضيض، أو أنه استفهام بمعنى التوبيخ، يعني: يوبخهم على عدم التقوى.

وقوله: {ألا تتقون} أي الله؛ لأن هذه الجملة مختصرة، ومعروف أنه كان يأمرهم ويقول: {فاتقوا الله وأطيعون}.

وقوله تعالى: {كذبت عاد المرسلين} يؤيد أن قوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} [الشعراء: ١٠٥]، ليس المقصود أنه أرسل للناس كافة.

قوله: {إني لكم رسول أمين}، أي: مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى، وتقديم {لكم} يدل على الإختصاص، أي: مرسل لكم خاصة؛ لأن كل رسول يبعث إلى قومه فقط.

وقوله: {أمين} أي: ذو أمانة، ائتمنني الله سبحانه وتعالى على رسالته.

فإذا قال قائل: هذان الوصفان: {رسول أمين} مجرد دعوى، وهم ينكرون أن يكون رسولا أمينا، بل يقولون: إنه كاذب خائن، فهل بمجرد الدعوى تقوم عليهم الحجة؟

فالجواب: لا، لكن هذه الدعوى مؤيدة من آيات من الله ﷻ؛ لقول النبي ﷺ: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر"، فهي ليست مجرد دعوى؛ لأنها لو كانت مجرد دعوى لكان سهلا رفضها، لكنها دعوى مؤيدة

=

=

ومدعمة من الله سبحانه وتعالى بآيات بينة، يؤمن على مثلها البشر.

وفي قوله لهم هذا القول، جازما به، دليل على قوة آياته، وأن معه من الآيات ما جعله يعبر هذا التعبير الجازم: {إني لكم رسول أمين}، وفي هذا دليل على أن الرسالة أكبر دليلا على أمانة الشخص؛ لأنه لولا أنه أمين ما ائتمنه الله سبحانه وتعالى على الوحي، الذي فيه الحكم على الناس بالسعادة والشقاء، بل الحكم عليهم باستباحة أموالهم، واستباحة نسائهم، واستباحة دمائهم.

فلولا أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام- هم أعظم الناس أمانة ما ائتمنهم الله على هذا الوحي العظيم.

قوله تعالى: {فاتقوا الله وأطيعون} هذا عود في المعنى على قوله: {ألا تتقون} [الشعراء: ١٢٤]، يعني: فلأني رسول أمين افعلوا ما آمركم به من التقوى، وأحثكم عليه.

وإنما قال: {فاتقوا الله وأطيعون}، وما قال: (واتقوني)؛ لأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، لا هو ولا غيره، فوظيفة الناس بالنسبة للرسل ليست تقوى الرسل، بل طاعة الرسل، ولهذا ما جاء على لسان أي واحد من الرسل أنه قال لقومه: (اتقوني)، بل يأمرونهم بالطاعة، وأما التقوى والخشية والخوف فهي لله سبحانه وتعالى.

والتقوى هي اتخاذ وقاية من عذاب الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وهذا أجمع ما قيل في التقوى، ولهم فيها عبارات كثيرة.

أما الطاعة فأصلها الإنقياد، ومنه قولهم: هذه الناقة طوع صاحبها، أي: منقادة له وذليلة، وتفسر بأنها موافقة الأمر تذللا للآمر؛ لأن موافقة الأمر قد تكون تذللا للآمر، وقد تكون كالإكراه، والتي تكون كالإكراه لا تكون طاعة.

ويستفاد من قوله: {فاتقوا الله وأطيعون} وجوب تقوى الله، ووجوب طاعة

=

=

رسوله؛ لأن طاعة رسوله من طاعته؛ {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: ٨٠].

قوله: {وما أسألكم عليه من أجر}: أي: على ما أقوله لكم، أو: على تبليغ الرسالة، والمعنى متقارب، يعني: أنا لست أقول: أعطوني شيئا، وإنما آمركم بما فيه خيركم، لو كنت أسالكم أجرا على ذلك لكان لكم الحجة في أن تردوا، لكني لا أسألكم عليه أجرا، يعني ثوابا وعوضا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {إن} ما {أجري إلا على رب العالمين}]، وفي هذا كمال الإخلاص، يعني: أنا لا أريد الأجر إلا من الله سبحانه وتعالى.

وقوله: {إلا على رب العالمين} يقول العلماء: إن (على) تفيد الوجوب؛ لأنه ما قال: إن أجري إلا من رب العالمين، بل قال: {على رب العالمين}.

وهل الله سبحانه وتعالى يجب عليه شيء؟

الجواب: أما أن نوجب عليه فلا، وأما أن يوجب على نفسه تكرما، فهذا لا مانع منه.

قال ابن القيم:

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله، والفضل للمنان

قيد بقوله: "إن كان بالإخلاص والإحسان"، والإحسان هو المتابعة، أما إذا لم يكن بالإخلاص والإحسان فيضيع: {فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [الكهف: ١١٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أتبنون بكل ريع} مكان مرتفع {آية} بناء علما للمارة {تعبثون} بمن يمر بكم وتسخرون منهم]، ففسر هنا الآية بأنها العلامة، لكنها

=

=

تحتمل أن تكون علامة على الطريق كما قال المصنف، مع أن السياق لا يؤيده، لكنه كذلك لا يمنعه.

وكذلك قد يكون المراد آية أي: علامة على قوتكم ومقدرتكم، وهذا هو الأقرب، ولهذا قال: {بكل ريع} يعني أنكم تريدون من هذه البنايات أن تكون آية ودليلا وبرهانا على قوتكم.

وقوله: {تعبثون} تتخذون ذلك عبثا؛ لأنه لا مصلحة لكم فيه إلا مجرد العبث، وإظهار العظمة، وإظهار القوة، وهذا بلا شك كون الإنسان يظهر قوته أنه عبث وفساد.

وعلى هذا يتبين لنا أن هؤلاء الذين يحاولون أن يصلوا إلى الكواكب، ويطلقوا هذه الأقمار التي لا يستفيدون منها في الأرض مثل قوم عاد تماما، يعني: الطريقة هي الطريقة، وإن كان الأسلوب مختلفا، يعني: يفعلون هذه الأشياء آية وعبثا؛ إذ لا يستفيدون منها فيما خلق لهم: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا} [البقرة: ٢٩]، وليس الذي في السماء، لكن الذي في الأرض هو الذي مخلوق لنا، فانتفعوا به مباشرة، أما الذي في السماء فمسخر لمصالحنا، ولكننا لا ننتفع به مباشرة، فالذي ينتفع به مباشرة هو ما في الأرض.

ولهذا يقول بعض الناس: لماذا تحاولون أن تصلوا للسماء وأنتم عاجزون عن حل مشاكلكم في الأرض؟ وهذا صحيح، لكنهم يعملون هذا لمجرد العبث والفخر، وأنهم أقوياء، مع أن قوم هود، وهؤلاء القوم أيضا المعاصرون يخسرون على هذه الأمور خسائر باهظة، فصارت عبثا؛ لأن كل شيء يتعب الإنسان فيه جسمه وماله وفكره بدون فائدة، فهو عبث، ولا فائدة منه.

بل إنه إذا أراد ما وراءه من إظهار العظمة والكبرياء على الخلق، صار أيضا فسادا، فصار إيجابيا لا سلبيا فقط، إيجابيا لأنه فساد، وهو ينكر عليهم هذا الأمر: {أتبنون

=

=

بكل ريع آية تعبثون}.

وأما ما سلكه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من أنهم يجعلون علامات للمارة لأجل إذا مروا بهم يسخرون منهم؛ فهذا بعيد عن السياق، وإن كان السياق لا يمنعه لكنه لا يؤيده، فالصواب في هذه الآية أنهم يبنون بنايات عظيمة، تدل على قوتهم وقدرتهم عبثا؛ لأنهم لا يستفيدون منها سوى إظهار العظمة فقط، وهذا لا شك أنه عبث.

وإذا تأملت الإنسان الأول هو الإنسان الأخير، أو الإنسان الأخير هو الإنسان الأول، لكن يختلف الأسلوب: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون} [المطففين: ٢٩ - ٣٢]، وهذه الأمور إذا طبقناها في الوقت الحاضر فهي موجودة.

فقولهم: {لضالون} قديما، يساويه قولهم الآن: رجعيون! أو محافظون! أو ما أشبه ذلك، وهو نفس الشيء، فالفكر هو هو، لكن الأسلوب يختلف مسايرة للزمن.

وهل صحيح قول بعض الناس: إن الحيوانات في زمن نوح كانت أقل أنواعا من هذا الزمن، وسبب كثرتها بسبب نزول بعضها على شكل آخر، فتولدت منها أشكال؟

أما الآية فلا تصرح، لكن الذي ورد أنه حمل معه {من كل زوجين اثنين} [هود: ٤٠]، يعني: من كل الموجودات، لكن لا شك أنه ما وجد أصل جديد أبدا، لكن ربما صارت زيادة الأنواع بالتوالد، أو بنزول بعضها على بعض فاختلفت، مع أن المعروف عندهم أنه ما حصل من توالد من نزو بعضها على بعض أنه لا يتوالد، والحاصل بالتوالد لا يتوالد، كل شيء نشأ من التوالد لا يتوالد، فهذا معروف عندهم، ولهذا البغل لا يمكن أن يصير له ذرية أبدا.

=

=

* قال الله ﷻ: {وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين} [الشعراء: ١٢٩ - ١٣٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وتتخذون مصانع} للماء تحت الأرض {لعلكم} كأنكم {تخلدون} فيها لا تموتون، {وإذا بطشتم} بضرب أو قتل {بطشتم جبارين} من غير رأفة].

ثم قال الله تعالى في سياق ما قاله هود لقومه: {وتتخذون مصانع}: جمع مصنع، وهو محل الماء، كما قال المصنف، فالمصانع عبارة عن الخزانات التي تحت الأرض يتخذونها لعلهم يخلدون، يعني: كأنهم خالدون في هذه الدنيا غير ميتين.

وقوله: {لعلكم} ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أتى بها للتشبيه: [كأنكم]، ولكن ما رأينا أحدا ذكر أنها تأتي للتشبيه، بل إنما قال: إنها تأتي للإشفاق والتعليل والترجي، هذا هو المعروف من معاني (لعل).

وأي هذه المعاني الثلاثة هو أولى بها؟

الأولى أنها للترجي، يعني: يترجون أن يخلدوا في ذلك، وقد تفيد التوقع، أي أنهم يتوقعون الخلود، لكنها للترجي أقرب. يعني أنهم يتخذون هذه المساكن لأجل أن يبقوا فيها، كأنما يخلدون فيها.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{مصانع} للماء تحت الأرض]، قد ينازع فيها أيضا، بأن يقال: إن المراد بالمصانع مكان الصناعة، يعني أنهم أيضا اتخذوا مصانع كثيرة، كما تدل عليه صيغة منتهى الجموع (مفاعل)، ثم إنها قوية؛ لقوله: {لعلكم تخلدون}؛ لأنه لا أحد يبني شيئا للبقاء الكثير إلا ويحكمه ويتقنه.

فيكون هود عليه الصلاة والسلام أنبهم في أمرين:

الأمر الأول: اتخاذ الآيات - الأبنية القوية العظيمة - عبثا وإظهارا للقوة والفخر.

الأمر الثاني: هذه المصانع العظيمة التي اتخذوها لأجل أن يخلدوا ويبقوا فيصنعوا

=

=

فيها، وقد قال الله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد} [الفجر: ٦ - ٨]، وهذه العماد العظيمة التي لم يخلق مثلها في البلاد لا بد أن تكون ناتجة عن مصانع قوية لتولد هذه المواد {لعلكم تخلدون}.

ثم قال: من جبروتهم أيضا العدواني {وإذا بطشتم بطشتم جبارين}؛ لأن الأول جبروت معماري، والثاني مصنعي، والثالث الجبروت العدواني.

وقس هذه الأشياء على وقتنا الحاضر، فتجدها منطبقة تماما، فهناك من يتخذون من هذه القوة آية للفخر والعبث، ثم هذه المصانع أيضا التي يتخذونها - مصانع القنابل الذرية والنووية وغيرها - لأجل أن يخلدوا؛ حتى لا يتسلط عليهم أحد، وحتى تكون لديهم السيطرة في هذه المصانع.

وكذلك الثالث، وهو قوله تعالى: {وإذا بطشتم بطشتم جبارين} يعني: إنكم تبطشون، فهو موجود كذلك.

وإنما قلت: إنكم تبطشون؛ لأن (إذا) تفيد تحقق وقوع الشرط، بخلاف (إن)، فإذا قلت: (إن قام زيد فقم)، لا تدل على تحقق وقوع الشرط، لكن إذا قلت: (إذا قام زيد فقم)، فهذا معناه كأنه سيقوم، ولكن ليكن وقت قيامك وقت قيامه.

فقوله: {وإذا بطشتم} يعني: وأنتم تبطشون، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإذا بطشتم} بضرب أو قتل {بطشتم جبارين} من غير رأفة]، فهذا الوصف الثالث - والعياذ بالله - العدوان، والذي حملهم على هذا العدوان - الإنسان بشر - لما رأوا أنفسهم أقوياء في البناء والصناعة، قالوا: ليس أحد فوقنا، فبطشوا - والعياذ بالله - بدون رأفة؛ لأن الإنسان بطبيعته كما قال الله تعالى: {إنه كان ظلوما جهولا} [الأحزاب: ٧٢].

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: {فاتقوا الله وأطيعون (١٣١) واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون

=

=

(١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات وعيون} [الشعراء: ١٣١ - ١٣٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فاتقوا الله} في ذلك، {وأطيعون} فيما أمرتكم به، {واتقوا الذي أمدكم} أنعم عليكم، {بما تعلمون (١٣٢) أمدكم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات} بساتين {وعيون} أنهار].

قوله: {فاتقوا الله} في ذلك {وأطيعون} كرره تأسيسا، إذا كان يعود على ما بعد قوله: {فاتقوا الله وأطيعون}، وإذا كان لا يعود عليه، وأنه قال ذلك إبلاغا للرسالة، فإنه يكون مع الأول تأكيدا.

وفي الحقيقة أن المقام يقتضي التأكيد، وأن المقام أيضا في الأمور الثلاثة التي وبخهم عليها يقتضي أن يخصص بزيادة العناية في قوله: {فاتقوا الله وأطيعون}.

ثم قال لهم: {واتقوا الذي}، هنا أتى بالوصف لأن {الذي أمدكم} الإسم الموصول وصلته بمنزلة الإسم المشتق، يعني: واتقوا الماد لكم، والإسم المشتق أو اسم الفاعل وصف.

وهنا انتقل من وصف الألوهية إلى وصف الربوبية الخاصة، الذي ناله منه، وهو: {الذي أمدكم}؛ لأن إمداد الله سبحانه وتعالى بالنعم من مقتضى الربوبية.

وقوله: {الذي أمدكم بما تعلمون} أتى بهذا الوصف أيضا إقامة للحجة عليهم؛ لأن من أمدك بهذه النعم كان أولى بأن تتقيه.

وقوله: {بما تعلمون} مبهم؛ لأن (ما) اسم موصول، والإسم الموصول مبهم وعام، ثم فصله بقوله: {أمدكم بأنعام}. والتفصيل بعد الإجمال، أو البيان بعد الإبهام، له فوائد، منها:

١ - تنبيه السامع أو القارئ؛ فإذا كان مثلا يقرأ: {الذي أمدكم بما تعلمون (١٣٢) أمدكم بأنعام} يشعر براحة ثم بتنبيه؛ لأن السياق تغير، فمن المبهم إلى المخاطبين بين وواضح، فهذا فيه تنبيه.

=

=

٢ - التشويق؛ لأن الإنسان يحب الإستطلاع، فإذا أبهم إليه الأمر ووضح، اشتاق إليه ورسخ في ذهنه؛ ترسيخ الكلام في الذهن؛ لأنه إذا جاء مبهما تشوق له الذهن، فإذا بين له بعد ذلك ترسخ فيه.

٣ - العناية؛ لأن كونه يبهمه ثم يبينه أو يجمله ثم يفصله؛ لأجل أن الإنسان يتشوق إليه ويرتقي من معناه أنه أمر يعتنى به، كما أن فيه أيضا تأكيدا؛ لأنه ذكر مرتين: مرة مبهما، ومرة مفصلا أو مبينا.

٤ - تأكيده؛ بذكره مرتين: مرة مجملا، ومرة مفصلا، أو مبهما ثم مبينا.

قوله: {أمدكم بما تعلمون} ما قال: (أمدكم بأنعام وبنين)، بالنسبة لهذه الآية يالذات، فبين لهم أن الله أمدهم بأمر لا يمكنهم إنكاره؛ لأنهم يعلمون، فقدم: {بما تعلمون} على ذكر المنعم به بإقامة الحجة عليهم، حيث إن هذه نعم مفهومة ومعلومة لهم، فلا يمكنهم إنكارها.

قوله: {بأنعام} الأنعام: جمع نعم، يعني الإبل، وإذا قلت: إن نعمة جمعها نعم، وجمع نعم: أنعام، صار المراد بالأنعام ما هو أعم من الإبل، يعني: كأنه يقول: بنعم كثيرة، والمعروف أنها للإبل فقط، لكن إذا قيل: بهيمة الأنعام، فتشمل الثلاثة، وفي الحديث: "خير لك من حمر النعم".

وقوله: {وبنين} الذكور من الأولاد، وخص البنين؛ لأنهم أبلغ في شرف الإنسان، ولأن أولادهم يكونون قبيلة، لكن أولاد البنات من غيرهم، فلا يكونون قبيلة ولا يكونون أسرة.

وقوله: [{وجنات} بساتين {وعيون} أنهار]، وهذا مما يدل على أن هذا الربع الخالي الآن من الماء أنه كان فيه بساتين، وكان فيه أنهار، ولعل هذا يوحي به أيضا قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا"، فإن قوله: "حتى تعود" العود بعد البدء، فهذه الجنات ليست

=

=

مجرد بساتين فقط؛ لأنه لا يسمى البستان جنة إلا إذا كان كثير الأشجار والزروع، حيث يجن من فيه ويستره، والعيون جمع عين.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها أنهار فباعتبار جريانها، وإلا فالعيون هي التي تنبع من الأرض، والأنهار كما هو معروف لا تنبع من الأرض، وإنما تأتي من الأمطار والسيول وغيرها.

* قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١٣٥) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (١٣٦) إن هذا إلا خلق الأولين (١٣٧) وما نحن بمعذبين} [الشعراء: ١٣٥ - ١٣٨].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} في الدنيا والآخرة إن عصيتموني، {قالوا سواء علينا} مستو عندنا {أوعظت أم لم تكن من الواعظين} أصلا، أي لا نرعوي لوعظك، {إن} ما {هذا} الذي خوفتنا به {إلا خلق الأولين} اختلاقهم وكذبهم، وفي قراءة بضم الخاء واللام، أي ما هذا الذي نحن عليه من إنكار للبعث إلا خلق الأولين، أي طبيعتهم وعادتهم، {وما نحن بمعذبين}].

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} في الدنيا والآخرة إن عصيتموني]، يعني: إن استمررتم على ما أنتم عليه من الكفر بهذه النعم العظيمة؛ فأخاف عليكم عذاب هذا اليوم.

وقوله: {عظيم} صفة لليوم، لكن يقول: [في الدنيا والآخرة]، ووصف هذا العذاب بالعظم في الدنيا باعتبار ما عداه، وأما وصفه بالعظم في الآخرة فظاهر، لأنه عظيم أعظم ما يكون في الآخرة.

وإن قيل: قوله تعالى: {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} ألا يدل هذا على أنه يوم القيامة خاصة؟

=

=

قلنا: لا، فإن اليوم الذي يقع عليه العذاب بالدنيا يوصف أيضا بأنه يوم عظيم؛ وهو أيضا لم يعين يوما.

{قالوا} في الجواب بعد هذا التذكير بالنعم، وبعد هذا الوعظ: {سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} أعوذ بالله! فهذا كبرياء عظيم! و {سواء} بمعنى مستو، وهي خبر مقدم، و {أوعظت} الجملة الإستفهامية هذه في تأويل مصدر لمبتدأ مؤخر، يعني: وعظك وعدمه سواء.

وهذا من المواضع التي تكون مؤولة بالمصدر بدون حرف مصدري؛ مع أن الذي دخل عليها أداة الإستفهام، لكن بعد (سواء) هكذا تؤول وما بعدها بالمصدر، كقوله تعالى: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم} [المنافقون: ٦]، أي: استغفارك وعدمه، وكقوله تعالى: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦]، أي: إنذارك وعدمه.

فهم قالوا: {سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين} أي: لا نرعوي لوعظك، وهذا من الجبروت {أوعظت} بالفعل {أم لم تكن من الواعظين} لم يكن وصفك الوعظ، {سواء} تركت الوعظ أم لم تتركه؛ لأنهم ما قالوا: سواء علينا أوعظت أم لم تعظ بل {أم لم تكن من الواعظين}.

فالمقصود من هذا أنه لا يهمهم أن يكون واعظا، أو غير واعظ، ولا أن يعظهم بالفعل أو لا يعظهم، كل الأمر عندهم سواء، وإنما قالوا ذلك لأن الإنسان قد لا يكترث بالواعظ لكونه غير أهله، وقد لا يكترث به عنادا، وهؤلاء لما قالوا: {أم لم تكن من الواعظين} دل ذلك على أنهم معاندون، حتى وإن كان من غير أهل الوعظ، أو وعظت وأنت من أهل الوعظ، وفي هذا من بلاغة القرآن ما هو ظاهر؛ لأنهم قالوا: {سواء علينا أوعظت} أم لم تعظ، لكن ربما يقولون: إنه قد يعظ وليس أهلا للوعظ، ولكنهم قالوا: {أم لم تكن من الواعظين} يعني: لم تكن ممن

=

=

يستحقون أن يوصفوا بهذا الوصف.

فيؤخذ من هذا أنه حذف من كل واحدة ما يقابلها؛ اختصارا للوضوح، فيصير التقدير على هذا: (أوعظت أم لم تعظ، أو أكنت واعظا تستحق أن ينصرف الناس لك، ويأخذوا منك، أم لم تكن واعظا)، وهذه غاية ما يكون من بلاغة القرآن، وبالنسبة لهم غاية ما يكون من الإستكبار، وعدم الإكتراث بوعظهم.

قوله تعالى: {إن} فسرها المصنف بـ[ما]، يعني نافية، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هذا} الذي خوفتنا به {إلا خلق الأولين} اختلاقهم وكذبهم]، يعني: إنك أنت يا هود ما جئتنا إلا بأمر اختلقه من قبلك، فكذبوه هو ومن قبله أيضا، وقالوا: هذا خلق الأولين، خلقهم أي: اختلاقهم وافتراؤهم وكذبهم، كما قال الله تعالى عن إبراهيم: {وتخلقون إفكا} [العنكبوت: ١٧]، يعني: تختلقونه وتزورونه.

قال: [وفي قراءة بضم الخاء واللام: {خلق}]، وهذه القراءة سبعية بناء على قاعدة المصنف، فإذا قال: "قرئ" فهي ليست سبعية، وإذا قال: "فيه قراءة" فيريد أنها سبعية، قال: [أي ما هذا الذي نحن عليه من إنكار للبعث إلا خلق الأولين، أي طبيعتهم وعادتهم].

والمصنف - على القراءة الثانية - يرى أن اسم الإشارة يعود إلى ما كانوا عليه، وعلى قراءة: (خلق) فهو عائد على قول هود، وسياق الآية يدل على أنه راجع إلى قول هود، سواء بضم الخاء أو بفتحها، أما فتحها فظاهر: (إن هذا إلا خلق الأولين)، وأما ضمها فهو أيضا ظاهر كأنهم يقولون: إن ما جئت به هو خلق الأولين من قبلك - يعني بعضهم - الذي كانوا عليه، يعني الأنبياء السابقين، فعلى هذا يكون مرجع الإشارة واحدا.

أما على رأي المصنف: (إن هذا إلا خلق الأولين) فيريد أنهم يحتجون به، كأنهم يقولون: {إنا وجدنا آباءنا على أمة} [الزخرف: ٢٢]، وهذا ما عليه آباؤنا، فسنبقى

=

=

عليه، والآية محتملة، ولكنها في الأول أظهر:

أولا: لأن القراءتين يفسر بعضهما بعضا.

ثانيا: إنهم يريدون أن يردوا على قوله هو، لا أن يبرروا فعلهم.

قوله: {إن هذا إلا خلق الأولين (١٣٧) وما نحن بمعذبين} هذا إنكار لقوله: {إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} كأنهم يقولون: ما تخوفت ليس له أصل، فما نحن بمعذبين.

وتأمل هذا التعبير الذي أتى مؤكدا بالباء في قوله: {وما نحن بمعذبين} لم يقولوا: "وما نحن معذبون"، وكذلك أتوا بالوصف: {بمعذبين} في الجملة الإسمية؛ للدلالة على انتفاء هذا أبدا؛ لأن الجملة الإسمية تدل على ثبوت مدلولها، فعليه يكونون قد أنكروا أن يعذبوا، وادعوا أنهم لن يعذبوا أبدا، ولكن هذا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، فهؤلاء - والعياذ بالله - أتبعوا أنفسهم هواها، وتمنوا على الله الأماني إن كانوا مصدقين بالبعث، ولا ندري ربما يكونون مكذبين به، وأنه لا بعث ولا جزاء ولا عذاب.

* قال الله ﷻ: {فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١٣٩ - ١٤٠].

قال المصنف رحمه الله: [{فكذبوه} بالعذاب {فأهلكناهم} في الدنيا بالريح، {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}].

قوله تعالى: {فكذبوه فأهلكناهم} يعني: فبهذا القول الذي صدر منهم يصدق عليهم هذا الوصف، أنهم كذبوا هودا، فيكونون مستحقين للعذاب، ولهذا أتى بالفاء {فأهلكناهم}.

قال المصنف: [{فأهلكناهم} في الدنيا بالريح]، أهلكهم الله تعالى بالريح، ومن العجائب أن الله - سبحانه وبحمده - أهلكهم على حين تشوق منهم للرحمة؛

=

=

لأنهم أصيبوا بالجدب والقحط، وبقوا مدة، وصاروا ينتظرون الفرج بالمطر، فلما أرسل الله هذه الريح {عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا} [الأحقاف: ٢٤]، استفرحوا بذلك وظنوا أن الفرج قريب، ولكنه كان فرجا لهود ونقمة عليهم.

قال الله تعالى: {بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٢٤) تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم} [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥]، وهذه الريح التي بعثها الله سبحانه وتعالى على عاد فيها من آيات الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء الفخورين بقوتهم على غيرهم أهلكوا بألطف الأشياء، وهي الريح.

ثم إنهم أهلكوا في حال الرجاء؛ لأن النقمة إذا أتت والإنسان يتوقع النعمة، فتكون أشد، وكذلك إذا أتت النقمة والإنسان في نعمة تكون أيضا أشد وأنكى، والعياذ بالله.

وفي قوله تعالى: {فأهلكناهم} إلى آخره موعظة لنا لما نسمعه أحيانا من هذه الأعاصير المدمرة التي تقلع الأشجار، وتخرب الديار، وتهلك الثمار، وتهلك الإعمار أيضا، ولكن - مع الأسف - فإن الكثير منا يصدق عليهم قول الله تعالى: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم} [الطور: ٤٤]، فهذا أمر طبيعي.

والناس الآن يسمعون بالزلازل، ويسمعون بالأعاصير، ويسمعون بالفيضانات العظيمة، ولكنهم لا يرونها أنها غضب من الله ﷻ، ولكن يرون أنها أمر طبيعي، ولهذا لا يتأثر الإنسان بها إطلاقا، وكأنها لا شيء، بينما ونحن صغار كنا إذا سمعنا أن الأرض زلزلت في أحد نرتجف ونحن في بيوتنا آمنون؛ لأنه ما كان أحد يقول لنا: إنه هذا أمر طبيعي، وهذا أمر لا يهم، وهذا أمر كائن لا محالة.

=

=

ومثل ذلك الكسوف، كان الناس في الماضي إذا كسف القمر تحصل منهم رهبة عظيمة، ويحصل منهم خوف، ويحضرون بأعداد كبيرة إلى المساجد من رجال ونساء، وتحصل صلاة، وبكاء، وخوف، وقد رأيت هذا، أما الآن فلا ترى شيئا من هذا، بل تجد هذا يشاهد في التلفاز أغنية، وهذا يسمع أغنية من الراديو!

ويستفاد من الآية أنهم قد عصوا وكذبوا برسالة هود، فهذه الآية فيها العناد، وفي آيات أخرى ثبت أنهم لم يصدقوا بهود عليه السلام: {وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله} [هود: ٥٩]، رسل الله، ولم يصدقوا عنادا.

وإن سأل سائل: ما الحكمة في كون بعض الرسل أو بعض الأمم تكرر ذكرها في القرآن كثيرا، وبعض الرسل لم يأت له ذكر قط؟

فالجواب: ما ذكر إلا الرسل المحيطين بالعرب، الذين كانوا يعرفون أنباءهم، فيكون هذا أقوى، لكن الذي يكون بعيدا عن العرب ما ذكر، لكن نعلم أن الله بعث إليهم رسلا: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} [فاطر: ٢٤]، لكن ما ذكر الله سبحانه وتعالى من الرسل إلا ما كان حول الجزيرة.

ولا يدل هذا على أن الذين ذكروا في القرآن أفضل من غيرهم؛ لأن غيرهم ما ذكروا؛ فلا نعرف عنهم شيئا، إنما أولو العزم الخمسة هؤلاء لا شك أنهم أفضل من غيرهم.

حتى الأماكن والقرى التي ما اكتشفوها إلا حديثا، لكن هي موجودة من قبل، فهي موجودة من زمان بلا شك، وموجود فيها أناس، ويذكر أن شيخ الإسلام تكلم عن هذا، وقال: لا بد أن هناك أحدا في المقابل لوجه الكرة الأرضية، فلا بد أن هناك أناسا، فلا يمكن أن تترك الأرض بدون عمارة.

وفي قوله: {فكذبوه فأهلكناهم} دليل على أن التكذيب سبب للإهلاك، فينبغي للمؤمن الذي يعتبر بقصص الأنبياء السابقين أن يحذر من هذا - أي: من التكذيب

=

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١).

{كذبت ثمود المرسلين}.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢).

{إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون}.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)

{إني لكم رسول أمين}.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤)

{فاتقوا الله وأطيعون}.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ} مَا {أجري إلا على رب العالمين}.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦).

{أتتركون في ما ها هنا} من الخيرات {آمنين}.

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧).

{في جنات وعيون}.

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨).

{وَزُرُوع وَنَخْل طَلْعهَا هَضِيم} لَطِيف لَيِّن.

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩).

{وَتَنْحِتُونَ من الجبال بيوتا فرهين} بَطِرِينَ وَفِي قِرَاءَة فَارِهِينَ حَاذِقِينَ.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠).

=

- لأنه إن فعل أهلك.

{فاتقوا الله وأطيعون} فيما أمرتكم به.

وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١).

{ولا تطيعوا أمر المسرفين}.

الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢).

{الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْض} بِالْمَعَاصِي {وَلَا يُصْلِحُونَ} بطاعة الله.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣).

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ} الَّذِينَ سَحَرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلهمْ.

مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤).

{مَا أَنْتَ} أَيْضًا {إِلَّا بَشَر مِثْلنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْت مِنْ الصَّادِقِينَ} فِي رِسَالَتك.

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥).

{قَالَ هَذِهِ نَاقَة لَهَا شِرْب} نَصِيب مِنْ الماء {ولكم شرب يوم معلوم}.

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦).

{وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذكُمْ عَذَاب يَوْم عَظِيم} بعظم العذاب.

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧).

{فَعَقَرُوهَا} عَقَرَهَا بَعْضهمْ بِرِضَاهُمْ {فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} عَلَى عقرها.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨).

{فأخذهم العذاب} الموعود به فهلكوا {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)} [الشعراء: ١٤١].

كذَّبت قبيلة ثمود أخاهم صالحًا في رسالته ودعوته إلى توحيد الله، فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسل؛ لأنهم جميعًا يدعون إلى توحيد الله.

قال الطبري: يقول:"كذّبت ثمود رسل الله".

قال مقاتل:"يعني: صالحا وحده".

قال السعدي:"كذبوا صالحا عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكذيبا للجميع".

قال ابن كثير:"وهذا إخبار من الله، عز وجل، عن عبده ورسوله صالح، عليه السلام: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحجْر، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة... وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل، عليه السلام".

قال محمد بن إسحاق: "فلما أهلك الله عادا وانقضى أمرهما عمرت ثمود بعدها فاستخلفوا في الأرض، فربلوا فيها وانتشروا ثم عتوا على الله فلما ظهر فسادهم وعبدوا غير الله بعث الله إليهم صالحا وكانوا قوما عربا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا رسولا، وكانت منازلهم الحجر إلى قزح وهو وادي القرى وبين ذلك ثمانية عشر ميلا فيما بين الحجاز والشام فبعثه الله إليهم غلاما شابا فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم أحد إلا قليل مستضعفون فلما ألح عليهم صالح بالدعاء وأكثر لهم التحذير وخوفهم من الله بالعذاب والنقمة. سألوه أن يريهم آية تكون مصداقا لما يقول فيما يدعوهم إليه، فقال لهم: أي آية تريدون فقالوا تخرج معنا إلى عيدنا هذا وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم وما يعبدون من دون الله في يوم معلوم من السنة، فتدعوا إلهك وندعوا آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا فقال لهم صالح: نعم فخرجوا =

=

بأوثانهم إلى عيدهم ذلك، وخرج صالح معهم إلى الله فدعوا أوثانهم وسألوها بأن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعوا به".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٤٢]، أي:"إذ قال لهم أخوهم صالح: ألا تخشون عقاب الله، فتُفرِدونه بالعبادة؟".

قال الطبري: يقول:"إذ دعاهم صالح أخوهم إلى الله، فقال لهم: ألا تتقون عقاب الله يا قوم على معصيتكم إياه، وخلافكم أمره، بطاعتكم أمر المفسدين في أرض الله".

قال السعدي:"{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ} في النسب، برفق ولين: {أَلا تَتَّقُونَ} الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي".

قال مقاتل:"{إذ قال لهم أخوهم} صالح فى النسب وليس بأخيهم فى الدين، {ألا تتقون}، يعني: ألا تخشون الله- ﷻ-".

قال يحيى بن سلام:"{إذ قال لهم أخوهم صالح} أخوهم في النسب، وليس بأخيهم في الدين: {ألا تتقون} الله، وهي مثل الأولى، يأمرهم أن يتقوا الله".

عن قتادة: "أنّ صالحًا بُعِث مِن الحِجْرِ".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: ١٤٣]، أي:"إني مرسَل من الله إليكم، حفيظ على هذه الرسالة كما تلقيتها عن الله".

قال الطبري: يقول:"{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ} من الله أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبته على خلافكم أمره {أَمِينٌ} على رسالته التي أرسلها معي إليكم".

قال السعدي: أي:"{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ} من الله ربكم، أرسلني إليكم، لطفا بكم ورحمة، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان، {أَمِينٌ} تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي، وبما جئت به".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٤٤]، أي:"فاحذروا عقابه تعالى،

=

=

وامتثلوا ما دعوتكم إليه".

قال الطبري: يقول:"{فَاتَّقُوا اللهَ} أيها القوم، واحذروا عقابه {وأطيعون} في تحذيري إياكم، وأمر ربكم باتباع طاعته".

قال ابن كثير:"دعاهم نبيهم صالح إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه".

قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء: ١٤٥]، أي:"وما أطلب منكم على نصحي وإرشادي لكم أي جزاء".

قال الطبري: يقول:"يقول: وما أسألكم على نصحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب".

قال ابن كثير:"أخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرا منهم".

قال السعدي:"فتقولون: يمنعنا من اتباعك، أنك تريد أخذ أموالنا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٤٥]، أي:"ما جزائي إلا على رب العالمين".

قال الطبري: "يقول: إن جزائي وثوابي إلا على ربّ جميع ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما من خلق".

قال ابن كثير:"إنما يطلب ثواب ذلك من الله، ﷻ".

قال السعدي:"أي: لا أطلب الثواب إلا منه".

قوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ} [الشعراء: ١٤٦]، أي:"أيترككم ربكم فيما أنتم فيه من النعيم مستقرين في هذه الدنيا آمنين من العذاب والزوال والموت؟".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل صالح لقومه من ثمود: أيترككم يا قوم ربكم في هذه الدنيا آمنين، لا تخافون شيئا؟".

=

=

قال ابن كثير:"يقول لهم واعظًا لهم ومحذرًا إياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكرًا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة، وجعلهم في أمن من المحذورات".

قال المراغي:"أي: لا نظنوا أنكم تتركون فى دياركم آمنين".

قوله تعالى: {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الشعراء: ١٤٧]، أي:"في حدائق مثمرة وعيون جارية".

قال الطبري: "يقول: في بساتين وعيون ماء".

قال المراغي:"متمتعين بالجنات والعيون".

قال ابن كثير:"أنبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات".

قوله تعالى: {وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} [الشعراء: ١٤٨]، أي:"وزروع كثيرة ونخل ثمرها يانع لين نضيج".

قال المراغي: ومتمتعين" بالزروع والثمار اليانعة".

قال ابن كثير:"وأخرج لهم من الزروع والثمرات".

قال الطبري: "يعني بالطلع: الكُفُرَّى".

قال السعدي:"أي: أتحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعم سدى تتنعمون وتتمتعون كما تتمتع الأنعام وتتركون سدى لا تؤمرون ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله".

قال الزمخشري:"خصّ النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر، تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها، وأن يريد بالجنات: غيرها من الشجر، لأن اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل".

وفي قوله تعالى: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} [الشعراء: ١٤٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه الرطب اللين، قاله عكرمة، وقتادة.

=

=

الثاني: أنه المذنب من الرطب، قاله ابن جبير، وأبو علاء، وأبو ميسرة، ويزيد بن راشد.

الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى، قاله الحسن.

الرابع: أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتّت، قاله مجاهد، وابن جريج.

وقال مجاهد:"الطلعة إذا مسستها تناثرت".

الخامس: المتلاصق بعضه ببعض، قاله أبو صخر.

السادس: أنه الراكب طلعها بعضه على بعض من الكثرة، قاله الضحاك، ومقاتل.

قال الضحاك:"إذا كثر حمل النخلة فركب بعضها بعضا، حتى نقص بعضها بعضا، فهو حينئذ هضيم".

قال أبو عبيدة:"أي: قد ضمّ بعضه بعضا".

وقال أبو صخر:"ما رأيت طلع النخل حين ينشق عنه الكم فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضيم".

قال الزجاج:"الهضيم -في اللغة-: الضامر الداخل بعضه في بعض ولا شيء في الطلع أبلغ من هذا".

السابع: اليانع النضيج، قاله ابن عباس.

الثامن: أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر، حكاه ابن شجرة، قال الشاعر:

كأن حمولة تجلى عليه... هضيم ما يحس له شقوقُ

قال ابن قتيبة:"الهضيم: الطلع قبل أن تنشق عنه القشور وتنفتح. يريد: أنه منضم مكتنز. ومنه قيل: أهضم الكشحين، إذا كان منضمهما".

التاسع: أنه الرخو، قال الحسن.

وروي عن ابن عباس، قال:"إذا رطب واسترخى". وروي عن أبي صالح نحو هذا.

=

=

العاشر: أنه الطلع حين يتفرق ويخضر، قاله الضحاك أيضا.

الحادي عشر: أنه اللطيف، قاله الكلبي.

الثاني عشر: ان الهضيم هو الهاضم المريء. أفاده الماوردي.

وكان الحسن البصري يقول: في وعظه: "ابن آدم، تأكل كذا وكذا ثم تقول: يا جارية، هاتي الهاضوم، إنه يهضم دينك لا طعامك".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمسّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضا، وأصله مفعول صرف إلى: «فعيل»".

قوله تعالى: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩]، أي:"وتنحتون من الجبال بيوتًا ماهرين بنحتها، أَشِرين بَطِرين".

قال السعدي:"أي: بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتا من الجبال الصم الصلاب".

قال السدي:"كانوا ينقبون في الجبال البيوت".

وفي قوله تعالى: {فَارِهِينَ} [الشعراء: ١٤٩]، قرائتان:

القراءة الأولى: «فَرِهِينَ»، بغير الألف. قرأ بها: أبو عمرو، وابن كثير، ونافع. وفي تفسيرها ستة أوجه:

أحدها: شرهين، قاله مجاهد، وشهر بن حوشب.

الثاني: معجبين بصنيعكم، قاله قتادة، وخصيف.

الثالث: فرحين، حكاه ابن شجرة.

الرابع: بطرين أشرين، قاله ابن عباس.

الخامس: أقوياء، والفره: القويّ. قاله ابن زيد.

=

=

السادس: متخيرين، قاله الكلبي. ومنه قول الشاعر:

إلى فره يماجدُ كلَّ أمْرٍ... قصدت له لأختبر الطّباعَا

القراءة الثانية: {فَارِهِينَ}، بالألف. وهي قراءة الباقين، وفي تفسيرها خمسة أوجه:

أحدها: معناه: كيّسين. قاله الضحاك.

وقال الزمخشري:"الفراهة: الكيس والنشاط. ومنه: خيل فرهة، استعير لامتثال الأمر، وارتسامه طاعة الآمر المطاع. أو جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمي، والمراد الآمر. ومنه قولهم: لك على إمرة مطاعة".

الثاني: حاذقين، مأخوذ من: فراهة الصنعة، وهو قول ابن عباس، وأبي صالح، ومعاوية بن قرة.

قال مقاتل:"يعني: حاذقين بنحتها".

قال الزجاج:"معنى {فارهين}: حاذقين".

قال ابن قتيبة:"{فارهين}: أشرين بطرين. ويقال: الهاء فيه مبدلة من حاء، أي: فرحين. و «الفرح» قد يكون: السرور، ويكون: الأشر. ومنه قول الله ﷻ: {إن الله لا يحب الفرحين} [القصص: ٧٦]، أي: الأشرين".

الثالث: قادرين، قاله ابن بحر.

الرابع: آمنين، قاله قتادة.

الخامس: أنه جمع: فارِه، والفاره المرح، قاله أبو عبيدة، وأنشد لعدي بن الرقاع الغنوي:

لا أَسْتَكِينُ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ... وَلَنْ تَرَانِي بِخَيْرٍ فارِهَ اللبب

أي: من اللبب.

قال الطبري:"معنى قراءة من قرأ {فارهين}: حاذقين بنحتها، متخيرين لمواضع

=

=

نحتها، كيسين، من الفراهة. ومعنى قراءة من قرأ «فَرِهِينَ»: مرحين أشرين. وقد يجوز أن يكون معنى فاره وفره واحدا، فيكون فاره مبنيا على بنائه، وأصله من فعل يفعل، ويكون فره صفة، كما يقال: فلان حاذق بهذا الأمر وحذق".

قال ابن كثير:"كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٥٠]، أي:"فخافوا عقوبة الله، واقبلوا نصحي".

قال ابن كثير:"أي: أقبلوا على عَمَل ما يعود نفُعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا".

قوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} [الشعراء: ١٥١]، أي:"ولا تنقادوا لأمر المسرفين على أنفسهم".

قال السعدي:"أي: الذين تجاوزوا الحد".

قال الطبري: أي: "لا تطيعوا أيها القوم أمر المسرفين على أنفسهم في تماديهم في معصية الله، واجترائهم على سخطه".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٢]، أي:"الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح".

قال مقاتل:"يقول: الذين يعصون في الأرض ولا يطيعون الله- ﷻ- فيما أمرهم به".

وقال مقاتل:"يعني: التسعة الذين عقروا الناقة".

قال الطبري:"وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وصفهم الله جلّ ثناؤه بقوله: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ

=

=
يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}، يقول: الذين يسعون في أرض الله بمعاصيه، ولا يصلحون، يقول: ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعة الله".

قال ابن كثير:"يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق".

قال السعدي:"أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادا لا إصلاح فيه وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض وكأن أناسا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي فنهاهم صالح عن الاغترار بهم ولعلهم الذين قال الله فيهم {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}".

وعن قتادة:"{أمر المسرفين}، أي: المشركين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما فائدة قوله: {ولا يصلحون}؟ قلت: فائدته أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح".

عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدثه:"أنهم نظروا إلى الهضبة حين دعا الله صالح عليه السلام بما دعا به تمخض بالناقة تمخض النتوج بولدها فتحركت الهضبة، ثم انتفضت فانصدعت، عن ناقة كما وصفوا جوفاء وبراء نتوجا ما بين جنبيها مالا يعلمه إلا الله عظما، فآمن به جندع بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعان بن جلهس وكان كاهنهم، فكانوا من أشراف ثمود فردوا ثمود وأشرافها، عن الإسلام والدخول فيما دعاهم إليه صالح من الرحمة والنجاة، وكان لجندع ابن عم له يقال له: شهاب ابن خلف بن محلاة بن لبيد ابن جواس، فأراد أن يسلم فنهاه أولئك الرهط، عن ذلك فأطاعهم وكان من أشراف ثمود وأفاضلها".
=

=

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء: ١٥٤]، أي:"قالت ثمود لنبيها صالح: ما أنت إلا من الذين سُحروا سِحْرًا كثيرًا، حتى غلب السحر على عقلك".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء: ١٥٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: من المسحورين، قاله مجاهد، وقتادة-في رواية-.

واختاره ابن كثير، وقال:"الأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك".

الثاني: من السكرانين، قاله قتادة.

الثالث: من المخلوقين، قاله ابن عباس.

الرابع: من المخدوعين، قاله سهل بن عبد الله.

الخامس: أن المسحر: الذي ليس له شيء ولا يملك، وهو المقل، أي لست بملك فيبقى، وهذا معنى قول الكلبي.

السادس: ممن له سحر، أي: رقية، حكاه ابن عيسى.

السابع: ممن يأكل ويشرب، حكاه ابن شجرة، وبه قال الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه قول لبيد:

فَإِنْ تَسْأَلينا فِيمَ نَحْنُ فإنَّنا... عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّر

أي: المعلل بالطعام والشراب، قال امرؤ القيس:

أَرَانا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ... ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرَابِ

قال الفراء:"المسحر: المجوف، كأنه- والله أعلم- من قولك: «انتفخ سحرك»، أي: أنك تأكل الطعام والشراب وتسحر به وتعلل".

وقال أبو عبيدة:"كل من أكل من إنس أو دابة فهو مسحّر وذلك أن له سحرا يقرى

=

=

يجمع ما أكل فيه".

قال الطبري:"والصواب أن معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربا ولا ملكا فنطيعك، ونعلم أنك صادق فيما تقول. والمسحر: المفعل من السحرة، وهو الذي له سحرة".

قوله تعالى: {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [الشعراء: ١٥٤]، أي:"ما أنت إلا فرد مماثل لنا في البشرية من بني آدم".

قال الطبري: أي:"تأكل ما نأكل، وتشرب ما نشرب، ولست بربّ ولا ملك، فعلام نتبعك؟".

قال ابن كثير:"يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ} [القمر: ٢٥، ٢٦]".

قوله تعالى: {فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الشعراء: ١٥٤]، أي:"فأت بحجة واضحة تدل على ثبوت رسالتك، إن كنت صادقًا في دعواك أن الله أرسلك إلينا".

قال الطبري: أي:"فإن كنت صادقا في قيلك، وأن الله أرسلك إلينا {فَأْتِ بِآيَةٍ}، يعني: بدلالة وحجة على أنك محقّ فيما تقول، إن كنت ممن صدقنا في دعواه أن الله أرسله إلينا".

قال ابن كثير:"ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه - وقد اجتمع ملؤهم - أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم - ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنَنَ به، وليصدقنه، وليتبعنه، فأنعموا بذلك".

=

=

عن ابن عباس: أن صالحا النبيّ ﷺ بعثه الله إلى قومه، فآمنوا به واتبعوه، فمات صالح، فرجعوا عن الإسلام، فأتاهم صالح، فقال لهم: أنا صالح، قالوا: إن كنت صادقا فأتنا بآية، فأتاهم بالناقة، فكذبوه وعقروها، فعذّبهم الله".

قوله تعالى: {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ} [الشعراء: ١٥٥]، أي:"قال لهم صالح -وقد أتاهم بناقة أخرجها الله له من الصخرة-: هذه ناقة الله".

قال الطبري:"قال صالح لثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه، فأتاهم بناقة أخرجها من صخرة أو هضبة: هذه ناقة يا قوم".

قال ابن كثير:"فقام نبي الله صالح، عليه السلام، فصلى، ثم دعا الله، عز وجل، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصفة التي وصفوها. فآمن بعضهم وكفر أكثرهم".

قوله تعالى: {لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: ١٥٥]، أي:"لها نصيب من الماء في يوم معلوم، ولكم نصيب منه في يوم آخر".

قال الطبري: أي:"لها شرب ولكم مثله شرب يوم آخر معلوم، ما لكم من الشرب، ليس لكم في يوم وردها أن تشربوا من شربها شيئا، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئا. ويعني بالشرب: الحظّ والنصيب من الماء، يقول: لها حظّ من الماء، ولكم مثله".

قال ابن كثير:"يعني: ترد ماءكم يوما، ويوما تردونه أنتم".

قال قتادة:"كانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، فإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم".

عن عبد الله بن عباس -من طريق شهر بن حوشب- قال: "إذا كان يومَها أصْدَرَتْهم لبنًا ما شاءوا".

عن أبي رَوْق -من طريق المسيب- قال: كانت ناقة صالح - عليه السلام - يُوضَع لها

=

=
الإناء، فتَدُرُّ فيه اللبَن".
عن أبي الخليل -من طريق قتادة-: "أنّها كانت تَرِد في شِعْبٍ قد رأيته، قال: قلت: كم هو؟ قال: سبعة وثلاثون ذراعًا، قد ذَرَعْتُه. قال: وكانت تصدر في شِعْب آخر. قال: قلت: كم هو؟ قال: علوه ونصف. وحدَّث: أنّها كانت إذا صدرت أثَّر في الجبل أضلاعها".
عن أبي الطفيل، قال: "فقال لهم صالح: اخرجوا فخرج بهم إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل، فانفرجت فخرجت الناقة من وسطها، فقال لهم صالح: {هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} [الشعراء: ١٥٦] قال: فلما ملوها عقروها، قال عبد العزيز بن رفيع، فحدثني رجل قال: فقال صالح لهم: آية العذاب أن يصبحوا غدا خضرا، واليوم الثاني صفرا، واليوم الثالث سودا".
عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: "لَمّا مرَّ رسول الله - ﷺ - بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، وقد سألها قومُ صالح، فكانت تَرِدُ مِن هذا الفَجِّ، وتَصدر مِن هذا الفَجِّ، فعَتَوْا عن أمر ربهم، فعقروها، فكانت تشرب ماءَهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أهمد الله ﷻ مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حَرَم الله ﷻ». قيل: مَن هو، يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رِغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».
قوله تعالى: {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ} [الشعراء: ١٥٦]، أي:"ولا تنالوها بشيء مما يسوءها كضَرْبٍ أو قتل أو نحو ذلك".
قال الطبري:"يقول: لا تمسوها بما يؤذيها من عقر وقتل ونحو ذلك".
قال ابن كثير:"فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى. وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها
=

=

ما يكفيهم شربًا وريًا".

عن ابن جُرَيج، قوله: "{وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ}: لا تعقروها".

عن السدي:"{ولا تمسوها بسوء}، يعني: بعَقْر".

عن قتادة، عن أبي الخليل:"أنها كانت ترد في شعب قد رأيته قال: قلت: كم هو؟ قال: سبعة وثلاثون ذراعا قد ذرعته قال: وكانت تصدر في شعب آخر، قال قلت: كم هو؟ قال: علوه ونصف وحدث أنها كانت إذا صدرت أثر في الجبل أضلاعها".

قال السدي:"فسألوا يعني صالحا أن يأتيهم بآية فجاءهم بالناقة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، وقال: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فأقروا بها جميعا فذلك قوله: فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فكانوا قد أقروا بها على وجه النفاق".

عن محمد بن إسحاق، قال: "فمكثت الناقة التي أخرج الله لهم معها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فقال لهم صالح: {هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله... ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم}".

قوله تعالى: {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: ١٥٦]، أي:"فيهلككم الله بعذابِ يومٍ تعظم شدته؛ بسبب ما يقع فيه من الهول والشدة".

قال الطبري:"يقول: فيحل بكم من الله عذاب يوم عظيم عذابه".

عن شهر بن حوشب:"أنه رأى مكانهم وأنه لا يذكر منهم إلا موضع المسلة صاروا رمادا، قال الله ﷻ: {إنه كان عذاب يوم عظيم}".

قوله تعالى: {فَعَقَرُوهَا} [الشعراء: ١٥٧]، أي:"فنحروا الناقة".

قال الطبري: يقول:"فخالفت ثمود أمر نبيها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لا تمسوها بسوء".

=

=

قال ابن كثير:"فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها".

عن عبد الله بن زمعة قال: "سمعت رسول الله ﷺ يذكر الناقة والذي عقرها، فقال: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} انبعث لها رجل عارم عزيز في رهطه منيع، مثل أبي زمعة".

قال عبد الله بن أبي الهذيل: "لما عقرت الناقة صعد بكرها فوق جبل، فرغا فما سمعه شيء إلا همد".

عن قتادة: "أن ثمود لما عقروا الناقة تغامزوا وقالوا: عليكم الفصل فصعد القارة جبل كان حتى إذا كان يوما استقبل القبلة وقال: يا رب: أمتي، يا رب: أمتي، يا رب: أمتي، قال: فأرسلت عليهم الصيحة عند ذلك". وروي عن الحسن نحو ذلك.

قال محمد بن إسحاق: "فرصدوا الناقة حتى صدرت، عن الماء وقد كمن لها قدار في أصل الصخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، قال: فشد يعني قدار على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق. حتى أتى جبلا منيفا ثم أتى صخرة في رأس الجبل فرغا ثم لاذ بها وأتاهم صالح فلما رأى الناقة قد عقرت بكا ثم قال: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} [الشعراء: ١٥٧]، أي:"فأصبحوا متحسرين على ما فعلوا لَمَّا أيقنوا بالعذاب، فلم ينفعهم ندمهم".

قال الطبري: "فلم ينفعهم ندمهم".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قلت: لم يكن ندمهم

=

=

ندم تائبين، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابا عاجلا، كمن يرى في بعض الأمور رأيا فاسدا ويبنى عليه، ثم يندم ويتحسر

كندامة الكسعى، أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة، وذلك عند معاينة العذاب. وقال الله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات... الآية. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد، وهو بعيد".

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ} [الشعراء: ١٥٨]، أي:"فنزل بهم عذاب الله الذي توعدهم به صالح عليه السلام، فأهلكهم".

قال الطبري: "وأخذهم عذاب الله الذي كان صالح توعدهم به فأهلكهم".

قال ابن كثير:"زُلزلت أرضهم زلزالا شديدًا، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين".

قال الزمخشري:"اللام في {العذاب} : إشارة إلى عذاب يوم عظيم".

عن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: "فعتوا، عن أمر ربهم يعني قوم صالح فعقروها فوعدهم الله أن يمتعوا في دارهم ثلاثة أيام فكان أمر الله وعد غير مكذوب فجاءتهم الصيحة فأهلك الذين كانوا منه تحت مشارق الأرض ومغاربها، إلا رجل كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله. فقيل يا رسول الله: من هو؟ فقال: أبو رغال. قال: ومن أبو رغال؟ قال: أبو ثقيف".

قال عطاء:"لما قتل قوم صالح الناقة قال لهم صالح: إن العذاب آتيكم قالوا له: وما علامة ذلك؟ قال: أن تصبح وجوهكم أول يوم محمرة، وفي اليوم الثاني مصفرة، وفي اليوم الثالث مسودة، فلما أصبحوا أول يوم جعل بعضهم ينظر في وجوه بعض فيقول يا فلان: ما لوجهك أحمر؟ فيقول الآخر يا فلان: ما لوجهك أحمر؟ فلما كان اليوم، الثاني: اصفرت وجوههم فجعل بعضهم يلقى بعضا

=

=

ويقول يا فلان: ما لوجهك أسود؟ حتى أيقنوا بالعذاب، تحنطوا، وتكفنوا وأقاموا في بيتهم، قال: فصاح بهم جبريل صيحة فذهبت أرواحهم. قال عيسى: بلغني أن حنوطهم كان المر لأنه يبقى".

قال: محمد بن إسحاق:"فأتاهم صالح فلما رأى الناقة قد عقرت بكى وقال: انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله ونقمته قال وهم يهزئون به: ومتى ذلك يا صالح؟ وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم الأحد: أول والاثنين: أهون والثلاثاء: دبار والأربعاء: جبار والخميس: مؤنس والجمعة: العروبة: والسبت: شيار وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تصبحون غداة مؤنس يوم الخميس وجوهكم مصفرة، وتصبحون يوم العروبة يعني يوم الجمعة وجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم شيار يعني يوم السبت وجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب في أول يوم يعني يوم الأحد".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ١٥٨]، أي:"إن في إهلاك ثمود لَعبرة لمن اعتبر بهذا المصير".

قال الطبري: "يقول: إنّ في إهلاك ثمود بما فعلت من عقرها ناقة الله وخلافها أمر نبي الله صالح لعبرة لمن اعتبر به يا محمد من قومك".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

عن أبي الدرداء:"إن عادا ملئوا ما بين عدن إلى عمان خيلا ورجالا وسواما فعصوا الله فأهلكهم، فمن يشتري تراثهم بنعلي هاتين؟ ألا إن ثمودا ملئوا ما بين الشجر والحجر خيلا ورجالا وسواما عصوا الله فأهلكهم فمن يشتري مني تراثهم بنعلي هاتين؟ ثم يقول لنفسه: فلا أحد".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٥٨]، أي:"وما كان أكثر من

=

=

أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا".

قال الطبري: "يقول: ولن يؤمن أكثرهم في سابق علم الله".

قال مقاتل:"يعني: لو كان أكثرهم مؤمنين ما عذبوا في الدنيا".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)} [الشعراء: ١٥٩]

وإن ربك لهو العزيز القاهر المنتقم من أعدائه المكذبين، الرحيم بمن آمن من خلقه.

قال الطبري: "{وَإِنَّ رَبَّكَ} يا محمد، {لَهُوَ الْعَزِيزُ} في انتقامه من أعدائه، {الرَّحِيمُ} بمن آمن به من خلقه".

قال المراغي: أي: "وإن ربك لهو الشديد فى انتقامه من أعدائه، {الرحيم} بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأصلحوا".

قال مقاتل:"{العزيز} في نقمته من أعدائه، {الرحيم} بالمؤمنين".

قال محمد بن إسحاق: "{العزيز} في نصرته ممن كفر إذا شاء".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: ١٤١ - ١٤٥].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما أسألكم عليه من أجر إن} ما {أجري إلا على رب العالمين}].

قال الله تعالى: {كذبت ثمود المرسلين}، وهذه هي القصة الثالثة التي يذكرها الله تبارك وتعالى دائما عند ذكر قصص الأنبياء، فهم يكونون في الترتيب بعد قوم هود: يكون هود قبل صالح، وصالح بعده.

=

=

وثمود هي القبيلة المعروفة مساكنهم في شمال المملكة العربية السعودية، وتسمى الآن (مدائن صالح)، وهي تسمى في الأصل (الحجج)، هؤلاء القوم أعطاهم الله تبارك وتعالى قوة وقدرة وإبداعا في الصنع، ولهذا أوتوا بآية تناسب حالهم، وهي الناقة؛ كما سيذكر إن شاء الله.

قال: {كذبت ثمود المرسلين} وهم إنما كذبوا رسولا واحدا لكن سبق أن قلنا: إن المرسلين جاءوا بدعوة واحدة، وتكذيب الواحد منهم تكذيب للجنس عموما؛ لأن هؤلاء الذين يكذبون رسولا لم يكذبوه لعينه وشخصه، ولكن كذبوه لدعوته، وهذه الدعوة التي جاء بها هذا الرسول المعين هي دعوة لجميع الرسل، فكأنهم كذبوا جنس هذه الرسالة، فصدق عليهم أنهم مكذبون لجميع الرسل.

قوله: {إذ} هذه إما للتعليل أو ظرف للتكذيب، يعني: إن التكذيب حصل بهذه القصة، {إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون}، وسماه أخا لهم مع بعد ما بين المؤمن والكافر؛ لأخوة النسب، لا لأخوة الدين.

قوله: {إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون}، كل هذه الجمل تقدم الكلام عليها، وذكر الإيرادات على قوله: {إني لكم رسول أمين} والجواب عنها.

* قال الله ﷻ: {أتتركون في ما هاهنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} [الشعراء: ١٤٦ - ١٥٢].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أتتركون في ما هاهنا} من الخيرات {آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم} لطيف لين، {وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين} بطرين، وفي قراءة: (فارهين) حاذقين، {فاتقوا الله

=

=

وأطيعون} فيما أمرتكم به، {ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض} بالمعاصي {ولا يصلحون} بطاعة الله].

قوله: {أتتركون في ما هاهنا} (في ما): أي في الذي (هاهنا): الإشارة إلى مكانهم؛ لأن مكانهم كما وصفه صالح عليه الصلاة والسلام: {جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم}.

والإستفهام في قوله: {أتتركون} للتحذير، يعني: أتظنون أن تتركوا؟ لا، فلن تتركوا، فهو للنفي المتضمن للتحذير.

وقوله: {أتتركون} مبني للمجهول للعلم بالفاعل، والفاعل هو الله ﷻ، يعني: أيترككم الله {في ما هاهنا}؟

وقوله: {في ما هاهنا آمنين} إلى آخره، تذكير بنعمة الله سبحانه وتعالى عليهم، وأنهم لا يمكن أن يتركوا في هذا الحال بدون أمر ولا نهي، فهو كقوله: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} [القيامة: ٣٦]، وقوله: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون} [المؤمنون: ١١٥].

وقوله: {في ما هاهنا آمنين} حال من الواو في: {أتتركون}، يعني حال كونكم آمنين، والآمن هو الذي أمن من الخوف، وفيه دليل على استقرارهم في أوطانهم، وأمنهم، والأمن مع الرزق الواسع هما غاية النعمة في هذه الحياة.

قوله: {في جنات وعيون} والجنات جمع جنة، وهي البساتين الكثيرة الأشجار؛ لأنها تستر من فيها، وقوله: {وعيون} جمع عين، وهي المياه الجارية بدون دوال ولا نواضح.

قوله: {وزروع ونخل طلعها هضيم} عطف ما ذكر على الجنات من باب العطف الخاص على العام؛ للعناية به، وإلا فهو داخل في الجنات؛ فإن الزروع منها والنخيل كذلك.

=

=

والطلع يعني: ما تطلعه، وقوله: {هضيم}: يقول: [لطيف لين]، والأمر كذلك؛ فإن طلع النخيل من ألين ما يكون وألطفه.

وقيل: إن الهضيم بمعنى النضيد، كما قال الله تعالى: {لها طلع نضيد (١٠) رزقا للعباد} [ق: ١٠ - ١١]، يعني أنه منضود ليس متفرقا لأجل أن يسهل أخذه وجنيه.

وإنما نص على الطلع دون غيره من الفوائد مع كثرة فوائد النخيل؛ لأنه غاية ما ينتفع به منها، وإلا ففيها منافع كثيرة، ولهذا شبه النبي ﷺ المؤمن بها؛ لكثرة خيراته وفوائده، هذا من حيث الزروع والتنمية.

أما من حيث البناء والمساكن فقال: {وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بطرين، وفي قراءة: (فارهين) حاذقين].

قوله: {وتنحتون من الجبال بيوتا} المراد بالنحت من الجبال أنهم يجعلون البيت من الجبل، وليس معناه أنهم ينحتون الحصى ثم يبنونها، ولكنهم يجعلون البيت نفسه من الجبل، فيكيفون الجبل كما يريدون، وهو دليل على مقدرتهم، وعلى كمال معرفتهم بالهندسة؛ لأن شيئا ليس أمامك، بل هو في باطن الحصى والجبال والصخور، فتحتاج إلى تفكير قوي كيف تصنعه؟ وكيف تجعل مدخله؟ وكيف تجعل منه استراحة؟ ... إلى آخره. فهو دليل على قوتهم، وعلى حذقهم في الهندسة.

وكلمة: {فارهين} يعني: بطرين، فهي صفة مشبهة، و (فارهين) بالمد اسم فاعل، والمراد به الحذق.

واختلاف القراءتين تكون فيه فائدة، وهي اجتماع المعنيين من هذه الكلمة، فيكونون متصفين بالأمرين: بالبطر بناء على قراءة القصر، وبالحذق بناء على قراءة المد، وهذا من فوائد تنوع القراءة؛ لأن تنوع القراءة له فوائد كثيرة؛ منها أن

=

=

تكون الكلمة جامعة لمعنيين.

قوله: {فاتقوا الله وأطيعون} هذه الجملة مثلما تقدم في قصة عاد؛ إما أن تكون مبنية على ما ذكر، وإما أن تكون مكررة لما سبق، فعلى الأول تكون تأسيسا، وعلى الثاني تكون تأكيدا، والمقام مهم جدا، ويحتاج إلى أن تكرر فيه هذه الكلمة، وهي تقوى الله، وطاعة الرسول ﷺ.

وقوله: {فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} هذا أمر ونهي: أمر بتقوى الله وطاعته، ولكنه نهي عن طاعة أمر المسرفين، واحد الأوامر، يعني: لا تطيعوا أمرهم.

ولماذا قال: {فاتقوا الله وأطيعون} وما قال: وأطيعوا أمري، وهنا قال: {ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون}، ولم يقل: لا تطيعوا المسرفين في إفسادهم؟

والجواب: أنه ينهاهم عن طاعة أمر المسرفين، في أنهم كبار القوم ووجهاؤهم، وأنهم يأمرون، فهذا أبلغ من لو قال: ولا تطيعوهم.

ولو قال: لا تطيعوا المسرفين أنفسهم، ربما يقال: إن هذا لعداوة بينه وبينهم، فهو لا يريد أن يطاعوا، وأمر بطاعة نفسه، لكن لما قال: {أمر المسرفين} فكأنه يقول: أنا لا يهمني أن يكون هذا من فلان أو من فلان، ولكن الكلام على أنه أمر من مسرف؛ لأجل أن يبعد اتهامه بأنه لا يريد المسرفين أنفسهم، حيث وجه النهي عن طاعتهم لأنفسهم، فجعل النهي عن طاعة أمرهم الذي هو أمر إسراف وفساد.

وقوله: {المسرفين} يعني المتجاوزين للحد، فالمسرف: من جاوز حده، ولهذا قال الله تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا} [الأعراف: ٣١]، أي لا تتجاوزوا الحد كمية ولا كيفية.

ثم قال: {الذين يفسدون في الأرض} وهذه الصفة كاشفة وليست قيدا؛ لأن كل

=

=

مسرف في الأرض، فالصفة كاشفة، وقوله: {يفسدون في الأرض} أي: يكونون سببا في فسادها، أو أن المعاصي نفسها فساد.

يعني: إما أن تكون هي الفساد فيفسدون، من باب إضافة الشيء إلى سببه، وإما أن تكون المعاصي سببا للفساد، أو أنها هي نفسها فساد.

قوله: {ولا يصلحون} في طاعة الله، ولا بغيرها أيضا.

وفي قوله: {يفسدون في الأرض ولا يصلحون} دليل على فسادهم، وأنه ليس فيها صلاح، فالنفي هنا يقصد به النفي للإصلاح مع إثبات كمال ضده، وهو الفساد: {يفسدون في الأرض ولا يصلحون}.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بطاعة الله]، الطاعة نفسها إصلاح بلا شك، وهي أيضا سبب للإصلاح؛ فإن طاعة الله تعالى سبب لصلاح كل شيء: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} [النحل: ٩٧].

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قالوا إنما أنت من المسحرين (١٥٣) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين} [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قالوا إنما أنت من المسحرين} الذين سحروا كثيرا حتى غلب على عقلهم، {ما أنت} أيضا {إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين} في رسالتك].

هذا جوابهم، حيث {قالوا إنما أنت من المسحرين} اتهموه بأنه مسحور، ومسحر أبلغ من مسحور أيضا.

وقوله: {إنما أنت} حصر لأعم الأحوال، يعني: ما حالك أبدا تخرج عن هذا الوصف: {إنما أنت من المسحرين}.

وقال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [الذين سحروا كثيرا حتى غلب على عقلهم]، هذا - والعياذ

=

=

بالله - جوابهم، مثلما أجاب به كثير من الناس، بل إنما كل الأنبياء يقال لهم مثل هذا: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢]؛ وذلك لأنه لا حجة لهم، وكل إنسان ليس عنده حجة إنما يذهب إلى السب والشتم، ويظن أنه بذلك ينفر عمن خصمه وعجز عن مقابلته، وأما الإنسان الذي عنده حجة فإنه لا يلجأ إلى الشتم، وإلى السب، ولهذا يعاب على بعض العلماء أن يكون دأبه السب والشتم مع خصومهم.

وكان ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، وعفا عنه - شديدا في المناقشة، ولو كان يناقش بهدوء لكان أحسن له، وأما السب والشتم في قوم هم مثله أرادوا أن يصلوا إلى الحق، فهذا لا ينبغي، ولا يليق به، ولا يليق بالإنسان العامي، فضلا عن العالم، فالمقصود ليس هو التهجم على الشخص، فالمقصود أن يرد على المقالة وتبطل، لكن أعداء الرسل ليس عندهم ما يقاومون به ما جاءت به الرسل، فلهذا يلجئون دائما إلى السب والشتم.

ولا شك أن اتهامه بأنه من المسحرين كذب، بل هو من أعقل الناس عليه الصلاة والسلام، ولولا أنه أعقل قومه ما جعل الله الرسالة فيه: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} [الأنعام: ١٢٤]، فهو أعقلهم، وأكثرهم أمنا، وأقواهم صبرا.

أما قولهم: {ما أنت إلا بشر مثلنا} فهذا صحيح، لكن هذه العلة غير مانعة من أن يكون رسولا، ولهذا قالت الرسل لقومهم الذين احتجوا عليهم بهذه الحجة: {إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله} [إبراهيم: ١١]، وهذا جواب هذه الشبهة، فهي شبهة جعلوها حجة، فيقال: وإذا كان بشرا مثلكم، فلا مانع من أن يمن الله عليه بالرسالة.

وأيضا لا يمكن أن يرسل الله أحدا إلى البشر إلا من البشر، حتى ولو جعل ملكا

=

=

كما اقترح لجعل بسورة الرجل، ثم عاد الأمر على هؤلاء ملتبسا مشتبها، فلم يستفيدوا من ذلك شيئا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فأت بآية إن كنت من الصادقين} في رسالتك]، لو اقتصروا على قولهم: {ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية} لكان هذا كلاما سليما؛ لأن كل إنسان يأتيه بشر مثله ويقول: إنني رسول رب العالمين، فسيقول: هات آية ودليلا، وإلا لأمكن كل كذاب أن يدعي النبوة، وأن يستحل دماء غيره وأموالهم بهذه الدعوى الكاذبة.

فقولهم: {فأت بآية} صحيح، لكن ما المراد منه، هل يراد به التحدي أم الإسترشاد؟

يظهر من حالهم أن المراد به التحدي، يعني أنه لا يمكن أن يأتي بآية، على حد قولهم: إنه مسحر، وقولهم: {إن كنت من الصادقين} يدل على استبعادهم أن يكون كذلك، وعلى أنهم يريدون بهذا التحدي له.

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}. [الشعراء: ١٥٥ - ١٥٩].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال هذه ناقة لها شرب} نصيب من الماء، {ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} بعظم العذاب، {فعقروها} عقرها بعضهم برضاهم {فأصبحوا نادمين} على عقرها، {فأخذهم العذاب} الموعود به فهلكوا، {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}].

أجابهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: {هذه ناقة لها شرب}، فهذه الناقة آية أعظم مما يصنعونه من

=

=

الحجارة، وما يزرعونه من الزروع، ويغرسونه من الأشجار؛ لأنها خرجت عن النوق الأخرى، فلم تكن مثل النوق المعروفة المألوفة.

ووجه كونها آية بينه في قوله: {لها شرب ولكم شرب يوم معلوم}، هذا وجه الآية في هذه الناقة.

وأما ما جاء في الإسرائيليات من أنها خرجت من صخرة، فهذا لا أصل له، ولو كانت كذلك لذكر في القرآن؛ لأن خروجها من صخرة - وهي من الحيوان - أشد وأظهر وأجلى في الآية من كونها لها شرب ولهؤلاء شرب.

والصواب أن يقال: إن هذه الناقة ناقة ولدت من نوق، ولكن لها مزية على غيرها، وهي هذه المزية العظيمة: {لها شرب ولكم شرب يوم معلوم}، يعني أنها هي تشرب من هذا البئر، فتأتي وتشرب، واليوم الثاني تذهب وترعى، لكن في اليوم الذي تشرب قال أهل العلم: إن كل من أعطاها دلوا من الماء أعطته دلوا من اللبن، فصاروا هم يشربون يوما لبنا، ويوما ماء، وهذا اللبن يأخذونه من هذه الناقة، وهذا بلا شك من آيات الله؛ إذ لا توجد ناقة على هذه الصفة.

وقوله: {ولكم شرب يوم معلوم} كان هذا الشرب مؤقتا بوقت جعلوه لأنفسهم، بحيث لا يلتبس على من ليس في البلد حتى لو كان الإنسان في خارج البلد يعرف أن اليوم يوم الناقة، أو أن اليوم يوم الناس، فيأتي ويرد هذه البئر ويشرب منها، أو يرد الناقة بيومها فيشرب من لبنها، وهذه هي الفائدة من قوله: {ولكم شرب يوم معلوم}.

قوله: {ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم} يقول المصنف: إنه عظيم في عظم العذاب، يعني: وليس اليوم نفسه هو العظيم، ولكن لوقوع العذاب فيه صار عظيما، و {عظيم} وصف لليوم.

وهل هو وصف مدح أم وصف ذم؟

=

=

هو في الحقيقة وصف مدح، ودليل على القوة فيما وصف به، حتى إن كان عذابا فهو دليل على قوة العذاب، وإن كان خيرا فهو دليل على قوة هذا الخير، فالعظمة من حيث هي معنى من المعاني تدل على الكمال والمدح، سواء كان هذا في عذاب أو في نعمة.

وقوله: {عذاب يوم عظيم} كثير من الناس يتحاشون أن يصفوا المخلوق بـ (العظيم)، ولكن الحقيقة لا وجه لهذا، فقد قال الله تعالى: {ولها عرش عظيم} [النمل: ٢٣]، {عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم (٢)} [النبأ: ١ - ٢]، {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} [الواقعة: ٧٦]، فوصف الله تعالى بالعظم نفسه وكلامه ووحيه، ووصف به أيضا بعض مخلوقاته، مما يدل على أنه لا بأس به.

وقد كان الناس يتحاشون أيضا قول (المعظم)، وهذا أيضا لا يتحاشى منه، والسبب أنه معظم ليس عظيما، فـ (المعظم) قد لا يكون عظيما، فقد يعظم من ليس بعظيم، وهو أقل رتبة من العظيم؛ فإذا كان (العظيم) جائزا إطلاقه، فـ (المعظم) من باب أولى.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: {فعقروها} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: عقرها بعضهم برضاهم، {فأصبحوا نادمين} على عقرها، {فأخذهم العذاب} الموعود به، فهلكوا]، فهو عليه السلام قال لهم: {ولا تمسوها بسوء}، ولكنهم مسوها بأسوأ السوء - والعياذ بالله - فعقروها، والظاهر أن المراد بالعقر القتل، وليس قطع الأرجل فقط، بل أنهم أهلكوها، فعوقبوا بمثل ما جنوا.

وهل أصبحوا نادمين على ما فعلوا من ذنب، أم أنهم ندموا على ما فاتهم من مصلحتها؟

الظاهر أنهم ندموا على المصلحة؛ لأنهم ما بعد أتاهم العذاب، فالظاهر أنهم ندموا على ما فاتهم من المصلحة الدنيوية؛ لأنهم لو ندموا على الذنب لكانوا تائبين،

=

=

ولما استحقوا العذاب، لكن ندموا على مصلحتهم فقد كانوا يشربون من لبنها، ثم فاتهم هذا.

وقد بقوا بعد ذلك ثلاثة أيام، والحكمة من هذه الأيام الثلاثة - والله أعلم - لعلهم يتوبون، ولكنهم لم يتوبوا، وقد أخذ من هذا استتابة المرتد ثلاثة أيام، فإن تاب وإلا أجري عليه الحد، على خلاف بين أهل العلم في هذه المسألة.

والمهم أن هؤلاء لم يندموا على فعل المعصية، ولو ندموا لكان توبة، ولكنهم ندموا على ما فاتهم من حظ الدنيا فقط.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فأخذهم العذاب} الموعود به، فهلكوا]، إلا أن الله تعالى أنجى صالحا ومن معه.

وقوله تعالى: {فعقروها} معلوم أنهم لم يكونوا كلهم عقروها، ولكن لما كان برضا الجميع، ومن زعمائهم، فنسب إليهم جميعا، ففعل الطائفة من الأمة يعتبر فعلا للجميع إذا لم ينكروه، فإذا سكتوا ولم ينكروه فهو فعل الجميع، ولهذا يذكر الله تعالى اليهود في عهد الرسول ﷺ بما فعل أسلافهم، ويخاطبهم به مخاطبة الفاعل؛ لأنها أمة واحدة، فإذا لم تنكر ما كان عليه أسلافها، نسب للجميع.

وما هو العذاب الذي أخذهم؟

الجواب: صيحة ورجفة، يعني: رجف الله بهم الأرض وصاح بهم جبريل، فماتوا، {فأصبحوا في ديارهم جاثمين} [هود: ٦٧]، - والعياذ بالله - صرعى كنفس واحدة.

وفي هذا دليل على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى قادر على كل شيء، ولا يعجزه، قال تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا} [فاطر: ٤٤]، ولو أننا عقلنا - نحن المسلمين - وآمنا حقيقة الإيمان، ما كنا بهذه الحال التي نحن عليها، يعني: ما كنا نخاف الناس

=

=

أكثر مما نخاف الله.

فالإنسان لا بد أن يخاف ويرجو، لكن إما أن يخاف الله أو يخاف غيره؛ فإن خاف الله خافه الناس، وإن خاف غير الله استولى عليه هذا الخوف، وهذا صحيح وحق، فإن من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقى الله اتقاه كل شيء، والعكس بالعكس.

فعلينا جميعا أن نكون واثقين بوعد الله ﷻ غير ناظرين إلى الأسباب الحاضرة، ولو نظرنا نظرة مادية محضة، لكنا لا يمكن أن نتكلم مع هؤلاء، أو أن نتحداهم في تنفيذ الشريعة ومحاربتهم، لكن يجب أن لا ننظر إلى هذه الأسباب الحاضرة، ويجب أن ننظر إلى أسباب أخرى فوق المادة.

ولهذا من نظر إلى هذه الأسباب - المشاهدة الطبيعية - لا يستقيم له أمر، فالصحابة ﷺ عندما جاءت الفرس والروم لم ينظروا إلى هذه الأسباب، فقد كانوا يحاصرون المدينة العظيمة لمدة، ثم يخرجون في الصباح، فيكبرون الله، فإذا كبروا تصدعت الأسوار، وهذا شيء متواتر في التاريخ عنهم، أنهم يحاصرون المدينة مدة، ثم إذا كبروا الله سبحانه وتعالى كأنها صواريخ وقنابل تصدع هذه الجدران، ولكنه تكبير يخرج من القلب.

قوله: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}، فقوم صالح بغض النظر عن عقر الناقة قد آمن قليل منهم بالله.

فإن قيل: كيف أخذت منهم أحكام المرتد وهم أصلا لم يؤمنوا؟

قلنا: أخذ هذا من إمهال الله سبحانه وتعالى لهم ثلاثة أيام، فصار أننا نمهل الكفار ثلاثة أيام، لكن الكفار الأصليين في الشريعة الإسلامية لهم أحكام خاصة، كإقرارهم بالجزية مثلا، وغيرهم ممن لا يقر على دينه وهو المرتد ينظر ثلاثة أيام، والمسألة خلافية، ثم إن الردة أيضا تختلف: فمن الردة ما يمكن أن يمهل، ومنها ما لا يمكن أن يمهل.

=

=

وهل كان قوم صالح كلهم يشربون من بئر واحدة؟

نقول: لعل هذه البئر هي الصالحة في الشرب، وغيرها لا تصلح للشرب، المهم أن أصل شربهم من هذه البئر، ولهذا قسم وقتها: {قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم}، ولا مانع أيضا من أن تكون هذه البئر تسقي كلما أمكن، لكن الأقرب - والله أعلم - أن البساتين منتشرة فيها العيون، وأن هذه البئر هي التي يأخذون منها ماء الشرب.

فإن سأل سائل: لماذا منع الرسول ﷺ من الشرب من مائهم حين مر بديارهم؟

فالجواب: لأن استعمال هذا الماء يؤدي إلى النزول فيه والطمأنينة، والرسول عليه الصلاة والسلام لما مر بها مر مقنعا رأسه وأسرع، وقال: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم"، فالمسألة ليست هينة، والعجيب أن كثيرا من الناس اليوم يذهبون إليها مذهب الفرجة والنزهة، وهذا حرام، لا يجوز.

ولا يعارض هذا قول الله تعالى: {وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال} [إبراهيم: ٤٥]؛ لأنهم كافرون؛ أي أن فعلهم لا يدل على الجواز.

أو يقال: إن شريعتنا وردت بخلاف ذلك في التحريم، وأما قول بعض الناس: الأرض كلها لا تخلو من أمم مكذبة، فأنا أقول: نعم، الأرض كلها لا تخلو من أمم مكذبة، لكن من قال: إن هذا المكان المعين مكان أمة مكذبة.

والأحقاف في الأصل يجوز أن نزورها؛ لأننا لا نعلم مساكنهم بعينها، لكن ثمود مساكنهم موجودة بعينها، فإذا دخلها الإنسان كأنه داخلها بذلك الوقت، ولهذا منع الرسول ﷺ من الدخول إلا والإنسان باك، فقال عليه الصلاة والسلام: "فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم"، لكن عندنا اليوم يدخلون ومعهم آلات

=

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠).

{كذبت قوم لوط المرسلين}.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١).

{إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون}.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣).

{إني لكم رسول أمين}.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣).

{فاتقوا الله وأطيعون.

=

التصوير.

فإن قيل: وهل شد الرحل لزيارة مساكن ثمود محرم؟

قلنا: شد الرحل لغير التعبد ليس فيه مانع، فكل الناس يشدون الرحال للتجارة ولغير التجارة، لكن شدها للنزهة فهذا حرام.

أما أن يذهب للخشوع والتعبد بتذكر مآل هؤلاء الجبارين لما عصوا أمر ربهم، فقد يقال: إن هذا لا بأس به، على أن المسألة فيها نظر، فقد يقال: إن الإعتبار بما في القرآن أبلغ بما في البنيان، لكنه أهون من الذي يذهب للنزهة والفرجة، فزيارة هذه المساكن مشروطة بأن يعتبر الإنسان.

وهل يجوز الشرب من مائهم؟

يقول العلماء: إنه يجوز، حتى من بئر الناقة؛ لأن المسلمين كانوا يشربون منها، فبئر الناقة كانت معروفة في الزمن السابق، أما الآن فلا ندري أمعروفة أم لا، وإلا فقد كانت معروفة في الماضي، وحسب كلام الفقهاء أنها كانت بئرا كبيرة، يردها الحجاج الذين يقدمون من الشام.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤).

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ} مَا {أجري إلا على رب العالمين}.

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥).

{أتأتون الذكران من العالمين} الناس.

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦).

{وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبّكُمْ مِنْ أَزْوَاجكُمْ أَقْبَالهنَّ {بَلْ أَنْتُمْ قَوْم عَادُونَ} مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَال إلى الحرام.

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧).

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوط} عَنْ إِنْكَارك عَلَيْنَا {لَتَكُونَن مِنْ الْمُخْرَجِينَ} مِنْ بَلْدَتنَا.

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨).

{قَالَ} لُوط {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنْ الْقَالِينَ} الْمُبْغَضِينَ.

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩).

{رَبّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} أَيْ مِنْ عذابه.

فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠).

{فنجيناه وأهله أجمعين}.

إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١).

{إِلَّا عَجُوزًا} امْرَأَته {فِي الْغَابِرِينَ} الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا.

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢).

{ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} أَهْلَكْنَاهُمْ.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣).

{وأمطرنا عليهم مطرا} حجارة من جملة الإ هلاك {فساء مطر المنذرين} مطرهم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤).

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠)} [الشعراء:١٦٠]

كَذَّبت قوم لوط برسالته، فكانوا بهذا مكذبين لسائر رسل الله؛ لأن ما جاؤوا به من التوحيد وأصول الشرائع واحد.

قال مقاتل:"كذبوا لوطا وحده ولوط ابن حراز بن آزر، فسارة أخت لوط- عليه السلام- ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ} من أرسله الله إليهم من الرسل".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون "سدوم" وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك".

عن قتادة:"قرية لوط حين رفعها جبريل عليه الصلاة والسلام وفيها أربعمائة ألف فسمع أهل السماء نباح الكلاب وأصوات الديكة، ثم قلب أسفلها أعلاها".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٦١]، أي:"إذ قال لهم أخوهم لوط: ألا تخشون عذاب الله؟".

=

=

قال مقاتل:"يعني: ألا تخشون الله- ﷻ-".

قال يحيى:"{ألا تتقون}، يعني: ألا تخشون الله، يأمرهم أن يتقوا الله، [ولوط] أخوهم في النسب، وليس بأخيهم في الدين".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: ١٦٢]، أي:"إني رسول من ربكم، أمين على تبليغ رسالته إليكم".

قال الطبري:"{أَمِينٌ} على وحيه، وتبليغ رسالته".

قال يحيى:"{أَمِينٌ} على ما جئتكم به".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٦٣]، أي:"فاحذروا عقاب الله على تكذيبكم رسوله، واتبعوني فيما دعوتكم إليه".

قال الطبري: يقول:"{فَاتَّقُوا اللهَ} في أنفسكم، أن يحلّ بكم عقابه على تكذيبكم رسوله {وأطيعون} فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد".

قال مقاتل: "{وأطيعون}، فيما آمركم به من النصيحة".

قال ابن كثير:"دعاهم إلى الله، ﷻ، أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم".

عن عطاء قوله: "{وأطيعون}، قال: طاعة الرسول: اتباع الكتاب والسنة".

قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء: ١٦٤]، أي:"وما أسألكم على دعوتي لهدايتكم أيَّ أجر".

قال مقاتل:"يعني: ما أسألكم على الإيمان من جعل".

قال الطبري:"يقول: وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي جزاء ولا ثوابا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٤]، أي:"ما أجري إلا على رب العالمين".

=

=

قال الطبري:"يقول: ما جزائي على دعايتكم إلى الله، وعلى نصحي لكم وتبليغ رسالات الله إليكم، إلا على ربّ العالمين".

قوله تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٦٦]، أي:"أتنكحون الذكور مِن بني آدم".

قال الطبري: يعني به:"أتنكحون الذكران من بني آدم في أدبارهم".

قال يحيى:"ما جعل لكم ربكم من فروج نسائكم، وهذا على الاستفهام، أي: قد فعلتم".

قال ابن عثيمين:"وهذا الإستفهام للتوبيخ والإنكار، ولم يقل: "أتأتون الذكران منكم"، بل قال: {من العالمين}؛ إشارة إلى أنهم - والعياذ بالله - لا يتحاشون من أحد".

قال ابن كثير:"نهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكْران دون الإناث".

قال القرطبي:"كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء".

قال البيضاوي: يقول:"أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم، فالمراد ب العالمين على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس".

قال الزمخشري:"أراد بالعالمين: الناس، أى: أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام- على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة- ذكر انهم، كأن الإناث قد أعوزتكم، أو أتأتون أنتم- من بين من عداكم من العالمين- الذكران، يعنى أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. و «العالمون» على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان".

=

=

قال وهب بن منبه:"كان أهل سدوم الذين فيهم لوط قوم سوء قد استغنوا، عن النساء بالرجال".

قوله تعالى: {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} [الشعراء: ١٦٦]، أي:"وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم وتناسلكم مِن أزواجكم؟".

قال الطبري:"يقول: وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهنّ، فأحله لكم".

قال القرطبي:"يعني: فروج النساء، فإن الله خلقها للنكاح".

قال مجاهد:"تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء".

عن مجاهد:"{ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم}، يعني: القبل".

قال الزمخشري:"{من أزواجكم}، يصلح أن يكون تبيينا لما خلق، وأن يكون للتبعيض، ويراد بما خلق: العضو المباح منهن".

وفي قراءة ابن مسعود: «وَتَذَرُونَ ما أَصْلَحَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ»، قال الزمخشري:"وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم".

قوله تعالى: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: ١٦٦]، أي:"بل أنتم قوم -بهذه المعصية- متجاوزون ما أباحه الله لكم من الحلال إلى الحرام".

قال القرطبي:"أي: متجاوزون لحدود الله".

قال الطبري:"يقول: بل أنتم قوم تتجاوزون ما أباح لكم ربكم، وأحله لكم من الفروج إلى ما حرّم عليكم منها".

قال البيضاوي: أي:"متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة".

قال الزمخشري:"العادي: المتعدى في ظلمه، المتجاوز فيه الحد، ومعناه:

=

=

أترتكبون هذه المعصية على عظمها، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذاك، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة".

عن ابن جُرَيج: "{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}، قال: قوم معتدون".

قال الزجاج:"{عادون}: ظالمون غاية الظلم".

قوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)} [الشعراء: ١٦٧]

قال قوم لوط: لئن لم تترك يا لوط نَهْيَنا عن إتيان الذكور وتقبيح فعله، لتكونن من المطرودين من بلادنا.

قوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ} [الشعراء: ١٦٧]، أي:"قال قوم لوط: لئن لم تترك يا لوط نَهْيَنا عن إتيان الذكور وتقبيح فعله".

قال الطبري: أي:"عن نهينا عن إتيان الذكران".

قال ابن كثير:"لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جواب قومه له إلا قالوا: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ} يعنونَ: عما جئتنا به".

قوله تعالى: {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} [الشعراء: ١٦٧]، أي:"لتكونن من المطرودين من بلادنا".

قال مقاتل: يعني: "من القرية".

قال يحيى:"أي: نقتلك، فنخرجك منها قتيلا".

قال الطبري: أي:"من بين أظهرنا وبلدنا".

قال ابن كثير:"أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢]".

=

=

قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨)} [الشعراء: ١٦٧]

قال لوط لهم: إني لِعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكور، لَمن المبغضين له بغضًا شديدًا.

قال مقاتل:"{إني لعملكم}، يعني: إتيان الرجال، {من القالين}، يعني: الماقتين".

قال يحيى:"من المبغضين".

قال الطبري: "يقول لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين، يعني من المبغضين، المنكرين فعله".

قال ابن كثير:"فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم فقال: {قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ}، أي: الُمبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ فأنا بريء منكم".

قال ابن فورك:"القالي: المبغض".

قال ابن قتيبة:"أي: من المبغضين. يقال: قليت الرجل، أي أبغضته".

قال الزجاج:"القالي: التارك للشيء الكاره له غاية الكراهة".

قوله تعالى: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)} [الشعراء: ١٦٧]

ثم دعا لوط ربه حينما يئس من استجابتهم له قائلا ربِّ أنقذني وأنقذ أهلي مما يعمله قومي مِن هذه المعصية القبيحة، ومِن عقوبتك التي ستصيبهم.

قال ابن كثير:"ثم دعا الله عليهم قال: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فاستغاث لوط حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إن هو لم ينته عن نهيهم عن ركوب الفاحشة، فقال: {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي} من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيان الذكران".

قال مقاتل:"{مما يعملون}، من الخبائث".

=

=

عن السدي:"{مما يعملون}، يقول: ينكحون الرجال".

قوله تعالى: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١)} [الشعراء: ١٧٠ - ١٧١]

فنجيناه وأهل بيته والمستجيبين لدعوته أجمعين إلا عجوزًا من أهله، وهي امرأته، لم تشاركهم في الإيمان، فكانت من الباقين في العذاب والهلاك.

قال مقاتل:"ثم استثنى فقال: {إلا عجوزا في الغابرين}، يعني: الباقين في العذاب يعني امرأته".

قال الزجاج: {الغابرين}: "جاء في التفسير: في الباقين في العذاب، و «الغابر» في اللغة: الباقي".

قال الطبري: يقول:"{فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ} من عقوبتنا التي عاقبنا بها قوم لوط {أَجْمَعِينَ إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، يعني: في الباقين، لطول مرور السنين عليها، فصارت هرمة، فإنها أهلكت من بين أهل لوط، لأنها كانت تدلّ قومها على الأضياف. وقد قيل: إنما قيل من الغابرين لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة".

قال يحيى:"{ثم دمرنا الآخرين} قوم لوط وامرأته معهم، وكانت منافقة، تظهر للوط الإيمان وهي على الشرك".

قال ابن كثير:"{إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع مَنْ بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في "سورة الأعراف" و"هود"، وكذا في "الحِجْر" حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عمّ جميعهم".

=

=

قال يحيى:"أهله: أمته المؤمنون".

قال ابن فورك:"وقيل: أهله أمته المؤمنون به. وقيل بناته".

عن قتادة:"{إلا عجوزا في الغابرين} قال: هي امرأته".

عن قتادة:"{في الغابرين}، قال: في الباقين في عذاب الله". وفي رواية:"«فيمن غبر فلم تذهب معهم".

عن السدي: {فِي الْغَابِرِينَ}: "الهالكين".

قوله تعالى: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} [الشعراء: ١٧٣]، أي:"ثم أهلكنا مَن عداهم من الكفرة أشدَّ إهلاك".

قال مقاتل:"يعني: أهلكنا الآخرين بالخسف والحصب".

قال الطبري: يقول:"ثم أهلكنا الآخرين من قوم لوط بالتدمير".

قال ابن فورك:"التدمير: الإهلاك بأهول الأمور".

قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا} [الشعراء: ١٧٣]، أي:"وأنزلنا عليهم حجارة من السماء كالمطر أهلكتهم".

قال الطبري: "وذلك إرسال الله عليهم حجارة من سجيل من السماء".

قال ابن كثير:"أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود".

قوله تعالى: {فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ} [الشعراء: ١٧٣]، أي:"فقَبُحَ مطرُ من أنذرهم رسلهم ولم يستجيبوا لهم؛ فقد أُنزل بهم أشدُّ أنواع الهلاك والتدمير".

قال الطبري: "يقول: فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذّبوه".

قال مقاتل:"يعني: فبئس {مطر المنذرين}، يعني: الذين أنذروا بالعذاب. خسف الله بقرى قوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية".

قال يحيى:"أي: فبئس مطر المنذرين أنذرهم لوط فلم يقبلوا. أصاب قريتهم الخسف، وأصابت الحجارة من كان خارجا من القرية وأهل السفر منهم،

=

=

وأصاب العجوز حجر فقتلها".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)} [الشعراء: ١٧٤]

إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لَعبرة وموعظة، يتعظ بها المكذبون. وما كان أكثرهم مؤمنين.

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ١٧٤]، أي:"إن في ذلك العقاب الذي نزل بقوم لوط لَعبرة وموعظة، يتعظ بها المكذبون".

قال مقاتل:"إن في هلاكهم بالخسف والحصب لعبرة لهذه الأمة".

قال الطبري: "إن في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، يتعظون بها في تكذيبهم إياك، وردهم عليك ما جئتهم به من عند ربك من الحق".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

عن سعيد بن جبير، قوله: "{إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٧٤]، أي:"وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا".

قال الطبري: أي: "في سابق علم الله".

قال مقاتل:"لو كان أكثرهم مؤمنين لم يعذبوا في الدنيا".

عن سعيد بن جبير، " {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}،:يعنى: مصدقين".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)} [الشعراء: ١٧٥]

وإن ربك لهو العزيز الغالب الذي يقهر المكذبين، الرحيم بعباده المؤمنين.

قال مقاتل:"{العزيز} في نقمته. {الرحيم} بالمؤمنين".

=

=

عن محمد بن إسحاق: "{العزيز}، قال: العزيز في نصرته ممن كفر به إذا شاء".

عن سعيد، قوله: "{الرحيم}، يعني: رحيما بهم بعد التوبة".

قال ابن جريج: "كل شيء في الشعراء من قوله «العزيز الرحيم»، فهو ما أهلك ممن مضى من الأمم، يقول: عزيز، حين انتقم من أعدائه، رحيم بالمؤمنين، حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسألكم عليه من أجر إن} ما {أجري إلا على رب العالمين}].

قوله تعالى: {قوم لوط} هؤلاء في قرية يقال لها: (سدوم) من أرض فلسطين، ولوط هو - كما يقول المؤرخون - ابن أخي إبراهيم، فيكون إبراهيم عمه، أرسله الله تبارك وتعالى إلى أهل هذه القرية.

وكانوا مع كفرهم بالله سبحانه وتعالى يعملون عملا فاحشا، يعتبر من أسفل الأعمال - والعياذ بالله - وقد سماه الله تعالى خبيثا في قوله: {ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث} [الأنبياء: ٧٤]، فهو خبث ورجس؛ لأنه قبيح عقلا، وفطرة، وشرعا، والذي يعملونه هو أنهم يأتون الذكران - والعياذ بالله - كما يأتون النساء.

وهنا يقول سبحانه وتعالى: {إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله وأطيعون (١٦٣) وما أسألكم عليه من أجر إن

=

=

أجري إلا على رب العالمين}، وكل هذا تقدم الكلام عليه.

* قال الله ﷻ: {أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أتأتون الذكران من العالمين} الناس، {وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم} أقبالهن، {بل أنتم قوم عادون} متجاوزون الحلال إلى الحرام].

كل الرسل يرسلون أولا بتحقيق التوحيد: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} [النحل: ٣٦]، لكن هناك أنواع معينة من المعاصي يرتكبها بعض الأمم ويركز عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، ففيما ذكر في قوم لوط كان جرمهم هذه الفاحشة، ولهذا قال: {أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥) وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم} وهذا الإستفهام للتوبيخ والإنكار.

قوله: {أتأتون الذكران} أي: الذكور، جمع ذكر، {من العالمين} بيان للذكران، أي: من الناس، سواء كانوا من قبيلتكم أو من غير قبيلتكم، ولهذا لم يقل: "أتأتون الذكران منكم"، بل قال: {من العالمين}؛ إشارة إلى أنهم - والعياذ بالله - لا يتحاشون من أحد، فهم مثل الكلاب.

ثم مع ذلك - زيادة على قبحهم - أنهم تركوا النعمة التي خلقها الله لهم {وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم}، فلو كنتم تأتون الذكران من العالمين؛ لأنكم مضطرون لذلك، وليس لكم من الحلال ما يغنيكم، لكان الأمر أهون، لكن لكم من الحلال ما يغنيكم، فكيف تأتون الخبائث وتدعون الطيبات؟ !

ولهذا قال: {وتذرون} وهي داخلة في مضمون الإستفهام، يعني: وأتذرون، بمعنى: تتركون {ما خلق لكم ربكم من أزواجكم}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

=

=

[أقبالهن]، وهذا تفسير لقوله: {ما خلق لكم ربكم} يعني: تأتون الذي خلق لكم من الأزواج، وهو القبل، هذا ما ذهب إليه المصنف، والصواب خلاف هذا، والصواب أن (من) بيان لـ (ما) أي: ما خلق لكم ربكم من الأزواج، يعني: وتذرون الأزواج، هذا هو المعنى.

وفرق بين ما ذكرت وبين ما ذهب إليه المصنف، يعني: كأنه يقول: تذرون فروج النساء، ولكن لو قال: (أتأتون أدبار الذكور) لكان صوابا، وتذرون فروج النساء، لكن لما قال: {أتأتون الذكران} صار المناسب أن المعنى: وتدعون النساء.

لكن قال: {ما خلق لكم ربكم} دون قوله: {أزواجكم}؛ إشارة إلى أن الله تعالى هيأ هذه الزوجة للذكر يتمتع بها كما يشاء، إلا فيما حرم الله من الدبر مثلا، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم} [البقرة: ٢٢٣]، وقال: {والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين} [المؤمنون: ٥ - ٦] وهذا يدل على إباحة استمتاع الرجل بامرأته إباحة مطلقة بلا حدود، ما عدا أمرين: الدبر، والفرج في الحيض، وما سوى ذلك فكل شيء مباح.

وهذا يزيد الأمر قبحا إلى قبحهم، حيث يدعون الطيب ويأتون الخبيث.

وفي قوله: {أتأتون} و {وتذرون} الفائدة المعنوية التي أشرنا إليها، وهي زيادة القبح، والفائدة اللفظية، وهي الطباق بذكر الأمر ومقابله.

وقوله عليه الصلاة والسلام: {ما خلق لكم ربكم} اللام للإباحة أو للتعليل؛ أي: خلق لأجلكم، أو: أباح لكم.

وقوله: {ربكم} إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى هو المتصرف فيهم الذي يحييهم.

وقوله: {بل أنتم قوم عادون}، (بل) للإضراب، والإضراب هنا كأنه قال: لا تاتون الذكران فطرة ولا عملا عاديا محبوبا إلى الفطر، ولكن الذي حملكم على هذا هو

=

=

العدوان المجرد - والعياذ بالله - متجاوزين الحلال إلى الحرام، فبين لهم لوط عليه الصلاة والسلام أن ما فعلوه أمر مستنكر عقلا، ومستنكر شرعا وعرفا؛ لأن العدوان لا شك أن كل أحد ينكره، وهؤلاء معتدون.

ومن الغريب أن الفاعل منهم اليوم قد كان مفعولا به بالأمس! والمفعول به اليوم يكون فاعلا في المستقبل! وهذا غاية ما يكون من العدوان.

وسبحان الله! كيف هؤلاء الجماعة - نسأل الله السلامة - يرى الإنسان ولده أو أخاه الصغير تفعل به الفاحشة ولا يبالي بهذا؟ ! والظاهر أنهم يفعلونها جهرا؛ لقوله: {وتأتون في ناديكم المنكر} [العنكبوت: ٢٩]، فهم لا يبالون - والعياذ بالله - أن يركب بعضهم بعضا جهارا، وهذا غاية ما يكون من السخط.

* قال الله ﷻ: {قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين (١٦٧) قال إني لعملكم من القالين (١٦٨) رب نجني وأهلي مما يعملون (١٦٩) فنجيناه وأهله أجمعين (١٧٠) إلا عجوزا في الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الآخرين (١٧٢) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (١٧٣) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١٦٧ - ١٧٥].

قال المصنف رحمه الله: [{قالوا لئن لم تنته يالوط} عن إنكارك علينا {لتكونن من المخرجين} من بلدتنا، {قال} لوط {إني لعملكم من القالين} المبغضين، {رب نجني وأهلي مما يعملون} أي من عذابهم، {فنجيناه وأهله أجمعين (١٧٠) إلا عجوزا} امرأته {في الغابرين} الباقين أهلكناها، {ثم دمرنا الآخرين} أهلكناهم، {وأمطرنا عليهم مطرا} حجارة من جملة الإهلاك {فساء مطر المنذرين} مطرهم {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}].

هذا الجواب القبيح منهم: {لئن لم تنته يالوط} عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {لتكونن من المخرجين}، وهذا أبلغ من لو قالوا: (لنخرجنك)، كأنهم

=

=

يهددونه بما هو أعظم؛ ترويعا له، يعني: إننا أخرجنا غيرك وستكون أنت من جملة المخرجين؛ لأن لنا قدرة وسلطة على إخراجك.

وفي قوله: {لئن لم تنته} تأكيد بالقسم واللام ونون التوكيد: فاللام في {لئن} موطئة للقسم، أما اللام في {لتكونن} فهي واقعة في جواب القسم،

والجواب الموجود هنا للقسم، قال ابن مالك:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

قال لهم لوط عليه الصلاة والسلام: {قال إني لعملكم من القالين} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المبغضين]، وهذا فيه نوع من التحدي لهم. يعني: إن أخرجتموني فأنا راض بذلك، ولا يهمني إخراجي؛ لأني {لعملكم من القالين} والإنسان المبغض لعمل قوم لا يحب أن يبقى معهم، فكأنه يقول: أنا لا يهمني إذا خرجت؛ لأنني لا أرغب بالمقام معكم وأنتم على هذا العمل الخبيث الذي أبغضه، والإنسان أشد ما يكون عليه أن يبقى مع قوم يكرههم، يقول المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

وهذا صحيح، فأن تبقى مع قوم تكره أفعالهم، هذا صعب على النفوس، فكأنه يقول: أنا أرغب بهذا، ومستعد له، ولا أبالي من القالينبإخراجكم.

وفيه دليل على أنه يجب على كل مؤمن أن يبغض عمل هؤلاء القوم؛ لأن الرسل يبغضونه، وهذه هي فائدة الجمع في قوله: {من القالين} أي: من المبغضين له، وإن كان هو ما فيه إلا قليل من الذين آمنوا معه: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]، يعني أنه ما آمن معه أحد إلا أهل بيته، وليس كل أهله؛ فامرأته كانت من الكافرين.

قوله تعالى: {رب نجني وأهلي مما يعملون} قال المصنف: [{مما يعملون} من

=

=

عذابهم]، ولا شك أن هذا التأويل قاصر؛ لأن: {مما يعملون} أي: من فعلهم ومن عذابهم أيضا.

ولا يمتنع أن يسأل الله تعالى أن ينجيه من هذا العمل، وإن كان الرسل لا يمكن أن يعملوه، لأن الصواب المقطوع به أنهم معصومون مما يخل بالشرف والكرامة، وعمل قوم لوط هذا يخل بالشرف، لكنه هو دعا لنفسه وأهله: {نجني وأهلي}، وأهله ليسوا معصومين.

والصواب أنه سأل الله أن ينجيه من عملهم، ومن عذابهم. قال الله تعالى: {فنجيناه وأهله أجمعين} الفاء للتفريع، يعني: فتفريعا على دعوته أجيب.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلا عجوزا} {في الغابرين} امرأته، {في الغابرين} الباقين أهلكناها]،

وفي بعض النسخ: [أهلكنا]، وكأنه يريد أن (أهلكنا) مسلط على قوله: {إلا عجوزا} يعني: إلا أنا أهلكنا {عجوزا}، و (أهلكناها) أيضا لها معنى أوضح؛ لأنه إذا قال: (الباقين أهلكنا) قد يظن الظان أن المراد أهلك الباقين. وعلى كل حال استجاب الله دعوته، فنجاه وأهله.

قوله: {أجمعين} يدل على أن الأهل كانوا عددا كثيرا، والصحيح أننا لا ندري كم عددهم، إنما أهله، ولكن: {أجمعين} يدل على الكثرة؛ لأن: {أجمعين} هذه جمع، وأدنى ما يقال فيه ثلاثة، مع أن هذه الكلمة: {أجمعين} تدل على جماعة مستكثرة.

وقوله: {إلا عجوزا} - والعياذ بالله- هذه المرأة عجوز كبيرة في السن، وكان الذي ينبغي لكبير السن أن يكون منيبا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قريب من الموت، وأقرب إلى الموت من الشاب، ولكن هي صارت خبيثة- والعياذ بالله- كافرة بالله، لكنها كاتمة لذلك، ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: {فخانتاهما}[التحريم: ١٠]

=

=

ليست خيانة شهوة وزنا، لكن خيانة كفر، ولهذا قال: {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط} [التحريم: ١٠]، ثم قال: {فخانتاهما}، لم تشعراهما بالكفر، فما علما بكفرهما.

وهي لما كانت مؤيدة لفعل القوم كان هذا إقرارا بالكفر، فهي كافرة ومؤيدة أيضا زيادة.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلا عجوزا في الغابرين} الباقين]، والغابر: يطلق على معان، منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضا، فيكون من الأضداد؛ وهي الكلمات التي تصلح للشيء ولضده.

قوله: {ثم} بعد أن أنجينا لوطا وأهله {ثم دمرنا الآخرين}؛ لأنه بعد أن أمر أن يسير بأهله ليلا، وأن يخرج من البلدة إلا امرأته، دمر الله هذه البلدة، يعني: فخرج ثم دمرت، وقوله: {الآخرين} المراد به قومه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أهلكناهم، {وأمطرنا عليهم مطرا} حجارة، من جملة الإهلاك]، والظاهر لي أن قوله: {وأمطرنا} عطف تفسير على قوله: {ثم دمرنا}؛ لأن هذا هو الذي دمروا به، أن الله أمطر عليهم مطرا، وهذا المطر هو {حجارة من سجيل منضود} [هود: ٨٢]، متتابع، {مسومة} [هود: ٨٣] عند الله.

قوله سبحانه وتعالى: {فساء مطر المنذرين} أي: مطر هؤلاء القوم، وإنما قال: {المنذرين}؛ لبيان أنها قد قامت عليهم الحجة ولم ينذروا بالعذاب إلا بعد أن أعذر منهم.

قوله: {إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين} في هذه الآية وغيرها من الآيات ما يدل على أن قوم لوط أهلكوا بهذه الحجارة: بالتدمير بالحجارة وليس بالقلب كما هو مشهور عند أهل العلم وكثير من المصنفين، أن بلادهم حملت إلى عنان السماء ثم قلبت، فهذا ليس في القرآن ما يدل عليه، والذي في القرآن قوله:

=

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦).

{كَذَّبَ أَصْحَاب الْأَيْكَة} وَفِي قِرَاءَة بِحَذْفِ الْهَمْزَة وَإِلْقَاء حَرَكَتهَا عَلَى اللَّام وَفَتْح الْهَاء هِيَ غيضة شجر قرب مدين {المرسلين}.

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧).

{إذ قال لهم شعيب} لم يقل لهم أخوهم لأنه لم يكن منهم {ألا تتقون}.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨)

{إني لكم رسول أمين}.

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩).

{فاتقوا الله وأطيعون}.

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤).

{وَمَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْر إِنْ} مَا {أجري إلا على رب العالمين}.

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١).

{أَوْفُوا الْكَيْل} أَتِمُّوهُ {وَلَا تَكُونُوا مِنْ الْمُخْسِرِينَ} الناقصين.

=

{فجعلنا عاليها سافلها} [الحجر: ٧٤]، وجعل العالي سافلا يكون بغير القلب؛ فإن هذه الحجارة إذا نزلت على المنازل وهدمتها صار العالي من المنازل سافلا، ثم إنها إذا قلبت - مثلا - وصار الناس في باطن الأرض، فليس للحجارة حينئذ قيمة.

والمهم أنه ليس في الأمر عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يدل على أن أرضهم حملت فقلبت، وما دام أنه ليس في الأمر ما يدل على ذلك، فالأولى أن يقال: إنهم دمروا بهذه الحجارة.

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢).

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيم} الْمِيزَان السَّوِيّ.

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣).

{وَلَا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ} لَا تُنْقِصُوهُمْ مِنْ حَقّهِمْ شَيْئًا {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْض مُفْسِدِينَ} بِالْقَتْلِ وَغَيْره مِنْ عَثِيَ بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَة أَفْسَدَ وَمُفْسِدِينَ حَال مُؤَكِّدَة لِمَعْنَى عَامِلِهَا.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤).

{واتقوا الذي خلقكم والجبلة} الخليقة {الأولين}.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥).

{قالوا إنما أنت من المسحرين}.

وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)

{وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَر مِثْلنَا وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أَنَّهُ {نظنك لمن الكاذبين}.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧).

{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا} بِسُكُونِ السِّين وَفَتْحهَا قِطَعًا {مِنْ السَّمَاء إِنْ كُنْت مِنْ الصَّادِقِينَ} فِي رسالتك.

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨).

{قَالَ رَبِّي أَعْلَم بِمَا تَعْمَلُونَ} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩).

{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَاب يَوْم الظُّلَّة} هِيَ سَحَابَة أَظَلَّتْهُمْ بَعْد حَرّ شَدِيد أَصَابَهُمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نارا فاحترقوا {إنه كان عذاب يوم عظيم}.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠).

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين}.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١).

{وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٧٦]، أي:"كذَّب أصحاب الأرض ذات الشجر الملتف رسولهم شعيبًا في رسالته، فكانوا بهذا مكذِّبين لجميع الرسالات".

قال السعدي:"أصحاب الأيكة: أي: البساتين الملتفة أشجارها، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيبا، الذي جاء بما جاء به المرسلون".

قال الطبري:"الأيكة: الشجر الملتفّ، وهي واحدة الأيك، وكل شجر ملتفّ فهو عند العرب أيكة؛ ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تَجْلُو بِقادمَتَيْ حَمَامَةِ أيْكَةٍ... بَرَدًا أُسِفّ لِثاتُهُ بالإثْمِدِ

وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين فيما ذُكر".

قال الزجاج:"الأيكة: الشجر الملتف".

قال ابن كثير:"أصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها".

عن ابن عباس، قوله: "{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}، يقول: أصحاب الغيضة".

عن ابن عباس، قوله: "{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}، قال: أهل مدين، والأيكة: الملتف من الشجر".

قال ابن عباس:"الأيكة: مجمع الشجر".

=

=

قال ابن زيد:"الأيكة: الشجر، بعث الله شعيبا إلى قومه من أهل مدين، وإلى أهل البادية، قال: وهم أصحاب ليكة، وليكة والأيكة: واحد".

قال الضحاك:"هم قوم شعيب".

قال قتادة:"أصحاب الأيكة أصحاب شجر وهم قوم شعيب".

قال قتادة:"ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة، وكان عامة شجرهم هذا الروم، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب أرسل إليهم وإلى أهل مدين، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبتا بعذابين شتى، أما أهل مدين: فأخذتهم الصيحة، وأما أصحاب الأيكة فكانوا أهل شجر متكاوس".

قال محمد بن إسحاق: "كان من قصة شعيب وخبره وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن وكانوا أهل بخس الناس في مكاييلهم وموازينهم، مع كفرهم بالله وتكذيبهم نبيهم".

وأكثر القراء - على إثبات الألف واللام في: «الأيكة»، وكذلك يقرأ أبو عمرو وأكثر القراء، وقرأ أهل المدينة أصحاب ليكة مفتوحة اللام، فإذا وقف - على أصحاب، قال ليكة المرسلين.

قوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: ١٧٧]، أي:"إذ قال لهم شعيب: ألا تخشون عقاب الله على شرككم ومعاصيكم؟".

قال الطبري: يقول:"قال لهم شعيب: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم ربكم؟".

قال السعدي: أي:"{أَلَا تَتَّقُونَ} الله تعالى، فتتركون ما يسخطه ويغضبه، من الكفر والمعاصي".

عن الربيع، قال: "إن شعيبا أخا مدين أرسل أيضا إلى أصحاب الأيكة وهم كانوا قوم من أهل عمور يتبعون الرعاء والكلأ في زمانه، فإذا يبس الغور رجعوا إلى

=

=

الغيضة التي كانوا يتقيضون وهي أجمة فيها عين سائحة، وإن شعيبا أنذرهم فكذبوه".

قال ابن كثير:"لم يقل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن

أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم".

عن خَصِيف، عن عِكْرِمة قالا:"ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّةِ".

وعن قتادة في قوله تعالى: "{وَأَصْحَابَ الرَّسِّ}. [ق: ١٢] قوم شعيب، وقوله: {وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ}. [ق: ١٤] قوم شعيب".

قال إسحاق بن بشر: "وقال غير جُوَيْبر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد".

وروي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان، بعث الله إليهما شعيبًا النبي، عليه السلام".

قال ابن كثير:"والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة".

قوله تعالى: {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} [الشعراء: ١٧٨]، أي:"إني مرسَل إليكم مِنَ الله لهدايتكم، حفيظ على ما أوحى الله به إليَّ من الرسالة".

قال الطبري: أي:"{أَمِينٌ} على وحيه".

قال السعدي:"يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [الشعراء: ١٧٩]، أي:"فخافوا عقاب الله، =

=

واتبعوا ما دعوتكم إليه مِن هداية الله؛ لترشدوا".

قال الطبري: يقول:"{فاتقوا} عقاب {الله} على خلافكم أمره، {وأطيعون} ترشدوا".

قوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء: ١٨٠]، أي:"وما أطلب منكم على دعائي لكم إلى الإيمان بالله أيَّ جزاء".

قال الطبري:"يقول: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ} على نصحي لكم من جزاء وثواب".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٨٠]، أي:"ما جزائي إلا على رب العالمين".

قال الطبري: يقول: "{ما جزائي وثوابي على ذلك {إلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِين}".

قوله تعالى: {أَوْفُوا الْكَيْلَ} [الشعراء: ١٨٣]، أي:"قال لهم شعيب -وقد كانوا يُنْقِصون الكيل والميزان-: أتمُّوا الكيل للناس وافيًا لهم".

قال الطبري: "يقول: أوفوا الناس حقوقهم من الكيل".

قال ابن كثير:"يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما".

قال السعدي:"وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكاييل والموازين، فلذلك قال لهم: {أَوْفُوا الْكَيْلَ} أي: أتموه وأكملوه".

قال سعيد بن المسيب:"إذا كنت بأرض يوفون المكيال والميزان فلا تعجل بالخروج منها، وإذا كنت بأرض لا يوفون المكيال والميزان فعجل بالخروج منها".

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} [الشعراء: ١٨٣]، أي:"ولا تكونوا ممن يُنْقِصون الناس حقوقهم".

قال الطبري: "يقول: ولا تكونوا ممن نقصهم حقوقهم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه - إذا كان لكم - تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون".

قال السعدي:"{الْمُخْسِرِينَ}: الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان".

قال خلف بن حوشب: "هلك قوم شعيب من شعيرة إلى شعيرة كانوا يأخذون بالرزينة ويعطون بالخفيفة".

قوله تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الشعراء: ١٨٣]، أي:"وَزِنوا بالميزان العدل المستقيم".

قال الطبري: يقول: "وزنوا بالميزان {الْمُسْتَقِيمِ} الذي لا بخس فيه على من وزنتم له".

قال السعدي:"أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل".

وفي قوله تعالى: {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [الشعراء: ١٨٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه القَبَّان، قاله الحسن.

الثاني: الحديد، رواه ابن المبارك عن الحسن.

الثالث: أنه المعيار، قاله الضحاك.

الرابع: أنه الميزان، قاله الأخفش والكلبي، واختاره ابن كثير.

الخامس: أنه العدل بالرومية. قاله مجاهد.

وقال قتادة:"القسطاس: العدل".

قوله تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} [الشعراء: ١٨٣]، أي:"ولا تنقصوا الناس شيئًا مِن حقوقهم في كيل أو وزن أو غير ذلك".

=

=

قال الطبري: "يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن".

قال ابن كثير:"أي: تَنْقُصوهم أموالهم".

قال ابن عباس:"لا تظلموا الناس أشياءهم". وروي عن قتادة والسدى ونحو ذلك.

قال ابن زيد:"لا تنقصوهم، يسمي له شيئا ويعطيه غير ذلك".

قوله تعالى: {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨٣]، أي:"ولا تكثروا في الأرض الفساد، بالشرك والقتل والنهب وتخويف الناس وارتكاب المعاصي".

قال الطبري: "يقول: ولا تكثروا في الأرض الفساد".

قال ابن كثير:"يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: {وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ} [الأعراف: ٨٦]".

قال ابن عباس:"يقول: لا تسعوا في الأرض".

قال قتادة: يقول: لا تسيروا في الأرض".

قال أبو مالك:"يقول: لا تمشوا بالمعاصي".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)} [الشعراء: ١٨٤]

واحذروا عقوبة الله الذي خلقكم وخلق الأمم المتقدمة عليكم.

قال الطبري: يقول:"{واتقوا} أيها القوم عقاب ربكم {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الْجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ}، يعني بالجبلة: الخلق الأوّلين".

قال السعدي:"أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره".

قال ابن كثير:"يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى، عليه السلام: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ} [الصافات: ١٢٦]".

=

=

عن السدي، " {الذي خلقكم}: وخلق الذين من قبلكم".

عن ابن عباس: قوله: "{وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ}، يقول: خلق الأوّلين".

عن مجاهد، قوله: "{وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ}، قال: الخليقة".

عن ابن زيد: قوله: "{وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِين}، قال: الخلق الأوّلين، الجبلة: الخلق".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} [الشعراء: ١٨٥]، أي:"قالوا: إنما أنت -يا شعيب- مِنَ الذين أصابهم السحر إصابة شديدة، فذهب بعقولهم".

قال الطبري:"يقول: قالوا: إنما أنت يا شعيب معلل تعلل بالطعام والشراب، كما نعلل بهما، ولست ملَكا".

قال النسفي:"المسحر: الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله وقيل هو من السحر الرئة وأنه بشر".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها - تشابهت قلوبهم - حيث قالوا: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعنون: من المسحورين".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [الشعراء: ١٨٧]، أي:"وما أنت إلا واحد مثلنا في البشرية، فكيف تختص دوننا بالرسالة؟".

قال الطبري: أي:"تأكل وتشرب".

قال النسفي:"إدخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم التسحير والبشرية وتركها في قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم".

قوله تعالى: {وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} [الشعراء: ١٨٦]، أي:"وإن أكبر ظننا أنك من الكاذبين فيما تدَّعيه من الرسالة".

=

=

قال الطبري:"يقول: وما نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إليه، إلا ممن يكذب فيما يقول".

قال ابن كثير:"أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا".

قوله تعالى: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الشعراء: ١٨٧]، أي:"فإن كنت صادقًا في دعوى النبوة، فادع الله أن يسقط علينا قطع عذاب من السماء تستأصلنا".

قال الطبري: يقول: "فإن كنت صادقا فيما تقول بأنك رسول الله كما تزعم (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}، يعني: قطعا من السماء، وهي جمع: كِسفة".

قال القرطبي:"أي جانبا من السماء وقطعة منه، فننظر إليه، كما قال: {وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم}. وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب".

قال ابن كثير:"وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا}، إلى أن قالوا: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا} [الإسراء: ٩٠ - ٩٢]. وقوله: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}".

قال الزمخشري:"وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه. والمعنى: إن كنت صادقا أنك نبى، فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء".

عن ابن عباس، قوله: "{كسفا}، يقول: قِطَعا".

وقال الضحاك:"جانبا من السماء".

=

=

وقال ابن زيد:"ناحية من السماء، عذاب ذلك الكسف".

وقال السدي:"عذابا من السماء".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨)} [الشعراء: ١٨٨]

قال لهم شعيب: ربي أعلم بما تعملونه مِنَ الشرك والمعاصي، وبما تستوجبونه من العقاب.

قال البغوي:"أي: من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إلي وما علي إلا الدعوة".

قال الطبري: "قال شعيب لقومه: {رَبِّي أَعْلَمُ} بأعمالهم هو بها محيط، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم بها جزاءكم".

قال السمعاني:"يعني: هو عالم بأعمالكم، فإن أراد أن يبقيكم، وإن أراد أن يهلككم أهلككم".

قال ابن كثير:"يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوا، جزاءً وفاقًا".

قال الزمخشري:"يريد: أن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة".

قال مالك:"كان شعيب خطيب الأنبياء".

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ} [الشعراء: ١٨٩]، أي:"فكذبوا شعيبًا".

قال الطبري:"يقول: فكذّبه قومه".

قوله تعالى: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [الشعراء: ١٨٩]، أي:"فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا".

=

=

قال الطبري:"يعني بالظلة: سحابة ظللتهم، فلما تتاموا تحتها التهبت عليهم نارا، وأحرقتهم".

قال الزجاج:"الظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم ثم أطبقت عليهم فكان من أعظم يوم في الدنيا عذابا".

قال الزمخشري:"فأخذهم الله بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الومد فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا".

قال ابن كثير:"وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدا مدة سبعة أيام لا يَكُنُّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم.. وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الأعراف: ٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [هود: ٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: {أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ

=

=
ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} وهاهنا قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه".

عن مجاهد، قوله: "{يَوْمُ الظُّلَّةِ}، قال: إظلال العذاب إياهم".

عن الضحاك، قوله: "{فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ}، قوم شعيب، حبس الله عنهم الظل والريح، فأصابهم حرّ شديد، ثم بعث الله لهم سحابة فيها العذاب، فلما رأوا السحابة انطلقوا يؤمونها، زعموا يستظلون، فاضطرمت عليهم نارا فأهلكتهم".

قال زيد بن معاوية:"أصابهم حرّ أقلقهم في بيوتهم، فنشأت لهم سحابة كهيئة الظلة، فابتدروها، فلما تتاموا تحتها أخذتهم الرجفة".

قال جعفر:"كانوا يحفرون الأسراب ليتبردوا فيها، فإذا دخلوها وجدوها أشد حرا من الظاهر، وكانت الظلة سحابة".

قال قتادة: "بعث شُعيب إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة. وكانت الأيكة من شجر ملتف؛ فلما أراد الله أن يعذّبهم، بعث الله عليهم حرّا شديدا، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة؛ فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم نارا. قال: فذلك قوله: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ}".

قال ابن جُرَيج: "لما أنزل الله عليهم أوّل العذاب، أخذهم منه حر شديد، فرفع الله لهم غمامة، فخرج إليها طائفة منهم ليستظلوا بها، فأصابهم منها روح وبرد وريح طيبة، فصبّ الله عليهم من فوقهم من تلك الغمامة عذابا، فذلك قوله: {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ}".

قال ابن عباس:"بعث الله عليهم ومدة وحرّا شديدا، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت
=

=

هرابا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردا ولذة، فنادى بعضهم بعضا، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسلها الله عليهم نارا. قال عبد الله بن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، {إنه كان عذاب يوم عظيم}".

قال ابن زيد:"بعث الله إليهم ظلة من سحاب، وبعث إلى الشمس فأحرقت ما على وجه الأرض، فخرجوا كلهم إلى تلك الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى".

عن معمر بن راشد، قال: "حثني رجل من أصحابنا، عن بعض العلماء قال: كانوا عطلوا حدّا، فوسع الله عليهم في الرزق، ثم عطلوا حدّا، فوسع الله عليهم في الرزق، ثم عطلوا حدّا، فوسع الله عليهم في الرزق، فجعلوا كلما عطلوا حدّا وسع الله عليهم في الرزق، حتى إذا أراد إهلاكهم سلط الله عليهم حرّا لا يستطيعون أن يتقارّوا، ولا ينفعهم ظل ولا ماء، حتى ذهب ذاهب منهم، فاستظلّ تحت ظلة، فوجد روحا، فنادى أصحابه: هلموا إلى الروح، فذهبوا إليه سراعا، حتى إذا اجتمعوا ألهبها الله عليهم نارا، فذلك عذاب يوم الظلة".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: ١٨٩]، أي:"كان هلاكهم جميعًا في يوم شديد الهول".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن عذاب يوم الظلة كان عذاب يوم لقوم شُعيب عظيم".

القرآن

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)} [الشعراء: ١٩٠]

التفسير:

إن في ذلك العقاب الذي نزل بهم، لَدلالة واضحة على قدرة الله في مؤاخذة المكذبين، وعبرة لمن يعتبر، وما كان أكثرهم مؤمنين متعظين بذلك.

=

=

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} [الشعراء: ١٩٠]، أي:"إن في ذلك العقاب الذي نزل بهم، لَدلالة واضحة على قدرة الله في مؤاخذة المكذبين، وعبرة لمن يعتبر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن في تعذيبنا قوم شعيب عذاب يوم الظلة، بتكذيبهم نبيهم شعيبا، لآية لقومك يا محمد، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أن سنتنا فيهم بتكذيبهم إياك، سنتنا في أصحاب الأيكة".

عن سعيد بن جبير، في قوله: "{إن في ذلك لآية}، قال:"هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ١٩٠]، أي:"وما كان أكثرهم مؤمنين متعظين بذلك".

قال الطبري: أي:"في سابق علمنا فيهم".

قال القرطبي:"قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)} [الشعراء: ١٩١]

وإن ربك – أيها الرسول – لهو العزيز في نقمته ممن انتقم منه من أعدائه، الرحيم بعباده الموحدين.

قال الطبري: يقول:"{وَإِنَّ رَبَّكَ} يا محمد {لَهُوَ الْعَزِيزُ} فى نقمته ممن انتقم منه من أعدائه (الرَّحِيمُ) بمن تاب من خلقه، وأناب إلى طاعته".

قال ابن كثير:"أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر؟

قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس، وتثبيتا لها في الصدور. ألا

=

=

ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا، أو يفتق ذهنا، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {كذب أصحاب الأيكة المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} [الشعراء: ١٧٦ - ١٨٠].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كذب أصحاب الأيكة} وفي قراءة بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وفتح الهاء، هي غيضة شجر قرب مدين {المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب}، لم يقل لهم: أخوهم؛ لأنه لم يكن منهم {ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) وما أسألكم عليه من أجر إن} ما {أجري إلا على رب العالمين}].

قوله: {لأيكة}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قراءة بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وفتح الهاء]: (ليكة)، هذه هي القراءة الثانية، وعلى قراءة الهمزة إنما كسرت الهاء لأجل (أل) التعريف؛ فإن القراءة الثانية التي أشار إليها بالتفسير: (كذب أصحاب ليكة) حذفت الهمزة مع (أل) المعرفة، وعلى هذا تكون ممنوعة من الصرف؛ لأنه لم يوجد فيها (أل) التي تحول غير المصروف إلى منصرف.

وما هي الأيكة؟

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هي غيضة شجر قرب مدين]، أي أرض مملوءة بالشجر،

=

=

والغالب أن تكون هذه الأشجار الملتفة بعضها على بعض.

و(مدين) يظهر أنه في طور سيناء، من قصة موسى.

قوله تعالى: {إذ قال لهم شعيب} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لم يقل: أخوهم؛ لأنه لم يكن منهم]، بينما قال في غيره مما مضى من القصص: {إذ قال لهم أخوهم}، {وإلى مدين أخاهم شعيبا} [الأعراف: ٨٥]، فتبين بهذا أن أصحاب الأيكة ليسوا أهل مدين.

ولهذا قال المصنف: [قرب مدين]، وليسوا من القرية التي بعث فيها شعيب؛ لأن أهل القرية التي بعث فيها مدين من قبيلته، ولهذا لما ذكر مدين قال: {أخاهم شعيبا}، وأما هنا فقال: {إذ قال لهم شعيب} ولم يقل: أخوهم.

ومما يدل على أنهم ليسوا أصحاب مدين، أن العذاب الذي أخذوا به غير العذاب الذي أخذ به أصحاب مدين، فأصحاب مدين أخذوا بالصيحة، وهؤلاء أخذوا بعذاب الظلة، كما سيأتي إن شاء الله.

وهل معنى هذا أن شعيبا أرسل مرتين؟

الجواب: لا، بل أرسل مرة واحدة، لكن إلى قومين؛ إلى هؤلاء وهؤلاء، ويجوز أن يكون هذا من باب التبع، يعني: هذه القرية صغيرة مثلا، وكانت تابعة لبلدته، ويدلك على هذا أن عملهم واحد؛ عمل هؤلاء، وعمل أهل مدين.

قوله: {ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطيعون (١٧٩) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين}، هذا المعنى عام لكل الرسل، فالذنب الخاص لهؤلاء كما سيأتي: [{أوفوا الكيل} أتموه {ولا تكونوا من المخسرين} [الشعراء: ١٨١]، الناقصين].

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: {أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم (١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين

=

=

(١٨٣) واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين} [الشعراء: ١٨١ - ١٨٤].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أوفوا الكيل} أتموه {ولا تكونوا من المخسرين} الناقصين، {وزنوا بالقسطاس المستقيم} الميزان السوي، {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} لا تنقصوهم من حقهم شيئا {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} بالقتل وغيره من (عثي) بكسر المثلثة: أفسد، و (مفسدين) حال مؤكدة لمعنى عاملها، {واتقوا الذي خلقكم والجبلة} الخليقة {الأولين}].

هؤلاء القوم الذين بعث إليهم شعيب، سواء كانوا قومه أو أهل هذه القرية، كانوا يبخسون المكيال والميزان - والعياذ بالله - فإذا وزنوا للناس نقصوه، وإذا اتزنوا منهم استوفوه، هذا الظاهر، {ويل للمطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون} [المطففين: ١ - ٣]، وقال هنا: {أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين} وبينهما مقابلة؛ لأجل ألا يقال: إن من أوفى في أكثر الأعمال يكون موفيا، مثل قوله: {الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} [الشعراء: ١٥٢].

فـ {أوفوا الكيل} يعني: في كل فرد من أفراد معاملاتكم، ولهذا قال: {ولا تكونوا من المخسرين} أي: من المتصفين بالإقساط، والإقساط بمعنى النقص.

قوله تعالى: {وزنوا بالقسطاس المستقيم} هذا الوزن، والفرق بين الوزن وبين الكيل: أن ما قدر بالحجم فهو كيل، لأن المكيال تضع فيه الشيء فيكون حجمه هكذا، وأما ما يقدر بالثقل فيسمى وزنا، وقوله: {وزنوا بالقسطاس المستقيم} يقول المصنف: [الميزان السوي]، فعلى هذا القسطاس بمعنى: الميزان، والمستقيم بمعنى: السوي.

قوله تعالى: {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} قال: [لا تنقصوهم من حقهم شيئا]، هذا عام حتى فيما يزرع، وفيما يعد.

=

=

مثل هؤلاء القوم ذنبهم الخاص الذي بعث هذا الرسول لإصلاحه، مع عبادة الله، هو بخس الناس في الكيل والميزان وغيرهما، ولهذا عمم: {ولا تبخسوا الناس أشياءهم} لا تنقصوهم حقوقهم.

قوله تعالى: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالقتل وغيره]، ولم نعرف أن هؤلاء القوم - أي: قوم شعيب - كانوا يقتلون الناس، بل المعروف من ذنبهم أنهم كانوا يبخسون الناس أشياءهم، فيمكن أن يكون المقصود هو الإفساد بالقتل أو غيره. إنما الإيعاد سواء بالحبس أو بالضرب أو بغيرهما، فهو من الفساد، ومن الفساد أيضا نقص الناس أشياءهم.

وقوله: {مفسدين} حال مؤكدة؛ لأن العثو هو الفساد، كما لو قلت: "لا تقم قائما"؛ فإن قائما حال مؤكدة لقولك: "لا تقم".

قوله: [{واتقوا الذي خلقكم والجبلة}: الخليقة {الأولين}]، ذكرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالذي خلقهم، وخلق الخلق الأول أيضا، إشارة إلى أنكم ستزولون كما زال من قبلكم، فأنتم مخلوقون من العدم، وتعودون إلى العدم.

* قال الله عَزَّوَجَلَّ: {قالوا إنما أنت من المسحرين (١٨٥) وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين (١٨٦) فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين (١٨٧) قال ربي أعلم بما تعملون (١٨٨) فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (١٨٩) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٩٠) وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ١٨٥ - ١٩١].

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قالوا إنما أنت من المسحرين (١٨٥) وما أنت إلا بشر مثلنا وإن} مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي إنه {نظنك لمن الكاذبين (١٨٦) فأسقط علينا كسفا} بسكون السين وفتحها: قطعا {من السماء إن كنت من الصادقين} في رسالتك، {قال ربي أعلم بما تعملون} فيجازيكم به، {فكذبوه

=

=

فأخذهم عذاب يوم الظلة} هي سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا {إنه كان عذاب يوم عظيم (١٨٩) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٩٠) وإن ربك لهو العزيز الرحيم}].

قوله تعالى: {قالوا إنما أنت من المسحرين} مثل جواب قوم صالح.

قوله تعالى: {وما أنت إلا بشر مثلنا} مثلهم تماما، فالجواب واحد، و (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: إنه - أي: الشأن - {نظنك لمن الكاذبين}.

والدليل على أنها مخففة ليست نافية: أمران:

الأمر الأول: لفظي، وهو اللام؛ لأن اللام لا تقترن إلا في خبر (إن) المخففة.

والأمر الثاني: المعنى: فلو قال قائل: إن (إن) نافية، قلنا: ليس كذلك؛ لأنهم لو قالوا: ما نظنك من الكاذبين، لكانوا مصدقين به، والأمر ليس كذلك، بل هم يريدون: إننا نظنك من الكاذبين، وهذا الظن حسب اعتقادهم إن كانوا جاهلين بالأمر، أو حسب عنادهم إن كانوا عالمين وكاتمين، مثل قول فرعون: {وإني لأظنه كاذبا} [غافر: ٣٧]، وهو يعلم أنه صادق.

قوله: [{فأسقط علينا كسفا} بسكون السين وفتحها: قطعا: {من السماء إن كنت من الصادقين} في رسالتك]، أعوذ بالله! هؤلاء أخبث من قوم صالح؛ لأن أولئك قالوا: {فأت بآية} [الشعراء: ١٥٤]، لكن هؤلاء قالوا: إن كنت صادقا بما توعدنا به فأت بالعذاب: {فأسقط علينا كسفا من السماء}، كقول قريش للرسول عليه الصلاة والسلام حين قالوا: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} [الأنفال: ٣٢]، وهذا من سفاهتهم، وكان الواجب أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إليه ووفقنا.

وما فعله أصحاب الأيكة في تكذيبهم لشعيب هو ما فعله غيرهم من أقوام الأنبياء،

=

=

كما قال تعالى: {كذلك كذب الذين من قبلهم} [الأنعام: ١٤٨]، وهذا التشابه تشابه في القلوب والأفعال.

قوله تعالى: {فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين}، (إن) شرطية، والغرض منها التحدي.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قال ربي أعلم بما تعملون} فيجازيكم به]، يعني: أنتم فعلتم كل قبيح، وقابلتموني بكل إثم صريح، ولكن الذي يعلم ذلك هو الله، وهو يهددهم بلازم العلم. ولهذا قال المصنف: [فيجازيكم به].

قوله تعالى: {فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة} قال المصنف: [هي سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم، فأمطرت عليهم نارا، فاحترقوا، {إنه كان عذاب يوم عظيم}] فهم - والعياذ بالله - أصيبوا بحر شديد عظيم جدا ما أطاقوه، فأنشأ الله السحابة تظلهم، فخرجوا من بلادهم عن بكرة أبيهم إلى هذا الظل.

ولكن - والعياذ بالله - لما وصلوا وإذا هي نار - والعياذ بالله - أحرقتهم عن آخرهم، وهذا من أشد ما يكون - والعياذ بالله - من العذاب؛ لأنهم جاءوا هاربين من عذاب، فوقعوا في أشد منه - والعياذ بالله - فكانوا حينما أقبلوا يظنون أنهم نجوا من الحر بهذه الظلال، ولكنه - والعياذ بالله - صار حتفهم: {إنه كان عذاب يوم عظيم}.

ولهذا وصف الله عَزَّوَجَلَّ {إنه} أي: هذا العذاب {كان عذاب يوم عظيم} فصدق الله.

وهذه القصص عبر في الحقيقة، يعتبر بها الإنسان من عدة نواح.

أولا: يعلم بها صبر الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وجلدهم، وإخلاصهم لله، وأنهم لا يبالون بما نالهم في ذات الله.

ثانيا: يعتبر بها في التسلي بما أصاب الرسل؛ لأن الإنسان يتسلى بما أصاب غيره، بأن يصبر هو على الدعوة إلى الله، ولا يمل ولا يكل؛ لأن العاقبة تكون للصابرين

=

=

والداعين إلى الله، فكل العواقب التي رأيناها في القصص للرسل عليهم الصلاة والسلام.

ثالثا: إن فيها عبرة تحذر المخالفين للرسل، فإن كل المخالفين للرسل - كما رأيتم كلهم - عوقبوا، وأخذهم العذاب.

رابعا: بيان قدرة الله ﷻ حيث ينزل العذاب، فينجو منه من ينجو، ويهلك به من هلك، وأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير: {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} [الزمر: ٦١].

خامسا: إن الإنسان يتعجب كيف يصل بنو آدم إلى هذا العتو والعناد والإستكبار.

سادسا: إنك تقيس حاضرك بغائبك، فإنه يوجد الآن أمثال هؤلاء؛ لأن طبيعة البشر واحدة من آدم إلى اليوم، فيوجد من هؤلاء وإن اختلف الأسلوب، فالأسلوب قد يختلف، لكن المعنى واحد: العتو والإستكبار.

فيوجد الآن من بني آدم من يقول: إن الدين خرافة!

ويوجد من بني آدم من يقول: إن الله يجب أن يوضع في قفص الإتهام! لأنه لماذا يشبع هذا، ويجوع هذا؟ ! ولماذا يؤمن هذا ويخوف هذا! وهذا يصح وهذا يمرض؟ والعياذ بالله.

فهذه الأشياء يجب أن تعتبر بها، وأنه ما سبق قبل زمانك وجد مثله في زمانك، والعظة من هذا كثيرة.

ولو أن الإنسان كتب هذه العبر لكان أفضل، قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: ١١١]؛ لأنك كما استنتجت عبرة ازددت عقلا؛ لأن الله جعل العبر لأولي الألباب، فكلما كان اللب أقوى كانت العبرة التي تؤخذ من هذا أكثر.

وفي سورة هود الكثير من قصص الأنبياء، وذكر الله في آخرها: {وجاءك في هذه

=

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢).

{وإنه} أي القرآن {لتنزيل رب العالمين}.

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣).

{نزل به الروح الأمين} جبريل.

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤).

{على قلبك لتكون من المنذرين}.

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥.)

{بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُبِين} بَيِّن وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ نَزَلَ وَنَصْب الرُّوح وَالْفَاعِل الله.

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦).

{وَإِنَّهُ} ذِكْر الْقُرْآن الْمُنَزَّل عَلَى مُحَمَّد {لَفِي زبر} كتب {الأولين} كالتوراة والإنجيل[1].

=

الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} [هود: ١٢٠].

(١) قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء:١٩٢]، أي:"وإن هذا القرآن الذي ذُكِرَتْ فيه هذه القصص الصادقة، لَمنزَّل مِن خالق الخلق، ومالك الأمر كله".

قال يحيى:"يعني: القرآن".

عن قتادة، قوله: "{لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال: هذا القرآن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإنّ هذا القرآن {لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والهاء في قوله {وإنه} كناية الذكر الذي فى قوله: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَن}".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: {وإنه} أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول

=

=

السورة في قوله: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} الآية، {لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك".

قوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، أي:"نزل به جبريل الأمين".

قال مقاتل:"يعني: جبريل- عليه السلام- «أمين» فيما استودعه الله- عز وجل- من الرسالة إلى الأنبياء- عليهم السلام-".

قال ابن كثير:"وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف.. وهذا ما لا نزاع فيه".

قال السمعاني:"والروح الأمين هو جبريل - عليه السلام - وسمي [جبريل] أمينا؛ لأنه أمين الله على وحيه، وفي بعض الآثار: أنه يرفع سبعين ألف حجاب، ويدخل بغير استئذان، فهو معنى الأمين".

عن ابن عباس، قوله: "{نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ}، قال: جبريل". وروي عن قتادة، والضحاك، وابن جريج مثل ذلك.

عن الحسن: "نزل بثقلها الروح الأمين يقول: نزل الله جبريل عليه السلام".

قال مجاهد:"من كلمه الروح الأمين لم تأكله الأرض".

قوله تعالى: {عَلَى قَلْبِكَ} [الشعراء: ١٩٤]، أي:"فتلاه عليك - أيها الرسول - حتى وعيته بقلبك حفظًا وفهمًا".

قال الطبري:"يقول: نزل به الروح الأمين فتلاه عليك يا محمد، حتى وعيته بقلبك".

قال ابن كثير:"أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، {عَلَى قَلْبِكَ} يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص".

وقال مقاتل:"ليثبت به قلبك يا محمد".

=

=

قال السمعاني:"أي: المخوفين".

قوله تعالى: {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٤]، أي:"لتكون مِن رسل الله الذين يخوِّفون قومهم عقاب الله، فتنذر بهذا التنزيل الإنس والجن أجمعين".

قال السمعاني:"ذكر القلب هاهنا؛ لأنه كان إذا قرئ عليه وعاه قلبه".

قال الطبري:"يقول: لتكون من رسل الله الذين كانوا ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم، فتنذر بهذا التنزيل قومك المكذّبين بآيات الله".

قال ابن كثير:"أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له".

قال ابن شهاب: "قد بين الله لنا في كتابه أنه يرسل جبريل إلى محمد نبينا ﷺ فقال الله ﷻ: من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله وذكر الله الروح الأمين- فقال: وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين يعني جبريل عليه السلام".

عن ابن شهاب وسئل، عن الوحي؟ فقال: "من الوحي ما يرسل الله به من يشاء من ملائكته فيوحونه في قلوب من شاء من رسله فقد بين الله في كتابه أنه كان يرسل جبريل إلى محمد ﷺ، فقال الله ﷻ: {وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين}".

قوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٥]، أي:"نزل به جبريل عليك بلغة عربية واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، فيما يحتاجون إليه في إصلاح شؤون دينهم ودنياهم".

قال مقاتل:"ليفقهوا ما فيه لقوله إنما يعلمه أبو فكيهة، وكان أبو فكيهة أعجميا".

قال ابن كثير:"أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بَيِّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلا إلى

=

=

المحجة".

قال الطبري:"يقول: لتنذر قومك بلسان عربي مبين، يبين لمن سمعه أنه عربي، وبلسان العرب نزل، وإنما ذكر تعالى ذكره أنه نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع، إعلاما منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه، لأنا لا نفهمه، وإنما هذا تقريع لهم، وذلك أنه تعالى ذكره قال: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ}. ثم قال: لم يعرضوا عنه لأنهم لا يفهمون معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين بلسانهم العربيّ، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيبا به واستكبارا {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، كما أتى هذه الأمم التي قصصنا نبأها في هذه السورة حين كذّبت رسلها أنباء ما كانوا به يكذّبون".

قال الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، قال الله - عَزَّ وَجَلَّ: {وإنه لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥)}، فأقام حجته: بأن كتابه عربي".

عن ابن بريدة، {بلسان عربي}، قال: بلسان جرهم".

قال مجاهد:"نزل القرآن بلسان قريش وبه كلامهم".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)} [الشعراء: ١٩٦]

وإنَّ ذِكْرَ هذا القرآن لَمثبتٌ في كتب الأنبياء السابقين، قد بَشَّرَتْ به وصَدَّقَتْه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن هذا القرآن لفي زبر الأوّلين: يعني في كتب الأوّلين، وخرج مخرج العموم ومعناه الخصوص، وإنما هو: وإن هذا القرآن لفي بعض زبر الأوّلين؛ يعني: أن ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على بعض

=

=

رسله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وإنَّ ذِكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]، والزبر هاهنا هي الكتب وهي جمع زَبُور، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} [القمر: ٥٢] أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة".

قال السمعاني: أي:"أن ذكر محمد في زبر الأولين أي: في كتب الأولين، وقيل: ذكر إنزال القرآن في زبر الأولين، وقد قالوا: إن كليهما وارد".

عن قتادة، قوله: "{وإنه لفي زبر الأولين}، أي:"في كتب الأولين". وروي عن السدي مثله.

عن ابن زيد، قوله:"{لفي زبر الأولين}، قال: يقول التي أنزلها على الأولين".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {وإنه لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥) وإنه لفي زبر الأولين} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٦].

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{وإنه} أي القرآن {لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين} جبريل، {على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين} بين وفي قراءة بتشديد "نزل" ونصب "الروح" والفاعل الله، {وإنه} ذكر القرآن المنزل على محمد {لفي زبر} كتب {الأولين} كالتوراة والإنجيل}].

قوله تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين}، الضمير في قوله: {وإنه} يعود إلى القرآن - كما قال المصنف - وإن لم يسبق له ذكر، لكن يعينه السياق، ومرجع

=

=

الضمير - كما هو معروف - قد يكون مشهورا وقد يكون معلوما، والمذكور قد يتقدم وقد يتأخر، إلا أنه من القواعد المقررة أنه لا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، إلا في مسائل معينة.

قال: {وإنه لتنزيل رب العالمين} اللام للتوكيد، فيكون هذا الخبر مؤكدا بأداتين، وهما: (إن) و (اللام).

و (تنزيل) مصدر، لكنه بمعنى اسم المفعول، أي: لمنزل؛ لأن القرآن نفسه ليس تنزيلا، بل التنزيل فعل الله، والقرآن عبارة عن شيء منزل، كما قال الله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان} [الفرقان: ١].

وقوله: {رب العالمين} هذه الربوبية العامة إشارة إلى أنه من مقتضى ربوبيته أن يكون منزلا لعباده هذا الكتاب المفيد لهم.

ويشير أيضا إلى عموم شريعة هذا الكتاب، كما عمت ربوبية منزله، فهو أيضا عام في التشريع.

قوله تعالى: {الروح الأمين} هو جبريل عليه الصلاة والسلام، وقد وصف بالروح لأنه ينزل بما فيه الحياة، وهو الوحي الذي به حياة القلوب، ووصف بالأمانة لأن المقام يقتضيه، وأمانة جبريل عليه الصلاة والسلام من عدة أوجه بالنسبة للقرآن:

أولا: أمين بحيث لا ينزل به إلا على من أمر به، وعلى هذا فيكون قول الرافضة - قبحهم الله -: إن جبريل أمر أن ينزل بالقرآن على علي، ولكنه خان فنزل به على محمد ﷺ منافيا لوصف جبريل عليه السلام بالأمانة.

ثانيا: مقتضى الأمانة أن ينزل به كما سمعه من الله؛ لا يزيد فيه ولا ينقص، ولا يقدم ولا يؤخر.

ثالثا: أن ينزل به في الوقت الذي أمر بإنزاله فيه، فلا يتأخر إذا أوحي إليه به إلا بإذن

=

=

الله.

فهذه الأوصاف الثلاثة من مقتضى أمانة جبريل عليه الصلاة والسلام.

وقوله: {على قلبك} خص القلب؛ لأنه محل الوعي، وفيه دليل على عناية الله سبحانه وتعالى بالقرآن، وعلى كمال حفظ الرسول له ﷺ؛ لأن ما نزل على القلب يثبت ويرسخ، بخلاف ما سمعته الأذن، فإن الأذن قد توصل إلى القلب وقد لا توصل، فقد يكون قلبه غافلا، ولكن هنا كان على القلب.

وقوله: {لتكون من المنذرين} اللام هنا للتعليل وللعاقبة معا، فهما متلازمان، فإذا قلنا: للتعليل، صار مكلفا بذلك، وإذا كانت في العاقبة كانت عاقبته أن يكون منذرا، وإن لم يكن هناك تكليف، ولكن الصحيح أنها شاملة للأمرين.

وقوله: {من المنذرين} أي: الرسل، كما قال الله تعالى: {رسلا مبشرين ومنذرين} [النساء: ١٦٥].

وقوله: {بلسان} بلغة، وأطلق اللسان على اللغة؛ لأنه محل الكلام الذي هو عنوان اللغة.

وقوله: {عربي} نسبة إلى العرب؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عربيا، وقد قال الله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤].

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن تكون اللغة العربية لغة جميع الخلق؛ لأن الشرع الذي نزل بها شرع جميع الخلق، فكان ينبغي أن تكون اللغة العربية لغة جميع الخلق، خلافا لمن يريدون أن يذيبوها في عصرنا الحاضر، بأن يطالبوا بجعل اللغة العامية مكان اللغة العربية في المكاتبات والمراسلات وغيرهما!

وأقبح من ذلك من يحاولون أن يتكلموا باللغة الأعجمية، كما يوجد من بعض الناس الذين يفخرون بلغة الإنجليز وغيرهم، فتجدهم يتشدقون بالكلام بها.

ثم إن قوله: {بلسان عربي} متعلق بقوله: {نزل به}.

=

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧).

{أو لم يَكُنْ لَهُمْ} لِكُفَّارِ مَكَّة {آيَة} عَلَى ذَلِكَ {أَنْ يَعْلَمهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيل} كَعَبْدِ الله بن سلام وأصحابه من الذين آمنوا فإنهم يخبرون بذلك وَيَكُنْ بالتحتانية وَنَصْب آيَة وبالفوقانية وَرَفْع آيَة.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨).

=

وقوله: {مبين} بين، وفي قراءة بالتشديد: (نزل)، بتشديد (نزل)، ونصب (الروح)، فالفاعل الله: (نزل به الروح الأمين).

وفي اختلاف القراءتين فائدة، وهي أن الذي أمره بالنزول هو الله فنزل، فيكون جمعت بين فعل جبريل الصادر عن أمر الله، وبين الدلالة على أمر الله له بذلك: (نزل به).

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإنه} ذكر القرآن المنزل على محمد ﷺ {لفي زبر} كتب {الأولين} كالتوراة والإنجيل]، المصنف جعل الضمير يعود على القرآن، يعني: إن ذكر القرآن موجود في {زبر الأولين} كتبهم، والمراد وصف القرآن؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام وصف صفات التوراة والإنجيل بصفاته وصفات الكتاب الذي نزل به.

وقوله: {لفي زبر الأولين} ظاهر الآية الكريمة العموم، وأن كل الكتب السابقة ذكر فيها القرآن، وبشر إليه، ومنها: التوراة والإنجيل، فتكون الكاف هنا للتشبيه، وفي هذا دليل واضح على عناية الله تعالى بهذا القرآن، وتشريفه، وتعظيمه، حيث ذكر في كل كتاب سبق.

وفيه أيضا دليل على أنه لو جاء هذا الكتاب لوجب على جميع من يعتنقون الكتب السابقة أن يؤمنوا به.

{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْض الْأَعْجَمِينَ} جَمْع أَعْجَم.

فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩).

{فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ} كُفَّار مَكَّة {مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} أَنَفَة مِنْ اتِّبَاعه.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠).

{كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل إِدْخَالنَا التَّكْذِيب بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِيّ {سَلَكْنَاهُ} أَدْخَلْنَا التَّكْذِيب بِهِ {فِي قُلُوب المجرمين} كفار مكة بقراءة النبي.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١).

{لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم}.

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢).

{فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون}.

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣).

{فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ} لِنُؤْمِن فَيُقَال لَهُمْ لا فقالوا متى هذا العذاب قال تعالى.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤).

{أفبعذابنا يستعجلون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)} [الشعراء: ١٩٧]

نالتفسير:

أو لم يَكْفِ هؤلاء -في الدلالة على أنك رسول الله، وأن القرآن حق- عِلْمُ علماء بني إسرائيل صحة ذلك، ومَن آمن منهم كعبد الله بن سلام؟

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أولم يكن لهؤلاء المعرضين عما يأتيك يا محمد =

=

من ذكر ربك، دلالةٌ على أنك رسول رب العالمين، أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل. وقيل: عني بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبد الله بن سلام ومن أشبهه ممن كان قد آمن برسول الله ﷺ من بني إسرائيل في عصره".

قال ابن كثير:"أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم. وقال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} الآية [الأعراف: ١٥٧]".

عن مبشر بن عبيد القرشي قراءة: "{أولم يكن لهم آية}، يقول: أو لم يكن لهم القرآن آية".

قال قتادة:"أولم يكن للنبي آية، علامة أن علماء بني إسرائيل كانوا يعلمون أنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم؟".

قال قتادة:"يعني: بذلك اليهود والنصارى أنهم يجدون محمدا ﷺ مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل أنه رسول الله ﷺ".

قال قتادة:"كانوا: يعلمون أنهم يجدونه مكتوبا عندهم".

عن مجاهد قوله: "{عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، قال: عبد الله بن سلام وغيره من علمائهم".

عن ابن جُرَيج: "{أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً} قال محمد: {أَنْ يَعْلَمَهُ}، قال: يعرفه، {عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، قال ابن جُرَيج، قال مجاهد: علماء بني إسرائيل: عبد الله بن سلام، وغيره من علمائهم".

قال ابن عباس:"كان عبد الله بن سلام من علماء بنى إسرائيل، وكان من خيارهم،

=

=

فآمن بكتاب محمد ﷺ، فقال لهم الله: أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل وخيارهم".

وعن عطية، " {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}، قال: كانوا خمسة أسد، وأسيد، وابن يامين، وثعلبة، وعبد الله بن سلام".

وفي مصحف ابن مسعود: «أو ليس لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل».

قوله تعالى: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ} [الشعراء: ٢٠١]، أي:"لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية".

قال الطبري: يقول: "ولو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم التي لا تنطق".

قال ابن كثير:"ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، مِمَّنْ لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٤، ١٥] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [الأنعام: ١١١]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧]".

قال الزجاج:"«الأعجمين»: جمع أعجم، والأنثى عجماء، والأعجم الذي لا يفصح، وكذلك الأعجمي، فأما العجمي فالذي من جنس العجم، أفصح أو لم يفصح".

قال السمعاني:"الفرق بين العجمي والأعجمي، أن العجمي هو الذي ينسب إلى

=

=

العجم وإن كان فصيحا، والأعجمي هو الذي لا يفصح بالعربية وإن كان عربيا".

عن محمد بن أبي موسى، قال: "كنت واقفا إلى جنب عبد الله بن مطيع بعرفة، فتلا هذه الآية: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، قال: لو نزل على بعيري هذا فتكلم به ما آمنوا به {لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ} حتى يفقهه عربيّ وعجميّ، لو فعلنا ذلك".

وفي رواية أخرى:"كان عبد الله بن مطيع واقفا بعرفة، فقرأ هذه الآية: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} قال: فقال: جملي هذا أعجم، فلو أُنزل على هذا ما كانوا به مؤمنين".

عن محمد بن أبي موسى قال: "سئل عبد الله بن مطيع، عن قول الله: {ولو نزلناه على بعض الأعجمين}، قال يحيى: وكان النبي ﷺ: يسمي البهائم العجم، أو من العجم".

عن مجاهد: "{لو نزلناه على بعض الأعجمين}، قال: دواب العجم".

قال قتادة:"يقول: لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أضر الناس فيه لا يفهمونه ولا يدرون ما هو".

وعن قتادة، قوله: "{وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ}،:قال: لو نزله الله أعجميا كانوا أخسر الناس به، لأنهم لا يعرفون بالعجمية".

قال الطبري:"وهذا الذي ذكرناه عن قتادة قول لا وجه له، لأنه وجَّه الكلام أن معناه: ولو أنزلناه أعجميا، وإنما التنزيل {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ}، يعني: ولو نزلنا هذا القرآن العربي علي بهيمة من العجم أو بعض ما لا يفصح، ولم يقل: ولو نزلناه أعجميا. فيكون تأويل الكلام ما قاله".

قوله تعالى: {فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢٠١]، أي:"فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة، وانضم إعجاز القرآن إلى إعجاز المقروء ما

=

=

آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم".

قال الطبري:"يقول: فقرأ هذا القرآن على كفار قومك يا محمد الذين حتمت عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجم ما كانوا به مؤمنين. يقول: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء، وهذا تسلية من الله نبيه محمدا ﷺ عن قومه، لئلا يشتد وجدُه بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن، لأنه كان ﷺ شديدا حرصه على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه ربه على شدّة حرصه على ذلك منهم، فقال له: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} ثم قال مؤيسه من إيمانهم وأنهم هالكون ببعض مثلاته، كما هلك بعض الأمم الذين قص عليهم قصصهم في هذه السورة. ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا محمد لا عليك، فإنك رجل منهم، ويقولون لك: ما أنت إلا بشر مثلنا، وهلا نزل به ملك، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق، وأنه تنزيل من عندي، ما كانوا به مصدقين، فخفض من حرصك على إيمانهم به".

قال مجاهد:"{فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين} لا يؤمنون كما لا يؤمن دواب العجم، لو قرئ عليهم ما كانوا به مؤمنين".

عن مجاهد: "{فقرأه عليهم} محمد ﷺ".

عن الأوزاعي، قال: "سمعت في قول الله: {ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين}، لأنه لو أنزله على بعض الأعجمين ما كانوا ليؤمنوا به وهم يجدونه في زبر الأولين أنه يبعث بلسان عربي".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} [الشعراء: ٢٠٠]، أي:"كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، فسمعوا به وفهموه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه".

=

=

قال الطبري:"كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين".

قال الزجاج:"أي: سلكنا تكذيبهم به في قلوبهم، جعل الله ﷻ مجازاتهم أن طبع على قلوبهم وسلك فيها الشرك".

عن ابن جُرَيج، قوله: "{كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ}، قال: الكفر {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}".

عن الحسن، في هذه الآية: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، قال: خلقناه".

عن حميد، قال: "سألت الحسن في بيت أبي خليفة، عن قوله" {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، قال: الشرك سلكه في قلوبهم".

عن سعيد بن جبير في قوله: "{كذلك}، يعني: هكذا".

عن قتادة، " {كذلك سلكناه}، قال: جعلناه".

عن أنس بن مالك في قوله: {كذلك سلكناه في قلوب المجرمين}، قال: الشرك".

وروي عن الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك.

وقال أنس بن مالك:"سلكه في قلوب المشركين".

عن ابن عباس، " {المجرمين}: الكفار".

عن موسى بن عبد العزيز، قال: "سألت الحكم بن أبان قلت له قوله: {كذلك سلكناه في قلوب المجرمين}، قال: حدثني عكرمة قال: القسوة".

قوله تعالى: {لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [الشعراء: ٢٠١]، أي:"لا يصدّقون بالقرآن مع ظهور إعجازه حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان".

قال الطبري:"يقول: فعلنا ذلك؛ بهم لئلا يصدّقوا بهذا القرآن، حتى يروا العذاب

=

=

الأليم في عاجل الدنيا، كما رأت ذلك الأمم الذين قص الله قصصهم في هذه السورة".

قال السمعاني:"{لا يؤمنون به}، أي: بالقرآن، {حتى يروا العذاب الأليم} أي: عند نزول البأس".

قال ابن كثير:"{لا يُؤْمِنُونَ بِهِ}، أي: بالحق {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}، أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار".

قال الزجاج:"أخبر ﷻ أنه لما سلك في قلوبهم الشرك منعهم من الإيمان".

عن قتادة، " {لا يؤمنون به}، قال: إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم ألا يؤمنوا به".

قال السدي:"يقول: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ".

قال ابن زيد:"هي كما قال: هو أضلهم ومنعهم الإيمان".

قوله تعالى: {فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [الشعراء: ٢٠٢]، أي:"فينزل بهم العذاب فجأة، وهم لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه".

قال السمعاني:"أي: فجأة، وهم لا يعلمون".

قال ابن كثير:"أي: عذاب الله بغتة".

قال الزجاج:"معنى «بغتة»: فجاءة".

قوله تعالى: {فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ} [الشعراء: ٢٠٣]، أي:"فيقولون عند مفاجأتهم به تحسُّرًا على ما فاتهم من الإيمان: هل نحن مُمْهَلون مُؤخَّرون؛ لنتوب إلى الله مِن شركنا، ونستدرك ما فاتنا؟".

قال السمعاني:"أي: مؤخرون".

قال ابن كثير:"أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا [من فزعهم بطاعة الله، كما قال تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ

=

=

مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم: ٤٤]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندمًا شديدًا هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٨، ٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم، {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩٠، ٩١]، وقال: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} [غافر: ٨٤، ٨٥] الآية".

قوله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)} [الشعراء: ٢٠٤]

أَغَرَّ هؤلاء إمهالي، فيستعجلون نزول العذاب عليهم من السماء؟

سبب النزول:

قال مقاتل:"فلما أوعدهم النبي ﷺ العذاب، قالوا فمتى هذا العذاب تكذيبا به، يقول الله- ﷻ-: {أفبعذابنا يستعجلون}".

قال يحيى:"قال الله: {أفبعذابنا يستعجلون} على الاستفهام، أي: قد استعجلوا به لقولهم: {ائتنا بعذاب الله} [العنكبوت: ٢٩] وذلك منهم استهزاء وتكذيب بأنه لا يأتيهم العذاب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفبعذابنا هؤلاء المشركون يستعجلون بقولهم: لن نؤمن لك حتى {تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا}".

قال ابن كثير:"إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ} [العنكبوت: ٢٩]، كما قال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

=

=

بِالْعَذَابِ} الآية. [العنكبوت: ٥٣]".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (١٩٧) ولو نزلناه على بعض الأعجمين (١٩٨) فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (١٩٩) كذلك سلكناه في قلوب المجرمين (٢٠٠) لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم (٢٠١) فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٢٠٢) فيقولوا هل نحن منظرون (٢٠٣) أفبعذابنا يستعجلون} [الشعراء: ١٩٧ - ٢٠٤].

قال المصنف رحمه الله: [{أولم يكن لهم} لكفار مكة {آية} على ذلك {أن يعلمه علماء بني إسرائيل} كعبد الله بن سلام وأصحابه من الذين آمنوا فإنهم يخبرون بذلك، و (يكن) بالتحتانية ونصب آية، وبالفوقانية ورفع آية: {ولو نزلناه على بعض الأعجمين} جمع أعجم، {فقرأه عليهم} كفار مكة {ما كانوا به مؤمنين} أنفة من اتباعه، {كذلك} أي مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجمي {سلكناه} أدخلنا التكذيب به {في قلوب المجرمين} كفار مكة بقراءة النبي، {لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم (٢٠١) فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون (٢٠٢) فيقولوا هل نحن منظرون} لنؤمن فيقال لهم لا فقالوا متى هذا العذاب، قال تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون}].

قوله: [{أولم يكن لهم} لكفار مكة {آية} على ذلك]، يعني: علامة على أنه حق {أن يعلمه علماء بني إسرائيل}.

وقوله: {آية} بالنصب خبر {يكن} مقدما، و {أن يعلمه} اسمها مؤخر، يعني: {أن يعلمه} أي: علمه، من {علماء بني إسرائيل}، فبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق، الذين تفرعوا منه، وهذا من الآيات البينة على أنه مذكور في الكتب السابقة وأن علماء بني إسرائيل يعلمونه؛ لأنه لو لم يكن مذكورا في كتبهم، ما علموه، وإنما يعلمونه لأنه مذكور في كتبهم.

=

=

وفي هذه الآية دليل على أن المرجع في مثل هذه الأمور إلى العلماء أهل العلم.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن آمنوا؛ فإنهم يخبرون بذلك]، هذا ليس بلازم؛ لأن كونهم يعلمون به فهم عالمون سواء أخبروا أو لم يخبروا، ولذلك القرآن ما قال: (أولم يكن لهم آية أن يخبر به) بل قال: {أن يعلمه} ومجرد علم هؤلاء به هو آية وإن لم يخبروا به.

ونقول: إن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن آمن، هم من علماء بني إسرائيل، فعلموا وأخبروا، وغيرهم من العلماء الذين لم يؤمنوا علموا ولكنهم لم يخبروا.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وبالفوقانية ورفع (آية)] وعليه يكون: {أن يعلمه} خبر (تكن)، و (كان) في القراءتين ناقصة.

قوله: {ولو نزلناه على بعض الأعجمين} هذا اللسان العربي، سواء بلسان العرب أو بغيره: {فقرأه عليهم} ما آمنوا به، فالمعنى أنهم لم يؤمنوا سواء جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو من صميم العرب، ويعرفونه، أو جاء من رجل أعجمي؛ ذلك لأنهم معاندون، والمعاند - والعياذ بالله - لو جيء بكل آية ما آمن؛ لأنه فرق بين الإنسان الذي يتحرى الحق، والإنسان الذي يعاند الحق.

فالمعاند المكابر يصعب عليه أن يرجع إلى الحق، والمعنى أنه لو نزل الله هذا القرآن على بعض الأعجمين إن كان بلغتهم؛ فإنهم لن يؤمنوا به؛ لأنهم لم يفهموه، وهو بلغة العجم، وإن كان باللغة العربية ما آمنوا أيضا؛ أنفة من أن يتبعوا رجلا أعجميا.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{كذلك} أي: مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجمي، {سلكناه} أدخلنا التكذيب به {في قلوب المجرمين} كفار مكة لقراءة النبي {لا يؤمنون به}]. {كذلك} أي: مثل ذلك الإسلاك أو السلك، والمراد بالسلك: الإدخال، و (كذلك) مفعول مطلق لـ {سلكناه} يعني: مثل ذلك، وهي تأتي دائما

=

=
في القرآن: {كذلك فعل}، {كذلك كذب} وما أشبههما.
فيقولون: إن الكاف اسم بمعنى (مثل)، وهي مضافة إلى اسم الإشارة العائد على المصدر المفهوم من الفعل.
وعليه فيكون إعراب الكاف: اسم بمعنى (مثل)، مفعولا مطلقا، عاملها الفعل الذي بعدها. يعني: إن الله جل وعلا أدخل التكذيب في قلوب المجرمين، والمراد بالمجرمين ما هو أعم من كفار مكة، خلافا لما قال المصنف، فالمجرم كافر، سواء كان من أهل مكة أو من غيرها.
ولما دخل التكذيب في قلوبهم والإستكبار: {لا يؤمنون به} إلى آخره.
وليس في هذه الآية حجة لأهل الكفر والمعصية، الذين قالوا: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} [الأنعام: ١٤٨]؛ لأن الله سبحانه وتعالى بين في آية أخرى أن سبب كفرهم وشركهم هو أنهم كانوا لا يريدون الحق، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولو كانوا يريدون الحق لشرح الله صدورهم له، لكنهم عندهم - والعياذ بالله - أنفة وكبرياء وغطرسة، فلذلك حرموا من الوصول إلى الصواب.
قوله: {لا يؤمنون به} أي: بالقرآن، وإذا قلنا: إن {المجرمين} عام فإن {لا يؤمنون به} أي: بما نزل من عند الله.
وقوله: {حتى يروا} للغاية، والمعنى: إنهم إذا رأوا العذاب الأليم فقد يؤمنون، ولكن يقول الله ﷻ: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} [غافر: ٨٥]، وقوله: {فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون} هذا هو الغالب على المكذبين المعاندين أن الله يملي لهم فيوغل - والعياذ بالله - في الكفر وفي الفسق وفي المعصية، حتى إذا جاءهم العذاب أتاهم بغتة على غرة، كما قال الرسول ﷺ: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"؛ لأن هؤلاء لو أن الله سبحانه وتعالى أذاقهم البأس شيئا فشيئا لربما آمنوا ورجعوا، ولكنه - والعياذ بالله - يمهلهم، حتى إذا وصلوا إلى
=

=

قمة الكفر والفسق أخذوا.

وهذا شيء مشاهد حتى في عصرنا الحاضر، فنرى بعض البلاد لما أوغلت في الكفر ووصلت إلى غايته أخذت والعياذ بالله.

قال: {فيقولوا هل نحن منظرون} قال المصنف: [لنؤمن؟ فيقال لهم: لا، قالوا: متى هذا العذاب؟ قال الله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون}]، يعني أنه إذا أتاهم العذاب بغتة يقولون: {هل نحن منظرون}؟ وهذا الإستفهام للتمني؛ أي: ليتنا ننظر، هذا هو الظاهر.

والمصنف حمله على ظاهره؛ على أنه الإستفهام الإستخباري، ولهذا قال: [فيقال لهم: لا] يعني: لن تنظروا، ولكن إذا جعلناه للتمني - أنهم يتمنون أن ينظروا - لما احتاج إلى جواب.

قال الله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون} الهمزة في مثل هذا التركيب إما أنها داخلة على جملة مقدرة بحسب السياق، أو أنها داخلة على الجملة الموجودة.

وقوله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون} هذا من باب التوبيخ والإنكار عليهم، يعني: أيستعجلون بعذاب الله وهو سبحانه وتعالى قريب الأخذ، فهو ينكر عليهم هؤلاء الذين يستعجلون بعذاب الله.

وكيفية استعجالهم بالعذاب، هل هو بالفعل أم بالقول؟

نقول: بالقول وبالفعل، أما القول فإنهم يقولون: {متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} [يونس: ٤٨]، وأما الفعل فإن إيغالهم بالكفر والمعاصي موجب بأن يعاجلوا بالعقوبة، فصار هذا الإنكار عليهم، سواء كانوا يستعجلون قولا - كما قال المصنف، قالوا: متى هذا العذاب؟ - أو كانوا يستعجلون فعلا، بأن يوغلوا ويتعمقوا في الكفر والمعاصي؛ فإن ذلك من استعجال عقوبة الله.

الفهرس

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦). ٥
وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧). ٨
أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨). ٩
انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩). ١٨
تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا (١٠). ٢٢
بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١). ٢٨
إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢). ٣١
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣). ٣٤
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤). ٣٤
قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥). ...٣٩
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦). ٣٩
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧). ٥٠
قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨). ٥١
فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩). ٥١

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠). ٨٥
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١). ٩٥
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢). ... ٩٥
وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣). ٩٦
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤). ٩٦
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥). ١١٦
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦). ١٢٣
وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧). ١٢٨
يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨). ١٣٩
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩). ١٤٢
وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠). ١٤٦
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١). .. ١٥٧
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢). ١٦٠
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣). ١٦٩
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤).. ١٧٢
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥). ١٧٦
فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَىٰ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦). ١٧٨
وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا

أَلِيمًا (٣٧). ١٨١
وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨)..... ١٨٩
وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)..... ١٩٩
وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَىٰ الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)..... ٢٠٣
وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا (٤١). ٢١٥
إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢). ٢١٦
أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣). ٢٢٣
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤). ٢٣٣
أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥). ٢٦٢
ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)..... ٢٦٣
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)..... ٢٧٣
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨). ٢٧٩
لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩). ٢٩٩
وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠). ٣٠٥
وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١)..... ٣٠٩
فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)..... ٣٠٩

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣). ٣١٤
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤). ٣٢٢
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥). ٣٢٦
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦). ٣٣٠
قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧). ٣٣٢
وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨). ٣٣٥
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩). ٣٣٨
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠). ٣٥٣
تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١). ٣٦١
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢). ٣٦٦
وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣). ٣٧١
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤). ٣٧٨
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥). ٣٨٠
إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦). ٣٨٢
وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧). ٣٨٣

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨). ٣٨٩
يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)..... ٣٨٩
إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠)..... ٤٠٧
وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ مَتَابًا (٧١)..... ٤٣٣
وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢). ٤٤٠
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣). ٤٤٨
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤). ٤٥٢
أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥)..... ٤٦٧
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)..... ٤٧٠
قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧). ٤٧٢
سُورَة الشُّعَرَاء ٤٧٨
بسم الله الرحمن الرحيم ٤٨٣
طسم (١). ٤٨٣
تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ٤٨٣
لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣). ٤٨٣
إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)..... ٤٨٣
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥). ٤٨٣
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦). ٤٨٣

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧). ٤٨٤
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨). ٤٨٤
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)..... ٤٨٤
وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠). ٥١٠
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١)..... ٥١٠
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢). ٥١٠
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣)..... ٥١١
وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)..... ٥١١
قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥). ٥١١
فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦). ٥١١
أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧). ٥١١
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨). ٥٣١
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩). ٥٣١
قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠). ٥٣١
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)... ٥٣١
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)..... ٥٣١
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣)..... ٥٣٢
قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤). ٥٣٢
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥). ٥٣٢
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦)..... ٥٣٢
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧). ٥٣٢

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)..... ٥٣٢
قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)..... ٥٣٢
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠)..... ٥٣٣
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١). ٥٣٣
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢). ٥٣٣
وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣). ٥٣٣
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)..... ٥٣٣
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)..... ٥٣٣
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦). ٥٧١
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)..... ٥٧١
فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨)..... ٥٧١
وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩). ٥٧١
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠). ٥٧١
فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١). ٥٧١
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢). ٥٧١
قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣). ٥٨٤
فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤). ٥٨٤
فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥). ٥٨٤
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦). ٥٨٤
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧). ٥٨٤
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨)..... ٥٨٤

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩). ٥٨٤
قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠)..... ٥٨٥
إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١). ٥٨٥
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢). ٦٠٨
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣). ٦٠٨
إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤). ٦٠٨
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)..... ٦٠٨
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦). ٦٠٨
فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧)..... ٦٠٩
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨). ٦٠٩
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩). ٦٠٩
فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠)..... ٦٠٩
فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١). ٦٠٩
قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢). ٦٠٩
فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣). ٦٠٩
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤). ٦١٠
وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥)..... ٦١٠
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦). ٦١٠
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧)..... ٦١٠

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨). ٦١٠
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩). ٦٤٩
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠). ٦٤٩
قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١). ٦٥٠
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢). ٦٥٠
أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣). ٦٥٠
قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤). ٦٥٠
قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥). ٦٥٨
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦). ٦٥٨
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧). ٦٥٨
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨). ٦٥٩
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩). ٦٥٩
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠). ٦٥٩
وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١). ٦٥٩
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢). ٦٥٩
رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣). ٦٥٩
وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤). ٦٥٩
وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥). ٦٥٩
وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦). ٦٥٩
وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧). ٦٦٠
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) ٦٦٠

إِلَّا مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)..... ٦٦٠
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)..... ٦٨٠
وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)..... ٦٨٠
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢)..... ٦٨٠
مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣)..... ٦٨٠
فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)..... ٦٨٠
وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥)..... ٦٨١
قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦)..... ٦٨١
تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧)..... ٦٨١
إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)..... ٦٨١
وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)..... ٦٨١
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠)..... ٦٨١
وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)..... ٦٨١
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)..... ٦٨١
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣)..... ٦٨١
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)..... ٦٨٢
كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)..... ٧٠٣
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)..... ٧٠٣
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)..... ٧٠٣
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)..... ٧٠٣
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)..... ٧٠٣

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠). ٧٠٣
قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)..... ٧٠٣
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢). ٧٠٤
إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)..... ٧٠٤
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)..... ٧٠٤
إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥). ٧٠٤
قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦). ٧٠٤
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧). ٧٠٤
فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)..... ٧٠٤
فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩). ٧٠٤
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠). ٧٠٤
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١)..... ٧٠٥
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢). ٧٠٥
كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣). ٧٤١
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) ٧٤١
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥)..... ٧٤١
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦). ٧٤١
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧)..... ٧٤١
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)..... ٧٤٢
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ٧٤٢
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ٧٤٢

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) ٧٤٢
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) ٧٤٢
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣). ٧٤٢
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤). ٧٤٢
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥). ٧٤٢
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦). ٧٤٢
إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧). ٧٤٣
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨). ٧٤٣
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)..... ٧٤٣
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ٧٤٣
كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)..... ٧٧١
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢). ٧٧١
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ٧٧١
أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦)..... ٧٧١
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧)..... ٧٧١
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨). ٧٧١
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)..... ٧٧١
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠). ٧٧١
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١). ٧٧٢
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢). ٧٧٢
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣)..... ٧٧٢

مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)..... ٧٧٢
قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)..... ٧٧٢
وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)..... ٧٧٢
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧)..... ٧٧٢
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)..... ٧٧٢
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)..... ٧٧٢
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠)..... ٨٠٣
إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١)..... ٨٠٣
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣)..... ٨٠٣
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)..... ٨٠٣
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)..... ٨٠٤
أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)..... ٨٠٤
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)..... ٨٠٤
قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧)..... ٨٠٤
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨)..... ٨٠٤
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)..... ٨٠٤
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠)..... ٨٠٤
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١)..... ٨٠٤
ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢)..... ٨٠٤
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)..... ٨٠٤
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)..... ٨٠٥

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥). ٨٠٥
كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦)..... ٨٢١
إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧). ٨٢١
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨)..... ٨٢١
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩). ٨٢١
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)..... ٨٢١
أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)..... ٨٢١
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢). ٨٢٢
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣). ٨٢٢
وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤). ٨٢٢
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)..... ٨٢٢
وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)..... ٨٢٢
فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧). ٨٢٢
قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨). ٨٢٢
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)..... ٨٢٢
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)..... ٨٢٣
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١). ٨٢٣
وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢). ٨٤٣
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)..... ٨٤٣
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤). ٨٤٣
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥.) ٨٤٣

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦). ٨٤٣
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧). ٨٥٠
وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨). ٨٥٠
فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩). ٨٥١
كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠). ٨٥١
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١). ٨٥١
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢). ٨٥١
فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣). ٨٥١
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤). ٨٥١
الفهرس ٨٦٤